الألف كتاب (٣٦)

بسمارك

تأليف
اميل لودفيج

ترجمة
محمود ابراهيم الدسوقي

مراجعة
الدكتور محمد عوض محمد

مكتبة بغداد

نشرته
دار الهلال
١٩٥٦

«ان الباهر الأخاذ فوق هذه الأرض ..
قريب الصلة دائما بالملك الهابط الجميل ،
الذى لا يعرف السكينة ، الجليل الذى
لايعرف فى تدبيره وجهده توفيقا ، الفخور
الحزين »

بسمارك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عنوان الكتاب بالألمانية :

BISMARCK

VON

EMIL LUDWIG

« أشرف على الترجمة قسم الترجمة بالادارة العامة للثقافة »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعريف

عرفت اميل لودفيج فى مصر ، وجالسته ، وحادثته ، فعرفت فيه رجلا هادئا ، خافت الصوت ، عميقا ، قليل الكلام ، فاذا تكلم تأنى كثيرا واتئد أكثر مما ينبغى ، وخاصة حين يتكلم بلغة أجنبية ، فهو من هذه الناحية قد خيب أثناء زيارته لمصر ظنون الكثيرين ، ممن توقعوا منه التدفق والافاضة ، ولم يبهر سامعيه . سمعه فى حفلة أقيمت لتكريمه فى القاهرة عالم أديب مصرى كبير فأعرب عن خيبة أمله فيه . والواقع الذى لا ينبغى أن يغفل فى الحكم عليه هو أنه متواضع حيى ، لايحسن الفرنسية ، لغة المجتمع الذى عنى اذ ذاك بتكريمه . وللفرنسية مزاج وتوثب ، ليس شىء منهما لاميل لودفيج ، لا ولاته ما تلحظه فى الناطق بالالمانية من وطأة النبرة ، وتوكيد المقطع فى الكلمة ، والكلمة فى الجملة . وتلحظ الى هذا الهدوء والحياء من اميل لودفيج عطفا نادرا تحيطه به زوجه ، وحيوية ونشاطا فيها يتباينان مع هدوئه وحيائه . وقد اشتهر اميل لودفيج بتاريخ السيرة ، فاستفاضت شهرته ، وأحب من بهرتهم عقلية زوجه أن ينسبوا اليها فضل الكثير مما كتب ، فأخطأوا فى حقه ، فان كتاباته الفياضة لتنم عن وحدة الكتابة لا الشركة ، وانك لترى هذا الكاتب الواحد فى كل ماكتب . أجاد فبلغ الذروة ، وأجاد فالتزم الهضبة ، لكنه لم يهبط فيما قرأت له ، ولم يغم بروزه ، او تغم براعته ، ولم يجمح به تعقيبه ، فهو فى بسمارك معقب بارع على معقب بارع ، لايخرج عن الجادة التى التزم ، والحد الذى لزم . فكتابته من ثم مركزة ، وعبارته عويصة يكتب بها عن عويص هو بسمارك ، لا يلتزم المألوف والعرف فى اللغة ، ويتحرر شأن الشعراء من بعض المستلزمات النحوية . وقد قلت عنه فى مقدمة « نابليون » — وأحب هنا أن أقتبس ما قلت — انه : « محلل بارع ، دقيق ، وعملية تحليله تتمثل فى عملية تعبيره ، فهو يشرح ولا يشرح ، فاذا عرض عليك نتيجة تشريحه تكلم بلغة الفن ، فعدد العناصر ، ورتب النتائج ، وانتهى من ذلك فى لمح البرق . ومن هنا يطول الوقوف والتأمل عند عباراته . فالعابر بها لايسلم من اساءة الفهم ، ولو كان من أبناء لغته ، يقرأ له بلغته

« أن أسلوب لودفيج عرض خاطف لصور حية تمر بخاطرك مرا . وأنت معه لا تعرف ماضيا ، بل ترى حاضرا تعيش فيه مع شخصياته ، تحبها أو تبغضها حبا او بغضا من عمل الساعة ، وتتحمس لاعمالها او تستهجنها

وكأنها تمسك فى الصميم . وهو وصافه . ووصفه من قبيل اللمحات الكشافة : تظهرك فى لحظة على كل شيء . يغوص الى الأعماق ، ويطوف بجنباتها ، ويفتش عن الدقيق المستكن ، ويقلب النفس ظهرا لبطن ، فكأنك معه تطلع على الغيب . تلمح عطفه على شخصياته مع تجريحها احيانا . وقد عطف على نابليون أشد العطف ، وكشفه أجلى كشف »

كذلك عطف على بسمارك وكشفه مع ذلك ، فدافع عنه ظلم المأثور ، وعرض صوره صورة صورة : عرضه فتى مستهترا ، يخرج الى الشارع وهو طالب يروب البيت وعلى رأسه طاقية ، مشاكسا يدعو الى المبارزة كل من يخال أنه أهانه ، يشرب الخمر ويسرف على نفسه ، ويجرى وراء النساء ، وبفعل ما بفعل ابناء النبلاء الذين يعتمدون على دخلهم وضياعهم . لايهوى العمل ، ولا يطيق الدربة ، ولا يزاول وظيفة ، فاذا زاولها لا يبقى فيها طويلا . مغرم بالقراءة والكتابة مسرف فيهما ، فهو مطلع واسع الاطلاع ، وكاتب خبير بالنفس البشرية . فكيف انقلب هذا الحائر البائر حاسبا دقيق الحساب ، طموحا يصبح سفيرا طفرة ، ووزيرا لم يشتغل من قبل بشئون الادارة ؟ سيدلك اميل لودفيج على هذا كله ، وعلى العجيبة الكبرى : أن يصبح بسمارك فيصل أوربا وسائسها المجلى

وقد ترجمت له مما كتب : « نابليون » و « بسمارك » لانهما خير كتبه ، وخير الاثنين « بسمارك » . سمعت فيه أخيرا رأى المانى مهنته الثقافة ، لا مجرد الاهتمام بها ، قال : ان اميل لودفيج زاد الألمان معرفة ببسمارك ونشر عنه من الوثائق ما خفى كثيره عنهم . ورأيت أنا فيه وانا اقرأه ، ثم أترجمه ، ثم أصحح تجاربه ، أنه يعرض شريطا سينمائيا للسياسى الأشهر ، هو فيه كوكبه وممثله ، والكلام فيه كلامه ، تتسلسل فيه حوادثه تسلسلا عجيبا فليست فيه حلقة مفقودة

لقد مات اميل لودفيج من سنوات مضت . مات بعد أن كتب عن مصر والمانيا ، ورضى عن كثير مما كتب ، ولم يرض عن بعضه ، وكذلك كان رأى الناس فيما كتب . كتب عن جوته ونابليون وبسمارك وغليوم الثانى ، وكتب عن السيد المسيح وعن النيل ، فكان فى كتاباته منصفا أكثر منه متحاملا ، وان برزت ميوله العنصرية أحيانا ، وافكاره الاشتراكية أحيانا أخرى . لكنه مع هذا استحق الخلود

محمود ابراهيم الدسوقى

القاهرة فى التاسع من مارس ١٩٥٦

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقدمة

بقلم اميل لودفيج

فارس مدجج فى سلاحه يبزغ من غبش كغبش الصبح ، فهو غامض واضح وكأنه صورة رسمها رامبرانت . ذلك هو بسمارك ، أو ذاك ماينبغى أن يوصف به ، عصفت من حوله بغضاء الاحزاب منذ ثمانين عاما ، ولم يحبه الناس فى حياته كثيرا ، لانه كان قليل الحب للناس . فلما مات بات فى حكمهم تمثالا ، ذلك أن دخيلته لبثت خافية مستعصية ، حتى أصبح بين الألمان صنوا لرولان ⁕ لكنه صنو من حجر .

ومهمة هذا الكتاب ان يقدم صورة مجاهد ظافر ضال ، وان يعرض خلقا مفعما بالكبرياء والجراة والبغضاء ـ تلك العناصر الاساسية التى تصدر عنها افعاله ، واليوم ، وفريق فى الأمة يكرمه لأنه من أنصاره ، وفريق آخر ينحى عليه ، ينبغى أن نغوص فى تاريخ نفسه الى القرار ، فبسمارك قد رهن بشخصه مصير الألمان فيجب أن تتبين الأمة خلق هذا الرجل كيف كان ، لا كيف صوره التبجيل أو شوهته البغضاء

والرجل التاريخى اعقد تركيبا من نظامه وأشد تعقيدا من تمثاله ، وبدلا من تصعيب الوصف بالملاحظات ، والجرى فى ذلك على الطريقة الأكاديمية ، نريد أن نساير عصرنا فنجعل الشخصيات العامة فى متناول الجميع كأنموذج وانذار . والانسان والسياسى لاينفصلان . والمشاعر والاعمال يؤثر بعضها فى بعض ، والحياة الخاصة والحياة العامة تجريان معا . وصوغ تمثال كامل من النتائج التى ينتهى اليها الباحث هو مهمة الفنان

لقد تم تنشؤ بسمارك وتكوينه النفسى فى مستهل الحلقة الرابعة تقريبا . فالى ذلك الحين ظل خمسة عشر عاما يتحمل أشد الزعازع ، ثم جاء ماثلا ذلك معمقا لمشخصاته . ومن ثم وجب ان نسهب فى وصف صباه حيث اوجزت كل التراجم تقريبا ، فأفردت له بضع صفحات . ذلك ان صباه هو بالذات تلك المرحلة التى لم تدخلها السياسة من مراحل عمره

⁕ بطل من أبطال القرون الوسطى. خلد فى الشعر الشعبى الفرنسى فى أغنية رولان

ورسم صورة نفسية لبسمارك لم يتم الا لكلين ــ هاتنجن فى نطاق الوثائق التى تيسرت له . بيد ان هذه الصورة اسىء فهمها . وفى سنة ١٩١١ قمت فى « محاولة سيكولوجية » بمعارضة أسطورة المستشار الحديدى ، فعرضت طبيعته العويصة ، وبعد ذلك بعشر سنوات حاولت أن أحرك بسمارك على خشبة المسرح الالمانى من طريق الدراما فى ثلاثية روائية

وتختلف الصورة الجديدة عن محاولتى السابقة البعيدة من السياسة ، كل الاختلاف . فكما أن الكتاب القديم لاتكرره فى الجديد أية جملة ، كذلك يعرض هذا الكتاب عين الشخص فى ضوء جديد . ولم نحتفظ هنا بسوى الفكرة الاساسية عن هذه الشخصية العويصة . وقد استلزم العصر بما تبين من علاقات مابعد الحرب ، ومانشر من وثائق ومذكرات حاسمة ، كما استلزم اخيرا تنشؤ المؤلف من الناحية الشخصية ، أن نعرض شخصية بسمارك عرضا جديدا أكثر تدقيقا

وقد بات الغامض الواضح حول شخصية بسمارك بعد هذه الاطلاعات اكثر تشويقا . فمن لايطلب تمثال مجاهد بل يبحث عن سيرته ، فذلك الذى يقف مشدوها امام هذه الحياة التى كانت دواما جهادا ، وحينا نصرا ، وابدا حمية ، وغالبا حكمة ، واحيانا خطأ ، ولم تكن قط رضى ، ثم كانت مع ذلك حين الفتنة والغرور حياة بارعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتاب الأول

الضّال

« بسمارك طبيعة تستهلكها الحياة
لكن الراحة تقتلها »

ا . كيزرلنج

الفصل الأول

في الروضة الصيفية ، تحت ظـلال البلوط العتيق ، يلعب غلام اشـقر ، ربعة ، ذو عينين متهللتين ، داكنتين .. انه في الرابعة من عمره ، لكن من يراه وهو يضرب الارض بفأسه ، ويحمل ترابها عربة يد ، ثم يفرغها هناك عنـد البركة ، حيث يبنى قصرا من التراب والحجارة ، يمكن ان يحسبه في السادسة ، لما يبديه من قوة في ممارسة هذا العمل . فاذا ما اتى البستاني يبغى اصطحابه الى المائدة ، مانع وغضب

والبيت بسيط من بيوت السادة وادنى الى ان يكون كبيوت الموسرين من القرويين . غير أن وسطه الذى تنفتح عليه خمس نوافذ ، تعلوه طبقة ، ويمتد باقيه الى الارض المنبسطة . كل شيء في البيت اطار وزجاج ، هادىء ، عاطل من الزينة . وحين يطل الغلام من النافذة من الطبقة العليا يترامى لناظره القمح الأصفر ساكنا لا يسمع له صوت .. الا أن تهب الريح على بوميرانيا ، فعندئذ تميل رؤوس السنابل المثقلة ، ويتموج الحقل ربى وأخاديد تعلو وتهبط

ويقول الاب حين يستصحب غلامه الى القرية « هذا كله ملكنا » ، ذلك انه ورث هنا في كنيبهوف ألفين من الأفدنة منذ عهد قريب ، فارتحل من ثم من سكسونيا ، من شينهوزن التالدة الى بوميرانيا الخلفية ، والغلام اذ ذاك قد أتم الحول

ويفكر الطفل وهو خارج مع أبيه : « هذا كله ملكنا » ، ذلك أن القرية والمزرعة كلتيهما واحدة . ليس فيها قرويون بل أجراء فحسب يتبعون الضيعة . وهم في أكواخهم الحقيرة وتحت سقوفها المبنية بالقش ارقاء اكثر مما يحبون ان يعتقدوا أو يعتقد سادتهم

يا حضرة النبيل !

وهنا مقطر الكونياك ، وهناك دكان الحداد ، وحين يتسلل الغلام الى البقر في زريبتها يقول له براند راعيها الهرم الذى يشرف على التسعين : « حاذر يا حضرة النبيل فقد ترفسك البقرة في عينك ثم لا تلحظ البقرة شيئا وتمضى في علفها ، وتتلف عينك ! » ويعاود الرجل المعمر : يا حضرة النبيل ! ويتكلم كلاما عاميا . ولن يزال بسمارك بعد سبعين عاما يذكر هذا الواقعي الطبيعي بما كان يقصه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليه من حكايات عن الملك فريدريك ولهلم الاول وقد رآه فى كوسترين رأى العين ، وذلك قبل فريدريك الاكبر بزمن طويل

وكذلك يعرف الاب ما يقصه على ولده حين يدخلان القاعة ذات النوافذ الثلاث فى يوم العيد ، فان بهذه القاعة صورا معلقة لبعض الأجداد عليها مهابة ، وفى نظراتها جمود ، وهى تطل من تحت الخوذ متقلدة السلاح فى أطرها المغبرة . وقد ساد اغلبهم حقا على نهر البه منذ اكثر من خمسمائة عام . وحين يقص الاب على ابنه الاكبر وهو فى التاسعة من عمره ما يجوز ان يفهمه ، ينصت الاصغر الى مايرويه الوالد . فماذا كان يسمع ؟ ان اجداده كانوا جميعا فرسانا كهؤلاء الذين تزدان بصورهم القاعة ، وانهم كانوا منذ قرون يسكنون القصور والدور ، ويقتنون العبيد ليفلحوا لهم الارض ، وانهم تقلدوا مناصب فى الشرطة والقضاء ، وكانوا منذ العهود الغابرة يجلسون فى الكنيسة على مقاعد مصنوعة من خشب البلوط بمنأى عن حشمهم وخدمهم كما لايزالون يفعلون اليوم فى هذا المكان

اجـداد

ولعل السيد فردينان فون بسمارك كان يروى كذلك ان هؤلاء الاجداد كانوا جد عنيدين ومتغطرسين اولئك الالتماركيين ، وانهم كانوا يترفعون عن التوجه الى البلاط ، وانهم كانوا غالبا من المتمردين . او لم يرغم احد الامراء الناخبين جدا له من قبل على النزول له عن اجمل الغابات فى مقابل شينهوزن فكان بهذا البدل من المغبونين ؟ كذلك تزعم الجد الاكبر معارضة الفرسان الالتماركيين قبل مائة عام حين جرؤ الملك على فرض ضريبة على اقطاعاتهم ، واحتج على هذا «الخفض لطبقة حرة من طبقات الفرسان الى مرتبة أسيفه هى مرتبة دافعى الضرائب» وقبل أن يموت الملك نبه ابنه فريدريك الصغير الى بيت بسمارك من بين بيوت أربعة مشاكسة عددها له ، ونعته بأنه أشرف هذه البيوت حسبا و « أردؤها » معا

وقد كان جد الغلام مدمنا للخمر شديد الادمان ، وصيادا ماهرا ، اصاب مرة ١٥٤ ايلا احمر فى سنة واحدة . والغلام اشبه به منه بغيره . اما الاب فلم يعد من رعيل الفرسان ، وكذلك كان الجد الذى نشر فى وفاة امرأته الصبية مرثية مؤثرة قبل ان تنشر « آلام فرتر » فافاض فى وصف الزوجة والزواج . وهذا المتتلمذ لروسو ، الذى اراد ان يجعل من ابنائه « اربعة رجال شرفاء فحسب » وكان ينعتهم بالاصدقاء ويسجل مع الغبطة رسائلهم البليغة ، كان يقتنى مكتبة كاملة تحتوى ما صنف العلماء . وقد اورث ابناءه الراحة العاطلة من الفعال والزهد فى الطموح . وخاض أبناؤه جميعا غمار الحرب ، لكنهم لم يغشوا البلاط ، وكانوا جميعا من العزاب يتبعون فى الحياة اسلوبهم الخاص

ولا عجب من ثم أن يخرج فردينان الذى يرى ولديه الآن فى كنيبهوف ، من الجيش بعد أول حرب ولم يزل فى الثالثة والعشرين ، فيحنق ملكه بذلك حنقا شديدا بلغ من شدته ان جرده من رتبة اليوزباشى وبذته ، وانه لم يردهما اليه

الا بعد زمان طويل . كذلك لم يعد ابو بسمارك الى الجندية فى احرج الاوقات : ففى سنة ١٨٠٦ عندما نزل الامبراطور فرانتس عن تاج الامبراطورية الالمانية تزوج ولم يضع المدرة ليجرد السيف ، لا فى معركة يينا ، ولا فى حرب التحرير ، مع انه كان يومئذ صحيح البدن ، يضرب فى حدود الاربعين

من أجل الأب

وهذا الاب ، ابو بسمارك ، الزاهد فى الحروب ، الجسيم ، الفكه ، القوى ، الفياض الشعور ، كابنه ، قد خاطبه فريتس الهرم وهو غلام : وهذا كل ما وسعه أن يرويه عن بروسيا من حكايات . وقد رباه ابوه المستنير نبيلا بكل معانى النبل ، وجنبه كل تحامل ، فاحتفظ فى الحياة بتوازن النفس . واذ هو سيد فى بيته ، لايكثر من السؤال ، تراه يخاطب أولاده وهم صغار بصيغة الغائب . يسير فى الحياة سيرة مرتجلة ، ناعما ، مستمتعا ، لا تشغله مزارعه ، ويديرها له مفتش كيفما اتفق . احب شىء اليه الصيد والخمر ، ذلك انهم جميعا من مدمنيها منذ قرون . وله رسائل ممتعة : «اليوم عيدميلاد اوتو . وقد نفق لنا الليلة تيس جميل . ما أردأ الجو .. أظن نبيذ الميدوك ونبيذ الرين لم تعد لهما الحميا الكافية ، ومن ثم عكفت على نبيذ بورتو البرتغالى والشيرى ، وارجو ان تتحسن الحال قريبا . كذلك لن اجعل القهوة القوية تنقصنى (ويلى ذلك المحار وكبد الأوز ألخ ..) وعلى الرغم من هذه الأطايب أمنع النفس ماتشتهى ، فمتى شاخ المرء لم يعد يطيب له شىء »

وكانت الزوجة التى اتى بها الى بيته وهو فى الخامسة والثلاثين ، حسناء فى السابعة عشرة من عمرها ، لكنه كان لها انف طويل وكانت لها عين اعقل مما ينبغى . وكانت خليقة بملامحها البارزة هذه ونظرتها العارفة ، ان ترى الخاطب اية عناصر تستكن فيها مما لايعرفه فى نفسه : حجى هادئا ، وطموحا يضطرم به دمها كله . ذلك أن آباءها ، وهم أسرة مينكن ، وقد كانوا قرنا من الزمان أساتذة فى القانون والتاريخ ، قد نموا اباها زهرة ، وجعلوا منه فخر هذا البيت المشتغل بالادب . فقد كان عضوا فى مجلس البلاط فى عهد فريدريك ، ثم رئيسا للمستشارية السرية . ثم غضب عليه واقيل من وظيفته فى سنة ١٧٩٢ فى ذات السنة التى غضب فيها نفس الملك على والد بسمارك . وهكذا لم يعاود مينكن مكانه الى جانب ثالث سيد خدمه الا عام ١٨٠٠ . وقد انتقد ديكتاتورية فريدريك الأكبر ، وطالب الملك بأن يتقيد ، وبأن يجعل الوزراء مسئولين ، وأثبت انه فى مطالبته بالاصلاح ضريب البارون فون شتاين الذى اشاد بنزعة مينكن القوية الى الافكار الحرة . وقد اورث ابنته فهمه وآراءه فكل شىء فيها قد كان مرده الى الفهم ، فكانت تحب المدينة والابهة والبلاط ، وكانت نقيض زوجها فى كل شىء . أراد أن يعيش وأن يكون موجودا فحسب ، وأرادت أن تظهر وأن يكون لها شأن

وقد ورث بسمارك عنها الفهم وورث ذكاءها الحاد الهادىء ، ورغبتها الملحة فى السلطان ، وهى رغبة لم تجد احدا قبله من آل بسمارك . لكنه كان مثالا من ابيه فى روحه وخلقه ، فحقق بذلك نظرية شوبنهور فى الجانبين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثانى

حين وضعت الام اوتو فون بسمارك بعد ابنها الاكبر بخمس سنوات كان الامبراطور نابليون قد عاد من البا ، وانفض مؤتمر فينا ، وعقدت بروسيا محالفتها الجديدة مع اوربا . وفى ٢ ابريل ١٨١٥ اصدر الامبراطور فى باريس منشورا ضد المحالفة . وفى صباح هذا اليوم بالذات استطاع اهل برلين ان يقراوا فى الفوسيشه تسايتونج نبا ميلاد الغلام يعلنه السيد فون بسمارك المقيم فى كنيبهوف . وقد أحس هذا الغلام مبكرا بخصومته للام . وكان وهو مايزال طفلا غريبا عنها . قد اعترف بعد ذلك بهذا لغرباء على الرغم من شعوره العائلى ، ولم تخرج من شفتيه فى مئات أحاديثه عن الأسرة كلمة طيبة قط عن هذه الام ، وكان وقد تقدمت به السن ما يزال يأخذها بأنها كانت مغرمة بالادب ، عزوفة عن شئون التربية . وكان يتحدث عنها حديثا مريرا : « فليس فيها شيء مما يسميه اهل برلين شعورا .. فكثيرا ما بدت لى قاسية على ، لايحدوها نحوى شيء من العطف . » ويرجع سببان من أسباب ضغينته الى حداثته ، فقد كانت الأم حين تستقبل الضيف شتاء فى برلين تقصى الأب عن فراشه لضيق المكان ، فلم يغفر لها ولدها ذلك قط . وحين تحدث مرة مباهيا بصورة جد لأبيه استبعدت الأم الصورة لتذل فخره بالنبل .. لحظات مخيفة لهذا الطفل ذات عواقب وخيمة

ضغينة مبكرة

وعزة النفس ، وهى الطبع المتحكم فى خلقه ، متأصلة فى اولى ذكريات حداثته فقد أبق مرة لما أساء أخوه معاملته ، ولم يعثر عليه الا تحت شجرة الزيزفون . ومرة اخرى اتخذ مجلسه بين جماعة من الضيوف فى احد اركان البيت فسمع العديدين يتساءلون بالفرنسية : « لعل هذا من أبناء البيت أومن بناته » فقال فى جراة متناهية : « بل من ابنائه يا سيدى » وكان جوابه بالفرنسية ، فأدهشهم كثيرا

ولم تكن التربية فى المدرسة خيرا منها فى البيت . وقد لبث حتى تقدم به العمر يذكر مع السخط تلك السنوات التى قضاها فى معهد بلا مانش ببرلين بين الثامنة والثالثة عشرة : «كنت غريبا فى حداثتى الاولى فى بيت أبوى فلم أشعر بعد ذلك قط شعورا كاملا بأنى منه فى بيتى . وقد وجهت تربيتى فى البيت

وجهة غلبت تنمية العقل وتحصيل المعارف الايجابية فى اوان مبكر على كل شىء .» واذ كان قد تبين فى الام الجانب المسيطر فقد حملها تبعة كل قسوة فرض عليه تحملها فى مدرسته الداخلية . ولم يكف قط عن التبرم بالخبز الجاف والتربية الاسبرطية التى كانت تكربه هناك ، والتذمر من ارتداء السترة الخفيفة فى الشتاء و «التدريب المنافى للطبيعة» كل المنافاة ومن أن المرء كان «يوقظ من نومه بوخزة سيف كليل» قول كان ما يزال يقصه فى الثمانين

وكان التعصب للالمانية ومناورات النزعة الحرة ومعاداة طبقة النبلاء معاداة كان عليه أن يتحمل انفجاراتها من معلميه بوصفه من طبقة النبلاء ــ كل هذا كان يحيل شعور الفروسية المطبوع فى ابن العاشرة الى عناد ، ويطبع فى نفسه الكراهية للأفكار الحرة التى كان يجد صداها فى أمه . «لم آكل قط حتى أشبع ، اللهم الا ان يطلب الى ذلك مرة . فقد كان ثمة دائما لحم مطاط . وكان علينا ان ننهض من النوم فى منتصف السادسة ، وان نكتب على عجل من السادسة الى السابعة . وكنا نعامل من ضابط الصف أسوأ مما كان يعامل المجندون ، ونتعرض أثناء لعب السيف لضربات على الذراع تظل سيورها ظاهرة أياما » وكان الغلام يشتاق العودة الى كنيبهوف ، فهنا فى أقصى ولهلمشتراسه قفر . ولكان خليقا ان يرضى لو كان مقامه فى الطرف الآخر حيث دور الحكومة الممتدة وحيث يمر الملك احيانا ! اما هنا خارج المدينة فكان كل شىء مملا موحشا . « وكنت كلما ابصرت من نافذتى ثورين زميلين يحرثان الارض بكيت حنينا الى كنيبهوف» فيظل طيلة العام يترقب العطلة المدرسية : ذلك أنه كان وأخوه موعودين بالعودة الى الموطن

الصدمة الأولى

ترى اية مشاعر لم يكن بد من ان تصدم الطفل عندما كتبت الام على حين بغتة تقول انها لا معدى لها عن التوجه فى يوليه الى الحمامات مما حتم بقاء الغلامين فى برلين ! وظلت الحال على هذا المنوال عدة أصيفة ، وابث الطفلان سنوات لا يريان البيت ، والروض ، والمزرعة ، والمخازن ، والاصطبلات ، ودكان الحداد ، والقرية . وقد سمى بسمارك هذه الحياة فيما بعد « اشغالا شاقة » فكل شىء يصدر عن الام ، وكل شىء تطلبه وتروضه عليه ، يبدو له شرا تريده به

وحين يكبر يرى ان نشاط الام وطموحها يهددان المزرعة ومال البيت بالضياع فهى تستورد كل سنة الى كنيبهوف آلات وعجلات جديدة ، لتقيم بالطرق الحديثة ما يتداعى بطرق زوجها العتيقة وتراخيه ، فاذا ما حل الشتاء حملته على الرحيل الى برلين يقيمان هناك فى ميدان الاوبرا حيث لاتشبع من العيش فى حياة المجتمع والاناقة . ومن ثم يحفظ فى النفس صورة المرأة المتبرجة وكيف تذهب وأبوه الى حفلة الوزير الساهرة . « انى أتصورها اليوم كما لو كانت ماثلة لعينى فى قفازها الطويل ، وثوبها المحبوك القصير ، وخصلها المنتفشة على الجانبين ، وريشة النعام الكبيرة على رأسها .» أنه ليسمع منها لأول مرة شعر المعارضة الحرة ، ويجرى وهو غرير الى يوستى ليتلقى صحف باريس وما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحويه عن ثورة يوليه ، ويتعلم احتقار هذا كله من أجل هذه الوسيطة ، ويكتب فيما تلا من الزمان : « عندما كان الصياد يستقدمنى فى الصباح من المثوى فى عيد ميلاد أمى ، وأجد حجرتها زاخرة بأزهار مايو ، وقد كانت شغوفة بها ، ملأى بالثياب والكتب المهداة والممتع من الاشياء ، ثم اشهد وليمة العشاء وفيها عدد كبير من صغار الضباط .. وشيوخ نهمون يتحلون بالاوسمة .. كانت وصيفتها تتلقانى لتتلف معدتى بما تنحيه الى من البطارخ والميرنج وغير ذلك .. ما اكثر ماكان كل اولئك الخدم يسرقون ! اننى لم ارب تربية صحيحة .. فقد كانت امى تحب ارتياد المجتمع ولا تعنى بنا كثيرا .. ان ثمة جيلين يتناوبان فى العادة ، جيل يضرب وجيل يعفى من الضرب . وقد كانت هذه حال اسرتى على الاقل ، وكنت انا من الجيل المضروب »

نكد قبل الاوان

ويشهد اوتو بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وهو تلميذ بمدرسة « الدير الاغبر » كراهية النبلاء تشتد فى المدرسة التى يربى فيها الحضريون المتعلمون ابناءهم فيتأصل التحدى فى نفسه . والآن يقيم فى الدار التى تنزل فيها اسرته فى برلين ، فيقيم فى الشتاء على مشهد من نشاط امه الذى يشاطرها اياه ابوه اللين البطيء . وفى الصيف يبقى مع اخيه الذى يكبره بخمس سنوات ويصبح طالبا تستغرقه حياة الجسد ، ويعيش مع مربى الاسرة والخادمة وحدهما . وهكذا يستغنى عن الارشاد المنزلى ، ويرى نفسه فى سنيه الحاسمة مكلفا بالعناية بنفسه . وبسمارك لم ير منذ السابعة من عمره الى ان بلغ السابعة عشرة احدا امامه يحتذى مثاله ، او بجانبه يمكن ان يحبه ، سوى ابيه . فهل عجيب أن يصبح نكدا قبل الاوان ؟

هذا الى ان الاب لم يكن « مؤمنا » كما يروى الابن ، وان الام كانت متصوفة بصورة ما ، فكلاهما لم يكن يذهب الى الكنيسة . وكلاهما كان يدرس للغلامين شلايرماخر (١) وهو من اشتد فى نقد الصلاة ونعتها بأنها مرحلة انتقال الى السحر ولم يوص بها الا لانها تساعد على خلوص النفس . وكانت الام ذاتها تكبر من شأن سفيد نبورغ (٢) وكاشفة بريفورست (٣) ونظريات مسمر(٤) وتتدله بها تدلها يناقض كما يلاحظ الابن ، « صفاء ذهنها وعقلها الرزين فى العادة تناقضا غريبا وكانت تزعم انها كشافة ، فلم يكن سوى زوجها الذى كانت تنظر اليه من عل لانه لا يراعى فى حديثه قواعد اللغة — من لا يعبأ بهذا الكشف . فقد شكا الى صديق له متبسطا ، من انها مع كل كشفها لم تستطع أن تتكهن بأن اسعار الصوف فى آخر موسم الصوف تهبط عما تكون عليه فى اوله »

---

(١) عالم لاهوتى المانى من ألمع الاذهان وأعظمها تأثيرا فى كل العصور . عاش فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . (٢) عالم ومتصوف سويدى اشتغل بالارواح وكتب عنها وزعم أنه أطلع على الجنة والنار . (٣) كتاب ليوستينوس كيرنر الشاعر والطبيب الالمانى تناول فيه تداخل عالم الارواح فى عالمنا . (٤) عالم ألمانى ابتكر ما يسمى بالمغناطيسية الحيوانية

بداية العناد

وطبيعي ان الوالد كان دائما راضيا عن ولديه ، وان الام لم تكن قط راضية . فكان الاب يقول : « انى لا افتأ افخر بشهاداتكما . فأمس كانت عندنا اسرة بيلو فأريتها اياها . وكم سرنى ان نوهت بكما » وكانت الام تقول : « تطلع حولك واسمع ومحص حكم الناس على التعليم المحض تسلم بأنه لابد لك من الكثير قبل ان تطالب بحقك فى لقب الرجل المتعلم . » وحين يسقط الغلام ذات مرة عن جواده فى الرابعة عشرة من عمره يكتب اليه الاب يقول : « ياعزيزى اوتو ، ما كان جوادك ليحرن هذا الحرن ، لكنما الراكب سقط فى سهولة . ذلك انك تمتطيه كما لو كنت صرة من خرق ، فاذا كان لديك ما ترد به فلك ذلك » هذه هى النغمة التى تعرض المربى للسخرية او تعرضه للكراهية ، فاذااصطدم مثل هذا الاستياء بكبرياء مطبوعة فلابد ان يخرج عن هذا الاصطدام غلام ناب عنيد

لم يكن بسمارك يحذق شيئا حذقه للغته الالمانية حتى ولا حذقه للتاريخ الذى نقل الى الفصل الاول بدرجته فيه وهى ١٥ من ١٨ ، وكان احيانا يلام فى الشهادة « على تكبره الزائد .. وكذلك يلوح أنه لايبدى نحومعلميه الاحترام الواجب » وهو يحاول دائما ان يطيل من نومه ، ولاتنبسط نفسه اذا انبسطت الا متأخرا . ويحتفظ بهذه الخاصية المعروفة عن العصبيين طيلة حياته ، ان طبيعة بسمارك من الطبائع المظلمة

وهذا الصبا الجهم لا يشرق الا لأخته مالفنشن التى ولدت متأخرة ، وهى تصغر بسمارك باثنى عشر عاما . يعزها الوالدان ، ويتسلى بها الأخوان ، ويكتب عنها فى الرابعة عشرة من عمره يقول : « لقد تكونت مالفنشن واكتمل شخصها . وهى تتكلم الألمانية والفرنسية كيفما اتفق . وهى تعرفك ايضا » ويسمح للغلام منذ الخامسة عشرة فى قضاء العطلة الصيفية فى البلدة . وقد مضى ذات مرة إذ ذاك « بضع ساعات مع المرأة الجميلة » فى احدى المزارع ، واستأثر فى السادسة عشرة « بمربية حسناء » فى عجلة البريد ، وكانت ألمت بها وعكة واصابها وهن فارتمت فى احضانه . وكلف اخاه ان يرسل « خطابا غراميا » غفلا الى سيدة من الجيران

وينتاب التشكك العام ابن الخامسة عشرة فيرد فى رسائله فيما يرويه عن الريف : « فى يوم الجمعة هرب من السجن ثلاثة شبان يفعمهم الامل هم : مضرم نار ، وقاطع طرق ، ولص .. فزحف جيش الريخ فى المساء فى كنييهوف على الغيلان الثلاثة وعدته خمسة وعشرون جنديا من اللاندشتورم . بيد ان عساكرنا تولاهم الرعب فكانوا كلما التقت فصيلتان منهم ونادت احداهما الاخرى لم يجرؤ احد على الرد من فرط الخوف »

تشكك باكر

من هذه النفسيات تنشأت حتما فى ابن السابعة عشرة والثامنة عشرة نيهلية كاملة فى العقيدة والفكر . ولم ينبت تشككه العام سوى عقيدته السياسية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاولى التى لم تدم طويلا : فحين بارح مدرسته وهو فى السابعة عشرة يوم ان توفى جوته ، كان مقتنعا ، رغم انه لم يكن جمهوريا ، بأن الجمهورية أرشد اشكال الدولة . وكان يفكر فى الاسباب التى امكن ان تفرض على ملايين الناس الطاعة لفرد واحد دائما . وقد ظلت هذه الاسباب فى حيز التأملات النظرية ، ولم تبلغ عنده من القوة ما تستأصل به مشاعره المطبوعة نحو الملكية البروسية ، فبقيت عواطفه التاريخية فى جانب السلطة . فهارموديوس وبروتس كانا يبدوان له مجرمين متمردين ، وكان كل امير المانى يناهض الامبراطور يثير سخطه

هذه الافكار الغامضة عن الدولة قد تمخضت عن تحزب حاسم فى حالتين اثنتين فحسب على قدر ما يذكر . وقد كان خلقه هو المقرر لموقفه الشخصى فى كلتا الحالتين ، فمنذ أن كان تلميذا وهو يحس من خطب الريشستاج العتيقة ضيقا « حين قرأ الفاظ السباب النابى الذى اعتاد أبطال هوميروس أن يتبادلوه قبل النزال » وكما كان خصيما للمهاترات السياسية كان فى ذلك الحين عدوا كذلك لكل فعل عديم الاثر فكان يقابله بحرارة ويحمل عليه بحمية . كان ضد « تل » فقال : « كان انبل واكثر تمشيا مع الطبيعة فى رأيى لو انه ، بدلا من ان يطلق سهمه على ولده الذى كان يمكن امهر رام ان يصيبه بدلا من التفاحة ، اطلقه على الحاكم . فقد كان هذا حقيقا أن يكون غضبا عادلا على تكليف قاس . اما الاختباء والتربص فلا يعجباننى »

آخر صلاة

وقد وقف حيال العقيدة موقفا واضحا كل الوضوح . ففى اوان « التثبيت » اى حوالى عيد ميلاده السادس عشر يقول : « كففت ــ عن تفكير ناضج لا عن قلة اكتراث ــ عن الصلاة كل مساء كما اعتدت منذ حداثتى . ذلك انه بدا لى ان الصلاة تتضارب مع رأيى فى الله ، اذ قلت لنفسى اما ان يكون الله بوجوده فى كل مكان هو باعث افكارى ومظهر ارادتى . . واما ان تكون ارادتى مستقلة عن الله فيكون من الجرأة فى حقه أن أعتقد أنى أؤثر فيه بتوسلاتى البشرية » والعجيب هنا هو التعليل وحده : ذلك انه ربى بلا عقيدة ، وكان اكثر تشككا من ان يجعل من نفسه مؤمنا . وهذا هو الكامن فيه وفى والديه ، بيدانه بتدليله الذى يبديه فى صغره يدل على الواقعى المتكبر الذى لا يتخلى لسلطة فوقه الا عما تفرضه عليه المناسبة القائمة . وهذا الفتى ينزع الى النيهيلية دون أن يخطىء فى حق الله بنكران صريح ، ويحيل على ربه تبعة تفريطه. فى الصلاة كما يفعل الديبلوماسى تماما ، ويتظاهر بولاء يخفى وراءه السخر ، ويقف ربه بأما واما امام بديل لا يمكن ان يكون الله اعتاده من خلقه . فالانحناءة التى تفرضها التقاليد لا توهن من اعتداده بذاته

على هذه الصورة وقف بسمارك لاول مرة حيال ملك

الفصل الثالث

في ميدان السوق شاب يخطو خطوا وئيدا في جد مصطنع ، تلفت نحافته البالغة الانظار ، ويرتدى مبذلة زاهية من مباذل النوم ، وقلنسية غريبة الشكل ، ويلف عصيته في يده ، ويضع غليونه الطويل في فمه ، فاذا نادى « ايرييل » تمسح في ركبته كلب اصفر كبير من نوع الدرواس . على هذه الصورة يدنو الشاب من مدرسة جوتنجن العليا ليمثل امام قاضيها الذى استدعاه ليحاسبه على مسلكه وملبسه اللافتين للانظار . ويمر به بعض زملائه في لباسهم العادى وقلنسيتهم الملونة فيضحكون ، فيدعوهم الثعلب في الحال الى المبارزة ، فيسوى اكبرهم النزاع ، وتأخذهم « شهامة » النصف الاول من السنة الدراسية فيدعونه اليهم ، ويقترحون عليه الانضمام الى فرقتهم ، وأن يكون عضوا عاملا فيها بعد المبارزة الاولى

لقد كان الظهور هو اول ما انتوى بسمارك حين قدم الى جوتنجن ، وكل شيء سيقصه قريبا صديقه الامريكى الجديد في رواية من روايات الطلبة عن « اوتوفون رابنمارك » انما هو صورة من بسمارك يراه فيها المرء راى العين ويسمعه ، نحيل « كالميبر » ذو شعر منفوش ، وعينين احمرت جفونهما ، يتكلم أربع لغات ، ويعزف البيان باحتاعن الشجار دائما ، مشاغب غريب اللباس ، لا يتكلم كلاما معقولا الا حين يكونان وحدهما « بهذا المظهر ، وهذه الاهانات الخ .. أريد ان التحق بأبدع فرقة ، لكن هذه جميعا صبيانيات فما يزال عندى متسع من الوقت . انى اريد ان اقود رفاقى هنا كما سوف اقود الناس في الحياة » . ويقسم انه لن يموت قبل تسع عشرة سنة وتسعة أشهر ، فاذا تخطى هذا الاجل فسوف تكون امامه اثنتا عشرة سنة اخرى . وينعته الروائى الشاب بأنه « مادة بطل تتبختر هنا » وذلك عقيب هذه الانصاف من سنى الدراسة وقبل ان يخرج هذا النمط العجيب من مغارته بعشر سنوات

ثعلب جوتنجن

ان كل شيء في هذا الثعلب يلفت انظار الطلبة العديمى الاذى : جرأته، وغطرسته وافراطه واناقته وعنفه وطيبته . وكنياته التى تطلق عليه هى :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأس الطفل وكاسوبة (*) واخيل . كذلك كان يخزه وصفه بالمجنون والشرقى (نسبة الى شرق المانيا) والقرنى . وحين يبدو فراكه بدفتيه الطويلتين ولونه الذى يشبه لون التفاح الاخضر أو تبدو سترته المخملية ذات الازرار الصدفية « خزانة ثياب ثمينة على غير المألوف » بدلا من الاجتزاء فى الخروج باللفاعة والقلنسية ، وحين يهيم بعد الافراط فى الحانة فى احتساء نبيذ الرين والمديرا الى النهر ليستحم بالليل فى الماء البارد ، وحين يعنف مرارا وتكرارا لاسرافه فى التدخين والمشاجرات ويحتقر سلطة المدرسة اكثر مما يحتقر الرفاق ، وينام بالليل عاريا دائما لان كل قطعة من الكتان تضايقه ـ حين يفعل هذا يتحاشى المرء اغاظته لانه يدعو الى المبارزة فى الحال وينتصر دائما . بورز خمسا وعشرين مرة فى انصاف السنة الثلاثة الاولى فلم يمس الا مرة : شىء له تأثيره فى قدامى الطلبة ومن ثم يبلغ سريعا ما يريد : فهم يهابونه

الصـــديقان

ويجرى الحديث على مائدة الغداء التى يؤثرها خمس لغات ، فالنبيـل اليوميرانى يكاد لا يتعامل الا مع الاجانب . فهو يكسب صديقين فى وقت واحد ولا يتخلى عنهما مدى الحياة ، ذلك انه مع هذين الصديقين لن يختلف فى المستقبل على شئون السياسة كما سوف يختلف مع القلائل الآخرين ممن كانوا الادنين اليه فى عهد الشباب . فقد لبث موتلى الامريكى المرح ، المهذب ، المنصف ، والكونت كيزرلنج الناضج الزاهد ، صديقيه الوحيدين الى شيخوخته. وكان موتلى فى شبابه فحسب مؤلفا ثم كان بعد ذلك مؤرخا ، وديبلوماسيا ، بينما لم يزاول كيزرلنج العالم البحاثة الطبيعى عملا عاما الا بجانب نشاطه العلمى وكلا الاثنين اكبر من بسمارك سنا ، وارضى نفسا ، واكثر توحدا . وجد فيهما اكتفاء ينقصه ، وحرية كانت تنقص الالمان من حوله . وكلاهما لم يكن من العاملين فى الفرقة .

والقانون المفروض انه درسه كان يراد ان يعده لان يكون ديبلوماسيا . فقد كانت رغبة الام الطموح ان تجدد فى ابنها سلطان ابيها ومركزه ، وهى فكرة حضرية من الفها الى يائها ، لا تخطر الا لآل مينكن ، ذلك انها كانت جديدة على بيت بسمارك : فان احدا من هذا البيت لم يخدم ملكه بغير السيف . وهذا باب لم تضطر الام الى صرف ابنها عنه ، فلم يكن ينزع الى ان يكون ضابطا وكان من الممكن فى هذه السنوات الراكدة المضطربة من عمره بين السابعة عشرة والعشرين ان يوجه اية وجهة ، ذلك انه لم يكن لارادته اتجاه ما

كذلك كان بسمارك من عدم الاكتراث للحياة السياسية بحيث لا يمكن تتبع ميوله الاولى ، فلم يلبث ان تجنب الزملاء الذين كانوا يشربون نخب الامبراطور والريخ ويتغنون بهما ، وتحاشاهم بعد الزيارات الخاطفة الاولى : « اذ كانوا يتهيبون المبارزة وشرب الجعة ، وتنقصهم مظاهر المجتمع الراقى » ومن ثم

---

* نسبة الى جنس سلافى يقطن الآن بعض جهات بوميرانيا بألمانيا

انسحب من الدوائر التى كانت تمثل وقتئذ فكرة الريخ فى المدارس العليا . وكان انسحابه لاسباب تتصل بالمزاج والسلوك . لكنه حين سخر رفاقه على المائدة من البروسيين الذين ندر ان درسوا هنا فى هانوفر ، دعا ستة من زملائه الطلبة فى الحال الى المبارزة . وهو يدافع عن تدخل بلوخر الحاسم فى معركة ووترلو دفاعا حاميا حتى ليقول احد من سمعوه : « ان الثعلب يتكلم كما كانوا يتكلمون فى عهد فريتس الهرم ! » ويلوح ان المشاكل القومية لم تكن تهمه ، فانه لم يستمع فى هذا الباب ولا مرة الى اشهر استاذ ، بل كان يؤثر ان يعاقر الخمر مع اصدقائه الامريكيين ويشرب نخب الحرية فى يوم الاستقلال ، لكنه حين يتحدث متحدث عن تمزق المانيا يراهنه بسمارك على اتحاد المانيا بعد خمس وعشرين سنة على خمس وعشرين زجاجة من الشمبانيا ومن يخسر الرهان يقدم عبر المحيط ليفرغ هذه القنانى معه . لكنه فى هذا الرهان اخطأ الحساب فى ثلاث عشرة سنة

اول خطاب ديبلوماسى

وهو فى كل ذلك يتعهد المظهر فى البداية فيحث أخاه الاكبر الملازم قائلا : « لا تكتب بهذه الخشونة الى البيت فى كنيبهوف ، فهو أكثر قابلية للخداع والكذب الديبلوماسى منه لخشونة الجند » والمظاهر والملابس والمطالب تكلف مالا كثيرا ، فبعد سنة واحدة « تقع الواقعة بيني وبين ابى الذى يأبى ان يسدد ديونى .. ولم يكن عوزى بالغا هذا المبلغ ، فالثقة بى كبيرة جدا ، وهو ما يسر لى عيش الفسوق . والعاقبة أن أبدو شاحبا مريضا وهو ما سوف ينسبه أبى بطبيعة الحال الى نقص مواردى ، حين أعود الى البيت فى عيد الميلاد . عندئذ اتقدم منه بقوة واقول له انى افضل ان اصبح كافرا عن ان ارضى بأن اجوع اكثر من ذلك ، وعندئذ تسوى المسألة . فهل الطالب الذى يكتب ذلك لم يخلق ليكون ديبلوماسيا ؟ يعامل الناس ، ويزن البواعث ، ويستغل الموقف الراهن ، ويتملص من كل ذنب ، ثم يلجأ الى الحيلة التى تلقى التبعة على الخصم : كل أولئك عناصر السياسة ، وأمه التى تغضب لذلك لا تعرف أن غريزة تكاد تكون امينة ، تشق الطريق الى ما يحقق مطمعها فيه

موتلى

ولما عاد ابن الثامنة عشرة الى بيته مريضا مضنى من الافراط فى الطعام والشراب ، متراخيا كما كان جوته الشاب ، ثم عاد فاسترد العافية بمأكل الريف ومشربه وما لقى من الراحة فيه ، ثم آن أوان الرحيل الى برلين ليتابع فيها دراسته ، لاحت الأم وكأنها تخلت عنه بعض التخلى : « أعتقد أنه يروق أمى الآن أن أرتدى السترة الزرقاء وأقف أمام « بوابة هله » أدافع عن الوطن . فقد قالت لى اليوم حين نهضت من نومى متأخرا انى ألوح لها قد فقدت كل ميل الى الدراسة » . وحقا انه لا يميل الى الدراسة لكنه الى السترة الزرقاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقل ميلا . وهو يخالط ابن عم له يدعى بلانكنبورغ والفتى رون ، وسوف يلقى كلا منهما فى ظروف حاسمة ، لكنه يؤثر عليهما العيش مع كيزرلنج وموتلى الذى يساكنه أيضا . وحين يجلس الامريكى ببنيقته التى تشبه ما كان يلبس بيرون ، وبألمانيته الضعيفة يترجم فاوست ، رافعا ساقيه فوق قاعدة النافذة حتى يرى الناس منه خفيه الاحمرين وهم تحت فى الطريق ، يرتاح بسمارك اليه ، ولا يثور الا حين يعود الصديق بعد نقاش فى الفلسفة يدوم الى منتصف الليل ، فيبدأ المناقشة من جديد فى « هل يمكن مقارنة بيرون بجوته ؟ » والذى كان يأسر الالمانى فى موتلى هو ، كما يروى فيما بعد ، حسنه ، وعيناه الواسعتان ، وفكاهته ، ورقته . كذلك لم يجذبه الذهن الى الكونت كيزرلنج بقدر ما جذبه جماله ، وسمت رجل الدنيا فيه ، وعزفه على البيان . ذلك أنه كان فى مقدوره أن يعزف بيتهوفن ساعات ، وبيتهوفن هو الوحيد الذى يأسر الطالب المضنى

يعددون أجدادهم

ويلوح أن شيئا لا ينفع مع هذا الطالب ، لا شيء يسلم من سخريته حتى نفسه . فهو يكتب الى رفيق له يقول : « انى أعيش هنا كما يعيش الجنتلمان، وأعتاد كيانا مزوقا ، وأتكلم الفرنسية كثيرا ، وأقضى معظم وقتى فى اللبس وبقيته فى الزيارات ، وعند صديقتى القديمة بنت الحان . فاذا جن المساء سلكت فى الصف الاول من مقاعد الاوبرا مسلكا خشنا .. بهذا أضجر فى الحياة بالاستقامة نوعا ما . لا يزال هنا من جوتنجن الكسول ش . وشجرة حرية الارستقراطية الرشيق القوام ، الذى ينقصه كل شيء ليكون انسانا ، ولا ينقصه شيء ليكون أمينا من أمناء الملك الا قفل على فمه . انه يعيش هنا مع ثلاثين من ابناء عمومته فى رفقة مباركة لا يسخطه منهم شيء .. وهم لا يأكلون ولا يشربون ، فماذا اذن يفعلون ؟ يباهون بالاجداد ! »

فهل يحتقر المرء الانسان فوق ذلك ؟ انه يحتقر الطبقات والاختلاط والفراغ والتصنع . يحتقرها فى نفسه وفى غيره ، ولا يبدو ميالا الى التخلص من نقط الضعف هذه ، لكنها تحزنه فى السر ، فماذا يبقى له ؟ التوجه الى الضيعة والزواج ! ويكتب من مزرعة أبيه يقول : « سأرفض من أجل ذلك منصب وزير الخارجية ، واتسلى بضع سنوات بحد السيف الذى يدرب المجندين ، ثم أتخذ لى زوجة ، وأنجب أولادا ، وأفلح الارض ، وأقوض عادات القرويين وأخلاقهم بالاسراف فى انشاء معامل تقطير العرق . فاذا زرت مرة هذه الناحية بعد عشر سنوات ، فستلقى ضابطا بدينا من ضباط الجيش وشاربا يرقص من السب واللعن حتى لترتج الارض ، يكره الفرنسيين كرها شديدا ، ويضرب الكلاب والخدم بالسياط ضربا مبرحا ، اذا ما استبدت به امرأته وطغت . وسأرتدى سراويل من الجلد ، واضحك الناس منى فى سوق الصوف فى شتيتين ، فاذا نادانى الناس بياحضرة البارون فتلت شاربى راضيا ، وبعت الصوف بأرخص من ثمنه ريالين . وفى عيد ميلاد الملك أسكر، واهتف بحياته ، واعربد فيما خلا ذلك كثيرا ، وتكون الكلمة الاخيرة عندى :

« الى السنابل أيها الجواد الفخم ! » . ويقيه هذا الشكل من اشكال المستقبل تهيبه من الزواج ، لا تنفيه خطباته المتكررة ، بل يثبتها على الاكثر انتهاؤها بالذات . وبينما هو فيما يروى موتلى « ينقـــاد فى حبه لدوافع الطبيعة فلا يكترث كثيرا » اذ هو فى نفس الوقت « محب دائما ، مسرف فى الحب »، ومن ثم يعترف نفسه بأنه ربما حاول قريبا جدا بضـع محاولات للزواج لو كتب لأى من أهوائه العاطفية الدوام « بيد أن خير ما هنالك هو أن .. أظل دائما أثبت محتقر للنساء : فهكذا ينخدع بى الناس »

لماذا لست جنديا ؟

وحين أعده المدرس فى العشرين للامتحان ، وتخرج محاميا تحت التمرين، وجعل الآن يمضى برهة فى محكمة برلين يحرر القضايا ، تزايد سأمه من مثل هذا العمل الذى يبلد الذهن ، لكنه صبر عليه حتى لا يضطر الى أن يستبدل به الجندية « وهو ما قاومت فيه الحاح والدى ، الذى كاد أن يكون متواصلا ، بثبات كان حليفه التوفيق » . الى هذا الحد كان التدريب العسكرى بغيضا الى هذا الذى لم يدان فى السباحة والمبارزة . وعلى النقيض من ذلك يتساهل فى أمر البلاط فيقول : « انى لا أميل اليه ميلا كبيرا ، بيد أن والدى يرغبان فيه ، وهما فيه محقان لما يمكن أن أجنى من ورائه من ترق » . وفى الواقع لقد خاطبه أمير بروسيا فى حفلة راقصة بالبلاط وكان الامير اذ ذاك فى ضعف عمره ، قد أدهشته قامة أصغر القانونيين التى تطاول قامة الحرس ، فهو يسأله :

— لماذا لم تصر جنديا ؟

« مستقبل غير زاهر يا صاحب السمو الملكى »

— وكذلك مهنة الحقوق ، فلن تكون فيها أحسن حالا

فى هذا الحوار الاول بين ولهلم وبسمارك قد بدا ما بين طبيعتيهما من فارق فى اشتات الحديث خلال الرقص : فذاك جندى من فرعه الى قدمه ، وهذا على خلافه . وحين يدهش الامير من ان رجلا بهذه القامة لا يستخدمها فى أجمل مهنة فى العالم يكذبه النبيل شيئا عن الترقيات ، ويظل بعـد عشر سنوات من ذلك اليوم يكتم فى الغالب عنه أسبابه الحقيقية مراعاة لشـعوره البروسى العسكرى

طموح

فى تلك الاثناء تأخذ برلين ، والوظيفة ، ومنظر القانونيين المجدين معه ، والبلاط ، والتفكير فى المستقبل . . تأخذ كل هذه الاشياء فى اخراج الفتى الموظف عن موقفه السلبى ، فيرى ما يمكن مع ذلك أن يبلغه ، ويدع على كل حال هذا أو ذاك من أصدقائه يتبينون لاول مرة فى ذلك الحين طرفا من طموحه المكبوت الذى كان يستكن من قبل فيه وراء كل نكد . ولا بد أنه دارت فى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا أحاديث بينه وبين كيزرلنج الذى استطاع بعد عشرين عاما أن يذكر قول بسمارك : « لا ندحة عن الدستور ، فعن طريقه أبلغ أسمى المناصب . ولا بد الى ذلك من أن أكون بقلبى رجلا تقيا » . ثم يضيف الى ذلك مبتسما : « وقد أردت عندئذ أن أزور صاحب السعادة الذى يحلى صدره بالنياشين كحاج حكيم »

اذن كان هذا صحيحا ؟ فابن العشرين قد تنبأ بالوسائل التى لا يبلغ المرء بغيرها شيئا فى بروسيا اليوم ؟ الدستور الذى يبغضه من قلبه ، والتقوى التى لا تعمر قلبه نحو الله ! فما أجلى ما يتبين المرء الحقيقة الباطنة فى هذه الذكريات ، وكون كيزرلنج هذا قد نعت نفسه اذ ذاك بالحاج الحكيم الذى باته مع الايام يدل كيف كان صديقه الطموح فى سره ، وان لم يحلم بالنياشين ، يحلم بتلك القوة التى تعبر عنها الاوسمة . بيد أنه لا بد الى ذلك من أن يكون تقيا بقلبه ، أعنى كان لا بد ، وما دام أنه ليس بهذا التقى فقوله هذا هراء . . ولنملأ الكاسات !

هل يريد المرء أن يستبين من كان فى قلب بسمارك اذ ذاك مناهضا لطموحه ؟ هل يريد المرء أن يشهد عزة النفس الحرون وهى تعمل وتكافح هذا الطموح ؟ فليسمعه اذن فى حوار مكتوب مع صديقه الجوتنجى الثالث شارلاخ الذى ندر أن كتب اليه ، فلما كتب صارحه مصارحة تامة . وقد أسر اليه فى ذلك الحين وهو محام تحت التمرين قوله : « ان طموحى الذى كان فيما مضى اقل عنفا وأكثر اختلافا فى اتجاهه مما هو الآن ، يدفعنى الى اجتهاد لم يكن لحياتى الى اليوم عهد بمثله ، ويحملنى على التماس كل وسيلة اخرى تبدو نى ناجعة فى خدمة غرضى فى الترقى . . ولست أعلم هل ما تزال نفسيتك تجيز لك أن تبتسم من وراء كأس طيبة من الشارلاخبرجر رثاء لهـذه الحماقة . نفسية لا املك الا انعتها بالهنيئة كل الهناءة من دون ان اتمنى عودتها ، بل انى من جانبى لأدنى فى الآونة الراهنة الى أن أكون مغرورا مفتونا الى حد أن أعد كل لهو خالص لا أجنى من ورائه نفعا مضيعة للوقت »

عزة النفس

على أنه سرعان ما يتبين هذا القول مدعاة للسخرية اذ يستطرد : « ان حياتى فى الحقيقة تدعو الى الشكوى اذا أنا تأملتها فى الضوء ، فانى بالنهار أزاول دروسا لا تستهوينى ، وفى المساء أصطنع فى مجتمعات البلاط والموظفين مرحا لست . . . احسه او اطلبه . واعتقد ان من العسير ان يعوضنى أوفى تحقيق لما أسعى اليه من غرض ، وأطول لقب ، وأعرض وسام فى ألمانيا ، وأعظم ما يثير الدهشة من وجاهة ، من هذا الصدر الذى سوف يتقلص جسما وروحا من جراء هذه الحياة . انه كثيرا ما تحدونى الرغبة فى أن أستبدل بالقلم المحراث ، وبالحافظة جعبة الصيد ؟ ومع ذلك فما يزال هذا فى يدى »

هكذا تكبح عزة النفس المطبوعة فيه والتى ورثها عن آبائه ذلك الطموح

المطبوع فيه والذى ورثه عن أمه وتقصيه ، واذ كان اعتداده بنفسه لا يمكن ان يشك فى نجاح مشروع شرع فيه ، فهو يقرر من البداية ألا قيمة فى الباطن لمثل هذا النجاح

ومع ذلك فانه يسعى الآن الى النجاح ، ويحسب كيف يبلغه من أقرب طريق ، ويعلن حضوره على الرين ، وينكب لأول مرة فى حياته بضعة أشهر هى الصيف كله ، فى بيته يحضر رسالتين للامتحان لدرجة المعاون فى المحاكم ، وكلتا الرسالتين تكاد لا تحدوهما أفكار شخصية ، لكنهما باتتا حقا له بمضى المدة واستحقهما بشرف ، وذلك كله لأنه هجر المدينة وجعل يقيم أخيرا فى هدوء

تحت شجر البلوط العتيق

هنا يقيم الآن النبيل ابن الحادية والعشرين ، فى شينهوزن حيث انتقل ابوه من جديد . وشينهوزن دار « تبلغ غرفها الثلاثين ، منها اثنتان مؤثثتان ، اكتست حيطانهما بالورق المشجر الحريرى الفاخر الذى ما تزال رقع قليلة فيه تدل على لونه . وفيها الفيران لا تعد ، والمواقد التى تعوى فيها الريح . ذلك قصر آبائى القديم حيث يجتمع كل ما هو صالح لأن يسلى الكآبة عن طحال نشط .. تقوم على طعامى والعناية بى مدبرة بيت عجفاء هى رفيقة صبا والدى البالغ من العمر الخامسة والستين وخادمته . انى أحضر للامتحان ، وأسمع البلبل ، وأتمرن على الرماية ، وأقرأ فولتير وكتاب سبينوزا فى الاخلاق .. ويذكرنى القرويون بقولهم : سيدنا الشاب المسكين ، ما خطبه ! كما تروى لى آنستى العجوز . ومع هذا فلم أستشعر الراحة قط كما استشعرتها هنا ، أنام ست ساعات فحسب ، وأجد فى الدرس مسرة عظيمة ، وهما أمران ظلا طويلا يستعصيان على . واحسب الباعث بل السبب لكل هذا انى لبثت الشتاء بطوله محبا عنيفا . ومن الشر لى أن أخرج عن محيط هدوئى وسخرى الفلسفى .. ستقول : أها ــ حب تعس ــ وحــدة ــ كآبة الخ ، والظرف يوحى بهذا ، بيد أنى الآن قد عدت خليا لا أهتم ، أحلل أسباب الحب وفق مبادىء سبينوزا لازاوله فى المستقبل اربط جأشا »

تحت اشجار الزيزفون الكبيرة والبلوط العتيق ، وتحت نظرات الاب الطيب التى تشع حنانا ، وفى عناية قروية عاقلة ، وفى اعتدال العمل المحدود ــ فى هذا وجد قلب بسمارك الذى لا يعرف الراحة نوعا من الراحة لأول مرة ، ولبضعة اسابيع ، فلم تعد فكاهته تنضح بالنكد ، فهو مرح ، يمنحه سبينوزا بركته المقدسة لكل شىء ، ولا يحتاج فى تعليم هذا المحلل المطبوع الا الى أشكال التحليل

ويسافر النبيل الى آخن (اكس لاشابيل) يحمل شهادة حسنة جدا ، ويجلب أحسن التوصيات : وقد وجهته اليها حكمة الام ، وكان رئيس هذه المستعمرة البروسية الجديدة من أسرة أرنيم فى التمارك . وليس على الحفيد سوى سنتين اثنتين ليطأ طريق مينكن الكبير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الرابع

كانت آخن اذ ذاك حماما عالميا على حدود ثلاثة بلدان مكتظة بالاجانب ينفقون الوقت ، ويبذرون المال عن سعة : فكيف يستطيع هناك نبيل أرعن فى الحادية والعشرين من عمره أن يجلس فى دار الحكم يحرر القضايا ؟ وكان الكونت أرتيم وجيها جدا ، له سمت الانجليز ، فاستقبل مواطنه كما يستقبل أميرا وارثا ، ولقنه بعد العشاء درسا خاصا ورسم له خطة خاصة ليرقيه الى وظيفة المعاون ترقية سريعة يتخطى فيها الاقسام : ذلك أن الفتى الديبلوماسى كان ينبغى أن يبدأ سيرته « حيث لا يهمنى سلفا أن يبعث بى الى سان بطرسبورغ أو ريو دى جانيرو »

الخطبتان

بيد أن النبيل المتغطرس الذى أتاح له والداه فرصة الترقى بعد عناء كثير يزدرى الركاب الذى يمسكونه له ، ويؤثر الركوب مع فتيات انجليزيات فيسقط عن جواده ، وتتحطم أعضاؤه أو تكاد ، فيبرم بالحياة من جديد ، ويطالع فى سرير مرضه كتاب شيشيرون عن الواجبات ، ويقرأ أثيره سبينوزا وريتشارد الثالث وهملت . وينهض عن فراش المرض ، وينصرف عن الحكومة وواجباتها ، وينغمس فى دنيا الاناقة بأشد من طيشه السابق . ويذهل الجالسين الى المائدة بازدراد ١٥٠ محارة ، ويشرح أيضا كيف تشوى . « ان من يؤاكلوننى اليوم يتألفون من سبعة عشر انجليزيا وفرنسيين واليهم شخصى المتواضع . ونجلس نحن فى طرفها الارستقراطى وأعنى الدوق والدوقة كليفلند وابنة أخت الدوق الفاتنة الرقيقة مس رسل » وهى صغيرة ، جميلة ، أنيقة ، انجليزية وابنة دوق : ولورا هذه توائم ذوقه . فحين ارتحلت كانا خطيبين فى السر . فكيف يكسب المال ليتزوج منها ؟ على مائدة الميسر حيث تتراكم ديونه كما تقرأ فى القصص

ويسمع فى نفس الوقت عن أسرتها أشياء تربكه ، فيشرع على الاثر فى حب سيدة تناهز الثلاثين ، ويبدأ مع هذا الحب عملا ، ويداخل ذلك حنين الى الوطن ، ووالدان ساخطان ، ونكد ، وديون ، وصيد وقنص ، ونيات جديدة : « لقد تبينت أنه يجب على أن أحاذر ، فما يزال لى بعد كثير من الرومانتية »

واحدى هاتين الجملتين اللتين كتبهما فى ذلك الحين تنم عن نظرات عميقة فى معترك المشاعر الطليقة* وقد انفصمت الخطبة من تلقاء نفسها

وفى الصيف التالى تجذبه انجليزية أخرى هى ايزابل لورين . ولم تكن فى وجاهة لورا ، لكنها كانت أجمل منها ، شقراء شديدة الشقرة ، نحيفة رشيقة ، وابنة قسيس . ويتبعها الى فيزبادن فى اجازة اسبوعين ، مخلفا وراءه ديونا كثيرة . وهناك يلاقى لورا ، وهى صديقة لايزابل ، ويجد الموقف « شديد الحرج » ، ويصبح عشيقا للعروس الثانية ، ويكتب الى الصديق : « أعلن اليك أنى خاطب فى الآونة الراهنة ، أفكر مثلك فى أن أدخل الحظيرة المقدسة وما اليها ، مع بريطانية فتية ، شقراء الشعر ، بارعة الجمال ، لا تفهم الى هذه اللحظة كلمة ألمانية . انى مسافر الآن مع أسرتها الى سويسره ، وسأودعها فى ميلانو ، لأسارع الى والدى اللذين لم أرهما منذ سنتين تقريبا .. وفيما خلا ذلك يجب أن تصاحبنى الى انجلتره لتحضر عرسى الذى يحتفل به فى الربيع »

كارثة

ويعزم فى سمت ابن الذوات وكاره الوظيفة ، يعزم هذا المغامر بعد شهرين لا قبل ذلك ان يكتب لاول مرة الى رئيسه الذى يميل اليه شخصيا ، فيبعث الى آخن يرجوه المعذرة لأن ظروفا تهمه شخصيا قد احتجزته ، فهو يستأذنه فى اجازة . « وقريبا كذلك سأطلب اعفائى رسميا » . وانه فى هذا ليبتعد عن الوطن شيئا فشيئا . ويرفض أبوه أن يمده بالمال ، ويتولى السخط أمه المريضة . وحين يعود أخيرا مفلسا يكون ضيفا فى مركبة غريب يشمئز بسمارك منه . فماذا حدث ؟

« انه تحدونى آمال كبيرة فيما يسمونه سيرة باهرة ، ولعل المطمع الذى كان دليلى اذ ذاك ، كان خليقا أن يظل مرشدى أكثر مما ظل ويهدينى على الدوام لو لم تضلنى انجليزية فاتنة ، وتحولنى عن طريقى ، وتدفع بى فى تيارها ستة أشهر فى بحار أجنبية من دون أقل اجازة . وقد اضطررتها أخيرا الى تخفيف السرعة وطى الشراع . غير أنه بعد أن لبثت الغنيمة فى يدى شهرين سلبنى اياها كولونل بذراع واحدة فى الخمسين من عمره ، يملك أربعة خيول ودخلا يبلغ خمسة عشر ألف ريال . وقد عدت الى بوميرانيا خالى الوفاض ، مريض القلب ، يجرنى « غليون » ثقيل بغيض »

مريض كأول مرة ، عصبى حتى ليغلط كثيرا فى رسائل صباه ، قد ضل أيضا سواء السبيل . على هذه الصورة يستقبله والداه فى الضيعة وقد خاب أملهما فيه . وتستجمع الأم المريضة شجاعتها وقد كربها سوء التدبير

---

* ان الرسائل التى كتبها بسمارك الى شفيقه فى ذلك العهد وأمكن ايريش ماركس أن يطلع عليها بعد أن أبقى عليها هربرت بسمارك قد اعدمتها أرملة هذا الاخير بغيا . فتبعة هذه الخسارة القومية وضياع هذه الوثائق القيمة بقعان على عاتق وريثة تصطنع الحشمة (الكاتب)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والادارة كربا مضاعفا ، تريد أن تشق لابنها مع ذلك ومن جديد سيرة فى الحياة ، فتسعى له حتى يقبل فى بوتسدام بعد أن أعفاه أرنيم اعفاءه التهكمى من آخن فقال ان البارون الصغير « بعد نشاط اشد قد اخفق مسعاه فى آخن لظروف تتصل بالمجتمع » . وكانت السلطة التابع لها دون ذلك رقة من الناحية الرسمية فأبلغت بوتسدام أن صاحب المطعم الذى ظل حضرة البارون يتناول طعامه فيه عدة أشهر ومعه آخرون ، يطالبونه بعدة مئات من الريالات بعد اذ اختفى بسمارك من آخن هربا من هذه الديون

ويظهر لهم المتهم متعاليا « لا ينوى أن يحيط الحكومة الملكية فى آخن وقسم الداخلية فيها بأموره الشخصية » بل سيقدم شكواه من « هذا التدخل الجرىء فى شئونى الخاصة » وكذلك الأب الذى يتجهون اليه يطالبونه بديون ابنه ، يعنف معهم وينهاهم أخيرا عن المضى فى مكاتبته . فالى هذا الحد من الاستقلال يذهب هؤلاء النبلاء فى معاملتهم لسلطات حكومية ومن ورائهم تقليد يسندهم مرعى منذ قرون . يهملون هذه السلطات حينا وعليهم سمت الاسياد ، ويسعون اليها حينا آخر حسبما تملى الظروف

فى بوتسدام

ويعود مع ذلك الى خدمة الحكومة فى بوتسدام يحميه ذوو النفوذ ، ولكن بشرط حدد كتابة وهو أن يبدى فى عمله جدا وغيرة ، ويراعى النظام

بيد أن العنيد لا يصبر على هذا ، ولا يطيق ادارات المدن الصغيرة ، ولا الاجتماعات الدورية المضحكة ، ولا الرؤساء المتحذلقين ، ولا المواعيد الدقيقة فى الخدمة : فلا تنقضى ثلاثة أشهر حتى يتغيب النبيل من دون اذن

فى تلك الاثناء تتكاثر النذر بانهيار مزارع ابويه ، وتعانى الام من مرضها فلا يريد أحد أن ينظر الى مرضها بعين الجد ، اذ كانت دائما تعنى بنفسها ولا تعنى أبدا الا بنفسها . ولايستطيع الاب فى شيخوخته أن يتعلم العمل فجاءة . ويقول الاب : نؤجر ، فتشير الام : بل تقيم مصنعا للسكر . وفى برلين يشخص الطبيب مرضها بالسرطان فتبقى فيها للعلاج ، ويعودها الابن فيها كثيرا . لكنه فيما تلا من الزمان كان ما يزال يسر لها بعد أن غيبها اللحد أنها اضطرته الى أن يقرأ لها كتبا صوفية وهى على فراش المرض

يكره الخدمة العسكرية

الا ليت المرء يتخلص من الخدمة العسكرية ! ان ابن الثالثة والعشرين يكتب الى أبيه يقول : « لقد حبطت محاولتى الثالثة فى برلين أن أعفى من الخدمة العسكرية . على أنى قد أملت بالاعفاء بعد خدمة أقصر أمدا لضعف عضلى أزعم أنى أحسه تحت ذراعى اليمنى حين أرفعها . وذلك من جراء جرح أصبت به ليس عميقا كافيا مع الاسف .. وسواء أدخلت الخدمة قبل أن ينتهى التدريب بأسبوعين أم دخلتها قبل ذلك بثلاثة أشهر فلا بد

أن ينتهى قبل المناورات ، ومن ثم سأعمل ما أمكن على أن أدخل متأخرا » . بهذا الجهد يتحامى بسمارك الجندية وهو صحيح البدن شاب ، يزعم ضعفا عضليا لم يصب به قط رغبة فى التملص . ولا يحتمل الاجبار أستاذ فى الركوب والمبارزة وضرب النار ، لا يحتمله من كان طيلة حياته يجرب فى الجرأة والشجاعة الشخصية ضروبا جديدة على الدوام . فهو لا يحب أن تذل كبرياؤه ، فانه حين تعين عليه الانضمام الى رماة الحرس وقع الخلاف على الاثر بينه وبين رئيسه : « فانى لا أطيق الرؤساء أبدا »

ضائقة عائلية

ومزارع أبيه فى تلك الاثناء تتدهور تدهورا سريعا ، فالزوجة المريضة المدللة ، وولداها اللذان يخدمان ولا يكسبان ، بحاجة جميعا الى المال ، والأب لا يستطيع تحصيله ، وهم يدفعون على المال المقترض فائدة قدرها ١٢ فى المائة وزيادة : فكل شيء يجرى الى ضائقة ، ويصب فى مأزق . وسواء أكانت الام المتحضرة ، ام كان الاب المهموم ، ام الاخ الاحذق الذى لا ينفك فى الخارج عن الدرس أم المتشرد الذى لم يعد يروقه شيء ، هو الذى يفكر فى هذه اللحظة فيما ينبغى عمله للتفادى من الضائقة ، فان المؤكد أن الجميع على قلة حيلتهم وارتباكهم ، كانوا متفقين على فكرة بسيطة هى انه لا بد من وجود الابنين فى الريف لينقذا الاسرة من الافلاس . وحقا لقد كانت نزعة بسمارك النيهيلية اليائسة سببا لاستحكام الضائقة : فهو يذهب الى الام يقول لها انه لا بد من عمل شيء . ويكتب الأب الى الابن الاكبر يقول : « انه يبلغ من نفور اوتو من عمله فى الحكومة أنه يمل الحياة . واذا لبث يرهق نفسه وعيشه مدى الحياة تقريبا فلعله لن يصبح فى النهاية سوى رئيس يتقاضى مرتبا لا يزيد على ألفى ريال . أما الحظ فلا يرجى منه شيء . وقد ألحف كثيرا فى رجاء أمه أن تهيء له مركزا آخر .. وأن يتعلم فى ماجديبورغ كيف ينتج السكر اذا نحن أردنا أن ننشيء مصنعا له يديره بعد ذلك فى كنيبهوف . واذ كنت أتألم كثيرا لشعوره الزائد بالهم ، وكنت تبينت فى كنيبهوف مبلغ ما تهمك الزراعة (يعني برنارد) ، وكنت أرى أننا لا محالة مقضى علينا اذا اضطرنى الامر الى البقاء فى برلين ، فقد صممت على النزول لكما أنتما الاثنين عن مزارعى هناك والاكتفاء بشينهوزن فى اقامة صلبى » وفى هذا ينبغى ان يؤدى الاخوان امتحانهما مهما يكن من أمر

هذا القرار لا يمكن أن يكون صعبا على أب متراخ ، طيب القلب ، ناهز السبعين ، وانه مما يدل على دنو الانهيار وعلى ضعف الأم أيضا أنها أقرته . فنحن نودع شخص هذه المرأة الطموح التى قضت نحبها بعد هذا القرار وهى فى الخمسين ــ نودعها متأثرين وان كاد أحد ألا يحزن عليها . وقد ذهبت مخيبة الامل الذى عقدته على ولديها ليعوضا أباهما ، ومع ذلك فقد قدر أن تتحقق آمالها بعد جيل فى صورة فاقت كل حساب

ولم يبد الأباعد من أعضاء الأسرة استعدادا لمد يد المساعدة وان كانوا مع ذلك قد أحسوا بأن الشكوى فرض عليهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صورة ذاتية

والى خطاب تحذير كتبته ابنة عم يرجع الفضل فى ردلا لبسمارك يبدى بفيضه وصراحته أدق تحليل ذاتى لحياته بأكملها . فقد كان قبل سنوات مغرما بها ، ومن ثم تصميمه على أن يبرر مسلكه حيال هذه المرأة بالذات ويفصح عن نفسه . وقد كان هذا احساسه لانه احتفظ بالمسودة . وبعد ذلك بعشر سنوات بعث بها كوثيقة عن تاريخ حياته الى العروس :

« ان من الحقائق التى أعرف أن ليس لها من سبب سوى ذوقى أن طبيعة الأعمال والمراكز الحكومية لا تلائمنى أصلا ، وانى لا أرى من السعادة قطعا أن أكون موظفا بل وزيرا ، وأن تحرير الاوامر الادارية ليست فى نظرى أشرف ولا أنفع فى بعض الظروف من زراعة القمح ، وأن طموحى يتجه الى ألا أخضع أكثر مما يتجه الى أن آمر .. ان الموظف البروسى يشبه الفرد من أفراد الجوقة الموسيقية ، وليكن العازف الاول على الكمان أو ضارب الصنج ، فعليه ان يؤدى دوره كما عين له من دون ان يكون له على المجموعة اشراف او تأثير لكنى انا اريد ان اصنع الموسيقى التى اراها انا صالحة او لا اصنع شيئا ..

« وقد كان حب الوطن من البواعث التى حدت قلائل من مشاهير الساسة فى بلدان ذات دستور مطلق الى الدخول فى خدمة الحكومة ، لكن الغالب فى هذه البواعث هو الطموح والرغبة فى الامر والنهى ، وفى الاعجاب والشهرة . ولست أكتمك أنى لست خلوا من هذه الشهوة . وبعض الانعامات التى يصيبها الجندى فى الحرب ، ورجل الدولة فى البلدان ذات الدستور الحر من أمثال بيل وأوكونل وميرابو وغيرهم ، والمساهمة فى الحركات السياسية القومية ، لها على تأثير وجاذبية طاغية ، كالجاذبية التى للنور على البعوض

مغالبة الطموح

« وأقل من ذلك فتنة لى هو ، على النقيض ، ذلك النجاح الذى يمكن أن أصيبه عن الطريق العريض ، طريق الامتحانات ، والصلات ، ودراسة الملفات ، والاقدمية ، ورضى الرؤساء . ومع ذلك فثم لحظات لا أفكر فيها فيما ينتظرنى فى الخدمة من مرضيات الغرور ، الا وأنا أشعر بالاسف الاليم : وذلك كالترضية التى أتلقاها حين أرى المصلحة ترقينى ترقية سريعة اعترافا منها باحتياجها الى ، ورضاى عن نفسى حين اعد رجلا كفؤا نافعا ، والمجد الخفى الحقيقى الذى تحوطنى وأسرتى هالته آخر الامر . فى كل هذا فتنة لى حين احتسى زجاجة من النبيذ ، وانى لفى حاجة الى تأمل هادىء جرىء لأقول لنفسى ان هذا من هوس الغرور الطائش الذى يعادل فى طبقته زهو الانيق بثوبه ، والمالى بماله . وان من الخرق والعقم أن ينشد المرء السعادة كما يراها الغير . وعلى العاقل أن يعيش لنفسه ولما يراه حقا وصدقا ، لا للأثر الذى يتركه فى أنفس الآخرين ، ولا للأحدوثة التى يتناقلها الناس عنه من قبل موته ومن بعده

« وقصارى القول أنى لست مبرأ من الطموح ، لكنى أعتده شهوة كسائر الشهوات الرديئة ، وربما أشد منها هوسا ، لانه حين أنساق معه يقتضينى التضحية بقوتى كلها واستقلالى جميعه ، من دون أن يمنحنى فى أسعد توفيق رضى مقيما وقناعة دائمة .. والمرتب الذى أستطيع فى حاجاتى أن أتزوج به وأقيم فى المدينة بيتا ، لن أحصل عليه فى خير ما أنتظره من وظيفة الا فى الاربعين من عمرى ، وفى منصب رئيس او ما يشاكله ، حين يجف عودى من غبار الاضابير ، وأصبح سوداوى المزاج ، مريضا بالصدر ، مضنى العجز من طول الجلوس ، محتاجا الى امرأة تمرضنى

« من أجل هذه المنفعة المعتدلة ، وهذا الاشتهاء لأن أنادى بيا حضرة الرئيس ، والوعى بأنى سوف لا أفيد البلاد بقدر ما أكلفها ، وانى أكون فى ذلك أحيانا عائقا ومسيئا .. من أجل ذلك صممت تصميما قويا .. على ألا اضحى باستقلالى ، وبكامل حيويتى ونشاطى ، ما دام هناك الوف ، وبين هؤلاء كثيرون من المتازين ، يجدون هذه الجوائز ثمينة توائم أذواقهم ، وتحملهم مسرورين على شغل المكان الذى أتركه شاغرا »

التعالى والاحتقار

هذه الوثيقة الاولى المعبرة عن ذهن بسمارك تكشف عن عزة نفسه وفطنته وما يحمله لغيره من الازدراء . فاذا أضيفت اليها الجرأة كانت العناصر التى يتركب منها خلقه ، وكانت أسباب نجاحه وعلة نقص شعوره بالسعادة ، وبواعث نزاعه النفسانى المحزن الذى ظهر فيما بعد . فهنا ازدراؤه كل وسط ، والصورة التهكمية للساعى الذى يريد فى النهاية أن يخاطب بياحضرة الرئيس مهما كلفه ذلك فى جسمه وروحه . وبهذا الخلق يأبى كل حظ الموظف الذى يوجد دائما من هو فوقه ولا ينعم بالحرية أبدا . هنا تضلع ابن الثالثة والعشرين فى علم النفس اذ يفرق بين ما يفتن وما يطغى ، بين الغرور والمجد ، بين الجمع والمفرد ، بين المركز والسلطان ، واذ يبدى للقارىء فى نفس الوقت صلة الشهوات العصبية بقوة ايحاء الكحول . هنا ابن الريف الذى يحب جسده ، ويعمل على تقويته ، ويؤثر الصحة على الوظيفة ، والغابة والصيد على الكرسى والمكتب

هنا قبل كل شىء فتى فخور لا يوصف فخره ، ولا يرضى الطاعة بأى ثمن ، يشعر سلفا بعبث كل أمنية تتطلب منه التضحية بالحرية . وما أبرز سمت السيد فيه وهو ينحى باعث حب الوطن ، ويغفل الاهتمام بمشاكل الدولة التى تتطلب الحل أو التخفيف ، ليطلق على قلبه كلمة الشهوة بيد ثابتة ! فاذا كان ثمة ما يستولى وما يجذب ، كذلك الذى يدفع بالبعوضة الى النور ، اندفع ، لا ليحقق فكرة ، ولكن ليأمر وينهى فى الغالب ، وليصبح فى عداد المشاهير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمثلة من الثوريين

بيد أن هذا انما يقع اليوم فى الدول الحرة ، يقع فى انجلتره حيث بيل ، وقد كان، وقت أن كتب بسمارك هذه الكلمات ، رئيسا للوزارة الى أمس فحسب ، يناوىء حزبه فى مجلس العموم دفاعا عن حرية التجارة ، وحيث أكونل يكافح فى نفس الوقت عن حرية ايرلنده . وكلاهما ثورى لم يحفل بملك ، وانما كان أحتفاله كله وهمه كله بما يستخدم فيه همته وبصره بالامور! كلاهما ينتزع انقلابا ، حتى ميرابو أراد أن يحد من سلطة الملكية . أما فى بروسيا ، أما هنا فى هذه الارض الالمانية المحرومة من الدستور ، الخلو من المجلسين ، مجلس اللوردات ومجلس العموم ، فكل هذا أحلام بارون يهذى ويتطلع عبثا الى حركة سياسية

هذا هو بسمارك الذى يحس فى نفسه الديكتاتور المطبوع ، لا يحدوه الاخلاص للملك ولا خشية الله ، لا حب الوطن ولا الشعور بالتبعة نحو الجماهير ، بسمارك السولست العظيم ، محتقر الناس ، المجاهد الذى يترقب التغيير بكل ما فيه من تفزز مبعثه نزوعه الى الثورة ، المغامر الذى يزدرى النظام القائم لانه لا يتقدم ، والذى لا يكبح توثبه العصبى بل يغير وجهته ، والذى يريد أن يأمر وينهى حسبما يرى هو ، ولا يطيق أحدا فوقه

الفصل الخامس

يسكن الأجراء فى كنيبهوف بيوتا مستطيلة مسقفة بالقش ، قد بلغ عددها اثنى عشر بيتا ، فى كل بيت أربع أسر تعيش فى فقر مدقع ، ولا يكاد الفرد فيها يكسب ريالا فى الشهر ، وفى أيام كثيرة فى السنة يلزم العمل بلا أجر . وهم لقاء ذلك يسكنون هذه السكنى الحقيرة بالمجان ، ويأخــذون حاجتهم من الخشب للوقود ، ويحوزون ثلاثة أفدنة ، ومرعى ودريسا وحصة من الغلال . فاذا ساء المحصول أسعفهم سادتهم اذا شاءوا . واذا كانت هذه المزرعة من مزارع الفرسان ، فسيد الارض فوق ذلك صاحب شرطتها وقاضيها وراعى كنيستها بحكم القانون . يجلس فى مجلس الدائرة ويمكن أن يكون مديرها . يستطيع أن ينفع وأن يضر . فلم يكن فى الحقيقة لهؤلاء القرويين حوالى سنة ١٨٤٠ حقوق ولا ضمانات ، بل كانوا عبيدا مخلصين شأن العبيد ، اذ كان آباؤهم خدما لآباء سيدهم المحترم

وبسمارك يحسن معاملتهم ، وهو دائما سيدهم ، فقد كتب اليه صديق يقول : « ألست أوتو الانسان الودود ؟ .. ألست السيد الذى يحنو على أتباعه ؟ .. انى ليرضينى كل الرضا أن أعامل بهذه المعـاملة من وكل الى أمرهم ، ولما يكادوا يعترفون بى وليا لهم ، فهى معاملة حسنة يتحدث بها الجميع عنك » . ومع ذلك فاذا ابى القروى يوما ان يتزحزح فلا مفر من التصادم المخيف ، فعجلة القروى أمتن ، وعجلة السيد لا معدى عن أن يلقيها التصادم عطبى فى الطريق ، وعواقب ذلك لا تخفى على اللبيب . وقد قالها منذ البداية ، وأبدى كيف يفهم الحياة الجديدة ، وكتب الى الصديق أنه من الآن فصاعدا يريد أن يكون « السيد لا الخادم .. فلا أنسخ بعد الآن صور البرقيات »

تقسيم الاطيان

ولم يدم عيشه مع أخيه طويلا ، وان كان يحبه من قلبه . ذلك أن بسمارك لا يطيق العيش مع عديل له فى الحقوق : ومن ثم قسما ميراثهما قسمين، فكان بسمارك فى هذا التقسيم شديدا . فهو يكتب : « انى على وشك أن أقتسم مع أخى ، وقد حملته على هذا بمعونة شار عرض عرضا مرتفعا جــدا » ويسعى كل بمفرده بعد ذلك الى الخروج من « ورطة الدين » مترفقا جادا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واختلف بسمارك قبل ذلك الى الجامعة أشهرا لكى يتعلم الزراعة ، واستمع فى جريفز فالد وايلدنا الى دروس فى الكيمياء ، واستجلب من كيزرلنج كتبا فى علم النبات ، ووجد طالب طب يحصل منه شيئا فى الكيمياء .. كذلك وقعت له مبارزات من جديد ، ومنازعات مع رجال الشرطة ، اذ هو لم يعد طالبا ، لكنه لم يصبح بعد باروناً كاملا . ومع ذلك يجلس بهذه الصفة على المائدة بين الملاك المزارعين الذين يقدمون الى السوق « فأستمع اليهم عندئذ استماع الفطن ، وأفكر فيما يقولون ، وأحلم ليلا بالشوفان المدروس والسماد والحنطة السوداء وهى ما تزال فى سنابلها »

الزراعة كمعلم

وحقا انه ليحتفظ بلهجته الساخرة ، لكنه ما ان تحتويه المزرعة حتى يحاول ما فى وسعه « بكل ما يلابس فتيان المدن الذين يزاولون الكتابة من جهل تام » ليرفع من مستوى زراعته ، ويجلب من الجمعية الزراعية التابعة لمدينة الدائرة كتبا كثيرة ، ويمسك دفاتره بنفسه على وجه صحيح يرد فيه كثيرا ذكر القروض التى تعقد أو تسدد . ذلك أن المال ينقصه غالبا ، بل دائما ، فهو حين يسافر يستوفى راحته ، ويدفع ثمن ذلك غاليا . وهو يقامر احيانا وان كف عن المقامرة بالمبالغ الكبيرة ، فاذا أنفق شيئا أثبته فى دفاتره حتى ما يربح فى الميسر وما يخسر . ويركب فى تلك الاثناء وحده أو مع مفتش الزراعة ، يتعلم ويعاين ويأمر ويشعر فى ذلك بأنه آمن فى سرجه ، ويعرف الطبقات الدنيا ، قرويين وتجارا ، ويتعرف ما يكتنف الارض من حقائق . يقدر الجو ، ويدرك قيمة ما خلا ذلك من تفاصيل ، وينمى ذاكرته المطبوعة تنمية عظيمة ، وتتمثل لتعبيره مئات الصور . وفى هذا النشاط العملى يقوى ادراكه للحقائق ، ويشتد عزوفه عن النظريات ، فاذا راح مساء الى بيته جلس الى الشمبانيا والبورت مزيجه الاثير عنده

سأم الفارس

وقد قرأ بسمارك كثيرا جدا فى السنوات الجديدة التالية التى ربما قضى ثلاثة أرباعها فى الريف : « لقد حصلت معارفى العامة من أننى ، فى الوقت الذى لم أكن أديت فيه شيئا بعد ، وجدت فى مزرعتى مكتبة تحتوى كل ما يتيح القدرة والمعرفة فالتهمتها بنصها وفصها » . وفى هذه المكتبة كثير من التاريخ لا سيما الانجليزى ، وشىء فى الاجتماع ، وفيها حتى لويس بلان ، وكثير مما كتب بلغات أجنبية وخاصة شكسبير ، وما كتب بيرون وليناو وبلفر ، وهم أحب الكتاب اليه . وقد كون نفسه فى الوحدة وكونته الوحدة ، وظل برهة هنا راضيا لا يزعجه أحد ، وكتب يقول: « لا بد لى من العاصمة أو الريف »

لقد لبث ابن الخامسة والعشرين طيلة عامين مرتاحا الى هذا الشغل « لما فيه من استقلال » فسرعان ما تبدد كل وهم عنده. لكنه سرعان ما بات رأيه : « لقد أبت بعد ما بددت التجربة ما وهمت من هناء ساج فى حياة مزارع

« يمسك دفاتره » امساكا مزدوجا ويزاول دراسات فى الكيمياء » . واذن فليركب ويخرج للصيد ويطأ ارض الجيران ويسب بعد ذلك ، « وددت لو انهم اشتروا من ماشيتى السمينة بدلا من أن يدعونى الى تناول طعام الغداء . ان أحدا منهم لم يعاين خرافى ، والاسعار تنزل كل يوم فى برلين . » ويراه الناس أحيانا فى زورق يصطادالبط . لكنه الى جانبه فى الزورق زجاجة الشمبانيا ، وفيه يقرأ بيرون . وهو فى كل مكان يمتاز من زملائه بوصفه فارسا ، ويمتاز كذلك من النبلاء ، فقد سافر كثيرا ، واختلف الى البلاط ، وهو متحدث لامع ، وفارس جسور ، جرىء مع النساء ، محق فى سخره من النبلاء المغفلين : « فلو سألت أحدهم كيف حالك لأجابك : حسن جدا ، لولا أنى أصبت مع الاسف بالجرب فى الشتاء »

تجاوز الحد

وتسوء سمعته تدريجا ، فهو كلما برم ازداد افراطه فى التسلى وخديعة الغير . والآن يجد حتى فى الجندية ترويحا عن النفس ، فهو يذهب الى « الاولان » ملازما ثانيا يتمرن معهم ، ويثب الى المركبة مع أخته الصغيرة التى تعايشه الحين بعد الحين ، ويسوق المركبة ركضا ما وسعه ، وان كان يشد الى عريشها جوادين من جياد الركوب . فاذا عاد ليلا من وليمة تعثر فى طريقه غير مرة ، ولم يثب الى رشده الا بعد اغماء . يسبح ويستحم كثيرا ، لكنه يتغلب بالقوة على احساسه بالبرودة . وهو يعشق من كل الطبقات لكنه يهزأ بأبناء طبقته اذا عاشروا خليلاتهن علانية . وحين تخلف أصدقاؤه مرة عن موافاته الى موعد صباحى ، ووضعوا « كومودينو » خلف بابهم متراسا ليغيظوه ، اطلق النار عبر نافذة مفتوحة على سقف الغرفة فأمطرهم من كلسها . ويجلس بعد المائدة على أريكة يطلق منها النار على لوحة الهدف . ولا عليه اذا اصاب فى ذلك منجر النجار . لكنه حين يسقط « سائسه » فى الماء يعرض حياته للخطر فى سبيل انقاذه

ومن يزره يقدم له الشمبانيا والبورت ويدعه يسقى نفسه . وبعد جلسة من هذا القبيل يركب ساعات فى طرق موصلة الى مزرعة الجار حيث يصدم بمظهره الفاضح جماعة متأنقة . وعلى هذا يعود بسمعة « النبيل المجنون » من دون أن يكون فى الواقع مجنونا ، ويفوز الناس به عن طريق شهية لاتحد وظمأ لا يطفأ ، وفن الذى يتحمل كل شيء . فاذا نزل بجاره ضيفا وكان عليه أن يستفتح بقدح من الشراب يسع القنينة بأكملها ، أدهش المنتدى بأسره باجترائه اياه دفعة واحدة . وبينما هو ، حين يفعل ذلك ، لايستشعر أنه أتى شيئا خارقا للعادة « تظل معدتى بعد ذلك أربعة أسابيع مرتاحة كما لم تكن من قبل » . وفى هذا المجلس يتكلم احيانا عن السياسة فى العاصمة مزدريا دائما ، ولا يلبث أن يثير اهتمام الكونتسات الصغيرات الى أقصى حد ، وان آلم الأمهات قليلا أن تنتقل البنات الى الهر فون بسمارك يجلسن الى مائدته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقال عن الارانب

وذاع أمره مرة من دون أن يذكر اسمه ، اذ شكا أحدهم فى صحيفة حرة من صحف « أوست سى » من أن نبلاء بوميرانيا الخلفية يؤذون المزارع بخيولهم وكلابهم الانجليزية فى صيدهم العنيف ، وهو فى رأى الصحيفة أمر لا يقابله سوى الدفاع عن النفس . ويرد بسمارك فيرفض المحرر رده ، لكنه يقبله بعد تصحيح دقيق . وفيه يحاول أن يدلل على النقيض من ذلك على ان هذه الركبات الشتوية لا تضر بالحب ، ولكن تنفع فى تربية الخيل ، وان الجياد التى يركبونها جياد ألمانية ليس من انجليزى معها سوى السياط . ويجب ان يكشف مسيئين آخرين لا يستوردون من انجلترا سياطا فحسب ، بل صابونا للحلاقة وصديريات بل « جبن شستر » . ثم يشير الى شخص كاتب المقال وينسب اليه بواعث شخصية لا موضوعية ، ويضع اسمه ومسدساته كذلك بطبيعة الحال تحت تصرفه ، ثم ينقلب سياسيا اجتماعيا فيقول :

« افهم حين يطارد اناس فى سترهم الحمراء ، وعلى ظهور جيادهم ، ومع كلابهم ، ارنبا فى الصيد ، ويبدون كأنهم راضون فى ذلك عن انفسهم وعن شغلهم . أفهم ان يكون هذا بغيضا الى الارنب ، بل أيضا الى انسان لا يرضى عن نفسه ولا عن الناس ، يسير فى سترة سوداء ، ولا يقتنى جيادا ولا كلابا ، ولا يزاول صيدا ، ولا يحدوه ميل الى صيد » . ثم يعترف بأنه ولد « من طبقة هؤلاء النبلاء الآنفى الذكر .. الذين تخلف امتيازهم الذى يخولهم حمل لقب « فون » عن سلطان عصور مظلمة كما يتخلف كثيف الضباب فبات يحجب عن ألمانيا الحزينة شمس الصباح الطالعة بالمساواة بين المواطنين والمجتمعات » ثم يطالب فى النهاية بأن « يترك لبوميرانيا الخلفية استحقاقها وحريتها الشخصية فى أن تتسلى بمالها كما تستطيع وتحب »

وهذا أول تصريح سياسى لبسمارك كتبه فى الثامنة والعشرين من عمره من أجل بضعة أرانب وبضعة حقول محصودة ، لكنه يعج خفية بسخيمة النبيل حيال الطبقات التى تريد أن تنازعه امتيازه . فهو حين يظهر علانية لاول مرة يدافع عن طبقته العليا وحدها ، ويهزأ بالطبقة الدنيا التى لا تزاول صيدا ، ويتهكم عليها فيقول انها لا يحدوها ميل الى صيد . بلى انه ليشبه المواطن أو القروى الذى ينظر بعين الاستياء الى كوكبة الركبان وهى تركض عبره ، يشبهه بالارنب الذى يراد صيده ، وتبغى اللعبة المعدة رأسه . ولو قد اتاه احد وطالبه بتعويض عادل مما اصاب لما حبسه عنه . لكن المطالبة العلنية والمبدأ الجديد وما يصاحبه من هجوم يثيره كله فيسبغ على نفسه درع آبائه . فها هى ذى أولى كلمات بسمارك السياسية ينطقها فيه ذائد عن طبقته

الخطبة الثالثة

وكان قبل ذلك بقليل قد خطب للمرة الثالثة ليسرى عن نفسه . خطب

فتاة من ناحيته هى اوتيليا فون بوتكامر ، لكن امها كانت تعارض فى الخطبة . « بعد أربعة عشر يوما وقعت الواقعة بينى وبين أم خطيبتى . فهى امرأة اذا شئت انصافها قلت انها من اردأ من عرفت من النساء ، تهفو الى أن تكون نفسها وفى سنها موضع نظرات الحنان » . وتريد هذه لسمعة بسمارك السيئة أن تباعد سنة بين الشاب والفتاة ، ثم يأتى بعد ذلك أبوه يتوسط أو هو قلم الأب الذى يتوسط : فقد أملى بسمارك هذا الخطاب السياسى الرشيق على أبيه فيما يبدو ، ومن ثم يضحك أن ينسب الى نفسه « الرشد والحيوية ، ومعذرة فى هذا الغرور ! » بيد ان الحماة تظل عنيدة لا تلين ، وتملى على ابنتها — عكس ما وقع فى كنيبهوف — خطابا رديئا ظالما بالرفض

وقد صعق بسمارك هذا الخطاب لما فيه من اهانة على الأكثر ، لا من أجل الفتاة التى سلاها فى خلال العام . غير أنه لا يرى من الكرامة أن يبدى ثورة النفس المهانة ، وأن ينفس عن ثورته ببضع طلقات يسددها الى اخوة . . وعقيب سفر اراد ان يلطف فيه من غضبه اذا امكن فى اجواء غريبة ، يعلن « اننى قد هدأ ثائرى الى حد أن أجد فيما اسخطنى من قبل على نفسى وحظى اعظم هناء لى » . لكنه ما تزال الحربة عالقة بشرفه تجرح شعوره بالكرامة ، ذلك أنه لما أرادت أم الفتاة بعد أربع سنوات مرت على الحادث ان تمهد للصلح فالزواج تراجع هو ، لان هذه المشاعر — وهو ما يعترف به لصديق — « هذه المشاعر التى اثارها جرح اعمق احساس لى واصدقه بمثل هذه الرعونة فظلت تمضنى أعواما ، وهذا الغدر بثقتى ، والاذلال لكبريائى ، قد خلف فى نفسى مرارة لا اعتقد ان فى وسعى التغلب عليها . وليس سهلا على مهما حسنت ارادتى أن أتغاضى عن اهانة أشعر بها فى الصميم » . ويزعم فى ذلك الاوان على وجه عام أنه لا يسعه الحب . فالى هذا الحد تستكن الكبرياء والبغضاء فى قلبه حتى لاسبيل الى أن يزاملهما حب وتفان الى حين

ما انطبع فى نفسه من انجلتره

وقد قادت ابن السابعة والعشرين رحلته التى قام بها الى انجلتره اول الامر ، لكنه لما لفت عند نزوله فى «هل» الى ماينبغى لانه صفر فى يوم أحد ، عاد من فوره الى ظهر السفينة وواصل سفره الى سكوتلنده . وحين يشهد بعد ذلك أمام مجلس اللوردات مايمتطيه اللوردات من جياد « لاتشد الى مركبات » أو حين يرى الوجهاء تركض بهم الخيول يؤثر ذلك فيه ، اذ كل ماينتمى الى عالمه يسترضيه . فهو يكتب الى أبيه عن هوسار يورك يقول : « أن تعيين الحيول الجديدة التى لم تؤد شيئا بعد هى اربعة صياع من الشوفان واننا عشر رطلا من الدريس تقريبا . وقد استغربت أمس أن ليس ثمة مخازن للغلال ، فكلها اكوام تبلغ من عشرين الى خمسين مما نعدمن العشرينات ، وليس الى جانب البيدر المسقف الا مايسع كوما واحدا » . ثم يطرى « أدب الانجليز الجم ورقتهم الزائدة اللذين يفوقان كل ماتوقعت بكثير . حتى أقلهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شأنا مهذبون ، متواضعون جدا ومعقولون اذا تحدث المرء معهم » وكما يروقه ادبهم المطبوع تعجبه شهيتهم المطبوعة أيضا : « فهذه بلاد الاكولين .. فليس هنا من يأكل بقدر معلوم ، فأضخم القطع من أنواع اللحم تقدم حتى عند الافطار ، وهو ما لانعرفه نحن بحال من الاحوال ، تقطع منها وتأكل ماتشاء من دون ان يكون لذلك أثر فى الحساب » . ومن يعرف فى رسائل بسمارك المواضع التى لاتقع تحت حصر والتى يعدد فيها هذه اللذاذات فى جد بالغ حتى وهو فى أرذل العمر ، يدرك معنى هذا التبليغ الذى يبلغه أباه عن الأكل الكثير الطيب ..

وأقل من هذا قبولا لدى أهله هو ، فيما يبدو ، تلك اللهجة الآمرة التى يطلب بها المسافر ، وقد بلغ سويسره ، الى أبيه وأخيه أن يدفعا الضرائب المستحقة عليه فى بلده وأن عليهما أن يبعثا الى زيد أو عمرو فى طلب المال أو يتعاقدا « مع خالد على القمح والكحول . أرجوك أن تفعل هذا وآمل أن تنظر الى المسألة كما تنظر الى مسألة لك »

السأم يدفعه الى آسيا

وما ان يعود حتى يعاوده السأم فماذا يصنع هنا فى هذه المزرعة الضئيلة؟ ان بوميرانيا ضيقة ، وألمانيا مضجرة ، والعالم فى الخارج أجيش بالحياة . هاهو ذا يجلس الى موقد آبائه يقرأ بيرون ، وينسخ أكثر اشعاره انطواء على العناد فلا يلبث أن يفكر فى احتذاء مثال اللورد ، فيقفل ديوان الشعر ودفتر الحساب ، ويرتب مع أرنيم ،أحد اصدقاء المدرسة ، مشروع رحلة « الى مصر وسوريا .. وربما الى أبعد من ذلك . فاذا ماتمت على مايرام تدابير تتعلق بأملاكى ، فكرت فى أن أقوم بدور الاسيوى بعض سنوات لادخل بعض التعديل على زخرفة ملهاتى ، ولأدخن سيجارى على نهر الكنج بدل تدخينه على نهر ريجا »

غير أن رفيق السفر بدلا من أن يقدم على هذه المغامرة يقع بكل بساطة فى حب مالفينا شقيقة بسمارك البالغة من العمر السابعة عشرة ويعدل عن مشروع الهند . ويكتب الاب الى الابن بالذات « خطابا ينضح بالدمع عن الشيخوخة الوحيدة (اذ هو شيخ فى الثالثة والسبعين ، أرمل ، أصم) وعن المنية واللقاء » « لكنه حين يسأل بسمارك صديق لماذا لا يذهب الى الهند يجيبه جوابا بادى المكر : « لقد اردت ان اخدم فى الهند تحت العلم الانجليزى .. لكنى ساءلت نفسى فى هذه الاثناء ماذا اساء الهنود الى ؟ » وهكذا تنتهى خطة هذا الرحالة الكبير فى صورة بوميرانيه

الحياة كخيال الظل

هذه هى رومانتية شريف الريف ابن الطبقة النبيلة الذى يريد أن يتحرك ، ويتسلى ، ويفيد من الدولة فى أسوأ الحالات . فهو يكتب فى الثلاثين : « لقد قضيت فى الريف من ذلك الحين خمس سنوات وحدى . بيد أنى لم أعد

احتمل فيه حياة الاشراف أطول مما احتملت . فأنا اسائل نفسي : أينبغي أن أعود الى خدمة الحكومةأو أخرج الى سفر بعيد.. ان الحياة هنا تضجرني الى أبعد حد حين أكون وحدي .. وهو ما أعتقد انه يصيب كل شاب حسن التربيـة اذا عاش في الريف أعـزب » . ويدون في نفس الوقت في مفكرته : « أحصى النهار كله ، وأركب وأمشي في الشمس طيلتـه .. الا أن الحيـاة لتشبه خيال الظل » ، أو يذكر في دفتر حسابه خفير الليـل ومقطر شرابه ليبدو من الطبقة الراقية

وتتفاقم الآن نيهيلية الطالب فتنقلب كآبة عند الفارس المستشعرالوحدة في قصره : « من ذلك الحين وانا اقيم هنا .. اكاد الا اتأثر ذهنيا بشيء..ازاول أعمالي في دقة ، ولا احس في مزاولتهـا مسرة ، واعمل على راحة اتبـاعي ماوسعت حياتهم ذلك ، واراهم يقابلون ذلك بخديعتي فلا اغضب .. اني أقضي ما قبل الظهر متضايقا ، واستسلم بعد المائدة لـكل المشاعر الهادئة . ومعاشرتي لا تعدو الكلاب والخيل واشراف الريف . اسـتمتع عند هؤلاء بقسط من الاحترام لاني استطيع قراءة المـكتوب في يسر . وارتدي ملابسي في كل وقت كما ينبغي لانسان وأجزيء في ذلك قطعة من لحم الصيد في دقة القصاب ، وأركب في جرآة ورباطة جأش ، وأدخن سيجارا من النوع الحامي ، وأغافل ضيوفي في الشراب فلا أخرج عن هدوئي ورقة حاشيتي . ذلك أني مع الاسف الشديد لم اعد اتأثر بالشراب الى درجة السكر ، فما ازال اتذكر ما كنت أستشعره في حالة كهذه من هناء . وهكذا أحيا كساعة مقدر لهـا أن تدور ، ليس ما أشتهيه ولا ما أخشاه . حالة تنطوي على منتهى الانسجام وغاية الضجر »

ويخرج أحيانا الى الدنيا الواسعة ، فاذا بلغ من هذه الرحلة بحر الشمال وهو أثير عنده ، يكون قد خسر فيالميسر مايشعره الغبطة حين يفلت من دفع جواز المرور على الحدود بمظهره الحسن الذي لاترقى اليه الشبهات

ملهاة الصيادين

والآن واخته متزوجة يزداد كربه ، فقد كان كلفا بها . وقد ظل هذا المحب طول حياته يرى فيها وهي صغيرة على الاقل مثال الاشراق والاناقة الذي يستهوي طبيعته الركيزة ، ويعز عليها على الدوام مناله . ويقضي اشـهرا طويلة مع أبيه الشيخ وحدهما يقرأ ويدخن ويأكل سمك الرنيا ويمثل معه « احيانا مهزلة يحلو له ان يسميها صيد الثعلب » . ثم يصف بعد ذلك للاخت كيف يطوفون مع الصيادين والكلاب في المطر والبرد ، مدغلة تنوب يعلم الجميع أن ليس فيها سوى بضع نساء حاطبات ، وكيف يطارد المفتش الثعلب المزعوم باصوات حلقية غريبة « حتى يسألني الاب في هدوء تام : هل رأيت شيئا ؟ فأقول له وفي صوتي نبرة من التعجب أحاول أن تكون طبيعية بقدر الامكان : كلا ، لا شيء البتة .. ونستمر على هذه الحال ثلاث سـاعات أو أربعا .. ونشهد الى ذلك بستان البرتقال مرتين في اليوم ، وحظيرة الخراف مرة ، ونقابل كل ساعة بين مقاييس الحرارة الاربعـة الموجودة في الحجرة ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونحرك عقرب اللوحة الجوية الزجاجية ، وبعد أن يصفو الجو نكون وفقنا بين الساعات والشمس الى حد أن الساعة الموجودة فى المكتبة وحدها لا تتأخر الا دقة واحدة عن بقية الساعات التى تكون قد دقت معا » . ويحث الاخت بعد هذه الفكاهات الاليمة أن تكتب الى أبيها عما يقع لها كذلك من حوادث تافهة ، « عما تفعل الخيل ويأتيه الخدم ، وهل تصر الأبواب ويحكم اقفال النوافذ ، وبالايجاز وقائع وحقائق . هذا الى انه لا يحب ان ينادى بابا فهذا التعبير لا يروقه »

محام تحت التمرين

هكذا يتزامل فى قلبه الملل والطيبة ، ويقترن التسامح باحساس بليد تصدمه آفاق ضيقة . ولا يعجب أحد من أنه فى الثلاثين من عمره ما يزال يحاول لثالث مرة الحصول على وظيفة فى الحكومة « لاشفى بمحيطى ملالا يقرب أن يكون ضيقا بالحياة » . فهذا البارون الشاب يكتب من عل الى رئيس براند نبورغ الاول يقول : « ان ظروفى الآن لم تعد تتطلب وجودى فى الريف ، وهى تيسر لى الانسياق مع ميلى الى خدمة الحكومة » أليس معنى ذلك انه يفرض ان الحكومة تنتظره ؟

ويحبط هذا المسعى الثالث بعد أسبوعين اذ سرعان ما تقع من جرائه مصادمات وتكاد تحدث مبارزات . ويكتب الرئيس مرتاعا : « لقد خبرت فى حياتى الشىء الكثير فلم يقع لى أن عرفت محاميا تحت التمرين تبلغ ديونه ثلاثة وستين » . وتواتيه أسباب مألوفة ليهرب كرة أخرى ، فهو يقول لحاجب الرئيس حين لا يستقبله الرئيس فى الحال : « قل لحضرة الرئيس الأول انى انصرفت وانى كذلك لن أعود » . وحين يلقى الرئيس فى مأدبة عشاء فى نفس المساء فى برلين ويسأله أحدهم « أتعرف هؤلاء السادة ؟ » يجيب بسمارك : « لم أتشرف » ويقدم نفسه اليهم معربا عن سروره بمعرفتهم . ولا يكاد يعود الى بيته حتى يعكف على تدبيج الرسائل : « لقد نظرت الى المحاولة كما أنظر الى نوع ذهنى من حطب الاشجار يهب ذهنى المتراخى البليد شيئا من الصحة بعيد النشاط الرتيب النظيم . لكن .. الادعاء السخيف أو التواضع المضحك الذى يبديه الرؤساء لاح لى بعد طول انقطاع أخطر مما كان » . بل انه لما ناب عن أخيه فى مركز المستشار الزراعى سرعان ما برم بالمستشارية الزراعية وخيوله أيضا ، وبادر الى التخلى عنها

« هكذا أخوض غمار الحياة بلا ارادة ، فليس مايهدينى سوى ميل اللحظة التى أنا فيها . ويكاد ان يكون سواء عندى الى أى مكان على البر يقذفنى التيار »

الفصل السادس

منذ زمن بعيد والتقوى فى ضياع الفرسان البوميريين فى بيتها وبين أهلها . فالهر فون تادن الهرم من تريجاف ، وصهره لودنيج فون جيرلاخ وأخو صهره الجنرال أثير الملك ، وبوتكامر الشيخ من رينفلد ، والهر زنفت فون بلساخ ، كل أولئك شبوا فى المدرسة الحربية ثم خدموا ضباطا فى حرب التحرير ، فثم كانوا فى برلين « أفاقوا » فحملوا على بوميرانيا عقيدة الطائفيين ، وأنكروا الكنيسة الحرة ، وجلبوا من بعيد من آمنوا بهم من القسس ، وكانوا أنفسهم يعظون أيضا حيث يقيمون ، وفى قراهم ، ويحولون أجراءهم عن عقائدهم ، ويعاقبون أنفسهم بالتكفير ، ويعقدون المؤتمرات ، ولا يغضبهم أن يسمعوا انهم يذكرون فيما يلى دوائرهم الى مدى بعيد بالسخط ، وان يقترن ذكرهم بحب الاستطلاع لأحوالهم ، وقد كانوا يتكلمون كلاما عذبا عن الصداقة وأوكارها

مارى فون تادن

ومارى فون نادن فتاة جميلة ، مليئة بعض الشيء ، جياشة ، موسيقية ، شهوية ، تضفى على شهوتها قداسة ، تقرأ جان بول وأسرة برنتانو ، وتعزف قطع مندلزون . عرفت وهى عروس للشاب مورتس فون بلانكنبورغ صديقه الهر فون بسمارك وقت أن كان يضع الخطط لرحلته الاسيوية بالضبط . وطبيعى أن تغرم به وألا تريد الاعتراف بهذا الحب ، وأن تغتبط نصف اغتباط بأنه يحترم فيها عروس صديقه . « فاستقامته الرفيعة ، ومظهره الرائع فى الباطن والظاهر ، يجذبانني اليه دائما . ومع ذلك فانه يداخلنى احساس دائم بأنى معه فوق جليد زلق يمكن أن يميد فى أية لحظة تحت قدمى » . وتلاحظ أنها عنده مقدسة « لان التهذيب الخطر فى هذا الرجل الماجد العظيم ينقصنى » . وهى ترتاح الى محضره ولا تعلم سر هذا الارتياح ، لكنها تشعر بأنه بلا أدنى ريب رجل عبقرى بل لعله الشيطان بعينه . وفى هذا الاعتراف يمكن ان يستنتج انه كانت هنالك رسائل عديدة من فتاة فى بوميرانيا لم تصل الينا . لكن هذا هو الأثر الوحيد الباقى لنا مما وقع فى نفس فتاة عاطفية وجيهة من ناحية بسمارك ابن الثلاثين ، بسمارك الذى يبدو فى بوميرانيا رجلا مهذبا عظيما ويستهوى كيانا شهويا ، ويؤثر فى أعصابه كما يؤثر ابليس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انها تسعى الى فتنته كأخت لانها ابنة متدين مؤمنة ، ولـكن فى استطلاع الفتاة التى تتصيد وهى خارجة من الميناء . وبعد حديث طويل معهـا ومع أمها فى تريجلاف تكتب الى خطيبها :

« اننى لم اسمع قط انسانا يشرح الحاده أو بالحرى اعتقاده فى ألوهيـة الـكون بهذه الحرية وهذا الجلاء .. انك تعلم بلا ريب آراء أوتو الحزينـة التى يحس معها عدم الرضا الى حد كبير .. ولا جدال فى أنه مخلص ، وهذا يبعث على الأمل العظيم . كذلك ما يزال يداخله تهيب خاص من ذلك البخار الأزرق الذى اصطنع صورته وبات يتمثل فيها الله .. انه على قوله يعرف الليل جيدا ، وقد صلى فيه لآخر مرة ثم كف عن الصـلاة عامدا . وادعاء المتدينين بأن رأيهم هو الصواب ، وعظمة الهه الذى لايمكن فى رأيه أن يعنى بهباءة مثله ، والحاده التام ، والشوق البعيد اليـــه ، وعدم اكتراثه اطلاقا بالفرح والألم ، وضجره الدائم ، والملل والخواء الهائل : لقد قال : كيف يمكن أن أومن وليس لى عقيدة ما ! ان هذا الايمان اما أن يدخل قلبى ، واما أن ينبت فيه من دون أن يكون لى فيه دخل أو ارادة ! لقد كان متهيجا جدا وكان محتقن الوجه احيانا ، لكنه لم يكن يسعه الانصراف . ومع أنه كان مدعوا عند الجيران فلم يذهب بل لبث واقفا يتدفق حمية .. كان يبدو أن اوتو قد تأثر من جديد واستشعر الارتيـــاح من ذلك . لقد أحس الحب لنفسه يتملكه ، فأنت تعرفه جيدا ، وكان الرجل الرقيق الذى يصبحه عندئذ .. وقد قام بنفسى اول مرة ان اقول له : اوتو ، اوتو ! الا ما بدأت حياة اخرى ، وانتزعت نفسـك من هذه العيشة المضطربة !! »

عشق يسمو فوق الحواس

لقـد بصر هنـا بأمور الدين حضرة الدكتور . فهـذا هو نفس المـذهب العقلى الذى يتذرع به الآن كما كان فى السادسة عشرة من عمره وهو أيضا الـكبرياء الـكاملة لنفس شاعرة تأبى ـ هنا ، كما أبت فى الخدمة الحكومية ـ كل عناء وكل تصعيد ، وتطلب من الله فى بساطة أن يعهد اليهـا بما يريد ، كما طلبت فى صمت من ملكها ، ثم اذا به يصبح فجأة رقيقا . لكنه حـين يعود بعـد ذلك بيومين يوصف بالصمت وبالتفكير ، وبأن الأمر معـــه جد وأحيانا خوف على الأقل

وقد أسلم نفسه الى الفتاة الجميلة المأخوذة وأغضى اكراما لهـا عن بعض رسائل بعث بها على الأثر اليه خطيبها بلانكنبورغ الذى كان هو نفسه مهتديا. رسائل يقول فيها كاتبها : « انى قذفت بها قلبك المريض فى حميـــة الصداقة المسيحية الفتية كما لو كانت رصاصات فى حجم البرد .. لا أريد الا الخير كل الخير » . ويكتب الى بسمارك ثلاث مرات من دون أن يتلقى جوابا فيقول : ينبغى أن تحدوه ارادة الايمان ، وان يقرأ الانجيل ، ويفصح عن نفسه . ومن وراء ذلك دائما مارى . ذلك أن هذه الفتاة التى تسبح فى عالم الخيال تفتنها « هـذه الصـداقة لعنقاء بوميرانيا الخلفيـة الذى يعد مثالا لوحشية الطبع

والغطرسة والذى كان على قدر من الجاذبية كبير » . وحين تهدى الى خطيبها موريتس زهرة بنفسجية خالدة الزرقة عميقتها يشبكها فى صدره مباركا ترسل الى صديقه اوتو زهرة داكنة الحمرة وهى عالمة لماذا

دموع

وفى عيد من أعياد العنصرة يتقدمه الخطيبان فى عريشة مورقة ثم يطلعان الملحد على رسالة من صديقة بعيدة ، مريضة بذات الرئة يحبها بسمارك ولا تحب أن تموت قبل أن يشفى من الحاده . ويعقب هذا الاجتماع رسائل من بلانكنبورغ شديدة الابتهاج مفعمة بالتوكيدات . وتموت الفتاة الغريبة بعد ان « توقن من صميم قلبها بأن روحك ناجية غير ضائعة . آه لو تعلم كيف تضرعنا الى الله أن يهديك ونحن نصلى على الفقيدة فى جزيرة الصداقة » * ولم تصل الى أيدينا ردود بسمارك لأن السخيمة السياسية دفعت بلانكنبورغ ذات يوم الى اتلافها : لكنه فى الردود على بسمارك ما يلى : « لماذا بكيت ؟ ولماذا أغرورقت عيناى أنا بالدموع حين قرأت رسالتك ؟ آه يا أوتو ! ان كل كلمة فى خطابك صادقة » ويشهد بسمارك فيما بعد بأن هذه الحوادث هزته . لكنه سرعان مايقطع حبل المراسلة ، فهذه المشاركة يعدها « عطفا » وكبرياؤه لا تحتمل ذلك . وهو يشعر الى ذلك بأنهم عرفوا من أى نوع هو . وقصارى القول انه لايريد أن يسمع بعد ذلك شيئا

لقد غاض المطر الذى نزل فوق هذه الصحراء وتشربته سريعا . وليس مما يدعو الى العجب أن ينخرط فى البكاء لنعى فتاة أحبته فى السر ، فهذا الرجل الأنكد ، الحساس ، الجبار الجسم ، سريع الدمع ، وستكرر هذه الظاهرة حين الفصل فى مشاكل سياسية مستحكمة الحلق . وهو الى هذا ليس بالرجل الذى تمر به مثل هذه الظروف ولا يتأثر ، فالطريق الى الايمان تمر بالاعتقاد بالخرافات فى هذه الطبيعة العجيبة المسحورة . وقد ظل طيلة حياته يصدق الخرافات ، فاذا أصابه شىء وجاءت عاقبته ، على غير ماينتظر ، سليمة ، مال الى الايمان بالعناية الربانية . فهو يكتب حوالى هذا الوقت عن خطبته الأخيرة يقول : « لو كنت شككت فى وجود العناية الالهية وفى أنى أعد نفسى أثير هذه العناية الربانية لكان حبوط هذا الزواج الذى جريت وراءه بهذه اللهفة القلقة ، خليقا أن يقنعنى بوجود هذه العناية وبأنى أثيرها المفضل »

صلاة واناناس

بيد أن تشككه الذى لايغفل أبدا يظل قائما فى نفس الوقت ، فهو يكتب الى والده عن عاصفة هوجاء هبت على البحر يقول : « لقد أغمى على بعض السيدات ، وبكى بعضهن ، ولم يقطع سكون قمرة الرجال سوى صلاة تاجر من بريمن كان يتلوها عاليا . وكان قبل ذلك يبدو لى وكأنه يعنى بصدريته

---

* احدى جزر المحيط الهادى المعروفة بجزر تونجاى . وقد أطلق عليها كوك «جزر الصداقة»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أكثر مما يعنى بالهه .. ومع ذلك فقد أنجتنا صلاة هذا التاجر هذه المرة » وحين تحترق القرية بأكملها من الاسهم النارية التى أطلقت فيها ابتهاجا بزفاف مارى فون تادن يصيح بسمارك وقد رأى بعض المصلين يصرفون الناس عن الاطفاء ، يصيح كما صاح كرومويل : « صلوا ولكن أبقوا باروذكم جافا ! » وينطلق بجواده ، ويظل الليل بطوله يكافح النيران . وحين يختلف اهل القرية فيما بينهم على التأمينات ، ويتساءلون فى اليوم التالى : اينبغى المطالبة بها وهى تسلب معانى الايمان بالله وسيلة من وسائل العبرة ، يقول لهم بسمارك : « ان هذا لو التجديف بعينه ، أفيعيى الله أن ينالنا بأية وسيلة ! »

وسرعان مايلغط الناس فى بوميرانيا الخلفية بأن بسمارك عشيق لزوجة بلانكنبورغ الشابة ، والواقع أن كل شىء بينهما باق على مايرام . فهما يعيشان معا ، ويتجاذبان الطريف من الحديث من هنا وهناك ، هو يطرى بيرون وهى تتغنى بجان بول الذى لا يروقه . وأخيرا تصبح أما : « أريد فحسب أن أنبئك بأن حلقتنا لا تلتئم كثيرا ، وأن آنسة ظريفة جدا تدعى س . كانت هناك ، وان كافة النساء شابات ومسنات نفساوات ، وانى بعد غد مدعوة الى حفلة شاى من حفلات الفن والجمال فى كارديمين (ضيعة بلانكنبورغ) تلقى فيها محاضرات ، وتتلى صلوات ، وتدار فيها سلطانية الاناناس » . ويدفع الضريبة التى تفرض عليه فى هذه الدائرة عن طيب خاطر ، ذلك أنه يطيب له المقام هناك ، ويجد مايطلب من فكر وشكل « حياة عائلية تلك التى كانت تضمنى ووطنى تقريبا »

حقا ان أعصابه تضطرب أيضا فى هذه الدائرة ، فهو يكتئب فجأة فى نزهاته ، واخفت الكلمات خليقة ان تدخل الغم على نفسه ، الغم « الذى ينبت على اهون سبيل اذا ما احس يد الصديق من فوقه كما تعلم » . هذا ماتكتبه الصديقة . ومارى حين تريد أن تغيظه ، ويتصايح كأسان بنغمة شاكية يتوسل اليها أن تكف : « هذا مشج بالغ الشجو يحملنى على التفكير فى قصة هوفمان : قصة النفس الحبيسة فى الكمان »

يوحنا

وفى ذات يوم يلتقى فى بيت بلانكنبورغ بصديقة للصديقة هى : يوحنا فون بوتكمر . ليس فيها من فتنة مارى مايجذب ، قصيرة ، فاحمة الشعر ، رقيقة ، ايطالية فى الحق : بيد ان لها نظرة حنونا ، وقلبا يتمثل فى عينين لهما لون الهرة الرمادية ، وفى أشعتهما الحالمة مايعتلج فى هذا القلب . يميزها عن مارى انها ظريفة ، طبيعية ، وان كانت كذلك عنيفة الشعور . مطلبها مطلب لابد منه ولا تتحول عنه ، وعاطفتها شغف مشدود الى اعضاء خفيفة كالريشة فى جسم سريع العطب . ويوحنا من الفتيات اللاتى اذا قبضن مرة على شىء استبقينه ولم يفلتنه . وفى مقابل ذلك تسلم نفسها اسلاما تاما الى من يأسرها ، فلا تطالبه بشىء وتهنأ بتفانيها . وما تحتاج اليه هو رجل يقودها ، وما تعرضه هو مرفأ أمين

بأول ماتفعل أن تنعى على الغول المحبوب الحاده ، ولا تتحفظ فى لومه . لكنها لعلها ندمت على ذلك لحظة فيما بعد ، ذلك أن مارى العليمة بما هنالك تكتب اليها على الاثر تقول : « ان معارضتك اياه لم تغضبه على التحقيق ، فكل صراحة محببة إليه . وتنبؤك له بأن فكره سوف يتغير امر يؤمن به هو نفسه فى حقيقة الأمر . بيد أن الجهاد فى سبيل النور لايتم مع هذه الطبيعة عاجلا ولا سهلا ، وهو بلا ريب سيظل طويلا خافيا عن أنظار الناس »

وقد صورت مارى قطعة من بسمارك بهذه الكلمات : « فكأنما هو نهر متجمد لايتوقع ذوبانه وجريانه الا بطيئا عنيفا » . فأصابت فيه تلك الطبيعة العويصة التى تدفعه برمزها الى طلب الوظيفة فى مصلحة السدود والخزانات : ينصت الى الألبه فى تدفقاته الربيعية ، ويختبر النهر العظيم فى اندفاعه ، ويوجهه كما يوجه ما اسماه حركات سياسية نشيطة ، وكما يوجه نفسه بالضبط.

يودع كينبهوف

وقد كان تحول بسمارك من بوميرانيا الى نهر البه شيئا أكثر من مجرد انتقال . فقد مات الاب الهرم أخيرا برغم الشيرى والبورت ، وتولى الابن الأصغر ، وهو الآن فى الثلاثين من عمره ، ضيعة شينهوزن فى وادى البه . وحين يؤجر كنيبهوف حيث شب ونشأ ، وحيث أقام وحكم آل بسمارك القرون ، يشعر بالأسى وبشىء يشبه الندم الشديد : « فوق ناحية كاملة من المراعى الخضراء والماء والبلوط العارى من ورقه ، كانت نفسية حزينة ناعمة ترنق هناك عندما ذهبت قبيل الغروب ، وبعد اذ سئمت العمل ، أودع مواضع عزيزة على طالما استرسلت فيها للاحلام ، وتولتنى فيها الكآبة . وفى مكان كنت أردت أن أقيم عليه بيتا جديدا ألفيت هيكل حصان ملقى ، فتبينت فى بنيته العظمية رفات جوادى الامين كالب . لقد حملنى على ظهره سبع سنوات طوالا ، طروبا وحزينا ، متوثبا ومتقاعسا ، وقطع بى من الطريق أميالا . ففكرت فى البرارى والحقول ، فى البحيرات والبيوت وساكنيها وقد مررنا بها معا ، فارتدت حياتى الى الماضى اتتبعه بناظرى حتى بلغت الأيام التى كنت ألعب فيها فوق هذا المكان طفلا . وكان المطر يتساقط رذاذا بين الادغال ، ثم حدقت فى الشفق الباهت وانا مفعم بالاسى والندم على قلة مبالاتى وانهماكى الاعمى فى الملذات مبددا فيها كل ثروة من هبات الشباب والذهن والمال والصحة بلا غاية ولا توفيق ، ثم عدت الى البيت حزينا مهيض الجناح ، تلوح لى كل شجرة غرستها وكل سنديانة استلقيت فى الكلأ تحتها أسمع حفيف أوراقها ، وكأنها تلومنى أن اسلمتها الى الغريب . وأفصح من هذا ملامة اجرائى جميعا ، أولئك الذين وجدتهم متجمعين أمام بابى يشكون لى ألمهم من ضائقتهم ، وهمهم مما قد يأتى به المستقبل مع المستأجر الجديد .. وقد ذكروا عاتبين طويل خدمتهم لأبى ، وذرفت الرؤوس البيضاء دمعها الصافى ، ولم يكن كذلك دمعى ببعيد »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نشاط يتنبه

وان المرء مع ذلك ليتساءل بعد هذه العبارات التى صدر الاحساس بها عن الأعماق ، والتى يذكر بعضها فى شعوره الشعرى بنص ماقاله جوته وداعا لبيت الحديقة ، لماذا حدث هذا الاستبدال العجيب ، وهل أسباب ترجع الى المال أو الرغبة فى بيت أجمل من هذا البيت هى التى دفعت اليه ونفذته . لا شىء من ذلك ، فالباعث هو توثبه الى العمل والطموح

ذلك أنه حوالى هذا الزمن الذى قضى فيه أبوه ، وكان فيه متصلا بتلك المحافل العميقة التأثير ، وفى شعوره بأنه بلغ الثلاثين وانه من ثم لا بد له فى القريب من ان يضع حدا لكل المغامرات ، تنبهت فيه رغبة جديدة او لعلها أول رغبة فى العمل والانتاج . وهى رغبة ستظل من الآن سائدة نصف قرن من الزمان يلم بها شىء من الوهن من آن لآن . وكانت طبيعة الاشياء تقتضى ان يتجه اندفاعه الى الحياة العامة ، والى الدائرة التى ينبغى أن يحكم فيها بالوراثة أول مايتجه . ومثل هذه المشروعات تتحقق فى سكسونيا أسرع مما تتحقق فى غيرها : فمصلحة السدود تشق عند الب الطريق . وهكذا يستيقظ شعور غاف بالقرابة وبالصلة التى بينه وبين مايقع فى هذا النهر . ولسوف يصف ازماته وصفا رائعا ، ويخرج حساب هذا الشعور الى حيز الاعمال . والطريق من السد القائم على نهر الب الى اللاندتاج غير بعيد ، ودائرة المتدينين ذات صلات وثيقة ببوتسدام ، فعندما أراد أحدهم أن يتوسط له فى ذلك الوقت فى العودة الى خدمة الحكومة قومسيرا ملكيا فى بروسيا الشرقية ، ابدى بسمارك رايه فى شينهوزن مخاطبا فى ذلك أخاه :

« أعتقد أنى هناك ... سوف أتقدم . بيد أنه من سوء حظى أن كل حالة يمكن أن تلم بى ، تلوح لى على مايرام الى أن اصبح فيها فترهقنى عندئذ وتضجرنى . وكذلك ستكون حالى فى الخدمة هناك . على أننى ان ذهبت الى هناك فسوف يفوتنى أن أصبح مأمورا للخزان هنا وهو ما وافقت الحكومة عليه .. والخزان فى ارتباطه باللاندتاج الذى يحدونى أقوى أمل فى ان انتخب له ، يتيح لى عملا لايصرفنى عن ادارة المزارع .. وانا مصمم على ان اسدد الآن بعض الديون » . ويؤكد فى نفس الوقت ماينتظره من الترقية الى منصب المدير . فالمدير الحالى « يصعب أن يبقى أكثر من ثلاث الى أربع سنوات ، لأن توعكه كما يرى فى ازدياد . ورأيى هذا يستند الى تقارير الاطباء .. فى يوم السبت مرقص فى راتينو . ولن أذهب اليه لانى فى حداد ، وتنقصنى القفازات »

تنحية المتقدم

لقد قدر فرصه قبل أن يعمل ، واستخلص وعدا بمأمورية الخزان ، وموافقة على الانتخاب للاندتاج ، وضمن ان يطول مرض من يسبقه .. واذ يعد هذه المعدات يطلب نفسه عزل مأمور الخزان لغيابه غيابا فيه اخلال بواجبه ، ويطالب مع هذا الطلب بتخفيض ما يساهم به فى نفقات النهر من

ماله الخاص ، وينقب عن نص قـــديم يقضي بألا يكون مأمورا للخزان الا ذو مصلحة فيه بأملاكه ، ويهتدى الى مبادلة بين أرضين فرضت على أجداده قبل قرون ليعزز بهذا مطلبه ذلك : الذى يستند كله الى الحق ، ويتجه كله الى نفع جيرانه الذين ينتشلهم بتوليه المنصب من أيد لاتعمل .. ومع ذلك فـكل مطلبه هو أن يحمى مزارعه ويخفف نفقاتها ويدعم اسمه فى الدائرة : ليصل من هذه الطريق الى منصب المدير والنيابة فى اللاندتاج

وفى هذا العمل السياسى الاول يبدى بسمارك كل همته وكفايته ووسائله وروحه الواقعية وارادته للسلطان ، ويصيب النجاح الذى يحفز ارادته الى أعمال جديدة دائما فى سرعة وتوفيق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع

شينهوزن

يقوم بيت الأسرة فى شينهوزن بين أشجار الزيزفون والبلوط الباسقة فخما ثابتا . وليس هو بالقصر ، لكنه ضخم الجدران ، ومن يطل من نافذته يشعر بأنه آمن من الأعين . ويصفه بسمارك لصديق كما يقع فى نفسه فيقول : « انى حين أطل من النافذة من خلال سحب الدخان المتصاعد من سيجار فى يدى اليسرى أرى وأنا اتجه رأسا نحو الشمال عن يمينى وعن يسارى أشجارا عتيقة من الزيزفون ، فحديقة من الطراز القديم ذات أسيجة مشذبة ، وتماثيل من الحجر الرملى لآلهة ، وشجرا من شجر البقس ، وقزمات من شجر الفاكهة ، ومن خلف ذلك صحراء من حقول القمح (ليست مع الأسف مما أملك) وعلى مبعدة ميل تقريبا مدينة ارنيبورغ الصغيرة واقعة على ضفة البه الاخرى المرتفعة .. ولو أطللت من نوافذ حائط الجملون الجنوبى لرأيت فى وضع متشابه ابراج تانجرمونده ، والى الغرب كنيسة ستندال الكبرى يلفها الضباب . أما النظرة الى الداخل فتريك بيتا كبيرا مؤلفا من ثلاث طبقات ، ذا جدران عتيقة سميكة ، وكسوة للحيطان من الجلد والتيل ، محلاة بالصور الصينية والمناظر الريفية ، واثاثا من طراز الروكوكو قد بهت حريره ، وفى الجملة جهازا قدر لمركز من الثراء ابهى من المركز الذى ورثه صاحبه الحالى عن اسلافه »

عشق

وأول ماينشده السيد الجديد لهذا البيت القديم هو الزوجة . وقد كان هذا هو الموضوع الذى لم ينقطع الكلام فيه فى آخر سنة من حياة الأب فى مزرعة كنيبهوف . فمن هنا ومن الأسفار كانت ترد الى الوالد تقارير ابنه المنطوية على التشكك . « لقد تعرفت بلويزه ك . فهى فتاة تكون أحيانا بارعة الجمال ، لكنه قريبا سيحول لونها ويحمر وجهها . لقد عشقتها أربعا وعشرين ساعة . ولوددت ـ وهذا مايضيفه ابليس ـ انها كانت زوجة لماير وانها تعيش فى سيلو » . ويحصى فى نوردرنى من لقى من سيدات : كونتس ريفنتلو « ذات الاسنان الجميلة واللون القمحى والسيدة التى تصلح يوما لان

تكون قديسة » ، ومدام ريتسنشتاين « ولها ابنة فارعة تعد آية في الحسان ، وتصلح لأن تكون زوجة موافقة في الخروج للنزهة ، ممشوقة رشيقة ، حسنة الخطر ، وآنسة من الموزل ، نموها ليس بالقليل ، وطبعها وسط لا بالفاتر ولا بالحامى »

كل وصف من هذه الأوصاف ينم عن خبرة هذا الخبير بالنساء ، فانك تراه يدلى بالرأى فيهن كما يبديه فى الخيل قبل شرائها . وهو يحكم دائرته من حول بنات الشرفاء لاحول المال الذى لم يطلبه بسمارك فى سعيه الى الزواج قط . والآن تزداد مسألته فى شينهوزن حدة ، فهو يكتب الى اخته : « يجب أن أتزوج ، والى الشيطان بى .. فضرورة ذلك جلية لى ، انى اشعر بالوحدة وأحس الهجران بعد رحيل أبى ، ويكتنفنى من الجو المعتدل الرطب نفسية من الكآبة والحنين والحب . هنا لاتنفع مقاومة ، ولابد لى فى النهاية من الزواج من هـ.ا. فالناس جميعا يريدون هذا هكذا . حقا انها لاتؤثر فى ، لكنهن جميعا هكذا . ويعلم د . علة ذلك ، ما زلت أكن لزوجة صانع العجل جما من الميل ، هذه الخائنة . وهذه نقطة ضعف ، لكنى من اجلها بدأت احترم نفسى . وجميل ألا يغير المرء ميوله كما يغير قمصانه مهما أقل المرء من تبديل قمصانه »

يوحنا

فى الوقت الذى أدلى فيه بهذه الاعترافات الخشنة على نحو ما يفعل النبلاء بالضبط ، وفى الوقت الذى أكن فيه الحب الذى لمح اليه هنا ، كان يغشى ندوة المتدينين منذ أمد طويل . وكان قد تعرف بيوحنا فون بوتكمر قبل وفاة أبيه بعام ، فهو يلوح اذن قليل الميل الى ترك ذلك النزاع الباطن يؤثر فى مجرى حياته . بيد أن بلانكنبورغ وزوجه لم يكونا كفا عن التفكير فى هذين الاثنين اللذين لم يجلسا على مائدة زفافهما جنبا الى جنب لمحض الصدفة . وهكذا دعوا بسمارك ويوحنا فى وقت واحد الى رحلة صيفية فى الهارتس ، ولعله اختلط فى بالهما ان ينقذا روح بسمارك على يد الفتاة المتدينة وان يزوجاها من الفارس غير المتدين . وقد زكاها بلانكنبورغ للصديق من قبل أن يعرفها : « فهى حاذقة الى أقصى حدود الحذق ، موسيقية من الفرع الى القدم . لطيفة غاية اللطف ، وطالبة ذكية فى منتهى الذكاء ، مبدعة الى أسمى درجات الابداع : لها قلب عميق ورع .. ترقص الفالس بأظرف مايبدو على الأطفال من سذاجة وبما لم أسمع بمثله قط . فتعال أنظر ! فاذا لم ترد فسأتخذها زوجة ثانية لى » لقد اريد أن يكون هذا الوصف على قدر بسمارك فجاء أريبا ، ذلك انه لم ترد فيه تلك الصورة اللفظية الحالمة التى ينهمك فيها الكاتب عادة . وقد صورت يوحنا فى رسائل لمارى أمرح نفسا ، تنطوى على كبر مستور . « زهرة فتانة لم يهب عليها قط نفس سام .. ليس فيها من مظهر جميل سوى عينيها وخصل طويله سوداء ، تبدو فى العادة اكبر مما هى سنا ، كثيرة الكلام ، ذكية القلب ، مرحة النفس مع كل انسان رجلا أكان أم امرأة ، لا تجد بين الممتع وغير الممتع مثل الفرق الذى نجده نحن ، وبعبارة أخرى لا تشعر به اقل مما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نشعر به .. وحقا انها لفتاة عميقة .. نقية ، نيرة ، صافية كزرقة الماء »

والذى يميز يوحنا من سائر الصديقات المتدينات قسوة لاذعة هى قنطرة الى السخر ، وعلى هذه القنطرة يقترب منها المتشكك الكبير . فلو لم تكن مبدعة موسيقية ، ولو لم ترقص الفالس ، وتتجرأ على الكلام مع كل الناس على السواء لما كفى نقاؤها وحده فى اخضاعه . والذى يغلبها عنده أخيرا ليس ايمانها ولاذهنها ، ولكن نضار قلبها البشرى – ذهب رنان ، لم يتخذ شكلا بعد، وقلب يملك كل القوى المعينة على التفانى الذى ينقصه هو ، وينحاز فى حمية الى ما وقع عليه اختياره . حقا انها ليست بالنسبة له بمثابة الابنة ، وان صغرته بتسع سنوات فى السن وبمائة فى التجربة . لكنها رفيقة تسلس له القياد ، وتتلقى منه الآراء ، وتشاطره الهم والشكوى ، والسخر والاحتقار ، بقلب مستعد على الدوام . أقل تكبرا منه ، لكنها مثله عنادا تقريبا ، أدمث منه خلق فى البيت ، لاتلين فى نضال ، نغمية لكنها حرون ، حنوق على عدوها مثله ، منسجمة مع ذلك كما لم يكن قط

تقرب

وبينما لاح أنهما فى رحلة الهارتس يتقاربان سريعا ، ويعجب أحدهما من معرفته بالآخر عجبا شديدا ، كان لبسمارك مع أنضج الصديقتين وأعقلهما ، وأيقظهما حوارا ، مع المرأة فيهما ، أحاديث وحدهما فى السر تمض منها ف مفكرتها : « حياة تكتنفها الوحدة ، ونشدان للسلام ، ومحاولة لكل شىء ممنية بالاخفاق » . هذا هو الاستسلام التام لرجل يعرف أن اختياره قد يؤدى به الى السعادة ، ومع ذلك لابد أن يعنى هذا الاختيار التخلى . بهذه المشاعر يندفع بسمارك الى الزواج

وفيما خلا ذلك يستمتع بسمارك بضوء القمر ، ويمرح ، ويدعو دائما الى احتساء الشمبانيا ، ويدفع التكاليف ، وينظم كل شىء . وبعد العودة الى موطنه يعود الى رسائل بلانكنبورغ الجديدة التى ردته الى الايمان فينعم فيها النظر ، ويشرع فى قراءة الانجيل ، ويتحفظ فى كلامه عن الله ، ويكتب فى رسالة عن يوحنا انه لا يثق بنفسه بعد ثقة كافية . وهذه الرسالة التى أعدمت مع سائر رسائله قد كتبها العاشق باللاتينية صونا للسيدة اذا ذاع امرها

وبغتة تتفشى الانفلونزا فى بوميرانيا ، فيموت بها شقيق مارى ، وتتعرض منها أمها للخطر ، وتجلس هى وسط ذلك ، وتكتب ليلا الى بسمارك كلمات حميمة غريبة ، تطلب اليه التعجيل بالحضور . وتموت الأم ، ويقدم هو ، وتدور أحاديث طويلة ، وتقام صلاة فى المساء ، فلا يركع مع الراكعين ، لكنه يتأثر . ثم تمرض مارى نفسها ، وينتابها الاغماء . وتبعث اليه من يبلغه ان الآن أوان الايمان فليؤمن

هزة

وهذه ثانى امرأة تصلى من أجله وهى تموت : أفلا يؤثر هذا فى نفسه المتأثرة

بالفعل ؟ على هذه النفسية يتحطم عناده فيصلى لاول مرة بعد خمس عشرة سنة ، لا يفكر فى الصلاة أهى شىء معقول ، ولـكن يصلى لنجاة الصديقة

ويسمع متعجبا أن المحتضرة وزوجها فى حالة نفسية مرحة واسارير منبسطة، وانهما يعدان الموت رحلة تسبقه فيها الى عالم الخلود ، وانهما لابد ملتقيان . وتموت : فتلم الصدمة بالصديق الذى كان يحبها ، ويبقى ألمه أنانيا محضا . « ان ألمى الاول كان الالم اللائع ، الالم الانانى من الخسارة التى تكبدتها . . وهذه فى الحق أول مرة أفقد فيها انسانا بالموت . . ويحدث فراقه فى حياتى فراغا واسعا لم يكن فى الحساب . اما فقدان والدى فمن نوع آخر . . فالعلاقة بين الطفل وأبويه لا تكون فى العادة حميمة الى هذا الحد . . فهذا الشعور بالفراغ ، هذا الفكر : الا ألقى ولا اسمع أبدا انسانا بات عزيزا على ، ضروريا لى ، انسانا لا ملك فيه الا النزر اليسير ، ذلك كان جديدا على الى حد انى لا استطيع أن أروض نفسى عليه ، ولا يقع من نفسى بعد أن الحادث بحذافيره حقيقة واقعة » وحين يرى الصديق الثاكل بعد ذلك يقول هذه الكلمات المؤثرة : « لقد كان هذا أول قلب افقده واعرف عنه صدقا أنه كان ينبض دافئا لى . . فالآن أؤمن بأن ثمة أبدية ، أو أن الله أيضا لم يخلق العالم ! »

صلاة

لقد ألهم الصلاة على صورة طبيعية وهو جازع القلب ، كما يلهمها كل انسان غيره مؤمنا كان أو غير مؤمن . وحقا لقد صلى « فى السكة الحديدية » كما يروى بلانكنبورغ فيما بعد مغتبطا وفى شىء من الاستغراب . وعلى نحـــو موائم الطبيعة أشد المواءمة اتجه الى ربه فى غمرة هذه المناظر المؤثرة المحزنة تغلبه صلاة المحتضرة وصداقة الباقين على قيد الحياة . لكنه حتى فى هذا المقام قد فرض قيدا بسماركيا صميما : فقد ترك المتشكك طريق العودة مفتوحا، وحفظ لنفسه خط الرجعة بذلك الصفاء الهادىء الذى سبب به نكوله عن الصلاة وهو فتى فى السادسة عشرة . فهو لا يسكت حتى فى هذه الحالات النفسية التى يعانيها الزوج ، ويسترسل فيها للاحلام ، سكوتا تاما ، بل يدع هذه اللحظة الفاصلة لنفسه وللزوج أن يتساءل : هل خلق الله العالم ، وهو ما يبدو له برغم سبينوزا أمرا مشكوكا فيه جدا

وفى المساء السابق للسفر يكتب بسمارك الى صديقه وهو ما يزال فى بيته رسالة يذكر فيها بالحوادث ، ويعرب فيما يقال عن أثرها العميق فى نفسه، فيصيح الصديق اثر ذلك وهو يغمره بعناقه ودموعه من جديد : « انك تسعدنى اليوم بما يجل عن الوصف » . وهذه الاقوال الطبيعية الصادرة عن بسمارك من قلب رقيق بطبعه ، وفى مثل الحالات النفسية التى ألمت بالبيت ، وبعد تجارب الأسابيع الاخيرة ، تبدى فى بواعثها الخفية ما كان يحدوه من رغبة فى الاستحواذ على تلك الفتاة التى لم يكن أبوها المسرف فى تدينه ورعا فحسب بل كان متصوفا كذلك . فالاقتناع بالله لم يكن من ثم خداعا ، بل لعله كان على الأكثر من قبيل خداع النفس . وهو لم يرم من وراء هذا الزواج الى أغراض ، ولم يدفعه الى الاستحواذ على الفتاة شغف ، انما كان لها كيان مرتبط بدائرتها ، وكانت هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدائرة له بمثابة موطن ثان . وقد كان ايمانها غريبا عليه حقا لكنه بات مقبولا لديه مع ذلك بشيء من القيد . وبينما كانت صلاة امرأة أحبها ولم يستحوذ عليها قط تجد صداها فى نفسه اذا بشعوره يتجه الى صلاة امرأة أخرى ألفاها صالحة كرفيقة فأراد من ثم أن يتخذها زوجة

خطبـــة

وبعد بضعة أسابيع يعود فيلقاها فى بيت بلانكنبورغ فيصارحها بدخيلته ويستحوذ على قلبها فى الحال . وفى طريق العودة الى موطنه يكتب وهو نزيل فندق بمدينة شتيتين رسالة الى أبيها يخطبها فيها

لقد ارتسم ما خطه هذا الديبلوماسي المطبوع وما حواه هذا الكتاب من فنه العالى فى نفس المرسل اليه وانطبع فى قلبه التقى . فلم يردد بسمارك اسم الله فى حياته بقدر ما ردده فى هذه الرسالة ، وفى الرسالة الثانية الى الهرفون بوتكمر .. فقد عرف ان عليه ان يكشف صراحة عن اخطائه ويميط اللثام عن الحاده السابق ليصدق اليوم ايمانه . ومع ان كل ما خطه بسمارك يصح ان يكون الصدق ، فقد حرص على ان يدبج كل شيء فى نفس الوقت تدبيجا حكيما ضمن له النجاح ، كما ضمنته له شكواه من مأمور الخزان الأخير بالضبط . وهو كلما ذكر ربه تواضعت لهجته : « ان الله لم يستجب لدعائى السابق ، لكنه أيضا لم يرده ، ذلك انى مازلت قادرا على أن أدعو الله واضرع اليه ، شاعرا بأنه ان لم تنزل السكينة على قلبى ، فالثقة والشجاعة لمواجهة الحياة تعمرانه ، وهى شجاعة لم يكن لى عهد بمثلها من قبل .. أداتها عندى صراحة واخلاص لا تحفظ فيهما ، ابديهما فيما أدلى به اليكم وما لم أدل به من قبل الى أحد ، مقتنعا بأن الله سوف يحققه للمخلصين »

وما أن يتناول نفسه حتى يهب ثانية فيقول : « انى لست بحاجة الى أى تأكيد فيما يتصـــل بمشاعرى ونياتى نحو الآنسة كريمتكم ، فالخطوة التى أخطوها اعلى وقعا وأبلغ صوتا مما يستطيعه الكلام . كذلك لا تصلح الوعود معكم ، فأنتم ادرى منى بان القلب البشرى لا يعول عليه . والضمان الوحيد لخير الآنسة كريمتكم هو فى ضراعتى الى الله ان يباركنا »

ويجزع الاب المتدين من ان يعطى ابنته ويتخلى عنها كل التخلى الى رجل سمع عنه « شرا كثيرا وخيرا قليلا » ، ويتحول بسمارك الى الهجوم حين يراه يسوفه ، ويظهر فجأة فى بيت رينفلد ، ويلمس ميلا الى أخذ ورد يطول امرهما « ومن يعلم الى أى طريق كان خليقا أن يفضى هذا الأخذ والرد لو لم أنقل المسألة الى مسرح آخر بضمة حاسمة لعروسى لحظة ان رأيتها ، فذهل الوالدان وحصرا ، وسوى الامر كله فى خمس دقائق »

هنا بسمارك بقضه وقضيضه : ينفذ بشجاعته الشخصية وبسرعة مالبث يفكر فيه ويعده طويلا . وقد ظلت هذه الطريقة المفاجئة طريقة هذا السياسى على الدوام

الملحد الملتحى

فالآن يستخدم كل وقته فيغزو البيت غزوا خاطفا ، ويحتسى الشمبانيا ونبيذ هو خهيمر مع الشيخ ، ويراقص عروسه على الفالس الذى يعزفه أبوها ، نسرعان ما يتفتح حتى قلب الام المستعصية السامية التهذيب ، ذلك القلب العظيم « لهذا الملحد الملتحى » ذلك انه كان فى تلك الايام يرسل لحيته الشقراء. ولاشك أنه جاذب عروسه أطراف الحديث الطويل فى الايمان . بيد أن سلوكها الطبيعى كان يذهب بكل ذلك الضيق الذى كان يجثم على قلبـــه فى بيت بلانكنبورغ ، فيتغاضى مسرورا حين تقول له ضاحكة : « لقد كنت حرية ان أردك بخفى حنين لو لم يرحمـــك الله ، ويدع على الأقـــل من يراك من ثقب باب رحمتـــه ! » وقـــد كانت فى كلامها عن ثقب باب الرحمـــة هـــذا أكثر احقـــاقا مما كانت تحب أن تـــكون لو انهـــا أرادت أن تتبين الأمر كله ، ذلك أنهـــا لا تعرف مايكتبه خطيبهـــا الى أخيـــه اذ يقول : « اننـــا فى المســـائل التى تمس العقيدة تختلف اختـــلافا يســـيرا لا يؤلمنى بقدر ما يؤلمها . على انه ليس بالقدر الذى يصح ان تعتقده فى ، ذلك ان بعض الحوادث الباطنية والظاهرية قد غيرت فى اخيرا وبدلت بما يخولنى الحق فى أن اعدنفسى من معتنقى الديانة المسيحية . واذا كنت فى كثير من التعاليم ، وربما فى تلك التعاليم التى يعدها اولئك أهم ماهنالك ، لا اتفق معهم فى وجهة نظرهم من امد طويل ، على قدر ما يبدو لى ، فانه قد تم بيننا شىء من قبيل معاهدة بساو فى سكون . على أنى أحب التقوى فى النساء ، وأبغض المستنيرات »

فهل يمكن ان يكون ثم اوضح من هذا ؟ ذوق خبير بالنساء ، وتجاربه بقلوبهن ، وضغينته القديمة للأم فى نفس الوقت ، وهى ما يتناوله فى كلماته الاخيرة ، كل ذلك يتضافر ليمكنه من العبور الى الضفاف البعيدة طائرا . وتاتى حكاية « أفاقته » كلها فلا تعدو فى نظره نوعا من معاهدة بساو أوتسامحا من ذلك النوع الذى يتبادله المجاهدون فى سبيل الدين ، بينما يتذوق الفارس الكيس التقوى فى النساء ، ويدع امرأته من ثم على هواها تفعل ما تشاء

الكاشوب المبهوتون

ذلك انه يفهم خطبته كما يفهمها رجل الدنيا تماما : فما يخطه الى أخيـــه واخته لا يذكر فيه الله كثيرا ، لكنه يذكر فيه الكثير عن الفارس العائد الى مرفئه ، المغامر ، ألطيب ، فى تكبره ، الكثير الاسفار : « وفيما خلا ذلك أعتقد أنى أصبت حظا عظيما لم أكن اتوقعه ، وذلك بزواجى ، وأنا أعنى ما أقول ، من امرأة نادرة الذهن ، نبيلة الفكر فى صورة نادرة ، رقيقة الى ذلك جدا ، مهاودة كما لم أر فى النساء قط .. وقصارى القول انى راض عن الامر كله كل الرضا ، وارجو أن تكون كذلك » . اما ما يتعلق بالمال فيقول ان الدخل قليل ولابد له من تولى كل شىء بنفسه . « وسأحدثك شفاها عن كل التفاصيل وعن دهشة الكاشوب

---

* قبيلة سلافيـــة تسكن بعض نواحى بروسيا الغربية ، وجهات على حدود بوميرانيا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انتى لا تعرف حدا ، وبعض من لم ينبطح منهم من الذهول لا يزال مستلقيا جماعات على ظهره ، ثم عن اشمئزاز العجائز .. وارجوك انت واوسكار ان تحبوا زوجتى المستقبلة فى هذه الأثناء بعطفكما .. ان رينفلد تقع هنا ملاصقة لبولنده ، وفى كل ليلة تسمع عواء الذئاب والكاشوب . وفى هذه الدائرة والدوائر الست التالية سكن ثمانمائة نسمة فى كل ميل مربع . والبولونية هى لغة هذه الارض الصديقة » (وهو نفسه يقيم على بضع ساعات منها)

وفيما خلا ذلك يسليه عجب بنات عمومته وخؤولته الكثار : فكلهن قد أهانهن أنهن لم يعرفن عن زوجته شيئا ، وكلهن مجمعات على « اننا حقا لانحب ان يكون زوجا لاحدانا ، لكنه وجيه جدا » وذلك لانه غشى البلاط مرتين وسافر مرارا . ويبدى أصدقاؤه جزعهم من أن يصبح فى النهاية « مدينا » فلا يحرك ساكنا . وفى هذه الاسابيع الاولى التى ينكب فيها على مطالعة الانجيل يبغى الايمان ، ولا يسلم مع ذلك من ضغط تشككه ، يعلن الى بلانكنبورغ المبشر المرتد : انه لايعلم هل المسيح ابن الله أم هو انسان الهى ، وانه يشك فى نظرية « المعصية » ، وتنفره متناقضات كثيرة فى الانجيل ، فهو لايصل بعد الى نتيجة حاسمة ، ويضع فى رسائله هامشا عن الشيطان ينم عن اعجابه ، ويبدى حالة نفسية ترعب حتى يوحنا

الفصل الثامن

وتنفعله فترة الخطبة فى تعليم الخطيبة المختارة ، فهو يكتب اليها من الرسائل مالا تعى اللغة الالمانية مثيلا له من ماجد أو شاعر فى حنان الحب وذكاء الفؤاد. وقد كتبها بسمارك ولم يعد . وتبديه فتنة هذه الرسائل فى قمــة فكاهته ومعرفته ، وخواطره وصوره ، ولطافاته ورقته . بيد انه يسوقها فى طريقه على مهل وتقودها يده الهادية . وبينما يغذى تقواها على الدوام ويدعها تعتقد انها روضت فيه الرجل الوحشى، يروض هو آنسة الريف رويدا رويدا ، وهى من تفوقه وحشية ، وتصغره فى السن كثيرا . ويبلغ من عجب هذا التحول أن تستطيع الكتابة مرة الى النبيل المجنون تقول : « انك مولع بالرسميات جد الولع ، اما انا فميالة ما امكن الى تجاوز كل حد »

تفانيها

وتتهيب فى مبدأ الامر قليلا ان تضجره ، وتكتب اليه : « لا تنظر الى هذه النظرة الساخرة .. فحسبى صدمة جد بسيطة أذرف غزير الدمع ، وماهكذا تحبنى . فسامحنى ياوحيدى ..وصبرا حتى يحل الربيع وتكون لك القوامة» ثم يخطر ببالها من جديد أنه لاشك قد كان رجلا مخيفا ، فتقول : « انى أطلب وأنتظر منك كل وفاء من القلب فماذا لو كنت مخدوعة ؟ ان سوء الظن لأخوف ما اخشاه . ان خط يدك (بعد اذ قارنته برسائل قديمة بعث بها اليها) قد بات هوائيا أكثر مما كان ، فهل بات قلبك كذلك ، يا أوتو ؟ » لكنها تجيب نفسها الجواب النسوى فتقول : « ومع هذا لا بأس ، وسأكون من ثم أطوع لك ياحبيبى وسأحاول أن ألين مالا استطيع كسره ، فاذا لم ينجح هذا أيضا فسأستسلم ، وأفعل ماتريد » . فعلى مثل هذا الاذعان التام حملها فى أربعة أشهر فى عزم ورفق، فاذا طلبت له شيئا لجان بول يقرأه ، او سترة مخملية يرتديها ، ومنها ينفر كما ينفر من جان بول ، رد ماتطلبه له واقتنعت برفضه

وفى مقابل ذلك يحمد لها تفانى هذه النفس الانسانية فى حرارة تتدفق من نفس ذلك العاشق وحده . ومع أنه كان قبل خطبته قد استوفى كافة الشروط التى تقتضيها الحياة المجتمعة ، والهمة ، والانتاج ، ووجد حيويته الحديثة قبل أن يجد عروسه بسنين ، فانه ينسب اليها كل فضل فى هذا التحول ، ويزيد بتوفيقه فى اعتدادها بنفسها ، فهو يقول فى عودته الاولى الى موطنه :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« لقد شعرت وانا ادخل القرية شعورا لم يكن فى يوم ما اجلى مما كان يومئذ، شعرت بأن من الجميل حقا ان يكون للمرء وطن .. انك لحسن الحظ تستطيعين ان تدركى يافؤادى مبلغ ماكنت أحس من قبل من بلادة عديمة العزاء كلما أبت الى البيت من سفر .. فى تلك اللحظات كان وجودى يبدو لى خاويا مقفرا كما لم يبد قط ، فأتناول كتابا اعلم انه لن يبلغ من شجنه مبلغى، أو أنصرف بشكل آلى الى عمل من أعمالى اليومية .. والآن ؟ كم أتأمل كل شىء بغير العين التى كنت اتأمل بها الاشياء من قبل . وليس ذلك فيما يتصل بك أو لأن الأمر يتعلق أو سوف يكون لك به دخل (وان كنت أعذب نفسى منذ يومين فى اختيار المكان الذى يوضع فيه مكتبك) ولكن لان نظرتى الى الحياة باتت كلها من نوع جديد ، فأصبحت أزاول حتى أعمال السدود وشئون البوليس فى مرح واقبال » بيد انه قبل ان يسهو ينسخ ابياتا حزينة من شعر بيرون ، نيست من الحزن فى نظره بالقدر الكافى ، كآبة مسترسلة يجعلها طى كتابه ثم يعلق عليها بقوله : هراء ! ثم لا يمحوها بهذا مع ذلك

تعليمـــه

وفى رسالته الثانية يشرع فى تربيتها مترفقا فيقول انه ينبغى أن تحصل الفرنسية فهى تنقصها فى المجتمع ، يقول هذا فى أعظم كياسة ، لكن أعظم الكياسة لا تمنعه من قوله . ويقفى هذا بالنصح لها بتعلم الركوب . وبعد بضعة اسابيع يقول : « لم تعد الاشعار الانجليزية المشقية تستهوينى .. فهى تعبث بها الآن هرة سوداء فى ضوء الشمس ، وتدحرجها كما تدحرج البكرة ، فيدخل هذا المشهد على قلبى السرور » ـ لكنه يعود فيطوى كتابه على نسخ أخرى من شعر بيرون . ثم يضمن رسالته التالية أشعارا فرنسية تنضح بألم الانسان ، ويضيف اليها وهو يخدع نفسه خداعا غريبا : «تستطيعين أن تأذنى لى دائما فى قراءتها ، فلم تعد تفعل بى شيئا »

ويستشهد ذات مرة بأبيات من هذا الشعر فيطلق شيطنة العهود القديمة من عقالها فيقول : « انه يقوم بنفسى أن أكون فى ليلة كهذه :

A sharer in the delight, a portion of tempest of night (1)

فأنحدر فوق الصخور الى مسقط الراين الجائش على صهوة جواد جامح »
لكنه ما تكاد الفتاة تدرك هذه الكلمات يلفظها خطيبها وقد كان فى سالف الزمان مستوحشا ، ويتملكها الرعب منها ، حتى تراه فجأة يكبح جواده شأن الفارس الحاذق وهو على شفا الهاوية ، ويحول هذه النفسية جميعها ويديرها فيلوى عنانها فى سحب الدخان المتصاعد من سيجاره الى هذه العبارة التهكمية فيقول:
« ان مسرة من هذا النوع لا تعرض فى حياة المرء الا مرة وياللأسف »

هكذا كان قلب بسمارك المظلم مفعما بالمتناقضات

---

(1) مساهم فى البهجة ، قطعة من عاصفة الليل

عبدك بسمارك

لكنه حين يتحدث عن أعماله يغتبط هذا القلب . وليس المراد بأعماله ادارة مزارعه بل المراد الخزان والسلطة . فهو يظل اياما يكتب فى مثل حالته القابلة التى تترقب دائما أوان الوضع . يكتب عن حركة الالبه وعن الاحتياطات التى تتخذ للتغلب على الجمد المتشقق . وحين يقف فى الخارج انصاف ليال غائصا فى الماء ، مصدرا اوامره بما ينبغى ، يستشعر الارتياح ، وهو يستشعره دائما فى الطبيعة العاتية، فيقول : «وداعا ! ان كتل الثلج تعزف مارش بابنهايم، وجوقة القرويين الركبان تغنى : هبوا يارفاق ! ولماذا لا تعزف كتل الثلج حقا ؟ ماأجمل ذلك ، وما اعظم مافيه من شاعرية لو كان ! ان انتهاء فترة الانتظار المملة ، وجريان العمل مجراه يشعرنى بمثل نفحات الحياة المتجـــددة .. اقبلك

« عبدك بسمارك »

أية حركة وأية غبطة بالحياة ! لكنه يعقب ذلك حاشية : «ابعثى الى بغلاف الرسالة التى استغرق وصولها خمسة أيام فانى أريد أن أقدم شكوى فى برلين» ثم يروى عن تلك الليلة الحاسمة كيف تزمجر الساحات المتجمدة وتطقطق الكسر ، وتتطاير الشظايا ، وتشبو الكتل ، وتتدخل بعضها فى بعض ، وترتفع الى مثل ارتفاع البيت ، وتؤلف جدرانا فى عرض الالبه تختزن وراءها الماء ، وتعترض مجراه فيجرفها صاخبا عاجا ، وتدور عليها فى هذا النضـــال الدائرة — مردة تغطى كتلها سطح الماء فيحملها الماء متذمرة تقمع كالأغلال ، ويقذف بها فى عرض البحر »

٤١ قرويا

ويسمع الثورى فى بسمارك يطلب النزال والنضال وهو يصف هذه الكوارث الطبيعية الكبرى التى تعكس فى مرآتها ما تختلج به نفسه وتصوره حقيقة ، ويدرك المرء لماذا كان أصل بسمارك وحده هو الذى جعله من أنصار العرش !

وبمثل هذه الحيوية الجمة التى يستشعرها فى ساعات نضاله هذه حيث يهدده العنصر بالاخطار ، فيغلب هو العنصر ، لا يكون فى حجرته سوى المتأثر اذ يوفق بحكمة الساسة الى تسوية نازع باتفاق ، فيروى متحمسا :

« فى صباح اليوم احسست غبطة فذة حينما وفقت الى الاصلاح بين ٤١ قرويا مشاكسا يكره كل منهم الاربعين الآخرين كراهة مرة ، ويبذل عن طيب خاطر ثلاثين ريالا فى سبيل ان يخسر الآخر عشرة . وقد لبث سلفى اربع سنوات يعطل هذه القضية ويفيد منها فى الراجح كما يفاد من البقرة الحلوب . أما أنا فألفت بينهم بعد أربع ساعات ، فلما امتطيت مركبتى وتوقيعاتهم فى جيبى كانت هذه اللحظة من لحظات قلائل سارة يرجع فيها الفضـــل الى مركزى الرسمى . وقد أرانى هذا الحادث فيما يتصـــل بى مرة أخرى ان الغبطة الحقيقية بالوظيفة العامة لا تنتظر الا حيث يعمل المرء فى دائرة يشرف عليها ويتصل بشخصه فيها بالمحكومين ويبقى متصلا . اما الرئيس واما الوزير فلا يتصل منهما أحد بالناس بل يتصل بالورق والمداد ...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« اننى حين أرى كيف يتعذر على أسمى وأقوى مدبر لشؤون تتصل بالشعب ان ينشر بعمله الرسمى الهناء ، ويخفف الشقاء ، وحين اعتقد ان وزيرا او ملكا لا يغمض عينيه ابدا وهو يعى انه عاش لينقص هموم من يرعاهم هما ، او يزيد افراحهم فرحا ، وانه حقق لهم ذلك (ذلك انه من يخدع نفسه بانه فعل ذلك مغفل) — أقول حين أعتقد ذلك أفكر دائما فى أغنية ليناو المكروبة : «من لايبالى » . ان الحياة الفانية يمكن لنفسك انت الا تضيع سدى وان تكون حافلة بالنتائج . واذا قابلت بين هذا الكيان وبين الابدية التى تكون فى النهاية كان سواء أن تتيح الرفاهية الفانية للغير ، فالتراب بعد ثلاثين عاما والعفن ، وآلاف السنين تمضى فى سبيلها ، ولا يهم من هم الآن طى الردى هل كانت حياتهم على هذه الارض أتراحا أم أفراحا »

وزير فى الصغيرة

لعله اليوم وهو جالس فى المركبة على مرأى من الناس فى الثانية والثلاثين من عمره ، ومحضر الصلح فى جيب معطفه الفرو ، يستشعر الرضا عن نفسه وعن الناس لأول مرة : انه يفكر فى القرويين الأحد والاربعين: يفكر فيما دهاهم وفرق بالحقد بينهم ، وكيف جاءهم واطلع على نفوسهم ، وكيف اعمل الفكرة من أجلهم ليؤلف مع ذلك أخيرا بينهم ، فتتمثل لعينيه بدلا من هؤلاء القرويين دول وشعوب ، ويتأمل ما رجل الدولة حرى ان يحسه وزيرا أكان أم ملكا ، اذا ما أدى فى الجليل ما أداه هو فى الحقير . ويعود فيرى خوافى الديوانية البغيضة التى تشوه لكل امرىء فى بروسيا منظر الاشياء ، ويطرد ما يداعبه من رغبة شيطانية فى السلطان ، ويقبع فى آفاقه الضيقة ، ولا يبالى بمسرات الانسان ، ويدخل هادئا من باب آبائه

العريس ذو السيادة

وفى داخل البيت متسع من الوقت . ففيـــه يبسط على القرطاس آراءه ويطرح مشاعره وشكوكه لعزيزته يوحنا ، وينتقى من حياته ما يمكن ان يلائمها: مراسلاته مع سميتها وابنة عمها وسلفها فى حبه ، تلك المراسلات التى يرعشها منها التساؤل هل يستطيع الرجل ان يحب مرتين بهذه القوة ؟ورســالته العظيمة الى ابنة عمــه يوم أن ترك خدمــة الحكومة ، فبعد عشر سنوات يضيف الى هذه الرسالة قوله : « ما أزال فى المهم عند رأيى السابق فى خواء الطبقة التى تخدم الحكومة .. وما ازال يتولانى احيانا السخط كلما صعد أحد رفاق المدرسة فى الحياة ، لانى لم ابلغ فى الحياة مبلغه وكنت حريا ان ابلغه . لكن سرعان ما يتعزز عندى اقتناعى بأنه عبثا يسعى المرء الى هنائه مادام أنه لا يطلبه فى ذات نفسه » وبينما يصدق الصدق كله فى هذا القول لاينى عن الجرى وراء الانتخاب فى مجلس اللاندتاج ، يدبر ان يصبح الى ذلك مديرا

ويترفق بشكوكها وعواطفها فى شفقة الأب وكامل سلطته فيقول : «أتريدين حقا ياملاكى أن تقرحى عينيك بالبكاء ؟ . . قولى اذن لماذا ؟ (فأنا من التمارك أحب

ان اعرف الاسباب ، وقد نشأت فى بوميرانيا منذ الثانية الى السابعة من عمرى فأنا احيانا لا احب الهذر) فلماذا تبغين البكاء ؟ » وحين تكتب اليه عقب زيارته مشوقة يرد عليها بقوله : « تعلمى ان تغتبطى ايضا بالمسرة التى تمر بك وتنعمى بها شاكرة ، ولا تصرخى كالاطفال الصغار فى طلب المزيد »

هكذا يعظ الفتاة المتأثرة بالقناعة التى لم يعرفها قط ، وهو هو الساخط الذى لا يرضى ابدا . ناذا تعجبت ممن يعجب بها جرح عجبها كبرياءه ، وجمل بها أن تنظر بازدراء الى كل من لايقدرها قدرها وان تقول له : « سيدى ! الواقع ان السيد فون ب . يحبنى . ومعنى ذلك ان كل رجل لا يعجب بى مغفل عديم الرأى .. فلا تكونى بهذا التواضع المهين ! لكأنى بعد تجولى عشر سنوات فى حدائق الورد بشمال ألمانيا تقع كلتا يدى على مجرد هندباء . » هكذا يبعث الزهو المطبوع فى نبيل لارتبة ولا فضل ، صاحبه هذا الشعور برفعة الفتاة التى اختارها فى أعين الناس جميعا لمجرد أنه اختارها

لكنه فى مقابل ذلك يقرأ الآن الانجيل ويطيل قراءته ايضا ، ويستشهد به . وهو فى ذلك يشعر نحو الزواج شعورا لوتريا صرفا ، فهو يرى على الدوام انه يجب أن يكونا قلبا واحدا وجسدا واحدا ، وأن يتألما معا ويفصح أحدهما للآخر عن دخيلته « لا تخفيها عنى ، فانك كذلك لن تسرك دائما اشواكى الكبيرة .. فيجب أن نقتلعها معا ولو أدمى ذلك أيدينا »

صور السلف

ويصف لها أسر الخدم والعمال فى ضيعته من قديم وصفا تلمسه ، وكيف خدم أجدادهم اجداده « وانى لأكره أن أفصل أناسا كانوا يوما عندى .. ولست أخفى انى فخور بعض الشيء بان هذا المبدأ المحافظ قد ظل السنين الطوال سائدا فى هذا البيت الذى سكن آبائى غرفه منذ قرون ، وولدوا وماتوا فيها ، تبديهم الصور المعلقة فى البيت وفى الكنيسة من الفارس الذى يخطر فى الدرع ، والفارس ذى الخصل المرسلة والعثنون ، ممن شهدتهم حرب الثلاثين السنة ، فحملة الشعر المستعار وطاقيته الهائلة ذات الضفيرة ، وكانوا يختالون فوق أرض هذا المكان بكعوبهم الحمراء ، فالفارس ذى الضفيرة الذى خاض معارك فريدريك الاكبر ، الى السليل المترف الناعم الذى يرتمى على قدمى فتاة فاحمة الشعر »

ضمير اجتماعى

لكنه فى مرة أخرى يسترعى انتباه النبيل ما ألم به من تغيير فيقرر هـــذا المسيحى الجديد ان يكون بفقراء ضيعته ابر مما كان : « حين افكر كيف يسعف الريال الواحد مثل هذه الاسرة الجائعة اسابيع ، يبدو لى كأنى أسرق الفقراء المتضورين من الجوع ، المرتعشين من البرد يوم انفق ثلاثين ريالا فى الســـفر اليك . وكان بوسعى ، مافى ذلك شك ، ان ابذل لهم الثلاثين واسافر مع ذلك اليك . لكن هذا لا يغير من الامر شيئا ، فضعف هذا القدر وعشرة أمثاله ماكان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليخفف الا عن جانب من الشقاء .. وانى عندئذ لأعزى نفسى كما يفعل السفسطائى فأزعم أن ما أنفق ليس تدبيرا فى متعة ، ولكنه واجب أؤديه نحو عروسى .. وان نفقات السفر ينبغى ان يعود مثلها على الفقراء . وانه لموضوع شائك جدا ان اسائل نفسى الى أن مدى يحق لى ان انفق على متعتى ماأقامنى الله على ادارته ، مادام هنالك أناس يمرضون بجوارى من العوزوالبردويرهنون فرشهم وثيابهم حتى لا قبل لهم بالخروج لمزاولة اعمالهم : بع ما تملك وأعطه الفقراء واتبعنى ! لكنه الى أى مدى يمكن والىأى مدى ينبغىأن يؤدىهذا ؟ ان الفقراء لاكثر عديدا مما يمكن لكنوز الارض ان تعول . وسنرى كيف ينبغى الامر ان يكون »

فى هذا الموضع الذى يراد ان يصبح فيه ايمانه الناشىء ايمانا عمليا يقرب بسمارك لاول مره ، وبهذه المشاعر المسيحية لآخر مرة ، مشكلة قدر له ان يتحطم يوما من جراء تجاهلها فى الكبيرة والصغيرة . وحقا ان سفسطائيته لهذر ، فهو لا يقنع نفسه بشىء . بلى فذلك الذى يعلن بسمارك أنه سرق من الجائعين حتى انه ليجفل ، ولو لدقائق ، من متع توائم طبقته ، ويدين فيها بالفضل لأجداده الذين تزدان القاعة خارجا برسومهم ، وقد كان آباؤهم من الفرسان اللصوص : هذا كله جديد على بسمارك ، وسيبقى غريبا عن مزاجه ، ولانه غريب عنه يذهب سدى . وانه لا ريب يحب ان يعنى بأمور اتباعه كسيد، لكن النبيل لن يفهم او يطيق ان يعنى هؤلاء التبع انفسهم بانفسهم ، وان يسجلوا حقهم فى حياة خير من حياتهم . ولان بسمارك ليس فى الحقيقة بالمسيحى الصميم الذى اراد ان يعتده الناس بعد « هدايته » فقد صم أذنيه عن سماع الصيحات الاجتماعية التى ندت فيما بعد عن عصره

انه ليهزنا دائما جهاده لعروسه اكثر مما يهزنا جهاده لنفسه من اجل الانجيل وفى سبيل الايمان . وهو جهاد يؤثر اليوم ويضحك غدا ، لكنه فيه صادق دائما . وقد نقد الانجيل منذ هنيهة فقال بغتة : « من هى بولين بحق الشيطان ؟ أهىابنة عم أخرى أجهلها ؟ وعلىذكر الشيطان : انى لا أستطيع أن أهتدى فى الانجيل الى موضع يحرم اساءة استعمال اسمه . فأذا كنت تعرفين موضعا كهذا فدلينى عليه » وحقا أن المرء ليتمثل هنا الفارس والموت والشيطان يمرون أمامه راكبين. انه يكتب أنآباءه لم يكونوا مسيحيين صميمين: «كذلك لم يكن ايمان أمىايمانا صادقا . أتعرفين ما قاله زعيم فريزلندى قبل تنصيره ؟ لقد سأل أين يكون الآن أسلافه الكافرون ؟ فلما سمع انهم فى الجحيم أبى أن يتنصر » فحيث يكون اباؤه يريد هو ان يكون . لكنه بعد هذه الردة الرائعة يمضى كيسا فيقول : « انى انما اسوق هذا من الناحية التاريخية الرائعة فلا أطبقه على نفسى . وانه لترتبط به أفكار محيرة كثيرة ولاأقولشكوك» ،وفى عقب مثل هذا الموضع تأتى كرة اخرى حسبة هى انه كان ينبغى ان تصل رسائله قبل وصولها بيوم

تصديق الخرافات

وتصديق الخرافات اقوى عنده من ذلك ، فهو من طبعه . ولقدقدربسمارك

فى جميع مراحل حياته ، وكذلك فى شيخوخته ، متى تدركه منيته ، وكان يجعل لربه دائما تقديره هو بدليل مايحدده من أجل، شأنه فى ذلك شن أالساسة كان يقول : « اذا لم امت بعد كذا سنين فلا بد ان أموت بعد كذا سنين » او يكتب الى عروسه : « انك لاتتصورين مبلغ تصديقى الخرافات . فانه عقيب عودتى من الخارج وفتحى صندوق المفانق، عملا برسالة من أمى، ثم فضى رسالتك، وقفت الساعة الكبيرة فجأة من دون سبب اطلاقا على ثلاث دقائق بعد السادسة . وهى ساعة انجليزية قديمة من ذوات البندول ، اقتناها جدى منذ صباه ، ولم تغادر موضعها منذ سبعين سنة .. اكتبى الى فى الحال لتخبرينى هل تتمتعين بالصحة ، وهل أنت منشرحة ؟ »

صور عظيمة

وتكون عيونه اعمق جيشانا حين يسترسل فى تأملاته واحاديث نفسه كما لو كان يدون يومياته . وذلك من دون أن يفكر فيمن يكتب اليه . انه لتتبدى عندئذ فى أسلوبه المتسم بالرجولة صوره العظيمة : «ان التمزق والعدم والألم، تلك الاشياء التى تسود حياتنا الفانية لتجد فى اعماق الطبيعة البشرية من الصدق اكثر مما يجد مس العناصر التى هى أضعف منها سلطانا ، والتى تنمى فينا وهى عابر زهرة المرح الصافى السريعة الذيول .. ان الباخر الأخاذ فوق هذه الارض ، وهو ما يمكن ان يبدو بوسائلنا البشرية شيئا مألوفا ، قريب الصلة بالملك الهابط الجميل الذى لا يعرف السكينة ، الجليل الذى لا يعرف فى تدبيره وجهده توفيقا ، الفخور الحزين »

هذه هى الصور العظيمة التى تعكسها نفسه ، فهو حين يكب فى المساء وحده على القرطاس فى المكان المعقود تند عن روحه مثل هذه الكلمة العظيمة فى مبناها كما يكون اعتراف الشاعر . فاذا مالاحت بعدئذ تباشير الصباح ، ونادى النهار والعالم ، ودعا داعى الجهاد ، استجمع الفارس نفسه ، ونعت قصيدة لبيرون عن «الحزن» تنضح بمثل هذه الحالة النفسية الليلية بأنها « شعر يشيع فيه الجبن أقابله بأبيات من أغنية الفارس التى تقول : اذا لم تبذل حياتك ضاعت عليك الحياة ، وهو ما افسره بأسلوبى على هذا النحو : ثق بالله مخلصا ، واعمل مهمازك فى شاكلة الحياة ، وانطلق بجوادها فوق السهل والحزن ، موطنا النفس على التهلكة ، لايحدوك مع ذلك خوف ، فانك يوما الى زوال ، وانك مفارق كل عزيز لك فوق هذه الارض ، ولكن الى حين لا الى الابد .. اما قبل ذلك فلا أحب ان يكون لى بالحزن شأن »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل التاسع

جواد كريم رهن الاصطبل ، يسمع الجياد تستبق فيتمنى ان يجول معها ويصول : هذا بسمارك وشعوره حين يبلغه ان ملك بروسيا يريد ان يجمع مجالس أقاليمه النيابية الثمانية فى مجلس نيابى واحد يعقده فى برلين ليضع أخيرا ذلك الدستور الذى وعد ابوه الشعب به رسميا بعد حروب التحرير . وقد كان أول برلمان حقيقى فى التاريخ الالمانى ، وكانت الافكار التى حدت النبيل الفخور فى شبابه بسبيل التحقيق . فقد بشرت بروسيا بأن تصبح تلك الدولة ذات الدستور الحر الذى دفع ابن الثالثة والعشرين الى التخلف عن الخدمة العامة أنه لم يكن موجودا . والآن حين تحل هذه اللحظة العظيمة لا يشترك فيها ! فقد كان عليه ليكون نائبا فى برلين أن يكون له مقام وصوت فى ماجديبورغ ، وكان هذا الأمل هو الذى دفعه الى مبارحة بوميرانيا ، ودعاه الى المعاونة النشيطة هنا فى مجمع الفرسان . اما اللاندتاج فقد ادخر هذا النبيل السكسونى ابناء طبقته ، وهو اصغرهم سنا ، لوكالة فيه اذا ماخلا مقعد

والآن يجلس فى شينهوزن يطالع كل يوم كيف يجتمع ممثلو البروسيين لاول مرة فى نوع من المجالس العائلية ومن حولهم ضجة هائلة ، ويشعر بداعى العمل يدعوه ، وبالمعارضة تقوم فى رأسه وقلبه . لكن هناك اولئك المقدمين ، وكلهم وياللأسف صحيح البدن ، مبتهج النفس ، يحجبونه ويمنعونه مكانه تحت الشمس ، فأول مهمة لديه ان ينحى احدهم ليحتل مكانه : فهو — أي بسمارك — يزعم ان بارونا بات من هنيهة رئيسا اعلى لا يمكن من ثم ان يقوم الى ذلك بدور النائب ، ويحتج على ذلك لدى اصدقائه فى برلين ، فيهز الاصدقاء اكتافهم ، ويسألونه بدورهم : لماذا خرج من بوميرانيا . ويسافر المساء الى عروسه ساخطا ، ويلجأ الى التهكم على الموضوع كله متخليا عنه بادىء الرأى

وأخيرا الى اللاندتاج

وأخيرا يمرض واحد من الفرسان السكسونيين فى برلين ، ومع أن صحته تتحسن فان أصدقاء بسمارك يلحون عليه فى التخلى له عن كرسيه . وطبيعى أن تكون يد بسمارك فى هذه اللعبة فهو يسمى «عضوية اللاندتاج رغبته الملحة» ويسارع الى برلين ، ويدخل الى قاعة المجلس فى مايو عام ٤٧ ، وتقيد سنه اثنتين وثلاثين

ويرى الاقاليم جميعا ، من نهر الرين الى نهر الميمل ، ممثلة هناك ، رمزا اول على بروسيا الواحدة . بيد ان الذى يجول فى خيرة رؤوس هذه القاعة ليس بروسيا وانما الفكرة الالمانية ، ذلك ان كل من يحمل فى نفسه ذهنا ويرجو مستقبلا ، كان يومئذ تحدوه النزعة الحرة والقومية الالمانية معا. والملكالمفروض تأثره بفكرة المانيا المتحدة ، تلك الفكرة التى ابغضها ابوه ، يسنده فيها شعبه وأغلبيته الساحقة ، بينما عمد العرش لا يحسون سوى الاحساس البروسي الذى جبلوا عليه . وليس فى هذه القاعة سوى سبعين رجلا تحدوهمالنزعة المحافظة من ٥٠٠ ، وهؤلاء السبعون لا يناصرون فكرة توحيد المانيا .

ازدراؤه الزملاء

ويشعر بسمارك بالعزلة فى الحال ، فشعوره نحو الملك بحكم طبقته ،وعطفه منذ الصبا على مبادىء الاحرار ، مما يجعله لا يناصر حزبا من الاثنين . وتثور عناصر كيانه : الكبرياء والاقدام والبغضاء ، تثور لتلهب حميته . فعندما يناقش المجلس فى جلسته الثالثة مشروع بنك زراعي للقرويين تضمنه الحكومة ويرفضه المحافظون يطلب الكلمة ويدافع عن الحكومة ضد اليمين ، وعن اليمين ضد الاحرار ، فتكون كلمته الاولىهجوما ، ويكون هجومه ذا وجهين . ويكتب الى عروسه محتقرا متحمسا : « عجيب مايبديه الخطباء من قحة لاتتناسب وكفاياتهم . فبأى غرور منطو على قلة الحيـــاء يجرؤن على فرض كلامهم الأجوف على اجتماع كبير كهذا الاجتماع .. لقد أثر فى هذا الامر أكثر كثيرا مما كنت اظن » ثم يتحدث عن « هذا الانفعال السياسى » الذى استحوذ عليه استحواذا عنيفا فوق ما كان ينتظر

ولم يطرح بسمارك تشككه قط ، وفىأى موضوع، كما أطرحه هنا، حتىأيام ان كان مغرما شديد الغرام . انه لم يتأثر قط بالناس او الاشياء كما يتأثر الآن ، فلماذا هو اليوم هذا الرجل ؟ ليس من جراء المشاكل القائمة ، فالقرويون لايحركون ساكنة ، لا ولا بروسيا نفسها ، وأقل منهاالمانيا ، بالتىتقضىمضجعه بل هذا الميدان ــ ميدان القتال وساحة النزال التى يستطيع اخيرا ان يجاهد فيها جهادا واسع النطاق ، هذا الميدان هو الذى يحركه من الاعماق ويبعثه مبكرا وهو ذاهب الى اللاندتاج ، الى أن يكتب الى عروسه مرارا وتكرارا فى جد بالغ : «أنى متوجه الى النضال » واذا كان فيما مضى قد اعتاد ان ينفس عن اعتداده بالذات باحتقار الناس، وعن احتقاره للناس بالرسائل الساخرة ، أو على الاكثر ببضع مبارزات ، فقد كان اذ ذاك ينقصه الصدى ، وكانت مثل هذه الحيوية الجريئة ومثل هذه الحدة فى الذهن معطلة لا تشترك فى سباق . كان بسمارك اكثر تكبرا من ان يكون موظفا ، واحرص على الاستقلال من ان يكون جنديا . كان فحسب سيدا على قرويين ، وسائدا فى مجتمع يسهل التغلب عليه بالذهن ، فظل باعثه على الكفاح محروما من خصم ينازله . اما الآن فيجد المنبر أخيرا ، فهو يستحق ان يجاهد من فوقه ، لا فى سبيل فكرات ولا لتحقيق خطط معينة للاصلاح فى ميادين الاقتصاد او السياسة : بل انه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليعتلي المنبر مفعم النفس بالعداء للناس والاحزاب ، متشهيا النضال ضد الجميع . فتمثل الشعب معناه عنده تجريد السيف

من فوق المنبر

وفي جلسته الرابعة يصعد المنبر ليلقي لأول مرة خطبة مستفيضة : «رجل في مستهل العقد الرابع ، مديد القامة ، قوي البنية ، ثابت الرأس ، قصير الرقبة فوق كتفين عريضتين ، نبيل السمت في غير رقة ، بادي الحركة دون تراخ ، ثابت من غير تصلب ، ذو طلعة نضرة ووجه مليء ولحية شقراء ، لم يخل محياه من أثر الفروسية ، تلوح عليه القوة والعافية ، وترتسم الابتسامة الساخرة على ما يلي ذلك من أجزاء وجهه السمينة ، ولا يتحلى أنفه المفرطح قليلا بشيء من جمال ، تبدي عيناه بحاجبيه المرتفعين صفاء وأرابة ومكرا ، ويبدي جبينه استقامة وثباتا وطلاقة . يرجح فيه اثر المتعة والراحة في الحياة مظهر الوثوق الذهني والقوة المطمئنة » . هذه الصورة التي رسمها شاهد عيان فيما يتصل بسيرة بسمارك ، اذا كانت مازالت بعد مر السنين تحتفظ بروعتها ، لا تسجل في العموم مع ذلك سوى الوقع وتغفل الخاصية التي استرعت انتباه السامعين من قبل ومن بعد خلال عشرات السنين ، الاوهي كلام هذا المارد بالفصحى ، والصوت الخافت المتقطع ، وتعبيره بهذا التعارض عن لغز كيانه . فما الذي يسوقه اليوم الى المنبر ؟

الخطبة الأولى

نبيل من الاحرار ، وامثاله موجودون ، جرؤ على ان يقول ان الكره وحده لم يكن كل ما دفع البروسيين الى محاربة الفاتح في سنة ١٨١٣ ، ذلك أن مثل هذا الشعب النبيل لا يعرف على قوله هذه البغضاء القومية ، ويقول : كانت الاحوال اذ ذاك خيرا منها الآن ، اذ كانت الحكومة تستند يومئذ الى الشعب . وهذا قول ينطوي على فكرة كانت يومئذ مستولية على أذهان الشعب وأن لم يفصح عنها . وهذه الفكرة هي ان الشعب مشى الى ساحة القتال ليحرر نفسه كذلك فانتزع بجهاده في سنة ١٨١٣ حق الاشتراك في الحكم . وكان بسمارك قد اعد لهذا القول ولكل الاحتمالات بضع عبارات ، فكان ما اراد ان يؤثر في المجلس بوصفه انفجارا مباغتا لرجل غضبه شيئا محضرا (وجد الناس اصله) :

« كأنما يتحتم أن تعزى حركة الشعب في ١٨١٣ الى أسباب أخرى وأن يعوزها باعث آخر غير الخزي من حكم الاجنبي لبلادنا . وعندي انه مما يخدش شرفنا القومي أن نفرض أن العسف لم يكن كافيا لأن يجعل دم الشعب يغلي في عروقه ، وان كره الاجنبي اصم ما خلا ذلك من مشاعر . . ان المرء ليتجرد من كل شعور بالشرف اذا ما اراد ان يجد في دفاعه عن نفسه من ضربات يتلقاها فضلا لثالث كأنما لهذا الثالث وحده الفضل في دفاعه»

ضربات فى الهواء

يسمع أصدقاؤه هذا مبهوتين ، ويرون أول ضربة لبسمارك فى هذه المعركة الكلامية ضربة فى الهواء ، ذلك أن الخطيب السابق لم يزعم شيئا من كل ذلك، ويشعر جميع من تطوعوا فى الحرب فى ذلك الزمان او ابناء هؤلاء الرجال ومن منهم بين المحافظين ايضا بأنهم اهينوا ، فتسجل المضبطة « تذمرا عاليا متكررا ولغطا عظيما » ، ويرد خطيب عليه بقوله ان الكره لم يكن هو الذى حدا الشعب بل حب الوطن ، وانه ـ أى بسمارك ـ أصغر سنا من أن يعرف ذلك. ويرى فيه بسمارك خصما شخصيا فيزهى قلبه ويغتبط ، ويعود الى المنبر فى الحال « فيعظم اللغط ، ويحث الرئيس على الهدوء ، وتتجدد صيحات الاستنكار » فيدير بسمارك ، وهو من اصغر النواب فى هذه القاعة ، ظهره للمجلس الحانق ، ويخرج من جيبه صحيفة يقرأ فيها حتى يهدأ المجلس ، فيقول عندئذ : لا شك انه صحيح انه لم يكن حينئذ قد خلق ، لكن اسفه الدائم على ذلك الظرف الذى فاته ، ليقل بما وضح اليوم للناس من ان عبودية بروسيا يومئذ لم تأت من الخارج ، بل كانت تقيم فى نفس البلاد

ضربة اخرى فى الهواء . ويبدى فيما بعد صديق من اصدقاء الحزب انه من غير المفهوم أن يعرض رجل حاذق مثله نفسه لمثل هذه السخرية . ويقول فريب بحمل الصليب الحديدى للخطيب : « انك بطبيعة الحال محق كل الحق ، لكن مثل هذا الكلام ليس مما يقال » . ويقول بلانكنبورغ مروض هذا الاسد : « إن الاسد الذى لعق الدم هنا لن يلبث ان يزأر زئيرا آخر بالمرة ! » وينحى سيبل ، وهو مؤرخ صغير اذ ذاك ، على الخطبة باللائمة فى صحيفته ، وحجته أن الاصلاحات والحريات لا يمكن الفصل بينها ، وتعيين حدودها بهذه الدقة

وهو على حق ، وكلهم على حق ، وفى جملتهم بلانكنبورغ ، لكن احدا منهم لم يستطع يومئذ ان يدرك السبب الباطن لهذه المهزأة المجيدة : لم يدرك ان العبقرى يصطدم بالجمهور دائما اول ما يلاقيه . وحقا انه استعد فأخطأ من ثم الاتصال ، وحقا أنه أنكر قوانين العصر وأغضب أصدقاءه أنفسهم ، لكنه ما الذى يخفى وراء ذلك ؟ قوة البغض يحسه للفرنسيين اقل مما يحسه لاولئك الذين يأبون أن يكرهوا هؤلاء ، والشجاعة تحدو هذا المجهول وسط الضجيج الى اعتلاء المنبر مرة ثانية ، والاحتقار يدفعه الى ان يدير لهم ظهره ، كل ما هنالك من مقومات النضال يبديه فى هذا النضال . ويروى لعروسه : « لقد اثرت امس عاصفة هوجاء من الاستياء ببيان لم اوضحه ايضاحا كافيا ، عن طبيعة الحركة الشعبية التى كانت سنة ١٨١٣ فمسست به غرورا اسأت فهمه ، يداخل الكثيرين من اعضاء حزبى ، وجررت على نفسى به سخط المعارضة كله . لقد كان الامتعاض كبيرا ، ولعل ذلك لانى قلت الحقيقة .. لقد عابوا على شبابى وكثيرا غير شبابى »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بينك وبين اللاندتاج

وتتخذ رسائله الى عروسه فيما خلا ذلك شكل التقارير من الآن فصاعدا ، وان لم تخف فيها قط نغمة الحنو . وحين تمرض ويشتد عليها المرض يصلى من اجلها لكنه يظل « فى مركزه » ، ويعد المشتاقة بالتوجه اليها فى عيد العنصرة ، لكنه لا يوافيها بل يكتب اليها فحسب : « لا احب ان افكر لماذا اسلك هذا السلوك . ولست بحاجة الى هذا التفكير .. والامر هنا ، ومصائر البلاد الكبرى تقدر ، كثيرا ما يتوقف الفصل فيه على صوت واحد .. بيد انه يحزننى أن يفصل بينك وبين اللاندتاج خمسون ميلا .. انكن أيتها النساء عجيبات وستبقين كذلك . ولخير لنا ان يكون اتصالنا بكن على الشفاه لا على القرطاس » ويكتب اليها يقول انه لا يجوز تأجيل الزواج ، وانه لا ضير على يوحنا ان تبدأ الزوجية وهى مريضة او لاعتقد انه يضيع وقته فى رينفلد ، « ولست استطيع قبل الزواج ان اختلط بك على سجيتى »

الجـــواب

وهكذا تقع نغمته بعد الخطبة ببضعت أشهر نامة عن تصميمه على الزواج . ولم تهبط حرارة هذا التصميم قط ، لكن عزمه وقيادته يعظمان سريعا : فأرادته هى المتحكمة ، ولاول مرة فى حياته يأخذ فى تقديس الوقت وفى الكلام عن تضييعه . لاول مرة يبدو لبسمارك شىء ما هاما ذا شأن . وهو يعلن ان السياسة ستطرد جوعه ونومه « سأمرض بالمرارة من نذالة المعارضة الكاذبة الواشية » ، لكنه سرعان ما يهفو قلبه الى الغابة ويحن الى يوحنا . فبعد أسبوعين فى اللاندتاج يعترف بأن الانفعال السياسى يتملكه بما لم يكن فى حسابه ، لكنه بعد ذلك بخمسة أسطر يقول : « ألا ليتنى أضمك صحيحة ، واسكن واياك خصا من اخصاص الصيادين فى قلب الغابة الخضراء بين الجبال ، فلا أرى وجهـــا بشريا غير وجهـــك ولا أجتلى ســـوى طلعتك ! وهذا هو ما أحلم به كل ســـاعة . فهذا الدولاب الصاخب ــ دولاب الحيـــاة السياسية ــ يؤذى سمعى من يوم الى يوم . هل غيابك او مرضك او كسلى هو ما يبعث فى الرغبة فى أن أكون معك وحدك نحلم بالطبيعة الساجية ونتأمل. يمكن ان يكون روح التناقض هو ما يحملنى فى كل وقت على اشتياق ما ليس فى يدى »

وهذا هو الواقع . فمن عهد قريب اذ هو خالى البال من ناحية السياسة او الجمهور ، كان يدفع عروسه الى اعداد نفسها لحياة المجتمع ، فما ان يبيت المجتمع له حتى يحلم بكوخ الصياد . انه يعرف السبب ، انه نفسه يسميه . وهكذا سيظل اربعين سنة يشكو ولا تنقطع له شكوى . هنا اخفى ما فيه ، هنا طبيعته العويصة التى لا يرضيها مركز : هنا بسمارك الجواب

الفصل العاشر

الملك الهستيرى

رجل قلق عالى الصوت ، لا يتصف بصفات الجندى ، مغرور مشتت ، يزهيه أنه الملك «بفضل الله» ، وأن لم يشعر بهذا «الفضل» : هذا هو فريدريك ولهلم الرابع الذى لقب « باللاعب على الحبل » . ولم يكن لعبه بين الشعب والتاج حقا سوى لعب . رومانتى ، غامض ، ذكى فى ذلك أكثر مما يجب ، اعتقد بادىء الرأى أنه قادر على تذليل الصعاب جميعا ، وعلى نفع دول شرق أوربا وفرنسا معا ، والحلف المقدس والمانيا المتحـــدة معا ، وعلى تشجيع الرجعية والحرية معا . وبينا انجز ما وعد به آباؤه جادين ، بالتظاهر الكاذب باعتناق مبادىء الاحرار ، قال بعد كفـاح اللاندتاج الاول : « انه سيهلك على أيديكم » وفاته كل ما كان عليه أن يعطيه ، ولم يفقه من روح العصر شيئا فى الغالب . كان عنيدا ، متغطرسا ، يعتقد فى قدرته على الحكم بنفســـه : أعراض تدل جميعا على مرض عقلى لن يلبث ان يظهر عليه ، لكنه قبل أن شخص رسميا ظل صاحبه فى حل من الاضرار ببلاده قرابة العشرين من السنين . سلم الشعب آلة موسيقية لكنه هدد من يجرؤ على العزف عليها . قال لهم : مرحبا بكم من كل قلبى ، لكنه فى نفس الوقت حذر كلا من ان يقترب منه . لقد كان الملك البروسى قبل الاخير ، الذى استطاع أن يقول : « هنالك اشياء لا يعرفها المرء الا بوصفه ملكا »

لم يكن آنئذ من شخصية يمكن فى سهولة ان تكون ابغض الى السيد فون بسمارك ــ شينهوزن من هذا الملك . ومع ذلك فلطالما اختلف فى تلك السنة ــ سنة ١٨٤٧ ــ الى البلاط ، واشترك فى نزهات فى نهر الهافل . « كنـا عند صديقنا الملك قبل عيد الفصح ، موضع الحفاوة من عليه القوم » . يهنئه الامراء على خطبة فى اللاندتاج ، ويتحاشى الملك تهنئته حتى لا يعرض استقلال أصغر أنصاره للشكوك ، ذلك أنه يعلم أن ذلك النصير ما يزال مستقلا . وكان مستشارا الملك الجنرال ليوبولد والرئيس لودفيج فون جيرلاخ مشيرين على بسمارك . وكلاهما اخوان ، على علم عظيم بشئون الدنيا . وكلاهما يكبرانه بعشرين عاما . ولودفيج متدين ومن بيت تادن ، من معارف بسمارك ، ويضمر له الخير . وقد تلقى منهما ايحاءات لخطبة عظيمة هى رغبات للملك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشعور الاقطاعى

وهكذا ينشأ فيه سعى مزدوج يبدو اول أمره فى حدود مائعة واسعة ، سعى الى نفع الملك والانتفاع منه معا ، الى تقوية نفوذه هو بالولاء ، وتقوية فرصه بمناصرة الملك والانتفاع منه معا ، الى تقوية نفوذه هو بالولاء ، وتقوية سلطان الملك فى الوقت الراهن . وفى هذا الاختلاط الاول بخلصاء العرش يقوى شعور النبيل المطبوع بطموحه ، ويتعاظم سريعا ، حتى يصبح ولاء للملكية الشرعية التى تلائم أصله ، والتى وصفها فيما بعد بأنها شعور اقطاعى

وقد كان هذا الشعور الذى تعهده فى نفسه ليخدم به أغراضه مكينا يومئذ فى قلبه ، ذلك انه يكتب الى زوجه يسر اليها فى لهجة غير مألوفة : « لا تتحدثى عن الملك بكلام محط ، وان كان كلانا يفعل ذلك ، غير انه لا ينبغى أن نذكره الا كما نذكر والدينا ، وان ضل وأخطأ ، ذلك أننا أقسمنا على الولاء والاكبار لشخصه لحما ودما » . وهذا الجد المتسم به هذا التعليم ، لا نظير له فى محيط رسائله بأكمله . انه يطالب زوجه بالايمان بملكه كما تطالبه زوجه بالايمان بالله . وقد علق حياته طويلا بهذا اليقين كما علقت هى حياتها بيقينها . وفى هذا تطفو فى دمه ذكريات عريقة لاجداده الذين تحدوا كذلك ملوكهم ، لكنهم لم يتخلوا مع ذلك عنهم قط . وحين يقارن بين هؤلاء الملوك وأبويه اللذين كان يسمح لنفسه فحسب بأن يتناولهما بالشك فى تفكيره ، يحدد موضع الاسرة الكبرى التى تشعر بوحدتها وسموها ، بحيث تكون هى العليا ، ويكون سائر الشعب دونها . وهذا الموقف الذى يشعر فيه بقصده وبطبقته ، لا يتطلب اليوم من كبريائه شيئا من التضحيةبعد ، فمايزال حرا فى اختيار حزبه وتغييره ، وما يزال يخطب وده ، وينقد ما شاء ان ينقد دون أن يحمل تبعة . والويل لكبريائه اذا ما بات مستشارا للملك وزعيما ، ثم بقى مع ذلك له تابعا !

حول اليهود

وتبدأ الورطة من الآن . فالنائب الشاب يريد منبرا وانقساما وبرلمانا مهما يكن من أمر ، فأين فيما خلا ذلك يمكن أن يبدى همة وادراكا ، لكنه فيما يناصر دعوة اللاندتاج الى الاجتماع فى كل سنة يجب أن يؤيد الاحرار البغيضين ، فماذا يصنع ؟ ان الضغط على الملك يتنافى مع الولاء له ، ومن ثم ينصح بسمارك بتعليق المسألة . وحين تعرض مسألة اليهود للمناقشة يؤثر بسمارك أن يتخلف لانه يخالف الحكومة فى هذا الموضوع ، لكنه يحضر مع ذلك أخيرا ، واذ بات بصورة ما زعيما لليمين المتطرف يتولى عنه الكلام ضد « ذلك التشدق الممل بالانسانية » من ناحية اليسار الساعى الى المساواة التامة بين جميع المواطنين فى الدولة

انه يبدىء بقوله : « «لست عدوا لليهود ، ولو قدر ان يكونوا اعدائي لسامحتهم . بل اني لاحبهم فى ظروف بعينها ، واعطيهم ايضا كافة الحقوق الا أن يتولوا فى دولة مسيحية منصبا ذا سلطة .. وكلمة «فضل الله» ليست

فى نظرى رنينا اجوف .. وما يتجلى فى الانجيل هو ما اسلم به وحده كمشيئة الله ، فاذا جردنا الدولة من أساسها الديني لم يبق لنا من الدولة سوى مجموعة ما من الحقوق ونوع ما من الحصون لاتقاء حرب الجميع ضد الجميع .. انى لا اتبين كيف يأبى المرء فى أمثال هاته الدول على أفكار الشيوعيين مثلا حقها ، وهى القائلة بأن الملكية منافية للاخلاق ، فى أن تفرض نفسها متى أحست القدرة على هذا الفرض .. كذلك لا ينبغى أن نضيق نحن على الشعب فى مسيحيته »

سائس

لقد كانت هذه دائما نغمة الملوك والوزراء فى الحكم المطلق ، ولو كان الجد مينيكن تكلم بهذا الكلام لما غضب عليه ملوكه قط . لكن مينيكن الهرم كان خليقا عندئذ الا يستطيع تنوير ابنته بالافكار الحديثة ، وكانت ابنته خليقة الا تستطيع نقل هذه الافكار الى ابنها ، ولعل بسمارك الصغير كان خليقا ، لمعارضته لامه التى لم يحبها ، ان يصبح حرا ، لو كانت هذه الام تلقت عن ابيها افكارا رجعية . لكن المؤكد ان الرجل الذى حسد ميرابو وبيل وهو فتى ، والذى كان يغتبط بأغاني بيرون ويعجب بانجلتره ، كان بتعليمه وتشككه أصلح لأن يتغلب على فروق الجنس قبل فروق الطبقات . فاذا كان بدلا من دلك يذهب الآن ولاول مرة الى تأكيد هذه الفروق علانية ، فان شيئا من التدين لم يدفعه الى هذا ، وهو الذى لم يجعل للتدين ، لا الآن ولا فى المستقبل أى تأثير على السياسة ، ولعل الذى دفعه هو مراعاة المتدينين أنفسهم . ذلك أنه بعد أن كان قبل سنة واحدة يناهض الرئيس فون جيرلاخ ليفصل الدوله عن الكنيسة ، بات الآن يروقه أن يروق هذه الجاعة ، جماعة المتدينين . ولم يكن هذا منه تغليبا بحال لنزعة جيزويتية ، بل كان يقرب شبه واع بين ما يقتنع به وما يهدف اليه حتى التقى هذا بذاك متهافتين كما يلتقى « الحبيبان يسعى احدهما الى الآخر » . ومن ثم كان بسمارك سائسا

وكسائس ورجل دولة يستشهد بعد ذلك بخمس دقائق بالطبقات الدنيا فيقول : « اننى اذا خطر لى أن يكون لى من اليهود من آتمر بأمره بوصفه ممثلا للملك صاحب الجلالة المقدسة ، لوجب ان اعترف بأنى سأشعر عندئذ بأنى انحططت كثيرا وانحنيت كثيرا .. وانى لاشاطر جمهور الطبقات الدنيا فى الشعب هذا الشعور ولا اخجل من هذه المشاركة » لكنه لا اليهود ولا المسيحيين كان يريد يومئذ أن يطيع بوصفهم ممثلين للملك ، ولا أن يبذل فى سبيلهم نشاطا او يبدى حيوية وهو الذى يضطر بوصفه نفسه ممثلا للملك ، ان يطيع على الاقل هذا الملك

بين الغرض والاقتناع

بيد ان هذه الكبرياء الحرون تلطف حين يلاقى خطيبته او يفكر فيها ، فاذا مرضت خف الى مسيحية رينفلد بأسرها فى طلب الدواء يدلل تدليلا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غريبا على أن الله واهب الدواء . وهذه المسيحية أو هؤلاء المسيحيون انما يضعون ثقتهم بالله ولا يصفون الدواء . أما هي فحين تسترد العافية تقابل بين حياتها الهادئة وحياته المتعة التى تلم بها من رسائله ومن الصحف فتقول : « وحين تتبعك افكارى من مسرة الى اخرى وتتابع معتركها الابدى .. يتولانى القلق فى الغالب ، لكنى اضع اصبعى على فمى ، ويدى على قلبى ، أصلى من اجلك فى صمت .. ليكاد الخوف يستولى على من انهم ازهوك ، ومن انك فى النهاية ستحتقر عشنا المتواضع فى رينفلد » . ان ذعرا صميما يتملكها احيانا فيرهبها وتتفجر رسالتها بهذه الكلمات المحزنة المسلية : « اوتو ، ان لك دما حاميا فظيعا »

منديل العروس

ويتعاظم مرحه فى تلك الاثناء كلما اقترب موعد الزفاف ، ويكتب اليها فى كياسة يشوبها الامر : « اينبغى اذن ان اقف تحت نافذتك فى مساء دافىء وعلى المخمل الاسود وريشة النعام الرفرافة ، أغنى على القيثار : « لنهرب معا (وهو ما اغنيه الآن حقا وصدقا فى عبارة تسيل رقة) وان اشدو : استريحى على صدرى ، ام ينبغى ان اظهر فى رائعة النهار وعلى سترة الركوب الخضراء والقفاز البنى ، وأعانقك من دون غناء او كلام ؟ » لكنه حين يشير عليها بأن يبدأ رحلة العرس مع بعض الاصدقاء تمانع فى حزم

ويتزوجان بعد الخطبة بستة اشهر ، وكانت احدى الصديقات اهدت اليها منديل العرس وطرزت فيه وردة بيضاء تعبيرا بلغة الازهار فى هـذه الدائرة ، فحين يجلس الزوج الشاب الى المائدة ، ويسيل الشراب فى حنجرته يتناول منديل يوحنا فتقع نظرته الواقعية القديمة التى تكره الرومانتيـة على الهزرة الرمزية ، وقبل أن تستطيع العروس المنزعجة دفعا يكون قد حرق الزهرة بنار سيجاره يريد ان يقول : بهذا ينتهى اليوم جان بول وسر البكارة

رحلة العرس

لكنه يرى الحبيبة الدنيا فى رحلة العرس الطويلة المديدة فى سرور الاب الحنون . ويكتب الى اخته ما يأبى المرء معه ان يصدق أنه يسمعه ممن لم تتجاوز سنه الثانية والثلاثين فيقول : « يلوح بالنسبة لى ان قد فات الوقت الذى يشتهى فيه المرء التأثر بمناظر جديدة حتى بت وغبطتى تتزايد بما تعكسه يوحنا على » واكثر رواقية من هذا ما يرويه لاخيـه عن رحلته اذ يقول : « ثم جاء الطرف الغليظ بعد ذلك والنهاية المحرجة فى الرحلة ، فاضطرت يوحنا اخيرا الى ان تزيد مائة الجنيه الفريدريكى مائتى ريال تقريبا كانت تلقتها لشراء الفضيات . لكن هذا لم يكن امرا ذا بال . فالشمعدانات المفضضة هنا بكثرة ، والشاى الوارد من ودجوود طيب المذاق كذلك ، وكل ما خلا هذا وفير مهدى الينا . وهكذا كلفتنا الرحلة قرابة ٧٥٠ ريالا لكلينا ، فكان نصيب

كل يوم من ايامها السبعة والخمسين ثلاثة عشر ريالا .. وأسوأ من هذا انى فقدت فى تلك الاثناء ست بقرات وثورا فى ميلتسبراند وهى خير ما عندى بالذات »

فما آلف ما اصبح بسمارك المغامر ! وحقا انه عندما يسافر وحده او مع زوجه ، لابد ان يتسم ما يحوطه بالوجاهة ولا يظهر ابدا فى مظهر رخيص . لكنه حين يقسم الآن هناءه وهو معرس فتى على ٥٧ يوما ، وحين يختم تقريره بست بقرات وثور ، يرى المرء مع ذلك كيف يحب ان يلتزم آفاقه الضيقة وقد انفسحت له واسع الآفاق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الحادى عشر

فى ١٩ مارس ١٨٤٨ وبسمارك عند معارف له فى مزرعة مجاورة يتحدث فى السياسة فى الراجح لاضطراب الحال فى ذلك الاوان ، اقبلت مركبة على غير انتظار وترجلت عنها سيدات جعلن يروين للجالسين وهم مدهوشون انهن فارات من برلين فى التو والساعة ، لان الثورة شبت هناك ، والملك اسير بيد الشعب ! وكان بسمارك الذى قضى الشتاء مع زوجه الشابة فى شينهوزن لعطلة اللاندتاج ، وانفق فيه اول نصف عام وآخر نصف عام فى حياة زوجية هادئة ، يساوره القلق منذ اربعة عشر يوما كما كان يساور الجميع من طرد الشعب الباريسى ملكه منذ هنيهة ، واعادة الجمهورية ، وتشجيع أمثال هاته الرغبات فى ألمانيا ، حيث أقالت الحكومة وزراءها الرجعيين على عجل ، وعينت محلهم وزراء من الاحرار . لكن هذا كان بعد الاوان : فقد خرج الشعب فى ١٨ مارس الى الشارع ، واصطدم مع العسكر ، فاصدر الملك امره الى ضباطه بالارتداد من غير ما ضرورة ، وجبنا اكثر منه عطفا

وهنا يعجل بسمارك الى شينهوزن . فهو يرى كيانه مهددا كله فى هذه اللحظة ، فمن ترى تجرده الجماهير الهائجة من املاكه قبل غيره ، ولعلها تقطع رأسه بوصفه من ألسنة الرجعية ؟ وقد ثارت كبرياؤه واستفزت جرأته ، وهو يفكر فى ميراثه واملاكه التى يجب عليه زوجا ، ثم بعد ذلك والدا ، ان يذود عنها ، مدفوعا الى ذلك بأشد الغرائز الطبيعية ، ففى مصلحته بالذات ان تقوم القائمة الآن وعلى الاخص على الحمر . وهكذا تدفعه الطبيعة والمصلحة الى الا يرى سوى الالتجاء الى العنف ، فيلجأ فى الحال الى وسائل شديدة . فعندما يظهر فى شينهوزن فى صباح اليوم التالى مفوضون من المدينة ، ويطلبون الى القرويين رفع العلم الأسود والأحمر والذهبى يهيب بهم سيدهم ان يقاوموا ، ويأمرهم بطرد المبعوثين « وهو ما تم باشتراك النساء ومساهمتهن النشيطة » ثم ترفع بعد ذلك رايته البيضاء ذات الصليب الاسود على برج الكنيسة . ويجمع السلاح ويجد منه فى بيته عشرين بندقية صيد ، وفى القرية نحو الخمسين ، ويبعث الرسل الى المدينة فى طلب البارود

ويأخذ زوجته الباسلة معه فى المركبة ، ويطوفان بالقرى فيجدان

معظم اهلها مستعدين للتوجه معه الى برلين لانقاذ الملك المعدود اسيرا . وحين يهدده جاره الحر بأن يثير الناس عليه يعلن اليه كما جاء فى روايته : « اذن اقتلك رميا بالرصاص »

ــ لن تفعل هذا !

« بل افعله واقسم بشرفى . وانت تعلم انى ابر بقسمى . فدع هذا »

الى بوتسدام

ويعود بعد هذه الافتتاحية الرومانتية المتسمة بالفروسية سياسيا كما كان ، فيسافر وحده الى العاصمة ، لكنه يقصد قبلها الى بوتسدام فيعلم من قواد اصدقاء ما وقع ، ويطلب منه القواد بطاطس وقمحا لجنودهم لا قرويين ليسوا بحاجة اليهم . ويجدهم فيما خلا ذلك حانقين على الملك لانه منعهم من الاستيلاء على برلين . ويتخلى بسمارك فى الحال عن الملك ، وينشط ، ويسعى للحصول من البرنس ولهلم فون بروسيا على امر بالتصرف ، فيحيلونه الى الاميرة زوجته

وكانت اوغسطا تكبر بسمارك بأربع سنوات ، متزوجة اذ ذاك منذ عشرين سنة ، اى انها فى الانتظار . فكان كلما تفاقم جنون الملك تعاظم رجاؤها فى أن تخلف فى النهاية نسيبها عديم الولد هى وزوجها . والآن ترى حسابها يتبدد بضربة واحدة وقد لبثت تحسبه طوال الحياة ، ويلوح الاخوان فى هذه الايام مهددين بفقدان السلطة واضاعة السلطان ، فولهلم يختبىء فى جزيرة الطاووس ولا يعلم بمخبئه اخلص خلصائه . ولابد انه اعجب المرأة الجميلة الطموحة الى الحكم ماضى الملكات السالفات مما تعلمته من تربيتها فى فايمر ، ذلك انها تخاطر بلعبة جريئة على مسئوليتها : تريد ان تضمن لولدها خلافة العرش وتفاوض فى ذلك فينكه الزعيم الحر من قديم . وانها لفى غمرة هذه الخطط اذا بهم يعلنون اليها ان الزعيم الملكى الجديد قد حضر . فهل تستقبله فى الصالون حيث للحيطان آذان ؟

خيانة اوغسطا العظمى

« لقد استقبلتنى فى حجرة لخادم فى « الانترسول » جالسة على مقعد من خشب الصنوبر ، وابت ان تعلمنى بما استعلمت عنه (اين زوجها) وقالت لى فى انفعال بين ان واجبها يلزمها ان تصون حقوق ولدها ، وقد استندت فى هذا القول الى ان كلا الملك وقرينها لن يستطيا الصمود ، وادخلت فى روعى ان تتولى الوصاية على ابنها القاصر »

ها هو ذا النبيل المخلص للملك يقف قلقا يريد ان يهتدى الى الامير المختفى وأن يجد فيه أخيرا الرجل الذى يؤتى الشجاعة فيصدر الامر بالمقاومة . تجلس امامه فى حجرة الخادم وعلى مقعد خشبى زوجة هذا الامير التى تخلت من امد عن زوجها وعن الملك ، وبات لا يهمها الا ان تحقق غرضا واحدا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هو إنقاذ العرش لابنها ، تفضى بهذا الشروع فى الخيانة العظمى الى نائب ادنى الى ان يكون غريبا عنها ، ورجل يبغى بالذات نقيض ما تريد . وما يجيبها به فى هذا المقام مجهول نصه ، لكنه يمكن استخلاصه مما رد به عقيب ذلك على الهرفون فينكه الذى « طالبنى باسم رفاقه فى الحزب وبتكليف سام فيما أظن بمناصرة الخطة القاضية بحمل الملك على يد مجلس اللاندتاج على التخلى عن العرش واقامة اميرة بروسيا وصية على ابنها القاصر ، وتخطى امير بروسيا فى ذلك ولكن مع موافقته كما يقال . فأعلنت ان طلبا كهذا سوف يكون ردى عليه المطالبة بمحاكمة اصحابه بتهمة الخيانة العظمى ، فعدل فينكه عن محاولته هذه .. قائلا اخيرا فى برود واستخفاف انه من دون تأييد انصار اليمين المتطرف الذى يعدنى ممثلا له لا يمكن حمل الملك على التنازل . وقد دارت هذه المفاوضة عندى فى فندق الامراء فى القاعة الارضية الى اليمين ، وحوت مما صدر عن كلينا اكثر مما يحتمل التدوين »

بسمارك ينقذ غليوم

وهذه الجملة الاخيرة التى كتبت بعد قرابة اربعين عاما من الحادث تنم من كليهما عن اكثر مما يسجله الشيخ . وهو يعلم علم اليقين لماذا يختم بقوله : « لقد كتمت ما جرى عن الامبراطور غليوم وفى اوقات كنت مضطرا فيها ان ارى فى شخص الملكة اوغسطا خصمى الذى امتحن جدارتى بان اقوم بما عددته من واجبى ، واثار اعصابى فى حياتى اثارة ما بعدها اثارة » ان اوغسطا لم تغفر قط بعد ذلك ليوسف هذا عفته السياسية

هنا اول منظر وفى نفس الوقت اقوى منظر فى تلك المناظر التى نافح فيها بسمارك عن مليكه بشعوره لا عن مصلحة اية كانت ، يفعل هذا فى اللحظة التى يبلغ فيها احتقاره للملك اقصاه . وهذه المشاعر التى اختلطت فيها الشجاعة بكراهته للجماهير ، وهى من لا يجوز عنده التنحى لها والتراجع امامها ، وامتزجت فيها كبرياء الفارس بالمسلك الذى توورث من قديم ، وداخلها ، التصور الرمانتى الذى يكون للمقربين ــ هذه المشاعر تفيض فى مثل هذه اللحظات العصيبة احيانا وتطغى على عقله الرزين ، ذلك ان فينكه كان من الناحية العملية المحضة على حق فى وصف مسعاه « بأنه اجراء اقتضته السياسة وانعم فيه النظر ، واعده اعدادا » . واذا ما تأمل الرجل الطموح الارتباطات التى اخذتها الاميرة على عاتقها حيال من يناصر رغبتها فى المستقبل ، وجد أن الاحكم أن يؤيد فى أيام الثورة من هم أصغر من غيرهم سنا وأقرب عهدا ، ومن لا تحمل ظهورهم وزرا

وكما يصور بسمارك كان مصير الاسرة يومئذ فى يده : فاذا كان المحافظون انفسهم يطلبون تخلى الملك عن العرش فان موافقة حزبه الصغير كانت لابد ستجرد الملك الخائف على كل حال من كل سلاح ، وقد كان مجلس اللاندتاج خليقا ان يرحب بهذا الحل من غير شك ، وكان غليوم قمينا الا يكون غليوم الاول ابدا ، وفريدريك خليقا ان يصعد العرش فى الثامنة عشرة بدل الثامنة

والخمسين . بيد ان بسمارك ما كان ليتبين المستقبل فيما يتصل بفريدريك او به . وان مسلكه فى تلك الحجرة التى يسكنها الخادم فى قصر بوتسدام ثم بعد ذلك فى غرفة الفندق الكائن فى شارع ليبتسيج قد فصل فى حياته وقرر مصير المانيا بلا مراء

المناهض للثورة

لقد رفض خلع الملك ، لكنه كان يسعى الى شل حركته فى الآونة الراهنة : فهو فى نفس اليوم يطلب من الامير فريدريك كارل « ما دام صاحب انجلالة لا يستمتع بحريته » ان يقود الجند الى برلين خلافا لما أمر به الملك . وحين يمنى فى هذا بالاخفاق ، هنا ولدى الجنرال الذى يحرضه بسمارك رأسا على شق عصا الطاعة ، يسافر الى برلين ليدخل فيها على الملك . وفى برلين لا يظهر بمظهر مثير بحال من الاحوال ، بل أنه ليقص لحيته ويضع على رأسه قبعة عريضة ذات شارة ملونة ، ويرتدى الفراك انتظارا للتشرف بمقابلة الملك ، فيترك هذا فى النفس أثرا غريبا حتى ليصيح البعض وراءه : « وهذا أيضا فرنسى ! » لكنه حين يريد ابن عمه أن يلقى شيئا من النقود فى صندوقة لجمع التبرعات لمجاهدى المتاريس يصيح به بسمارك كما يروى قائلا : « أتعطى القتلة مالا وتخشى بندقية عتيقة ! » ذلك أنه تبين فى مخفر المواطنين قاضيا يعرفه يلتفت فى الحال اليه ، فيتبينه مع لحيته المزالة ويناديه : « أهذا أنت يا بسمارك ! ما أغرب منظرك ! أن هنا أمورا يندى لها الجبين ! »

ويرد عن باب القصر ، فيكتب الى الملك على قطعة رديئة من الورق رسالة يزعم فيها من دون علم ، ولكن لمجرد أن يشجع الملك ، يزعم أن ريف بروسيا خلو كله من أى أثر للثورة ، فما عليه الا أن يغادر العاصمة فيصبح سيد البلاد

وتذهب مساعيه أدراج الرياح ! ويعود الى سكسونيا ليصل فيها ما بين الجنرال الذى يتولى القيادة وبين جنود بوتسدام ، لكنهم ينصحون له فى ماجديبورغ بأن يرحل على جناح السرعة أو يعتقلوه بتهمة الخيانة العظمى . ويهدأ ثائره فى شينهوزن ، ويجترىء بأن يعود الى بوتسدام بوفد من القرويين ، فريد فى بابه ، يريد أن يحادث الجنرالات بنفسه . ثم يسمع الملك فيما بعد يقول لضباط حرسه فى بوتسدام : « لم أكن قط أكثر تمتعا بالحرية والامن مما كنت فى حمى مواطنى » ــ « فارتفعت غمغمة وسمعت قعقعة الغمدان وهو ما لم يكن يسمعه أحد من ملوك بروسيا فى وسط ضباطه قط ، وما يرجى ألا يسمعه ثانية . وقد عدت الى شينهوزن جريح الشعور »

نشيج

وهكذا تنتهى ثورة بسمارك المضادة وهو مغيظ خائب الامل . وعندما تقدم وزارة الاحرار الجديدة قانون الانتخاب الى البرلمان بعد ذلك بأسبوع ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهو القانون الذى انتزعته ثورة مارس ، ينجح فى صعوبة فى حذف تمجيد مجاهدى المتاريس من خطاب الشكر ، ويلوح قد هدأ بهذا التوفيق . ويتناول خطاب العرش الجديد المسألة الالمانية من جديد ، ويعلن الملك فيه أن بروسيا يجب فى المستقبل أن تندمج فى ألمانيا ، فيحمل بسمارك على هذه الفكرة . بيد أن برنامج هذا التوحيد ليس بعد من المسائل الحادة . وحين يحين وقت التصويت على الخطاب يصعد المنبر على غير انتظار ، وينفجر هنا حنقه وحزنه فجأة فى صورة أولية غير سياسية ، ويبدو كأنما لم يعد يعرف أين يتكلم ، فيكون فى خطبته كمن يتلعثم : يبدأ الخطبة بقوله انه يوافق على برنامج الملك ثم يقول : « لكن الذى يحملنى على معارضة الخطاب هو تلك العبارات التى أعرب بها ملقوها عن غبطتهم وشكرهم على ما حدث فى الايام الاخيرة . لقد دفن الماضي ، وانى لآسف أشد مما يأسف الكثيرون منكم وآلم . وليس فى مقدور أية قوة بشرية أن تبعثه من جديد بعد أن أهال التاج نفسه التراب على نعشه .. فاذا نجحنا حقا فى تحقيق وحدة الوطن الالمانى ، من الطريق الجديد ، فيكون الوقت قد حان لأن أتقدم بالشكر الى منشىء النظام الجديد . أما الآن فلا يسعنى هذا الشكر » .. فى هذا الموضع غلبه البكاء فجعل ينشج ، ولم يستطع المضى ، فقطع الكلام ، وغادر المنبر

هكذا ينفجر شعور الرجل الجريح فى اللحظة التى يلوح له فيها كل شىء مفقودا مخوفا ، يكشف نفسه بفكرة مغلوبة ، ويكشف حتى ملكه فى الساعة التي يسالم فيها شعبه . وانه ليشعر منذ اليوم فى تشكك المغلوب وفى نفس الوقت ببصيرة العبقرى السياسى ، بأنه ليس فى وسع أحد أن يوحد ألمانيا لا بهذا الاسلوب ولا فى هذا الوقت ، ويعرب وملؤه الشك فى النجاح ، لمنشىء النظام الجديد فى المستقبل عن شكر خطابى ، ويسدى الى نفسه هذا الشكر من دون تردد . لكنه فى نفس اللحظة تتدفق من قلبه الى عينيه كل عاطفة وكل مرارة فى تلك الايام كأنما ينتقم تنبؤه لنفسه ، وتعجز نظراته عن المضى فى اختراق حجب الغيب ، فيهزه النحيب ، ويقتضب خطبته حيث يرسل نجمه عليه أشعته

الفصل الثانى عشر

أول مصافحة

ومضى شهران جرؤ بعدهما الامير غليوم على العودة من انجلتره حيث هرب . وعند مروره من سكسونيا ينتظره بسمارك فى احدى المحطات الصغيرة ، لكنه يظل من باب الاحتياط فى الصف الاخير . أما الأمير الذى قصت عليه زوجه من زيارة بسمارك آراءه لا آراءها ، فيتبينه عندئذ ، ويشق اليه الطريق ، ويمد اليه يده ويقول : « أعلم أنك عملت من أجلى ، ولن أنسى لك ذلك أبدا ! » وهكذا يفضى سوء فهم منطقى عجيب الى أول مصافحة قلبية بين الرجلين اللذين وجب فيما بعد أن يرتبطا ارتباطا له أهميته فى التاريخ العالمى . وقد لبثا من قبل تفصلهما دسائس الاميرة

ويدعى بسمارك الى بابلزبرج فيروى للامير ما داخل الجنود المنسحبة خلال ثورة مارس من غيظ ، ويدق على وتره العسكرى الحساس فيلقى عليه شعرا نظم فى تلك الايام .. عندئذ تنفجر عينا الامير بالدموع كما لم يرها بسمارك الا مرة فيما بعد . وعلى هذا النحو من التأثر بين رجلين يتحليان شخصيا بالشجاعة والاقدام يبدو أن بينهما قرابة لا تتناول طبيعتيهما ، ولكن تصدر عن مسلكيهما فى لحظات بعينها . وقد كان غليوم اذذاك فى الخمسين من عمره يستدبر حياة ليس فيها ما يذكر ، لكنها حياة هادئة ، لم يلق فيها من مقاومة سوى أيام غامضة من أيام الشباب والحب المحروم . فالآن ورجال البلاط يخدعونه بعد زوال الخطر يتبين الحقيقة كاملة أول ما يتبينها من تقرير بسمارك ، ويعرف هذا أن يوحى بها اليه فى أغنية من قبيل ما يغنى الجند

يتمرد على الملك

ويقف النبيل حيال الملك جريئا شديد الجرأة ، عنيفا شديد العنف ، فى تلك الايام نفسها ــ أيام يوليه ــ يغلى غليانا ، ويملأ قلبه الغيظ ، فلا يعود يغشى البلاط ، ويتجنبه . ويبلغ الملك الذى يبعث اليه بأحد رجال حرسه الخاص الى الفندق يستدعيه ، يبلغه أن لا مندوحة له عن التوجه فى الحال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الريف ليعود امرأته المريضة . وهذا لا عهد للملك بمثله ، فيرسل اليه أحد ياورانه يدعوه الى مائدته ويضع تحت تصرفه حرسيا اليوافيه بأخبار زوجته فيضطره بهذا الى الحضور . وبعد تناول الطعام يخرج معه الى شرفة سان سوسى ويسأله متوددا :

ـ كيف حالكم ؟

« ليست على ما يرام يا صاحب الجلالة »

ـ كنت أحسب أن حالتكم المعنوية حسنة

« كانت حسنة جدا ، لكنه بعد أن طعمنا الثورة على يد ولاة الامور من رجال الملك وبموافقة ملكية ساءت هذه الحال . ان الثقة بمعاونة الملك تنقصنا »

فى هذه اللحظة تخرج الملكة من أحد الادغال كما يروى بسمارك وتقول :

ـ كيف تخاطب الملك بهذه اللهجة ؟

ـ دعينى يا ايليزه فسأصفى معه الحساب . فماذا فى الحق تأخذ على ؟

« الانسحاب من برلين »

ـ لم أرده

هنا تقول الملكة وقد كانت على مرمى السمع :

ـ ان الملك برىء من ذلك كل البراءة . انه لم يكن اذ ذاك ذاق طعم النوم ثلاثة أيام

« الملك يجب أن يستطيع النوم »

ـ انكم دائما أحكم من غيركم حين تأتون من مجالسكم التشريعية . والملام ليس الوسيلة التى تسندون بها عرشا مزعزعا . انما تسنده المناصرة والولاء العملى لا النقد

بهذه النغمة يحس الضيف نفسه بغتة « مجردا كل التجريد من سلاحه ، مغلوبا على أمره »

بهذا جرى أول حديث سياسى لبسمارك مع ملك من ملوك بروسيا . وقد كان موقفه من الناحية العملية هينا ، لانه كان يتمرد على الملك بوصفه ملكيا ، لكنه من الناحية الرسمية كان موقفا حرجا ، اذ يدخل هذا القصر وفى جعبته ملام . وقد عامله الملك بتساهل سام فأسره ، وأطاق هذا النقد الكثير فى شىء من الطيبة الابوية . لكنه حين رشح جيرلاخ هذا النائب بسمارك بعد ذلك بقليل لمنصب الوزارة علق فردريك غليوم على هذا الترشيح بخطه : « لا يحتاج اليه الا حين يكون للأسنة الامر والنهى » . وهذا الحكم السياسى الخاطىء صحيح من ناحية دلالته النفسية على هذا العصر الاول ومن الوجهة المنطقيــــة . ذلك أن بسمارك يلوح مصمما على أن يدافع عن طبقته بكل الوسائل

يدافع عن امتيازات الفرسان

فانه حين تريد الحكومة أن تفعل ما فعلته بلاد أخرى من أمد ، فتلغى اعفاء أراضى الفرسان من الضرائب ، يكتب الى الملك رسالة خاصة يغلو فيها غلوا كبيرا فيقول : « ان هذه المصادرة تصيب ملكية الاراضى بتحكم لم يصدر الى اليوم الا عن الفاتحين والمستبدين . انه عمل من أعمال العنف لا يسنده حق ، يقترف ضد طبقة مجردة اليوم من وسائل الدفاع ، لكنها منذ قرون رعايا مخلصون للعرش.. واننا مع أغلبية الشعب البروسى الكبرى لنعد جلالتكم مسئولين أمام الله والاجيال القادمة حين نرى اسم الملك الذى لقب أبوه بالعادل يذيل بتوقيعه قوانين تعنى تنكب الطريق التى أحرزفيها ملوك بروسيا مجد مائة عام من العدالة التى لا تشوبها شائبة ، وجعلوا طاحونة سان سوسى تذكارا فى التاريخ العالمى » . بهذا التهديد يجرؤ بسمارك أن يجابه مولاه فى خيلاء تامة ، وما كان أبو هذا الملك عادلا بحال من الاحوال

ويدبج فى نفس الوقت المقالات للقرويين ضد الثورة ويرد على الصحف والنشرات، ويصبح من مؤسسى حزب الفلاحين الجديد وصحيفته «كرويتس تسايتونج » التى يكتب فيها فى السنوات القادمة كثيرا . ويحاول كل شىء كى ينتخب فى جمعية برلين الوطنية ، فلما يفشل فى ذلك يشترك اشتراكا فعليا فى « دسائس البلاط والمجلس » التى تؤدى فى شهر نوفمبر من الانقلاب الحكومى الى حل الجمعية بالقوة . وقبل أن يبلغ هذا الامر مرحلته الحاسمة يكون بسمارك آمنا على نفسه ، ذلك أنه يكتب الى زوجه هذا الكلام السفسطائى فيقول : « ليس ما يحملنى على انتظار النتيجة هنا والاعتماد على أن يقينى الله شر أخطار ليس ما يدعونى الى التعرض لها .. فاذا وقعت الواقعة فأحب أن أكون بجانب الملك ، وهنا يسعك أن تتأكدى (للأسف) انه لن يكون ثمه خطر على »

ويعمل بكل الوسائل على ان ينتخب ثانية ، ويسعى الى ضمان ذلك فى دائرتين . بل انه ليذل نفسه الى حد أن يزكى نفسه فيكتب الىبودلشونج يقول له انه اذا اضطره الانتخاب المزدوج الى التخلى عن دائرة تيلتو فيصح أن يصرف الناخبين الى الاستاذ شتال كبديل منه أو « أى اذا اقتضى الامر وكانت نزعة الاستاذ الكنسية القوية مما يمكن أن يثير فى احدى النواحى اعتراضا . وعندى كل ما يحملنى على افتراض أن سعادتكم ستوصون بى فىهذه الحالة توصية حاسمة. وانى الآنأرشح نفسى فىهافللند البراندنبورغية ولكن دون أمل يذكر فى النجاح .. خادمكم المطيع فون بسمارك »

كوريولانوس

بهذه الهمة كان يجرى وراء النيابة عن الامة ، فلم يكن قط فى أسوأ مما كان فى أسابيع فبراير هذه من عام ١٨٤٩ اذ كان مضطرا الى أن يقوم بدور كوريولانوس فىبراندنبورغ لينجح هذه المرة : فهو يتملق نفس الشعبالذى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحتقره هذا الاحتقار الشديد . وتتزايد عنده الرغبة فى التخلص من كل هذا العناء الذى لا يوائم أعصابه وتربيته وذوقه : « اليوم يجب على أن أعرف من الناخبين فوق من عرفت ، فالرسل تبعث زرافات الى كل الجهات ، واثنان من الخطباء الوطنيين يسافران الى فردر .. فالأمور تجرى هنا كما تجرى فى مقر القيادة العامة ، رسل ورسائل تترى كل ربع ساعة .. شكرا جزيلا على رسالتك التى تلقيتها أمس وسط الدخان وضوضاء أربعمائة شخص .. وقد قرأتها على ضوء مصباح يدخن . فاذا كان الصوت العذب قد استهوانى من هذه الغمرة المزعجة فقد خرجت به لحظة عن هذا العجيج الطاغى .. وسيشق على اذا انتخبت أن أحيا هذه الحياة التى لا تعرف راحة القلب .. الآن ينتخب الناخبون . وقد فوضت الامر كله لله ، فأنا أنتظر النتيجة فى هدوء كما خضت الى الآن غمار الانتخابات فى انفعال »

ولا يكاد ينتخب حتى يهجر على عجل من كان يخطب ودهم حتى الآن . ويكتب الى أخيه يقول : « لقد طالما سخرت من نفسى وتسليت بها وأنا أسعى فى الايام الثمانية الاخيرة بالتودد الشخصى الى كسب جانب أهالى تيفيناخر على اختلاف نزعاتهم .. وقد أقمت بعد الانتخاب وليمة لاربعمائة شخص كانوا يغنون: الآن شكرا لله ، ولك الهناء فى .. : الخ. وأغنية بروسيا ، فلما كان اليوم التالى ألم بى صداع خفيف ، وألم فى أعصاب يدى اليمنى من كثرة ماضغط الناس عليها وهم يصافحوننى . وفى اليوم الثالث حطمت نوافذ بيوت اصدقائى وأسىء الى بعضهم ، بينما كنت أنا عند يوحنا استمتع بالهدوء » وهذا التعليق الذى يقلد فيه فالنشتاين يعبر عن احتقار النبيل الذى يضطر فى سعيه الى السلطة الى الالتجاء الى الشعب . فهو ، أى الرجل الذى يتجنب كل نزاع مع قروييه بصفته مالكا ، يسخر ، بوصفه سياسيا ، من العامة ، ويستخدمهم فحسب فى التصويت له ومناهضة الثورة

سعيى كله

ومشاعر النبيل فيه هى التى تفصل فى موقفه فى ذلك الاوان بين بروسيا وألمانيا : فهى موجهة بقضها وقضيضها ضد ألمانيا . انه يصيح بصديقه كويدل: « ماذا تهمنى هذه الدويلات . ان سعيى كله موجه الى تأمين سلطة بروسيا وتقويتها ! » وحين ينعتونه فى المجلس بأنه الابن المفقود للوطن الالمانى يرد عليهم : « ان بيتى هو بروسيا ، ولم أغادر بيتى بعد ولن أغادره ! » بلى ان هذه النعرة البروسية أقوى الآن من شعوره الملكى ، ذلك أن الملك بالذات قد كان من بشر بادماج بروسيا فى ألمانيا وان تردد فى ذلك . وأقوى من شعوره البروسى فى توجيه معارضته للاتحاد الالمانى شعوره المحافظ . ذلك أن الثورة هى التى كانت أيقظت هذه الفكرة فى الشعب . وبينما كان الشعب فى فرانكفورت يريد من أسفل الى اعلى اقامة صرح الامبراطورية الالمانية ، كانت الغيرة الدائمة تعطل هذا العمل ، وروح الاسر المعادى للشعب يدمره من أعلى الى أسفل : فيناهض صغار الامراء تفوق بروسيا ، ويناهض ملك بروسيا تفوق برلمان فرانكفورت

علامة استفهام كبيرة

سيذكر بسمارك بعد أربعين عاما ، وبعد تحول هام ، هذا السباق في مذكراته حين يكتب الشيخ : « أعتقد أنه كان فى الامكان بلوغ الوحدة الالمانية بصورة حازمة حكيمة من نصر (١٨٤٨/٣/١٩) ذلك النصر الوحيد الذى أحرز يومئذ فى أوربا ضد الثورات . وأترك الحكم على تلك الوحدة هل كانت تصبح أنفع لنا وأدوم لو أنها تمت يومئذ .. ان الفوز الذى ينتزع فوق بلاط الشارع كان خليقا أن يكون مختلفا وأقل شأنا من الفوز الذى انتزع فيما بعد فى ساحة القتال .. ومن المشكوك فيه أن أثر الاحداث التاريخية فى الالمان من طريق نصر مارس ١٨٤٨ ، ذلك الطريق الاوجز والاسرع ، كان خليقا أن يكون عين الاثر الذى يخلفه اليوم أن الاسر المالكة ومن كان منها بالذات متشددا فيما سبق ، باتت الآن أكثر ودا للامبراطورية من الفرق والاحزاب »

ان الجيل التالى ليقف متأثرا حيال هذه الاعتبارات ، جيلا يأتى بعد هذا الحساب العظيم الذى يحاسب به الهرم نفسه : فهو يقول انه كان يمكن بصورة اصرم وأسرع ، ومن دون حروب ، بلوغ مابلغه فى قتال طويل . وقد تهيب بلاط الشارع فآثر عليه ساحة القتال . ويلوح أن القتلى المائة أو المائتين الذين انجلت عنهم ثورة مارس ليسوا فى نظره مما يقارن بمئات الالوف الذين ذهبوا ضحية حروب ثلاث . وهو لم يعش ليرى الوحدة الالمانية باقية بعد الدورة التى بها تنكبت طريق الاسر المالكة ، ولم يشهد التجربة الكبرى التى أبقت هذه الوحدة ، بل لعله كان يشك كل الشك فى امكان ذلك . انه لم ير كيف ان هذه الاسر التى ناصرت فكرة الامبراطورية ، والتى سخر منها واحدة بعد واحدة ، قد هربت من الامبراطورية فى ساعة الخطر الاكبر ، وتركت للفرق والاحزاب مهمة انقاذها

بسمارك يؤيد تاج فرانكفورت

انه الآن يماشى ملكه ويساير حالاته النفسية على قدر ما يعلمها المرء ، ذلك أنه فى الثانى من ابريل كان وفد الجمعية الوطنية فى فرانكفورت ورئيس الوزارة الكونت براندنبورغ نفسه يحسبون أن الملك سيقبل غدا تاج الامبراطورية المعروض عليه . لكن الملك الذى لم تعرف دخيلته رفض التاج فى اليوم التالى فى خطاب ألفه بنفسه ، وكان رفضه اياه فى صورة من الغموض والابهام جعلت الامير غليوم فى مساء ذلك اليوم يجادل سيمسون زعيم الفرنكفورتيين الخائب الامل فى هل رفض أخوه التاج أو لم يرفضه . كذلك بوغت بهذا الرفض أولئك النبلاء الذين كانوا أمس يوقعون فى اللاندتاج على الخطاب الموجه الى الملك . « انها ثقة نواب الشعب الالمانى ما يدعو جلالتكم الى الاضطلاع بمهمة مجيدة هى أن تكونوا أول رئيس أعلى لالمانيا المبعوثة من جديد .. فالى قلب جلالتكم الملكى نتقدم فى اجلال برجاء حار هو أن تتفضلوا جلالتكم بالاستجابة لنداء الجمعية الوطنية الالمانية »

ويلوح أن الذين يعرفون أن هذا الخطاب قد وقعه من بين من وقعوه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النائب فون بسمارك ــ شينهوزن وقريباه كليست وأرنيم واثنان من الوزراء النبلاء ، قلائل ، فان التراجم جميعها لم تورد شيئا من ذلك وانما أورده (تقرير مختزل فى ص. ٣٥٥/٣٥٧) وهكذا اعترف بسمارك بكنيسة بولص البغيضة (مقر الجمعية الوطنية) ممثلة للشعب الالمانى ، ونصح لملكه بقبول هذا التاج من بلاط الشارع لا لشيء سوى أنه اعتقد أن الملك أراده . وتوقيعه هذا يرجع الى الثانى من ابريل ١٨٤٩ ، وفى الثانى من ابريل ١٨٤٨ ألقى تلك الخطبة المؤثرة ضد الملك الذى كان فى رأيه محبا للشعب أكثر مما ينبغى ، ولم يستطع الفراغ منها قبل أن ينتحب . فبعد سنة واحدة يصبح السياسى الناشىء بهذا الولاء

على أن الملك لم يكد يرفض هذا التاج من عجب الجميع حتى انزاح الحجر عن قلب النبلاء ، فكان بسمارك فى ٢١ أبريل يصيح من فوق المنبر قائلا : « ان الثورات التى لا تستند الى حق ، والتى حاولت الجمعية الوطنية أن تؤكد بها شهواتها الديكتاتورية (مقاطعة ــ الرئيس يدق الجرس) لا أستطيع أن أعترف بوجودها بالنسبة لنا . » كان ينعت الامر كله بأنه « فوضى دستورية صادرة عن فرانكفورت » ويرفض أن يعير حب التسلط الفرانكفورتى موافقته أو يسنده

معارض

ويصل بعد ذلك الى قوله مقارنا : « انه لا يسعنى أن أتصور أن فى الامكان قيام دستورين اثنين فى بروسيا وألمانيا ، أحدهما الى جانب الآخر ، وذلك لأن الشعب الالمانى فى الاتحاد الأضيق (الذى لا يضم النمسا) لن يستوعب عدا الرعايا البروسيين سوى عدد قليل جدا » ثم يختم بقوله : « ان الوحدة الالمانية هى أمنية الجميع .. لكنى لا أريدها بهذا الدستور .. وانى لأوثر فى أسوأ الحالات أن تظل بروسيا بروسيا كما هى .. وقد يكون تاج فرانكفورت براقا جدا ، لكن الذهب الذى يكسب البريق حقيقة يجب أن يكتسب أولا من صهر التاج البروسى : انى لا أثق بأن الصب فى قالب هذا الدستور سوف يحالفه التوفيق »

هكذا يسوق بسمارك الكلام عن اتحاد ألمانيا فى سنة ١٨٤٩ بشكوك يبددها بعد عشرين عاما ، لكنه حين يعين رادوفتش وزيرا ، ويقنع الملك بأن يكون امبراطورا لالمانيا الصغرى ، ويبسط خططه فى بيان مستفيض ، يروى بسمارك فى صحيفة كرويتس تسايتونج بتوقيع مستعار وفى سخرية تامة عن « صوت رادوفتش المثقل بالاستحسان . وقد عاد طيف الوزير يلازمه هدوء القبور ــ عاد الى مقعده بين الوزراء وسط هتاف كالرعد ، فضغط السيد فون بيكيرات على يد هذا الطيف باسم ألمانيا »

ضد الشعب

والنائب بسمارك لا يريد ألمانيا ولا شيئا ايجابيا آخر فى برلين أو ايرفورت

حيث أدار رادوفتش المناقشة فيما ينعت بدستور الاتحاد . انما يريد مناهضة الثورة فحسب . وهو يطعن علنا فى حق اللاندتاج فى رفض الضرائب وسفه علنا المقارنة بانجلتره وفرنسا اللتين تلقتا تاجيهما على قوله من أيدى الثورة الملوثة بالدم ، ويحمل على حرية الحرف والزواج المدنى والمدن الكبرى خاصة ، فيراها أوكارا للديمقراطية : « انى لا أجد فيها شعب بروسيا الصميم . وهذا الاخير حرى أن يعرف كيف يلزم هذه المدن الكبيرة الطاعة اذا حدثتها نفسها يوما بالثورة ، أجل حرى أن يفعل ذلك ولو استأصلها من الوجود ! » وهذا الموقف منه ثورى الى حد أنه يقابل فى ايرفورت بينه وبين الزعيم الراديكالى كارل فوجت

ويسخر فى مجالسه الخاصة من المجلس الذى بذل فى دخوله ما بذل من جهد ،ويصوره قاعة يجلس فيها « ٣٥٠ رجلا يقررون مصائر وطننا ، خمسون منهم يدرون ما يفعلون ، ومن هؤلاء الخمسين ثلاثون على الاقل طماعون وأنذال لا ضمائر لهم ، أو هازلون يملأهم الغرور » وانه ليأسف ان لم تشب فى جنوب ألمانيا ثورات ، ويقول للرشنفلد : « ليت جيشكم أيضا يفر حيث يشعر انه غير آمن : اذن لبات النضال عظيما ، لكن هذا النضال سيصبح حاسما حيث تندمل القرحة .. اننا لنخرب قضيتنا وقضيتكم ، وكلما طغى الخراب كان ذلك خيرا لنا ولكم ! » .. الى هذا الحد تتملك البغضاء الكافرة هذه النفس حتى ليكتب الى زوجه بعد زيارته لقبور الحرب فى فريدريكسهافن عقب ثورة مارس بسنة يقول انه لا يستطيع أن يغفر للموتى .. حيث يتشدق فوق الصلبان بالحرية والحق فى كل نقش . انها لسخرية من الله والناس ! »

يدافع عن طبقة النبلاء

ولمحض البغض للثورة التى تريد كذلك الغاء الالقاب يحمل الآن لقب « فون » قبل اسمه وكان الى الآن يغفله من توقيعه ، ويقول لأحد الاحرار : « انى نبيل وأريد أن أنتفع بنبلى ! » وفى جلسات اللجان يؤثر الجلوس مع خصومه « لأنى أضجر من مجلس أصدقائى ، أما هنا فتسليتى أعظم » . وفى خطبة له ينوه بفضل النبلاء فى بروسيا عن علم واعتدال يقويان من أثر كلامه. وهنا يجوب ميادين القتال وساحاته التى قاتل فيها النبلاء البروسيون وكانوا من صرعاها ، ويسلم كذلك بأن « من الحق أن النبلاء البروسيين قد كانت لهم « يينا » أخرى .. لكن اذا استعرضت تاريخهم اجمالا فلن أجد فيما أعتقد ما يبرر الحملات التى ردد هذا المكان صداها فى الايام الاخيرة » . بيد أنه يقف النبلاء بعد ذلك فى وجه الملوك ، ويعرض تاريخهم فى البندقية وجنوه وهولنده ، ويرجع التزعزع الراهن فى معظم دول أوربا الى العصر الذى كانت سلطة الامراء والملوك التغلبة تضطهد فيه النبلاء المستقلين . وهى نزعة جسمها فى بروسيا قول فريدريك غليوم الاول جين قال : « أين أوطد السيادة فأجعلها صخرة من البرونز »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بهذا يصل بسمارك المأثور عن آبائه المتمردين ، ويتحدى سلطة الملك ، فيفاجيء أصدقاءه فى حزبه الذين هم دونه ألمعية : انه رجل اقطاع أكثر منه نائبا منتخبا

وبهذا القدر تزامل السياسة فيه شعوره نحو طبقته . وحين تسأل مجلة كلاديرادتش عقب هذه الخطبة : أين تولى القيادة أحد من آل بسمارك سنة ١٨١٣ ؟ يجيبها فى الحال مع دعوة الى المبارزة فيقول : أما ما يتعلق به فيريد أن يرد عليه بوسائل الصحافة ، وأما ما يتعلق بأجداده فكان منهم أربعة (ليس منهم أبوه بحال من الاحوال) ضباطا اذ ذاك . « أما ما يمس أسرتى فأفرض ، الى أن تقيم الدليل على العكس ، أن أسلوب تفكير حضرتكم لا يختلف كثيرا عن أسلوب تفكيرى ، الامر الذى يجعلنى ، فيما يتصل بتلك الاهانات ، انتظر الترضية التى أرى أن سيدا ماجدا لا يأباها فى مثل هذه الظروف على سيد ماجد »

ضد المجاهدين فى سبيل الحرية

ويقف كلا المبدأين : العنف والتسامح أحيانا أحدهما قبالة الآخر ، تثير الاسرة بينهما نضالا ، فحين تقف حماته ، وهى سيدة رفيعة الثقافة ، عظيمة الاستقلال ، تناقشه من ثم كثيرا ، موقفا مناصرا للمجاهدين فى المجر فى سبيل الحرية ، ومعارضا لمضطهدهم الدموى هايناو ، يكتب اليها فى انفعال شديد ، وهو الذى لا يراسلها الا فى أعياد الميلاد :

« انك تعطفين على أسرة باتيانى عطفا كبيرا ، فهلا عطفت على الالوف المؤلفة من الابرياء الذين ترملت نساؤهم وتيتمت أطفالهم بهذا الطموح الجنونى أو الادعاء الذى يحدو العصاة ، ويجعلهم ككارل مور يبغون اسعاد العالم على أسلوبهم . أيرضى اعدام رجل واحد حتى العدالة الارضية وحدها عن حرق المدن وتخريب الاقاليم وقتل الاهالى الذين تصيح دماؤهم بامبراطور النمسا بأن الله أودع يده سيف السلطة ليصلته على متحديها ؟ ان الترحم على أجساد المجرمين يحمل اكبر وزر عن الدم المسفوك فى الستين السنة الاخيرة انك تخشين أن ترسم الحكومة النمسوية للديمقراطيين الطريق وتدلهم عليه، لكنه كيف يمكن المرء أن يسوى بين سلطة شرعية وحزب خائن ! ان الاولى مسئولة عن حماية رعاياها الذين أودعهم الله يديها من الاشرار ، والدفاع عنهم بحد السيف ، أما الثوار فلا يعدون أنهم قتلة كذابون حين يسعون الى انتزاع هذا السيف بالعنف .. انهم انما يستطيعون به القتل لا القضاء بين الناس .. فالسلطات ــ كما قال الوتر صراحة ــ يجب الا تغفر اساءة المسيء ، بل يجب أن تجازيه على اساءته .. سامحينى اذا كنت أطلت فى هذه الكتابة ، لكنى شعرت بأنه يمسنى شخصيا . فلو أننى كلفت يوما أن أتولى سلطة لما أحببت أن ترعانى يوحنا بالعين التى ترعين بها هايناو .. وداعا

« ابنك المخلص فون بسمارك »

ان لهذه الرسالة عنده قيمة المذكرة الوزارية . فالآن وهو آخذ فى تبين مستقبله والسعى على الاقل اليه ، يجد الا معدى له عن تحصين قلبه من العطف سلفا ، وكان من قبـــل رحيما قد استلت القسوة من قلبه رحمة المسيحية . وهل ثمة شيء أخطر مما يهدده من جانب زوجته التى يحبها والتى تنتمى اليه فى الحق ، لكنها تنتمى أيضا الى تلك الام التى قضت معها الاشهر الطوال بين نبلاء الريف المرهفى الحس ، الذين لايمحضون الحب أحرارا أو ديكتاتوريين . ان انذارا يصخب من بين هذه السطور، فهو يبغى سلفا أن يحصن باطنه ، فلا يناله ما يدور فى الخارج من نضال . ان هذا المقاتل يحفر الخنادق حول معسكره قبل أن يعتصم به

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثالث عشر

النشيط الأكول

لقد غدا بسمارك برلمانيا ، وسيكون بين الثالثة والثلاثين والسادسة والثلاثين شغوفا بهذه المهنة ، فاذا عجب المرء من نشاطه فيها وجب أن يتصور الحماسة التى تحفز ارادته الهائلة الى استدراك ما فاته فى عشر سنوات . ان امرأته وأرضه تأخذان فى التوارى عن ناظره رويدا رويدا ، والحمية تتملكه وتحالف طموحه المطبوع فى البحث عن الافعال . وهو الآن صحيح البدن يأكل ويشرب بمقدار كبير . « انى أختم ، لأنى تعشيت من هنيهة وأنا شديد الجوع .. فلست أستطيع أن أعتدل فى جلستى » أو « لقد التهمنا المقانق عند التوجه الى النوم على ثلاث دفعات وثلاث قطع قطعناها بسكين الصيد ، فلم يكن الطرف الرفيع فى جودة الثخين ! بيد أن مذاقها اجمالا كان طيبا » . « لقد استنفدت اليوم من التين كثيرا حتى اضطررت الى شرب الروم ثم مضيت فى الغرفة اذرعها وأنا أتناول عشائى ، فالتهمت المقنقة الثخينة كلها تقريبا ، فكانت لذيذة الطعم ، ثم احتسيت جرة من جعة ايرفورت . والآن وأنا أكتب ازدرد صندوقة اللوزية الثانية .. اننى فيما خلا ما ذكرت بخير ، لولا ما يتخم معدتى من المقانق فى الآونة الراهنة »

عنف

ويفعل كل شىء فى عنف . يقطع للنزهة مسافات بعيدة ، ويعود مضنى من التعب ، ويركب ركضا مع صديق ساعات ، وينام نوما طويلا جدا ، ويسخط حين يوقظ فى الميعاد . فاذا ذهب الى صيد دجاج الغابة يكون قد تناول بالليل كثيرا من سمك النهر ، واحتسى جعة خفيفة اليه . فيصعد فى المطر من الساعة الاولى الى الرابعة ، ويضطر الى أن يستريح ثلاث مرات خلال ذلك . « كثيرا ما كنت على وشك الاغماء من فرط الاعياء فكنت أستلقى على العشب الندى والمطر يتساقط فوقى . لكنى كنت مصمما على استطلاع الدجاج البرى ، وقد رأيت منه الكثير ، لكنى لم أستطع اطلاق النار .. فلما كانت الخامسة أبت .. وأكلت بعد العودة وصيام يوم كامل أكلا مريئا ، وشربت كأسين من الشمبانيا ، ثم نمت اربع عشرة ساعة الى الاولى بعد

الظهر ، استيقظت بعدها وأنا اشعر بأنى خير مما كنت قبل الخروج الى الصيد ، مغتبط بالطبيعة المؤاتية التى وهبنى الله اياها لأؤدى هذا كله . » وهو يؤدى أكثر من ذلك ، ويدرب نفسه على الخطابة « بالتغلب على تهيب المبتدىء » ، يتحدث كما فعل جوته فى الثلاثين من عمره عن راحة النفس التى تتعاظم بتعاظم نشاطه ، ويتغير لأقل انحراف يلم به ، ويسخط بعد ذلك سخطا عظيما للغلطات التى تقع فى خطبته : « لقد أصابنى فى الصباح برد ركد فيه ذهنى وضعفت ذاكرتى .. فنسيت أحسن ما عندى ، اذ كنت فى غباء شديد » وهو يعترف على وجه عام باضطراب أعصابه فيقول : « فى المساء أكون فى وحدتى منفعلا دائما اذا لم أكن متعبا »

الزواج المبكر

وفى برلين تضجره حياة العزوبة ، ويسم كل ما يجرى بالدسائس والخرق ، ويظل فيها مع ذلك أطول مما عليه أن يبقى . فاذا أراد سكنا يقضى فيه بعض أشهر الشتاء رسم لامرأته كل الغرف رسما دقيقا ، وكتب اليها عن المواضع التى توضع فيها أريكة نومه ، وفراش الاطفال ، وأين ينبغى وضع دريئة النور . ويذكر لها أن الامر يتكلف ثلث المعاش . « آه لو أن لى مأوى ! انى لاتشوف الى ان اقص عليك ما اشكوه من مخارق الناس » . وحقا ان مسكن بسمارك ومأكله ليشغلانه فى كل الازمان . « ان أشيائى كلها مبعثرة على الارض ، وليس عندى من يرتبها لى فى الخزانة . فمتى نعود أخيرا الى النوم وراء الستارة الحمراء أيتها الحبيبة ، ومتى نتناول الشاى معا ؟ »

ويسود الحياة الزوجية الاخلاص والهدوء ، فالآن وبعد أربعين سنة تلوح نار المغامرات الغرامية وقد انطفأت ، لا لأن يوحنا تبذ جميع النساء ، ولكن لأنه اتخذها زوجا بعد أن انتهى كفاحه مع النساء وانتقل الى مناضلة الرجال . وقد كانا فى البداية يدونان مذكراتهما فى مفكرة متعاقبين ، فيكتب فى يوم الزفاف كلمة « تزوجت » بعبارة بادية التهكم ، وتدون هى مرة « ان النهار كله قد انقضى تعنيفا وملاما أعقبه يومان كلهما صمت ، فيشطب على هذا ويكتب فوقه مثل الذى يخطر للشاعر : « جو صحو ! » أو يكتب اليها بعد السفر : « لم يمض على فراقنا غير اثنتين وأربعين ساعة وكأنما مر أسبوع مذ رأيتك واقفة فوق الجبل بين أحراج الصنوبر تلوحين لى .. حتى ليجرى الدمع الكاوى فى ثنايا لحيتى . انها أول مرة فيما أعتقد يشق على فيها الوداع منذ أيام العطلات المدرسية ، فأذرف الدمع . وهذه الكرة الى الماضى تجعلنى أحمد الله من قلبى على انه بات لى شىء مرة اخرى يشق على فيه الوداع »

شعور الأبوة

وحين تلد له الابنة يسره أن يكون أول مولود له بنتا . « ولو قد جاء المولود قطة لسجدت لله شكرا فى اللحظة التى أجد فيها يوحنا تتخلص منها . » ثم ينام خلف الستارة فى نفس الغرفة لان الزوجة تطمئن اليه أكثر مما تطمئن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الى المرضة . « وهكذا ــ كما يذكر فيما بعد ــ أبادل اليوم كله كما يفعل فرسان يوحنا فى شيلر بين مناضلاتى ومشاريعى السياسية على مكتبى وبين مئزر الخادم على سرير النفساء . ومثل هذه المقابلة تعجبنى كثيرا »

فاذا مرضت الزوجة والاطفال أو أمكن أن يمرضــوا فقد السيطرة على أعصابه فى الحال ، ولم تبد مسيحيته الا فى الضراعة الى الله أن يحفظ على الجميع الصحة ولا يميت منهم أحــدا . ويكتب يقــول : « منــــذ مرض الطفل بالحصبة من أربعة ايام وأنا قلق أشد القلق كمثل ما يبدو فى رسالتك الاخيرة . فاذا كنت مريضة فلعله لا يخلو من الرحمة انسان يكتب الى سطرا . فهذا القلق الذى لا أعرف من أمره شيئا علم اليقين لا قبــل لى باحتماله . فليس من مخوف لم يمر بخاطرى فى هــــذه الايام » . وحين يموت طفل المرضع فى برلين يبعث الى الريف بثلاث رسائل يسأل كيف وهل ينبغى أن يكتب اليها ليخفف عنها لوعة فقد طفلها

على أن الطغيان الذى يلازم حبه سرعان ما يتفاقم ، فانه بعد أن يترك زوجته أشهرا وحدها يحظر عليها الاقامة فى بيت أبويها . « ان وضعك فى رينفلد ليعدل عندى نصف الطلاق . انى لا استطيع ولا أحب أن اظل هذا الزمن الطويل بعيدا عن « جنتى » فقد كفانا هـــذا البعد الكثير الى اليوم » . وتسأله وجلة : الا يتضايق من كثرة رسائلها اليه ؟ واذا ارفقت برسالتها رسالة الى صديقة لها رجاها أن تكتب فى المستقبل « عنوان الرسالة نثرا . فقد كتبت بخط سميك ، كأنى أكتب بيد مكنسة ، عنوانا جــديدا خلل عبارة « صديقتك اليصابات » . أحبى فى قلبك من تشائين لكن التزمى البرود والتحفظ فوق الغلاف . فهكذا يفعل الناس ويريدون منا أن نفعل »

النمسا والمرضع

واذا كان قد أراد فى البداية أن يدربها على أوضاع المجتمع حين لم تكن عودته اليه قد تأكدت بعد ، فانه الآن بعد أن تمت هذه العودة ينزل عن مساهمتها الجوهرية فيه ، ويكتب يقول : « ان اباك بلا ريب سيهمه ذلك كثيرا لكنك لن تفهميــه » . ويتخذ من رسالة محــلا لمقاماته ، ويخلط السياسة العالمية بشئون المنزل فيقول : « اذا جعل الطفل تسوء صحته مع المرضع فهذا شىء لا بد منه على كل حال . . لقد خلا خطاب العرش من الملابسات الثورية . فاذا ثبت الملك على هذا بقى كل شىء بالطبيعــة على حاله ، ذلك أن النمسا وغيرها من الدول لن تقبل أبدا عبث فرانكفورت . . لا أستطيع أن أحصى ملابسى الداخلية ، فلا بد لى فى ذلك من الانحناء أكثر مما ينبغى ، فهى ملقاة كالاعشاب والجزر فى خزانة الثيــاب ، فغفرانك ! ولعلى أستطيع ذلك يوم الاحد » . وهو كلما دبج رسالة وعد بالعودة لكنه لا يحضر مع ذلك . غير أنه حين تلومه مرة على أنه يتسلى فى المجتمع بينــا هى وحيدة فى بيت أبويها يرد عليها ردا له وخزة الكيس : « انه لا معدى لى عن السهرة والعشاء كل يوم . ولعلكم تفعلون ذلك أيضا عندكم »

وهو فى العموم متسامح فى حياته البيتية ، لكنه إذا ما خرج الامر عن نطاق البيت الى العلن تمرد فيه الذوق والمسلك وشعوره بطبقته . فانه لما رزق هربرت ابنه الاكبر فى العام الثالث لزواجه ، وكان لا بد من سفر الجميع ، أعرب عن سخطه فى أسطر فكهة كتبها الى أخته يقول فيها : « أرانى وطفلى على رصيف جنتين ، ثم أراهما فى المركبة يقضيان حاجاتهما بلا اكتراث ، وفى رائحة كريهة تزكم أنوف المشمئزين من الناس .. وتتحرج يوحنا من ارضاع صغيرها علانية ، ويحتقن وجه الصغير من العويل .. ثم تأتى بعد ذلك محطة شتيتين فتشهدنى والقردين اللذين لا ينقطع لهما صراخ . لقد بلغ بى اليأس مبلغه أمس من كل هذه المضايقات حتى صممت على العدول عن الرحلة بأكملها . لكن يوحنا دهمتنى بالليل تحمل الصغير ، وبلغت منى بكل تلك الفنون التى أفقدتنا الفردوس أن يبقى كل شيء على ما هو عليه . على أنه يخيل الى أنى كمن أخطىء فى حقه وأسيء اليه اساءه بليغة . ومن المحقق أنى سوف أسافر فى العام المقبل ، ومعى ثلاثة مهود واليها مراضع واقمطة وفرش .. فلو أن لى لمثل هذا مكافأة اضافية ! اما أن أنفق فى السفر بقايا ثروة كانت ذات يوم زاهرة ، وأحمل مع ذلك رضعا ، فهذا هو الشقاء ! »

فوق عدل الصوف

وهو فى ذلك يعيش دائما مقتصدا ، ولا يعلق غير النبيذ شيئا . ومن يصدق أنه يسمع حديثا بين أخوين من أعرق النبلاء حين يكتب بسمارك فيقول : « لقد كانت سوق الصوف هنا كما كانت فى شتيتين .. فقد البائعون شجاعتهم بعد أربع وعشرين ساعة فى الحال . وكان أبى فى سالف الزمان الطيب يجلس خمسة وثمانية أيام فوق عدل صوفه لا يبالى . وقد بعت فى اليوم السابق للسوق بثلاثة وسبعين ريالا ، وكنت حقيقا ان ابيع بخمسة وسبعين . وفى رأيى أنك بعت بأرخص من الثمن خمسة ريالات »

فالمال ما يزال شحيحا لديه ، ونقص سبعين ريالا يوقعه فى الارتباك، وهو يشد الآن خيل ركوبه الى مركبته .. وقد أجر شينهوزن ، فهى تدر عليه من ثلاثة الى أربعة آلاف ريال . « وقد كلفت الحديقة هذه السنة ١٠٣ ريالات الى الآن ، وسيزيد عليها من أربعين الى خمسين ريالا الى عيد الميلاد نفقة الخندق والحصاد ، هذا الى الوقود » . ويكتب الى زوجته مقتطفا من الحساب ما يلى ، متوخيا فيه الدقة : « الزيت ٨ر٨ ريالات والسكر والتوابل والملح ٢ر٩ ريالات » . ويحسب ما يكلفه الخدم ، ويجد تقديره أعلى من الواقع « لان جانبا من تكاليف معيشتهم يأخذونه أجرا على تعهد الحديقة التى يستهلكون حاصلاتها » . ويرسل الى زوجه فى برلين اثنين وعشرين رطلا من الشاى « لكنه يجب أن تضيفى الى ثمنه مصروفات نقله حين تصرفينه » ، ويغتبط بالاقتصاد من المكافأة البرلمانية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ادخار

واذا عاد الى موطنه خال نفسه تلميذا يعود لقضاء العطلة المدرسية . « انى أعيش على غير أساس عيشة خمول : تدخين ومطالعة وتنزه وتمثيل لدور رب الاسرة . أما السياسة فلا أسمع عنها سوى ما تأتى به صحيفة كرويتس تسايتونج .. هذه الوحدة الشعرية تلائمنى جدا ، فانى أستلقى على الكلأ ، وأقرأ الاشعار ، وأسمع الموسيقى ، وأنتظر حتى ينضج الكرز » كأنما هو من سكان المدينة ، وعامل متغطرس ممن يعملون بالفكر ، لم يعش عشر سنوات فى الريف ، ولم يزل يحيا فيه

أما اذا عاد وحده الى موطنه فانه لا ينعم الا بالثلاثة الايام الاولى اذ تكون كما تمناها وهو فى عمله . فها هو ذا أودان الكلب الكبير الذى لم يفارقه سلفه أو خلفه قط . ويؤسفه أن امرأته لا تستطيع أن تشاهد القمح التركى « الذى يعلو ثلاث أقدام فوق ما تستطيع يدى ان تبلغه » ويسره نمو ما غرس حديثا ، بيد أنه بعد أيام من عودته ، وزوجه فى بيت أبويها ، وهو مكلف بالسهر على الخزان ، ياخذ فى التبرم ، ثم يستولى عليه الضجر : يجب الاستغناء عن « الآنسة » رغم معارضة يوحنا ، لانها قذرة وان كانت تبعث من ملابسها للغسل اكثر مما ينبغى ، « والمطبخ يبدو فى غاية القذارة . ثم هى الى ذلك نصف مجنونة ، تحرق شمعا لعله من شمعنا ، ولست أعلم مكانه ولا عدده » — ويعود الهدوء والرضا فيجفوانه ، ويشعر فى وحدته بشقاء أى شقاء . وبسمارك حين لا ينتج ولا يعمل ، يريد زوجته فى الحال.

قلقه على ذويه

فقد حدث أن كتب اليها فى ثلاثة اسابيع من اكتوبر رزمة صغيرة من الرسائل تتجدد فيها نغمته القديمة فيسمع المرء من بعيد صوت الخشية من ان يحكم عليه بالعزلة والحياة المسئمة : « يقلقنى كثيرا انى لااكاد احتمل المقام هنا ، والرغبة عندى أشد ماتكون فى ان اعلن الى الحكومة استقالتى فى الحال ، واترك الخزان ينعى من بناه ، واسافر الى رينفلد .. هلا كتبت الى واكثرت ، ولو كلفك أجر البريد مائة ريال ؟ انى اخشى دائما ان تكونوا مرضى فقد قام بنفسى اليوم ان آتى الى بوميرانيا سعيا على قدمى ، فشوقى الى الطفلين ، الى موتشى وفيتريش واليك يا حبيبتى قبل الجميع ، يبلغ من شدته أن تجفونى الراحة ، وما قيمة شينهوزن من دونكم فيها .. مخدع النوم المقفر ، والمهود الشاغرة فيها ، وبها فرشها ، والسكون الذى لا يسمع فيه حس ، ويخيم عليه ضباب الخريف .. انه ليلوح لى كأنما طواكم الردى جميعا . انى أتوقع دائما أن تحمل الى رسالتك التالية نبأ سيئا .. الاقامة محتملة فى برلين والمرء وحده ، فللمرء فيها ما يشغله النهار كله ، ومايجرى لسانه بالحديث . أما هنا فمآل المرء الى الجنون ، لا بد أنى كنت فيما مضى شخصا آخر حتى احتملت هذه الحياة » . لكن هنا حزمة لها ، يغتبط وهو يحزمها ويحصى

ما بها فيقول : « ثم كساءمن التل او ما شاكلهعلىصورةلفاعة ، لهشريطاحمر . فجوارب للاطفال .. أشياء ظريفة جدا .. أشعر معها شعورا قويا بأنى معك ، فأطرب طربا شديدا حتى لتخطر ببالى الاميال السبعون وفيها خمسة وثلاثون لا تمتد فيها السكة الحديدية . حقا ان بوميرانيا بعيدة الشقة جدا .. لقد وردت من المجلد كتب لا حصر لها .. والخياط لم يستطع أن يصنع من القماش سوى خمسة ازواج من السراويل الداخلية على قوله ، واغلب الظن أنه يلبس الزوج السادس . أطلب الى الله أن يرعاكم .

المخلص فون بسمارك »

فى هذا الانسان العويص يطل بين هذه الحرارة وهذا الحنو كله خوفه على هنائه الذى لم يكن قط سالما من الخوف ، وكلما ازداد احتقاره للناس ازداد تعلقه بزوجه وأولاده . فبينما ذووه فى عافية وغبطة يجسم له الخوف تخيلات تبلغ مبلغا هستيريا . وحسبه ألا يتلقى كتابا بضعة أيام فيستولى عليه مثل هذا الهم البادى فى قوله : « انى لا أفعل شيئا غير أن أجلس قبالة الموقدة أتأمل نارها المتأججة وأفكر فى ألف احتمال للمرض ، والموت ، وضياع البريد ، ومشاريع سفر مفاجىء ، ثم ألعن مأمورالسد والمحلفين » .. « وثالثة الاثافى أن ينفذ بغتة سيجارى .. الآن أشعر أنك والطفلين متأصلون فى نفسى تملأون شعابها ، وهذا هو السبب الذى من أجله أبدو قليل الاحتفال لغيركم حتى ولو كانوا أمهات . فلو قدر الله فجيعتى فيكم فساشعر عندئذ بتعلقى بوالديك وستشكو امك من وطاة حبى »

بهذه الشدة يتعلق هذا الانانى ذويه حتى ليؤمن نفسه فى حالة فقدهم وحتى ليهب قلبه أناسا عاش الى الآن فى غنى عنهم . فهو دائما ممعن فى الهرب من أنانيته التى لا تقر

الضراعة الى الله

وقد كان من شأن المسيحية التى جدد ايمانه بها انها لم تخلصه . فالله فى أولى سنى زواجه وايمانه الثلاث لم يكن عنده سوى ملاذ يضرع اليه أن يحفظ ذويه . وفى كلمته لزوجه أنه يصلى دائما لعياله « بالليل حين تدق الساعة الثانية ، وبأخشع مما افعل حين اسأل الله المغفرة لى » . وهى كلمة تنطوى على معنى دقيق ، فما من كتابة كتبها الا يضرع الى الله فيها أن يرعى زوجه وأولاده ، لكنه ندر ان حوت رسالة بغير ذلك دليلا على ايمانه : « انىأصلى فىالمجلس وفى الطريق ألا يأخذ الله منا ما وهبنا منة وكرما » . وهذا على التحقيق هو الصدق كل الصدق حين يرقد طفله وتشتد عليه وطأة المرض . لكنه حين ينحى احدهم باللائمة على اعدام روبرت بلوم يقاطع بسمارك الخطيب المسيحى بصيحة حارة : « باطل محض ! .. انىحين أجد عدوا ينازعنى السلطان يجب أن أهلكه ! »

وذات مرة أبدى فى تحليل بعث به الى حماته فى عيد ميلادها ، وأبان فيه بأسلوب هذه المتدينة ما يفصل بينه وبين الايمان من هوة ، فقال : « لو أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الله أعاننى على تخليص قلبى من الغضب المفاجىء ! .. لكنه ليس سوى رحمة الله مايسعها ان تجعل فى الانسانين اللذين يؤلفاننى انســـانا واحدا ، وان تقوى فى ما انقذ الله من نفسى الى الحد الذى يتغلب عنده على نصيب الشيطان ، ولابد من هذا يوما او ساء مصيرى .. ســـيكون الله فى عون نصيبه منى كى تكون له السيادة فى البيت ، ويكون للشيطان من النصيب ما يقف معه بفناء الدار على الاكثر ، ولو كان فى جملة ما يفعل أن يزعم أنه رب الدار »

هذه المذلة هى آخر ما استخلصه من كبريائه ، وما خلاها فالتطلع خلال سلام البيت الى قوة اسمى . فانه حين تنفعل مرة زوجه يرجوها قائلا : « لا يضلك شىء مهما يكن من اعتقادك أنى أحبك كقطعة من نفسى .. فلو أنك لم تكونى لى لخشيت أن أصبح شيئا لا يرضاه الله . انك مرساى فى الجانب الطيب من الضفة ، فاذا انهار هذا فليرحمنى الله » . هكذا يتداخل سلامه وايمانه ، وزواجه وصلاته ، حتى لكأنه يتعهد احدهما بالآخر فى نصف دنياه ليضمن لنفسه فى النصف الآخر حرية الاندفاع فى سبيل الاهواء

كذلك المسائل المتعلقة بالذوق فانها تكيف تقاه تكييفا حاسما ، واذ كان يمجد التقوى فى النساء وحدهن فسيضايقه الترتيل الذى يدخله البروتستانت على الصلاة فى القريب : « انه لأفضل عندى أن أصلى لله على أصـــوات الموسيقى الكنسية الطيبة يعزفها أناس يفقهونها .. واليها صلوات مورلاخ يؤديها قسس فى أثواب بيضاء وسط دخان الشموع وبخور المباخر ، فهذا اجل .. اما هنا فجوقة غلمان لبيكسل ترتل بلا أرغن ترتيلا ملقنا ، تؤديه أداء ناقصا بلهجة أبناء برلين »

سفسطائيات

ويجرؤ احيانا نصفا دنياه على الاختلاط رغم سعيه الى الفصل بينهما ، فيقع فى الورطة الغريبة التى يقع فيها رجل يجهد فى الجمع بين طمـــوحه وواجبه نحـــو الدولة ، وحبه لزوجه . وما يزال غير مؤكد ايذهب الى ماجديبورغ رغم انفه ليقوم بواجب المحلف ، لكن المؤكد وحده انه مدعو فى نفس اليوم الى الصيد مع الملك ، وهو شديد الميل الى تلبية الدعوة ، بيد انه واعد ايضا زوجته ان يزورها فى رينفلد . وهكذا يرى متخبطا بين النيات الطيبة ، والاهواء ، والآراء السفسطائية ، فكأنما هو فى رأيك فتى حين تسمعه يقول:

« لقد كنت منذ هنيهة اقترع ولا أعلم علم اليقين هل أتوجه الى الله فى هذه المشكلة من مشاكل الصبية او لا اتوجه . لكنى فى الحقيقة اتجهت فى النهاية بتفكيرى اليه لسبب بسيط هو انى لايسعنى رفض الدعوة من دون ان أكذب . ولمجرد انى اتشوف الى المجىء اليك فى الحال لا يجمل بى ان اسوق هـــذا عذرا ، مع انه عذر وجيه كغيره من الاعذار ، وان لم يكن مما يقبله البلاط . فاذا كذبت ومكثت هنا استحققت مايقع لى ، واذا آثرت الصدق امكننى ان اقول على كل حال ان شاء الله (ذهبت الى المحلفين او لم اذهب) . والملك

مهما يكن من امر سيريد التحدث الى .. انى منذ هنيهة اسجل ذبذبة افكارى منذ ساعتين ، فتارة انا الرجل الذى يعدل شجاعا عما كان يضرع الى الله فى حرارة ان يحققه له ، الا وهو لقاؤنا العاجـــل ، وتارة اكون كمن يتطلع فى ماجديبورغ الى الصيد تطلع الثعلب الى العنب ، خاشيا ان يقع فى حبـــالة الاكاذيب التى يعتذر بها فينكشف . واخيرا يتسلل من شبكة الضمير فيقبل الدعوة ، ويحتفظ فى السر بالاعتذار من عدم تلبيتها ، وقد لا أستطيع فيما خلا ذلك الا افرغ يوم الخميس من شؤون السد »

وفى كل مرة تقريبا لا تجدى محاولاته على هذا المنوال ، يندم فيما بعد على الحل الذى يختار . واحتقاره لكل كتابة وكل نتيجة احس الفتى بسمارك قلة جدواها فتجنبها هذا الاحتقار يهجع دائما ويسكن الى جانب طموحه باكمله ليستيقظ لاقل حركة تزعجه . وحسب أية مضايقة تثير اعصابه ليطوف بنفسه فى الحال : « ان اعتزل السياسة ، واتخلى عن النيابة ، واعيش معك فى شينهوزن عيشة هادئة . ان كل شيء فى الحق كمثل ما كان عليه ابى الهرم الطيب فى كنيبهوف حين كان يسلط الرجال والكلاب على الادغال الصغيرة يتوهم فيها الثعلب فيظل كل مرة ينتظره منها فى انتباه جدى شديد ، وهـــو عالم كما اعلم أن ثعلبا لم يكن بين الادغال »

شعور بالطبيعة

وعلى الرغم من نبين بسمارك للحقيقة وتبدد وهمه على الدوام ، تراه لايكف عن الحركة ، يجـد العوض من احتقاره الناس والاشياء فى الالتجـــاء الى الطبيعة والعزلة على الدوام . فهنا يتدفق شعوره ، ويتحدث قلبه ، وتفتدى طفولته فينقلب فى كل مرة شاعرا : « لقد جلست فى تيرجارتن على المقعد الذى كنا نجلس فوقه بجانب بركة الاوز فرأيت صغارها التى كانت يومئذ فى الجزيرة الصغيرة كن البيض تسبح الآن بضة رمادية اللون ، متخمة ، تمرق بين البط القذر .. وقد بات الدلب الجميل الكبير محمر الاوراق فى دكنة ، وانتثر على المراقى ما يتساقط من الزيزفون والحور الاسود وغير ذلك من الكائنات الناعمة ، من ورق اصفر حفاف .. وذكرني المتنزه بكنيبهوف ، وصيد الدجاج البرى ، ونصب الفخاخ ، واعاد الى الذاكرة ما كان من خضرة ونضرة يوم كنت اماشيك هناك أيتها الحبيبة » . مثل هذه الحالات النفسية كانت مبعث شعور صميم بالخليقة يتسم بالبساطة ويخلو من التزويق .. وحين يكتب اليها عن بيع الخشب على وجه عام ينقلب فجأة فيباغتها بقوله : « لقـــد تركت أشجارنا القليلة قائمة الى حين ، فقد حز فى نفسى ان ابيعها » او يذهب الى الصيد ، فيقف بغتة مترددا لا تطاوعه نفسه على اطلاق النار « ذلك انى لم أشهد أمامى سوى امهات وصغار »

ان الحديقة لصغيرة حقا

هنا تلاطم الامواج فى نفس عميقة لا تحتاج الى يقين تسترشد به ، وتربط

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشيء بالشباب دائما وهي متأثرة . انه التيار الدافيء الذى يتدفق من قلب بسمارك حين تعيده الصدفة الى مدرسته الاولى وقد غادرها فى العاشرة ، فينقلب كل تشكك فيه الى حزن هادىء ينساب فى هذه العبارات المؤثرة :
« حقا ان الحديقة التى كانت عالمى كله لصغيرة . لست أفهم أين أختفى الفضاء الذى كنت اعدو فيه مقطوع الانفاس ؟ اين حديقتى التى كنت ازرع فيها الحرير واين مسقط رأس كل تلك القصور التى كنت ابنيها فى الهواء والعبير الازرق فى جبال كانت يومئذ تلوح لى قاتمة فى الجانب الآخر من السياج ذى الالواح .. لكم تشوفت اذ ذاك الى الحياة والعالم ! لقد تبدت لى تلك الارض الزاهرة كما تخيلتها فى الماضي بغاباتها وقصورها ، وكل ما انتظرنى فيها من مشاهدات حين وقفت بالحديقة . ولو لم ينادنى هانس الناثر لكنت حقيقا ان ابكى .. فقد تذكرت انى اعرف الآن على التحقيق ان الحديقة بقعة صغيرة فى «هلمشترسه» ، وأن ليس من حول سياجها شيء يذكر .. وأن مساحة دورنبرج فى كنيبهوف ستة عشر فدانا ، وأن أعمالا مع الجنرال جيرلاخ تنتظرنا»

الفصل الرابع عشر

كانت الوحدة الالمانية محتبسة فى حقيبة الاتحاد الالمانى بفرانكفورت تحت حماية ميترنيخ . بيد أن اللهيب العظيم الذى ادفأ الالمان الوطنيين اجمعين منذ حروب التحرير كان ما يزال يتقد ، تصونه فى الخفاء اصغر الاوطان بدل ان تزكية ، ويهب عليه البخار الخانق المتصاعد « من غرف الرصاص فى نظام فيينا الحكومى » غير ان وهج الثورة عاد مرة اخرى ينفذ الى هنا عبر الرين قادما من باريس ، فسمعت أوربا دهشة قلوب الألمان تنبض بالحمية السياسية ، اما أن تتحقق الآن الوحدة الالمانية بعد الحرية الالمانية ، واما الا تتحقق أبدا!

تابوت العهد

وقد كان هناك مشروع ضخم للخروج بكتلة الاسر المالكة والاراضى التابعة على اختلاف مراتبها الى الحرية والوحدة معا ، فكان الأمراء ورجال الجيش ، والدواوين ، وكل سلطة ظاهرة ، يعارضون فى الحرية ، وكان الخلاف بين بروسيا المتألمنة حديثا ، والنمسا المؤلف ثلاثة ارباعها من غير الألمان ، يعترض الوحدة . وهكذا انتهت حركة عام ١٨٤٨ العامرة بالفكر ، والمجنحة من الداخل انتهاء سريعا باقامة صروح صوررية للحرية فى « دساتير » البلاد الالمانية ، كل على حدة ، وبالنزاع يدب بين الملكيين والديمقراطيين ، وبين انصار المانيا الكبرى والمانيا الصغرى . وقبل ان ينقضى عامان حافلان بالاضطراب كانت الاصنام الالمانية القديمة قد عاودت مكانها فى كل بلد ألمانى

وذهبت ادراج الرياح أعمال برلمان كنيسة بولص والقوانين الضامنة لحقوق الالمان ، ولوائح برلماننا الوطنى الاول ، والافكار الغامضة والتخيلات النظرية التى اشتمل عليها دستوره . ذهب هذا كله مع الريح ولم يبقى منه سوى قطعة من الورق بلا هيئة تنفيذية . وقد عطلت النمسا وكل معاد لبروسيا هذا كله منذ البداية ، فضاع الأمل فى الوحدة الالمانية كرةأخرى ، وأعيدالبرلمان الاتحادى القديم تحت رعاية النمسا ، ودعى لافتتاحه رسميا فى صيف ١٨٥٠

وبروسيا ؟ لقد أنقذ فريدريك غليوم الرابع اللائذ برومانتيته من هيبة الامبراطورية المعروضة عليه ، انقذ مطالبه فى الزعامة الالمانية بالاتحاد المزعوم ، ومع ذلك فقد ذاب برلمان ايرفورت امام تهديدات النمسا والروسيا ، وبات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رفض ابتعاث مندوبين الى مجلس البندستاج بمثابة الشيء المثير بعد أن كان الغاؤه فى يولية ١٨٤٨ باجماع الآراء

قبل حرب الاخوة

على أن الامير شفارتسنبرج سيد النمسا الجديد لم يطق أى غموض ؛ فعندما تعب امير هيسن الناخب من رقابة الدستور عليه ، وجرب فى بلده نظام فينا ، وتعاظم السخط فى هذا البلد ، استصدر شفارتسنبرج من البندستاج قرارا يحميه

فهل كان يظن أن يقع عقيب الثورة أوقح من هذا ؟ وقد احتجت بروسيا زعيمة الاتحاد الذى انتمت اليه هيسن على ذلك . وخيفت الحرب ، ولبست بروسيا لبوس حامية الحرية ، فباتت لحظة محبوبة تقريبا فى البلاد الالمانية ، وخاطر رادو فتش كل شيء ، وكان فى برلين قائدا ووزيرا . لم يكن فيه شيء من قيصر لكنه كان رجلا . ووقف النمسويون والبفاريون يسددون بنادقهم الى الجنود البروسيين على مرمى الرصاص . ولاحت اللحظة آتية اذ يقيسون أنفسهم بمنافسيهم الالمان وينازلونهم بالدم والحديد ، وينتزعون بالحرب التفوق فى المانيا الأصلية ، ويلقون بالاتحاد الالمانى القديم فى صندوق القمامة . كان ذلك فى نوفمبر ١٨٥٠

واستدعى بسمارك أيضا الى آلايه كضابط فى الجيش ، والى المجلس كنائب ، فى وقت واحد . وصعد الى بسمارك فى مركبة البريد التى كانت تقله الى برلين عمدة هرب لاحدى القرى حضر حروب التحرير فى سنة ١٨١٣ وسأله : « أين يقف الفرنسيون ؟ » وكم خاب أمله خيبة عظيمة حينما سمعه يقول أن الأمر هذه المرة ضد النمسويين . وفى برلين قصد بسمارك أول ماقصد الى وزير الحربية فأقنعه بالاحصاءات ان جنود بروسيا مشتتة وأنه لابد للتضحية للعدو ببرلين ، فوعد أن يتوخى فى عمله القصد والاعتدال قبل أن يجتمع المجلس اذ قد تشعل الخطب النارية النار ونحن فى حاجة الى الوقت . ويؤجل الملازم فون بسمارك بالاتفاق مع الوزير سفره الى آلايه ويكتب الى الميجر ستندال معتذرا عن نفسه وعن خادمه فى نفس الوقت : « لم أسافر لأنى استيقظت صباح أمس وبى صداع شديد »

رؤيا سنة ١٩٠٠

والأمير غليوم متحمس للحرب ، يبجل رادوفتش المستقيل . قيل ان الأمير ألقى سيفه عند قدمى أخيه الملك لاعنا يقول : « لايمكن المرء أن يلقى فى خدمتك فخارا » . كذلك مولتكه رئيس هيئة أركان حرب أحد الفيالق كان يعتقد أن لبروسيا أربعمائة ألف رجل على قدم الاستعداد ، « بيد أنه لن يسع أردأ حكومة أن تقضى على هذا الشعب . وسوف يتولى بسمارك زعامة ألمانيا مع ذلك .. وان كان صدقا أنه ليس فوق هذه الأرض أمة

احق بالرثاء من الأمة الالمانية » على أن رادوفتش يكتب على أثر سقوطه وقبيل موته « رؤيا سنة ١٩٠٠ » فيقول : « انى أرى بعث الامبراطورية الألمانية وعلى رأسها بروسيا ، وأشهد فرنسا تتراجع بعد فقد الالزاس الى حدودها الطبيعية وقد خف خطرها » . فهذا الرجل الذى تنبأ بسياسة بسمارك على هذا النحو قد نعته بسمارك بأنه « العبقرية الشريرة فى بروسيا »

فلماذا يناصر بسمارك السلام ؟ أيؤمن بعجز العسكرية البروسية ؟ ألعل السبب الحقيقى لتردد الوزراء المحافظين وتردده أيضا هو مع ذلك مجرد الخوف من الدول الحرة فكان أن آثروا ومعهم الملك أن يماشوا الرجعية النمسوية على أن يسايروا أفكار الوحدة التى تحدو الثورة ؟ أما مايتعلق ببسمارك فانه يأمر باعداد خيله وأحذيته للقتال ، ثم لا يلبث أن يلغى أمره بذلك ، وهكذا على التعاقب . وهو كذلك فى باطنه يلوح مترددا غير مطمئن ، يشكو الى زوجته أنه ليس سوى الدسائس ما يقرر مصير سبعين مليونا من الالمان ، فاذا ساد السلام فسيكون له فى سيادته بعض الفضل . « فالحرب لو نشبت الآن لكان نشوبها خرقا لا يعدله خرق ، وكانت عاقبتها فى الداخل ان تنحرف حكومتنا ميلين آخرين نحو اليسار »

السلام خير من الديمقراطية

وبغتة يتخذ أسلوب خطبة يفكر فى القائها فى الأسبوع التالى فيعد من الطيش أن يضحى بمئات الالوف من دون ضرورة تقتضي التضحية ، وينسى ، وهو أكتب من يكتب على سجيته ، لمن يكتب مايكتب :

« لقد نمت بروسيا الى هذا الحد ، فمن أجل هؤلاء الناس يكون انتصارنا اذا انتصرنا . وعندئذ يأتى كل ديمقراطى الى الملك ليريه جراحه ويطالب بالحساب اذا كان انتصارنا على يديه . انى لا استطيع أن أحبس الدمع وأنا أفكر فيما آلت اليه كبريائى وغبطتى ، وآل اليه الوطن وهذا الشعب المصرى الوفى ، الشجاع ، الشريف ، الذى تدير رأسه النشوة من هذا الذى يسمونه الشرف البروسى ! »

ان هذا الاستاذ الذى يحذق أسلوبا عاطلا فى التذويق لم يكتب فى حياته قط بهذه اللهجة الى أجنبى بله زوجته : انه يجرب هنا خطبته . بيد أنه حين تعود نذر الحرب تلوح فى الأفق بعد ذلك ببضعة أيام يأمر باعداد خيله وسلاحه فى الحال ، ويختم بأسلوب الفرسان شأن القادم على مغامرة يغتبط بها ، ثم يذيل كتابه الى زوجه لاول مرة بعبارة « من تملكين الى الابد » . وفى عهد قريب كتب اليها مرة يقول أنه يشتاق « التسلية البديعة التى تتيحها الحرب »

من أجل هؤلاء الناس يكون انتصارنا اذا انتصرنا : هنا الباعث الأعمق الذى يدفع هذا الجسور بسمارك الى النهى عن حرب تهدف الى توحيد المانيا بزعامة بروسيا ضد النمسا . ولا تنقضى بضعة أيام حتى يكون السلم قد تقرر بضغط الروسيا لان « امبراطور النمسا الشاب راق قيصر الروسيا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أكثر مما راقه ملك بروسيا » على قول بسمارك فى شيخوخته . ويذهب مانتويفل الوزير الخديد الى أولمتس ، وينزل لشفارتسنبرج عن الزعامة البروسية ، ويعود مجلس البندستاج ، وكانت بروسيا قد هجرته من عامين، وتصبح النمسا هى صاحبة الزعامة فى فرانكفورت

ويتملك الاستياء بروسيا بأسرها . ويجوز أن نقول مرة فى هذا المقام : الشعب . فهو يطالب بسقوط مانتويفل وبالحرب . ولا يمكن أن تثور الكرامة القومية فى شخص بأعنف مما تثور فى بسمارك الذى لم يكن يوما من جراء ذلك فى جانب النمسا ، لأنه كان دائما فى جانب بروسيا . وهو اليوم بعد مثل هذه الهزيمة لابد أن يبغض الخصم ويبغى هلاكه ، ذلك أن مثل هذا الحقود الشديد الحقد لايمكن أن يتفاهم على الأكثر الا مع المقهور ، أما مع القاهر فمحال

أولمتس

وسرعان مايعلم بسمارك من التفاصيل مايخجل كبرياءه : يعلم أن الأمير انمسوى ينزل فى الطبقة الاولى من فندق أولمتس فى حاشية كبيرة ، يحكم ويولم ، بينا ينزل البروسى فى الطبقة الأرضية يصحبه خادمان ولا يعدو فى مظهره مستأجرا من طبقة المزارعين . انه يشعر على التحقيق بما قاله شفارتسنبرج يوما لاصدقائه : أريد اذلال بروسيا أولا ثم خرابها بعد ذلك

ومع هذا ما الذى يحدث ؟ ينهض بسمارك المجاهد ليدافع فى المجلس عن الحكومة وأولمتس فى خطبة مستفيضة . انها آخر خطبه كنائب وأعظمها شأنا :

« لماذا تحارب الدول العظمى هذه الأيام ؟ ان الأساس السليم الوحيد للدولة العظمى ، والشىء الذى تمتاز به عن الدولة الصغرى هو أنانية الدولة لا النزعة الرومانتية .. من السهل على رجل دولة .. أن ينفخ فى بوق الحرب أنفاس الشعب ويساير ميوله ، ثم يستدفىء فى ذلك بنار موقده ، أو يلقى من فوق هذا المنبر خطبا مدوية ، ويدع للفارس الذى يدمى فوق الثلج أن يحقق على أسلوبه النصر والمجد ، أو لا يحرز بطريقته شيئا منهما .. الويل السائس الذى يدخل الحرب بلا داع والذى لايصمد أيضا بعد الحرب ! انكم ستنظرون بعد الحرب الى كل هذه الشئون نظرة أخرى . فهل تؤتون الشجاعة يومئذ أن تقترب من القروى فى مزرعته المحترقة ، ومن العاجز الذى شوهته الحرب ، وان تتقدموا الى الأب الذى فقد أولاده فتقولوا لهؤلاء : لقد عانيتم كثيرا لكن افرحوا معنا أن أنقذنا دستور اتحادكم ! »

ويلتفت بعد هذا التهكم الى مقاعد اليسار ويقول : « انكم تتحدثون عن الشرف البروسى . يا للعجب ! والأحرار بالذات هم الذين يتحدثون عن ذلك .. لكنكم لن تنجحوا فى جعل الجيش البروسى الذى قام فى ١٩ مارس بدور المهزوم جيشا البرلمان ، فانه سيبقى دواما جيش الملك ، ويسعى دائما الى الفخار فى طاعته . الحمد لله أن ليس الجيش البروسى بحاجة الى اقامة

الدليل على بسالته .. ان شرف بروسيا ، فيما أجد ، هو فى الابتعاد قبل كل شيء عن كل علاقة مخزية تربطها بالديمقراطية »

فى صف النمسا

ويتكلم عن النمسا بعد ذلك فيقول : « انها دولة المانية كان من حظها أن تسود شعوبا أجنبية أخضعتها فى قديم الزمان اسلحة الالمان .. انى أجد فى النمسا ممثلة ووريثةلدولة المانية قديمةطالما أحرزت المجدبالسيفالالمانى »

هكذا تكلم بسمارك فى الخامسة والثلاثين من عمره لاعنا فى الختام كل الذين أرادوا اهدار الدم البشرى فى سبيل دستور الاتحاد ، أى فى سبيل امبراطورية المانية لا تضم النمسا ، اضطر هو بعد ستة عشر سنة أن يضحى بنفس هذا الدم فى سبيلها . هكذا دافع بسمارك عن هزيمة بروسيا فى أولمتس . ولم تصور أية وثيقة خاصة هذا الخطاب على أنه لعبة دبلوماسية تخفى وراءها نيات حربية عدائية للنمسا . فماذا ترى كان الباعث عليها ؟ ان جيرلاخ ، ومانتويفل ، وبراندنبورغ ، وكلهم مستشارون ووزراء الملك ، كانوا ضد الحرب ، وكانوا جميعا فى جانب النمسا . كانوا كذلك لأن فينا هى حصن الرجعية . وقد كان بسمارك مضطرا الى مسايرتهم ما لبث محتاجا اليهم فى ركابه . واللحظة الآن سانحة لأن يربط بين الحكومة والملك بخطبة يدافع فيها عن كليهما . وكل شيء الآن يساعد على حصوله على قسط من السلطة . فاذا فاز بها نفع بلاده على أسلوبه . وقد اجتمعت فيه مشاعر النبلاء التى أحستها أسرته من قديم ، الى طموح جديد ورثه عن أسرة مينكن ، فاجتمع له مايجعل منه مدافعا عن أولمتس

وقد أصاب الحساب . فقد بلغ من تأثير خطبته أن يوصى بتعيينه فى منصب ديبلوماسى . ذلك أن الرجل الذى جرؤ فى هذه العاصفة من الخزى القومى أن يدافع عن هذا العارهو الرجل الذىولد ليمثلبلاده فىالبندستاج ، ويتعاون فيه مع النمسا من جديد الآن . ويرجع حسابه الىعامين اذ أبدى يومئذ أن « لابد يوما من أن تسير الأمور الى أسوء مما هى بكثير . وسيصبح من الممكن بعد سنتين أو ثلاث أن يستخدم فى الدولة أناس مثل كليست ومثلى » . فالآن تدق الساعة . فبعد أربعة أسابيع من خطبته يعرض عليه منصب وزير انهالت . ويكتب الى زوجه بأسلوبه المعتاد يقول : « لم أزاول العمل الى الآن ، وقد فوضت الأمر لله . والمنصب موافق فيما خلا ذلك . والدوق معتوه والوزير دوق . وما أجمل أنيعيش المرء هناك دوقا مستقلا .. يحكم وادى سيلكه بأكمله فى قلب الهارتس »

الحكم

وكلمة الحكم لم ترد فى كتاباته من قبل قط ! فالآن ترد كالمطرقة وتتجاوب الغايات الرومانتية التى يسعى الى غرسها بصداها . وحين لاتنتهى مسألة انهالت الى شيء يتردد فيما يتخذ من تدابير بعد ذلك ، ويتساءل هل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحتفظ بحوذيه فى شينهوزن أو يستغنى عنه ، ويفاوض فى بيع شينهوزن ، ويضيف المزارع الى ذلك فاخرا : « ان البيع يبـــدو لى دأنى بلا أن يكون خرقا ، لـكنه لعله يبدو لى كذلك لاعتبارات لا قيمة لها عند الله »

ثم يحصى المناصب التى يمكن أن يصل اليها من دون أصدقائه فى الحزب ، ويريد أن يتخلى عن وظيفة مأمور السد . « لـكنى أريد أن أكون مديرا فى شينهوزن أو كنيبهوف أو رينفلد .. فاذا بقينا فى شينهوزن كانت تغيـــير الحوذى خيرا بى ، أما اذا توجهت فى الخـــدمة الى مكان آخر فهيلديبراند انسب لى وأصلح ».

فى الخدمة ؟ ليخيل الى المرء أنه يسمع رجلا تخلى أخـيرا عن مركزه فهو يسعى الآن الى غيره ليعيش . لـكن المتكلم مالك من ورثة أراضى الفرسان ورجل فى رغد من العيش ، لم يستطع قط خدمة عشيرة . وقد حاول كل شىء وعف عنه حتى لايخضع لأحد . فهكذا تقنصه عجلة النشاط السياسى الى حـد ألا يتصـــور كيف يعيش فى عزلة عن الناس أو يعود يحيا الحياة الخاصة . ان يوما واحدا يقضيه فى شينهوزن من دون زوجه ليلوح له مرعبا الى حد أن يعدل عن قضائه هناك وان كانت أعمال تستدعيـــه . انه الآن لايشبع من برلين وخاصة البلاط ، ولا يكف عن التحدث عنها . انه يعاود الرقص بعد أن هجره سنين حتى لتدب الغيرة فى قلب يوحنا وهى التى تكابد الوحدة فى رينفلد ، فتكلف ابن عم لها بابلاغه رغبـــاتها . بيد أنه يصالحها ويروى لها أن الملك قال له بعد الرقص : « ان الملكة مفتونة بك منذ نصف ساعة وأنت لاتفطن اليها ! » ويكتب الى زوجـــه مرة أخرى يتغزل بالبهو الأبيض وجماله الذى يشبه جمال الحور ، وقد زخر بألف سيدة وضابط : « لتسمع الموسيقى فيه من عل ، فوق أريكة وثيرة بين النخيل والنوافـــير وعلى مسمع من خريرها ، وتشهد تماوج العجب والزهو من تحتك فتجد فى ذلك شعرا ومادة تأمل »

السياسة ويوحنا

حقا أن ابنيس ما يزال كاملا فيه . وكل ما هنا لك أنه يصبح أحـــذق لأساليب البلاط بعض الشىء حتى فيما يكتب من رسائل الى بيته . وحين يحمل اليه الملحق العسكرى المبعوث من سان بطرسبورغ من قبـــل قيصر الروسيا وقيصرتها مايطريه يزيد فى تقريره عنه قوله : « هذا جميل جدا ولكنه ليس هذا البيت فى كنيبهوف فنجلس فيه معا ، فهذا أحب الى من رضا ذوى السلطان » . انه يتكلم عن قصر الملك فى براند ليبورغ حيث يسمع هذا ويكتبه . وليس من يمنعه أو يمنعها من الاقامة فى كنيبهوف فى هدوء ، لكن البلاط هنا ليس مع ذلك مما يزدرى ، والحلم الذى يحلم به قلب بسمارك يتحقق على خير وجه اذا انتقل قصر الملك الى موطنه هو ، لتقيم السياسة والسلطان فى جناح ، ويقيم السلام ومعه يوحنا فى الجناح الآخر

ولا غرو أن يبثها شكاته من حياة برلين المرهقة وان كره أن يستغنى عنها

بأى ثمن الآن : « اليك صورة من حياتى : يوم السبت من الساعة العاشرة الى الخامسة بعد الظهر حفلة تشريفة ، وفى السابعة اجتماع برئيس مصلحة التجارة البحرية ، ثم حسابات الى العاشرة ، فمقابلة لمانتويفل تظل الى منتصف الليل فى تناول شاى وحبك دسائس . وفى البيت تحرير خطابين الى الدائرة الانتخابية ، ثم التوجه الى النومة الثانية . يوم الاحد : نهوض فى السادسة .. من السابعة الى التاسعة مفاوضة فى منصبى الوزارى (فى أنهالت برنبورغ) ثم عظة بيكسل الدينية الى الحادية عشرة ، فمقابلة لوزير الداخلية الى الثانية عشرة ، فزيارات الى الثالثة . وفى السادسة موعد مع جولتس بأمر أمير بروسيا ، وتحرير الى التاسعة نتيجة لذلك ، ثم الذهاب الى شتولبرج .. والتوجه الى النوم فى الواحدة »

ويصل الجنرال جيرلاخ مع الملك أخيرا فى ربيع عام ١٨٥١ الى ابتعاث بسمارك الى فرانكفورت . وهو تعيين يصفه بأنه من « عمله وحده » ولا مندوحة من ثم عن البحث فيه مع صديقه مقدما وتناوله من جميع أطرافه ، لاسيما أنه سيجعل من بسمارك أداته فى تنفيذ سياسته فى البندستاج ، بسمارك الذى يعده رضيعه السياسى . وهذا المنصب الذى ظل أشهرا يفكر فيه ويفاوض سرا فى الحصول عليه أهم عنده مما توقعه بعقله واعظم ، وان كان دون ماطمحت اليه كبرياؤه بكثير . وقد احتاج الى حيل « الحكومة الخفية » والى ايحاءات دامت سنين ، والى دسائس البلاط والوزارة ، أحتاج الى هذا كله أن يدخل «الديوان» فى بروسيا رجل عبقرى من السلم الخفى

النير الشهى

والآن يأخذ فى سذاجة ديبلوماسية بالغة يصور لرفيقة حياته التقية نجاح مسعاه الذى كان يعرف هدفه منه كما لو كان ذلك المتنزه البرىء الذى عرض عليه التاج كما عرض على هنرى الصياد أثناء الصيد ، فيكتب اليها أثر عودته من عندها الى برلين يقول : « ان تعيينى فى فرنكفورت يدور هنا على الالسنة فى كل مكان . وقد نشرت خبره اليوم صحيفة الفوسيشه تسايتونج . لكنى لا أعلم عنه شيئا » . وفى اليوم التالى يكتب يقول : « حقا انهم ينتوون أن ينتفعوا بى فى السلك السياسى فى مكان ما .. وانى الى ذلك لا اتمنى مركزا استقر فيه بعض الوقت ليتيسر لى البقاء معك ياملاكى .. وليس ببعيد أن تكون هذه الرغبات سببا فى احباط المشروع .. وان منصبا لا استطيع معه العيش مع أسرتى لحقيق ان أعود فاتنحى عنه فى الحال ، ولابد من التضحية طويلا براحتى مهما يكن من أمر ، ومن فقدان رجائى فى أن أعيش معك ومع الأطفال فى هدوء كما عشنا فى الشتاء الاول اذا كنت سأضع رقبتى تحت ذلك النير . وستكون مشيئة الله مرادفة لخيرنا .. فانى لم أبد أمنية من عندى أو اتجه اتجاها بعينه » . وفى اليوم التالى « حبيبتى المسكينة ، لقد وضح تدريجا وبات من الراجح جدا أن يبعث بى الى فرانكفورت وان لم يكن فى منصب ثابت فى الآونة الراهنة ، لكن بمرتب »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعيين

وفى كل هذا يرد اسم الله وقدره بدل اسم جيرلاخ . بيد أن الاقامة والأسرة والاستقرار والحظ من قدر مسعاه الى مرتبة « النير » فى الوقت الذى يحققه فيه ، كل هذا صحيح ، لأنه لايستطيع أن يحتمل أعماله من دون اشتياق الى الهدوء ، كما أنه لم يحتمل الهدوء من دون أن تهفو نفسه الى الأعمال . وحين يسأله مانتويفل فى يوم آخر هل يريد ، يجيب « ببساطة نعم » ، لكنه ما ان يكاد يشعر بأنه عين حتى تتفجر كبرياؤه وكل ماكبته هذا الزمن الطويل من قوى ، فيذهب الى الملك :

— أن من الشجاعة أن تقبل وظيفة فى الخارج من دون تحرج !

« ان الشجاعة شجاعة جلالتكم وحدكم ان عهدتم الى بمثل هذه الوظيفة . وجلالتكم فى هذا لستم ملزمين بابرام هذا التعيين اذا لم أظهر جدارة فيه . وأنا نفسى لا أستطيع أن أتأكد هل تفوق هذه المهمة كفايتى قبل أن أتبينها . ان عندى من الشجاعة مايلزمنى الطاعة اذا كان لجلالتكم منها مايجعلكم تأمروننى »

— اذن فلنجرب

وقبل هذا الحديث الذى أعاد بسمارك الى خدمة الحكومة بثلاث عشرة سنة خرج بسمارك من هذه الخدمة بملاحظة أبداها لبواب الرئيس الاول : أن يبلغ الرئيس انه مسافر على ألا يعود . واليوم يكتب الى زوجته يقول : « لقد شكوتم من أن ولاة الامور لم يجعلوا منى شيئا ، فالآن يقع هذا فوق ماكنت أنتظر وأتمنى ، تأعين فجأة فى أعظم مناصب سلكنا السياسى شأنا فى الوقت الحاضر »

ومع أنه فى هذا المقام يكشف عن ضغط ذويه واستيائهم من أن أحدا لم يقلده وظيفة يمضى مرتاح الضمير فيقول : « لم أسع الى المنصب ، لكن الله فيما أفرض شاءه لى ، ولا يسعنى أن أتملص منه .. فلو رفضت لكنت جبانا .. وانى لادعو الله الرحمن الرحيم دعاء خالصا الا يجعل فى هذا الأمر مايكدر هناءنا فى الآونة الراهنة أو مايضيرنى » . وفى الأيام التالية يغير هذه النغمة ، ويأمر باعداد سترته الحريرية وغدارته فلن يستطيع من دونها أن يدخل السلك السياسى أو يطأ طريقه . وكذلك أبلغ ذويه أنه سيشغل المركز الثانى بضعة أشهر فحسب ثم يتقلد منصب الوزير المفوض

بين الوظيفة والبيت

وتأخذ يوحنا أيضا فى الشكوى الآن فيرد عليها بقوله : « لم هذا الحزن ؟ ان الحياة فى الخارج جميلة ، لكنى مع ذلك يغالبنى الدمع حين أفكر فى حياة الريف الهادئة والعيش معك وذوى فيه ، وهو أمر لبث طويلا فى حيز الأحلام البعيدة ، فالآن بالذات ابدو بهأشد افتتانا .. ثقى أنك ستصحبيننى فى الشتاء الى دنيا المجتمع ، أو بماذا غير ذلك أدفىء قلبى ؟ من الممكن بل

من الراجح أن أظل سنين طويلة لا أزور الوطن الا فى الاجازة ولماما .. بيد أنى جندى من جنود الله أذهب الى حيث يأمرنى .. وما يفعله الله خير .. فلنعتمد فى أمورنا عليه .. لكنه .. ما أشد حنينى اليكم جميعا ، والى الربيع الأخضر ، والى حياة الريف ، وما أعظم شجنى بذلك ! لقد كنت ظهر اليوم عند الجنرال جيرلاخ ، وبينا يحاضرنى عن المعاهدات والملوك شعرت كيف تهب الريح فى حديقة فوس تحت النوافذ ، فتعصف بالكستناء وزهر الأقطى ، وسمعت البلابل ، فتمنيت لو كنا معا بنافذة قاعة الطعام نطل على الشرفة ، ولم أجعل بالى الى ما كان يقول جيرلاخ . جاءنى خطابك مساء أمس فتولانى الاكتئاب وتملكنى الحنين ، حتى لم أتمالك نفسى من البكاء عندما رقدت . سيكون أول الغيث فى فرانكفورت مرتبا قدره ثلاثة آلاف ريال .. ان صيرورتى مستشارا سريا لتهكم يعاقبنى الله به على كل ما اخطأت فى حق المستشارين السريين .. وددت لو ضممتك لحظة الى صدرى لأقول لك كم أحبك ، وكم استغفرك على ما فعلت لك من سوء يا فؤادى .. ان هذه الوجاهة المفاجئة تقلقنى ، والشوق يحدونى اليك والى تيفكه أو فريشو .. انى أحبك يا فؤادى كما لم أحبك من قبل ! »

هكذا يجيش هذا الصدر بقوة : فان الله تعالى وهذا الحنين المزدوج لابد أن يكونا وسيلته للتصام عن توبيخ الضمير الذى يحسه هذا المسيحى عند تحقيق مقاصده بدلا من أن يؤمن بأغراضه الحكيمة الاخلاقية الملائمة له عن طيب نفس . كيف ذلك ؟ أيخشى بسمارك شيئا ؟ انه لايخشى السلطة على التحقيق ، وهو للنضال أقل خشية . لكن لعله يخشى سلم أولئك الديوانيين الذى أفزعه منظره وهو فتى ، والذى لم يرق بعد حتى فى هذا الوقت درجته الاخيرة . انه يخشى الرئيس ، ويخشى الاضطراب الى كتابة التقارير والشخوص الى الوزير اذا أمر بذلك . تخشى كبرياؤه الطاعة ، ومن ثم هيامه الفجائى بحياة الريف الهادئة ، التى كفت منذ سنين عن استهوائه ، ومن ثم الرغبة الجامحة الملحة فى الهناء والسكينة على صدر يوحنا . لكن ها هو ذا جيرلاخ مرة أخرى يحاضر الآن تلميذه ، ويدفعه الى السفر ، ولا ينتهى منه مع ذلك

الى المستشار السرى الملكى

ويذيل الدبلوماسى الجديد رسالته الاخيرة الى زوجه بهذه الكلمات تحدوه مشاعر عجيبة فيقول :

« اكتبى من الآن الى مستشار المفوضية السرى الملكى فون بسمارك بالمفوضية البروسية بفرانكفورت على نهر الماين »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتاب الثاني

المجاهد

« ان عبقريته التى تنفجر من
كل جملة تقطع دائما كل شكوكي
باليقين ، لكنه ما من موضع
يؤمن فيه كل الأمن »
فونتان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

« يتملكنى سأم مابعده سأم .. فالنمسويون يدسون تحت ستار الطيبة المرحه .. ورجال الدول الصغرى فى الغالب صورة هزلية من الديبلوماسيين المتحذلقين ، اذا سألتهم نارا أشعل بها سيجارى علت وجوههم سيماء المتسقط للاخبار ، فاذا طلبوا مفتاح دورة المياه تخيروا النظرات وانتقوا الالفاظ .. سوف أنقى حقلى من العشب الضار اذا قدر لى هنا الاستقلال أو فأنى أعود الى وطنى على حين غفلة .. لاكاد أشعر بأنى هنا على الرف ، وان حريتى مسلوبة على غير جدوى اذا الاحوال لم تتبدل فى أقرب وقت .. ولست أعلم الى ذلك كيف أمثل سياستنا الالمانية ، ولا مبلغ تمثيلى اياها ، اذا انا لم أمسك بخيطها الرئيسى .. وانه ليلوح لى أن ليس فى الديبلوماسية الروسية شيء يذكر سوى مركز الملك ورئيس أركان الحرب ووزير الخارجية وأن ليس فيها مايمكن أن يشغل طموح الرجل الناضج ونشاطه »

قلق

هكذا تتأرجح نفسية بسمارك فى بدء سيرته الديبلوماسية بين القلق والضجر ، بين السخر والاعتداد بالنفس . لم تنقض اسابيع منذ تحققت له أمنية قديمة ، وامسك بطرف السلطة التى يريد أن يوجه بروسيا فى فيضها ، ثم لاشيء فى الواقع مما يمكن أن يشغل الرجل الناضج ، فزملاؤه يلوحون له من الآن مدعاة للسخرية ، وهو يشد فى الاغلال التى ارتضاها لنفسه . ولو أن سائلا سأله أيحب أن ينتظر احدى عشرة سنة فوق ما انتظر ، لو قال له قائل انك لن تمسك بالخيط الاكبر قبل عام ١٨٦٢ لترك الدار تنعى من بناها وانسحب يأوى الى « شينهوزن موضع الازدراء » . ومؤكد أنه لايريد أن يكون أركان حرب للملك بحال من الاحوال ، بل المؤكد انه ود لو كان الملك : فعندئذ كان قمينا أن يحل المشكلة الالمانية على أهون سبيل ، وكذلك بلاريب مشكلة بسمارك العويص . ذلك أنه يثير أعصابه أن يخدم لاول مرة فى حياته وأن يشعر من فوقه بسيد فوقه سيد : فهو يكتب الى زوجته فى أول يوم من أيام فرانكفورت يقول: « يجب أن أروض النفس على أن أكون كرجل الاعمال الجاف المنتظم ، اقضى الساعات فى العمل الكثير المتواصل ، واهرم آخر الامر لقد مضى زمن اللعب والرقص ، وأقامنى الله حيث أقامنى رجلا يجب أن أكون

جادا » . بهذه الهيبة يصور نفسه لامرأته التى لاتعتقد فى الحقيقة مالا تعتقده هو أيضا من أنه لم يكن قبل الآن رجلا جادا ، أو أنه يمكن أن يكون جافا . وادنى الى التصديق أنه سيبقى ماكان دائما ، رجلا شديد الانفعال . فهذا القلق الذى لايهدأ له بال سرعان مايزدرى ما حصل ، وهذا الروح الساخط أبدا يفتت بيدى مفستوفوليس ماجهد فاوست فى صنعه

ويكتب الى جيرلاخ يقول : « فى هذا الربيع سيفوق تعيينى فى أتفه منصب للقائم بالاعمال الالمانى بوصفى تحت التمرين ، كل ماكان فى حسابى » . وفى الحق لقد لاح له كل شيء خيرا من ذلك السخف الذى يتورط فيه النواب ويتعرضون من جرائه للسخرية منذ ثلاث سنوات . أما الآن فان الديبلوماسيين الذين يختلط بهم لاول مرة يبدون لعينيه « اسخف كثيرا من نائب المجلس الثانى فى شعوره بهيبته .. وانى لاعلم علم اليقين مانحن خلقاء أن نبلغه فى سنة أو سنتين أو خمس سنوات ، وما أريد أن احققه فى اربع وعشرين ساعه اذا غلب الآخرون العقل يوما واحدا ، وشاءوا أن يكونوا عقلاء» . لكنه ما أن يعود الى برلين مرة أخرى ، ويؤوب الى بيئتها التى كان مايزال يفخر بها ، ويستهويه غمارها فى خلال السنوات التى قضاها فى فرانكفورت ، حتى يتملكه الحنق فى الحال « من هذا الشجار النيابى العقيم الذى يسخط المرء منه ما فيه من صنوف التهريج .. انى لاشتاق العودة الى تلك المناقشات المهذبة التى تجرى فى البندستاج رغم مافيها من املال »

سيرة الوظيفة

بهذا التقطع يدق قلب بسمارك : لا لان نظرته الرائقة ، وفهمه المسيطر ، يمكنانه من حل معظم المشاكل بأسرع مما يحلها المجلس ، ولكن أيضا وقبل كل شيء لان طبيعته الابليسية تستهلك فى الحال كل ماتحرزه . فاذا لم يستطع الكفاح ضاع ، ولو قد كان سيد العالم والحاكم فيه بأمره لتولاه الضجر

من ثم يرتعد حين يفكر فى أن الملك قد تضغط عليه النمسا فينسى موافقته ولايعينه وزيرا مفوضا : وأى سرور يغمر أعداءه اذا وقع له ذلك . لذا يكتب الى جيرلاخ : « انى لست من الطموح بما اعتاد اخوكم ان يصورنى به ، لكنه بعد أن كتب بروح الحزبية خبر تعيينى المنوى .. فان أى تغيير قد يدل على أن ولاة الامور اقتنعوا على الاقل بانى غير اهل لهذا المركز .. وهذا مايجعلنى أعلق الآن أهمية على تعيينى » . وهكذا يطالب أحد الاخوين جيرلاخ بهذا التعيين بينما يخدع الآخر بأنه لايطمح الى اكثر من أن يكون وزيرا مفوضا ، وكلا الشيئين يريد هو أن يبلغا الملك . لكنه بينه وبين ذويه يضمن لنفسه التعيين فهو يكتب الى زوجه يقول : « سنستطيع حقا أن نعيش هنا بمرتب الثلاثة آلاف الريال التى أتقاضاها (كمستشار مفوضية) وبدخلنا القليل ، لكنى خليق أن أستشعر فى هذا شيئا من الحرج ، فاذا لم أعين الى وقت أن يحل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصيف وزيرا مفوضا للبنـــدستاج فسـأنظر أولا هل يزيدون مرتبى ، والا فلن أكون المسئول عن اطراح المسألة برمتها »

فى تلك الاثناء يتغلب اصدقاؤه على الملك المتردد ، ويصبح بسمارك فى السادسة والثلاثين من عمره ، وهو الذى لم يخدم الحكومة قط ، يصبح وزيرا مفوضا خلافا لكل مألوف ، لانه وهو نائب كان من فرسان الملك ، ولانه صديق كبار فرسان الملك

حساب بالألوف

وأول مايفعله أن يدبر شئونه ، يدبرها بشخصه ، لان زوجه غير مجربة فى هذه الشئون ، وهى فوق ذلك غائبة ، والراحة والملك يسرانه الآن كما سراه فى صباه ، ويسرانه فى الشيخوخة . فهو يبدأ بمرتب قدره احد وعشرون الف ريال فى التوسع فى قصد ، وهو الذى لم يتح له قط التصرف فى مبالغ بهذا القدر . فهو يكتب الى أخيه يقول : « من كان يظن قبل عام بل قبل نصف عام ان اسكن دارا ايجارها ٥٠٠٠ جولدن ، وان اتخذ طاهيا فرنسيا لاقيم المآدب فى عيد ميلاد الملك .. لقد أنفقت الى الآن مبلغا يتراوح بين عشرة واثنى عشر ألف ريال على المنزل ، ولم أنته من تدبيره بعد . ومعظم الجهاز مؤلف من الفضيات والبرونز والزجاج والصينى ، اما السجاجيد والاثاث فلا تتكلف كثيرا . واذا كان أحد لايتناول هنا صنفين من الطعام بشـوكة واحده ، فالمأدبة التى يحضرها ثلاثون شخصا تحتاج الى مائة تحضير على الاقل ، هذا الى المرقص المنتظر الذى سيحضره ٣٠٠ .. وهذا الغش الذى أخبره من العمال والتجار جميعا هنا ، وهذه النفقات الباهظة فيما لايجدى .. هذا الى اثنى عشر خادما نصفهم من الذكور ونصفهم من الاناث ! انى لاوثر أن أحفظ النظام بين ثلاثين من أجراء الريف »

مزارع

لعله لم يبدأ أحد من جماعة المجاهدين سيرة بمثل هذه البساطة الطبيعية فانك حين تسمعه بعد أسفاره الكثيرة وتردده على البلاط ، يبحث فى عدد الشوك اللازمة للمأدبة أو يروى أن حوذيه الهرم يبدو فى لباس الخدم كأحد الكونتات ، تبرز من هذه التعليقات التى يوافى بها أخاه حالهم التى كانوا عليها فى الاصل ، ويبدو الرجل الماجد العظيم الذى اعتادت فتيات بوميرانيا الخليفه أن ينعتنه به ، يبدو رجلا من أوساط المزارعين يراد أن يكون ممثلا للدولة مابين طرفة عين وانتباهتها . هذه الملامح التى تقرب أن تكون قروية ، وهذا الاقتصاد الذى انقلب اليه بعد تبذيره السابق ، والرغبة فى تنمية ثروة موروثة وتخليص المزارع من الديون ، واقتناء غيرها ، وتزويد الاحفاد بالغابات والقرى كل هذا لم يدع بسمارك الى آخر حياته ، بل انه أحيانا ماهاجه وأثاره ، ثم

قوى عزيمته فى جملته ، اذ جعله فى ادارة الدولة يفكر تفكيره فى ادارة المنزل ويبدو بعد رب البيت رب الوطن

غطرسة الطبقة

كذلك تميز هذا النبيل الذى ألفى نفسه فجأة فى المجتمع الاول والارقى — تميزه غطرسة الطبقة التى هو منها ، ذلك أن غطرسته تفوق غطرسة الكونت تون الذى يجيز له شعوره بسمو طبقته أن يدعو تجار فرانكفورت الاثرياء الى مآدبه . ويروى بسمارك لرئيسه : « كان لى مسرة الرقص الرباعى مع نساء معظم متعهدى بيتى ، ونسيان المرارة التى كانت تنضح بها نفسى من أسعار أزواجهن الباهظة وبضاعتهم الرديئة ، بما أبدينه نحوى من رقة . كانت تواجهنى فى الرقص زوجة السيد الذى يتفضل بتزويدى بالسيجار . أما زوج جارتى فقد قاس لامرأتى اول من امس مايلزم لستائرى من قماش » . لهجة الرجل الذى يمكن أن يصبح أيضا فى السياسة الداخلية اول مايصبح منافحا عن طبقته ومحاربا ماعداها من الطبقات

ولايفهمه فى هذا الصدد سوى أخيه الذى يكاد الا يفهمه فى غير ذلك فهو — « نسخة من بسمارك فى صورة المزارع الميركى البسيط » — ومع أنهما يستقلان بادارة املاكهما منذ طلب بسمارك ذلك ، ومع أنه يعييك أن تهتدى الى تكليف ذى بال من الديبلوماسي لاخيه بأن يكون وكيله فى الريف ، فان هذا الاخ يظل عشرات السنين يوافى أخاه بأخبار الركن المالى . ويشكو بسمارك الذى هو الآن عضو فى حكومته فى الحقيقة ، يشكو مما يطلبه مستأجر شينهوزن من اعانات ومنشئات على ضفاف النهر ويقول : «اننى منذ تلقيت متأخرات ايجار ضيعة شينهوزن وأنا أضع الخطط لتسديد الديون حتى بت من البخلاء ، شأنى فى ذلك شأن سائر الرأسماليين »

الادخار

ويذهب يوما معزوجه لزيارة دوق ، ويوما تلبية لدعوة غراندوق ، فيحسب «أن مثل هذه الرحلات بما يصحبها من أشياء وخدم ، وما تستلزمه من راشن ومركبات ، تكلفنى تقريبا أكثر مما تكلفنى اياه وليمة متواضعة » . ثم يحصى الولائم التى يضطره مركزه اليها ويقول : « ان بقائى بعدها بمأمن من الضيق يتطلب من الانتباه اكثر مما كنت أبذله قبلا فى ارتباكاتى المالية . اننا نعيش الآن فى اقتصاد كبير لنصلح مجاوزات الشتاء . وسوف استرد التوازن فى أول يوليه » . وحين تفرض عليه ألف ريال كانت الدولة تقوم عنه من قبل بنفقتها ، يصبح من سخطه «شديد التحفظ من الناحية الاجتماعية» وولائمه لم يرد ذكرها اول الامر فحسب فى رسائله الكثيرة ، بل انها ظلت بعد ست سنوات تذكر ، «فمخلفاتها توقعنى كل مرة فى ارتباك : فاذا استهلكتها وحدى اتلفت معدتى ، واذا دعوت اليها الشرهين من صغار وكبار أسرفت معهم فى الشراب »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

روتين

وتبدو له الحياة الحكومية الجديدة فيما خلا ذلك حياة رتيبة على وتيرة واحدة . فهو يكتب الى حماته يقول : « اننى منذ أتناول الشاى فى الصباح الى الساعة الثانية عشرة ، مشغول بزيارات الوزراء المفوضين وبما هو أكثر من ذلك وهو محاضرات الموظفين .. وبعد ذلك جلسات تنتهى بين الواحدة والرابعة بغير انتظام ، وتدع لى وقتا الى قرابة الخامسة للركوب وكتابة رسائلى بيدى .. ثم نتناول الطعام فى الغالب مع أحد الملحقين أوكليهما . وخير مافى النهار هو الساعة التى أقضيها للهضم فى راحة ، وان كنت كثيرا مااستدعى واللقمة فى فمى . فى مثل هذه الساعة المريحه استلقى فوق المقعد الكبير أدخن ومن حولى يوحنا والاولاد ، واتصفح نحوا من عشرين صحيفة . وفى التاسعة أو منتصف العاشرة ابلغ فى العادة أن المركبة حاضرة ، فنهرع الى اللبس ساخطين متغيظين من غرابة « المسرات » الاجتماعية فى العالم الاوربى . وتجلس يوحنا تثرثر مع الامهات بينما أرقص أنا مع البنات ، أو أعالج سخفا جديدا مع الاباء وفى منتصف الليل او بعده نعود الى البيت فاقرا فى الفراش مايقرا ، ثم انام الى ان تسألنى يوحنا للمرة الثالثة هلا اريد النهوض ابدا »

التدبير المنزلى

وكل شىء فى البيت مريح عديم الشكل يختلط بعضه ببعض قليلا . والراحة مفضلة فيه على الادب اللائق . واليك مايكتبه الامريكى موتلى الذى يزور صديق الصبا هنا : « بيت من تلك البيوت التى يفعل فيها كل فرد مايحلو له .. وتقع الغرف الخاصة فيه الى الخلف ، وتطل على حديقة . هنا كل شىء مختلط : الصغير والكبير والاجداد والاطفال والكلاب . هنا يؤكل ويشرب ويدخن ويعزف على البيان ، وتطلق المسدسات فى الحديقة ، كل ذلك فى وقت واحد . هنا منزل يقدم اليك فيه كل شىء من مأكل ومشرب : من نبيذ البورتو وماء الصودا والجعة الخفيفة والشمبانيا ونبيذ بورغونيا أو كلاريت الحاضر كله دائما ، ومن أجود أنواع الهافانا التى تدخن فى كل وقت » . واذا استطاع رب البيت أن يظل طويلا واحيانا الى الظهر فى « روب » النوم المزركش فمعنى ذلك أنه منشرح الصدر . فاذا خرج وجب أن يكون مظهره على أكمل وجه ، « انى لاوثر خمسة قمصان رقيقة على عشرة منشاه . وشراء قميص بريالين شىء مستحيل »

اللحية

ان هذا الاسلوب من الحياة الخارجية يصغر سنه من ناحية ما كما تظهره الصورة الزيتية التى صنعها له صديقه بيكر . وقد زال عنه بزوال لحيته شىء من المهابة كان يتسم به مظهره قبل توليه المفوضية وبعدها . وقد كانت ازالة لحيته القديمة تضحية حقيقية من الديبلوماسى ، فبينما يؤكد لزوجته

أنه حلقها فى برلين اجابة لطلبها يحلقها عملا باشارة نسلروده ، لانه سيقدم الآن الى القيصر فى برلين ، والقيصر قد لايرضى عن اللحى . وحياة الجلوس جديدة عليه يستثقلها غالبا ، فهو يشكو من « الولائم والحفلات التى تتعاقب دائما والتى تمل وتضيع الوقت وتتلف الكبد بمجموعة المآكل اللذيذة التى يدخلها المرء فى بيته قتلا للوقت ، هذا فضلا عن احتمالات السكتة القلبية التى يجرها كثيرا البقاء أياما بلا حركة » . فاذا نصح له الطبيب بأن ينهض من نومه فى الخامسة ويتدثر فى فوط مبللة آثر على ذلك موتا أكثر تمشيا مع الطبيعة اذا كان لابد من الموت »

الخيل والنساء

وليس سوى الركوب والصيد مايحفظ توازنه ، ولذا يحنقه أن تحول أعماله بينه وبين دعوة الى الصيد ، « ذلك أن الصيد هو خير تسلية ، وحين أكون فى قلب الغابة حيث لايدركنى أحد ولاتبلغنى برقية ، يكون هذا أروح لنفسى . انى كثيرا ما أحن الى حياة الريف .. ان المرء ليهرم ، انى أبغى الراحة » . ومن ثم يسأل أخاه جوادا للركوب « يناسب وزنى ويبهج عينى ، ولا يضيرنى أن يكون حرونا ، فانى على العكس بحاجة الى اجهاد جسمى » كذلك فى هذا الطلب للجواد يبدو ماطرأ عليه من تغير فى عشر سنوات : اذ ذاك لم يكن يكفيه كل ما وجد فى الخيل والنساء من حرن ، أما اليوم فلا يريد أن يروض أحدا بل حسبه أن يهمزه . لكنه حين يستطيع فى الدانيماركه أن يقضى الليل على ظهر السفينة أثناء العاصفة ، او يسمع فى المجر تبادل اصدقائه الاعيرة النارية مع اللصوص فى الغابة ، هنا فى الخارج تندلع حميته احيانا ويشكو من أن « شيئا من هذا لا نحياه فى نواحينا المملة »

نشاط

ذلك انه فى الحقيقة يدركه الكبر فى مهنته الجديدة سريعا ، فقد قلت حيوية بسمارك فى العموم من سن السابعة والثلاثين الى الثامنة والاربعين أثناء ان كان يشغل منصب الوزير المفوض . وليس معنى هذا انه يغدو اطلب للراحة مما كان ، او يصبح متعادلا ، كلا . بل انه يصير أشد اضطرابا من الناحية العصبية . فهو يرى الوقت يمر ، وبينما يلبث عشر سنوات لايرضى عن شىء مما يقع فى بروسيا ، يعجز مع ذلك عن تغيير شىء ، وينهك همته فى سلسلة من التقارير والرسائل لاتنتهى حقا . فهو يكتب بعد سنتين يقول : « لم أكن اعتقد اني اعتاد العمل المنظم كما افعل هنا .. فانى لاعجب كل يوم بمبلغ توفيقى فى التغلب على كراهيتى للمداد وعلى كسلى ، وهما من طبعى »

ولو فكر فيه المرء كيف كان ، وسمعه يتهم نفسه بنزق الطلاب لانه لبث أربعة عشر يوما فى سفره لايقرأ صحيفة ، لادرك مبلغ ما أصبح اليفا . فبعد ثلاث سنوات فى فرانكفورت بات يشكو « كلما ألمت بالاعمال فترة من السكون »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظل المغامر

ولاشك أنه يعنى اعمال السياسة العليا وحدها ، ولايعنى أبدا ذلك العمل الجارى الذى يجب أن يحيله على موظفيه ، وهو يحرر الرسائل الى أسرته أثناء محاضرات مملة فى جلسة البندستاج . لكنه حين ينبغى مرة أن يأمر البوليس باعتقال شاب متورط فى مسألة سياسية يذهب بنفسه فى الصباح الباكر الى منزل الشاب ، ويصعد اليه درج ثلاث طبقات ، ويقول له : «سافر الى الخارج بأسرع ما يمكن ! » فيرتبك الشاب فيقول له : « أراك لاتعرفنى ، ولعله ينقصك الى ذلك نفقات السفر . فخذ هذا المال واسرع فى اجتياز الحدود حتى لايقولوا ان البوليس يعمل خيرا من الديبلوماسيين » . وكذلك يطلق فى سان بطرسبورغ سراح مجرم فار اكتشف أمره فى المفوضية ، فيلبسه ملابس غير ملابسه ، ويدفعه من الباب الخلفى ، ثم ينهر البوليس بعد ذلك ويرميه بأنه ترك المجرم يفلت . هذه مخالفات نادرة يطل منها ما كان فى صباه من نزوع الى المغامرات

كيف يعمل

وحين يملى يأخذ رأسه فى عمل مزدوج . فيغدو عندئذ ويروح — كما يصفه أحد ملحقيه — فى روب النوم الأخضر ، ويلوح يفكر فى جمل تتفجر عاليا وتدل على نفاد صبره فهى تترسل تارة ، وتعرج تارة على الهوامش بالتعليقات والحواشى . يفعل ذلك كلما راقه ، وكلما ضبط سكرتيرا يملى عليه بين منتصف الليل والصباح . وهو مستقيم أولا كرئيس ، عطوف على سكرتيريه ، لايطيقهم حين « يبالغون فى الاحترام فلا تستطيع أن نعمل معا فى ارتياح » لكنه يدعوهم الى الصيد والشراب . وهو فى العمل يهاب ويعمل له الف حساب ، فاذا كلف أحدا بانجاز شىء لم يرض قط عن النتيجة ، فاذا كتب اثنان من مرءوسيه تقريرا بنفس العبارة عاملهما كما يعامل المدرس التلاميذ الاشقياء وهو يرقب الاعيبهم . وحين لم ينفذ مأمور ما أمره به قال له : « سيسبب لك هذا ضيقا أى ضيق ، فما من شك فى أنك تشاطرنى فى الرأى فى أن ما يأخذه الرجل المهذب على عاتقه فكأنه فعله » . وهذه الملاحظات وأمثالها يلقيها فى هدوء وبرود يتجمد منه من تلقى عليه . ويكلف احدهم بالكشف عن حفار مشهور فى التاريخ فلما لايوفق يقول له فى أدب لاذع : « لعله فاتك البحث فى صفحة كذا من « تاريخ العالم » لبيكر ! »

الفصل الثانى

كراهية النمسا

كانت النمسا ألد خصومه . فلم يكن يحتاج فى كراهيتها واستهدافها لحربه الا أن يشعر أولا فرانكفورت بغطرسة هابسبورغ ، فقد وصل الى فرانكفورت ثائر الاعصاب يطوى الضلوع على ضغينة تفوق ماهو مطبوع فيه درجات . فقد كان يستريب بكل دولة تريد أن تحرم بروسيا مكانها كما كان يشتبه فى خلال الأعوام الاثنى عشر التى انتظرها بكل من رؤسائه الأربعة ، ويستريب بهم الواحد تلو الآخر ، لانهم كانوا جميعا يحرمونه من المكان الذى عده مكانه . وقد كانت المانيا بأسرها غريبة فى نظره بوجه عام ، والنمسا قبل الجميع . وقد آذاه المنظر فى أولمتس أكثر مما آذته المعاهده ، فاذا كان اذ ذاك قد دافع عنها ، فان دفاعه عنها لم يكن لتجنب الحرب وانما كان لارجائها ، وهومادخلت فيه يومئذ أسباب شخصية كذلك ، تتصل بمطامعه وطموحه

الكونت تون

فمنذ البداية يبدو تهيج ذلك الذى زحزح عن مكانه على أشده . فلم يكن اعتداده بنفسه بوصفه بسمارك او ابنا من أبناء بروسيا ليطيق جلوسه الى مائدة يرأسها غيره ، ويجالسه عليها اثنا عشر وزيرا سواه . فأما الذى يرأس المائدة فالفريسة التى يطلبها ذلك الصياد المطبوع ويبغى اثارتها . كان هذا الرئيس هو الكونت تون شبيه شفارتسنبرج فى غطرسته ومكره كل الشبه . واذا كان يرأس المجلس « فى سترة قصيرة من القماش الصيفى الرائق تخفى بتزريرها انه لا يرتدى صدريه ، ولا تدل كثيرا على رباط رقبته ، ويلقى محاضرته بأسلوب المتحدث » . فان هذا الوصف الاول من واصفه وهو بسمارك ، ليدل على الاحتقار البالغ من هذا المستمع الجديد . وعبثا يزعم أنه كان يراقب هذه الصورة النادرة فى هدوء البحاثة . « ويقامر تون فى المنتدى الى الساعة الرابعة صباحا ، ويرقص من العاشرة الى الخامسة رقصا متواصلا فى شغف ظاهر . ويستمتع خلال ذلك بالكثير من الشمبانيا الباردة ، ويغازل الغانيات من زوجات التجار فى ظرف يعتقد من يلحظه ، أنه يجد فيه مسرته كما يبغى به التأثير فى نظارته . . انه مزيج من استهتار الارستقراطيين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومكر القرويين السلافيين . والخداع المنطوى على الحذر هو أظهر مايميز خلقه » . ومساعده بارون « يكون احيانا شاعرا . وهو رجل عاطفى ، سريع التأثر فى المسرح ، فى مظهره طيبة ورقة ، ويشرب من الخمر أكثر مما يتحمل »

رائحة المجلس

ويكون لهذه التهكمات وقع الصاعقة ، لكنها لاتكشف عن العبارات والنظرات التى كانت أول ماسبب هذه الرداءة . فانه فى الزيارة الاولى التى أداها بسمارك للكونت تون وهو مايزال مستشار مفوضية ، فى هذه الزيارة التى صحبه فيها برلينى من موظفى الدولة ، كاد النمسوى الذى كان يعلم ماينتظر من تعيين بسمارك وزيرا مفوضا ، الا يبادله كلمة أثناء الحديث ، حتى قال بسمارك لزميله عند الانصراف « بصوت يرتعش من الغضب » « أرأيت كيف عاملنى تون ؟! » بهذا انتهى بينهما كل شيء شخصي . ومن عجب أن يسمح له بسمارك بعد هذا ان يستقبله ، وهو وزير مفوض ، فى قميصه ، حاسرا كميه (من الحر فيما يظن) وجالسا يدخن ، وأن يشعل بسمارك سيجاره فى الزيارة الثانية فى حضرة تون وعلى مشهد من زميله المندهش . وبسمارك انما رمى بهذا الى ألا يجيء الغد حتى يكون خبر ذلك قد شاع بين الناس أجمعين

وفى جلسات البندستاج يكتب رسائل خاصة يقول فيها : « ان مركزى يتحرج بعض الشيء بنيران الانفاس التى تتبادل عبرى وأنا جالس بين جارى (فلان وعلان) . فأما رائحة الاول فما زلت تذكرينها فهى مزيج قوى مما يتصاعد من أسنان نخرة لم تنظف ، ومن بعض الضلوع حين يفتح سترته . وأما الثانى فيزودنى بتعبير صادق عن المعدة التالفة من كثرة المأكل ، وبالنتيجة المحتومة المترتبة على مجموعة الولائم العديدة المرهقة للجسم القليل الحركة . وهذه هى الرائحة الطبيعية التى تتصاعد من رجال السلك السياسى وكبار الامناء »

ضد النمسا

وليس بسمارك مسئولا وحده عن أن كل المشاكل هنا فى فرانكفورت تشوبها الشخصيات ، فان هذا هو جو البندستاج حيث المفروض أن الجميع سواسيه وان النمسا ليست سوى الرأس بين الاعضاء . هكذا تاريخ العصر الاخير ، والا فكيف يراد الا يذل ممثل النمسا ممثل بروسيا على رؤوس الاشهاد ، وعلى هذه المائدة التى نهضت عنها بروسيا قبل ثلاث سنوات وهى مصممة على أن تقيم مائدة غيرها لاتجلس اليها النمسا ـ فاذا هى تعود اليها نادمه ! الآن تستطيع النمسا أن تعتمد على معظم الدول وتبعيتها لها ، بينما لاتجمع بروسيا حولها ، كما دلها الاستفتاء ، سوى أربع دول صغرى من شمال ألمانيا . ذلك أن الجميع كانوا يسيئون ببروسيا الظن ، اذ كانوا يعتقدون أنها تريد أن تفرض عليهم نير « اتحادها » وتنفذ فكرة الثورة فى ألمانيا التى أخفقت

فى طيها تحت جناحها ، بينما أفلحت النمسا القوية فى ضم جميع الحكام الشرعيين اى كافة الامراء تقريبا تحت لوائها

وهكذا لم يجد بسمارك فى فرانكفورت مايفاجئه ، بل وجد مايؤيد آراءه ويحقق ظنونه . حتى فى شيخوخته تراه يسمى صداقة البلدين « حلم شباب خلقته عواقب حروب التحرير والمدرسة » . وقد جاء الى البندستاج خصما يضمر الخصومه ، لكنه حين يتبين مبلغ خصومة النمسا لبروسيا يذهل : فهنا يعلم أول مايعلم برقية الامير شفارتسنبرج عن أولمتس اذ كان بيده وحده : أن يذل بروسيا أو يعفو عنها عفو الكرام . وفى نفس الايام التى كتب فيها شفارتسنبرج هذا التقرير كان بسمارك يدافع عن معاهدة أولمتس فى المجلس : فماذا يصيب كبرياءه وهو يقرأ هذه العبارات الآن ؟

ولا يكاد يقضى هناك ستة أسابيع حتى ينتهى الى « أن النمسويين لاعبون غشاشون ، وسيظلون كذلك . ولست أظن أنهم يصـــلون معنا الى حلف مخلص بمطامعهم التى لاحد لها ، وسياستهم الداخلية والخارجية التى يعوزها كل معنى من معانى الحق »

ضربته

ويغتنم الفرصة الاولى فى نوفمبر ليضرب بدوره ضربته : « لقد تكلم الكونت تون كما تكلم بوذا ، وعرض أحلاما تدور حول ألمانيا العظمى ، وانى لاكمل مجرى أفكاره فأقول ان معنى هذه الامانى أن يكون وجود بروسيا وقيام الاصلاح أيضا من الحقائق الداعية للاسف ، ولا يوجد فى أوربا — على قوله — بروسيا تخلت عن تراث فريدريك الاكبر .. وقبل أن أنصح باتباع سياسة كهذه فى بلادنا افضل ان احتكم اولا الى السيف »

هذه قطعة من محاورات هاتين الحليفتين الرقيقتين يسقط فيها اثناعشر كالوسا ، ويعجب المرء معها كل العجب كيف تأخرت حرب بسمارك بعد ذلك خمسة عشر عاما

وقد كان من شأن هذه الحدة التى لم يدخر وسع فى نقلها الى فينا أن تزيد الغيرة بين النمسا وبروسيا . كذلك فى برلين لن يجنح اولو الامر الى المسالمة حين يقرأ جيرلاخ للملك من رسائل بسمارك قوله ان المصائب كلها آتية من الاخلاص والتفانى نحو النمسا ، « ذلك أن من يقاسمنى الفراش اقدر على جلدى، وسمى، وخنقى من الغريب .. وخاصة اذا كان شريكى فى فراشى أردأ منى وأجبن » . وهكذا لاينفع استدعاء الكونت تون والاستعاضة عنه بوزير النمسا المفوض فى برلين فى ذلك الحين

بروكش

والكونت بروكش — استن أشد اثارة للاهتمام من تون ، خبير بالشرق،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عالى الثقافة ، أوربى أكثر منه ، يحنق زميله البروسى بأساليب أخرى : يزوره أكثر مما ينبغى ، ويطيل البقاء عنده أكثر مما ينبغى ، ويرفع الكلفة أكثر مما ينبغى حين يلاعب أطفاله فى بيته ، ويتحدث اليه فى البندستاج أطول مما ينبغى ، « وفيما خلا ذلك فان موقفى معه أجلى مما كان موقفى مع تون لأن تون طالما جابهنى بالحقيقـــة ، وبروكش لا يفعـل هذا أبدا » وان كان يستطيع مع ذلك أن يستشف من وجهه حقيقة تعليماته . وانه لمن سوء الحظ أن يترك بروكش فى مكتب باعه بعض أوراق ضد بروسيا ، مشروعات مقالات ثورية للنشر فى الصحف البروسية كانت قبل ذلك تعزى الى الديمقراطيين ، فكان أن نصح بسمارك بمقابلة ذلك بما هو أمكر : ينبغى ألا يحرج مركز الوزير المفوض هنا بالشكوى منه الى فينا ، وخير من ذلك « أن نجعله نفسه يشعر بزعزعة مركزه ، والا نحيط حليفتنا سرا بهذا الامر الا بقدر مايبدى حلمنا فى ضوء موات لنا » . فتنشر قطع من هذه المقالات ويصطنع ان الحكومة قد أرابها أول ماارابها وجود هذه القطع والنتف فى حيازة بعض الافراد

الملائكة والشارة البروسية

بهذا المكر يعمد بسمارك الى العمل ضد خصـــومه الذين يحلو لهم أن يتهمهم بعدم الاخلاص . بيد أن بروكش رجل خبير بالنـــاس ، وسيخلص قريبا من سخرية بسمارك منه ــ بسمارك الذى صـــوره بروكش فأجاد تصويره : « لقد أعلن السيد فون بسمارك أن بروسيا هى قلب العالم .. وعلى يده يجرى المسعى الى تحطيم الاتحاد . ولو نزل ملك من الســماء ما سمح له بالهبوط على الارض الا وهو يحمل شارة بروسية .. واذا كان رائق الذهن كمكيافيللى فهو أمهر من أن يتورع عن أية وسـيلة وأملس . ولا بد من أن تسلم له بأنه بعيد من الأخذ بأنصاف الحلول فى أى شىء .. ومن ثم عمل على شل الاتحاد دون أن يكل .. وعرف بالسخاء على الصحف ، أن يحمل النمسا تبعة ذلك .. وقد بلغ من استحواذ رسالة بروسيا عليه وايمانه بها ، انه بحث معى مرارا فى استحالة التخلى عن وحدة ألمانيا بعزامة بروسيا . ولست أعرف رجلا يعدله فى قوة ايمانه بما يقتنع به ، وفى وعيه لما يريد وما ينبغى »

هذا الحكم الذى يؤكده الجيل التالى كان خليقا أن يسلم به بسـمارك نفسه . فهو يشهر مسدسه لأية اهانة طفيفة تمس موقفـــه البروسى . فحين يعنف الكونت ريشبرج بعد الجلسة ويصيح حانقا انه حقيق أن يطلب الترضية فى غابة بوكنهايم يجيبه بسمارك فى هدوء : « ولم الخـروج الى الغابة ؟ ان هنا فى الحديقة مكانا كافيا وقبالتنا يسكن ضباط بروسيون ، والضباط النمسويون على مقربة منا أيضا . وكل ما أرجوه هو أن تأذن لى فى تدوين سبب النازع ، اذ لا أحب أن أبدو فى نظر ملكى رجلا مشاكسا يزاول الديبلوماسية بحد السيف » . ويأخذ فى الكتـابة ، ويرى الآخر ما ارتكب من حماقة فيذهب الى بسمارك ، ويعتذر ، ويسوى النزاع »

فرنسوا جوزيف

وقد سافر الى فينا فكان هذا السفر سببا لتقوية خصومته للنمسويين وتقوية النمسويين فى خصومتهم ، اذ أرادت النمسا ، وتجديد الاتحاد الجمركى الالمانى على وشك أن يتم ــ وهو الثمرة المبشرة بتأسيس الامبراطورية الالمانية ، والعروة الوثقى بين بروسيا وسائر الدول الالمانية ـ أرادت النمسا والأمر ما ذكر ، أن تقضى على نتائجه السياسية بالانضمام اليه هى وكل الدول المنضوية تحت لوائها ، وتزعمه بذلك سياسيا ، والسيطرة كذلك على شئونه الجمركية . لكن بسمارك الذى يعرض بدلا من ذلك أن تعقد معاهدة تجارية ، لا يتزحزح خطوة واحدة ، ويعود الى بلاده من دون أن ينجز شيئا ، ثم يحرز توفيقه الاول العظيم بمد أجل الاتحاد الجمركى من دون النمسا ، وعلى الرغم من الدسائس التى لا تحصى . والوحيد الذى يروق بسمارك فى فينا وأوفن ، ويروقه بسمارك ، هو الامبراطور البالغ من العمر الثانية والعشرين . فعندما يتلو عليه كتاب ملكه وقد كتبه بخط يده ، لا بد أنه لم يعجبه فيه شيء كتلك الجملة التى يقول فيها الملك أن أسرة الامبراطور أعرق فى اقليم المارك من أسرة هوهنتسلرن . وقد مجد بسمارك فى فرانسو جوزيف يومئذ « الحمية ، والهيبة ، ورجاحة العقل ، والنظرة الطيبة ، وخلوص النية ، والصراحة ، وخاصة حين يضحك »

مانتويفل

وقد كان لبسمارك بوصفه أثيرا عند الملك موقف خاص حيال رئيسه منذ البداية وفى خلال كل هذه السنين ، وكان رئيسه يكرهه بطبيعة الحال . وقد أمضى رئيس الوزراء تعيين بسمارك لانه جاء من عصبة جيرلاخ الذى يصادقه على دغل . ورئيس الوزراء مانتويفل قصير القامة . بارد ، مخادع ، طموح ، مذبذب ، يصطنع الميل الى الاحرار : حكم فى السنوات الثمانى التى كان فيها بسمارك مرءوسه فى فرانكفورت ، وكان لهذا تأثير فى تصريف الأمور أعظم من تأثيره حقا ، يزعجه فى الواقع على الدوام . واذ أحس الرئيس أن وزيره المفوض سيكون خلفه ، واستشعر تفوقه ونفاد صبره ، لم يجرؤ على تمثيل دور الرئيس ، بل كان يبلغ منه أحيانا عند الملك فى أمور تافهة وفى عناد عجيب : كأن تبرق فرانكفورت بوجوب مصادرة حقائب قنصل مشبوه بعينه ، فيثير مانتويفل بدعوة هذا القنصل الى تناول الطعام على المائدة الملكية مشكلة وزارية ، أو يرفض ترتيب معاش لشيخ من مكتب المفوضية فى فرانكفورت عاجز عن العمل ، لأن الوزير المفوض يوصى بذلك . وحين يستدعى جيرلاخ بسمارك الى برلين ، يكتب اليه مانتويفل مغيظا انه لا يجوز له البقاء فيها طويلا ، فيرد بسمارك على ذلك بقوله « انى هذا العام أكسل كثيرا منى فى العام الماضى ، لان نشاطى لا يجد فى برلين صدى ولا نتيجة » . والعلاقات بين بسمارك والرئيس تتسم فى ظاهرها بالادب ، والمراسلات لا تنقطع ــ بل ان مانتويفل قد تطوع اشبينا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لولد بسمارك ـ بيد أن الرئيس يتخذ جاسوسا مأجورا مشهورا بسرقة البرقيات ـ يتخذه عينا على الملك وجيرلاخ وبسمارك ليطلع على الحوافظ التى تضم رسائل هؤلاء فى الجيئة والذهاب . وحين يكلف الملك مانتويفل بعد سنوات بسؤال وزيره المفوض ان كان يحب أن يكون وزيرا للمالية ، يبلغ الرئيس الملك من تلقاء نفسه : « لقد ضحك بسمارك منى بكل بساطة ! »

جيرلاخ

ومركز هذه الدسائس ورئيس الحكومة الخفى هوليوبولد فون جالاخ كبير ياوران الملك وصديقه الذى أنفذ تعيين بسمارك ليقوى حزبه حيال مانتويفل . وفيما خلا بسمارك الذى أراد جيرلاخ أن ينشئه على هواه ، كان هذا الأخير يحتقر كل من حوله ، وينعت مانتويفل بأنه وزير عديم المبدأ لا يؤتمن ، ويصف الملك بأنه « سيد غريب لايدرك كنهه ، حتى لا يقال أكثر من ذلك » . ومعنى ذلك أنه : مجنون . وجيرلاخ رجل مجرب ، متدين ، دساس ، يكبر بسمارك بخمس وعشرين سنة ، ويشعر ، وهو مكتشفه ، بأنه أبوه بالتبنى ، ويكاد لا يلحظ أن هذا الابن ، الذى يصغر جيرلاخ فى العمر وفى سنى الخدمة ، يفوق جيرلاخ والملك ومانتويفل جميعا فى الدسائس ، ويحرز فيه قصب السبق . ذلك أن بسمارك لم يظهر من الحيطة فى اختلاطه بأحد ما أظهر فى اختلاطه بهذا الصديق من أصدقاء ملكه ما لبث فى الحكم ، فلما تولى غليوم الوصاية وكان لا يطيق جيرلاخ وهنت علاقات بسمارك به

الصلاة والدسائس

لم يكتب بسمارك الى أحد ما كتب الى جيرلاخ من هذه الرسائل الكثيرة الهامة القيمة بوصفه شاهدا على أفكاره السياسية ، كما أن رسائله الى زوجه شاهد على مشاعره المنزلية . رسائل تشع بالخواطر ، والتهكمات، وسوء الطوية ، بينة صاخبة ، مبرقة مرعدة بخطط سعيه الى السلطان . هذه الرسائل التى شغل بعضها اثنتى عشرة صفحة من صفحات الكتاب ، كان أغلبها يتلى على الملك ، فيتيح لبسمارك وسيلة للتأثير المباشر الذى لعله كان أقوى من الاتصال الشخصى بالحديث ، ذلك أن يدا صناعا كانت تدبجه على مهل . كانت هذه الرسائل فى مبدأ الامر تشتمل « ياصاحب السعادة» و « صديقكم وخادمكم المطيع » فلم تلبث أن حوت « صديقى المحترم » و « المخلص لك » والبلدان فى هذه الرسائل يكنى لها بالقرى ، والاشخاص يستعار لها شخصيات شكسبير تفكها . وكثير منها مفعم بالمرح ، وجانب كامل منها زاخر بأقوال السوء وقصص البلاط الغريبة ، رغبة ظاهرة منه فى ارضاء متسلمها المباشر وغير المباشر . ومع هذا يحرص الاب المتبنى حرصا شديدا على ألا يتخطاه هذا الابن ، فيمنع الملك من أن يطلب زيارته فى سنة ١٨٥٤ ، ويعرقل حتى ما يطلب من الاستزادة من نفوذه على موقف

حزبهما المحافظ . وفيما عدا ذلك يتنكر جيرلاخ بقناع رجال الدين على أمتع وجه : فاذا أراد بسمارك « أن يلجأ فى مصلحة العمل الى الشر مضمرا خلاف ما يبدى » شعر جيرلاخ بأن عليه « أن يذكره بقول الرسول النذير لأولئك الذين يفعلون السوء سعيا الى الخير ويضيف الى ذلك قوله : « ان هذه لعنة لا ريب فيها » . فاذا توترت العلاقات بينهما كان بسمارك هو الذى يذل كبرياءه ويتسامح كيلا يفقد هذا الوسيط الذى لا يعوض ، ثم يضم جيرلاخ ذلك المحارب القديم الى صدره فى نفس الوقت فيقول فى لهجة الورع التقى :

« انى أسعى .. كل يوم بالصلاة والخضوع لهداية المولى الذى أقامنى فى هذا المقام ، الى استرداد ما كان من تضامن معكم » أو يقول فى مرة أخرى « اننى لأبيتن بلا سند اطلاقا اذا انقطعت الصلة بينى وبينكم .. فلكى أخدم ملكى مرتاحا راضيا لا غنى لى عن الشعور بأنى أعمل معكم مخلصا واثقا ، أنتم الذى لم أكن فحسب زميلا لكم فى الجهاد .. والذى لن يستطيع خلاف على مبادىء العمل وغاياته المشتركة أن يفرق بينى وبينكم » . « وداعا شكوا فى أن النجوم نار الخ (أنظر هملت) لكن لا تشكوا فى حبى ! » « لاتدعوا نفسكم تستريب بى ! فانى مخلص للملك ولكم ، واخلاصى غنى عن البرهان » كم هزأ بسمارك فيما بعد ، وهو يتلقى أمثال هذه الرسائل ، من البواعث التى تحدوها !

أهواء الملك

لكنها كانت القنطرة الى السلطة ، ومن يطلب هذا الكثير من دون سعى اليه يحتاج الى كل الوسائل ليضمن ملكا يحكم حكما يكاد أن يكون مطلقا . وقد شغف هذا الملك ببسمارك عدة سنين ، فكان يزهيه أنه اكتشفه . « لقد وجد فى هذه البيضة التى وضعها نفسه وفقسها » ، وفى نفس الوقت وعلى مر الايام يجد الملك هذا السيد الشاب صالحا لتخويف وزرائه ، أو كما قال ، لحمل مانتويفل على الطاعة . فهو يخدع وزراءه فى جنونه المتزايد ، ويكلف عصبة جيرلاخ بكتابة البرقيات الهامة بدلا من تكليف مانتويفل ، ويرسل المشروع بعدئذ الى بسمارك فى فرانكفورت ، فيتصل هذا بالرئيس مانتويفل ، ويستدعى الرئيس سيدا من المهاجرين ، وينتظر عدة أيام الى أن يجد هذا السيد التعبير الفرنسى المناسب الذى يشغل الوسط الصحيح بين عبارات : غامض ، وغير واضح ، ومشكوك فيه ومريب » . وفى مرات أخرى يطلب الملك من بسمارك مذكرات يقابل بها ما تقدمه وزارة الخارجية من مثيلاتها ، ويشكو نفس بسمارك — لمكانته عند الملك — من نوبات أوتوقراطية ، ويذكر « تغيير الرأى دائما ، واضطراب الأعمال ، والسماح بتأثيرات غير المختصين من وراء الستار »

وكثيرا ما كان الملك أو جيرلاخ يستدعيه فى السنوات الاولى الى برلين فكان أن قطع ألفى ميل بين فرانكفورت وبرلين فى سنة واحدة فى الذهاب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والاياب ، ويكون ذلك غالبا حين لا يريد مانتويفل ما يريد الملك . فاذا لم يقدم فى الحال ، ويلب مثل هذا الاستدعاء على الفور ، لان عمله يعوقه عن ذلك ، لم يستقبله الملك ، وان لم يصرفه . « وقد كان هذا ضربا من ضروب التربية كذلك الذى يجرى فى المدارس ، حين يطرد تلميذ من الفصل ثم يعاد اليه . وقد كنت فى مثل هذه الحالة احتجز بصورة ما فى قصر شارلوتنبورغ، فيخفف عنى هذا الاعتقال افطار طيب أخدم فيه فى تأنق » . ولما يريد الملك أن يعينه وزيرا مفوضا فى فينا ويرد بسمارك بأنه يشعر كما لو كان يسلم الى خصمه بهذا التعيين ، وأنه يذهب أطاعة للامر يقول الملك : « انى لا آمر، بل أنت الذى تذهب طوعا ، وترجونى فى ذلك .. انه يجمل بك أن تشكرنى حين أتولى تمرينك ، فأنت تستحق هذه العناية »

الاثير

نفس اللهجة والمعاملة التى يعامل بها أثير يجب أن يتحمل حالات النفس كما يتحمل تقلبات الجو . ويستدعيه الملك مرة الى ريجن ليغير مذكرة كتبها مانتويفل ، ثم يرسلها ، ويمتدحه عليها ، ويستبقيه ، لكن بسمارك يبغى الذهاب الى زوجته المريضة منذ أيام فحين ينفذ مشيئته مع ذلك ويسافر يعاقبه الملك بأن يستوقف المذكرة بالبرق ، ويكلفه بالعودة وتعديلها .. هكذا كانت مملكة بروسيا تحكم فى ذلك الاوان

ولم يغل بسمارك قط فى تقدير هذا المسلك الذى كان بحاجة اليه ، بل كان يستخلص من « نظريته القاسية عن التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية » أنه بحاجة الى الاصدقاء . فكان مصيبا فى هذا الاستنتاج ، يعلم علم اليقين ان رضا الملوك الى زوال » فالآن كل شىء مشرق مضىء حين أقدم . البلاط متسامح معى ، والعظماء يتملقوننى ، والصغار يبتغون شيئا منى أو بوساطتى . وذلك مع احتفاظى فى يسر برأيى فى أن هذا المجد الزاهى من رعاية الملك لى يمكن أن يزول بعد غد فألقى فى احدى حفلات البلاط من الظهور الجافة بقدر ما ألقى الآن من الوجوه الضاحكة »

ذو الحظوة الدائلة

لذلك لم يفاجئه أن يتبين بعد ذلك بخمس سنوات وبنفس هذه العبارات ما كان من أمر جيرلاخ معه اذ يقول : « لقد تغير الحال . فأما وجد الملك أنى امرؤ ككل الناس لا أمتاز عن غيرى بشىء ، وأما سمع عنى سوءا قد يكون وقع .. وقصارى القول انه لم يعد كما كان يجب أن يرانى . فوصيفات صاحبة الجلالة يبتسمن لى بأبرد مما كن يفعلن من قبل ، والسادة يضغطن يدى بأفتر من ذى قبل » . بيد أنه يغير لهجته دفعة واحدة ويستطرد : « لكنى أجلك أنت يا صديقى المحترم عن هذه الصغائر التى أخبرها من

ناس البلاط ، فاذا كانت ثقتك بى قد تزعزعت فأرجو أن تبين لى سببا لذلك غير تحول حظوتى لدى البلاط »

وهكذا يفهم بسمارك كيف يستدر عطف رجل البلاط على ذى الحظوة الدائلة فى عبارات رقيقة ، وكيف ينتقل من لهجة الملاك الخفيفة الى استعطاف هذا الذهن الفلسفى فى هينة ورفق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثالث

كان القيصر نيقولا أقوى الرجال فى أوربا وأعزهم سلطانا . ظل الهدوء مرنقا على امبراطوريته ، فبقى استعباد الفلاحين خافيا ، ولما اندلعت نار الثورة فى المجر أمكن القيصر أن يمد الامبراطور فرانسوا جوزيف الشاب بفيلق كان له الفصل ، ومن ذلك الحين يحسبه تابعا من أتباعه . فالآن قد دقت الساعة وآن أوان الاستيلاء على القسطنطينية وتقسيم تركيا التى كان القيصر أول من نعتها اذ ذاك بالرجل المريض . لكن نابليون لم يرد التخلى عن مفاتيح القبر المقدس ، وكان يطلب الثأر لهزائم عمه عامى ١٨١٢ و ١٨١٤ ولنفسه أيضا من أن القيصر المتغطرس لم يخاطبه فى رسائله « بيا أخى : بل خاطبه « بيا ابن عمى » . مهازل كان يتعلق بها مصير أوربا آنئذ . وفى بداية عام ١٨٥٤ دنت الحرب بين الروسيا وحلف من الفرنسيين والانجليز والاتراك . فصممت النمسا التى كانت تنظر الى توسع الروسيا فى البلقان بعين القلق والخوف على الانضمام الى الحلف الغربى ، وكانت نفس المسألة تحت البحث فى بروسيا

حرب القرم

وكل من ينزع الى الحرية يريد أن يحارب مع الغرب ضد الروسيا . بل انه ليحوم حول الملك كثيرون ممن يريدون هذه الحرب ، وعلى رأسهم الامير غليوم . وقد وافق مانتويفل فعلا على الاشتراك فى توجيه البلاغ النهائى الحاسم الى سان بطرسبورغ ، ولم يتخلف سوى المحافظين القدماء وعلى رأسهم جيرلاخ ، اذ كان هؤلاء يعارضون الحرب ولا يريدون مهاجمة هذا الصرح من صروح الرجعية ، وهذا الزميل فى حرب سنة ١٨١٣ . ويستدعى جيرلاخ تلميذه الى برلين فى شهر مارس والازمة مستحكمة الحلقات . ويستدعيه غليوم فى الحال اليه . وهو لا يحب هذا الرجل ، لكنه يعرف تأثيره العظيم على أخيه المتردد ، وتقوم بينهما شخصيا علاقة ودية ، وكان أخيرا الى جانب مانتويفل اشبينا لابنه الثانى غليوم الذى سماه فيما بعد بل

ويبدأ غليوم الحديث بقوله : انك الآن حيال رأيين متعارضين يمثل أحدهما مانتويفل ويمثل الآخر الموالى للروسيا جيرلاخ ومينستر فى سان

بطرسبورغ . وقد جئت الى هنا غير متأثر بذلك ، استدعاك الملك لتكون الحكم الى حد ما . فرأيك سيغلب هذا الرأى أو ذاك فأناشدك أن تكون صريحا .. ان الروسيا تثير أوربا بأسرها عليها وستهزم فى النهاية . لقد أراد غليوم فى الواقع ، حرصا على صداقة القيصر ابن أخته ، أن يقف منه موقف المهدد ليحمله على التراجع أمام أوربا المتحدة وينقذه بذلك

لكن بسمارك يرد عليه بقوله : « انى لا أستطيع ذلك ، فليس من سبب يدعونا الى حرب ، أو من ثمن يستهوينا اليها . ولن تكون النتيجة الا المرارة تنضح بها نفس مقهور يرابط على حدودنا ، والا شهوة الانتقام توغر صدره . ولن نفعل بذلك سوى أن نقوم بالدور الذى يقوم به أمير هندى من أتباع انجلتره خوفا من فرنسا أو خدمة لانجلتره . والامير الهندى وحده هو المكلف بأن يخوض حروب الانجليز تحت لواء انجلتره راعيته »

ويصيح الامير وقد « احمر وجهه من الغضب » : ليس الأمر أمر اتباع أو خوف ! ويسمع بسمارك فى هذا القول صوت أغسطا التى يستخلص الباعث على عداوتها للروسيا من تناقضها فى كراهية أمها الروسية : وهذا مثيل نفسى هام للكراهية التى كان يكنها بسمارك نفسه لأمه . وفوق ذلك كانت أوغسطا فى نظره « تهتم بكل شىء أجنبى أكثر مما تهتم بما هو قريب منها تشهده كل يوم » . وفى كوبلنتس حيث يقيم ولى العهد ووليته يقوم بلاط يواجه بلاط سان سوسى ويناهضه

خلاف آخر مع غليوم

ولثانى مرة يتلاقى غليوم وبسمارك خصمين . فقبل أربع سنوات كان غليوم يريد الحرب ، وكان بسمارك يريد الذهاب الى أولمتس ، فكان تعيين خصمه وزيرا مفوضا يعادل فى رأيه الامعان فى الخضوع للنمسا . واليوم يخشى الامير أن تذل الروسيا بروسيا . أفلا يعد بسمارك جبانا ؟ وعلى كل فقد كتب الى ما نتويفل حانقا : « ان هذا الرجل يعالج أمور السياسة كما يعالجها طالب فى مدرسة »

ومع ذلك فهذا الرجل بالذات يزاول اليوم لاول مرة سياسة عليا . فبسمارك يصبح سائسا أوربيا فى حرب القرم . فهو يحسب أن ما تفعله بروسيا ينفع النمسا آخر الامر . ولذا لايريد « أن تجمع بين طرادنا الجميل المتين ومدرعة النمسا النخرة .. ان الازمات العظيمة هى التى تتيح لبروسيا جوا تنمو فيه ، حين نستغلها بلا خوف ، وربما أيضا من دون مبالاة .. وعلى كل حال فان قيمة مساعدتنا يرتفع سعرها بالتطور المطرد » : ينبغى أن تتخلى لنا فينا عن التفوق فى ألمانيا فى مقابل معونتنا ! وفى ذلك لا يدرى الملك المزعزع ماذا يفعل . يعقد اليوم الخناصر مع النمسا على الدفاع والهجوم ، ويستغنى غدا عن أصحاب هذه السياسة ، يرى أخاه ينصرف للمرة الثانية من حضرته حانقا ، ويعلم أن أهالى برلين يقولون : « فى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سان سوسى ينامون بالليل مع فرنسا وانجلتره ويصحون من النـوم فى أحضان الروسيا »

عند نابليون

ويزداد تحول بسمارك عن رأى البلاط فى العام التالى بصورة أجسم ، وكذلك عن الملك فى هذه المرة . فقد توجه غير مكلف الى زيارة باريس ، وعاد وفى نفسه أن الاتفاق مع نابليون أمر ميسور اذا واتت بروسيا الظروف . وقد أجفلت سان سوسى من هذه الخطوة يخطوها بسمارك ، وكتب جيرلاخ رسائل ورع حمل فيها على « خطب ود الشرير » ، وســخط الملك على بسمارك سخطا ظاهرا ! على أن بسمارك يزور باريس كرة أخـرى زيارة رسمية فتقوى هذه الزيارة ظهره وتدعم سياسته

تجرى له اربعة احاديث خاصة مع الامبراطور بين سنتى ١٨٥٧و١٨٦١ وكل منها اعجب من الآخر : يتكلم نابليون فى اثنين منها اكثر مما ينبغى ، ثم يتبعه بسمارك ، ثم تكون مقابلتهما الاخيرة فى سيدان . اما الآن فيشعر نابليون انه بات الحكم والفيصل بعد حرب القرم وصلحها المنعقد فى باريس . وفى الحق لقد كان مفوض بروسيا وهو ماثل امام عرشه رجلا يكاد ان يكون ضئيلا . ومع ذلك فان هذا الرجل يرى أن قد أحسن استقباله ، وأن الامبراطورة ذات السلطان قد اكرمت كذلك وفادته ، فهو اسير الاثنين . وهو يرى فى الامبراطور القدوة ، ويمتدح فيه الفهم والرقة ، بينا يجد الامبراطورة اوجينى اجمل مما تبديها الصور ، ظريفة لطيفة غاية الظرف واللطف . يصرح انه متحمس فى اعجابى بها ، وانها فى الحق سيدة نادرة المثال فى الظاهر والباطن على السواء . » (وتقول هى عنه « انه أبرع من الباريسيين فى الحديث ») كل هذا يكتبه نفس الرجل الذى يسخر من اصل حديث النعمة ويكرر سخره فى خصوصياته ورسمياته . نفس الرجل الذى لعن الثورة التى اخرجت هذا الامبراطور : بسمارك البروسى لحما ودما ، المخلص للملك ، نصير الشرعيين هو الذى يكتب هذا كله ، ويتغزل فى باريس وفى حديثى النعمة ! ومع ذلك فان هذا الشعب يظل اليوم وغدا بعيدا من قلبه بقدر ما كان الشعب الانجليزى فى المبدأ عزيزا عليه ، دانيا الى قلبه . حتى باريس التى تفتنه الآن لن تسلم قريبا من نقده . فلماذا لا ينقد الامبراطور اذن ؟ لان تكريمه اياه هذا التكريم الكثير قد الهبه وحمسه

الحديث الاول

ان بسمارك من ثلج . والنار التى ألهبته فى اللاندتاج لما حاولوا الثورة فى بلاده ، أو حاولوا تجربة الديمقراطية ، قد انطفأت من أمد . فهو ينظر الى لعب القوى رابط الجأش ، صافى الذهن ، متحللا من المبادىء جميعا . وهـــو يعلم ان نابليون يسعى سعيا حثيثا الى الارتباط بالروسيا المهزومة ، وان النمسا تخطب ود الامبراطور . فماذا يبقى اذن لبروسيا كى لا تقف فى

الوسط معزولة ، وكى لا تضغط بين هذه وتلك ؛ محالفة مع فرنسا . والامبراور يرحب به ، ويبين له كيف انه من الحمق أن يطالب بحد الرين ، وانه يريد التوسع فى حوض البحر الابيض المتوسط فحسب :

ـ انالفرنسى جندىبرى وليس بحارا ، فهو مزهو بهذه المنطقة. وبروسيا يجب أن تتسع وتضم هانوفر وشلزفيج وهولشتين ، ثم تصبح بعد ذلك دولة بحرية من الدول الثانية لتضيق مع قوة فرنسا البحرية على قوة انجلترا البحرية الخناق . لقاء ذلك احب ان اعتمد على تغاضى بروسيا اذا افضى الأمر من جراء ايطاليا الى الاشتباك مع النمسا . فجس نبض الملك فى هذا كله !

بسمارك : « انى مغتبط مرتين لان جلالتكم تفاتحوننى انا بالذات فى هذا . اولا لما فى ذلك من دليل على الثقة بى ، وثانيا لانى الديبلوماسي البروسى الوحيد الذى يتعهد بكتمان هذه المفاتحات عن بلده وعن ملكه كذلك . ذلك انه من غير المحتمل ان يوافق الملك على هذا الامر . وقد يكون فى احاديث الملك مصادر افشاء تكدر صفو الوفاق الطيب مع فرنسا »

نابليون : ـ لكن هذا ان حدث ليكونن أكثر من افشاء . انه يكون خيانة

فيقول بسمارك : « ستلطخون عندئذ » فيقبل نابليون هذه الكلمة ويشكر بسمارك صراحته ، ويسجل عليه وعده بالكتمان

حضور الذهن

هذه التجربة الاولى لبسمارك فى اوربا تظهره فى الذروة من فنه الشخصى : فبدلا من ان يرد كما يمكن ان يرد كل من عداه فيقول انه لا تعليمات عنده ، وأنه سيبلغ كل ما سمعه ، يشعر بأن له من حضور الذهن والشجاعة وعنده من القدرة على تحمل التبعة ما يجعله يحبط من تلقاء نفسه خطة هـذا الاجنبى الذى يريد التدخل فى المانيا : انه يطأ الشعلة بحذائه قبل ان يراها احد . وهذا مع انه عدو النمسا ، ومع انه يكاد ان يكون الوحيد بينمواطنيه، المصمم على النصح بعقد محالفة مع الامبراطور ! فهو يقول فى نفسه : انك تظهر فى صورة مريبة . وحقا ان المرء ليدهش من طلب كهذا ينطوى على التهالك من هذا الفرنسي الاريب . فهل فطن الى الصورة الجديدة التى يبدو بها هذا البروسى فأراد ان ينتزع الصراحة بصراحة مثلها ؟

غلطة لا شك فيها : ذلك أنبسمارك صريح حيثيريد التخويف أو الخديعة، ولا يكون صريحا ابدا حين يسر اليه الغير شيئا . انما اراد كما تدل صيغة جوابه ، ان يكسب هنا ثقة ولا شيء غير الثقة ، فكان فى ذلك موفقا . كذلك يكتم فى تقريره هذا المشهد كما وعد ، لكنه لا يكاد يعود حتى يرويه لجيرلاخ ، ومتى رواه لجيرلاخ فكأنه رواه للملك . لكنه بينما يصف نفسه للامبراطور بأنه البروسي الوحيد الذي يكتم طلبه ، اذا به الوحيد الذى ينصح للملك ، وهذا الطلب فى ذهنه ، بأن يدعو نابليون قبل كل شيء الى زيارة برلين ، فى حين أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صحيفة كرويتس تسايتونج ماضية فى سبه . فلاول مرة يقف بهـذا المعنى ذلك الواقعى العظيم أمام خياليى بوتسدام ، الرجل الذى لا يستهدى المبادىء امام انصار الحكم الشرعى . لاول مرة يرى طليقا من مبادىء حزب لم يقسم قط بأن يكون امينا عليها . فهو فى مراسلات مستفيضة مع جيرلاخ يتخلى عن أستاذه ويضحى بمبدأ الشرعية ـ ذلك المبدأ الاساسى الذى ظن انه يستند اليه ـ فى سبيل الحساب والمنفعة ، فلقد اصبح رجل الحزب رجل دولة لا يلتزم حكمه الذى تقادم عليه العهد

الشعور والمصلحة

« ان الرجل (نابليون) لم يؤثر فى نفسى أقل تأثير ، فأنا أتوخى القصد فى الاعجاب بالناس . ولعله من اخطائى انى استبين العيوب قبل المحاسن .. فاذا كنتم تعلقون اهمية على مبدأ تريدون تطبيقه على فرنسا وشرعية الحكم فيها فاعترف لكم على التحقيق بأنى اقدم على هذا المبدأ حبى البروسى لوطنى كل التقديم ، ففرنسا لا تهمنى الا بقدر ما تؤثر على مركز وطنى ، ولا يمكن ان نزاول السياسة الا مع فرنسا القائمة .. فهى فى نظرى مجرد حجر من حجارة الشطرنج الذى نلعب دوره فى السياسة ، مجرد لعبة ارى نفسى ملزما فيها بأن اخدم ملكى وبلادى . والاستلطاف والاستثقال فيما يتعلق بالدول الاجنبية والافراد الاجانب امر لا يستطيع شعورى بالواجب فى خدمتى لبلادى فى الخارج أن يبرره ، لا فى نظرى ولا لغيرى ، فان بذرة الخيانة للملك او للبلاد فى ذلك التبرير .. وفى رأيى ان اخضاع مصالح البلاد لشعور الحب أو الكره نحو الغرباء شىء لاحق حتى للملك فيه

« انى أسألكم هل توجد فى أوربا وزارة تجد ان لها مصلحة متوارثة طبيعية فى الا تقوى بروسيا عما هى ، بل ان يقل نفوذها عما هو ، اكثر مما تجد وزارة فينا .. اننى فيما يتصل بالخارج لم اتعاطف فى حياتى الا مع انجلترا واهلها، وما ازال اشعر بهذا العطف ساعات ، لكن هؤلاء الناس لا يريدون منا ان نحبهم ، ولو ثبت لى ان السياسة السليمة المدروسة تقتضى ان يطلق جنودنا النار على الفرنسيين او الروسيين او الانجليز او النمسويين لراقنى هذا المنظر ، ولكان ارتياحى إليه واحدا من كل هؤلاء »

اعتراف سياسى

« متى كفت كل هاتيك الدول عن أن تتعلق بأهداب الثورة وما هى دلالة ذلك ؟ يظهر اننا نغتفر لها ميلادها غير الشرعى ما دمنا لا نتوقع منها الاذى ، واننا ايضا لا نعترض عليها من جهة المبدأ اذا مضت دون تكفير ، بل وفى مباهاة ، تعترف بأصلها المنافى للحق.. واذا أريد نشدان الدليل على أن للثورة على الارض اصلا ، فلينشد هذا الدليل فى انجلترا قبل فرنسا ، هذا اذا لم يطلب قبلهما فى ألمانيا أو فى رومه .. كم كائنا فى عالم السياسة اليوم لا تتأصل جذوره فى ارض الثورة ؟ اليك اسبانيا والبرتغال والبرازيل وكل جمهوريات

امريكا ، وبلجيكا ، وهولندا ، وسويسرا ، واليونان ، والسويد ، وانجلترا ، حتى الاراضى التى انتزع بعضها امراء اليوم الالمان من الامبراطور والريخ وبعضها الآخر من طبقات بلادها هى ، لا يقوم الدليل على الشرعية التامة فى امتلاكها ، وفى حياتنا الحكومية لا نستطيع ان نتفادى من استخدام اسس وقواعد ثورية .. اننا لا نتمالك أنفسنا دائما من التأثر بالتودد ولا نستشعر العصمة من ذلك حتى حين لا تبلغ ظاهرات الماضى الثورية من القدم والبطلان بمضى المدة ما يخول المرء ان يقول ما تقول الساحرة فى فاوست : « عندى هنا زجاجة أتذوق منها أنا نفسى بين الحين والحين ، وهى الى ذلك لم تعد منتنة بحال »

استنتاجات

هنا بسمارك السائس ورجل الدولة يبدو لاول مرة ، ومن هذه الرسالة التى كتبها الى جيرلاخ تبرز الخطوط الرئيسية فى سيرته السياسة . ولن يكون حكمه حين يبلغ الثانية والثمانين غيره الآن وهو فى الثانية والاربعين . فلو أن للاحرار من مهرة الجواسيس ما للحكومة ، فضبطوا هذه الرسالة فماذا كان عساه أن يقول نائب من نواب اليسار فى هذه العبارات ، وقد كان قبل بضع سنوات يسمع نفس الشريف الذى كتبها يرعد ضد تلك البلاد وتلك التيجان التى ارتفعت من حمأ الشوارع المضرجة بالدماء ؟ كيف ؟ اكلنا اذن على وجه عام من اصل ثورى لا يهم معنا الا طول المدة التى تمضى على هذا الاصل ، لا الاصل الثورى نفسه ؟ واذن هذه التيجان التى زعموا انها من عند الله الرحمن الرحيم ليست من عند الله ، وهذه الثورات التى قامت بها الشعوب ، وهذا التمرد الذى اثار الامراء ، وهذا النزاع بين الطبقات ، وهذا التنافس بين الدوقات ، قد فصل كله فى الماضى بالقوة فى شئون التملك على البلدان ، واغتصاب ملكيتها ، ولا يزال يفعل هذا الى الآن ! فلماذا اذن يكون هوهنتسلرن اقرب الى شرعية الحكم من بونابرت ويكون رومانوف خيرا من سافوى ؟ من أين يأتى اذن الحق الذى يخول الامتيازات طبقة النبلاء ؟ هل تبرز هذا الحقائق عن الملوك والفرسان ويتبينها ذلك المدافع عن طبقته لأول مرة ؟ كلا . فكل هذا كان يعرفه بسمارك قبل سبع سنوات كما يعرفه اليوم ، وسوف ينكره غدا فى العلن كما أنكره من قبل كلما اقتضاه الامر مناصرة طبقته ، وتأييد امتيازاتها فى بلاده . بيد أنه يجد نفسه حرا فى التصرف ما تعلق الأمر بالخارج ، وما بدا له نفع تصرفه لبلاده . ذلك أن الغرض لا يتناول شئون الخارج ، فما يكون فى الداخل مبدءا مقررا يكون فى الخارج سياسة عاطفية ، وما تقتضيه فى الداخل مصلحة الدولة ، يعد فى الخارج رومانتيه . والكيل فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية بكيلين هو عند بسمارك فكرة اساسية ، ويمكن القول انه ادخل فى المانيا تلك الطريقة التى كان يتبعها ريشيليو . لكنه سوف ينجم عن هذا التفريق كل تلك الاخطاء التى سببت للالمان الهم فى الداخل ، بينما نمت فى الخارج قوة الدولة بما داخل هذا السائس من شعور بالقوة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مبلغ انتاجه وحدوده

هذه هى الاداة التى تدل على مبلغ ما ينتج وحدود هذا الانتاج : ارادة لا تضلها مبادىء ولا شعور بعطف ، موجهة فحسب الى ما يحقق لبلده السلطان تسخر من الفكر التى دفعت أوربا والقرن التاسع عشر الى الامام . لكنه بقدر ما تتجلى هذه الارادة خارج البلاد فى الانتصارات ، تعصف ارادة هذا المكافح فى الداخل بحقوق الامة ، ولا تخشى ما يصيب من يدوسون من الساسة هذه الحقوق من عقاب ، بدلا من ان تعمل هذه الارادة على الموازنة بين هذه الحقوق وما يقابلها من قوى . انه سيان عنده اطلق الجند النار على الاجنبى اواطلقوها على الوطنى ما دام فى ذلك نفع لبروسيا ، لكنه حين يسدد فيما بعد بنادق هؤلاء الجند الى العصاة البروسيين ، لا لشىء سوى انهم يريدون ان يحكموا بلادهم على غير ما يحكم ، عندئذ سوف يتزعزع سلطانه

الفصل الرابع

ويكتب الى أخيه حين يعينه الملك فى مجلس الأعيان يصف هـذا التعيين بأنه خلو من التروى « نظرا لما يستلزمه من نفقات. بيد أنه مدى الحياة ، يتيح لصاحبه مركزا ثابتا يكسبه نفوذا عند الحكومة . لكنه هل من النافع المريح ان يكون لى مثل هذا النفوذ ؟ هذه بلا ريب مسألة دقيقة احب ان يكون جوابى عنها بالنفى اذا انا جعلت فى حسابى معظم ما مر بى فى حياتى . غير ان هنالك لحظات أخرى أكون فيها أكثر طموحا ، أو تحركنى فيها بواعث ونية فأحب عندئذ أن أستجيب لما ينفذ آرائى السياسية .. فانى لأود أن أدير الدفة ولو ستة أشهر » . وسرعان ما يهجر الحزب والمجلس ، ويرفض أن ينتخب ثانية . وقد كان قبل ذلك يفيد من مركزه المزدوج فى برلين فيتغيب عن المجلس حين يصوت أصدقاؤه ضد الحكومة ، أو حين يتطلب الامر أن يصوت هو ضد اصدقائه

ويعوض نفسه عن ذلك حين يلقى بأحد مطاعم برلين جماعة من الاحـرار فيجلس الى مائدتهم ربع ساعة ، ويروى بعد ذلك مغتبطا : « لقد أتلفت شهية هؤلاء الصعاليك . لقد كنت اربت على خد هذا واضغط على يد ذاك ، واقول لكل قولا رقيقا ، واغتبط بمرآهم والمرارة تنضح من نظراتهم ! » لكنه أيضا من ناحية حزبه قلق ، يعارض معارضة حاسمة فى كل خرق للدستور ، « لأنه لم يعد عقبة فى سبيل الحكم ، وسيصبح شيئا فشيئا الوعاء الذى تملأه شخصية الحاكم قبل كل شيء » وهكذا يغير اساليبه ويبيت بحيث يعترف رسميا بما كان يبغضه فى الشئون الداخلية ، فهو يتساءل رأسا أمن الحكمة أن نظل على الدوام رجعيا ، وليس من وراء ذلك الا أن يدفع ببعض معين من الدول الصغرى الى احضان النمسا بدلا من أن يحبب اليها بروسيا بالتسامح. ويريد أن يحمل مجلسى برلين على المضى فى التحدث عن المانيا على الرغم من النزعة الديمقراطية ، وذلك كى يتألف الريخ بروسيا كزعيمة

أثرة بروسية

ان نظرة هذا البروسى ترنو الى زعامة بلاده فى ريخ المانى لا تدخله النمسا ، فهو يفصح عن هذا فى شيء من المكر المجدى حين يقول : « على قدر ما أكره أن اضحى فى وطنى بحق السياسة ارى عندى من الاثرة البروسية مع ذلك مايحول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دون ذهابى فى التسليم بحق هانوفر الى هذا المدى » ولقد باتت المانيا العظمى حلما ، ومات الاتحاد الالمانى او يستحق ان يموت . واصطباغ ارادة الاسر المالكة الصغيرة بالصبغة الالمانية لفظ يلاك ، واذهب من ذلك فى مجافاة الواقع ان يقال ان اتحاد الرين قد عاد وبات على الابواب ، فهو يسأل جيرلاخ : « بأى حق تعتقد أن غراندوق بادن أو غراندوق دارمشتات أو ملك فيرتمبرج أو ملك بفاريا ينبغى أن يقوم بدور ليونيداس * انه ليس من السهل أن يقول الملك ماكس لنابليون ئى فونتينبلو انه يسعه ان يجتاز حدود المانيا او النمسا ولكن فوق جثته »

وألم بسمارك بالمانيا فى تلك الأثناء ، اذ احتفظ لنفسه عند دخول المجلس بأن يزور البلاطات الألمانية جميعا ، فكان أن استكمل فى بضع سنوات كافة معلوماته الشخصية تقريبا ، وعرف الأمراء والوزراء والصحف وغير هؤلاء من الدساسين . وكانت خدمته على هذه الصورة اعظم ما يشعره الرضا فى الغالب ، بل انه كان يبعث الى بيته عن برلين ونشاطه فيها برسائل رقيقة كما لو كان اعزب يتسلى

البحر والغابة

وهو الآن يحب السفر ، ويسافر اكثر مما يجب ، دائما وحده ، وحين يختم رسائله الى زوجه فى البيت برغبته فى ان يكون معها ، وهو ما يختم به رسائله اليها فى الغالب ، يكون هذا منه ضرورة من ضروراته : فلابد لبسمارك من الاعراب دائما عن نفسيته هذه لتظل له . ويسافر الى بروكسل وامستردام وكوبنهاجن وبودابست وباريس ، ويسافر لاول مرة سيدا عظيما ، فيستقبل فى كل مكان بوصفه اجنبيا وجيها مزودا بالمال واللقب ، ويزهيه السفر على هذه الصورة الجديدة . وحين تكون يوحنا واطفالها ووالداها فى سويسرا يكون هو مستلقيا على ساحل نوردرنى يدخن ويحلم ، أو يفكر على ضفة انترلاكن . واحب شىء اليه مع ذلك ان يدعى الى الصـــيد فى الدانيماركه وكورلنده « فاذا اردت الايل غدا تيسر لى من الوقت ما يسمح بنزهة اليك ، ومن دون ذلك لن أستطيع العودة ، اللهم الا أن يكون ثمة ما يستلزم ذلك استلزاما »

ويبلغ اغتباطه بالحياة اشده فى مثل هذه الاسابيع فيشعر عندئذ بعودة الشباب اليه ، ويكتب من اوستند متعزيا يقول : « ليس سوى وعى المرء بأن جسمه خال من الشوائب ما يسمح له ويجرئه على ان يعرض جسمه أمام عالم المرأة بأسره . ومع انى واع لهـــذا كل الوعى فانى اوثر الفردوس

---

* ملك اسبرطى دافع فى سنة ٤٨٠ ق. م. مع ٣٠٠ من رجاله و ٦٠٠٠ من حلفائه عن مضيق ثيرموفيل ضد أجزرسيس ملك الفرس . فلما لم يفز هذا منه بطائل سلط عليه خائنا من الاغريق انقض على ليونيداس من الخلف ، فاستغنى هذا عن حلفائه وظل يدافع وحده مع رجاله حتى مات ميتة الابطال .

« الأبعد » حيث الرجال وحدهم ، على أن تكون بذلة الاستحمام التي أرتديها من النوع المطابق للوصف الاول . فأني لا اطيق هذا الشيء المبلل على جسمي » أو يخرج في أمسية من أمسيات يولية بزورق في نهر الرين ، ويسبح في ضوء القمر حتى مويزيتورم ، وينعم بأحلام هذه النفسية ، ويعلن انه يتمنى ان يسبح هكذا كل مساء وحده ، ثم يجلس مع زميل يحتسيان نبيذ الرين ، ويتفلسف عن روسو وعن الله

الموسيقى

ويجد في الموسيقى تسرية أخرى عن النفس وارخاء للاعصاب ، فيروح ويغدو يدخن وكويدل يعزف له ، ذلك انه في حياته كلها لم يهو الحفلات الموسيقية . « فالموسيقى يجب أن تسقى حرة كالحب ، أما الجلوس مدسوسا مضغوطا فما لااستطيعه بحال من الاحوال » كذلك لا يطيق الاستماع الى الرباعيات ، فهو يستكثر هذا التقيد ويستقل ما فيه من تنوعات . وحين يعزف العازف له من دون متابعة للمجسدة يأخذ ينعم بالاستماع ، فيرى عندئذ صورا هي في الغالب صورته ، ذلك انه حين يتكلم بعد ذلك يكون كلامه عن الرجل العامل : « ان هذا يشبه الصراع والنحيب في حياة بشرية كاملة . ولو قدر لي ان اسمع هذه الموسيقى كثيرا لوجب ان اكون دائما شجاعا » يقول هذا بعد ان يسمع ابا سيوناتا ، ويقول بعد مبندلزون وكأنه يتمثل «راكبا من طراز كرومويل يركض الى المعركة مرخيا العنان لجواده يفكر : الآن حق الموت » . « لكن هذا الرجل في الحق يلقى شرا » ويقول بعد فاتحة لباخ : « أن الرجل يشك في البداية ، لكنه يجاهد هذا الشك ويدفعه قليلا قليلا حتى يقطعه بيقين ثابت تطيب به نفسه »

ويؤثر هذا العويص بيتهوفن في الغالب : « أن بيتهوفن احب الى فهو خير من يخاطب اعصابي » وان المرء ليطلع على اعماق قلبه حين يسمعه يعترف : « ان الموسيقى الطيبة تدفعني غالبا الى أحد اتجاهين متعارضين : الى استشعار الحرب ، او تذوق قصيدة تصف الريف » . في تلك الايام كان ينحني اجلالا لبعض المعزوفات ، ويحب أن يستشعرها محلقة في ذهنه الرائق . ويراه كويدل مرة اثناء عزفه من المرآة يخافت في مشيته ويتسلل اليه ثم يمد يديه الى رأس العازف ويبقيهما فوقه ممدودتين بضع ثوان ، « ثم يجلس الى نافذة ، ويرسل الطرف في عتمة المساء بينما أنا ماض في العزف » . وهذه الثواني التي تتأثر فيها نفسه بلا سبب ، وتسترخي وتتفانى ، هذه اللحظات النادرة التي ينكر فيها نفسه هذا الانكار الرقيق الحنون ، ترتبط بتأملات سابقة ترسلت فيها روحه في الوحدة ذات مرة وهنئت من الأعماق

وهو لا يسمح باستذكار شبابه الا في حالات نادرة ، فحين يلقى في فيزبادن ذلك المكان الذي عاش فيه من عشرين سنة مضت عيش الاستهتار ، لا يبدو عليه انه يذكر من عابث اذ ذاك من النساء بالخير ، ولا تسمعه في هذا المقام الا يئن « حيث فارت الشمبانيا في صبا الثانية والعشرين سدى ، وخلفت مجاملات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جوفاء . أين ياترى تعيش ايزابيللا لورين ومسرسل الآن ، وكيف تعيشان انى لأفهم كيف يستطيع انسان يتأمل نفسه ، ولا يعلم مع ذلك شيئا عن الله او لا يريد ان يعرف شيئا ــ كيف يستسيغ مثل هذا الانسان ان يعيش محتقرا ملولا .. انى لا اعرف كيف تحملت هذا قبلا ، ولو قدر لى اليوم ان اعيش كما عشت اذ ذاك بلا ايمان ، ومن دونك ودون الاطفال ، لما وجدت فى الواقع من سبب لان لا اتخلص من حياة كهذه كما اتخلص من قميص قذر ، ولان لا اخلعها كما اخلعه .. انى احس كما لو كنت اتأمل ورق الشجر وهو يصفر فى يوم جميل من ايام سبتمبر ، ارانى معافى مرحا لكنه يداخلنى شىء من الكآبة ، شىء من الحنين والشوق الى الغابة والبحيرة والمرعى واليك الأطفال . يخالط ذلك مغيب الشمس وسيمفونية بيتهوفن »

قبل الأربعين

هنا يمتزج الايمان وحب الاسرة فى نفسه « اقوى من ذى قبل ، فاذا استشعر الخشية من الكفر خشى معها الوحدة القديمة . وانه لتحدوه من ذكرى شبابه ضغينة غريبة فى جموحها ، لابد ان تعينه على احتمال العمر وهو يتقدم به . فهو يكتب الى أخيه يقول . « انى يخيفنى قبل الأربعين شىء . ففيها يكون المرء قد تخطى القمة واخذ فى الانحدار الى الوادى فى الطريق الى اقبية شينهوزن ، ومع ذلك فانى اتصور انى فى مقتبل العمر ، وان المهم فى الحياة ما يزال بانتظارى .. وليس من السهل أن يتخلى المرء عن زعم ما فى الصبا والشباب . وحتى الثلاثون والتسعة الى يمينها ما يزال فيها شىء يقيم هذا الوهم . والحياة تشبه خلع السن بمهارة ، يحسب المرء ان الخلع نفسه آت لم يقع بعد ، فاذا هو من عجب قد وقع ، أو هى ــ ولأتمشى هنا مع مهنتى ــ كالمأدبة يسبب فيها خيبة الامل على وجوه المدعوين ان يظهر الشواء والسلاطة قبل الاوان وعلى غير انتظار »

هنا تهكمات ، وهناك انتقادات يوجهها الى نفسه ويريد بها ان يحمل نفسه على صبر وقناعة لا يوائمان ظمأه الشديد الى الحياة : ذلك ان هذه الطبيعة التى تشبه طبيعة فأوست ، لاتغفر لربها بالذات ان يدعها تنتظر الشىء الذى تطلبه . وهذا كله ليس بعد شيئا . فالحكم هــو الذى ينقذه . فهو يسأل كويدل فى الثانية والأربعين . « ألا تشعر اليوم أيضا من موجة الحياة بلطمة أسمى من تلك التى كنت تشعر بها وانت طالب ؟ » صمت : فهذا سؤال مرعب !

واخيرا يقول : « لا ــ بل نعم ، اذا امكن التصرف فى كل شىء ! ــ اما ان يهدر المرء قوته تحت رياسة من لاتمكن طاعته الا بالاستناد الى الدين ! »

الله والامراء

هذا الاعتراف العميق الذى ستتبعه اعترافات مماثلة ، لا يكشف عن قلق هذه النفس فحسب ، بل يفضح كذلك شكل ايمانه الذى يدعمه بشعور يشبه

شعور الملوك كيما يسند احدهما الآخر . فهو يكتب حوالى هذا العهد يقول : « ان المسيحية وحدها هى التى تستطيع ان تنتزع من الامراء فكرة عن الحياة تحملهم او تحمل الكثيرين منهم فى مركزهم الذى وهبهم الله اياه على نشدان الوسيلة لحياة انعم تقوم على التحكم » وهكذا يدخل الله فى شئونه ذلك الذى كان من هنيهة يضحك من الامراء الشرعيين ، ويرجع دول اوربا جميعا الى اصل ثورى ، ويلجأ اليه كلما احتاج اليه ، فاذا وجد فى الله ما يزعجه لم يلجأ اليه . حتى حيال زوجته التقية يجرؤ الآن على الاعتراف بقوله : « انى لا اكره ان اطعم عدوى اذا كان جائعا ، اما ان احبه — لو انى فعلت ذلك لكان حبى اياه ظاهريا جدا » ويريد أن يقوم الأسطول الجديد بهجوم ولا يجد مايستلزم هذا الهجوم ، فيعتذر من ذلك بهذه الكلمات القاسية : « ان الضحايا التى تذهب فى سبيل ذلك ستموت على كل حال قبل ان تنقضى اربعون سنة » ويرى لودفيج فون جيرلاخ الورع — يرى فى سذاجة وقلق أن ربيبه الروحى يتعجل فى اتباع اساليب مكيافيللى ، فيهيب بذلك المتعجل عن طريق قريبه كنيست — ريترو : « استبق بسمارك دافىء القلب ولا تطق أن يصبح دنيويا . انه من رخام كرارا الكريم ، وهو لقمة دسمة تستهوى الدنيا والشيطان ، لايتخليان عنه بسهولة كما تعرف .. الا ما وعظته فى الدين ! » أما هو فيعظ من امد فى السياسة الواقعية

مبـــارزة

وتبلغ ورطة الفارس المسيحى اشدها فى مبارزه . فقد وصفه منافسه فينكله فى المجلس من فوق المنبر بأنه سياسى كل ما اداه للتاريخ قد كان بوحى من سيجار الكونت تون ، وانه رجل لا يكتم سرا ، فوصمه بسمارك على اثر ذلك بأنه قليل التربية ، فطلبه فينكله للمبارزة بالمسدسات وبأربع طلقات . وقد ابدى بسمارك فيما بعد كسبب ابعد لهذه العداوة وهذه المبارزة محادثته العنيفة معه فى سنة ١٨٤٨ فى صدد الخطط الماكرة التى رسمتها اوغسطا اذ ذاك . ويقيم بسمارك صلاة فى المساء ويسأل القسيس سؤالا غريبا هو هل يجوز له غدا وهو يطلق الرصاص ان يسدد الرماية « لقد كان الجو جميلا جدا ، والطيور تغرد فرحة تحت اشعة الشمس حتى زايلتنى كل افكارى الحزينة بمجرد ان بلغنا غابة تيجلر » وفى ظاهر المدينـــــة يتوسطون كرة اخرى ، ويخفضون عدد الطلقات الى واحدة ، ويبدون ان المسألة تنتهى اذا ابدى المطالب اسفه لما وقع . فيرفض بسمارك ويقف المتبارزان . ويروى بسمارك : « لقد سددت الرماية هادئا واخطأت الهدف .. ولا يسعنى ان انكر اننى لما نظرت وسط الدخان ووجدت خصمى واقفا على قدميه ضقت بهذا ، ومنعنى شعورى بالضيق من ان اهتف مع الهاتفين . لقد ضايقنى تخفيض الطلقات وفوت على متابعة المبارزة .. لقد انتهت وتصافح الجميع .. والله اعلم بمـــا لا يزال يريده بفينكه »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مخاصم

فى هذا التقرير الذى يصدق فيه كل موضع ينم عن حبه الكفاح كل الصدق — ذلك أنه يبعث به الى حماته فى أسلوب المتقين — يصبح الاصرار والتناقض اللذان يصطنع فيهما هذا المكافح العنيف هيئة المسيحى ، جد طيعين . فاطلاق النار جائز عنده ، لكن التسديد مسألة فيها نظر ، ومن ثم اطلق هادئا لا يحدوه غضب ، لكنه كم غاظ الصياد أن يرئ الصيد بعد أن انجلى الدخان واقفا على رجليه ، وهو فى هذا لا يخطر بباله لماذا لم يصب هو ، ذلك ان الذى يهمه هو مايريده الله بفينكه لا ما يريده به هو : هذا فحسب هو ما يعنى ذلك الرامى الحقود . وهنا يبدو ان بسمارك يكره خصمه اكثر مما يحب نفسه

تفانى يوحنا

ولا تغفر له يوحنا سريعا . فهى تحب السلام بقدر ما يحب الخصام . وهى فى الغالب ينقصها للنزاع كل ما يؤهله له ، ينقصها الطموح وحب الدنيا والصحة فهى مريضة غالبا ، وليس هذا فحسب عقب ان تلد اولادها الذين تكلفها العناية بهم ليالى ، وتضحى فى مقابل مايهمله من تربيتهم الساعات والأشهر فى كل عام . وهى مريضة بعبنيها ، يستفحل مرضها وتضطر الى أخذ حمامات ، وتبذل لها العناية فى الأسفار ، وفى المجتمع أيضا فى بعض الأحيان . واذا كانت على هذه الحال لا تستطيع ان تدير المنزل وحدها ، فان على زوجها ان يعنى بشئون التجديد ، والزام الخدم النظام ، واختيار الاثاث ، وانتقاء الفضيات — الامر الذى يحذقه كمزارع ، وما لايكرهه وسط مشاغله الأخرى . وبسمارك ، الرجل المشغول ، هو الذى يطالبها دائما بالكتابة اليه ، وفى هذه المطالبة ما يدل على حالاتها النفسية ، وعلى أنها لاتستطيع توزيع وقتها ، ولا تحسن تقسيم ساعات يومها

وكل هذا الذى ينشده ويبلغه لا يؤثر فيها ، وهى لا تكتم دائما استياءها من الحياة الاجتماعية فهى تكتب الى صديقها كويدل فى غمرة ضائقة المت بها تقول : « انه مما يهنئنى أن نقصد فى التو الى شينهوزن ، لا نهتم الا بأنفسنا والا بأطفالنا ، ووالدينا ، واصدقائنا الحقيقيين الصادقين . عندئذ لن تلبث أن تعاوده قوته ونشاطه اللذان كانا له يوم دخل عالم الديبلوماسيين البغيض العاصف ، ذلك العالم الذى لم يجلب له خيرا ، بل جر عليه الغم والعداوة والحسد والجحود .. انه لو نفض غبار قدميه العزيزتين على كل هذا الزيف الذى لا يجدى ، وخلص من كل هذا السخف الذى لا يوائم خلقه الشريف المستقيم النبيل ، لكنت بذلك سعيدة كل السعادة ، راضية كل الرضا . لكنه لن يفعل ذلك للأسف ، لأنه يتوهم انه مدين « للوطن العزيز » بخدماته »

ولا ترى هنا امانى قلبها الصافى الورع فحسب ، بل تسمع كذلك من هذا التصوير لبواعثه كيف يصف لها نفسه بأنه رجل شريف . وليس هنا خداع ما ، فهل ثم ماهو أقرب اليه من وعيه بأنه يصور لنفسه ولغيره تفوقه البارز فى صوره أخلاقية ، وأنه يصف خصومه أو زملاءه أو رؤساءه ، وهم

جميعا اقل حجى منه ، بأنهم امكر منه ! وما كان بلا ريب ليطيق زوجته على مر الأيام اذا كانت هذه الزوجة من المكر بحيث تسيطر عليه نفسيا ، أو كانت من الطموح بحيث تحرضه على الدس العام . ان نظرته البشرية قد اصابت المرمى حين اختار يوحنا بوتكمر : فهى تحبه وحده ولا تضللها مشاعر نفسها الصريحة فتنتقده او تؤلهه ، واذ كانت تملك قلبه فهى لا تطلب شيئا منه حتى ولا العبقرية

المعلم

وما يجب عليها ان تفعله ومالا معدى عنه ، يعلمها اياه فى يسر ولا يعلمها أكثر منه فقد كتب اليها فى المبتدى يقول : « يجب ياطفلتى المسكينة أن تجلسى فى الصالون منتصبة محتشمة ، عاقلة حكيمة مع اصحاب السعادة » وتعلم الفرنسية وركوب الخيل يصبح امرا ضروريا فهى تتعلمهما ، فاذا وجد ان شيئا مما يطالبها به عسير عليها ، عدل عنه ، بل عاد على نفسه باللائمة لانه طالبها به : « لقد تزوجتك لاحبك بما يرضى الله ويرضى قلبى ، ولأجد فى عالم الغرباء مكانا لهذا القلب لا تناله صرصر رياح هذا العالم ، واجد فيه دفء النار التى تنبعث من موقدة البيت ، والتى اقترب منها والتصق بها كلما عصفت فى الخارج الريح وشاع البرد » ، بيد أن الديبلوماسى يثب فى الحال من ركنه كرة اخرى ، فحين تكتب بكليتها وعاطفتها ما يمس الناس يقول لها وهو ينظر فى نفس الوقت الى جاسوسة البريد انه يجمل بها « الا تحمل مثل هذه الحملة على الافراد فى رسائلها لان هذا لا يلبث كله ان ينسب الى الزوج فيعزى الى ، هذا الى انك بذلك تسيئين الى هؤلاء الناس . لا تكتبى الى ما لا ينبغى ان يقرأه البوليس ويبلغه الى الملك .. او الوزير .. اجعلى بالك الى ان ما تهمسين به فى كشك الاستحمام الى شارلوت سيزاد عليه ويبلغ هنا او فى سان سوسى »

اول ظهور فى البلاط

وتظهر لاول مرة فى البلاط فتفشل ، ولا تقع التبعة فى هذا عليه او عليها ، فقد دعى الى رحلة فى نهر الرين ، فبعث اليها يستدعيها الى السفينة ليقدمها الى البلاط « فتجاهلها صاحبا الجلالة حتى ونحن جلوس ساعات على ظهر السفينة فى دائرة ضيقة جدا . وكانت الملكة تعانى فلم يسعها من ثم ان تعيرها شيئا من الالتفاف . اما اميرة بروسيا فتعمدت اهمالها . ومع ان الامير اصلح بحسن التفاته ما لاحظ من اهمال لزوجتى ، فأنها عادت من هذه التجربة وقد اثقل الدمع ولاءها للملكية بعض الشىء — وهو ولاء ثابت يتصف به اهل بوميرانيا الخلفية » ويختم هذه الرسالة الى جيرلاخ بقوله : « ان احساسك الكيس سيدرك بطبيعة الحال انى اشعر بأذلال زوجتى اعمق مما أشعر بكل ما يمكن أن يصيبنى انا . ولابد لى من أن أبث أحدا مايكربنى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اذا لم أستطع أن ابثه نصفى الزوجى الذى أحاول أن أقنعه بأن كل هذا شيء طبيعي مألوف كل الالفة من البلاط »

هنا منظر يكاد لايخفى ، والشكوى صريحة الى صديق الملك : وقد استطاعت يوحنا على اهون سبيل ان تقيم له الدليل عند عودتها الى موطنها على سخف هذه الحياة بأكملها ، وعلى أن الأميرة تتصور أنها ليست كفؤا له . وأن المرء ليتبين بسمارك أول ما يتبينه ثانية ، وقد غادر سفينة الملك فى أول محطة مصمما . ومع كل فلعل له فى مثل هذه المناسبة افكاره عن السيدات الفارعات المتألقات اللواتى كان خليقا فى مثل هذه المحافل ان يقف الى جانبهن اثبت مما وقف

يعز زوجته

وانه ليهدى الى زوجته ما ترغب فيه ، ويعنى بتفاصيله بوصفه خبيرا بالنساء : اى لون ينبغى ان يكون لون الشال الكشمير الذى يكلف زملاءه فى باريس بجلبه ، وانه ينبغى ان يكون الثوب الذى تحضره اخته « موريه انتيك » ناصع البياض وحوالى ٢٠ ذراعا ، وان تكون المروحة المذهبة مسموعة الحفيف ، وان كان هو لايطيق ذلك . وفى باريس ينشد عبثا ما تحلم به من صنف بعينه من ادوات الزينة . بل انه ليحمل سلسلة بنشانات صغيرة أهدتها اليه رغم كراهته لحملها ، « ذلك أنها خليقة ان تألم شديد الألم اذا لحظت انه ليس من وكدى دائما كمستشار سرى ان احمل هذه السلسلة » وهو يعد والديها دائما من اخصائه ، ويذكر والدها ذكرا رقيقا غاية الرقة ، يرغب فى زيارتهما ويحتملها عدة اسابيع ، ويتحدث عن « الدولة الصغيرة المؤلفة من سبع أنفس صرناها معا .. والحياة الفانية فوق هذه الأرض لاتخلو من الحزن والهم ، والخير لنا أن يصيبنا الضر فى الشارع ولا ينكبنا فى البيت »

الفصل الخامس

الملك المختل الشعور

لقد تفاقم جنون الملك . فعشر السنوات التالية للثورة مليئة بالتناقض والهوى والغلو الى حد أن المحيطين به كانوا يلقون مشقة فى تبرير مسلكه فى الظاهر ، واصطناع الصلة بينه وبين ماجريات السياسة . وبينما كانت آمال اوغسطا تتعاظم وتبدو هى وزوجها نصيرين لمبادىء الاحرار ، كان الملك يتكلم عن نتن الثورة ، وعن طوق التاج الامبراطورى المصنوع من « الأقذار والطين » ، ويصف هذا التاج بأنه طوق كلب ، يريد مرارا وتكرارا أن يستبدل بالدستور ميثاقا ، ويخاطب امبراطور فينا وقيصر بطرسبورغ فيقول للاول : « انى هنا لأمسك لامبراطور النمسا بالركاب » ويقول فى خطبة يلقيها للقيصر : « ليحفظ الله القارة التى جعلها من نصيبه » . فلا يكون من وراء ذلك الا ان يزداد احتقارهما اياه

اجل انه لم يستبد به المرض أول الأمر الا فى عام ١٨٥٨ حين أمكن انتزاع ولاية الأمر من يده . لكن كونه لم تتملكه سورة الجنون ، وأن معين أفكاره « نضب » ، كاف فى ذاته لأن يدل على أن الدولة لبثت عدة سنين يدير شئونها مريض بعقله . وبسمارك نفسه قد رأى فى الاسابيع العصيبة وهو يركب خطوا الى جانب الملك ، ما يضطره الى التدخل لادارة زمامه . كان الملك لا يطيق رائحة شمع الختم ، فهو من ثم أقل تحملا لرائحة الدخان ، فلما رافق القيصر اذ ذاك فى صالون مقفل ، وكان القيصر يدخن طول الوقت انهار الملك مصابا بالفالج ، فاشتد الخلف فى الحال بين أحزاب البلاط . وأما أنصار الملك فيريدون فحسب أن يختار من يمثله ، وأن يجدد هذا التمثيل دواما ليستطيعوا البقاء وتظل قائمتهم قائمة . أما أنصار أخيه فيريدون الوصاية لتقوه قائمتهم

بسمارك يدين غليوم بالجميل

وبسمارك يومئذ موجود فى برلين اتفاقا ، فلا يزعجه هذا الحادث المنتظر ، لكنه يجد القنطرة التى تبلغه السلطة تضطرب تحته ، فرأى الامير غليوم فيه معروف كل المعرفة ، وواضح كل الوضوح : ففى أولمتس قبل ثمانى سنوات ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفى حرب القرم قبل أربع ، اصطدمت رغبة الأمير فى الحرب بمقاومة بسمارك فى صورة بينة ، وقد أثر الاخير على الملك فى كلتا الازمتين مناهضا أخاه . ومن ذلك الحين يتحادث الاثنان كلما عرضت مناسبة ، ولا تفرق بينهما العداوة الشخصية أبدا ، بل تحملها المصالح السياسية على تبادل الرأى . فالآن والملك فى غير وعيه يدعو الامير الوزير المفوض الى جولة طويلة ، ويسأله فينصح له الوزير ردأ على سؤاله بأن يقبل الدستور كما هو اذا قدر له أن يتولى الحكم ، ولايطالب بتعديله . كذلك يشير فى كل مكان باقامة الوصاية ليضمن سير الامور فى أمان . فهل كان يظن برغم كل شىء ان يصبح وزيرا ؟ كلا . وأقل من ذلك احتمالا عنده ان يستدعى من منصبه . فماذا يفعل ليرتبط بالسيد الجديد ؟

يعلم بسمارك سرا بعد أن تجددت وصاية الامير أنهم يريدون اعادة الملك المختل الشعور ، على أن تتولى الملكة الرقابة عليه ، فيتوجه فى الحال الى ولى العهد المقيم فى بادن ليحيطه علما بهذه الخطط . فيظهر الامير فى هذا الموقف سذاجة متناهية ، لكنه يكون ضابطا بمعنى الكلمة فلا يعدو أن يصيح :

ــ اذن استقيل !

فيرد عليه بسمارك : « خير أن تستدعوا مانتويفل وتحبطوا هذه الدسيسة » فهو يعرف ان مانتويفل يرتعد خوفا على منصبه منذ أصيب الملك بالفالج ومن ثم أزعجه هذا الاستدعاء ورغب الى بسمارك فى مصاحبته . ويقيله الأمير حين ينغلب بنشاط أوغسطا ، ويحلف اليمين فى الخريف كوصى على العرش . وتعين وزارة أكثر أخذا بمبادىء الأحرار ، ويعتقد أصدقاء بسمارك ، وتأمل حتى يوحنا ، أنه سيضطر الآن الى الاستقالة . لكنه يعرف تلك اليد العظمى التى أسداها الى السيد الجديد فى اللحظة العصيبة فيربط ما بين نفسه وبينه ، فهو يرد بأن الامور ستسير على ما يرام ، فأن رئيس الوزارة الجديد ، وهو أمير من هوهنتسلرن ، محافظ أيضا . « انى اريد البقاء فى كرانكفورت ، اغاظة لثرثارة الدساسة مدام أوزيدم (التى تود المجىء الى فرانكفورت) ! » بيد انه بالنظر الى ما تحمله له اوغسطا من عداوة والى ضعف الامير غليوم ، يؤمن هذه المرة أيضا خط رجعته حيال ذويه وحيال نفسه

على بركة الله

انه يكتب الآن الى اخته يقول : « ان التبديل روح الحياة .. فانى لارجو ان أعود الى ماكنت فيه من جهاد فى سنة ١٨٤٨ـ١٨٤٩ فتصغر سنى عشر سنوات .. اننى حين أجد أن دورى كرجل مهذب لن ينسجم بعد الآن مع دورى كديبلوماسى لن تكون المسرة او يكون العبء الذى أجده فى انفاق مرتب كبير بما يتفق والشرف ، سببا لان أضل لحظة واحدة فى اختيار ما ينبغى ان اختاره . ان على أن أعيش على قدر حاجتى . فاذا حفظ الله امرأتى وأولادى أصحاء معافين كما حفظهم الى الآن فسوف اقول : « على بركة الله . مهما يكن العباب الذى تمخره السفينة .

سيكون بعد ثلاثين عاما سواء عندى أن أقوم بدور الديبلوماسي أو بدور شريف الريف . وقد كان الى اليوم ســواء عندى أن ينتظرنى كفــاح جديد شريف لا يقيدنى بقيد رسمى ، وألبس له الى حد ما لبوس السياسة ، أو أن أمضى فيما أنا فيه من نظام المآدب والبرقيات والأشــحة الــكبرى . ان كل شيء ينتهى بعد التاسعة كما يقول المثل » . وعندما يتناول الكلام بعد ذلك نقله الى سان بطرسبورغ يقول : « سيكون الجو السياسي هنا رديئا » وهو ماترقبه مسرورا لابسا جلد الدب ، آكل البطارخ واصطاد الايل »

حديثه مع غليوم

ومثل هذه الرسائل من بسمارك انذارات وتأمينات معا يرسلها وهو جالس ينتظر على راحته . ذلك أنه قد فات الأوان الذى يعود فيه مزارعا فى شينهوزن ولا شيء غير ذلك ، كما يحسب أنه يتمنى دائما فى شكاواه المتجددة . وهو يتوقع فى حالة الاســتغناء عنه مركزا فى الحال بكافح منه فى المجلس . أفلا يتغير كل شيء من جديد فى بضع سنوات ؟ أليس الامير الوصى اليوم يتجاوز الستين وان لم يبلغ عمر الملك ؟ حتى اوغسطا ليست باقية مخلدة ! انها الى الآن تنجح فى حمل زوجها على اســتدعاء أصدقائها النبلاء ممن يصطنعون مبادىء الاحرار ، وشطب اسم بسمارك من القائمة ، وتعيين أوزيدم وزوجه الشاذة فى فرانكفورت ، وأخيرا اهمال بسمارك فى بطرسبورغ . انه لا يكاد يسمع بهذا حتى يبادر فيبسط الموقف للامير الوصى ــ كما يذكر فى تقريره ــ بحرية باهرة حقا : «انه لما يدعو الى الاسف ان يذهب سدى كل ماحصلته فى ثمانى سنوات قضيتها فى فرانــكفورت من معرفة النــاس وعلم ببواطن الأمور . ان مركز الكونت أوزيدم هناك سيصبح مستحيلا بفضل زوجته ؟ »

فيقول الوصى :

ــ أجل ، وهذا بالذات ما اعنيه ، فان مواهب أوزيدم السامية لن يمكن استخدامها فى أى مكان آخر ، لأن زوجه سوف تحدث الارتباك فى أى بلاط

« اذن هى غلطة منى أنى لم أتزوج أيضا زوجة خرقاء أو لكان لى نفس الحق الذى للهرفون أوزيدم فى منصب أحس أنى فيه فى بيتى »

ــ انى لا أفهم لماذا تنظر الى المسألة هذه النظرة الممضــــة . ان منصب بطرسبورغ يعد مع ذلك دائما أسمى منصب فكان ينبغى ان ترى فيه دليلا على الثقة السامية

« مادمتم سموكم الملكى تمنحوننى هذه الشهادة ، فعلى ان التزم الصمت بطبيعة الحال »

وحين يلمح بعد ذلك انى قلقه على بعض مسائل فرانكفورت يقول الوصى :

ــ أتعدنى طرطورا ؟ انى سأكون وزير خارجيتى ووزير حربيتى بنفسى . فهذا ما أفهمه

« ان أكفأ مدير يعجز فى أيامنا هذه عن الحل والعقــــد من دون سكرتير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذكى . . ومن دون وزراء أذكيـــــاء لن ترضـــــوا ســـــموكم الملكى عن النتـــــائج . . . انظروا على سبيل المثـــال الى جانب وجـــه شفيرين : أن سرعة التركز عنده تثب من فوق حاجبيه ، لكنه فيمايلى ذلك ينقصه الجبين الذى يفتش فيه المتفرسون فى شـــئون الدماغ عن الحجى . فشفيرين رجل دولة يعوزه بصر بالامور ، وهو أكفأ للهدم منه للبناء » . وهكذا يطوف مع الوصى بأعضاء الوزراء جميعا . فى هذا الحديث الرسمى الاول بين بسمارك وغليوم يتضح شىء مما يفصل بين الاثنين . ولسنا نعلم أنعجب بالجرأة والمكر والمنطق أكثر أم بالذكاء الذى أحال به بسمارك التبعة على خصمه ثم تحول الى منافسيه فتخلص منهم واحدا واحدا ، كذلك نشهد ذلك الوقار المتزن البادى على سيد يعتقد أنه يرفع خادمه

خلق أمير

وغليوم الى اليوم لم يكتنه شيئا قط . بل كل ماكان ينبغى ان يفصل فيه سياسيا كان يعالجه بشعوره العسكرى ، كذلك لم يكن يستدبر شيئا سوى ماض عسكرى مديد : حسن التدريب ، ضيق الحدود . وهذا الاخ الاصغر المتفوق على الأكبر من المبدأ للختام ، ذلك الأخ الذى كان من شـأن شذوذه الدال على الذكاء أن يبدى أخاه أقل صلاحية وكفاية مما هو ، هذا الاخ الاصغر كان أكثر وقارا من أخيه وأقل لبابة ، وكان فى الغالب يملك كل ما ينقص الاكبر من الفضائل البروسية العريقة . وقد كان غليوم منتظما ، مجتهدا غاية الاجتهاد دقيقا ، وكان منصفا ، محبا للخير ، تقيا جدا ، ومن أنصار الحكم الشرعى لنفسه ولغيره . وكان بسيطا ، لكنه كان ضيق الذهن

غليوم وبسمارك

وبسمارك لم يشبهه فى شىء من هذه الملامح الأساسية : فقدكان عصبيا ، جريئا ، ساخطا ، وكان ماكرا يسىء الظن ولا يبالى شيئا ، عاش مع ربه وملكه مزعزع المشاعر ، فتارة شرعيا ، وتارة ثوريا ، وكان عويصا ، لكنه كان عبقريا

والكبرياء والشجاعة مشتركة بينهما ، وقرابة الدم فى شجاعتهما الشخصية هى وحدها ماجعل تعاونهما ممكنا ، ذلك أن كبرياءهما بالذات أرادت أن تفرق بينهما . وغليوم هنا ملك ولد ملكا ، يشعر بورعه وشريعة أجداده بأنه أسمى من سائر الناس ، دون أن يتراءى له فهمه فوق أفهامهم ، لكن العناد الذى باته اليوم اعتداد هذا السيد المسن بذاته ، لم يسمح له بحال من الاحوال أن يشعر او يلحظ أن وزيره يسيره ، فشعور الملوك فيه يحول دون ذلك . وبسمارك تدفعه كبرياؤه دائما الى الأمام مجاهدا ، على حذر دائما . ومع أنه ليس مغرورا بأية حال ، فانه لم ينقطع عن المقابلة بين نفسه وبين غيره ، ومن ثم لم يلحظ غليوم قط ان بسمارك قاده ، بينما كان بسمارك يبدىء ويعيد على الدوام انه فعل ذلك ، ولولا هذين التحفظين لكان التعاون بينهما محالا

كان بسمارك يريد ان يعمل دائما ، وكان غليوم وهو يكبره سنا بعشرين

عاما يريد فحسب أن يكون وأن يحكم . كان هذا يزهد فى أى فتح لبروسيا ونو فى ألمانيا ، وكان ذاك يريد رفعة بروسيا عن طريق ألمانيا . وكان للملك فى العادة نبض الوريث ، ذلك النبض المنتظم الجميل ، لكنه كوريث كان يثور فى بعض الأزمات ، ويحنق الى درجة الجموح الصريح ، أما السائس ورجل الدولة فكان له الاتزان الواهن الذى يكون للأهالى الاصليين فى بلد من البلدان ، دائب الحركة كأنه مسوق ، لكنه فى الاوقات العصيبة بارد كالثلج ، واضح . وهكذا كان فيما تلا من الزمان يجر ملكه المسن الهادىء وراءه ، ويضنى مواهبه دائما فى خدمة الغير : وهذا هو الشعور المحزن الذى يداخل عبقريا يخدم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السادس

اسكندر الثانى

كان القيصر ابن أخت غليوم . وما ظل هذا حيا ، أى لثلاثين سنة بعد ذاك ، ظلت آصرة الدم هذه هى الضمانة الكبرى لصداقة بلدين ندر اذ ذاك كما يندر اليوم أن تصطدم مصالحهما ، وكان لهما من امتداد حدودهما كل مايدعو الى بقائهما صديقين . فقد كان الشعور بتضامن الاسرة وهو ما حدا غليوم كما حدا أخته القيصرة الأم التى ترجحه عقلا ، كان يعنى ، مع بساطة الأخلاق ومائة الى جنبها من الأضرار الناجمة عن وراثة الملكيات ، درعا تتقى به الحرب بين البلدين منذ ولى الحكم غليوم الأول ، وطالما لبث فى الحكم

وقد كان العيش مع اسكندر الثانى مع ذلك صعبا . فهذا الرجل البالغ من العمر الأربعين ، الحاوى النظرة بشكل غريب ، المتعصب الوحشى ، الفاسق المحوط فى جناحه الخاص بصور فاضحة لم يتيسر كشفها الا لعصرنا ، الفاتن الى ذلك ، السريع التأثر اذا مال مع الهوى ، المتردد بين فكر الحرية والاضطهاد ، المصطنع مبادىء الاحرار ، المتعطش للاخذ بالثأر ، الصياد الماهر ، وان لم يكن فى الحقيقة جنديا ، الخواف قبل كل شىء — هذا الرجل كان فيما يبدو صورة روسية من خاله فريدريك غليوم الرابع الذى يفوقه المعية وضعفا ، وان كان هستيريا مثله . فقد دفعته الى تحرير الفلاحين نفس بواعث الجبن والهوى ، فبقى هذا التحرير من ثم عقيما كما بقى دستور الملك البروسى أمدا طويلا . وقد راق ابن الاخت كما راق من قبل الخال ذلك البارون البوميرانى المارد ، الشجاع ، الفكه ، الخلو من كل حدة تؤلم ، راقهما لما بين كليهما وبينه من تباين ، ولشىء مسل فيه : فقد أمكن أن يروق القيصر من بسمارك اصابته ، فاستقبله بوصفه سفير الأسرة ، وآثره على غيره من الأجانب ، وأولاه التفاته بأن سمح له بأن يواصل التدخين فى حضرته ، وهو اعظم تكريم حميم بغضب الزملاء .

أضف الى ذلك ماداخل القيصر من شعور بالقرابة السياسية : فالسفير الجديد ملكى وعدو للنمسا . ويوم تعين بسمارك كان نابليون قد ترك الحرب التى بيتت طويلا تنشب بين سردينيا والنمسا معتمدا على مخالفته لكافور ، فعاد نصف المانيا ، كما فعل قبل خمس سنوات فى حرب القرم ، يقف من

جديد ضد من اسماه عدوه الوراثي الى جانب النمسا «الالمانية» . وقد قيل أن نابليون الثالث يريد كما أراد الاول أن يقضي أولا على النمسا ثم على بروسيا، نيجب الدفاع عن الرين على نهربو ، وأخذ الالزاس واللورين ضمانا للامن . وتحرض الكرويتس تسايتونج على ابن الثورة ، وينصح مولكه الذى رقاه انوصى الى منصب رئيس هيئة أركان الحرب بدخول الحرب . غير أن غليوم يرتعد خشية من ارتكاب الغلطة التى ارتكبها والده والوقوف أخيرا وحده حيال الفاتح الفرنسي كما وقف هذا الاب ، بل انه ليحب ان يجدد الحلف المقدس تحت اسم آخر ، ويذكر فى تأثر الجندى دخوله الباهر باريس وهو صبى فى عام ١٨١٥ ، وقد ترك جيرلاخ العجوز يقدم له السيف ليجرد مرة أخرى فى وجه هذا الفرنسى

خمرة ١٨١٣ المقلدة

ويعارض بسمارك وحده ولو تعرض للخطر من الظهور بمشاطرة الأحرار رأيهم ، وهم الذين يتقدمون بعداوة للنمسا ، ومناصرة للبولنديين والايطاليين . فهو اليوم كما كان بالامس فى حرب القرم يريد الا يساعد الهابسبورغيين ، وينعت النمسا الآن بأنها بلد أجنبى ، ويطالب بالحياد على الاقل ، ويؤثر الانضمام الى فرنسا ، ويصف موقف كرويتس تسايتونج بأنه « سخيف » ، ويحذر من مؤازرة عدوه بروسيا ، ويبدى لاخيه فى عبارة طنانة خوفه من « أن نثمل أخيرا بخمرة النمسا تقليد سنة ١٨١٣ »

وحين يهزم النمسويون فى ماجنتا وسولفيرينو فى يونيه بعد ذلك ، يرغب غليوم فى الزحف لمساعدة النمسا فيعبىء جيشه ، فلا يلبث الرعب من تدخل جيش سليم أن يرمى عدوين احدهما فى أحضان الآخر : اذ لا يريد نابليون المخاطرة بمجده الحربى الجديد ، واذ يرغب فرانسوا جوزيف عن المخاطرة بمركزه فى المانيا ، فيتفق الاثنان فى يوليه بالصلح . هذا وبروسيا هائجة حانقة ، والوصي على رأس الجميع حنقا وهياجا . والمغتبط المسرور هو بسمارك وحده، مغتبط لان البروسيين لم يحملوا على القتال ، وكذلك القيصر الذى يصفق لهزيمة النمسا ، ويحيط السفير الجديد القادم من بروسيا بالمزيد من تعطفاته

فى بطرسبورغ

وبسمارك هنا فى الجو الذى خلق له : يستقبل بحفاوة ، ويهدف الى توثيق الروابط خيرا مما هى ، ويأسر القيصرة الام ، ويستعين بجاذبيته على رفع الكلفة الى حد أن أميرة فى الرابعة من عمرها قالت عنه بالروسية كما يروى : هذا لطيف . وعن جنرال لاتريد أن تحييه : هذا نتن . فاذا جلس الى سرير المريضة الهرمة يسامرها علم منها أكثر مما تنشئه الاستقبالات وتنقل اليه العيون . كذلك يعرف كيف يعامل جورتشاكوف رئيس الوزراء الماكر المتدين الذى تقدمت به الآن السن ، فيصطنع أمامه احترام التلميذ ، ويشجع غروره الذى يفوق غرور الديبلوماسيين . وفى كل هذا لا يسخط الا من مولاه الذى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يرفع بعد رتبته العسكرية ، ذلك أنه وهو سفير يظهر فى الاستعراض الكبير ملازما ضخما بين جنرالات ضخام الانوف . ومع أنه يرى القيصر على الدوام فهو يهدد برلين بأنه « متنزل من الآن عن هذه المناسبة الوحيدة التى أرى فيها القيصر فى غير موسم الشتاء . انى هنا لست فى مركزى »

البيت والصيد

لقد كان بسمارك فى بطرسبورغ راضيا تقريبا بين الحين والحين . والمسكن الذى هو أساس رضاه ، والذى شغلته تفاصيله قبل وصوله ، قد هيىء له ، فكلفه تأثيثه وحده فى مبدأ الامر من الفكر أكثر مما تطلبته خدمته . فهو يصف لزوجه البيت الذى سيستأجره ، فلا يدع من تفاصيله غرف الخدم ولا أن حجر الأولاد تدخلها الشمس فى الشتاء الى الساعة الثانية عشرة على الأقل . فهو يهتم بكل شىء كما كان يفعل يوم أن كان نبيلا مسكينا ، ولا يقتصر اهتمامه على القريب ، فهو يكلف الزوجة التى ماتزال فى فرانكفورت أن تكسو أثاثا معينا فى دارمشتات ، لأن كل شىء أغلى فى الروسيا ثمنا « ان النماذج نصف الحريرية تبدو كالحرير ، وأراها تناسب الاثاث كله ، لاسيما أثاث حجرتى الاخضر .. ويمكن كذلك ان تصنع منها ستائر الابواب .. وصندوقة الكتب ليست على ما يرام ، وان كانت قاعدتها حسنة ، وهى يجب أن تكون أكثر ارتفاعا ، وسأفكر فى قطعة من الاثاث أضعها عليها » . حاشية : « الا تنمو ثانية أضراس الاطفال الرديئة فيبداونها بدل أن نضطر الى حشوها » . ويستحضر مافى قبوه من الخمر الى الروسيا عبر البحر البلطى « فمن يعلم من يفرغه فى شينهوزن » ويباهى بأن بيته الواقع على نهر نيفا كبير جدا ، وأفخم مما ينبغى قليلا ، تلحقه اصطبلات جيدة وساحة للركوب ، ثم يوصى « بمكتب أكبر كثيرا » و « فرش ضخمة للاسنان ، جامدة كالحجارة » . وكلمـــا ازداد دخله ازداد ادخاره وعظم اقتصاده . يصرح بأنه هنا ، بثلاثين ألف ريال ، مضطر الى التضييق الكثير ، والحذ من النفقات ، لايقيم ولائم ، ويستبقى للغداء من يتفق وجوده ، ويستقدم التفاح والبطاطس من بوميرانيا بحرا ، يجلبه من عند أخيه ، ويفاوض أخاه فى مد المياه ، وفى تفاصيل الايجار فى مزارعه ، ويرتاح جدا من استطاعته ادخار دخله الخاص

ولا يبهره شىء فى الروسيا كالسعة فى كل شىء وخاصة فى الصيد . والبلد الذى يستطيع المرء فيه أن يصارع الدببة محبب الى بسمارك من أول الأمر . وأحب اليه من صداقة القيصر ، وربما أيضا من هزيمة النمسا فى سولفيرينو لحظة « شب فيها دب مصاب بطلق نارى واتجه نحوى فاغرا فاه ، فتركته يمشى حتى بات على مقربة خمسين خطوة منى ، فرميته برصاصتين فى صدره ، فأرديته قتيلا . كل هذا ولم يحدثنى شعور بالخطر لحظة واحدة . وقد كان الصياد واقفا ورائى يحمل بندقية أخرى مزدوجة محشوة . وليس كالغابات الاصلية شىء . فما يزال للصيادين فيها جنات حقيقية . وقد عض اصبعى دب صغير أربيه وأريد عرضه فى رينفلد . فالآن سأجلب له زوجة جزاء له ، وأنفيهما معا الى بوميرانيا » . وحين يعود من الصيد ويقص مثل هذا على

صديقه كويدل يزيد عليه ما يشبه مبدأ مقررا : « ان حياة الصياد هى الحياة الطبيعية التى تلائم الانسان حقا » ففى هذه اللحظات ، وفى ذلك المنظر الذى لم يداخله فيه خوف ، يجيش صدره بدم قطاع الطرق من الفرسان — ذلك الدم العتيق — فاذا جمع المرأ بين هذا المنظر ومناظر أخرى دهش من مبلغ الدقة والرقة التى يمتاز بهما سلوكه فى المجتمع والبلاط ، وهو ما اكتسبه على الرغم من ذلك

واذا استطاع أن يبعث الى أخته بفخذ دب استشعر الهناء من هذا ، واعتذر اليها عن الصمت بجملة شهية قال فيها انه — أى الفخذ — « لدب صغير جدا عمره سنة . وقد يكون ملحا قليلا ، لكنى آمل أن يكون رقيقا بقدر ما يستطيع الدب أن يكون » . وحتى يعود من زيارة غراندوقة ، ويخرج ما أهدته اليه من سجائر ثمن كل وحدة منها بخمسة عشر جروشنا

عند القيصرة الأم

وبعد جيل من الزمان يكتب فى مذكراته عن زيارته للقيصرة الام « اعد للمدعوين فى السفارة وليمتان ولى ثلاث ولائم من المطبخ الامبراطورى .. وقد أعدت المائدة لى ذات مرة فى دارى مع كل مايلزمها من أدوات حملت اليها ، ثم عنها . وفى مرة أخرى أعدت لى ولمن رافقونى على مائدة القيصرة فلم أحضرها هناك ايضا ، ذلك أنه تناولت الطعام من دون مرافقى مع جماعة قليلة امام سرير القيصرة المريضة » . وسرعان ما اعتاد لهجة السادة الروس ، فهو يقول عن الاستعراض فى رباطة جأش أن أربعين ألفا مروا أمامه « فهو مادة بديعة من الانسان والحصان والجلد »

كل شىء هنا أعظم من مثيله « حتى المشاحنات اليومية التى تقع فى فرانكفورت قد بذتها مشاحنات أعظم منها وأهم .. فسوء النية والسموم التى كانت تند عن دوائر الاتحاد والرياسة تبدو بالنسبة لما يجرى هنا عبث أطفال .. وحين ينادى فى «بئر السلم» ونحن عائدون : «السفير البروسى» ترتسم الابتسامة الراضية على أوجه الروسيين جميعا كما لو كانوا فرغوا فى التو من احتساء كأس من مشروب روحى فى درجة ٩٠ » وقد بهره من روسيا النائمة مافيها من سعة وسلطان وسيادة ؛ فكان ان هذا الشعور بالعطف ، وان لم ينتج سياسته الموالية للروسيا ، قد قواها فى المستقبل حقا ، وجعلها فيما ينيف على ثلاثين سنة ، تبدلت فيها سياسته وفق الظروف ، الشىء الوحيد الذى لم يتبدل . وقد كان فى شيخوخته ما يزال يرى فى بعض ما رواه من حكايات من نوع ماسلف تفكيره فيه « تعبيرا عن الحيوية الأولية والونبات اللذين تقوم عليهما قوة الكيان الروسى حيال بقية أوربا »

خصم يظهر

هذا الارتياح النفسانى والجسمانى الذى استشعره بسمارك نغصه حادثان لم تتعرض لمثلهما من قبل ومن بعد مرة اخرى . فانه عند وصوله الى الروسيا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجد مستشار مفوضية كان قبل سكرتيرا ثانيا ، لكنه تولى في عهد سلفه الاشراف على أعمال السفارة وألم بكل شيء . فهو يجلس مع هذا المستشار يتحدث ويدخن ، ويدوم ذلك بضعة أيام . لكنه حين يرغب في املاء برقية تقع في صفحة كاملة يسمع منه هذا الجواب : « ان موهبة الكتابة بأملاء الغير تنقصني كل النقص » . ولم يكن كريردفون شلوتسر عبقريا ولا سائسا ، بل كان على جانب عظيم من التعليم ، وكان كموظف مبدعا ، بصيرا ، من أسرة تثقفت في الأدب ، يصغر رئيسه الجديد ببضع سنوات فحسب ، لكنه يشاركه في صفتين : الشجاعة والاعتداد بالنفس ، فأبى في الحال من ثم أن يستخدم كآلة ، وأجاب بسمارك وهو مرءوس له هذا الجواب البسماركي الصميم

فماذا يصنع الرئيس في هذا الموقف الجديد ؟ فمثل هذا الذي وقع لم يحدث له قط . فهو يسقط في يده . ومع أنه قد يكون احترمه لهذا في سره ، فانه لم يكن له من الفلسفة الكفاية ، وكان أكثر اوتوقراطية من أن يدع الأمور تجري مجراها . فأولا لم يعد يقصد الى حيث المستشار ، بل كان يدعو اليه ملحقا يملي عليه ، بينا يروح ويغدو في الحجرة كأحد الباشوات . وحين يستدعي مستشار المفوضية بعد بضعة أيام الى ساعة من المساء غير مألوفة لفك رموز شفرة يأتي هذا المستشار متأخرا ساعة ، فيجد الملحق يعمل عند رئيسه . ويستقبله رئيسه في جفوة ، فيصبح شلوتسر «صريحا» « وهذه أشياء لم يعهدها السيد من قبل »

شجاعة شلوتسر

وبعد ذلك بيومين : يصدر أمر كتابي يمر بالسفارة مفتوحا ، ليوقعه المستشار أيضا ، وفيه « أرجو الهر فون شلوتسر أن يوافيني يوميا في الساعة الحادية عشرة للتحدث في البريد الوارد » . فيأتي جامدا ، منتصبا . فيسأله بسمارك : « ماذا عندنا اليوم ؟ » — لا شيء — فيرتبك بسمارك قليلا ويقول : « ما الى هذا قصدت . انما رجوتك الحضور حين يكون ثمة شيء »

الآن يعلن هذا القتال : فمن يثبت منهما أكثر من غيره ؟ انهما يقظان الى كل ما يتعلق بالعمل . « لكني لا أهش له .. فمثله لم يصادفني من قبل ! وليس هذا بالشيء المريح . لكنه خير الا ارتاح من أن أغلب على أمري » . ويكتب كل منهما الى الآخر كتبا مثيرة في دار السفارة . ويكتب بسمارك في نفس الوقت الى رئيس الوزارة رئيسه يقول : « ان الهر فون شلوتسر موظف سطحي .. يدهش المرء بقلة أدبه » . لكنهم في برلين يقدرون السكرتير الطموح أكثر مما يحبون تشجيع السفير الخطير ، فهم من ثم لايتحركون لشكواه . ويكتب شلوتسر ، وهو من تعى رسائله ومفكراته حالاته النفسية ، يقول بعد اسبوع : « هذه الاثارة المستمرة في ظل رئيس لايبالي ، ورجل يتصور أن غيره من الناس لايتكون الا من نقط الضعف ، هذه الحالة تحت رياسة من يرسم خططه في الظلام ، أو ينشد مغافلة سامعيه بالخديعة ، ولا يثق بأحد ، شيء لايطاق حقا .. اني أكاد ألا اجتمع به ، لأني

عندئذ سأضطر الى أن أكشر له عن نابى أو ضيعنى . ان سياسته هى اعتصار الليمونة وانقاؤها » . ثم يستطرد بغتة فيقول ان الدسائس من حوله ، « ومن وراء ذلك المارد الضخم بسمارك !.. لقد طالما وقفت فى وجهه موقفا صريحا حتى ليود أن يدعونى الى المبارزة . انه لم يسعفه الحظ الى الآن فى الهيئة السياسية »

الباشـــا

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع : « فى كل مرة أهيب بنفسى قبل أن أدخل حجرة الباشا : لا تلن ! لا يأخذنك على غرة ! فانه ليرحب بمهزلة التصافى ، لكنى لا أربد ، وان كنت أشعر بتفوق الطاقة الذهنية فى هذا الرجل كل الشعور ، وأسمع صوتا من الباطن يهتف بى : أن فيه لشيئا أحب ان أسميه «سيدا» لكنى أحب أن أصم أذنى عن هذا الهاتف ، فانه يجب أن يقنع بأنه اخطأ فى حقى » ...

وبعد شهر : « هاقد ضرب الباشا على أوتار ناعمة ، ومثل الشخصية المريحة ، لكنى بقيت على جفوتى الشديدة . على أنه قد تغير ، فهو يثنى على فى غيبتى .. ولا يعود يصحح فى مسوداتى .. انه الآن مريض منذ ثمانية أيام .. وهذا يجعله أرق حاشية وأكثر وداعة »

ويعمل بالسفارة عقيب ذلك أمير يدعى كروب اجابة لرغبة الرئيس ، فلا يلبث أن يثبت عدم كفايته ، ويعرض نفسه للسخرية ، فلا يرى الرئيس « احب اليه من الهزء به . لكن هذا لم يجد ، فلم أقره على مثل هذه المباسطات ، كما لم أجبه الى دعوته اياى الى تناول طعام الغداء ، وقد رفضت ما قدمه الى من السجائر مرارا . والحق ان جميع الناس يهابونه فيما عداى ؛ ومن ثم كان حنقه على »

بسمارك ينتعظ

وبعد ستة اشهر ، وكان الرئيس المريض مسافرا من أمد ، يعترف شلوتسر لاحدى قريباته بأنه لم يكتب اليها من أمد طويل ، «لان كل شىء سببه الباشا . لقد قلبنى بطنا لظهر حتى لا أحب أن أريك باطنى » . وفى فبراير يكتب اليه الرئيس فى شئون تتعلق بالأثاث والخدم ، واذ لم يكن غيره فى مثل مهارته ، « فقد اضطر الباشا الى أن يقبل مذلة الكتابة الى فى مسألة خاصة . وقد رددت عليه بلا زيادة أو نقصان ، وأرسلت اليه بطارخ مرتين بناء على طلبه » . لكن بسمارك يكتب الى رئيسه فى برلين فى نفس الوقت يقول : « انى أستطيع أن اثنى الثناء المستطاب على الهر فون شلوتسر بحيث يبيت تأثرى الاول منه وكأنه لم يكن » . وهذا بعد المقابلة الاولى بسنة تقريبا

وبعد ذلك بنصف عام آخر يكتب شلوتسر : « كل شىء يجرى مع بسمارك على مايرام . وقد سمعت فى برلين أنه ذكرنى بالخير فى ولهلمشتراسه ، وأنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سحب فى اخلاص متناه كل ماقاله من قبل ضدى .. مريضا كما هو ، منفعلا من الناحية السياسية ، وربما متأثرا بأناس بعينهم . فالآن لننه هذا الفصل فغير ذلك ما يتعلق بالمسائل السياسية : فهو رجل جهنمى . لكن الى أين يريد ؟ » وعقيب ذلك : « أنى أتناول الطعام يوميا عند بسمارك .. بدعوة خاصة منه . لم يقع بينى وبينه شيء جديد . انه السياسة المجسمة . كل شيء يختمر فيه ويجيش ويطلب الخروج الى حيز الفعل وينشد التكون . انه يسعى الى التغلب على الفوضى فى برلين ، لكنه لا يعلم بعد كيف .. انسان غريب ، يبدو حافلا بالمتناقضات » . ويرجو بسمارك من برلين عقب وصوله بعامين استدعاء الامير الذى أتى به هو ، وتعيين شلوتسر سكرتيرا أول ، ويقرأ الرسالة للمطرى قبل ارسالها ، وفيها : « شلوتسر صعب فى معاشرته للرؤساء . وقد قضيت معه فى البداية وقتا سيئا . لكن حذقه وأمانته قد أزالا تأثرى منه ومحواه محوا تاما »

والحادث فريد فى حياة بسمارك : فلم يخدم معه بعد ذلك موظف مستقل ، ولم يطق قط بعد ذلك موظفا مشاكسا على مقربة منه . وعجيبة جدا تلك الدهشة التى تتملك كلا منهما حين يتبين قيمة عدوه : يتبين أحدهما الموظف الحاذق ، ويتبين الآخر الرئيس العبقرى . وهذه العلاقة علاقة الوظيفة ــ تبدأ بكشف كل منهما لخفى الآخر ، وتصبح ساحة نزال لكبرياء سيدين نبيلين يريد كل منهما ان يهزم الآخر : احدهما بالعبقرية ، والآخر بالخلق ، لا بالسن ولا بالمركز ، ولان كلا منهما يؤدى دوره يحرز كلاهما نصرا ، ولا يمنى أى منهما بالهزيمة ...

الفصل السابع

حـــــادث

فى يوم من أيام يولية بعد وصوله بشهرين يعود السفير الجديد من الركوب فى ساحة قائظة من دون معطف عليه ، فيحس ألما فى أعضائه ، فيضع له طبيب ألمانى لزقة على ساقه اليسرى ، وفى الليل يشتد عليه الالم ، فينتزع اللزقة ، ويرى فى اليوم التالى عرقا تالفا . وقد أحنقه هذا ، وزاد فى حنقه أنه لم يستطع أن يهتدى الى « من مزج السم » أهو الطبيب أم الصيدلى . ويستشار جراح روسى شهير فيشير ببتر الساق ، فيسأله المريض : « فوق الركبة أم تحتها ؟ » فيشير الطبيب الى موضع يعلو الركبة كثيرا ، فيرفض المريض ويسافر بحرا الى المانيا فى حال سيئة

كان قرار كهذا خليقا أن يبدل سيرته العامة ويقلب عمله رأسا على عقب . فبسمارك ذو الساق الواحدة لايفقد بذلك عقله ، بل يخسر كل شىء نجح به هذا العقل من هيبة وتهديد وجرأة . على أن طبيعته الجبارة وحدها تنقذه من هذه الحالة . ذلك أنه وقد شفى بعض الشىء يعود الى سان بطرسبورغ ، وفى العودة يستريح فى ضيعة لأحد معارفه بصحبة ذويه . وانه لكذلك اذا به يشعر على حين فجأة بتضعضع ، اذ تنفك سدادة فى الشريان التالف ، وتلتهب الرئة . ويلازم الفراش ميئوسا منه ويكتب وصيته . ويروى فى شيخوخته انه كان مستعدا للموت « ذلك الاستعداد الذى تيسره الآلام المبرحة » . ولا يذكر الدين بكلمة وانما تنصب ضغينته الأخيرة على البيروقراطية فى هذه الساعة اذ يبعد الحكومة عن التدخل فى الوصاية على أولاده ، وهو موظف كبير من موظفى الدولة

على صخرة الشرفة

وفى برلين حيث يراد أن يستطب ، يشغله السياسيون أكثر مما يشغله الأطباء ، فهو يبقى نصف عام تقريبا فيها ، يستبقيه الوصى وان حاول كل شىء كى لايضطر الى استبقائه ، فهو يخشى المنازعات التى يمكن أن يجره اليها بسمارك . ومع أنه لايطيقه لايدع هذا الاحتياطى الأخير يرحل وهو فى نزاع متزايد مع الأحرار . وبسمارك لايكره التوسط فى الحالة القائمة ، فهنا حيث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يفصل فى الأمور يكون مع أصدقائه أقوى تأثيرا فى العمل على تعيينه وزيرا للخارجية مما لو بقى مبعدا على نهر النيفا مكرما مع ذلك . وهو هنا يسعه أن يعتذر بالطبيب من طول الاقامة فلا تمس عندئذ كبرياؤه ، فهو يكتب الى زوجه متفكها ، عظيما فى فكاهته ، يقول : « أنى أجلس هنا على صخرة الشرفة كحورية النهر * واشهد الملاحين يمرون من « الهاويس » فى نهر شبرى ، لكنى لا أغنى ولا اشتغل كثيرا بتمشيط شعرى . أحسبنى أقيم هنا فى الفندق مخلدا ، تمر بى فصول السنة وأجيال المسافرين والندل ، وأنا باق فى أحجر الخضراء أطعم العصافير ويساقط شعرى »

يناهض الاتحاد

ويستعين ألوصى مؤقتا بشلاينتس فيجعله رئيسا للوزارة ، وينتظر موت أخيه . ويرى بسمارك فى شلاينتس رجلا من رجال البلاط تابعا لأوغسطا . ويمثل الوصى مع ذلك مهزلة مؤتمر كأنما يريد أن يكون الحكم بين الرأيين المتطرفين . ويطلب فى هذا المقام الى بسمارك أن يضع البرنامج الذى يؤكد فيه خواء النمسا ، وطاقة بروسيا ، وصداقة الروس منذ حرب القرم . ويشبه بروسيا بدجاجة تتهيب أن تتخطى الخط السحرى المرسوم بالطباشير . ويتكلم شلاينتس أثر ذلك بأمر الوصى فيذكره بوصية أبيه ، فيضرب بهذا على « وتر حساس للوصى يستجيب على الدوام » ، وتوائم نغمته هابسبورغ وتنفر باريس فيرد ولهلم بخطبة ظاهر أنها معدة ، فلا يتوقف ، ويعلن استمساكه بهذه التقاليد القديمة ، ويفض الاجتماع . وقد دبرت أوغسطا هذا المنظر لتلوح للرجعيين بجد البديل . ولم يكن يحدوها الى ذلك ، على قول بسمارك ، أغراض ايجابية بقدر ما حداها نفور بعينه ، واعراض عن الروسيا ونابليون « وعنى أنا لميلى الاستقلال فى الرأى ، ولرفضى المتكرر أن أبدى للغرين آراء الزوجة السامية على انها آرائى »

ولم تكن اوغسطا وحدها هى التى استبعدته فى سنة ١٨٦٠ عن تصريف الأمور ، فقد كأنه قبل كل شىء برنامجه الألمانى . فحرب السنة الماضية كانت حنفت من جديد ضربا من الشعور الوطنى يفوق ما كان من دوائر سنة ١٨٤٨ ومحافل الأحرار . فعاد ما كان يومئذ من الخطب الكثيرة والحفلات والتآخى ، لكن المتقدمين من الساسة كانوا يريدون على الاكثر أن يستبدلوا بالمحالفة مع النمسا سيطرة فى المانيا ، أى أن يعملوا للوحدة الالمانية فوق ما عملوا . وبسمارك يريد أن ينسف هذا الاتحاد « لأنه يجب أن نعده آفة لابد من معالجتها بالحديد النار ان عاجلا وان آجلا ، اذا نحن لم نعجل بعلاجها فى ظرف مؤات » . لاول مرة يكتب السفير الى وزيره عن هذه الحالة فيذكر النار والسيف . فتأسيس ألمانيا لا يلوح له ممكنا الا على هذه الصورة ، اذ

---

* حورية النهر هى من تسمى فى خرافات الالمان الشعبية Loreley وتجلس على الضفة تستهوى الملاحين ، حتى اذا ظفرت بهم ألحقت بهم الدمار

يعلن عقب ذلك : « انى أرحب بأن أرى كلمة المانى بدل بروسى مكتوبة فوق عامنا ، ولكن على أن يكون ارتباطنا بغيرنا من المواطنين أوثق وأنفع مما كان الى الآن .. ان هذا الارتباط ليفقد شيئا من سحره اذا مالبثنا نلوكه ونبليه من الآن »

أزمات جديدة

وفى نفس الوقت فرق بينهوبين الوصى كل التفريق انه انقلب على شرعية الحكم انقلابا بات الآن تاما . فهو يفضى بحقائقه الواقعة فى هذا الموضوع الى جيرلاخ الذى جرد من سلطته . يفضى بها فى هذا الأوان اليه فى رسالة سرية يودعه بها فيقول عن ذلك الأمر : « ان فرنسا ستبقى فى نظرى فرنسا ، أحكمها نابليون أم لويس القديس .. ولهذه الفروق الواقعية وزن كبير فى الحساب السياسى بطبيعة الحال ، أما بالنسبة لضميرى وللحق فلا قيمة لها عندى .. انى لا اشعر فى نفسى بتبعة عن الشئون الخارجية .. لكنك اذا أحببت أن تفرق بين الشرع والثورة ، وبين المسيحية والكفر ، وبين الله والشيطان ، فلا يسعنى أن أناقشك ، بل أقول لك ببساطة انى لست من رأيك ، وانك تحكم على شىء فى ليس من اختصاصك .. انى لا أتردد فى محاربة فرنسا حتى تلعق الكلاب الدم ، لكن ضغينتى فى هذا الأمر لن تكون أشد من عداوتى للكرواتيين والبوهيميين ، وقسس الاعتراف الجزويتين وأهالى بامبرج »

لم تكن هذه لهجته حين كان جيرلاخ مايزال صديقا للملك ، فالآن وقد أهمله الوصى ، أضحى أخذ بسمارك فى تلك الأثناء بالواقع فى الشئونالدولية أحسم للامور . كذلك ازداد اعتداده بنفسه ، لكنه لا يبدى الصراحة فى القول الا لمن فقد السلطان فلنيلبثأن ينساه . وهو الآن يتصل بالآخرين ، وتزداد الأزمات وتتكرر بأسرع من ذىقبل . ويعود الى بطرسبورغويتسمع من هناك ، من الخارج ، وتخيب آماله من جديد ، لكنه تتضاعف همته وتدابيره : فهكذا كشفه شلوتسر مصاحبه اليومى فى نفس الخريف ، وأبداه رأسا للعيان :

هذا الذى فى ولهلمشتراسه

« ان الباشا يتملكه الآن انفعال مرعب ، فقد غلى دمه من اقامته فى برلين ، ومن حيرة ولاة الأمور هناك واضطراب الحبل . وانه ليلوح أنه يعد فرصته دانية ، سيستعفى شلاينتس فيداعب الامل الباشا عندئذ فى الحلول محله ، بيد أن المسألة الكبرى هى : أيلائم بروسيا ؟ أيلائمه البروسيون ؟ أيدخل هذا الذهن البركانى فجأة هذه الاحوال الضيقة المحدودة ؟.. انهم هناك لايريدونه ، ويصطنعون أنه غير موجود . فهو يمارس السياسة اذن على مسئوليته . انه لايتخذ هنا مايسمىبيتا ، ويشكو دائما منالغلاء ، ولا يرى الا القلائل . ينهض من نومه فى الحادية عشرة أو فى منتصف الثانية عشرة ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويجلس النهار كله فى سترة البيت الخضراء ، ولا يزاول حركة ، ويشرب من ثم كثيرا ، ويسب النمسا .. يقص على الكثير فى صراحة مدهشة ، وما يقصه ممتع . متوثب ، ثورى ، يخلط كل النظريات . وهذا الذى فى ولهلمشتراسه ! يالله ! لقد قال عنه أخيرا .. شلاينتس ينبغى انيكون رئيس الديوان . وعلى الملك عندئذ أن يختار بين برنشتورف وبورتاليس وبينى لوزارة الخارجية * Ipsisissma verba Paschae أنه يحلم ليل نهار بالمناصب الوزارية ! »

نمر محبوس ، متحفز دائما للوثوب ، لكن القضبان الباردة تفصل بينه وبين فريسته دواما . لم يعد يستهويه شىء مما كان يرفه عنه فى العادة ، لا ناس ولا صيد ، بل يلف دائما حول المسألة الكبرى : متى يخلون بينى وبين الحكم ؟ هنا تبدوحقيقته أظهر منها وهو يمثللزوجته المسيحى المعذب

ويموت أخيرا ذلك المريض بعقله فى رأس سنة ١٨٦١ : ويصبح غليوم ملكا . لقد انتظر جيلا فهو الآن فى الثالثة والستين . والآن بالذات يلوح له كل شىء مضطربا ، مختلطا ، وحملة الاحرار على مشروعات الجيش الجديدة ، وخلافه مع زوجته وولده متعبا الى درجة أن يصمم على اعتزال الملك وتولية ابنه الذى لايكاد يبلغ الثلاثين من العمر . وكل ماهو محافظ يرتعد من هذا التصميم ، يرتعد منه البلاط بأسره ، ذلك أن هذا الابن كان خليقا عندئذ أن يطويه الاحرار تحت تأثير زوجه الانجليزية . « وحامل ترس » الملك هو البرخت فون رون ، جندى كما ينبغى أن يكون الجندى ، وأشرف شخص فى الدائرة المحيطة بغليوم : رجل ، جاد ، متواضع ، يخاف الله ، ولا يحب الظهور ولا التصفيق ، لايحسد ، وجيه شعاره الأمين عليه هو : أفعل ماينبغى وعان ما يجب عليك . بهذا يعد السلاح لبلاده ، خصما عنيدا للحرب ، لكنه شب متأثرا بفكرة السلطان ، خاضعا لها . وقد كلفه الملك العسكرى وهو وصى بتجديد الجيش . وهو من يسند الملك ويقيم صلبه بتذكيره بأجداده ، ومن يصر على أن يطلب الملك من رعاياه ان يحلفوا له يمين الولاء فى تتويجه كما كان آباؤه المطلقون يفعلون . ويناهض الوزراء المترددون هذا الرجل ، ويعرف رون واحدا فقط : هو بسمارك ، يعرفه من قديمأقوى الجميع تصميما ، خليقا فى مكان شلاينتس ان يحمل الرعية على الطاعة وينفذ اصلاح الجيش ، فى دولة لها دستور ، وفيها نزاع !

أول نداء لرون

ويلين الملك : فهو يريده على الاكثر وزيرا للداخلية كمجاهد ومضطهد ، اما وزيرا للخارجية فلا ، فهو « بونابرتى ! » . ويرد بسمارك على هذه التهمة فى رسالة خاصة فيقول : « اذا كنت أبايع الشيطان ، فأنما ابايعه تيوتونيا لاغاليا » . فلأول مرة لا يقول كلمة «بروسى» ، لاول مرة يعلن أنه ألمانى ،

---

* عين كلمات الباشا

وألمانى من الطابع القديم الذى كان يسخر منه فى صباه . ويقف رون كل شىء على يمين الطاعة ليجعل من الملك مثالا وقدوة ، ويدعو بسمارك الى الشخوص الى برلين ، وأن يبرق بما قر عليه رأيه ، ذلك « أن الملك يعانى كثيرا . وأقرب الناس اليه يناهضونه ويشيرون بصلح ضار »

رفض جزئى

أما بسمارك الذى كان فى الشتاء يتحرق على المنصب الوزارى ، فيخيب أمله هذا الطلب الآن بعد ستة أشهر ، لأنه يحول بينه وبين ما يهوى ، ولا يبرق بل يرد فى حذر :

« ان أمركم الى «بالركوب» وشيئان يتنازعاننى هما مشاعرى الراضية من نحو دجاج الغابة وحنين الزوجة والاولاد قد كان له وقع صارخ غير مؤات ، فلقد بت خامد الذهن ، هامدا ، خاثر النفس ، منذ فقدت أساس الصحة وجوهرها » . ويستطرد فيرى أن يمين الطاعة شىء ليس بذى بال ، وانه راغب عن تولى وزارة الداخلية لأن الحكم فى الداخل أميل الى مبادىء الاحرار ، والسياسة فى الخارج أدنى الى مبادىء المحافظين بدلا من أن يكون الامر بالعكس . وهو فى هذه الافكار يخط كلمة من اعمق الكلمات عن الالمان حين يقول : « اننا لانقل عن الفرنسيين غرورا تقريبا ، فاذا استطعنا أن نقنع أنفسنا بأن لنا هيبة فى الشئون الخارجية فلنتساهل عندئذ فى كثير مما يجرى فى الداخل » . ويزيد على ذلك قوله : «انى منخلص للميكى حتى لاخوض الحرب الاهلية فى سبيله ، لكننى لاأشعر نحو الغير بأى التزام حتى أؤيدهم أى تأييد . وانى لاخشى فى تفكيرى هذا أن تكون شقة الخلاف فى الرأى بينى وبينه بحيث يصعب على جلالته ان يجدنى صالحا لان أكون مستشار التاج» . ويختم بغتة بهذه الكلمة : « فاذا رأى الملك رأيى نوعا ما ، توليت العمل مغتبطا »

وسبب هذا الرفض الجزئى ، وهذه النغمة الخائرة ، يرجع الى الصلابة أكثر مما يرجع الى المرض . فهو ينهض فى منتصف الليل من نومه ليرى دجاج الغابة . وسيجعل من الآن فصاعدا صحته فى جملة الوسائل التى يتخذها فى جهاده السياسى . والحقيقة أنه لا يأمن الركون الى هذا الاستدعاء غير الرسمى ويشعر كذلك بأنه لا يناسب كرامته . وحقا انه حين يصل أخيرا الى برلين ، يجد أوغسطا عدوته القديمة قد انتصرت بتساهل الملك واجتزائه بمجرد التتويج «الذى أوصى فى فبراير على معاطفه » . ويشهد رون ان الملك واقع أكثر من ذى قبل تحت تأثير الملكة ومعاونيها ، « فان لم ينشط جسمانيا ضاع كل شىء وترنحنا فوق ترنحنا فى مسيرنا الى نير البرلمانية والجمهورية »

الريخ الالمانى

ومع ذلك يسافر بسمارك فى الحال الى بادن لملاقاة الملك فيدهشه قدومه ولا يرتاح اليه « خشية أن يكون قدومى بداع من الازمة الوزارية » فعندما يرى نفسه آمنا من ناحية مفيستوفوليس يهش له ويبش . وفى هذه الايام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالذات يحاول طالب المانى الاعتداء على حياة الملك ، لا لشيء سوى ما يعتقده من أنه لم يفعل شيئا للوحدة الالمانية . وهذا أيضا من رأى بسمارك لكنه لم يطلق على الملك سوى أفكاره ، والآن يكون حصيفا وينتفع بالحالة النفسية القائمة على عجل ، فيبسط للملك ، الذى أثر فيه اخفاق المحاولة وباعثها تأثيرا عميقا ، وجهة نظره ، ويجعل منها مذكرة تنسخ يوحنا صفحاتها أثناء العطلة الصيفية فى رينفلد . وتدل هذه المذكرة على تحول حاسم شاف فى آرائه ، وتبسط مالا يقل عن فكرته الاساسية فى الريخ الالمانى :

« ان بروسيا لا تستطيع ان تقوم فى ألمانيا بدور القلة المسودة .. فدولة الاتحاد التى ترجح فى سلطانها سائر دول مجتمعة ، يحق لها نفوذ غالب فى الشئون المشتركة . فلكى ندنو من هذا الغرض قد يكون تمثيل الشعب الالمانى فى هيئة نيابية قومية لدى سلطة الاتحاد المركزية هو الرابطة الوحيدة التى تستطيع أن توازن موازنة كافية بين الميول المتضاربة فى السياسة الخاصة التى تجرى عليها الأسر المالكة . فبعد أن تقوم فى كل دولة ألمانية هيئة نيابية ثورية يصبح من المحال أن تعد مثل هذه الهيئة حين تمثل المجموع ، هيئة ثورية فى ذاتها ولذاتها .. وانه ليضمن الاستنارة ويكفل الموقف المحافظ فى مثل هذه الهيئة النيـــابية الا يختار اعضاؤها من الاهالى رأسا ، بل من المجالس النيابية فى مختلف البلدان الالمانية . عندئذ تعالج مصالح المجمـــوع الالمانى معالجة اكثر انطواء على الحنكة السياسية بدلا من تلك المنازعات الحقيرة القائمة فى تلك المجالس » . ويرى بسمارك أنه يجب ان تترك لكل دولة من الدول الالمانية سلطتها سليمة لكن النمسا على الاقل سترفض بالرغم من ذلك ومن ثم لا فائدة من البندستاج الحالى : « ولعله ابعث على الامل أن يسعى الى استحداث تدابير قومية أخرى من الطريق الذى نشأ منه الاتحاد الجمركى » . واعلان هذه الخطط « يجب أن يرمى الى غاية مزدوجة ، أولا أن يطمئن الامراء الى أهمية خططنا ، ويتبينوا أننا لا نقصد الى اخضاعهم لسلطة الامة ، بل الى تفاهم الجميع بمحض اختيارهم ، وثانيا ان يبدد ما استحوذ على الشعب من قلق مثبط للهمم من جراء اعتقاده أن بروسيا تجد فى البندستاج الحالى آخر ما يمكن ان تتطوره ألمانيا »

خطوط الريخ الرئيسية

هذه الخطوط الاساسية لبرلمان على غرار الاتحاد الجمركى يفضى فى النهاية الى الريخستاج الالمانى ، تدل ، اذا قوبلت بما ألقاه بسمارك سنة ١٨٤٨ من خطب وما كتب من رسائل ، على تطوره من الرجل الحزبى الى رجل الدولة : فهو الآن من يريد أن يحقق الفكرة الاساسية للثورة ومعها اتحاد الالمان ، ذلك الاتحاد الذى أباه يومئذ من أجل هذا الاصل الثورى بالذات : « ان الوحدة الالمانيه سلطتها سليمة ، لكن النمسا على الاقل سترفض بالرغم من ذلك ومن آنئذ ، فاذا كان اليوم لا يريد نفس هذا الدستور ، فانه يستعير منه عاملا من عوامله الرئيسية . اليوم يبدو له أصل هذا الدستور وقد تقرر بمضى المدة وأصبح شرعيا الى حد ان يقال فيه « انه محال ان يكون ثوريا » . بلى انه ليرى

ويقول انه لايجب فحسب أن يخلى بين الالمان وحكم المانيـا ، بل يجب أن يدفعوا الى هذه الغاية كيما يوازن تحاسد الامراء الالمان !

التدليس بالسيادة

وأقوى مما فى هذا القانون الاساسى وأدل مما فيه على الطابع البسمركى تلك العبارة العظيمة الواردة فى رسالة كتبها بسمارك فى نفس الوقت الى أحد أصدقائه ضد برنامج المحافظين : « اننا نذهب الى حـــد ان يدلس الحزب المحافظ بكلمة سيادة الامراء الالمان تدليسا لايسنده التاريخ بحال ولا يرضاه الله ، ولا يفره الحق ، ولكن يجهر به الامراء الالمان الذين يتخذون من مركز اتحادنا قاعدة يباشرون منها سياسة أوربية .. ولست الى ذلك اتبين لماذا نتصنع الخوف الى هذا الحد من فكرة التمثيل الشعبى سواء أكان فى اتحاد أم فى برلمان جمركى ... ان فى الامكان خلق تمثيل قومى محافظ كل المحافظة ، وكسب حمد الاحرار مع ذلك »

بعد عشر سنوات من هذه الاقوال افتتح بسمارك أول ريخستاج المانى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثامن

وقف غليوم الاول قبالة الهيكل ، وتناول التاج عن مائدة الرب ، ووضعه بيديه فوق جبينه دلالة على أن الله وهبه اياه لا الشعب . وعلى أثر ذلك مر الجند امامه فى عرض عظيم . وكان بين حاشيته الباهرة قامة جبارة فى سترة زرقاء تبرز من بين الجميع ، لولا مايكسو الرأس من خصل الشعر لظن العارفون أنها لبسمارك ، اذ كان لبسمارك رأس اصلع تقريبا . بيد أن من دقق النظر وقتئذ لم يلبث ان فهم وضحك . « لقد احتطت فارتديت ثوبا عسكريا ووضعت على رأسى عارية شعر ، وأنا واقف فى فناء القصر فى الهواء الطلق . وهى عارية لا تستحق عارية برنار * اذا قوبلت بها سوى كلمة خصلة ، ولولاها لآذتنى الساعتان اللتان قضيتهما فى الهواء الطلق عارى الرأس »

بهذا التنكر حضر بسمارك تتويج ملكه الذى قدر له أن يرقيه بعد عشر سنوات فوق مارقى . ويتحاشى الملك فى هذه الايام رجله الاقطاعى ، وهو ما سيكرره فى عشر سنوات ، بفعله هذه المرة حتى لا يبدو رجعيا ، وهذا ما يحمل الملكة على ان تفعل كل شىء لتوقع الارتباك بالرجلين : فهى تلاقى عدوها بأرق مما كانت تفعل منذ سنين ، وتقف امامه فى احتفال ما . وتبدأ معه حديثا عن السياسة الالمانية « حاول الملك وقتا ما ، وكان يرافقها ، ان يضع حدا له ، ولكن عبثا »

الحرب الاهلية

على أن التاج هبة الله لم يهدىء روع الملك ، اذ استفحل الاضطراب فى بلاده وظل يستفحل ، وجاءت الانتخابات الجديدة فى آخر العام ففاز فيها حزب التقدم الجديد الذى أبى على الملك ما طلب من جند جدد ، فعوقب فى الخريف التالى باقالة الوزارة الحرة ، وعين لمعاونة رون محافظون فحسب ، وحل الكونت برنشتورف محل شلاينتس ، والكونت برنشتورف رجل عاقل ، نشط ، معتدل بمعنى ما ، لكنه لم يكن من القوة بحيث يجرؤ على لعبة جديدة . اما شلاينتس فظل يحكم من وراء ستار ، فلما استدعى بسمارك أخيرا من بطرسبورغ

---

* برنار دوق فايمر كان قائدا مشهورا فى حرب الثلاثين يحمل عارية شعر متهدلة على كتفيه

فى هذا الوقت تبين هذا انه سرعان ما سيكون هناك ثلاثة وزراءللخارجية . ويأمر أمير هيس الناخب بأن يفض قفالون من الجند خزائن رعاياه الذين يأبون دفع الضرائب ، فيتيح جنون هذا الامير سببا كان ينشد للضرب على يده ، ويقول بسمارك لبرنشتورف : « اذا أردت محاربة هس فاجعلنى وكيلا لوزارتك ، ففى أربعة أسابيع أطلقن لك من العقال حربا أهلية من الطراز الاول » . فقد كان يومئذ « شديد المعارضة لشعار الحرب الاهلية »

لقد كان فى ربيع سنة ١٨٦٢ شديد التعطش الى العمل ، راغبا فيه الى حد انه كان مستعدا لان يدخل الوزارة وزيرا بلا وزارة . وقد رضى من جديد بمذنة ما جاء فى جواب الملك من انه لا يجوز له أن يتولى الخارجية وهى الوزارة التى خلق لها . على أنه لايريد بحال من الاحوال ان ينتظر هذه المرة كماانتظر قبل سنتين . وأخيرا يقدم الى رئيسه بلاغه النهائى : المنصب أو الاستقالة . وبعد ثلاث ساعات يعين سفيرا فى باريس . وهذه أول تجربة لقدرته فى طائفة من التجارب هدد فيها بسمارك بالاستقالة لينتزع من الملك قرارا على هواه . وكانت باريس هذه المرة شاغرة كما كانت لندن التى أراد برنشتورف ان يعتكف فيها . بيد أن بسمارك وكان سائسا معادى ، مكروها من الملكة ، مستغربا من الملك ، خاطر مع ذلك بما قدم من بلاغ كان يمكن ان يرد عليه الملك بالاقالة فى حالة من حالاته النفسية . وانه لفضل تاريخى لبرنشتورف أن أشار بعكس ذلك . على أن الوحيد الذى امكن ان يعتمد عليه بسمارك شخصيا كان رون ، ورون لا يستغنى عنه الملك

الى باريس

واذا كان قد عاش فى بطرسبورغ يحدوه شعور بأنه سوف ينقل ، وكان لم يقض فيها سوى نصف السنوات الثلاث التى مضاها سفيرا ، فقد ذهب الى باريس كما لو كان يغشاها زائرا : فالضائقة يمكن ان تستحكم فى كل لحظة فيدعوه رون ، وكان هذا ما اتفق عليه الصديقان فيما بينهما . وهى حالة نفسية لم تكن لترضيه ، وقد رضى فى مثلها الكثير قبل الآن . انه يجد السفارة عفنة الرائحة ، ويلفى للفرنسيين طباع الريفيين ، يحبون الظهور ويتحفظون مع ذلك ، واذ كان منذ سنتين على الاقل لم يبغ شيئا فى العالم كالسلطة ، فان كل ما يلقى يمله ، وأحيانا تغمره درجة من النيهيلية تذكره بأظلم مراحل الشباب

لقد كتب الى أخته عند انتقاله من بطرسبورغ يقول : « بت منذ مرضى جامد الذهن الى حد انى فقدت القدرة على الاهتمام بالاحوال المضطربة . وقد كنت قبل ثلاث سنوات خليقا ان أكون وزيرا نافعا . اما الآن فأخالنى راكبا عليلا من ركبان السيرك .. انى لاذهب اذا اقتضى الحال الى باريس او لندن غير مبال او مكترث ، لا يساورنى هم ولا يداخلنى سرور ، أو ابقى هنا ما شاء الله والملك ، فلن تنصلح السياسة او ينصلح حالى بذهابى او بقائى .. انى أخشى الوزارة صراحة كما أخشى حماما باردا . وخير لى ان أذهب الى تلك المناصب الشاغرة أو أعود الى فرانكفورت ، بل الى برن حيث كان العيش

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنيئا .. ان فارنهاجن ـ والى جانبه مفكرته ـ مغرور سيء النية ، ومن ذا الذى ليس كذلك ؟ فالأمر رهن فحسب بالكيفية التى تنضج بها الحياة طبيعة هذا الشخص أو ذاك ، أيأكلها الدود ، أم تدفئها الشمس ، أم يرطبها الجو البليل ، أتجعلها مرة أم حلوة ، أم تتلفها ؟ »

الوطنية العنصرية

وليس هذا القول صادرا عن احساس منه بماض ، وان لم يكن شك فى أن زوجه وأولاده ومستخدمى بيته لا يزايلهم المرض ، وأن حالة نفسية ناعمة متأثرة تبدو فى ذلك الاعزاز المتزايد الذى يكتب به الى بوميرانيا وخاصة الى أخته . لكنه لما كان مريضا يلازم فراشه حقا عاد يتبين ما بين مشاعره السياسية جميعا من صلة ، ويكتب الى زوجه بنفسيات هملت فيقول : « ليس على هذه الارض سوى النفاق والذبذبة ، وسواء انتزعت الحمى او مزق الرصاص هذا القناع من اللحم فلا بد ان ينحسر ان قريبا وان بعيدا . وعندئذ يغدو بين البروسى والنمسوى ، اذا كان طولهما واحدا ، وجرمهما واحدا ، مثل شرك ورشبرج ، شبه يصعب معه التفريق بينهما . كذلك الأغبياء والعقلاء اذا لم يبق منهم سوى هياكلهم ، يشبه الواحد منهم الآخر . وفى هذا التأمل خلاص للمرء من الوطنية العنصرية »

الشك

الى مثل هذه الحقائق الشيطانية تتحلل بقايا التدين الذى تبدو صوره دائما متناقضة فيه ، وتتفكك من الآن فصاعدا فى موقفه حيال رفيقة حياته التقية ، حين يدع نفسه على سجيتها . وهو يكتب الى زوجه اندر وأوجز ، لكنه يكتب اليها دائما من قلبه . بيد انه لايفيض فى كتابته اليها ولايتعمق الا حين يصور عن الطبيعة . عندئذ يكون دائما شاعرا

وفى نكبات الدهر تستغرقه أفكار العناية الربانية ، فيكتب الى شقيقته وقد مات ابنها فى الصيد : « لا تزال لنا عشرون أو ثلاثين سنة على أكثر تقدير واسعده ثم يخرج كلانا عن هموم هذه الحياة وقد أدرك اولادنا وجهة نظرنا هذه ، فيتبينون دهشين أن الحياة التى بدأت من هنيهة بهذه النظرة آخذة فى الذبول . وما كانت الحياة لتستحق لبسا او خلعا وهى بهذه الحال .. ان دائرة أولئك الذين نحبهم تضيق ولا تتسع حتى يصبح لنا احفاد . وفى هذه الايام التى نحياها لا نعقد اواصر جديدة تعوض ما انفصم » . حتى هنا يقصى الشعور بالاسرة الدين ويتغلب عليه

لكنه حين لا يتأثر ولا يهن فيما تفرضه الحياة من حالات نفسية عادية يصور الحقيقة ، فهو يكتب عقب دفن أحد الامراء : « لما خلت الكنيسة المتشحة بالسواد من الناس بقيت أنا وبورتشاكوف جالسين فوق النعش على المخمل الذى يستر رأس الميت وجعلنا نتحدث عن السياسة . كان القسيس يعظ بمزمور الفناء ، وكنا نحن نضع الخطط والتدابير كأنما لم يكتب علينا الموت »

هذه التجارب لتأملات النفس ، وهى تأملات يعتادها المحلل المطبوع ، كانت فى السنوات العشر التى عمر فيها قلبه بالايمان اندر مما كانت أيام الشباب ، وستزداد من الآن فصاعدا لانها تتطلب الحقيقة أمام المرآة

يتربص

وبسمارك الآن يجوب باريس فى مثل هذه الحالات النفسية ، لا بيت مؤثث ولا زوجة ، عيدا عن المجتمع الذى يبارح المدينة فى آخر يونيه على كل حال ، قلقا على هدفه ، يزداد قلقه الى حد ازدراء هذا الهدف . فهو يكتب الى رون: « انه تعترينى نوبات شديدة من اقدام ذلك الحيوان الذى يذهب يرقص فوق الثلج اذا ما طغى عليه الارتياح » . ويحسب هو ورون من جديد مايمكن أن يؤجل خروج برنشتورف من أسباب عائلية ، ويرجىء الازمة من ثم الى الربيع ، ويختم بسمارك فجاءة فيقول : « لعل هذا جميعه حساب من دون صاحب الحساب ، ولعل صاحب الجلالة لايقرر تعيينى أبدا ، ذلك أنى لا أرى لماذا يقع هذا اطلاقا بعد أن لم يقع منذ ستة أسابيع » . وحين يلح فى أغسطس على رون ان يجعله على يقين ، لانه يريد أن يعرف أين يكون مكتبه فى هذا الشتاء ، أيكون فى لندن أم فى باريس أم فى برلين ، يجيبه رون الجواب الكبير الدلالة : « ان مثل هذه البواعث يدركها (الملك) ، ولعلها تؤثر من ثم اكثر من الاعتبارات السياسية »

ان رغبته الملحة فى العودة الى بيته ، وفى الاستيقان من بقـــائه ، تجعله عصبيا ، وتجعل أصدقاءه فى برلين عصبيين معه كذلك . « ان أشيائى ماتزال فى بطرسبورغ وسوف تتجمد هناك .. وخيولى فى الريف على مقربة من برلين ، وأسرتى فى بوميرانيا ، اما أنا ففى الطريق السلطانى .. انى لا أرغب فى شىء رغبتى فى البقاء فى باريس ، لكنى يجب أن أعرف أنى لا أنتقل ، فلا أؤثث لبضعة أسابيع فحسب ، ذلك ان حالة بيتى أكبر من ان تسمح بذلك » . لا يلبث أن يستطرد : « انى مازلت الى اليوم مستعدا لدخول الوزارة وزيرا بلا وزارة ، لكنى لا أرى النية متجهة الى ذلك » . وفى نفس الوقت يحفظ لنفسه خط الرجعة على أسلوبه فيكتب الى أخيه انه لو تم له ذلك ما استمر فيه طويلا ولذهب الى الريف بعدئذ يغرس أشجارا . « وفكرتى الثابتة هى أن أغرس أشجار البلوط فى أرض رملية للانتفاع بلحائه ، ويجنى الهولنديون من الفدان فى أسوأ محصول يتخلل أرضه الحصى من عشرين الى ثلاثين فلورينـــا » . وتمضه الى جانب هذه الوثبات الفكرية حالته الجسمانية فهو يكتب الى أخيه كما يكتب ملازم بعد تناول الطعام فى وليمة يقول : « ان فراق الزوجة والولد وما أسرفت فى تناوله من المشمش يمنيان نفسى بالضيق ويشعراننى الحنين الى أى مكان امين أعيش فيه الى آخر الحياة »

« محالفة » نابليون

والشىء الوحيد الذى عوضه عن هذين الشهرين اللذين قضاهما فى باريس هو حديث فى فونتيبلو : ذلك أن الامبراطور يعود الى اغواء بسمارك كما فعل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل خمس سنوات . لكنه يكون فى هذه المرة أشد اقبالا عليه ، وكأنما كان يحس فى هذا الرجل الذى أمكن أن يصل فى الغد الى الحكم ، عدوا قدر له ان يهلكه ، فأراد أن يوقفه قبل ذلك بسنين طويلة . ففى وسط الحديث الذى دار بيننا وهما يتنزهان يقول الامبراطور للبروسي على غير انتظار :

ــ أتعتقد ان يميل الملك الى عقد محالفة معى ؟

ــ « ان مشاعر الملك نحو جلالتكم غاية فى الود ، وتحامل الرأى العام على فرنسا أمر قد اختفى أو كاد . بيد أن المحالفات تكون وفق ما تمليه الظروف مثمرة ، اذا كانت ضرورية ونافعة . والمحالفة تستلزم باعثا وتتطلب غاية »

الامبراطور :ــ لكن هذا ليس صحيحا دائما . فثمة دول يكن بعضها لبعض ودا كثيرا وأخرى صداقتها دون ذلك . فيجب بالنظر الى المستقبل أن توجه الثقة وجهة ما . ولست أتكلم عن محالفة تستمد فكرتها من المغامرة ، ولكنى أجد بين بروسيا وفرنسا تشابها فى المصالح ينطوى على عناصر محالفة حميمة دائمة ما لبث التحامل بعيدا عن أن يخلق المصاعب . ومن الخطأ الجسيم أن نخلق الحوادث ، فهى تقع من نفسها ومن دون أن نستطيع تقدير اتجاهها وقوتها . ولذا يجب أن يضمن المرء لنفسه الوسائل سلفا كيما يواجه هذه الحوادث ويفيد منها . ــ ويعيك بعد ذلك فكرة « المحالفة الدبلوماسية » لكنه يقف فى الروض بغتة ويقول : « انك لاتصدق كم فاتحتنى النمسا هذه الايام مفاتحات مدهشة .. فانه ليلوح ان « فينا » قد تولاها الذعر . وقد حدثنى ميترنيخ عن تفويضات يقول انه ذعر منها نفسه ، فهو يكاد الا يجرؤ على ذكر مداها : فله أن يفاوضنى فى كل مسألة دون قيد وفى حرية مطلقة لم يخولها ملك مثله من قبل . وقد اوقعنى هذا التصريح فى الارتباك ولم استطع الرد عليه بما ينبغى فهو يريد ان يرتب أموره معى بأى ثمن ومن دون اى تحفظ ، لكنى بغض النظر تماما عما بين بلدينا من مصالح متضاربة ، أجد نفسى بحيث يساورنى من الارتباط بمصائر النمسا خوف يكاد يكون خرافيا ــ

مقترحات فاجرة

هذا حديث يعجب المرء فيه أولا من صراحة الامبراطور يبديها على خلاف عادته لذلك السائس بالذات وقد عرف صراحته الماكرة من قبل . وقد تكون هذه العبارات صدرت من نابليون عن هوى وخفة لا يحتملها خلقه وتاريخه ، هذا الى أن المامه بأساليب الاحاديث الدبلوماسية يمنعه فوق ذلك من الاختلاق المحض لعروض ميترنيخ . ورأيه فى المحالفة أصوب وأحدث من رأى بسمارك وان لم يكن هذا الرأى سوى مهرب يلجأ اليه بسمارك . وليس أعجب من هذه العفة المتأبية التى يقارنها فى تقريره بموقف يوسف من امرأة العزيز : « لقد كان على لسانه أفجر مقترحات للتحالف ، فلو أنى قابلته فى منتصف الطريق لافصح عن نفسه بأجلى مما فعل »

وماذا كان يمكن ان يخاطر به بسمارك لو انه استدرجه الى أكثر مما قال ، لم تكن له مبادىء تمنعه من ذلك ، فليس من أنصار الشرعية ، ولو قد جلب

معه الى بلاده اقتراحا ايجابيا من فرنسا القوية لسمح الملك فى النهاية بأن يخاطب فى أمره . زد على ذلك أن بسمارك يكمل تقريره الرسمى عن الحديث برسالة الى برنشتورف يكتبها فى نفس اليوم ، ويذكر فيها أن الامبراطور « مناضل حام عن مشاريع الوحدة الالمانية أى المانيا الصغرى التى لا تضم النمسا . فهو يريد ما أراده قبل خمس سنوات وأعرب عنه لى وهو أن تصبح بروسيا دولة بحرية من الدرجة الثانية على الاقل ، وأن تملك الموانىء التى يستلزمها ذلك . وهو يجد ادماج خليج جيد فى أولدنبورغ وهانوفر سخفا أى سخف » . وعلى الرغم من تجزئة هذا التقرير يكتم بسمارك ما رد به على الامبراطور حين ذكر له ما ذكر عن عروض النمسا ويختم تقريره فحسب بما يستخلصه على وجه عام من أنه ينبغى الا تعقد مع فرنسا محالفة ذات بنود معينة ولا أن تزأمل النمسا ضد فرنسا ، ذلك أن النمسا : « لن توافق طوعا على تحسين مركزنا فى ألمانيا » ، بل انها لتضحى عن طيب نفس بفينسيا وضفة الرين اليسرى « ولا تتحرج من أية رابطة يمكن أن تعينها على التغلب على بروسيا فى ألمانيا » .

الكتمان

وتكتم بسمارك حيال رئيسه ذو دلالة ، ذلك أنه تبين من أول كلمة للامبراطور ما لحديثه معه فى الروض الامبراطورى من نواة لها أهميتها فى تاريخ العالم . فهو ، ولا يسعنا ان نفسر عمله بغير ذلك ، أقل تحفظا حيال الامبراطور كما يبدو ، منه حيال الوزير الذى يرجو ان يخلفه فى أية لحظة ، وسيكون هذا الرئيس غدا سفيرا فى لندن ، ويكون هو وزيرا فى ولهلمشتراسه ، أى رئيسا لنفس الكونت برنشتورف الذى ما زال الى اليوم يكتب اليه بوصفه موظفا . فلماذا يسر اليه حديثا يكاد يكون عديم المثال ؟ ولعله يكتمه أيضا عن ملكه . واذا كان لم يقل للامبراطور سوى العموميات فقد حمله على الافضاء اليه باعترافات أخرى ، مافى ذلك شك . وسيذكر بعد أربع سنوات فى حربه مع النمسا وحين يعامل نابليون ــ سيذكر هذا وربما ذكر به نابليون

نبوءة دزرائيلى

وقد اتصل يومئذ ببتيير زعيم المعارضة ، كذلك فى رحلة له الى لندن لم يقف اتصالاته على الحاكمين . فهنا فى لندن وبعد مأدبة فى السفارة الروسية أثار باحدى صراحاته ، أمام ديزرائيلى وغيره من الزعماء ، استغرابا (ولا شك أن روايتها بالصيغة التى انتهت الينا بها مما يطعن فيها) كان السؤال : ماذا يفعل لو تولى زمام الأمور ؟ : « أول ما أفعل هو أن أجدد الجيش . فاذا بلغ من القوة الكفاية انتهزت أول فرصة لتصفية الحساب مع النمسا ، وحل الاتحاد الألمانى ، واتاحة الوحدة القومية لألمانيا بزعامة بروسيا » . واذ كان بسمارك قد اعتاد الخداع فقد كان مقتنعا بأن الناس يصدقون مثل هذا القول اذا كان كذبا، ولا يصدقونه أبدا اذا كان قائله صادقا يعنيه مخلصا . بيد أنه كان هذه المرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مخطئا لان الذى سمعه واصاخ اليه لم يكن دونه فهما وعقلا . وقد نقل دزرائيلى هذا القول وأضاف اليه تعليقا أريبا : « احذروا هذا الرجل فانه يعنى ما يقول ! »

ان المسألة الالمانية رهن بالجيش البروسى . وقد كان كل حزب يريد هذا الجيش لنفسه ، وكان فى البلاد ثلاثة أحزاب : الاحرار يريدون المانيا تحت زعامة بروسيا ، والمحافظون يريدون كألمان الا يتزعمهم بروسيون ، وكبروسيين ألا يصيروا المانا . وقد شجر الخلاف بين الشعب والمجتمع والبلاط والديوان والاسرة المالكة ، وتلاطمت امواجه كما حدث أثناء الثورة

اما الملك فهو وحده الذى كان يهتف به هاتفان . فمنذ ثلاثين عاما وهو يسعى الى تجديد الجيش ، اذ فى ذلك التجديد مصلحته الوحيدة ، وهذا التجديد هو الشىء الوحيد الذى يدريه . ومنذ حروب التحرير والجيش باق على حاله من حيث المركز والسن على رغم تضاعف عدد السكان . فالآن وقد تم لغليوم الحكم والسلطان يريد خلافا لأخيه المتردد أن يصدر قانونا يجند على مقتضاه عدد أكبر يخدم ثلاث سنوات ويخفض فى مقابل ذلك عدد المجندين من المتزوجين فى اللاندفير ويبقى نفس العدد تحت السلاح . وبذا أريد أن يكون أقصى عدد يحمل السلاح ٧٠٠٫٠٠٠ بدلا من ٤٠٠٫٠٠٠ ، فكان لهذا الابقاء على الاسن من الناس رنة اجتماعية ظاهرة ، ولعل الملك العسكرى لم يرد فى أول الامر شيئا غير هذا

جيش الشعب وجيش الملك

بيد أنه قدر للملك أن يشهد كيف يفسر هذا المشروع من الناحية السياسية وكيف يتجاذبه فريقان يخلعان بعضه عن بعض . ذلك أن الاحرار يرون بحق أن اللاندفير هو الحصن الاخير الذى ما يزال منذ سنة ١٨١٣ بأيدى الشعب . وقد كان آباؤهم ، وكان الشعب بالذات ، هو الذى انتصر فى حرب التحرير ، لا صفة النبلاء بمركزهم المشكوك فيه ، ولا الملك المعادى للشعب . وما أوجده يومئذ شارنهورست ، وهو جيش الشعب ، بدا الآن ينحط الى جيش للملك . كذلك يريد الاحرار تقوية الجيش ، فهم الذين يريدون المانيا ، ومن ثم يرغبون فى أن تكون مدة الخدمة العسكرية سنتين . وما يكافحونه هو تقوية طبقة النبلاء فى الجيش ، فلا ينبغى ، كما يراد ، أن توسع هيئات الضباط ومعاهد الطلبة ، وأن يقصى ضباط الشعب عن اللاندفير . ان كل شىء يقع من جديد يصيبه النبلاء : المناصب الديبلوماسية والرياسة والادارة . ومعنى الاحتفاظ بالصبغة الشعبية للجيش هو القبض مرة أخرى على ناصية تلك الروح التى كانت سائدة عام ١٨٤٨ وهى الآن بسبيل الاختفاء

ان رون هو من يدفع بالنزاع الى ذروته . انه يعلن أمام المجلس ، ملكيا أكثر من الملك ، ان التاج لا يجوز ان تتحكم فيه فى المناسبات الهامة اكثريات تتبدل ، وخطب تعبر عن الاحزاب ، وهكذا يتكلم كلاما صريحا ضد الدستور ويدفع اليسار الى الكفاح الذى يسعى اليه . وقد كان الملك الى ما قبل

الدستور يقوى الجيش بمجرد أمر يصدره ، فهل ينبغى أن تكون بروسيا الآن دولة دستوريه ، أم تظل دائما دولة عسكرية ؟ انه لا جيش من دون مال ! ورفض اعتماد المال لخدمة عسكرية مدتها ثلاث سنوات معناه حل المجلس : هكذا يصطخب النزاع

أسابيع هنيئة

فى خلال هذه الأسابيع التى تستحكم فيها الضائقة فى برلين يستحم بسمارك كل صباح وكل عصر فى مياه المحيط الاطلسى حيث الموج اطغى ما يكون : فى بيارتز على حدود اسبانيا ، بعيدا من الطرق والبرد * ، والصحف الألمانية . يستحم مرتين فى اليوم ، ويقيم أسابيع بدل ثلاثة أيام كانت فى نيته، ويستلقى بين كثبان الرمل « أدخن ، وأتأمل البحر ، وأزاول الرماية على الهدف .. لا أذكر من السياسة شيئا ولا أقرأ صحيفة » . تلاحقه أهم الرسائل من برنشتورف ورون الى سفح البرانس ، ويبرق بها اليه من أمكنة يحتاج اليها البريد مرتين فى الاسبوع الى أربعة أيام فى كل مرة . ويستلقى المرسل اليه فوق الرمل ويصيح : « ليت البريد لايحمل الى دعوة مباشرة الى برلين ! فكلى ملح بحر وشمس .. لقد لبثت نصف ساعة فى الماء فداخلنى من ثم الشعور بأنه لا تنقصنى للطيران سوى الاجنحة . وركبنا اثر الاكل نتنزه فى ضوء القمر على امتداد الساحل اليابس اثناء الجزر ، ثم تابعت السير وحدى . هاأنت ذى ترين متانتى الاولى تعود »

لم يكن بسمارك منذ عشر سنوات ونيف اسعد مما كان فى هذه الاسابيع ، ولانه سعيد تجده عاشقا شريفا كما هو بمبادئه خليق ، يتغزل فى حكمة العارف بالنساء فى رسائل يومية الى زوجه . ويطرى الاخرى فيشبهها بالصديقة الراحلة ، فيحيى ذكرى ميل قديم : « بعيدا عن أنظار الناس ، مطلا بين صخرتين دبت بينهما الأعشاب البرية ، أنظر الى البحر ، أخضر يعلوه الزبد الأبيض وتغمره الشمس . والى جانبى افتن النساء ، قطعة من مارى تادن ، ستحبينها لو عرفتها حبا جما . لكنها فذة ، مرحة، عاقلة ، ودودة، حبيبة» . هذه الاميرة التى هى من بيت تروبتسكوى والتى تحمل الآن اسم أورلوف ، وقد قابلها هنا على الساحل ، تؤلف هى وزوجها المقدمة الدنيوية التى يضعها بسمارك ، والسنون تتقدم به ، امام الغابات الموحشة والصخور الوعرة المدببة: « انى أستشعر الصحة والسعادة بصورة مضحكة ، وعلى قدر مايسمح به بعدى عنكم أيها الاعزاء » . فهو يتوجه الى النوم فى ميعاده ، وينهض منه مبكرا متهللا ، وتعزف له الروسية الفاتنة فى المساء أحب الحان بيتهوفن اليه ، وتعزف له شوبان ورحلة الشتاء بالنافذة المفتوحة المطلة على البحر . انها بالاجمال « امرأة ستتحمسين لها حين تعرفينها » وحين يجدان فى احدى المنارات زوجة الحارس على وشك الوضع ، يتدفق شعور الحبيبين بخاطر شعرى ، ويغمر الكائن الذى لم يولد بعد ، ويتقدمان له اشبينين ، ويتلقى الغلام فيما بعد حقا الاسمين الاولين « أوتون لافلير » وقد ارتبط بهما الاثنان

---

* بضم الباء والراء ، جمع بريد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد نسى بسمارك يومئذ ذكرى عرسه ، فعلت الروسية ذلك بخبير النساء الذى آثر على الدوام اجناس الغرباء ، وكان هذا آخر هوى .

اسرع

والآن يسافر فى رفقة السيدة الحسناء الى امنيته الكبرى : الى الحكم .

فانه بعد ان ظل البريد والبرق يروحان ويغدوان طويلا ، تلقى فى افينيون اشعارا على حين بغتة ، تلاه اخيرا فى باريس نداء اعده رون فى رسالة منذ اسبوعين فهو يقرأه الآن : « اسرع (*) Periculum in Mora » والتاريخ الذى تحمله الرسالة هو ١٨ سبتمبر ١٨٦٢ ، والرسالة نفسها قبل ذلك بيوم . وفى صباح ١٩ سبتمبر يكون جالسا فى الصالون الى برلين فى مثل الحالة النفسية التى كان فيها قبل خمسة عشر عاما لما جاءه بعد طول الانتظار فلاحوه الى شينهوزن مسرعين على ظهور الجياد يصيحون : ان الجليد بدأ يتشقق يا حضرة البارون ، اسرع ! »

كان حزب التقدم فى جلسة النواب الحاسمة قد رفض مشروع الجيش بحذافيره ما دام قصر الخدمة العسكرية على سنتين لم يلق القبول . وقد اجاب رون انه سينظر فى الامر مدفوعا فى ذلك من زملائه الضعاف . وكان فى تلك الايام مستعدا للتساهل . وقد ابدى برنشتورف رغبته فى الاستقالة ما دام يراد خرق الدستور والحكم بلا برلمان وايثار ذلك على التساهل فى جعل الخدمة العسكرية سنتين . على ان الملك يظل الآن ثابتا لا يتزحزح ، يسنده فون مولتكه ، واذ يهدد الآن كل شىء بالتصدع يكتب رون من تلقاء نفسه الى السياسى الذى يزود هؤلاء الجنرالات الثلاثة بالجنود

التخلى عن العرش

وفى اللحظة التى يسمع فيها بسمارك فى باريس صوت النفير يكون غضب الملك فى نويبا بلزبرج على اشده ، اذ يلقى نفسه كرة اخرى بين شقى الرحى : بين القانون يصطدم بالاقتناع . واذ لم يكن بالرجل السياسى ، بل نبيل من النبلاء ، فهو يريد للمرة الثانية ان يتخلى عن العرش . وتعود الى ذاكرته تلك اللحظات المرعبة التى مرت بحياته ، هربه وهو طفل الى ميمل ، وفراره رجلا الى جزيرة الطاووس والى لندن ، ثم اولمتس فى اليوم السابق لحرب القرم : فاذا كل هذا قد كان عبثا وبلا طائل ! وفى هذا اليوم ، فى الثامن عشر ، يستدعى ابنه ، ويعرض عليه وثيقة التخلى التى لا ينقصها سوى توقيعه عليها ، فيأبى ولى العهد حتى ان يقرأ الوثيقة ، ذلك انه اضعف واختر همة من ان يتناول تاجا يعرضه عليه ابوه ، ويعلن الى ذلك الاب انه لا يسعه ان يبدأ عهده بالتراجع امام المجلس ، وان التخلى عن العرش لن يكون من ورائه سوى ان يزداد

---

* ففى الابطاء خطر

النزاع حدة ، وان اليمين سوف يثير الاب على الابن الاميل الى التساهل . ويخطر اسم بسمارك فيقول الابن :

ــ انه نصير لفرنسا !

ويقول الأب : هذا أدعى الى أن لا أوليه الوزارة . لكنه حين يعود رون فيذكر بسمارك ويزكيه برنشتورف يصيح الشيخ المحرج :

ــ لن يرضى الآن قبول الوزارة ! ثم انه ليس هنا ! فليس فى الاستطاعة مباحثته فى شىء ! ــ آخر حجة ، لكن بسمارك يصل فى صباح يوم ٢٠ : «نحيفا، معافى ، ملفوحا ، كما يصفه احد معارفه ، يشبه رجلا ركب الصحراء على هجين» فيجد الانحــلال ملما بكل شىء . يتحــدث الجميع اليه ويختلف رأى الجميع . فالوزراء يتوقعون التخلى عن العرش وينهون الملك عنه ، وولى العهد يسعى الى التخلص من الفوضى ، فيسافر الى مستحمه . ويستدعى بسمارك قبل ذلك اليه فى الحادى والعشرين ، بيد انه يجده متحفظا ، ذلك ان السفير لم يقابل الملك بعد

لا فائدة من هذا أيضا

لكن الملك يسمع بزيارة السفير هذه ، وحين يعلن فى نفس اليوم نبأ قدومه الى رون يقول مستاء :

ــ لا فائدة من هذا الرجل ايضا ، لقد كان عند ولدى فعلا ! هذه الكلمات التى نقلها بسمارك نفسه تدل على الملك كل الدلالة : فهو يؤثر التخلى عن العرش على التراجع امام المجلس ، لهذا هو جندى ، فاذا رفض الابن ان يتخلى ابوه عن العرش كان فى هذا تخفيف عن الاب ، اذ لا شك فى ان البقاء فى الحكم احب اليه ، وقد لبث يترقبه جيلا من الزمان . لكنه اذا بدا له ان احدا يتودد الى ابنه الذى أراد نفسه أن يوليه الحكم أمس بالذات ، فانه يسىء الظن بهذا الواحد ، ويسيئه به كل السوء اذا كان اسم هذا الواحد بسمارك . انه من وراء ذلك مؤامرة ما ! فلقد استدعاه رون من تلقاء نفسه فكيف ساغ له ذلك ! على ان الرجل مع الاسف موجود هنا بالفعل ، وهو ايضا فى اجازة ، وليس يسعه الا يقابل سفيره ، وتركه ينتظر لا معنى له اليوم ، وفوق ذلك فان الجميع يائسون عديمو الحيلة ، وليس فى هذا العالم ما هو ادنى الى قلبه من الجيش الجديد !

يجب اذن أن يستدعيه ، يجب أن يمتحنه ، وأن يحترس منه

حوار فى بابلزبرج

وفى صباح الثانى والعشرين يدخل بسمارك مكتب الملك فى بابلزبرج . والملك اليوم اقل استعدادا للتنازل عن العرش مما كان قبل ثلاثة ايام ، لكنه مع ذلك يفاتح بهذه النية هذا الرجل الخطر من دون لف ، كما فاتح بها ولده اخيرا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكذلك رون ، ويعرض عليه الوثيقة التى كتبها بنفسه . وهو وان اعتقد فى قلبه انه ملك بفضل الله ، وان ذلك التاج الذى تناوله من هيكل الرب مقدس عنده فى الحق ، ينظر الى المسألة كلها من واقع الكفاح كضابط ، ويقول مرارا : اذن اتخلى عن العرش

ويقول الآن : — لست احب ان احكم وانا عاجز عن ان اكون فى حكمى مسئولا امام الله وضميرى ورعاياى .. انى لا اجد اطلاقا وزراء مستعدين لان يتولوا حكومتى . ومن ثم قررت أن أتخلى عن الحكم — وهذا ما توقعه بسمارك ، وما عرف الملك انه يتوقعه ، فكل الوزراء يعرفون ذلك . ويرد السفير :

« انى كما تعلمون جلالتكم مستعد منذ شهر مايو لدخول الوزارة » وبذا يحمل الملك ، كما هى طريقته ، تبعة انه لم يستدعه قبل ذلك . ثم يؤكد للملك وجوب بقاء رون وان غيره سيوجدون

— امستعد انت ايضا ان تناصر نظام الجيش الجديد ضد الاكثرية

« نعم »

— اذن من واجبى ان احاول معك الكفاح ، ولن اتخلى عن الحكم

الفصـــــل

وتدل صيغة الحديث بحذافيرها على ملك مصمم ، قبل ان يفتح الباب ، على ان يحكم مع هذا الرجل الذى لا يهاب ، كيلا يتعرض لمهانة . ومن شأن اسئلته أن توحى الى السفير بالجواب ، فهى فى الحق تناشد الضمير . وهو الى ذلك ابسط من ان يصطنع سمت المسارح فيمزق وثيقة التنازل ، ويهز يد الرجل الجديد ، ويفتتح عهدا جديدا . انه كبسمارك الذى يفصل للمرة الثانية فى حياته فى امر هام بكلمة واحدة . والآن يدعوه الملك الى جولة فى الروض ويمضى فى تجريبه : فيريه مذكرة بخط يده تقع فى ثمانى صفحات من الفولسكاب وتجيب عن كل المسائل المعلقة ابتداء من التساهل مع الاحرار الى الاصلاح الادارى . وبذا تسلح الملك امام الرجل الذى يخشاه اذ قدر لهذا المنهاج ان يرد شكيمة هذا المغامر عن المخارق . ويلقى بسمارك على هذه المذكرة نظرة خاطفة فيرى اصبع الملكة

فالآن يغير لهجته ، ذلك ان احساسه بالعداوة الخفية ، وبأنه فى نفس الوقت آمن من تعيينه على هذا المنوال غير الرسمى ، يعيدان اليه اعتداده القديم ، فيمكن فى الحال لوجهة نظره ، ويثبت حقوقه فى هذا الزواج الخطر بأول كلمة : اذ يرفض البحث فى هذا المنهاج :

« ان الامر الآن لا يتعلق بمحافظين واحرار بل يتناول فحسب هل يكون الحكم فى بروسيا للنظام الملكى ام لسيادة البرلمان . وفى الوسع ايضا تجنب هذه السيادة بفترة من الحكم الديكتاتورى اذا اقتضى الامر . اما التقيد بمنهاج فلن يكون منه الا ان يعوق كلينا عن ذلك . وفى هذه الحالة سوف ابدى

لجلالتكم رأيى صراحة اذا ما اصدرتم الى اوامر فى امور بعينها لا أقرها . فاذا اصررتم جلالتكم عندئذ على رأيكم فضلت ان اسقط مع الملك على ان اتخلى عن جلالتكم فى كفاحكم مع البرلمان »

لهجة جديدة ، فكر فيها بسمارك واختارها ، لانه يريد فى هذه الساعة ان يكسب ثقة الملك . لكنه فى نفس الوقت يعاهده على الطاعة ، لانه بالذات قادر على العصيان والحكم الاوتوقراطى . وما من شـــك فى انه فكر مع مفستو فوليس : سأجره الى الغمار ، غمار الحياة !

لقد لبى النداء كرجل من رجال الاقطاع وضابط ، ولباه كدبيلوماسى كامل فى نفس الوقت ، فأقام الدليل بعد دقيقة على حذره الواقعى حين اراد الملك أن يلقى بالمنهاج المنتهك فى حفرة جافة ، فمنعه مشيرا الى العواقب الوخيمة : فتكون هذه اول نصيحة يسديها الوزير بسمارك الى ملكه . وسوف يحذره فى المستقبل كثيرا من الحفر الجافة

وحين يعود من بابلزبرج يلقى شلوتسر ، فيقول لذلك الذى كسب ثقتـه من الطريق الملتوى العجيب ـ كما يروى هذا ـ بلهجة متناهية فى الغرابة : « اعتقد انهم قنصونى »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتاب الثالث

البانى

« لا يقضم المرء من شجرة الخلود
دون ان يلقى الجـــزاء » ...
رون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

« هنا فى اللاندتاج حيث اكتب اليك اضطر الى الاستماع الى خطب يمجها الذوق بدرجة غير مألوفة ويلقيها سياسيون يتملكهم الصغار والانفعال فى صورة كذلك غير مألوفة ، فأجد من ذلك لحظة فراغ لم اطلبه .. وقد كان شعورى وانا سفير انه يجب ان اكون مهذبا ، وان لم اعد يومئذ انى كنت موظفا . اما وانا وزير فأشعر بأنى من العبيد .. ان السادة هنا ليسوا متفقين على البواعث التى تحملهم على الموافقة ومن ثم شجارهم .. لكنهم يقتلون انفسهم con amore فيتعطل العمل من نفسه .. ان هؤلاء الثرثارين لا يستطيعون حقا حكم بروسيا ، وأنا مضطر الى مقاومتهم ، فحظهم من الذكاء قليل ، ومن الراحة جد كثير ، اغبياء ، جرءاء . والغباوة بوجه عام ليست بالوصف الذى ينطبق عليهم ، فهم مهرة نوعا ما ، على علم فى الغالب ، حصلوا التحصيل الجامعى الصميم ، لكنهم لا يفقهون فى السياسة الا القليل ، شأننا ونحن طلاب ، بل لعلهم اقل منا . وفى السياسة الخارجية اطفال كذلك اذا نحن تناولناهم فردا فردا ، اما فيما خلا ذلك من الشئون فمسلكهم مسلك الصغار اذا هم جلسوا جماعة »

هذه هى حالات بسمارك النفسية فى الاشهر الاولى لحكمه كما يصفها لموتلى صديق صباه : احتقار لاصحاب النظريات كجماعة يناضلها لكنه يتأمل فى تعليم كل زعيم بمفرده ، وشعور بالتفوق المطلق عليهم فى الشئون الاوربية ، ومغالبة دائمة فى نفس الوقت لشعوره العصبى بالشرف حتى لا يكيل لخصومه صاعا بصاع . فقد كان الى الآن يناضل خصومه نضالا مباشرا استخدم فيه كل قواه : كنائب من فوق المنبر ، وكديبلوماسى فيما كتب من تقارير ورسائل ، اما من الآن فصاعدا فان عليه ان يكتم عمن اختارهم الشعب ما يتبينه وما ينتويه حتى لا يبلغ الشعب فتنبت نيات جديدة . فالوحدة تبدأ لبسمارك مع السلطة

تشخيص

ولا يعجبن اذا الفى نفسه موضع هـذه التحية فى صـحيفة من صحف

---

* مع الحب

برلين : « لقد بدأ سيرته شريفا من اشراف الريف على قسط معتدل من التربية السياسية ، وعلم ومعرفة لا يرتفعان فوق ما للمتعلمين بوجه عام . وقد بلغ ذروة مجده البرلماني فى سنتى ١٨٤٩ و ١٨٥٠ ، فكان فى خطبه خشنا لا يبالى ، متهاونا الى درجة الاستهتار ، فكها مع ذلك الى حد الفظاظة ... لكنه متى ابدى فكرة سياسية ؟ » صحيح انه ندر ان فعل ذلك على رؤوس الاشهاد ، لكن ما فعله فى عشر سنوات لحفظ السلام لا يعرفه الا القليلون من اهل العلم . واذا لم يبلغ عمله شدة خفاء عمل الكهان فقد كان على كل حال عملا خفيا . وقد كتب غوستاف فرايتاج فى « رسل الحدود » يقول : « حتى لو ابدى اعظم مما ابدى من طاقة فقد كان خليقا ان يهزم امام ثبات المجلسين . ان الهر فون بسمارك لن يثبت اطول من سنه » شاعر يتنبأ ! لقد ثبت ثمانيا وعشرين سنة

على ان من يراه عن كثب يعمل ، يشك فى قواه العقلية : « ان بسمارك يعاني مرضا عصبيا ثقيل الوطأة » هذا ما يكتبه احد موظفيه بعد توليه الحكم ببضعة اسابيع . ويستطرد الموظف فيقول : « انه يبدو لى أحيانا غير مالك لكامل قواه العقلية . مثال ذلك انه حين يصدر تعليمات الى الصحف تتدفق افكاره احيانا تدفقا لا يستطيع احد ان يتابعه . والرأى يسود دوائر برلين الديبلوماسية بأنه .. لن يعيش طويلا ، لانه لا يرحم نفسه بحال من الاحوال »

يدهشون

ومع ذلك فقد بدأ رفيقا بطيئا كيما يستطيع بعد تحليلاته وتجاريبه المستفيضة ان يضرب ضرباته سريعة وجيزة ، شأنه فى ذلك شأن العلماء الطبيعيين . وقد كان كتب قبل الى رون يقول : انه اذا جاء « فسوف يقول الناس : يالله ، الآن ستقع الواقعة ! » لكنه كان مصمما على الا يخدع اعداءه فيما يأملون من ظهوره بمظهر الشدة والخرق : ذلك انه لم يكد يدخل الوزارة حتى سحب الميزانية الجديدة لسنة ١٨٦٣ ، فكان من ثم يعرض على المجلس تهادنا ، ويفاوض قدامى الاحرار ليعرض عليهم مقاعد فى الوزارة ، فيدهشهم منه ، فوق ما ادهشهم ، شكل هذا العرض اكثر من موضوعه . وماذا يقص النائب تفيستن على اصدقائه حين يتحدث اليه الرجل الجديد ـ الذى يفوز منهم بالازدراء اكثر مما يفوز بالخشية ـ عن الملك حديثا طويلا يذكره فيه من دون كلفة ، وينقده فيه نقدا شديدا ، وهو من يعد حامل ترسه ونصيره الذى لا يبالى ! وقد كتب اوتكر الحر وسجل انه توقع فى الزيارة الاولى ان يجد « شريفا مهينا من اشراف الريف ، ومتسكعا من هواة الصيد ، ومقامرا » ، فلم يلبث ان انطبع فى نفسه منه بعد بضع دقائق صورة اخرى تختلف عن تلك كل الاختلاف . « فليس فيه شيء من ذلك كله .. فهو شخص شديد الاسر ، مديد القامة ، قوى البنية ، طيع غير صلب ، تقدم لاستقبالى حتى الباب متوددا ، مادا الى يده ، ثم عدل لى مقعدا وقال لى وعلى وجهه ابتسامة جذابة : انك ايضا عند الديمقراطيين من المغضوب عليهم ! ثم جعل يبدى لى أنه قد فات الأوان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذى كان فيه يقيم المتاريس ، وانه تعلم فى فرانكفورت كثيرا » وطفق يسب صحيفة كرويتس تسايتونج بعبارات « ما كانت لترد على لسان الزائر اويجرى بها قلمه قط »

وهكذا رأوه متفوقا فى اللعب مع خصومه الذين توقعوا الا يجدوا منه سوى الغطرسة والتحفظ ، سوى الكبر والاستغلاق ، فلقوا الادب وبدت لهم الصراحة. وليس اوتكر موظفا عديم الشأن ، او تاجرا متواضعا ممن يهرفون بالسياسة فى منتديات المراكز ، انه زعيم من زعماء هيس ومحام واسع العلم ، يزهيه الاستقبال عند الباب وتقديم الكرسى ، وليس ذلك من اجل المركز ولكن من اجل الطبقة التى يمثلها حضرة النبيل . اذ كانت طبقة النبلاء فى بروسيا فى ذلك الزمان متسمة بالغطرسة ، وذلك الذى كان يستراب بان شعور الطبقة فيه على اشده ، يخرق الاشكال ويبدو طبيعيا ، ويرى ، وهو يندد امام خصومه بمغالاة حزبه ، انه ليس جافا كأصحاب السعادة ، ولا من المتشدقين بالنظريات كالاشراف ، بل هو مؤدب ، مهذب ، اصيل ، يستطيع ان يبدو كل شىء الا ان يظهر بمظهر الموظف البروسى

مهزلة لكل ناحية

ولم يستبن احد هذه التجارب التى جربها فى البداية بادق مما استبانها شلوتسر . وقد دعاه بسمارك فى الاسابيع الاولى لتوليه الوزارة مرارا الى تناول كأس فى حانة . واليك ما يقول شلوتسر : « ان بسمارك يمثل مهزلة لكل ناحية ، ويحاول ان يخيف الملك والاحزاب جميعا .. ويسره ان يخدع الجميع . فهو يسعى الى حمل الملك على التساهل فى موضوع الخدمة العسكرية ومدتها ، ويصور لمجلس الاعيان الارتكاس المدبر صورة قاتمة تخيف الاعيان فى رأيه . اما فى المجلس الثانى فيظهر تارة جادا غاية الجد ، وتارة يدخل فى روع سادة المجلس انه يريد التوسط . ويدع وزارات الدول الالمانية تعتقد اخيرا ان الملك يصد كافورية وزيره الجديد ولكن فى عنـــاء . وليس من ينكر انه استطاع الى الآن ان يؤثر فيمن حوله بذهنه ووميض ذكائه . انه الرجل حقا ! »

الحديد والدم

انه فى الآونة الراهنة يظهر ادبا جما فى احرج المواقف ، ولم يمض اسبوع على دخوله الوزارة حتى كان فى جلسة من جلسات احدى لجان اللاندتاج يدلى باعترافات شخصية . ففى اثناء المناقشة يفتح حافظة سيجاره ، ويرى خصومه غصين زيتون قائلا : « لقد جلبته معى اخيرا من افينيون لارفعه الى حزب الشعب رمزا للسلام . بيد انى ارى على التحقيق ان الوقت لم يحن بعـــد لذلك » كأنما وهو يقول هذا يطل عليهم من عل ولكن فى مجاملة يلوح انه جلبها معه ايضا من ارض غصن الزيتون هذا . غير ان العازف سرعان ما يغير نغمته فينعت ملام الصحف التى تنسب اليه نيات حربية لتغطية الارتباك فى الداخل بأنه اغتياب ، ثم يقول : « لا جرم اننا لن ننجو من هذه الارتباكات الالمانية

حتى ولو لم نسع اليها . ان المانيا لا تبغى ان ترى بروسيا تعتنق المبادىء الحرة ، ولكن تبغى السلطان ، وللدول الالمانية فى الجنوب ان تغض الطرف عن مبادىء الاحرار ، لكنها من اجل هذا لن يعهد اليها احد بالدور الذى تقوم به بروسيا ! ويجب أن تستجمع بروسيا قواها ، وتحتفظ بها للحظة المواتية التى افلتت مرارا . ان حدودنا منذ معاهدات فينا لا تلائم دولة سليمة . والخطب وقرارات الاكثرية لا تفصل فى كبرى مشاكل هذا العصر بل يفصل فيهـــا الحديد والدم ، لا ما ارتكب سنة ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩ من غلطة كبرى »

يقول هـــذا على مائدة خضراء ، وعلى مسمع من عشرة او عشرين من النواب وبعض الوزراء من دون استثارة ، ويلقى هذا البيان فى الطف لهجة ، وكأنه من وحى الساعة ، لكنه لا شك فى انه معد : هكذا تخرج هذه العبارات من شفتيه غير مزودة بالجناح الذى يمكن أن ينبت لها فتطير كل مطار لم يختزلها مختزل ، لكنها حين رجعت المانيا بأسرها صداها على الاثر ، ورددت الصحافة والشعب قافية « الدم والحديد » وابدت منها رعبـــا حقيقيا أو مصطنعا ، لم ينكرها المتكلم ، بل ابدى اسفه لصدورها عنه . وهكذا كانت اول ضربة للوزير فى الهواء كما ذهبت هباء اول ضربة للنائب قبل اربعة عشر عاما . وكذلك اغضب فى هذه المرة الجميع : الاصدقاء والاعداء على السواء . ويقول رون صديقه ومبتدعه وهو عائد الى بيته : « هذه فلتات اريبة » ويلومه عليها . ان كل شىء عند هذا الرجل تمثيل ، فليس على هذا المنوال يتحدث وزير مسئول . هذا ما يقوله الاحرار ، وهو نفسه يعلن الى احد النواب : « ان كل ما قصدت ان أقوله أن الملك بحاجة الى جنود ، لا الى خطب ، كيما ينقدم بالمسألة الالمانية . فهذا مجرد انذار لفينا ومونيخ ، لا دعوة الى استخدام القوة مع الدول الالمانية الاخرى بحال من الاحوال ، والدم معناه الجند فحسب . على انه كان خليقا بى ان اتخير الفاظا اخرى اكثر احتياطا » . لقد كانت اشهر كلمة لبسمارك هى آخر غلطة له خانته فيها اللباقة

الملك يجفل مذعورا

وقرأ الملك ايضا هذه العبارات فأجفل منها ، واذ يتعرض فى بادن بالذات وهو مع الملكة وفى يوم عيد ميلادها لنظرات ولى العهد ووليته وانتقاداتهما ، تداخله من ناحية وكيل اعماله الجديد افكار مظلمة بطبيعة الحال ، ذلك الذى عاهده على الطاعة قبل ثمانية ايام لا اكثر ، والذى عاهد هو الملكة على ترويضه ، ما فى ذلك شك . وتثور الاسرة المالكة لهذا الحديث ، وتتحدث عن لويس السادس عشر وعن مصير ستراافورد وبولينياك ، وهذا فى عيد ميلاد الملكة ! ويتعكر صفو العيد الرسمى بأكمله . ويقدر بسمارك وهو فى برلين تأثير خطبته هذه فى بادن ، فينقل ميدانه الى منازعات الملك الداخلية ، وان كان الملك لم يكتب اليه او يبرق بعد . بل انه يتمثله عائدا بعد ذلك ببضعة ايام وحده واذنه ملأى بالتحذير واللام . والآن يبدأ بسمارك فى معالجة ملكه برحلة فى السر لم يبلغ الملك امرها ولم تبلغه الوزارة . وذلك ليؤثر فيه قبل وصوله الى العاصمة . فهـــو يسافر لملاقاته فى منتصف الطريق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اغواء الملك

ويتبينه عند شباك التذاكر السيد فون اونروه احد الاحرار ، فيصعد اليه بسمارك فى صالونه ليستوجيه ، ويبحث معه الحالة محـــاذرا ، ويقول له وهو نازل فى جوتربرج انه ذاهب لزيارة قريب . ثم يجلس فى المحطة التى لم يتم بناؤها يجلس « على عربة يد مقلوبة فى الظلام » ومن حوله العمــــال وغيرهم من صغار الناس . ويسأل قراضى التذاكر عن مركبة الملك فينهرونه ، فان أحدا منهم لايعرفه ، وهو لايعرفهم بنفسه ، فيلوح هـذا الذى يطالب الغير باحترام طبقته ، انه لايطالبهم باحترام مركزه . ان رجل الدم والحديد الذى يجرى اسمه على كل لسان فى هذه الايام ويلعنه الجميع ، يجلس فى الظلام على عربة يد ينتظر مولاه . وكان ملك بروســيا فى ذلك العهد الذى تحكى ماجرياته ماترويه الاساطير ، مايزال يسافر بالقطار العام ، ويجلس وحده فى صالون خابى الضوء ، فلما دخل عليه الوزير ألفاه بادى الضيق . وهنا يرجوه الوزير أن يسمح له بعرض الموضوع فيقـــاطعه الملك قبل أن ينبس بأول كلمة :

« انى أتنبأ تماما بخاتمة ذلك كله : سيقطعون رأسك تحت نوافذى أمام دار الأوبرا ثم يقفونه برأسى !

فيتبين بسمارك شبح اوغسطا وراء هذا الكلام ، فيرد حين يسكت الملك ، فلا تعدو رده هاتين الـكلمتين :

« وبعد يا مولاى ! »

ـ وبعد ! وبعد نكون قد أصبحنا فى عداد الأموات !

« نعم ، والموت حق علينا ان عاجلا وان آجلا فهل ثم أشرف من هـــذه الميتة ؟ حين أموت أنا منافحا عن قضية ملكى ومولاى ، وحين تموت جلالتكم مسجلا بدمكم حقوقكم الملـكية التى واتاكم الله بها من فضله ؟ وسواء أكان الموت على المقصلة أم كان فى ميدان القتال فلن يغير ذلك شــيئا من واقع عملنا . اذ نضحى بالنفس فى سبيل الحقوق التى نلتموها من فضل الله ! يجب ألا تفكروا جلالتكم فى لويس السادس عشر ، فقد عاش هذا ومات ضعيفا ، ولم يخلف فى التاريخ أثرا حسنا . أما شارل الأول فعلى النقيض من ذلك . أليس هو على الدوام ظاهرة جليلة ، قــد قوى اقتنـــاعه الملـكى بدمه ، وجرد السيف ذائدا عن حقـــه ، وخسر المعركة فلم يخضع ولم يهن . انه حتم على صاحب الجلالة أن يقاتل ، ولا يسع جلالتكم التسليم . فيجب أن تقاوموا الاغتصاب ولو تعرضت حياتكم للخطر ! »

سمعا وطاعة

« وهكذا كنت كلما أطلت الكلام بهذا المعنى تملكت النخوة الملك ، واحس نفسه فى دور الضابط المنافح عن الملـكية والوطن .. الضــــابط البروسى المثالى الذى يجابه الموت المحقق فى خدمته وهو يقول : « ســمعا وطاعة »

لايفكر فى نفسه ولا يعروه خوف ، لـكنه حين يكون عليه أن يعمـل على مسئوليته يخشى انتقاد رئيسه أو النـاس أكثر مما يخشى الموت .. لقـد استشعر فى نفسه الرغبة فى تجريد السيف .. لقد وضع فى الطريق التى تماشى أفكاره ، واسترد فى بضع دقائق طمأنينة زايلته فى بادن ، ومرحا أيضا .. لقد تغلب على القلق من نقد المناورات ، فلما بلغ برلين كان فى حالة نفسية مرحة بل فرحة يتحرق فيها الى القتال ، تبينها مستقبلوه من وزراء وموظفين جلية واضحة فى منتهى الوضوح والجلاء »

هذا المنظر الذى دونه أول مادونه بعد ثلاثين عاما من حـدوثه ، والذى تتبدى فيه الحقبقة فوق جبينه فى طواعيتها الدرامية ، انما هو آية من آياته . وليس ذلك لانه يحمل خصما على التسليم ، اويدفع مولاه الى حرب ، ولكن لأنه يحمل الملك المستاء بحق على اقرار خطبة من خطبه أحس هو نفسه أنها نابية . وقد كان ضمير بسمارك يؤنبه حين جلس ينتظر فوق عربة اليد . وحين سلم لخصمه بأنه اخطأ فى استعمال كلمة الحـديد والدم لم يكن مع ذلك مستعدا — وقد كان له فى الوزارة ثمانية أيام — لأن يعترف لرئيسه بنفس الشيء . وهكذا تقوت فيه وفى ملـكه فى نفس الوقت روح قتـال لم تكن تملكت كليهما فى مشاورتهما الاولى ، وبات يدخر ما اوحى به الى الملك من اقدام على الـكفاح لـكل ما يطرأ من حالات

فاذا كان هذا كله **حجى وحسابا** فقد كان فى نفس الوقت وفى **صميم الشعور** حقا مع ذلك ، ذلك أن بسمارك كان يوقن بأنه سيلقى يوماحتفه وهو يقاتل ، داخله هذا اليقين فى أول مبارزة له بالسيف ، فلم يتهيب فى أية لحظة من لحظات حياته ان يضحى بالنفس . وفى هذا الشعور العميق بالشجاعة التى تملك على بسمارك نفسه ، والتي يحس الملك اصالتها كذلك من مسام جلده العسكرى الهرم ، وسيلة عظيمة من وسائل الايحاء

لقد كانت هذه النفسية رشفة السحر التى شفى بها بسمارك مولاه فى لحظات الضعف جميعا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثاني

حينما دعى غليوم الى تولى الوصاية قبل دعوة بسمارك الى تولى الحكم بأربع سنوات قال الاخير لجيرلاخ يبدى له المصاعب التى ألقاها فى طريقه تبدل الجالس على العرش : « انى لا أصلح للملك الذى يجب أن يعامل بغاية الرفق » . فهل كان يصلح للبروسيين ؟ هذه هى المسألة الكبرى التى لم يجرؤ شلوتسر بحبه المشوب بالبغضاء ان يجيب عليها بالايجاب. بيدان الملك ذلك البروسى الواحد أمكن أن يسلمه البروسيين الآخرين ليكونوا غرضه الذى يتوخاه بفن السياسة ــ سياسة الدول : وقد كان همه ان يقنصه أولا . فالآن همه أن يحرص عليه . لقد عامله بسمارك كما يعامل خبير النساء عشيقة لم يضمنها قط كل الضمان ، وكما يعامل مخترع مموله : عامله كأستاذ

الفارس والفرس

وفى هذا الكفاح الدائر بين الرجلين الذى لم يسمع له حس فى الغالب ـ وهما من لم يؤثر احدهما من دون ان يكون للآخر دخل فى تأثيره ــ فى هذا النضال الصامت بين خلقين اختلف فيهما الاساس ، فى سبيل التغلب على النفس ، لا وراء التملك والسلطان ، فى هذه المباراة الملكية التى لا يبدو لها انتهاء كان لكل منهما نصف الفضل ونصف التعب . ومن المتعذر ان نحسب هل الاصعب ان يتحمل سيد هرم وسط المواهب ، لكنه يجرى فى عروقه دم الملوك ، وزيرا اصغر منه سنا لم يكن شيئا غير نبيل من النبلاء لكنه عبقرى ، او ان يتحمل سائس جرىء ملكا مترددا على الدوام ؟ لقد كان الفارس الهرم يسىء الظن دواما بالفرس الجسور ، وكان الفرس دائما يزبد فى العنان ، لقد كانا فى المماشاة لا يبلغان أكثر من الخطو الوئيد

كان كلاهما بعد مناقشات تنبو عن الحصر ، وتفرق بين الملك ووزيره ، يجلس فى بيته حانقا ، مغضبا ، لاتحدوه سوى رغبة واحدة هى التخلص من الآخر ، لكنه حين يتعب الذى هو ادنى ، وتدفعه الحكمة فى الغالب الى ان

ينذر الذى هو اعلى بترك خدمته ، يجفل هذا عندئذ ويبادر الى مسالمته . وقد كانت بين الرجلين ساعات حنق لم تردد المذكرات منها سوى نغمات خافتة

عرف بسمارك كل هذا سلفا وقدره قبل أن يصل كلاهما الى الحكم بسنين طويلة ، وأدخله وهو سفير فى حسابه دائما ، فكان وهو يقابل الملك للعمل اليومى يرتب دوره فى نطاق واسع ، فهو الخبير بالناس فى العموم ، ورجل البلاط فى الخصوص ، والجندى أحيانا ، لكه لا معدى له عن أن يبدو خاشيا الله اذا لم يرد اخافة السيد المشرف على السبعين . وفى هذا العمر كان الملك ما يزال يتولاه الحنق احيانا ، فيعتصر بقبضته اوراق الحكومة ، وحين تهدأ ثائرته يتأمل بسمارك هذه الاوراق وعلى وجهه ابتسامة ، مثله كمثل كبار الرسامين يزداد أهتمامهم بوجه من الوجوه بعد تقبض وتغضن ، فهو بعد فرك هذه الأوراق يزداد اهتمامه بها ، ويرنق الهدوء أثر ذلك عليه ، وينبت كما ينبت ألعشب من تلقاء نفسه . وقد تعلم بسمارك الهدوء أول ماتعلمه فى مثل هذا المقام ، واطاقه اعتداده بذاته ، ذلك أنه يتبين فى مولاه الاخلاص ، لا التحول ، على نقيض اخيه الذى كان يخدع وزيرا بوزير . وقد وهب غليوم الاول ثقته المكينة بلا قيد ولا شرط للرجل الذى نهض بأكبر التبعات

الملك حانق

وبينما بسمارك قد كان عند توليه المنصب يعرف الملك ويأمن المفاجآت فقد جعل الملك يألفه ويتعرفه رويدا رويدا ، ويتبدل تحامله مع الأيام والتوفيق . وقد قاوم اشراكه معه فى الامر ، وفعل الاقرباء والاصدقاء فى السنوات الأولى بالذات كل شىء لتخليصه منه على عجل . وقد بعث رجال من قدامى الأحرار فى مستهل الأمر الى الملك بخلصاء يرجونه عزل الوزير الجديد ، ورأى السيد الشيخ والحزن يتملكه عطف اناس يتحول عنه، كانوا يبغضونه وهو « أمير الخرطوش » فبات فى هذا العهد الموسوم بالحر يسعى الى كسب عطفهم . وبعد تعيين بسمارك فى منصبه بأربعة أشهر ناول الملك ضابط قديم صديق له ماقرأ فيه : « ان الشعب متعلق بجلالتكم ، لكنه كذلك مستمسك بحقه .. فليجعل الله له من هذه العواقب الوخيمة خيرا ، تلك العواقب الناجمة عن سوء فهم جسيم ! »

كانت هذه العبارات وأمثالها تلهبه ، وكانت المعارضة تزيده ثباتا ، فهو يؤكد فى حمية الشباب بعبارات تنطوى على الانفعال هذه الكلمات مثنى وثلاث : « لقد قلت دائما واعدت مرارا ان ثقتى بشعبى لا تتزعزع لانى اعرف أنه يثق بى ! بيد أنى ألعن أولئك الذين يريدون أن يسلبونى حب هذا الشعب وثقته .. والعالم كله يعرف أن هؤلاء الناس لايتورعون عن سلوك أى طريق يبلغهم هذا الغرض .. ألم أتساهل فى أربعة الملايين ؟ ويا للاسف ! ألم اتساهل فى غير ذلك ؟ ويا للاسف !.. فمن ينتقص من حقه على هذا المنوال ، من يخفض الميزانية هذا التخفيض حتى يقف دولاب العمل فى الدولة كل الوقوف ، مآله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الى مستشفي الامراض العقلية ! أين ينص الدستور على أنه لايتساهل سوى الحكومة ، أما النواب فلا ؟؟! » بهذا الحنق لايكتب الى غير موظف من الرعايا سوى ملك حرمه ضميره راحة الليالى . وحقا لقد صارع الرجل التقى ربه من أجل وزيره

الولاء والطاعة

ان بسمارك لايدع فى الأزمات رسالة تخرج من يده الى الملك الا استعان الله ، وحين يتلقى منه فى عيد الميلاد عصا يقابل بينها وبين عصا هارون وان كان وجه الشبه ليس تاما . وهو يرقب دائما هوى هذا القلب قبل القرارات العظيمة التي يوحى بها الى الملك أولا رويدا رويدا ، ثم ينتزعها منه بعد ذلك انتزاعا . ويكتب الى صديقه رون يقول : « ان قلب الملك مع المعسكر الآخر .. ان شعوره ضدى » . ويكتب الى رون قبل صدور أمر بالتعبئة : « ان من المرغوب فيه جدا أن يصدر الملك غدا على الأكثر أوامره النهائية ، لأنه لن يكون فى « خميس العهد » فى حالة نفسيه تسمح بهذه الأوامر » . ويكتب عقب سنوات : « لقد خارت قواى من جديد ، ولست قادرا على الثبات على مناهضة الملك وأنا مرتاح »

لم يقابل بسمارك بالمثل ماكان من رغبة الملك عنه ، ولم يرد على الكراهية بمثاها ، ذلك أنه كان حسب فى مبدأ الامر ان يشعربالتفوق عليه . وبسمارك كبطل رياضي كان فى عهد الشباب ينظر فى خصمه الى جسمه أولا ثم الى ذهنه ليستوثق أول مايستوثق من تفوقه عليه فى جميع المواقف والنقط . وقد كان هذا مع الأمراء والملك سهلا هينا ، لكنه لما بدأ الملك والوزير يشتركان معا فى اجتياز هذه المواقف والنقط نما فى نفسه شعوران جديدان رأى فيه ذلك النوع الذى كتب الى زوجه عنه ذات مرة يقول : « لقد ما كان ليثبت من دونهما قط : رأى فى الملك مولاه الاقطاعى ونمطا من الآباء ، أقسمنا لدمه يمين الطاعة والولاء » ، فهذا الشعور الاقطاعى قد عظم الآن ، اذ عليه كحامل ترسه أن يحميه بنفسه عن كثب ، وخاصة لأن هذه المشاعر الرمزية قد وجدت بالمعاينة والنظر الى شيخ أبيض اللحية بواعث جديدة ، وقد كان يشبه موقفه من الملك المغضب غالبا بموقف الابن من أب يجب أن تغتفر له تهيجاته وانفعالاته بوصفها قوة قاهرة ، فعل هذا وهو شيخ، ونسى أنه وهو فتى لم يكن قط يتسامح مع أبيه الحقيقى أو يخضع له

وبينا كان يخضع الملك قليلا قليلا كان يستمد من كفاح الحياة هذا العطف على الرجل الذى نزل له عن سلطانه . وقد تزايد له هذا العطف فانقلب حبا بعد موته، ثم يلبث ان انعكس على وريثه كرها ، وكان للاجيال المقبلة اسلوبا . لكنه فى كافة الأزمات التى تخللت عشر السنوات الأولى أحس نفسه مقيدا بهذا المولى العنيد فى اللحظة التى تبين فيها شجاعته الشخصية فى ميدان القتال ، ثم فى محاولات الاعتداء على حياته

العـــدوة

ذلك أن الملك غليوم لم يكن يعرف الخوف « الا من مداورات زوجه فى نقده » وهنا لم تكن الملكية ولا الشعور « بحق السيدات » كما يسميه بسمارك كلما حلم بالمناسبات، على النساء وصبر عليهن ، لم يكن هـــذا ليلطف من تلك البغضاء التى كان يحسها بسمارك نحو المرأة المتدخلة فى السياسة على وجه عام ، ونحو أوغسطا على وجه خاص ، منذ ذلك الحديث الذى جرى به القدر وجرى له معها فى شهر مارس فى حجرة بقصر بوتسدام من حجرات الخدم

لقد سمى بسمارك ماوقع بين هذين الانسانين « أشد كفاح خاضه فى حياته » وقد كان فى تفاصيله تحتويه تلك الاحاديث التى كانت تدور فى مخدع النوم ويطيقها الملك من زوجه ، والتى كان بسمارك يروى تأثيراتها لزوجه هو .. أن اوغسطا هذه التى « نظرت فى عينى جوته » على غير طائل كانت تقوى على عينى بسمارك فى ظل مركزها وتحت حمايته . ولو قد أبدت له فكرا سياسية أو خواطر مع ذلك لـكان من الممكن أن تكون فى الهزيمة كذلك موضع الاعجاب ، لـكنها كانت تتقدم اليه بجملة تدل فى عمومهـــا على حب الخير وتستر وراءها الخوف من تـكرار حوادث سنة ١٨٤٨ ، فاذا جمعها مجلس قارنت بين الدور الذى يقوم به الملك ووزيره وبين ما كان من لويس السادس عشر وسترافورد وبولينياك ، اذ هى لم تر الشر فى التأثير على قرينها الا من ناحية سمارك وحده ناسية أنه فى أيام مارس هذه كان بسمارك بالذات على حق وان رفضه وحده حفظ لها التاج . وقد كانت أميل الى أن تنسب الى بسمارك أحقر البواعث من أن تسند فيه المنافح عن حقوق التاج وتكرمه حقا

حكومة الى جنب حكومة

كثيرا ما أحس بسمارك انه مضطهد فى حياته بلا سبب ، وذلك لاساءته الظن بالناس على وجه عام ، وكراهيته لبنى الانسان ، وانه فى خلال ستة وعشرين عاما ليستحق المرثية وهذه الحكومة ــ حكومة أوغسطا ــ قائمة الى جانب حكومته ، مناهضة لها ، لايحتملها . فقد كان هذا المحارب يقف حيال امرأة وملكة اعزل من السلاح ، يتلقى ضرباتها صامتا . وما ان يؤثر على مولاه برسائل معدة لهذا الغرض ، يتلقاها فى الغالب عند الافطار ، حتى يلحظ أصبعها فى هذا التأثير ، فـكان فى السنوات الأولى اذا أبدى أقل اشـــارة « نفـــاها الملك فى حدة بالغـــة ولم يسمح له بتصـــديق شىء من ذلك ولو كان الخنيقة »

ثرثرة أوغسطا

وهكذا لم يجرؤ ان يوجه الملك حتى ضد زوجته الا باتخاذ لهجة غثة من الصيغ الرسمية البريئة المستعملة فى البلاط . نمى جاشتين تجرى فى سنة ١٨٦٥ مفاوضة فى تسوية مع النمسا ، فتعود كل العوامل مرة أخرى الى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مناهضة سياسة الوزير . ويقص عليه الملك فوق ذلك انه اسر من هنيهة الى الملكة أمرا سريًا ، فعندما يصل بسمارك الى بيته يثور لهذه الثرثرة العائلية التي يتعالى لسمعه لغطها ويتصاعد لناظره غبارها ، ويهدد بأن يحبط له كل شيء ، فيجلس ويكتب بخط يده ـ فمن يأتمن على مثل هذه الأشياء الدقيقة !! ـ رجاء مستفيضا :

« لعل جلالتكم تغفرون لى ما يحملنى عليه اهتمامى بمصالح صاحب الجلالة الى حد قد أكون غاليت عنده ، وما يدفعنى اليه هذا الاهتمام من تعودة الى أشياء تكرمتم جلالتكم منذ هنيهة بالافضاء بها الى .. فانى أعتقد مع جلالتكم أن صاحبة الجلالة الملكة ستكتم هذه الاشياء . لكنه اذا صدر عن كوبلنتس فى جو الثقة الذى يسود علاقات القرابة اشارة ما الى الملكة فيكتوريا أو تلميح الى صاحبى السمو ولى العهد ووليته أو تسرب مثل ذلك الى فايمر أو بادن ، فلا يبعد أن يثير مجرد الحقيقة الواقعة فى أننا لم نكتم السر الذى تعهدت بكتمانه ظنون الامبراطور فرانسوا جوزيف ويحبط المفاوضات ، واذا حبطت فلن يكون مفر تقريبا من الحرب مع النمسا

« ولتجدنى جلالتكم معنيا بخدمتكم السامية ، متعلقا بشخصكم السامى فوق ذلك اذا ما حدانى الاعتقاد بأن جلالتكم تدخلون الحرب مع النمسا بشعور آخر واقدام اكثر وان طبائع الاشياء والواجبات الملكية هى التى تقرر دخول هذه الحرب لا القصد الخفى الذى ينطوى على أن اذاعة الحل المنوى قبل أوانه خليق أن يمنع الامبراطور من أن يتيح لجلالتكم التدابير التى تقبلونها. قد يكون قلقى هذا سخيفا ، وحتى لو كان له ما يبرره ، وكنتم جلالتكم لاتريدون مع ذلك أن تحلوه محل الاعتبار فسيدخل فى روعى أن الله سدد خطاكم ، وهداكم الى الطريق السوى ، ولن يهن عندئذ سرورى بالقيام بواجب خدمتكم ، بيد أنى ارضاء لضميرى اسأل جلالتكم بكل احترام ان تأمرونى بأن أبرق الى الرسول استرجعه الى سالسبورغ . وقد نتعلل فى ذلك بمهام الوزارة ثم نبعث غدا غيره بدلا منه ، او نعيوه نفسه فى الوقت المناسب .. وانى لواثق مع الاحترام التام بأن جلالتكم اذا لم تقرونى على مخاوفى فستتعطفون فتغفرون هذه المخاوف اذ كنت مخلصا فى سعيى الى خدمة جلالتكم ، مرتاحا الى هذه الخدمة راضيا بها ، لا اتوخى مجرد القيام بالواجب »

بواعث خفية

فهل قد انقضى حقا نصف قرن ولما يكد منذ اضطر سائس عظيم الى أن يوجه مثل هذه الرسائل الى ملك ماكان من دون هذا السائس ليذكره التاريخ بغير رقمه ؟ ألا نعتقد اننا نسمع هنا رجلا من بطانة الملك يلتمس وساما أو يسأل مغفرة ؟ لقد تدبر الكاتب مايقع هنا فى جاشتين لينفذه ، وينتزع من مولاه التوقيع عليه بعد جهاد طويل ، فلا الله ولا ضمير الكاتب ولا الواجب ولا الخدمة بالذى له أقل دخل فى فكرة تمليها سياسة الدول ، بل هنا فحسب لاعب عظيم بالشطرنج يحرج خصمه من طرق ملفوفة

لاتستشف ، يغلبه فى النهاية . والآن يرى هذا الرجل وسط مفاوضاتهى أعقد ما تكون وفى تعب من صراعه مع مولاه اخطارا مباشرة تهدد عمله من افشاء الاسرار بين نساء أميرات فلا يرى مفرا من التفكير فى الطرق التى يمكن أن تجتازها خطة موضوعة بين دولتين اذا ماكتبت أوغسطا الى فيكتوريا ، وكتبت هذه الى أمها الانجليزية وكتبت تلك ثانية الى فينا أو درسدن لتقضى على كل شىء بيد الهواية والعداوة قضاء سريعا . فهل عجيب أن يتزايد احتقار هذا الرجل للامراء من يوم ليوم ، ومن عام لعام ؟ بل العجيب أن يظل الرجل ملكيا

ذلك انه ليس بين بين هؤلاء الهوهنتسلريين واحد يشد ازره . فالابن ، وهو عادة خصم عنيد لملك حذر ، وواقع هنا تحت تأثير زوجة اذكى منه ، ينقل الى بروسيا فكرا انجليزية صحيحة من دون أن تكون له السلطة او الشجاعة على تطبيقها . وان هى الا مرة تجرأ فيها اذ كان الخلاف قد احتدم ، وأصدر بسمارك أوامر مقيدة لحرية الصحافة ، وكان ولى العهد فى رحلة تفتيشية فهو يستقبل وزوجه فى دانتسيج فيتشجع ويخاطب هيئة البلدية بقوله : « انى آسف على مجيئى الى هنا فى وقت يشجر فيه الخلاف بين الحكومة والشعب فلا أعلم به الا فجأة . اننى لا اعلم شيئا عن تلك الاوامر التى أفضت الى هذا الخلاف اذ كنت متغيبا ، ولم اشترك فى هذه المشورة »

ابشالوم

وحين يقرأ الملك هذه الخطبة يلقيها ابنه وتطبعها بروسيا بأسرها يثور ثائره ، لا لأن وريثه يحبب الشعب فيه ، ولكن لانه وهو جندى ألف الطاعة وآمن بها ، يرى هذه الطاعة التى هى أساس الجيش عرضة للأخطار . ولقد كان قبل عشر سنوات فى مثل هذا الموقف ، ومع ذلك لم يخرج غضبه على أخيه الجالس على العرش عن جدران الغرفة الاربعة : فخضوعه الصامت أيام حرب القرم يجعله الآن أشد قسوة على ابنه الذى يعلن معارضته له على رؤوس الاشهاد . فماذا يفعل بسمارك ؟ لقد كان يستطيع والملك فى هذه النفسية ان يحمله فى يسر على اذلال ولده . فسحب ما قال ، وعقابه عليه ، واعتقاله فى قلعة ممكن كله بحق رب الاسرة المالكة ، وقد فكر الملك فيه فعلا . بيد ان الوزير ينصح بالغفران ، فهل يريد ان يأسر خلفه بالجميل ؟ يكاد هذا ألا يكون . بل انه ليريد أن يحرمه تلك الهالة التى يمكن أن تحوطه من العقاب . انه يقول للملك المتدين : « عاملوا الغلام أبشالوم بالحسنى . تجنبوا كل قرار فى غضبكم ، ودعوا مصلحة الدولة وحدها هى التى تقرر ! لقد كان عطف الناس جميعا على فريتس الصغير فى خلافه مع أبيه » . وهكذا أمكنه بهذه الكلمات الحكيمة أن يبسط بين الأب وابنه رواق السلام

عداوة ولى العهد

لكن ولى العهد يستمتع بحريته فى مجالسه الخاصة ، يعترف للوزير الذى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تزايد كرهه له الآن بأنه يلعن سياسته المعادية للشعب ، ويرفض كذلك أن يحضر اجتماعات الوزارة ، لانه « خصمها العنيد » . وحين يلتقيان بعد ذلك بقليل يسأله بسمارك لماذا ينأى عن الحكومة التى ستكون مع ذلك حكومته فى بضع سنوات وانه من الخير أن يسوى خلافاته فيعمل بذلك على تسهيل الانتقال

«الانتقال ؟ لقد كهربت هذه الكلمة ولى العهد ، « فردها بحدة ظانا فيما بدا لى أنى أردت التمهيد لانتقالى أنا الى خدمته . لقد لبثت أعواما لا أنسى تلك العبارة العدائية التى صدرت عنه فى عظمة أولمبية . وما زلت الى اليوم (بعد ثلاثين سنة) اتمثل أمامى ذلك الرأس المنطرح الى الوراء ، والوجه المحمر ، والنظرة عبر الكتف الايسر . وقد كظمت غيظى ، وتذكرت كارلوس وألبا ، فأجبت بأنى تكلمت فى غمرة من الشعور نحو الأسرة المالكة ... فآمل الا يخطر بباله أنى أسعى الى أن أكون يوما وزيره . فلن أكون ذلك يوما أبدا . وكما كان انفعاله سريعا كان هدوؤه كذلك سريعا ، فختم الحديث بعبارة ودية »

اننا نتمثلهما فى ثوبيهما العسكريين واقفين فى قاعة باردة من قاعات الباركيه بين بابين وسيفاهما الى جانبيهما . وانها للحظة عصيبة على كبرياء بسمارك! فلم يجرؤ قبل ذلك أحد على أن ينظر اليه عبر كتفه . وفى هذا المقام يضطر ذلك الذى ود لو جرد سيفه الى ازدراء كبريائه واستساغة النظرة التى لا تروقه بحال . لكنه يحزر خاطر الخصم فتخرج من شفتيه فى صوت مكتوم يفرض عليه الهدوء : « لن أكون هذا يوما أبدا »

الفصل الثالث

الى جانب هؤلاء الأعداء ، أعداء الدم ، كان لبسمارك أعداء من أعداء القلب ، وآخرون من أعداء الذهن . وقد قسمهم فيما بعد الى ثلاث طبقات على الترتيب السابق

ولم يكن ثم وفاق بينه وبين أحد سوى رون . فلم تربطه ثقة خاصة بينه وبين أحد من الوزراء أو القواد ، من رجال البلاط أو من زعماء الاحزاب. فهو فى الغالب بلا حزب . فصحيفة كرويتس تسايتونج ولودفيج جيرلاخ متطرفان فى نظره أكثر مما ينبغى ، وهو فى نظر القدامى من الاحرار متطرف أكثر مما ينبغى ، ثم الى ابعد من ذلك نحو اليسار نضال صريح ، فليس سوى رون ذلك العسكرى الحامى من يستجيب لنداء الصداقة ، صداقة الرجل للرجل ، صداقة لم تتأثر حتى بالنزاع على شئون تتعلق بالفكر . وقد منحه مرة اجازة لنصف عام منحه اياها كارها : « انك مازلت فى مجمع الرفاق الصدر الوحيد الذى يشعر .. والمساعدة التى تقدمونها الى الملك بخبرتكم السياسية لاتعوض ، فان أحدا لم يتناول مع الملك من الخبز والملح مثل الذى تناولت »

الرصاصة التى اخترقت الصدر

وكويدل صديق يوحنا الموسيقى الذى لم يلبث أن اتخذه معاونا له لأنه يحس من نحوه بالثقة ويثق به، لم تنقض على دخوله الوزارة بضعة اسابيع حتى اصطدم به . فقد كتب اليه كويدل يشير عليه فى المسألة الدانيماركية بأن ينشد تأييد الرأى العام ، فاذا لم يوافقه على هذا الرأى فانه يعرض على الرئيس أن يعود سيرته الاولى فى الحياة مخلصا وصديقا . فيستدعيه بسمارك فى الصباح لمقابلته ويقول له « بصوت مكبوت لكنه بادى الانفعال » :

« قل لى لماذا! كتبت الى هذه الرسالة فى الحق ؟ اذا كنت تعتقد أن فى وسعك التأثير فى قراراتى فعلى ان اقول لك ان ما بلغت من العمر لا يجيز لك ذلك .. فظننك أنى أزج بنفسى فى هذه المسألة الهامة كما يفعل حامل العلم من دون ان اتبين الطريق الذى اسأل عنه امام الله شىء لا احتمله منك وأنت من عرفتنى هذا الزمن الطويل وهذه المعرفة الجيدة ، شىء أطار النوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن جفوني لينتين ، ولست أري داعيا لاعفائك من أعباء المنصب ، انما أردت ان اريك كيف تستقر الرصاصة التى اطلقتها على صدرى ! » فيعتذر اليه كويدل ويسحب رسالته ويقول له بسمارك : « الآن زال كل شيء .. لـكن اذا اختلفت معى مرة أخرى فلا تكتب بل تحدث الى ! »

دسائس

ان بسمارك وحيد الى هذا الحد . رجل ظل صديقه خمسة عشر عاما وصديق زوجته اطول امدا من ذلك ، هو الآن موظف عنده ، يبذل له ، مع الاحترام الواجب مافى ذلك شك ، نصحا يتفق والرأى العام ، لكنه يكفى لان يذهب بحلم الرجل الذى يهاجم من كل جانب ، على حين لم تذهب به شتائم الصحف . بروتس ! وأنت أيضا ؛ لكنه وكويدل قد أصلح لم ينصلح الامر مع ذلك ، فالاحترام الذى انتزعه شلوتسر قد تبدد ، وكويدل ان هو الامساعد ذكى الفؤاد ، موسيقى الاحساس ، لا عامل يدخله رجل الدولة فى الحساب

ووزارة الخارجية فى مجموعها تناهض الرئيس على قدر ما يسعها التفكير ، لكن هذا لايزعجه . بيد أنه يتحول الى الدفاع فى ميدان جـديد اذ يعمل سفراؤه فى الخارج ضده . فهذا اوزيدم فى فلورنسا ، وهذا جولتس فى باريس ، يريد كلاهما أن يحل محله ويسفه كلاهما سياسته للملك رأسا فى رسـائل مباشرة . بيد أن الملك وفى لا يخون مستشاره كما فعل أخوه ، بل يسلم اليه الرسائل فى الغالب ليرد عليها . وكون بسمارك قد لبث ثمانى سـنوات يناهض سياسة رئيسه برسائل خاصة الى الملك وجيرلاخ ، لم يحمله الآن وهو رئيس على غض الطرف بحال من الاحوال . فهو ينكر مافى العملين من أوجه الشبه بما فى الرجل العبقرى من استهتار ، يحظر على سفرائه فى حزم أن يفعلوا ماكان يفعله وهو سفير . والكيفية التى يحظر بها ذلك ، وخاصة فى رسالته الى الكونت جولتس الذى بعثه نفسه الى باريس ، مثال من ذلك المزيج الذى لانظير له من نغماته التى تجمع بين الرسمى وغير الرسمى فى لهجة شبيهة بالرسمية . فهو يكتب اليه بخطه يقول :

« ليس مما ينتظر احد ان تكون كل التقارير معبرة عن رأى الوزارة . بيد ان تقاريرك لم تعد تقارير بالمعنى المألوف اذ هى تتخذ شـكل المحاضرات الوزارية فتنصح للملك بسياسة تخالف سياسة الوزارة .. ومن المؤكد أن مثل هذه الآراء المعارضة تضر ولا تنفع ، ذلك أنها يمكن أن تثير ترددا وتعطيلا وكل سياسة خير من السياسة التى لاتبت فى شيء .. ورأيى فى بصيرتكم السياسية عظيم ، لكن رأيى فى نفسى أيضا أنى لست غبيا . ولا استبعد أن تقول انى مخدوع ، لكنه مع ذلك قد يتعاظم رأيك فى وطنيتى وفى قدرتى على الحكم على الاشياء اذا قلت لك انى منذ أربعة عشر يوما استند الى المقترحات التى تبديها فى تقريرك

« على انه كيف يصح عزمى على أن أفضى اليك بآرائى الأخيرة بحرية اذا كنت قد عقدت النية فى صراحة تقريبا على مناهضة الوزارة الحالية وسياستها ،

اى على اسقاطها ؟ .. ومع ذلك فانه يجب على بوصفى الوزير أن أكون مع السفير فى باريس صريحا الى آخر حرف من سياستى ، مالم يضر ذلك بمصلحة الدولة . ان الحلاف الذى يتحتم على كل من كان فى مركزى أن يزيله عن علاقاته بالوزراء والمستشارين والبلاط ، ويتغلب عليه مع المؤثرات الخفية والمجالس النيابية والصحافة والبلاطات الأجنبية لايمكن أن يزيده حلول المنافسة بين الوزير والسفير محل الدربة فى الوزارة . انى يندر أن أكتب بهذه الافاضة التى كتبت بها الليلة فى عيد الميلاد اذ كل الموظفين فى اجازة ، ولن أكتب الى أحد ربع ماكتبت اليك . ذلك أنى لاأستطيع ان أقرر الكتابة اليك بصفة رسمية وبنفس اللهجة التى استعملتها فى تقاريرك ليمر ما يكتب اليك بالدواوين .. فاذا كنت تسعى الى اسقاط الوزارة فعليك ان تفعل هذا فى المجلس وفى الصحف على رأس المعارضة لامن مركزك الحالى . عندئذ يجب أن أستمسك أنا أيضا بجملتك التى تقول فيها انه فى النزاع بين الوطنية والصداقة يكون للاولى القول الفصل . على أنى استطيع أن أؤكد لك ان وطنيتى من القوة والتقاء بحيث يمكن أن تكون الصداقة التى لاتبلغ شأوها ، عزيزة مع ذلك على »

اغواء

رسالة يقصد بها الى هزيمة متلقيها ! وحفيظة لدود ترتفع نغمتها هنا فى حذق الى تأثر باطني لقلب صديق ، على درجات مقيسة من الاحترام والوعيد . وبينا لاتتسم كلمة من كلماته بالحدة تراه يحمل مزاحمه على أن يتبين انه اذا أراد أن يسقطه فسوف تكون عاقبة ذلك وبالا عليه . واذ كان الكاتب يعلم مبلغ حظوة المرسل اليه عند الملك فهو يفهم كيف يلطف رفضه الرسمى بحيث لايقع هذا ، ولا يقرأ فى كتاب الرئيس ، الا ثناء على شخصه ، ونوعا من التقدير لذهنه . وهذا خليق أن يرضيه لان جولتس هذا رجل مزهو . وآية الفن فى مثل هذه الرسالة التى لايرد هنا سوى ربعها ، هى أنها كالتمثال الاثرى يمكنك أن تتأمله ولاتشبع من تأمله ، وأن تدور من حول التمثال ولا تمل الدوران حوله . وأن المرء ليتبين أن قطعة واحدة ووثيقة واحدة من هذا النوع تكفى لأن تدمغ صاحبها بأنه ديبلوماسى من طبقة رفيعة

ويحاول آخرون أن يثيروا الرئيس الثاقب النظر باستقالاتهم : لكنه حين يطلب حاكم شلزفيج أن يستدعى ، لأنه مل تدخل برلين فى التفاصيل — وهذا الحاكم من معارف بسمارك القدامى وصديق للملك — يرد عليه بسمارك ردا يقرأ فيه مايلى : « انى مستعد كل الاستعداد لأن أعرض على الملك الامر الذى ترغبون . لكنى أرجوكم أن تفرضوا أن الملك قد يعينكم وزيرا ويعيننى حاكما لشلزفيج . وهنا اعدكم بأنى سأكون منفذا لسياستكم طائعا لكم كل الطاعة ، أحزر أفكاركم وانفذها ، ولا أساعد على زيادة مصاعب الوزارة .. فاذا أردت أن أعلن فى حالات (مماثلة) اننى قد فرغ منى فيكون قد تم لى من امد طويل ذلك السلام الظاهرى فى حياة خاصة ، أما سلامى الباطنى الذى استمده من وعيى بأنى اخدم الملك والبلاد فيكون قد زايلنى .. أرجوك من كل قلبى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن تعد هذه الرسالة معبرة عن الثقة التى تزجيها الصداقة ، ولوددت أن أعبر لك عن هذه الثقة بلسانى »

أفهذا هو رجل الدم والحديد ؟ انه بسمارك المغوى

وغير ذلك لهجته مع أعدائه الأحرار . انها لهجة وسط بين الاحتقار والتندر. وكما هو الشأن مع كل ديكتاتور فى عصره كذلك شأن بسمارك دائما أن يحافظ على مظهر الدولة الشرعية ، فهو من ثم يبدأ أولا بتفسير الدستور الذى يفكر فى خرقه لمصلحة الجيش ، فيخرج فيه تخريجا لعله يضحك منه فى سره ، ويحدث ثغرة فى حيثما تتضارب عوامل الدستور الثلاثة ، واذ كان يتكلم عن حقوق التاج التى لم ترد فى الدستور ، فهو يؤسس فى الواقع دولة الحكم المطلق التى رآها تنهار فى مارس ١٨٤٨ والغيظ يأكل قلبه . كذلك يعرب فى اللااندتاج عن حل للمشكلة فيبدى صراحة أنه «مادام دولاب الحكومة لن تقف حركته فمن السهل أن تصبح الاختلافات القانونية مسائل تتناول السلطة ، فمن يجد السلطة فى يده فليمض فى طريقه وفاقا لرأيه »

القوة فوق الحق

وسرعان ماتفسر هذه العبارة بأنها « القوة فوق الحق » وهو شيء آمن به بسمارك فى الساعات الحاسمة لكنه لم يبلغ به السخف قط أن يقوله . « اننى لم أنطق بشعار بل قررت حقيقة واقعة » بهذا كان رده

وبهذه « الشقلبة » التى تدق العنق يمضى بالنزاع فى مبدأ الأمر الى شفا الهاوية حيث يريد ذلك ، ثم يدع مجلس الأعيان يوافق على الميزانية التى لم يمثل بها ، ويدع مجلس النواب يصم هذا القرار بأنه مخالف للدستور وينهض داعيا السادة الى التوجه الى القصر فى الساعة الثالثة : وهنا يعلن بناء على أمر الملك قرارا بتنفيذ الاصلاحات مع ذلك ويصرف النواب . ويتعالى صياح الصحف فى طول البلاد وعرضها وترتفع العقائر . ويطلب بعض هذه الصحف وجوب حبس هذا الوزير . لكن المحافظين يرون أن من الخير أن يذهب ، وليس باقيا سوى أحد عشر رجلا يمكن ، على حد قول أهل برلين ، أن تقلهم سيارة ركوب الى ميدان دنيهوف

الى منصدة الوزراء

وفى الدورة التالية بعد ذلك بنصف عام يزداد حدة اذ كان الخلاف تفاقم فى تلك الاثناء بفعل الصحف وخطب الخطباء . ويصفه لوثيوس على المنبر بقوله : « كان يومئذ يرتدى ملابسه المدنية ، وكان شاربه القوى مايزال كشعر رأسه أو .. ماتبقى من هذا الشعر ، أشقر أحمر . وكانت قامته المديدة وهو جالس الى منصدة الوزراء تدل على الجبروت وتؤثر فى النفوس ، بينما كان فى هيئته وحركته وطريقة كلامه شيء من التهاون يثير بعض الشيء ، فدس يده اليمنى فى جيب سراويله الزاهية ، فذكرنى تذكيرا قويا بأولئك

الصاخبين من شهود المبارزات التى تجرى بين الطلبة » وشبيه بهيئته المثيرة خطبته التى كانت اطلق مما كانت فى الاسبوع الاول حين سمعوا منه مادل على عدم استقراره على شيء من اثنين : أيحكم مع اللاندتاج أم ضده . ذلك انه يومئذ كان كما كتب شلوتسر « يتمتم تمتمة ويتعثر فى كل جملة اذ كان قد أسرج حصانين »

أما الآن فيقول من عل : « ستخوض الحكومة غمار الحـــرب التى ترى ضرورتها سواء أوافق المجلس أم لم يوافق » . وفى مرة أخرى « ان الملـكية البروسية التى اتفق اتفاقا غريبا فى مثل هذا اليوم أن ولد لها وريث عرش ، لم تؤد رسالتها بعد ، وهى لم تنضج بعد لأن تؤلف لدارها الدستورية مجرد حلية للزينة » . وقد رجاه الملك فى صباح اليوم الذى ألقى فيه خطابه أن يشير الى هذا ، وكان ذلك فى ٢٧ يناير ، ووريث العرش الذى بلغ فى هذا اليوم الرابعة من عمره ، والذى بدا أن بسمارك يشير هنا الى سلطانه المقبل سمى فيما بعد غليوم الثانى

أنماط الديمقراطية

ان الذين كافحوا بسمارك فى هذه القاعة كانوا من حيث المستقبل متفوقين عليه بلا مراء . وما على المرء للتثبت من ذلك مع توخى الانصاف الا أن يكر البصر الى الثلاثين حتى الخمسين السنة التى باتت فى ذمة المـاضى . فـكل شيء نشدته أوربا الى الآن ووقع قبل الحرب العالمية وبعدها فى جميع البلدان كان فى قرارته ضمن منهاج حزب التقدم البروسى الذى كان يومئذ فى شبابه وكان يسعى الى جمهورية يرأسها ملكى ، أى حكومة على غرار حكومةانجلتره الشعبية . وهذا الحزب ومعه الاشتراكيون الديمقراطيون الاولون الذين ارتبطوا به ، قد كانوا هم الذين تهيبهم بسمارك فرادى فى ذلك الكتاب الذى بعث به الى الصديق ، ولم يجدهم اغرارا الا فى السياسة الخارجية . وانتفاء كل تمرس فى شعب كان الى أمس يحكم حكما مطلقا ، وكانت الدولة والفكر فيه يتجنب احدهما الاخر من قديم ، أمر لاح طبيعيا فى هذه البدايات التى بدأتها الأحزاب الحرة ، فقدكانت شريفةالنزعة ، عاقلة ، ذات تربية عالية ، لكنها غير عملية ، وفقيرة مع الأسف فى الابتكار : كانت جماعة من أصحاب النظريات تنظر الى المستقبل ، وتجلس اذ ذاك على مقاعد قبالة رجل واقعى يخترق الحاضر بنظراته العملية ، ويعمل على التغلب بوسائل الماضى

فيرشوف

وكان فيرشوف أمتع شخصية فيهم . كان يصغر بسمارك ببضع سنوات وكان نحيلا رقيقا ، كما كان هذا عملاقا ، نشأ فى أوساط فقيرة وعنى بالطبائع البشرية ، وتعطش الى العلم ، وكان فى شبابه أكثر طموحا من بسمارك ومثله قدرة على التحليل . لكنه اذا قوبل ماكتبه بين العشرين والثلاثين من رسائل بما كتبه بسمارك منها فى هذه الفترة معالجا فى بعضه نفس الحوادث بقى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطبيب الشاب ، السريع التصعيد ، الجليل الابحاث ، دون النبيل المتصعلك النيهيلي ، المتبطل تقريبا ، وتخلف عنه كل التخلف : فهنا كل شيء رأى ، ومخيلة ، ومشاكسة ، وهناك كل شيء فكر . ففيرشوف يؤكد لابيه مرارا وتكرارا انه يشعر ، لكنه يكتم شعوره : فهو يتوق الى المشاعر ، وينطوى على اعتداد عظيم بالنفس ، تغمره دائما مثل عليا تلقاها ولم يخبرها ، ويظل يستعر تحت هذا الفيضان . « اننى بوصفى باحثا طبيعيا لا يمكن أن أكون سوى جمهورى ، ذلك أن تحقيق المطالب التى تقتضيها القوانين الطبيعية والتى تنشأ عن طبيعة الانسان لا يتم حقا الا تحت الشكل الجمهورى للدولة» . ولا شك أن نفس القوانين الطبيعية هى التى حملته على هذا الاستنتاج المخجل : « لقد شرحت آلاف الجثث فلم أجد فيها أثرا للروح »

واذا كانت رسائل بسمارك مليئة بأشياء وأشخاص وقعت على كليهما العين وخبرتها النفس ، وانتهت فى الغالب الى احتقارها ، لكنها خالطت شعورها دائما ، فان رسائل فيرشوف كانت حافلة بالشعر* . ومعقول من فيرشوف أن يعد بالعدول عن التهييج السياسى مراعاة لموقفه من الدولة كما كان معقولا من بسمارك ان يحلق لحيته فى أيام مارس من سنة ١٨٤٨ ، فكلا الرجلين كان هاويا فى السياسة وهو فى الثلاثين ، بيد أن أحدهما لم يكن بلغ أن يكون مزارعا بحق ، بينما الآخر قد كان حجة فى التشريح . بلى لقد كان هذا هو طبيب شاب ناقدا اجتماعيا لا يشق له غبار . ثم كان بعد ذلك أن درس أحدهما السياسة ودرس الاخر علم الانسجة دراسة وافية فى خلال خمسة عشر عاما ، فلا يعجب الطبيب أن هزمه خبير بالشئون الأوربية ولو تحلى هو بالعبقرية السياسية

حوار

ان مساجلاتهما فى مجلس اللاندتاج لا تشرف ايا منهما ، فان المرء ليدهش كيف أمكن رجلين من رجال الفكر أن يزجيا فراغهما ويضيعا وقت مواطنيهما بمثل هذه المهاترات :

بسمارك : « الا يرى حضرة المقرر أن فى الامكان أن يقف فى دائرة العلم الذى يزاوله حضرته طبيب يشتغل بالتشريح كعمل اضافى ، أمام جمهور يعطف عليه سياسيا ويحسن به الظن ، لكنه لا يبلغ مبلغ حضرة المقرر فى تعمقه العلمى ، فيورد مثل هذا الخطيب امام هذا الجمهور اقوالا مقنعة فى التشريح بعم حضرة المقرر حق العلم بوصفه ذلك الخبير فى علمه أنها أقوال خاطئة لا يمكنه ادحاضها الا أمام جمهور محيط بدقائق الموضوع احاطة حضرته »

فيرشوف : « وددت لو أن حضرة رئيس الوزراء وفق الى أن يكون له بين ديبلوماسيى أوربا مثل المركز المعترف به لى بين زملائى المتخصصين .

---

* بضم الشين وتشديدها وضم العين ، جمع شعار

أن سياسته غير قابلة للتعريف ، بل انه لممكن القول بأنه لاسياسة له .. وأن ليس عنده قبل كل شىء أية فكرة عن السياسة القومية ، ذلك أنه يعوزه فى الموضوع القومى كل فهم »

بسمارك : « انى اسلم كل التسليم بما لحضرة الخطيب فى مهنته من شأن رفيع ، واعترف بأنه فى هذا الباب مقدم على . بيد انه اذا ابتعد حضرة الخطيب عن دائرته ، وأقحم نفسه فى ميدانى ، فعلى أن أقول له انى لا أقيم لحكمه على السياسة كبير وزن . فانى أيها السادة أعتقد حقا ، من دون مباهاة ، انى أفهم هذه الأمور خيرا منه . (مرح شديد) . لقد قال حضرة الخطيب انه ينقصنى الفهم فى السياسة القومية ، ولايسعنى أن أرد عليه مانسبه الى الا مع حذف الصفة : انى لا أجد حضرة الخطيب يفهم شيئا فى السياسة اطلاقا »

ان ممثلين يتشاجران فى غرفة الملابس على مالهما من شأن وحب فى قلب الجمهور لا يمكن أن يكونا اتفه اثرا من هذين الصوتين اللذين ارتفعا فى اللاندتاج البروسى . ومع ذلك فهما صوتا فيرشوف وبسمارك . وفى مرة أخرى شك فيرشوف فى حب الوزير للصدق فأفضى الأمر الى أن طلبه الوزير للمبارزة فلم يرد فيرشوف على هذا الطلب ردا حاسما . ثم أعلن أحد رفقاء حزبه انه لايجوز له أن يبارز ، فرفض فيرشوف الطلب . وهذه الدعوة الى المبارزة قد كانت آخر « فصل » لبسمارك من فصول الشباب ، وكان يومئذ فى الخمسين

وبسمارك حين يتحفظ كوزير يكون أبلغ تأثيرا . يقول سمسون : « ان السياسة قصيدة عرضية لرجل ليس بشاعر . والهرفون بسمارك شبيه بلاعب الحبل الذى يعجب الناس فحسب بأنه لايقع . وعلى كل فان الاعجاب الذى يلقاه لاعب الحبل لايوافق ذوق كل انسان » . ويقول بسمارك « اننى لا أجد داعيا لان أبحث هنا مسائل تتعلق بالذوق الحسن والادب اللائق »

الديكتاتورية الاولى

فى مثل هذه التموجات تجرى معاملته الشخصية لاعدائه صعودا وهبوطا . أما فى الموضوع حيث يلقى هذا الحاذق من يتحدث باسم الدولة فيصبح واضحا . فالكلمة هنا لصاحب السلطان . وخير ما يمكن أن يعقب النزاع هو ، فى رأى بسمارك ، الديكتاتورية . ذلك انه لايشتهى فى الحقيقة اطلاقا ، وهو لم يعد يشتهى ، أن يقوم بذلك الدور الذى لعبه بيل أو أوكونل ، وكان قبل خمس وعشرين سنة يحلم بأن يلعبه . فمثل اعتداده بنفسه ومثل رغبته فى السلطان لا يوافقه الا دور الديكتاتور ، ومن ثم لم يستشعر قط فى عشر السنوات التالية ما استشعره فى السنوات الاربع التى استغرقها النزاع من ارتياح الى الدستور : فانه لما كان لايبالى فى المسائل المتعلقة بحقوق الشعب فان شعوره فى هذا المقام لايخرج عن شعوره وهو يصيد الدب ، وتفكيره

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هو تفكيره عندئذ : وانه لحسن الحظ أن توجد مثل هذه المغامرات أيضا فى بلاد كبروسيا مملة هذا الاملال

اجراءات عنيفة

الآن ينتقم من عدو المستشارين السريين : فقبل بسمارك لم يبلغ رئيس حكومة مبلغه من الاهتمام الشديد بأشخاص الهيرارقية الكبرى التى تدير الدولة ، ذلك أنه من لايفكر عنده حسب التعليمات يطرد . ومن ثم ما كاد يدخل الحكومة حتى شرع فى أن يقيل من وزارة العدل ومن الادارة من يرى رأيا حرا أو من يشتبه فى أنه يرى هذا الرأى . وقد خبر ما ينيف على ألف موظف هـذه الاجراءات فى نفسه غضون أربع سنوات . وحين ناصر حزب التقدم اولئك الذين لحقت بهم الاضرار اضطهد اعضاء لجنته . وقد كان نصيب الضباط الأحرار فى الجيش الفصل تنفيذا لحكم من محكمة الشرف ، ونصيب العمد ومستشارى البلديات ورجال التعليم وجامعى « النصيب » ووكلاء البنوك وأطباء التطعيم الاحالة على الاستيداع ، ونصيب رجال العدل النقل عقابا ، ووقف المرتب وسحب اعانة السن

وأخيرا يأتى دور الصحافة ، فتصدر القوانين على الطريقة الروسية اصرم من قوانين نابليون ، لا لتعطيل صحيفة لمدة معينة من جراء مقال ، ولكن لتعطيلها نهائيا من جراء موقفها بالاجمال فى اجراءات تصطنع لتسويغها البواعث الأدبية ، وتسندها مواد فى الدستور « كيما يحل محل الاضطراب العاطفى المفتعل الذى تملك الخواطر فى السنوات الأخيرة من جراء الحزبية جو اهدأ وأقل انفعالا » . ويتذرع بسمارك فى النهاية بالاخلاق والدين ليدخل فى روع ملكه ان هذه الاجراءات فى باطنها عادلة . كذلك برر ليوحنا اجراءاته هـذا التبرير ، وما تزال أمها على قيد الحياة لاسبيل الى تغيير فكرها ، ومايزال بسمارك يذكر ماكتبته فى مصلحة الثوريين المجريين الى ابنتها ، وما رد به عليها. أما لنفسه فليس بحاجة الى أمثال هذه الاعتذارات ، فاحتقاره للجماهير لا يحوجه الا الى الشعور بالسلطة ليروضها

وقد أحب بسمارك السلطة دائما أكثر مما أحب الحرية ، وهو فيها أيضا قد كان ألمانيا

الفصل الرابع

ضد بولنده

لقد هللت المانيا بأسرها للنزاع القائم فى بروسيا وان بدا أن الحكومة كانت تقوى به من شهر لشهر . ونوهت بعض الدول الرجعية الصغرى بأنها ناقشت الميزانية ، وأمر نفس بويست فى سكسونيا بالاحتفال شعبيا بعيد معركة الشعوب لأن هذا العيد لايحتفل به فى بروسيا الا عزفا من الجوقات الموسيقية العسكرية. وجعل تريتشكه الشاب يلقى خطابا ناريا عن الحرية الألمانية ليغيظ زملاءه فى برلين . وفى فينا كانوا أسعد الجميع ، دستور تحت رعاية شميرلنج ، وحل للمسألة الالمانية يبتكره ريشبرج ، وخطة يبسطها ثورى سابق « ومواطن بسيط » ليوفق بها بين الحرية والشرعية ، وبين النمسا والمانيا فى عشر دقائق

حتى الثوريون البولنديون جعل قلب هابسبورغ يرق لهم لما رأوا الروسيين والبروسيين متفقين .. وقد أمكن أن تكلل ثورة بولنده الجديدة على القيصر فى عام ١٨٦٣ بالنجاح ، لأن جورتشاكوف نفسه كان يقود أصدقاء بولندة فى بطرسبورغ ، ولان التيارات الحرة فى الغرب استطاعت أن تخفى مصالحها المعادية للروســيا وراء رمز الحرية القومية : لقد كانت أوربا بأسرها تتحدث عن ضرورة قيام دولة محايدة بين دولتين متعاديتين ، وحتى نابليون لم يجد محيصا عن التحمس للحرية لأن الفرنسيات كن يحببن ليليات شوبان الغرامية. وقد تفاقمت الازمة سريعا الى تهديد ببلاغ نهائى جديد كما كانت الحال فى عام ١٨٥٤ ، وربما كان الفصل لبروســيا . فماذا يفعل بسمارك ؟ يحالف القيصر فى الحال محالفة عسكرية وهو من يريد أن يربطه فى هذه المناسبة

تهديد بولنده

ويقول له السفير الانجليزى :

— ن أوربا لن تسمح بأن تساعد الجيوش البروسية

فيسأله بسمارك هادئا :

« ما أوربا هذه ؟ »

— أمم كبيرة مختلفة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيعود بسمارك الى سؤاله :

« أمتفقة هى فيما بينها ؟ »

فلا يحير السفير جوابا ...

لقد ظل اثنتى عشرة سنة يفكر فى هذه الحالة ، وهى نفس الحالة التى أفضت فى ثلاث أزمات كبيرة الى عصب واحدة أو متماثلة : وقد لبث يدرس احتمالات الموقف ليالى فى عشرات المذكرات والتقارير والرسائل . فالآن يستطيع سريعا أن يأخذ بالحقائق شأن لاعب الشطرنج الماهر الذى يظل طويلا يدبر تدبير الفنان ليصل الى هذه النتيجة

ويصيح الأحرار فى اللاندتاج قائلين : « ان الحكومة تقدم أرضا مساحتها ٥٠٠ ميل مربع ضحية لفظائع الحرب الروسية !.. وليس لمثل هذه السياسة الطائشة يهدر دم المواطنين البروسيين !.. اننا نشترك طائعين فى وزر اضطهاد آدمى مخيف تحتقره أوربا بأسرها مع عميق الاستياء ! »

ويقابل الوزير هذه الخطب من تويستن وفالدك وفيرشوف بسؤال يوجهه فى أدب : « هل اذا استقلت بولنده تدع لجارتها بروسيا دانتسيج وتورن ؟.. ان الميل الى التضحية فى سبيل القوميات الأجنبية على حساب الوطن لون من ألوان المرض السياسى ، قاصر على المانيا »

ان النظرية المعارضة جلية هنا . فبسمارك على حق من ناحية السياسة الدولية ، فما يبغيه فى هذه اللحظة ليس معاداة بولندة بقدر ماهو مناصرة الروسيا ، فلو قامت دولة بولندية جديدة لكان من الهين أن تتحالف مع الروسيا وفرنسا محالفة خطرة . لكنه على النقيض من ذلك اذا جعل المرء فى حسابه خوف القيصر المألوف من الثورات ، فوعده بالمساعدة فانه يدينه بالجميل ، ويجعل من الصعب عليه الانضمام الى النمسا عدوة بروسيا حين تناقش فى القريب الحساب . وفى وسع بسمارك ان يشترى هذا الاحتمال النفسانى من القيصر بثمن بخس . ولن يكلفه قراره هذا لا دما ولا فظائع حرب ، بل توقيعا وعداوة من البولنديين . فهو يتلقى من فارصوفيا حكما بالاعدام داخل صندوقة : حبلا بشريط أسود ــ أحمر ، أما حكم الاعدام الثانى فيتلقاه من برشلونة : « ان لجنة الدعاية الثورية الموقعة على هذا قد قدمتك للمحاكمة وحكمت عليك بالاجماع بالاعدام ، وحددت الاسابيع الاولى من الشهر المقبل موعدا للتنفيذ »

ومع ذلك لايعرو بسمارك خوف . ولو لم تكن له هذه الشجاعة التى هى خير ماورث الفارس وأعزه على الوهن لما قطع فى سنى الستين على الأقل ، طريقه الى النهاية وحده ، لايضل ولا يخاف ، يهدده المجلس ، ويسىء به الملك الظن ، وتناهضه الملكة بنفوذها ، وتمكر به البلاطات ، ويدس له المفوضون ، ثم يحكم عليه الثوريون الأجانب ثانية بالاعدام ، ويتعرض كذلك قريبا لمسدسات المثاليين المتعصبين . ولو أن شيئا مما ابتدع لم يبق ، وكان ما أدى باطلا ، لبقيت له هذه الشجاعة الادبية محسوبة فى سجله ، ولظلت ألزم مثال

يحتذيه الالمان ، اذ كان انتفاء هذه الشجاعة سببا فى خسران العلية من طبقته وصياع الأمراء

انذار للنمسا

وفى فينا حيث المكر فى تقاليدهم أقدم من الشجاعة فى تقاليد بوتسدام ، كانوا يميلون الى أن يعدوا لهجة بسمارك الجديدة خداعا ، فحزموا أمرهم على الابتسام كلما سخط الأخ المقيم فى شمال المانيا . وقد ابتسموا من قبل لبرنامج بسمارك اذ قال لكارولى على أثر توليه الوزارة : « ان علاقاتنا يجب أن تتحسن أو تسوء ، فليس من ذلك مفر . ونحن نتمنى أن تتحسن ، لكنه اذا فاتنا اقبال الوزارة الامبراطورية ، وضعنا الاحتمال الآخر نصب أعيننا ، واستعددنا له .. فللنمسا الخيار : اما ان تعدل عن سياستها الحالية المعادية لبروسيا ، وأما أن تستغنى عن الارتباط بها ارتباطا شريفا . انهم يعتقدون أنا احوج منهم الى الامن والحماية ، ومن ثم سيكون علينا أن نقيم الدليل بالفعل على خطل هذا الرأى اذا هم أهملوا أقوالنا ورغباتنا »

ومنذ عهد شباب فردريك الأكبر لم يخاطب بروسى سفير هابسبورغ بهذه اللهجة .. لكن كارولى كان فى قرارة نفسه من المعجبين بالوزير المعادى ، ثم هو فيما خلا ذلك مجرى الى حد ألا يحدث ضجة هوجاء ، فهو يؤثر أن يجيبه جوابا أنيقا فيقول له :

واين نجد البديل !

فيرد بسمارك : « من الطبيعى كل الطبيعى أن تنقلوا مركز الثقل الى أوفن » (بودابست) . فيقضى بهذه الضربة على الكونت ، ذلك أن هذا بالذات هو ما يتمناه كل مجرى طيب ، وان لم يجز له قوله . ويقول الوزير عقيب ذلك لسفير آخر من سفراء فينا : « انى لا أتحول عن معارضتى لاستعمال عبارة الحرب الأخوية . فلست أعرف غير سياسة شاقة هى لعبة حيال لعبة » .. فما أثر ذلك فى فينا ؟ يقولون : مرض عصبى شديد . ويبتسمون

اغواء الملك

ويريد هابسبورغ مرة أخرى اصلاح الاتحاد الالمانى ، واقامة خمسة مديرين ترأسهم النمسا ، وتتولى بروسيا الوكالة ، تقوم الى ذلك جمعية لا حول لها ولا طول من مندوبى البرلمانات الالمانية . فحين يهدد بسمارك بالانسحاب وتظل النمسا أقلية ، تأخذ فى معالجة الحالة من ناحية أخرى : تدعو النمسا كافة الامراء فيجتمعون فى فرانكفورت ويتشاورون ، فيشعر الجميع بارتفاع شأنهم ، أو ليست جاشتين حماما للمسنين ؟ فلنفعل ذلك فيما بيننا نحن الأمراء بفضل الله — : وبغتة يزور فرانسوا جوزيف الملك غليوم نزيل الحمام ويعرض عليه مشروع برلمان للريخ من الامراء ومجلس شعبى ، ويدعوه الى موافاته الى اجتماع للامراء يعقد بعد اجتماع فرانكفورت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد دعى اليـــه بقية الأمراء . ويلوح الملك الهرم ميالا الى قبول الدعوة ، ويغتبط فرانسوا جوزيف

نضال فى جاشـتين

بيد أنه من المؤسف ألا يترك هذا الوزير المتعب سيده فى جبال النمسا وحده ، فانه ليروى فى شيخوخته مايلى : « كنت فى الثانى من أغسطس ١٨٦٣ أجلس فى جاشـتين .. تحت أشـجار الصنوبر ، وفوقى عش عصافير . فجعلت أراقب والساعة فى يدى كم مرة فى الدقيقة يحمل الطائر الى صغاره قوتها من الدود أو الحشرات . وبينا أتأمل نشاط هذا الحيوان النافع لاحظت أن الملك غليوم يجلس وحـده فى الجهة الأخرى من الهوة فى ميـدان شيلر بلاتس » . وفى البيت يجد رسالة من الملك يدعوه فيهـا الى موافاته الى شـيلر بلاتس للتحدث معه فى موضوع مقابلته للامبراطور . بعـد الأوان ! « فلو انى لم ألبث هذه المدة اتأمل الطبيعة ورأيت الملك قبل ذلك فلربما كان الأثر الأول الذى وقع فى نفس الملك من مفـاتحات الامبراطور غير ماوقع

« انه لم يشعر بادىء الرأى بتلك الاسـتهانة التى انطوت عليهـا هذه المباغتة ، وهذه الدعوة ، بل قل الاستدعاء الذى لم يمهل فيه طويلا. ولعله قد راقه من الاقتراح النمسوى مافيه من عنصر التضامن بين العواهل ... كذلك ألحت على الملـكة (الأرملة اليصـابات) فى التوجه الى فرانـكفورت ، فأجبتها : اذا لم ير الملك مايقرره غير ذلك فسـأذهب الى فرانـكفورت ، وازاول هناك اعماله ، لكنى لن اعود وزيرا . فبدا على الملكة القلق من هـذا الاحتمال ، وكفت عن مناهضة رأيى عند الملك .. ولم يبت سـهلا على أن احمل الملك على الابتعاد عن فرانكفورت .. وقد اعتقدت حين بلغنا بادن انى انتهيت من اقناعه ، بيد اننا وجدنا هناك ملك سكسونيا مكلفا من قبـل العواهل جميعا بتجديد الدعوة ، فغدا صعبا على مولاى مقاومة هذه اللعبة الشطرنجية ، وراح يكرر مرارا هذه العبارة : ثلاثون سـيدا حاكما ، وملك يقوم بدور الرسول !.. وقد صرفته عن ذلك فى جهد تصبب له عرق وجهى ، وكان مستلقيا على أريكة يغالب دمعه ، وكنت بعد أن انتزعت منه الرسالة التى تحوى رفضه النهائى ، خائر القوى ضعيفا أكاد لا أقوى على الوقوف على قدمى . وحين غادرت الغرفة كنت أترنح ، وكنت عصبيا شديد الانفعال الى حد انى نزعت أكرة الباب من الخارج وانا أقفله » . فلما سلم الرفض من يرسله حطم صينية بكؤوسها ، « فقد كان لابد لى من اتلاف شىء ! فالآن أتنفس الصعداء ! »

هذه أول ساعة فى مجموعة الساعات التى تعاقبت لتسجل تاريخ نضال قام بين بسمارك وغليوم : تهديد للملكة السابقة ، وتنوير وئيد للملك الطيب الذى لايلحظ بتاتا كيف تستغله النمسا . فانه حين يراقب وزيره صغار العصافير ويحسب ، مدفوعا بحبه للطبيعة وأبوته للبـلاد ، كم دورة تـكفى لاعالة الصغار فى دولة الطير ، يقبل هو فى تلك الاثناء دعوة ابن عمه ليصبح فى أربعة

أسابيع من جديد ثانى عاهل فى البلدان الالمانية ، فاذا جاءه بعد ذلك ملك رسولا ، غالب دمعه وهو السيد الهرم اذ يضطرالى الرفض ، وتحول الرجل الحديدى نفسه الى حزمة اعصاب ، ثم لم يكن له بد من تحطيم شىء ليتنفس الصعداء ، وان كان انتصر . والاول مرتبط بالاسرة والآخر مرتبط بالطاعة . ثم انهما حين يأخذان فى تشييد البيت الالمانى معا يبدو من المحال انهاؤه وهذه العقبات قائمة بينهما

ومع ذلك فهذه آخر محاولة للنمسا للبقاء على رأس المانيا . وقد جاءت شلزفيج ـ هولشتين فصلا هزليا قبل المأساة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الخامس

كان ذهن بسمارك فى أوربا يومئذ عديم النظير . فالملوك والاباطرة كانوا عاجزين عن التفكير أو العمل ، وكان فرانسوا جوزيف من قلة الخبرة ، ونابليون من الاعياء ، واسكندر من ركود الذهن ، وفيكتوريا وفيكتور عمانوئيل من عادية الفهم ، بحيث لايستطيع أى من هؤلاء جميعا أن يتخذ لنفسه سياسة خاصة . وكان غلادستون وديزرائيلى لم يبلغا بعد أوج السلطان ، وكان جورتشاكوف مغرورا. وذو الشأن فى نوعه هو كافور الذى مات يوم جاء بسمارك . بيد أنه كان مايزال فى بروسيا وحدها عبقرية سياسية أخرى . وقد اكتشفها مزاحمها العظيم فى سرعة وان لم يكن ثم حزب لها تقريبا . ومع أنها كانت فوق ذلك ذات نزعة ثورية ، وغير ذات جاذبية من أفكار مشابهة أو سلطة ، فان الذى جمع بين بسمارك ولاسال كان مغناطيسية العبقرية وحدها ولا شىء غيرها

لاسال

فهاك بسمارك الواقعى فى حدود الخمسين على عتبة سيرته ومستهل عمله : ضخما ذا بسطة فى الجسم والروح ، ووزن ، ورأس مقبب ، ومشية وئيدة الى الامام بعد تمهيد طويل ، ونظرة الى المستقبل لعشرات السنين ، شبيها بكبار من يصبون التماثيل من الالمان ، ومن انفقوا على أعمالهم الغنية بالصور حقبة من الزمان ، روض الخيال بالحقيقة وهو يزن الأقوال ويهىء الأعمال ، ويؤثر الحساب بالعظائم على الحساب بالافكار . ثم انظر الى جانبه ذلك الشرقى : نحيفا ، أنيقا ، مرتعشا كالفرس العربى الذى لم يكمل ترويضه ، مديد الرأس ، قاذفا للهب ، لم يتم الاربعين ، يكاد مع ذلك أن ينتهى من قطع طريق تتسم بالجموح ، رساما عظيما استنفد فى كروكياته الزاغلة دافعه الى التشكيل ، خياليا ، عامرا بالافكار ، شذ عن مدرسة الفكر ، وجنح الى الاعمال . لكنه فى هذا الميدان كذلك يحارب بالكلمة الكاسحة ، ويتجه بنظره الى المستقبل . وقد شب الآخر فى أرضه ، وكان فى طليعة المنافحين عن طبقته ، عاش فى شبابه عيش المغامر ، ثم عاد الى المأثور من صور الحياة والملك حيث نشأ . ومع ذلك فقد كان كسائس مجردا من الشعور ، مستعدا للسير مع كل شعب ، وكل شكل من أشكال الحكم ، متى

كان نافعا لنظام حكمه . وكان الأول يهوديا، ومواطنا بلا وطن ، تسلق سلم الحياة مثابرا ، عاملا فى شبابه ، وحارب طبقته وتراثه ، وألهب قلبه السريع التأثر برفعة الأمة التى لم يكن منها بجنسه ، وبرفعة الطبقة التى لم يكن منهـا بطبقته . لم يضح بسمارك بشىء فى مبدأ حياته ، وعرض لاسال كل شىء له للخطر فى البداية ، ثبت ذاك مستواه ومركزه ، وفقد هذا فى السجون حريته وصحته ، وإذا كان بسمارك قد بدأ المنافسة فى الثانية والثلاثين على أسلوب بيئته ، فقد بدا لاسال ، فى نفس الوقت وفى الثانية والعشرين ، بانكار أسلوب شيعته ، والتنكر لهذا الأسلوب فى كل شىء

شريف ويهودى

ومع ذلك كان كلاهما يصدر عن نفس الدوافع : دفعت الكبرياء والشجاعة والبغضاء الاشتراكى اليهودى والشريف البوميرانى كليهما الى العمل ، وفى كليهما أنبتت هذه البواعث ارادة السلطة ، فلم يعر الخوف أحدهمـا أو كليهما ، ولم يطق أى منهما رئيسا فوقه ولم يحب فى الواقع . فـكما كان بسمارك يكره النمسا الأقوى أشد مما يحب بروسيا ، كذلك كان لاسال فى عطفه على الطبقة الرابعة أقل مما كان فى كراهيته للثالثة ، ومن ثم لم ينشد ذاك بين الأشراف البروسيين ، كمـا لم ينشد هذا بين الزعماء الناهضين ، أصدقاء ، أو وجد هؤلاء الاصدقاء . ولم يعش ذاك عيشة البلاط كما لم يعش هذا عيشة الشعب ، فقد كان كلاهما مرير النفس من ضيق ذهن طبقتهما ، شبيها بالآخر فى التهكم والاستخفاف

غير أن أساس بسمارك الثابت قد فرض عليه الخدمة طول الحياة ، فاختار الملك : واختار لاسال الجمهور . واذا كان ذاك قد سـكن قصرا منيفا فقد كان يسمع دائما من فوقه وقع خطوات رجل كان العيش من تحته مصيرا له ، أما هذا فلم يسمع احدا فوقه ، بيد ان قصره كان فى الهواء ، وكانت أعصابه ترتعش من ريح المستقبل أكثر مما ترتعد من احتكاكات الواقع التى حطمت أعصاب بسمارك . واذا كان كلاهما من الطبائع الفنية فقد كان أكبرهما سنا لاعب شطرنج حيال قوى أخرى وكان الأصغر ممثلا أكثر تمثيلا لنفسه ، وهو ماجعل الطموح يحدو ذاك أقوى مما حدا الغرور هذا ، وهكذا حدث ان أمكن أن ينتشى لاسال بالنجاح والأمل فيه ، وهما ماتبين فيهما مستقبلا أبعد مدى مما تبين بسمارك الذى كان ينشد شيئا أقل لـكنه أثبت ، ومن ثم كان أكثر صبرا ، ومن ثم عاش أحدهما بعد الآخر ضعف عمره ، ومع ذلك كان مامر بلاسال من أوقات الهناء أكثر مما مر ببسمارك

وكذلك فى الأجيال القادمة . فانهما لمـا التقيا تبين كلاهمـا قيمة الآخر قبل أن يتبينهما العالم ، فلو كان بسمارك قضى يومئذ فى مبارزة مع فيرشوف فى سنة ١٨٦٣ لمـا ارتفع اسمه الى أعلى من مرتبة رادفتس الذى نسيه الشعب من أمد . وقد قضى لاسال فى مستهل سيرته وفاتحة أعماله التى كانت مهددة بالنسيان . ومع أنه أصغر من بسمارك بعشر سنوات فقـد ظل اسمه على أفواه الملايين من كافة الشعوب . لقد أخفق ، لـكن شهرته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طبقت الآفاق ، ذلك أنه أراد أن يحقق فكرة الغد البعيد ، اما بسمارك فبلغ غرض غده القريب فبقى تمثاله رهن البلاد

جبهة مشتركة

ان ماقرب اخيرا بين الاثنين قد كان النضال ضد اوساط النـاس : أراد بسمارك أن تكون له السلطة على الدستور ، وأراد لاسـال أن يؤلب على الدستور الدهماء . كانت لدى ذاك أسلحة فرضها على الناس ، وكان لدى هذا ناس تصيح عبثا فى طلب السلاح . كلا الرجلين أراد فى الواقع ديكتاتورية تحت ادارته ، وكلاهما أبغض حرية الاتجار فى السلع وفى الافـكار ، وكره أصحاب هذه الحرية الأحرار . انهما شبيهان أحدهما بالآخر حتى فى المأثور عنهما من كلمات : فبسمارك يقول فى سبتمبر ١٨٦٢ : « انمسائل الدستور ليست فى الأصل مسائل حق بل مسائل قوة . والدساتير المكتوبة لا يكون لها قيمة أو دواء ، الا اذا كانت تعبر عمـا فى المجتمع من حالات القوة » . وكما يتخلص بسمارك كذلك يتخلص لاسال حينما يهاجم ، فيقول انه لاينبغى أن تـكون القوة فوق الحق ، وان هذه ليست دعوى أخلاقية بل هى توكيد لحقيقـة تاريخية . كذلك كان شعور لاسـال بسياسة القوة بحيث جعل سيكنجن ، وهو صورة منه ، يعلن فى احدى الدرامات : « ان كل جليل يتحقق انما يدين للسيف بالتوفيق ! »

اشتراكية الدولة

ولا عجب أن يوافق لاسال فى مجلس الأعيان كونتات بروسيون ، وأن تكتب كرويتس تسايتونج تقول : « هؤلاء رجال . أما الأحرار فلا أسنة فى أيديهم ، ولا قبضات لهم ، ولا تبدو عليهم سيماء الذكاء المتوقد » . ذلك أن الرجعية كانت آنئذ تسعى الى كسب جانب العامل ، واستـهوائه من أحضان التقدميين . وقد تساءلت جماعة من المحافظين : « أيحق لنـا أن نعجب اذا لم يبد العمال تعلقا بحكومة لاتفعل لهم شيئا ؟ » ويهتبل بسمارك الفكرة فى الحال ، ويؤلف لجنة لدرس مسألة اعانة السن وتحسين حالة العمال ، ويوصى « بالنظر فى هلا يجمل بالدولة بوصفها صاحبة عمل أن تكون بتسوية علاقات العمال مثالا لسائر أصحاب الاعمال وقدوة » . وهو فى نفس الوقت يحرك مسائل تتناول اطالة مهلة الانذار ، وتسوية الأجور مع ضمان نصيب فى الفائض ، وتتصل بالمساكن وهيئات التحكيم فيما ينشأ من نزاع حول الاجور ، وجمعيات الاستهلاك والسلفيات الخاصة بالعمال وصناديق اعانتهم فى حالتى المرض والوفاة : وهو منهاج اجتماعى وضعه بعد تعيينه بخمسة أشهر ولم يكن له مثيل عند حكومات أوربا فى سنى العقد السابع : وكل ذلك مما يوافق مطالب لاسال مباشرة

على أن الباعث على هـذا المنهـاج لم يكن حب الشعب بل بغض الطبقـة الوسطى ، فبسمارك يريد كسب الامة من الناحية الاجتماعية بعد أن استعصت

عليه من الناحية السياسية ، وبينا كان أصحاب الأعمال يزعمون فى مجلس اللاندتاج أنهم أصدقاء الشعب ، كان لاسال يحمل فى خطبه وكتاباته على هذا النفاق ، ولا يرضي بذلك سوى رئيس الوزراء . لقد كتب فعلا أن لاسال الذى كان أسس جمعية العمال أداة فى يد الرجعية . وقد أنذره لوتار بوخر نفسه منبئا : « حذار ! انك فى الواقع تساعد الحكومة فى هذه اللحظة الراهنة . سيتركون لك الحبل على الغارب زمنا ثم يغلون بعد ذلك يدك ! »

لاسال يناصر الوحدة الالمانية

على أن لاسال ، كبسمارك سواء بسواء ، لم يستيقظ أثناء الثورة عبثا ، فهو يطرح الحذر ، ولا يسأل عن لون الحليف ، فيتناول كل يد تمد اليه على عدوه : انه ، وهو الاشتراكى ، يجرؤ ويتقرب علانية من وزير الخارجية المكروه . ذلك انه من مبدأ الامر ينظر الى كل شيء خارجى نظرة هذا الوزير ، اللهم الا أن لاسال أراد توحيد ألمانيا قبل أن يريده بسمارك . لقد سخر من لابسى الفراك وهم يسافرون عام ١٨٤٩ من فرانكفورت الى بوتسدام ليعرضوا على الملك تاج المانيا بدلا من استصدار مرسوم بتتويجه ، واذ كان قد اتجه بنظره الى الجمهور لا الى الأمراء فقد كانت الوحدة الألمانية فى نظره مسألة تتعلق بشعوب المانيا لا بالاسر . على أنه بينا كانت عشر السنوات الواقعة بين ١٨٥٠ و ١٨٦٠ تزيد فى نزوع بسمارك الى البرلمانية ، وتؤدى به سنة ١٨٦٠ الى تلك المذكرة التى كتبها عن البرلمان الالمانى ، كان لاسال يستبين اذ ذاك أن المانيا لا تستغنى عن صلتها بالامراء . وقد تلاقى كلاهما فى جبهة حاسمة ضد النمسا والمجر التى تبينا العقبة فى ملايينها الستة والعشرين من السكان غير الألمان . وقد كانت لكل منهما نظرته ، ذلك أنه لم يكن للاسال بصر بسياسة بسمارك المتعلقة بالمفوضين ، كما لم يحتج بسمارك فى هذا التبين الى وسائل لاسال

وقد أراد لاسال كما أراد بسمارك بالضبط — ولاسال من ناهض استبداد نابليون — أن يأخذ فى الازمات جانب فرنسا مع ذلك ضد النمسا لا العكس ، وكتب كما كتب ذاك بالضبط ، ولكن علانية ، يقول : « اذا عدل نابليون خريطة أوربا فى الجنوب وفقا لمبدأ القوميات ، فعلنا المثل فى الشمال : فاذا حرر ايطاليا أخذنا نحن شلزفيج ، وبذا تغسل بروسيا عار أولمتس . فاذا ترددت بروسيا تأكد بذلك ان الملكية لم تعد كفؤا لعمل قومى » . والشيء الوحيد الذى يميزه فى هذه الأفكار عن بسمارك هو الحماسة الشعبية التى يحتاج اليها كمهيج ، ولا يحتاج اليها الدبلوماسى . وهو فى نفس الوقت يقيم مطلبه على أساس فلسفى ، اذا كان تلميذا لهيجل وفيشته ، أكثر مما يقيمه بسمارك تلميذ ماكيافيللى : « ان هذا النصيب الأسمى ، وهذا الشرف الاعلى فى التاريخ العالمى قد بات من حق الشعب الميتافيزيقى ، من حق الشعب الالمانى ، بتطوره الكلى ، وبذلك الاتفاق الاكمل بين تاريخه الداخلى والخارجى . قد بات من حقه أن يخلق من مجرد المعنى الشعبى المتصل بالفكر أرضا ، وان ينشيء من التفكير كيانا . ان هذا عمل من قبيل ما فعل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الله حينما خلق العالم !.. لقد بات هذا اليوم دينا ، وبات يهز أكرم القلوب الألمـانية تحت اسم الوحدة الألمانية ، ذلك الاسـم المحبوب الذى ينزل فى النفس منزلة اليقين . وفى اليوم الذى تعلن فيه جميع الاجراس عيد ميلاد الدولية الألمــانية ، فى هذا اليوم نحتفل أيضا بعيد فيشته ، بزواج الفكر من الحقيقة ! »

تقرب

لقد غض بسمارك الطرف عما فى هذا الأسلوب من تكلف ، فالتفت الى النص واستخلص ما شاء استخلاصه . كذلك قرأ ما قاله الزعيم الجديد عنه فى تلك الاجتماعات المركزية التى يبغضها أشد البغض وهو « ان بسمارك عليم ببواطن النظام الدستورى ، يشاطرنى نظريتى كل المشاطرة ، ويعلم علم اليقين أن الدستور الحقيقى لبلد من البلدان ليس فى الورقة التى حرر عليها ولكن فى الأحوال القائمة » . بلى لقد ذهب لاسال الى حد القول علانية فى اجتماعاته الحاشدة التى انعقدت على الرين : « ان التقدميين يغـــازلون الامراء (فى فرانكفورت) ليخيفوا بسمارك .. ولو تبادلنا مع السيد فون بسمارك اطلاق النيران لكان من العدل ونحن نطلق عليــه النــار أن نعترف بأنه رجل ، وأن أولئك نساء عجائز ! »

وكان بسمارك قبل أن يتلقى هذه المطارحات الغرامية قد تلقى برقية من سولنجن ، حيث حظرت اجتماعات لاسال : « لقد حل المحافظ التقدمى اجتماع العمال الذى دعوت اليه ، على رأس عشرة من رجال الجندرمة يحملون البنادق والاسنة من دون مبرر قانونى . وقد احتججت عبثــا على هذا التصرف ، ومنعت الشعب ، وقوامه ٥٠٠٠ رجل ، من الالتجاء الى العنف ، فى مشقة . ارجو الترضية القانونية ، ولتكن اصرم ترضية واسرعها . **لاسال** »

بسمارك يتحدث عن لاسال

هذه لمحة الساعة ، فان بسمارك كان فى تلك الآونة وقبل بضعة أيام قد رد على اجتماع الأمراء يطلب حق الانتخاب العام للاتحاد الألمانى على السواء . فلما تلقى هذه الشكوى أحالها على القضـــاء . ويزوره لاســـال مع ذلك « ليشكره » ثم يزوره فى شتاء ١٨٦٣ — ١٨٦٤ اثنتى عشرة مرة وربما أكثر من ذلك ، ويطيل الحديث فى كل مرة . فلما مرت على ذلك سنون عديدة بات من مصلحة بسمارك ايهان هذه الصلة السياسية ، فأعلن فى مجلس الريخستاج : « ان ما كان يتحلى به لاسال كان يجذبنى بصورة غــير عادية وكفرد من الأفراد ، فقــد كان من أذكى ما وصلت من النــاس وأدمثهم خلقا .. كان رجلا طموحا فى العظائم .. وكانت أحاديثنا تستغرق ساعات ، فكنت اذا انتهت آسف لانتهائها دائما .. وأعتقد أنه كان يقع من نفسه أنى مســتمع ذكى ، مستعد للاستماع ، وانه كان لهذا الوقع صدى طيب فى نفسه »

« هذه الاحادثث التى اجتمع لها أقوى سياسيين بين الالمان فى ذلك العصر ،

كان باعثهـا العظيم هذا السؤال : أيمكن أن تتحد ألمانيا أسريا أم شعبيا ؟ وقد عاد كلاهما محيرا بين هـذا وذاك من الغـايات الراديكالية : فكانت الجمهورية الالمانية من رأى لاسال اذ ذاك ، وكان بسمارك يرى أن من المستحيل أن يتحقق اتحاد خالص من الامراء . لكنهما كانا فى السر يريان أن أيا من هذين الحلين لم يعد بالحل المنشود . ويروى لاسـال طوفا من أحاديثهما . فهو من ثم يعول عليه تقريبا :

حوار

بسمارك : « لماذا لا تصوت مع حزب المحافظين مادمت ضعيف الأمل فى فوز مرشحيك ؟ ان مصالحنا مشتركة على التحقيق ، وأنت تحارب من وجهة نظرك كما نحارب نحن من وجهة نظرنا سعى الطبقة الوسطى الى انتزاع السلطة »

لاسال : « قد يبدو من الممكن فى الآونة الراهنة يا صاحب السعادة أن يتحالف العمال والمحافظون . لكننا لو تحالفنا لكان تزاملنا الى أجل وجيز ، ثم يحارب أحدنا الآخر حربا تكون من ثم أشد مرارة »

بسمارك : « تعنى أن المسألة هى من يستطيع أن يصبر على الآخر ؟ سنرى ! »

ويدور حوارهما فى الواقع حول نقطتين فى منهاج لاسال أراد بسمارك أن يحققهما فى مصلحته . وقد كان كتب من قبل عن حق الانتخاب العام فقال : « انه فى بلاد ذات تقاليد ملكية وأفكار موالية ، يبعد تأثيرات طبقة الاحرار الوسطى ، ويؤدى الى انتخاب الملكيين . وتسعة أعشار الشعب فى بروسيا مخلصون للملك ، لا يحول دون ابداء رأيهم سوى نظام الانتخابات المصطنع »

وادخال حق الانتخاب هذا فى بروسيا قد بدا لبسمارك سابقا لأوانه ، لم يحن وقته بعد . واذا كان بسمارك فى هذا الرأى ابطأ مما ينبغى فقد كان لاسال أسرع : فانه ليقصد انى بسمارك لا ليحمله على ادخال حق الانتخاب العام فى المانيا فى الوقت المناسب ـ ذلك انه كان جليا لكل منهما أنه لابد من الحرب قبل اعادة الاتحاد ـ بل على ادخاله فى بروسيا فى الحال بمرسوم : فالديمقراطى الراديكالى كان اذن ينصح بانقلاب حكومى . بيد أن بسمارك كان يشك فى هل حان الوقت لذلك

مقترحات لاسال

ويكتب اليه لاسال يقول : « انى ألوم نفسى قبل كل شىء على أنى نسيت بالأمس أن أثير اهتمامك بوجوب جعل حق الانتخاب عاما للالمان . وان هذا ليكونن أداة هائلة للسلطة وغزوا أدبيا حقيقيا لالمانيا ! فأما مايتعلق بنظام الانتخاب فقد قضيت ليلة أمس أيضا اقرأ تاريخ التشريع الفرنسى كله فلم أجد على كل حال شيئا يذكر وافيا بالغرض . بيد أنى قد أعملت الفكرة كذلك ، فبات من الآن فى امكانى أن أقدم لسعادتكم « الوصفة السحرية »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المطلوبة للحيلولة دون الامتناع عن الانتخاب وتشتيت الاصوات . ولا مجال البتة لاى شك فى تأثير هذه « الوصفة » ومفعولها الشامل ! لذلك انتظر أن تحددوا لى سعادتكم أحد الامسية للقاء . وأرجو رجاء شديدا أن يكون اختيار هذا المساء بحيث لايزعجنا فيه أحد . فان عندى الكثير عن طريقة الانتخاب ، وأكثر عن أمور أخرى أحب أن أباحث سعادتكم فيه »

من هذه الورقة الشبيهة بالرسمية وحدها نرى من منهما يملك المبادرة . فان المرء ليتصور فى هذا المقام فتى الى جانب رجل هرم ، ومع ذلك فأحدهما فى الأربعين والآخر فى الخمسين . يرى المرء بسمارك وهو غارق أمس مساء فى مقعده السائد يستمع الى ذلك الذهن العصبى وسط سحب الدخان المتصاعد من سيجاره يحاول عبثا أن يهيج ذهن بسمارك بكلمات مثل « الوصفة السحرية » . ان فى هذا النضال بين ذهنين لشيئا يستشعر المرء منه أن كليهما راق الآخر . بيد ان هنالك حربا توشك أن تقع ، وقد شنت بعد هذه الرسالة بخمسة أيام على الدانيمارك . وهكذا يحدث ألا يرى لاسال محيصا عن الموافقة على حرب أخرى : « ماكنت لاتعجل لولا أن الاحداث الخارجية تضغط ضغطا شديدا . لذا ارجو أن تغفروا لى تعجلى . لقد كتبت اليكم فى يوم الاربعاء أقول انى وجدت الوصفة السحرية المطلوبة ذات تأثير شامل . واعتقد ان محاولتنا التالية ستعقبها أخيرا قرارات حاسمة ، واذ كان محالا فيما أعتقد أيضا أن ترجأ هذه القرارات الحاسمة أطول مما أرجئت فسأسمح لنفسى بأن أمر عليكم غدا فى منتصف التاسعة »

ما اشد تحرقه ! وما اشد ما يجذبه هذا الامر ، وما يشعر بقرب تحقيق ماكاد الى اليوم ألا يحدوه الرجاء فى تحقيقه ! بيد ان بسمارك بدأ حربه منذ هنيهة ، فلينتظر حق الانتخاب !

أمام محكمة الدولة

وبعد ذلك ببضعة أسابيع ترفع دعوى الخيانة العظمى على لاسال ، فيعلن أمام محكمة الدولة : « انى لا أريد اسقاط الدستور فحسب ، بل لعله لاينقضى أكثر من عام حتى أكون اسقطته . ان اللاعب القوى يمكن أن يلعب الورق على المائدة !.. وهكذا أعلن اليكم فى هذا المكان الرهيب : لعله لن ينقضى عام حتى يكون السيد فون بسمارك قد لعب دور روبرت بيل ، ويكون حق الانتخاب العام المباشر قد تقرر ! » ويقع اسم السائس الانجليزى وقعا بديعا ، لكن أحدا فى قاعة المحكمة لن يفهمه . بهذه الألمعية يستشف هذا الذهن الرائق دخيلة الوزير العويص حتى أنه ليذكر له نفس المثال الذى اتخذه بسمارك فى خطابه قبل خمسة وعشرين عاما ، والذى برر فيه خروجه من خدمة الحكومة ، بأنه ما كان ليسعه احتذاؤه . ولا يعلم أمر هذه الرسالة سوى بضعة من الاقرباء . ولعل بسمارك نفسه قد نسيها . لكنه لم ينس ان بيل واوكونل وميرابو كانوا يتمثلون يومئذ له . وهو حين يقرأ كيف دافع هذا الثورى اليهودى عن نفسه ضد حكومته ، وكيف عرف أن يطلع على خفايا قلبه يزداد احترامه له

جمعيات تعاونية

ويتبعه بسمارك مباشرة فى الخطة الثانية : جمعيات تعاونية ، واعتماد من الدولة بمبلغ مائة مليون ، واعتبار الدولة من كبار أصحاب الاعمال . هذا كله يسعى الاشتراكي فى انتزاعه من الوزير الرجعى بنجاح . فهو نفسه يريد أن يصبغ الدولة بالصبغةالاشتراكية وفاقا للتعاليمالماركسية الجديدة ، ويريد بسمارك أن يقوى الصبغة الملكية للدولة بمثل هذا التدخل . يريد كلاهما نفس الواسطة لغاية معارضة كما هو الحال فى مسألة الانتخابات العامة . ويظل بسمارك عدة سنين يتحدث عن هذه الاشياء بأنها « جدية حكيمة » ، لكنه يجتزىء الآن بالشكر للاسال على رسالة لم يبسط فيها هذه الافكار

وليس مجرد الشكر بالذى يمكن أن يرضي غرور لأسال ! فهو يريد من بسمارك أن يرفع رسالته الى الملك ليتبين « أى الملكيات يرجىلها المستقبل » فهو يشكو فى الحال ويريد مقابلة الوزير . ويرى بسمارك أن هذه اللهجة الملحة تجاوز الحد ، فلا يقطع لاسال ولكن يرجئه ، وهكذا لايرى لاسال مرة أخرى لأنه قدر لهذا ألا يعيش الى نهاية العام

وينجح لاسال فى تلك الأثناء وفى نفس الربيع فى أن يستقبل الملك وفدا من نساجى سيليزيا الذين يعانون الضنك : وكانت لحظة خطيرة الشأن اذ كان مثل هذا لم يقع فى بروسيا من قبل قط . لكنه حين يعود النساجون الجائعون من حضرة الملك يكون بسمارك فى الردهة فيستجوبهم ثم يقول : « سيأتى عليكم يوم الاحد المقبل وليس بعد فى مقدوركم ان تطعموا الاوز المشوى ! » هؤلاء المساكين الذين لايحدوهم فى قصر الملك الذهبى سوى الخوف من الانزلاق على أرض الباركيه الملساء يقفون مرتعشين حفنة من المتسولين يتقدم منهم حضرة الوزير ، ويوسع بنكته المخيفة تلك الهوة التى كان ينبغى ان تجتاز من هنيهة فى هينة ورفق . لكنه كذلك فى مسكن لاسال البديع الكائن فى بلفيشتراسه حيث السجاجيد التركية وتماثيل الرخام النصفية قد شعر الذين زاروه من العمال فى احدى المناسبات بالحرج والارتباك ولم يرضوا عن تلك الصدريات الانيقة التى يرتديها هذا الزعيم الشعبى على منصة الخطابة . انه لم يكن منهم .

اشتراكيون فى « نورد دويتشه »

ومع ذلك ينشط فى نفس الوقت ذلك النبيل نفسه فيقاوم تحاملات الديوانيين جميعا فيما يتصل بالشئون الاجتماعية . فهو يريد هذا الحزب الفتي فيلتمس من لاسال اربعة اقلام اشتراكية فى الحال ، ويجتذب الى ادارة تحرير صحيفة نورد دويتشه لوتار بوخر المنفى المعفو عنه ، الممتنع عن دفع الضرائب ، ويبتهوى فى نفس الوقت براس الذى نظم : « نلون احمر ، ونحسن التلوين ، ونلون بدماء الظالمين ! » ويجذب هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نيبكنخت وراءه ، لكن بوخر يسعى بأمر بســـمارك الى كسب كارل ماركس للاشتراك فى تحرير جريدته ، فيرفض كارل ماركس ، ويرتد ليبكنخت اسرع ما يكون حين يلحظ ان براس قد رشى ، ويبقى بوخر عشرين عاما . وفى هذه المغامرة الجريئة التى حاول فيها بسمارك اقتناص اعدائه نرى النبيل المجنون كرة اخرى

وفيها يظهر فى نفس الوقت اشتراكى الدولة . فحين يحقق أحد المديرين فى أزمة نساجى سيليزيا فلا يسأل سوى اصحاب الاعمال ، ولا يسألهم الا بوساطة أحد رجال الجندرمة ينتهره بســـمارك حانقا : « لماذا لا تقف موقف الحيدة الذى لا يمكن ان تفهم بدونه هذه المسألة الصعبة فهما صحيحا بل ترعى فحسب مصالح اصحاب الاعمال ! » بلى انه ليريد ان يقيله لانه لم يكن منصفا فى حكمه ، سديدا فى رأيه ، ويأمر على الاثر بتأليف لجنة لتحرى اجور العمال ، وحاجاتهم المعيشية والاجراءات التى يجب اتخاذها لمعونتهم « فيستمع لهم رجال معقولون صالحون لرعاية مصالح طبقتهم حيال اصحاب الاعمال » وفى نفس الوقت يحمل الملك على التبرع من جيبه الخاص بمبلغ ٧٠٠٠ ريال لتأسيس جمعية تعاونية على سبيل التجربة طبقا لخطط لاسال، وذلك للعلم بما يمكن ان يتكلفه ويفضى اليه التوسع فى تطبيق المبدأ « وهذه الجمعية التعاونية ينبغى ان تسجل وان تكون لها حرية التصرف اللازمة لتصريف بضائعها بنفسها وتمكين النساجين من الانتفاع الى جانب اجور العمل بفوائد تصريف منتجاتهم على قدر الامكان » وهكذا يصبح بسمارك شكلا اول اشتراكى فى الدولة فى بروسيا ، وذلك لانه يبغض الاحرار المتفوقين وينشد حليفا جديدا

ان الدولة تستطيع

وفى ذات الصيف يسلم لاسال نفسه لرصاصة متبطل غيرة عمياء منه على شرفه فيخلف عمله فى مبدأ الامر بلا زعيم . وحين تعلن الوزارة بعد ذلك بسنة أنها لا تقر أية محاولة للتدخل فى الشئون الاجتماعية يأمر بسمارك بأن يضاف الى التقرير ما يلى « ان غذاء النساجين الذى لا يتجاوز فى الغالب حساء البطاطس ، وحساء الدقيق والملح ، وشيئا ضئيلا من الدهن : والقهوة المصنوعة من الشيكوريا قد خفض الى ادنى قدر يكفى لاقامة الاود » وحين يقرأ فى التقرير : « واذ كان فى كل مكان مطالب لها ما لهذه المطالب من حق فان الدولة لا تستطيع ان تقدم يد المعونة » حين يقرأ بسمارك هذا يكتب بخطه العريض على هامشه : « امن اجل ذلك ينبغى الا تعين الدولة احدا ؟ ان الدولة تستطيع ! » بهذه الكلمات تهدر ارادة بسمارك الخلاقة كرة اخرى وتزمجر على قضبان القفص الذى يجلس فيه مع أبناء طبقته بل وكثير من الاحرار . فى هذه الكلمات رجع صدى تلك المناقشات التى حاول فيها فى الشتاء ذلك الروح النارى ــ روح المستقبل ــ ان يسحره

الفصل السادس

« الآن انا وزير هنا ، وآخر سهم فى جعبتنا . فاذا كنت تريد ان تجعل من اسكنديناوة دولة واحدة فسأجعل المانيا امة واحدة وعندئذ نؤلف اتحادا اسكنديناويا ــ جرمانيا ونبلغ من القوة ما نسود به العالم اجمع . والدين والحضارة مشتركان بيننا ، واللغات ليست مختلفة كل الاختلاف . لكن قل لمواطنيك انهم اذا كانوا راغبين عن خططى فقد اضطر الى اعجازهم كيلا يكون ثم عدو فى ظهرى حين يتحتم على مهاجمة نقط خرى »

الظاهر ان بسمارك يتبسط مع صديقه الدانيماركى القديم بهذه الرسالة المدهشة . ان متلقى هذه الرسالة ورفيق بسمارك فى صيده وقنصه البارون بلكسن فى كوبنهاجن ، لابد أن يكون قرأها مرتين لانه رئيس الوزارةالدانيماركية ولان العلاقات لم تعد بينهما ودية . واذا كان يعرفه فلابد انه يعرف ان بسمارك لم يكن قط مصابا بجنون العظمة ولا كان قط حالما ، وانما كان دائما حاسبا وواقعيا . ومع ذلك فليست الفكرة فكرة جنونية الى هذا القدر ، فقبل خمسمائة عام او اقل كانت تلك البلدان الشمالية الثلاثة متحدة وكان عاهلها من نفس بوميرانيا . فهذه الرسالة تبدو اكثر من مجرد مباسطة ولعلها انذار . واذ كان بسمارك لا ينشد الا الممكن ــ ومن ثم لا يمكن ان يبلغ مبلغ نابليون ابدا فى التأثير على مخيلة الاجيال القادمة ــ فانه ينذر اليوم من اجل شلزفيج ــ هولشتين

شلزفيج ــ هولشتين

كان هذان البلدان الصغيران بمثابة مرض المانى مزمن ، فمنذ خمسين عاما ودرجة رغبة الالمان فى الاتحادتقاس فى نفس الوقت بدرجة حرارة هذا المرض . ولان هذين البلدين الصغيرين أرادا البقاء معا لا يروم أحدهما أن ينفصل عن الآخر ، جعلت اوربا بأسرها تنقب عن معاهدات موميائية ترجع الى اربعمائة سنة ولا تهم فى الحقيقة احدا كما لم تعد تهم حتى اهل البلدين . وقد كدوا الاذهان فى تحرى من توارثوا العرش من ملوك الدانيماركة ودوقات هولشتين رجالا ونساء . فلما ان مات ملك من هؤلاء الملوك وكان محتما على خلفه ان يقسم هنا ايضا يمين الولاء للدستور ، اصطدمت الحركات القومية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتحاربت ووجد ابن دوق من دوقات اوغسطنبورغ كان ابوه قد باع بلده بمليونى ريال ثغرة فى تنازل ابيه فافاد من النزاع وتسلل ثانية الى ارض آبائه ووجه نداء الى « رعاياه المخلصين » ونادى بنفســـه دوقا على شلزفيج — هولشتين

استعراض

بيد ان البروسى القوى كان كامنا يتربص ، ولم يكن يهمه فى الواقع المانية هذين البلدين — فقد كان من الممكن ان يزيدا خصوم بروسيا فى الاتحــاد الالمانى — لكنهما كانا خليقين ان يضيفا كثيرا الى ما اتسع من سلطان بروسيا. وبينما عرف هذا البروسى ان يفيد من الهمة الصادقة التى بدت من جانب من هذين البلدين الشماليين افادته من النغمة القومية التى كانت تتصاعد من الرأى العام الالمانى ، كان تفكيره منصبا على الكيفية التى يجعل بها من هاتين الدوقيتين اقليمين بروسيين . لقد لخص غرضه تلخيصا كلاسيا بقوله : « لقد التزمت دائما الغاية المنشودة وهى ان الاتحاد الشخصى بالدانيماركة يصبح خيرا مما هو كائن ، وان اميرا مستقلا خير من الاتحاد الشخصى ، وان الاتحاد مع بروسيا خير من الامير المستقل . فأى هذه الثلاثة يمكن بلوغه امر رهن بالحوادث ، فهى وحدها التى تدلنا عليه » هذا تلميذ عظيم لمكيافيللى سار من اجل ذلك اولا مع الدانيماركة ، ثم مع امير اوغسطنبورغ ضــــد الدانيماركة ، ثم مع النمسا نفسها آملا دائما ان يكون البطل فى النهاية ، فاذا لم تكن هذه خطة فكر فيها من قبل وادمن التفكير ، فقد كانت عقدا من اللؤلؤ غزل اولا خيطه . وحين يتفاقم الامر فى اواسط سنة ١٨٦٣ فتهتف المانيا عن بكرة ابيها لدوق اوغسطنبورغ الشاب لانه يريد انتزاع ارض المانية من الغاصب الاجنبى ، ينهض بسمارك فى جلسة مجلس الدولة ويشير بضم هذين البلدين فيرفع الملك بصره ويقول : — لكنه لا حق لى فى هاتين الدوقيتين !

فيقول بسمارك : « وهل كان للامير الناخب العظيم او للملك فريدريك على بروسيا وسيليزيا اكثر مما لكم فى هذا الشأن من حق ؟ ان جميع الهوهنتسلرن كانوا يوسعون الدولة » فلا يحير الملك جوابا ، لكن ولى العهد يرفع يديه نحو السماء كأنما يشك فى رشد الخطيب ، ويلزم الوزراء الصمت ، حتى رون . وينتقل المجلس الى جدول الاعمال ، وحين لا يجد بسمارك اقتراحه مثبتا فى محضر الجلسة ويسأل السكرتير عن ذلك يجيبه بأن هذا امر الملك ، وان الملك يؤثر الا يثبت هذا الاقتراح : « لعل صاحب الجلالة اعتقد انى حين تكلمت كنت مخمورا من اكلة غداء ، وانه يسرنى ان يغفل ما قلت . لكنى اصررت على اثبات قولى فى المحضر ، وقد اثبت »

دسائس

ويكتب فى هذا الاوان يقول : « الآن ازاول السياسة الخارجية كما كنت

ازاول صيد دجاج الغابة من قبل ، فلا اخطو خطوة الى الامام الا واثقا من ان الذى اطأه امين يحملنى » . ويقينا انه بهذا التأرجح الذى الم بمسألة شلزفيج قد جذب اليه النمسا ثم دفعها واخرجها من الاتحاد الالمانى بمناوراته ، وانه من دون دوبل كان يصعب عليه بلوغ كونجزجريتس . لقد كان هذا الطريق يماشى دائما شفا الهاوية الاوربية ، وكانت نظرة ترقب على الدوام نفسية الدول العظمي بينا تتركز النظرة الاخرى على الملك شأن المروض ، وقد لاحت اللعبة خاسرة غير مرة : لعبة الدسائس كما اسماها هو ، واذا كان الحظ كما يقول المثل التركى مغرما بالحاذق ، فلابد انه وجد فى بسمارك احذق الناس . فقد كان بسمارك موفقا دائما ، ولم يوفق قط فى مغامرة من مغامراته توفيقه فى هذه المغامرة

برلين تقود

ولو قد هاجم الدانيماركة وحده لالفى النمسا وراءه واوربا امامه ، لكنه بتهديده الكونت ريشبرج زميله الجديد فى فينا بأن يقوم وحده بأحب عمل الى الالمان ، ذلك الذى يسمى تحرير الدوقيتين ، اضطره الى ان يقف الى جانبه ، ونحى ، وهذا الحليف القوى فى صفه ، الاتحاد الالمانى ، وهدأ اوربا التي ترى فى العداوة المنتظرة بين دولتى المانيا العظميين ضمانة من الا تحرز اية منهما انتصارات اكثر مما ينبغى ، فحالف النمسا ووقف اوربا على الحياد بضربة واحدة . وهكذا تدرأ الحرب العالمية التى كانت تهدد بالوقوع لان بروسيا والنمسا معا تعلنان الحرب على الدانيماركيين ، ويسع بسمارك بلا مراء ان يفصح عن نفسه قبل الحرب فى هذه الاسطر ويلخص موقفه :

« اليس هو النصر التام ان تغتبط النمسا بعد شهرين من محاولتها المتعلقة بالاصلاح الا يرد ذكر هذا الاصلاح ، وان توجه معنا الى اصدقائها السابقين مذكرات تطابق ذلك ؟ لقد ادركنا فى هذا الصيف ما لبثنا اثنتى عشرة سنة نسعى اليه بلا طائل : فقد اتخذت النمسا من برنامجنا برنامجا لها وقد كانت فى اكتوبر الفائت تسخر منه علانية ، وسعت الى التحالف مع بروسيا بدلا من محالفة فيرتسبورغ . انها تتلقى منا العون ، فلو ادرنا لها ظهرنا اليوم لاسقطنا وزارتها . ولم يقع قبل الآن ان اديرت سياسة فينا من برلين بهذا القدر جملة وتفصيلا ونحن فى هذا تخطب فرنسا ودنا .. ولصوتنا فى لندن وبطرسبورغ التأثير الذى لم يكن له منذ عشرين سنة .. ان تقويتنا لا يمكن ان تجىء من سياسة المجلسين والصحافة ، بل من سياسة الدول العظمى التى تستند الى القوة ، وليس لدينا من الطاقة والصبر ما يكفى لان ينفق على جبهة ليست هى الجبهة الحقـــة ولا على اقوال وامارات كأوغسطنبورغ .. انى لا اثق « بالنمسا » كل الثقة ، لكنى اجد فى هذه الآونة من الصواب ان تكون معنا . وسنرى هل يحين وقت الانفصال وممن يقع »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه هى الرسالة المستفيضة التى بعث بها الى جولتس فى باريس والتى ترد فيها ايضا هذه الجمل الضخمة . ولا يمكن ان تعاب عليه هذه المباهاة أمام مزاحمه ، فانما هذا حديث نفس فى ذات الوقت . بل انه صدى اصطنع كبته لمائة من احاديث النفس ، ذلك انه حيث يقول نحن يعنى نفسه ، وبذا يشعر بساعته كرجل دولة دانية . وما هى الا بضعة ايام حتى نسجل عام ١٨٦٤

ويسبق النضال الصامت مع الملك نضال يصاحبه فى اللاندتاج ويسايره . وتبدى المناقشة مع الديمقراطيين مبلغ ما فى اشراك البرلمان فى السياسة الخارجية من مصاعب ما دام ان جميع الدول لا تفعل هذا وان فعلته ليكونن احيانا من المحال

حوار مع فيرشوف

فيرشوف : « يجب ان نقول للملك اى خطر يحيق بنا ، فان رئيس الوزراء قد اخذ فى وقت وجيز نسبيا بطائفة كبيرة من وجهات النظر المختلفة .. وهو يقتحم بحر المشاكل الخارجية من دون بوصلة حتى لينقصه كل مبدأ يسترشد به .. ونقطة الضعف العالقة بشخصه هى انه فى كل نشأته قد كان غريبا عن كل ما ينبض به قلب الشعب وانه يضر بأقدس المصالح الالمانية والبروسية فى عسف وغشم . لقد بات فريسة الشر ، ولن ينجو منه ثانية »

بسمارك : « ان جمعية مؤلفة من ٣٥٠ عضوا لا تستطيع فى هذه الايام ان تدير سياسة دولة عظمى فى مرحلتها الاخيرة فترسم للحكومة منهاجا ينبغى اتباعه فى كل ساحة بعيدة . ان كل لعبة فى الشطرنج تبدو لعين السياسى غير الخبير كأنها نهاية الدور ، ومن هنا يتوهم ان الهدف يتغير . لكن السياسة ليست علما مضبوطا .. انى لا اخشى الديمقراطية او لسلمت فى اللعب (صيحات : اللعب ! اللعب !) .. فاذا ابى المجلس علينا المال وجب ان نأخذه حيث نجده »

على أثر ذلك رفض القرض وكان قرضا حربيا ، وفض المجلس على الا يعود الى الانعقاد الا بعد سنة

لقد كانت الآراء المتضاربة فى هذا النزاع المتفاقم تتطاير كالشرر : « اقدس المصالح ، والهواة السياسيون ، وبلا بوصلة وبلا علم ، والمبدأ ولعب الشطرنج. وان ما فعله فيرشوف العالم الطبيعى الملحد حين اسلم عدوه الى « الشر » بدلا من أن يفعل به هذا عدوه المسيحى السياسى ، لما يرد وحده الى ذلك الحوار فكاهته الطبيعية التى تتوارى خلف هذه العبارات الجدية

وبسمارك وهو يشير فى المجلس الى سلطة الملك يرمى فى نفس الوقت الى تخويف الملك بالمجلس : فليس سوى اتباع سياسة خارجية حازمة ، اى خوض غمار الحرب ، ما يخرس خصوم اصلاح الجيش . ثم هو فى نفس الوقت يوقع كارولى فى برلين تحت تأثيره ، ويرهب ريشبرج فى فينا بالثورة التى تنطوى

عليها اصوات الوطنيين الالمان ، بيد ان الريخسرات فى فينا يريد ان يعتقد انه امكر من بسمارك فيضحك احد اعضائه من ريشبرج المتقدم اليه ، قائلا : « أننا ندخل الحرب مع وزارة بروسيا التى ينحى عليها العالم باللائمة يدا بيد ! ان اكاليل الغار التى يحملها بسمارك لا تدع رجال الدول الاخرى ينامون ! انهم هناك يتحدثون صراحة عن ضرورة التوسع ، فما ان يهضموا سيليزيا المسلوبة حتى يمدوا الشباك الى الدوقيتين ، وحتى نكلف موسيقاتنا العسكرية الطيبة بالعزف لهم ! ترى بأى النغمات تصاحب البروسيين هذه الجوقات ! »

بين الملك والامبراطور

بيد أن هذه العبارات وكثيرا غيرها مما يصدر عن الدول المجاورة وما يصحبها من أنذارات ، تحمل الملك دائما على التردد ، فهو يرمق الفريسة بنظراته ولا يجرؤ على اقتناصها ، بل انه ليسأل وزيره فى جد بالغ : « الست انت كذلك المانيا ؟ »

عندئذ تتملك بسمارك لحظات من اليأس الصادق فينفجر فجأة فى رسالة الى رون يقول فيها : « انه ليقوم بنفسى ان التاج قد خسر دوره مع الثورة لان .. ثقة الملك باتت من نصيب الخصوم اكثر منها فى جانب خدامه . فلتكن اذن مشيئة الله ! فبعد ١٦ الى ٣٠ سنة لن يكون الامر بالنسبة لنا ذا بال ، لكنه سيكون بالنسبة لاطفالنا .. وسنخسر اللعبة وتوقر كواهلنا تبعة الجيل الحاضر والجيل المقبل اذا لم تدركنا معجزة من السماء . فلتكن مشيئة الله فهو العالم بما يبقى لبروسيا من عمر . لكنه سوف يحزننى كثيرا اذا قدر لها الزوال ، علم الله » . لا يكف عن ذكر الدور واللعب ، ولا ينى يذكر اسم الله الذى لا يتجه اليه بسمارك الا ساعة الضيق او حين تعييه الحيلة

ان بسمارك لما حمل الملك هنا والامبراطور هناك على العمل اخيرا لم يكن متأكدا بعد لأى منهما سيكون غزو البلد الاجنبى . وقد يجد مع ذلك انه يشن رغم ارادته « حربا عادلة » كما يقول ، لا لشىء سوى تحرير الدوقيتين ، ولا لمصلحة احد سوى مصلحة الاتحاد الالمانى . ولا يلتزم الدبلوماسى الصمت عقب اول طلقة ، فهو يبعث الى رون بكلمة خاطفة يقول فيها : « اليست كتيبتان فى ف . اقل كثيرا مما يجب ؟.. ان كتائبنا لتقع فى الشرك اذا لم تتسلط مدفعيتنا على البوغاز المذكور . ان لنا جنودا فى هولشتين ، فلماذا لا نزيد قوة احتمال الجزيرة ؟ ارجو ان تغفروا لى هذه التأملات الخاصة بأركان الحرب » . ترى ماذا كان عساه ان يقول لو ان رون ابدى له نصائح سياسية ؟ بيد ان مسئوليته اعظم مما يمكن ان تصبح تبعة جنرال من الجنرالات : لقد اصطنع هذه الحرب اولا ثم تعسفها

ديبل

وبعد ثلاثة اشهر : اقتحام حصون ديبل ، واحتلال كل ارض حتى ألسن .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لندن تدعو الى مؤتمر،وتعقد الهدنة . عينا بسمارك تتطلعان دائما الىباريس، فهو يعد نابليون بكل شيء للمستقبل فى عبارات غامضة اذا بقيت فرنسا لا تحرك ساكنا ! وما وعد نابليون به لم ينجزه « وهو فى باريس » كذلك لا يسعه الآن الا ان يساير غيره فى مناصرة قضية دوق اوغسطنبورغ فهو يدلل على حقه فى الدوقية بمحاضر مصغرة وحيل من قبيل ما يسوق المحامون ، لكنه يحصل من الامير الشاب لبروسيا على ما يكفى لتجريده باديء ذى بدء من سلطته

ويستدعى بسمارك الامير الى برلين بمجرد ما يسمح التنافر فى انغام الكونسير اللندنى والخلاف فى مؤتمر لندن فيقابله عند منتصف الليل ــ وتلك وسيلة من وسائل الايحاء ــ وذلك بعد ان يكون ارسله بالنهار الى الملك والى ولى العهد ، ويطلب اليه مطالب جديدة : الا تكون بلاده ملجأ للمهيجين الاحرار . لكن الامير الذى كان تساهل الى الآن فى كل ما لا يخطر بالبال لانه يريد ان يحكم وحسب ، يشعر اليوم من موافقة الملك وولى عهده له بما يقوى ظهره ، ويسمح لنفسه لاول مرة بأن يكون له رأى مستقل ، فيقول انه يجب ان يحصل وفاقا « لدستوره » على موافقة طبقات بلاده . فهل أحتسى هذا المغفل على مائدة الملك اكثر مما ينبغى من الشمبانيا ؟ ان تعليقه ما ارتضاه وسلم به على شروط معناه الا قيمة لما سلم به ! فالآن يتأكد بسمارك الا معدى عن ان تصبح بلاد الامير بروسية . فهو يدلل علنا ايضا وبنفس الحذق الذى ابداه من قبل ، على زوال كل حق لأغسطنبورغ وهو يشعر بما فى ذلك من تهكم ، بل لعله يتلذذ به . ذلك انه يكتب : « اننى كلما طال اشتغالى بالسياسة وهن اعتقادى فى فهم الانسان وذكائه »

ويبلغ الشطر الثانى من الحرب ، وهو بضعة اسابيع من يولية ، يبلغ الخصمين المتحالفين النصر النهائى، ويضمن لهما البلدين والحيرة أيضا فى أمرهما، ويجلس فى قصر شونبرن معا اربعة رجال هم العاهلان وبسمارك وريشبرج متحالفين مبتسمين : وفيهم الملك مثقل الضمير وربما شاركه فى ذلك ريشبرج لانهما ابسط من ان يستسيغا هذه السياسة

مشهد فى شونبرن

اما فرانسوا جوزيف وبسمارك فهادئان كل الهدوء ، مصممان على ان يخدع احدهما الآخر :

بسمارك : « اننا والتاريخ يفرض علينا ان نعمل فى السياسة معا يؤدى كلانا من الناحيتين الاسرية والسياسية خيراً مما يؤدى فى العادة ، وذلك اذا نحن تضامنا وتولينا قيادة المانيا ، وهى قيادة لن تخرج من ايدينا ما بقينا متفقين . . ولو ان ما ظفرنا به معــا كان فى ايطاليا ولم يكن فى هولشــــتين ، وكانت لومبارديا تحت تصرف الدولتين لما خطر ببالى ان احمل ملكى على ان تقف رغباتنا عقبة فى سبيل حلفائنا »

فرانسوا جوزيف : ــ ايراد ان تكون الدوقيتان اقليمين بروسيين ام يراد

أن يضمن لبروسيا فيهما حقوق بعينها ؟ ـ سكوت يلزم فيه آلملك الصمت

بسمارك : « انى لشديد الغبطة ان وجهتم جلالتكم الى هذا السؤال فى حضرة مولاى المعظم ، ورجائى ان اعلم رأيه بهذه المناسبة »

غليوم مترددا : ـ انه لا حق لى فى الدوقيتين ، ولا يسعنى ان اطالب فيهما بشيء

اى مشهد ! عاهلان حائران لا يدريان ما يصنعان بالنصر الذى احرزاه وفرضه عليهما وزيراهما ، وجلبه قوادهما . سوء ظن متبادل يلقى التنفيس فحسب فى اسئلة مؤدبة الى ان يعلن اكبر العاهلين سنا فى اشد ارتباك ، مستحيا ، وآقعا تحت تأثير الاخلاق ، انه لا حق له فى الدوقيتين ، فيكذب وزيره وكان منذ هنيهة يلمح الى العكس . وينتهى هذا التمثيل الكاذب الذى يتزمل بالقرابة ، ويعلوه الابتســـــام من التخاطب من القلب برفع الكلفة ، وتثقله الرسميات من « صاحب الجلالة » و « صاحب السعادة » ـ ينتهى بمأدبة غداء تحشد لها آنية الذهب والفضة ، وينتقم فيها الوزير المغيظ من الخمور المعتقة فى قبو آل هابسبرج

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع

ان الحرب الدانيماركية بدل ان تبدد اسباب الخلاف كثفته فى الداخل . فاذا اشارت الحكومة الى نجاح ما اصاب الجيش من اصلاح اباه المجلس ، زعم الاحرار ان الاصلاح لم يكد يبدأ . اما مالم يقم عليه دليل حقا فهو المسألة الاساسية وهى : أيكون القول الفصل للقوة ام للحق ؟ فقد بقيت هذه المسألة بعد ذلك النصر فى الميدان يكتنفها مثل الغموض الذى يكتنف القوة الفعلية فى البلاد . وحين يعيد بسمارك فى يناير عام ١٨٦٥ فتح ابواب المجلس لممثلى الشعب يكون معهم فى منتهى الادب ، ويكون بعد النصر اقل تهكما مما كان اثناء القتال . لكنه حتى الآن لا يقلع الاحرار عن مسلكهم ، فهم يصيحون : ان الحكومة لم تفعل سوى ان تبعت اتجاه الروح العام ! هنا يتحرك ساكن بسمارك فيرد : « انكم فتحتم ديبل وألسن برفضكم الاعتماد الاول ، اذن آمل ايها السادة أن ينبت لنا اسطول بروسى برفضكم الاعتماد الحالى » . ويستمر النزاع

ضيفان

وكذلك الامر مع الحليف : تريد النمسا ان تجعل من البلدين المفتوحين دولة من دول الاتحاد الالمانى كيلا تدعهما لبروسيا . ووزير الخارجية الجديد فى فينا الكونت منزدورف وهو فارس اكثر منه سائس ، رقيق ، متفائل ، وسيد عظيم، ينطوى أدبه الجم على دساس كبير كما كان الكونت تون فى فرانكفورت قبل ذلك بعشر سنوات . ويقول بسمارك لكارولى فى برلين : « اترى ! اننا نقف امام الدوقيتين كضيفين يريان امامهما لونا فاخرا من الوان الطعام ، لكن احدهما عديم الشهية والآخر جائع ، فالاول يحظر على الثانى ان يمد الى الطعام يده ويمنعه عنه منعا شديدا . فلننتظر اذن حتى يحين الوقت المناسب . على أننا فى هذا المركز نجد أنفسنا مؤقتا فى موقف محتمل »

على مائدة اللعب

وفى الصيف يبلغ من تضايق فينا ان تحث على قطيعة بروسيا فيسرع نبض بسمارك : فهدف الحرب الاولى ، هدف العمل الذى لبث بعده خمسة

عشر عاما ، يلوح بسبيل التحقيق البطىء . فهو يقول فى مجلس الوزراء فى برود علمى : « ان اللحظة مؤاتية للدخول فى حرب . بيد انه لا يجوز للوزراء ان يشيروا بخطوة كهذه فتقرير ذلك انما يكون عن اقتناع ملكى حر »

على ان الملك ينفض عن نفسه ذلك الحلم المزعج ـ حلم الحرب بين الاخوة ، ويذهب من جديد الى جاشتين ، ويأمر بسمارك او يسمح له بالاتفاق مرة اخرى مع ذلك العدو الصديق . ويكتب فى اغسطس فى عام ١٨٦٥ بعد حديث شونبرن بسنة ، وبعد اجتماع الامراء بعامين : الآن « يربأ الصدع » وتقتسم الغنيمة : فتأخذ النمسا هولشتين ولاونبورغ ، وتأخذ بروسيا شلزفيج على ان تكون السيادة فى البلدين مشتركة ، ويضيع دوق اوغسطنبورغ ، وتتساءل اوربا بين المضض والضحك : « لا انفصال الى الابد » ؟! ويروى بسمارك : « فى ذلك الحين لعبت « ١٥ » لاول مرة فى حياتى . اقدمت على لعبتها بخفة عجب منها الجميع وكان الكونت بلوم يقول ان لعبة ١٥ هى خير ما يكشف الرجال . فدار بخلدى من نحوه : لابد ان تكون عرفتنى جيدا ! وقد خسرت بضع مئات من الريالات كنت استطيع تصفيتها فى الحقيقة اذ كنت انفقها فى شئون مصلحية . لكنى ضللته فاعتقد انى اجرأ مما انا فى الواقع وتساهل » وبعد التوقيع يقال انه قال للآخر : « ما كنت لاعتقد انه يوجد ديبلوماسى نمسوى يوقع على هذا ! » ولقد كانت النمسا يومئذ غير آمنة فى الداخل ، وبلا حليف فى الخارج فاضطرت الى التوقيع وكان مكسب بروسيا اعظم لموقع نصيبها وقيمته . فلما باعت النمسا دوقية لاونبورغ اخيرا الى بسمارك بمليونين ونصف مليون ريال دانيمركى كانت غبطته لا تقدر : « فبهذا فقدت كثيرا من اعتبارها : فالذى يشترى يكون رجلا وجيها ، اما الذى يبيع بثمن بخس فيكون على النقيض من ذلك ! »

مرتبة الكونت

وقد أنعم عليه الملك بلقب كونت بعد هذا التوسيع الاول للدولة . ولما أنعم عليه بعد الحرب الدانيماركية بوسام النسر الاسود كان ما أضافه بسمارك الى الخبر فيما كتبه الى زوجه هو الحقيقة حين قال : « ثم عانقنى بحرارة فكان هذا العناق أغلى عندى من الوسام » وهو كذلك لم يفد شيئا من أرفع وسام ، لكنه انتفع بمرتبة الكونت كثيرا ، فشعور الاسرة عنده ، وهو أقوى ما ورثه ، قد قوى اللقب احساسه به ، فقد كان دائما ينظر الى القرون والى صف الصور التى تمثل أجداده فى شينهوزن بافتخار ، ويقارن نفسه بالملك فيقوى افتخاره بنبله أن آل بسمارك فى « المارك » أعرق من آل هوهنتسلرن . لكنه كان بين أبناء عمومته ومعارفه كثيرون تذهب رنوك أسرهم فى القدم الى أبعد من رنكه ، فاذا دفعه الطموح الى نشدان المناصب العليا مرت بخاطره وجوه أبناء طبقته هؤلاء الذين تزيد رنوكهم فى العمر عن رنكه . والتأثير فى أبناء عمومته لم يكن سوى غرض ثانوى عنده ، وان كانت غطرسة هذه الطبقة لتمض سليل العلية البسيط وتثير ظنونه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولم يكن بسمارك بحاجة الى الرنوك فقد كان يومئذ علما فى أوروبا ، لكن أن تكون وزجه كونته وهى من بنات الريف فى بوميرانيا الخلفية والفتاة التى لم تحظ دائما بما يكفيها من تكريم ، وأن يسمى أبناؤه وورثته على مر الايام كونتات بسمارك ، فهذا الذى أرضى بعض زهو الشريف والذى أشعر نفسه الساخطة دائما ارتياحا ممزوجا بالفخار أكثر مما استشعر من رضا من كل ما سبق لقب الكونت من ألقاب ووظائف وما أبداه نحوه الملكات والامبراطورات من ود . وقد رأى ذويه يرتفعون بهذا اللقب وهم الوحيدون الذين يثق بهم فى هذا العالم . وبسمارك اذذاك فى الخمسين ، لكنه لما كان فى الخامسة والعشرين وكان اذذاك من المعتزلين صور المستقبل لصديقه بقوله : « انهم اذا نادونى فى سوق الصوف بياحضرة البارون بعتهم الصوف بأرخص من ثمنه ثلاثة ريالات »

بيارتز مرة أخرى

واذا كان فى تلك الاثناء قد قرأ ذلك المسوغ الودى الذى برر به الملك الانعام فلا بد أن يكون ابتسم لافتخار مليكه به . ذلك أنه بعد أن لبث عامين يجر مولاه وراءه خطوة خطوة قال نفس هــذا المولى عن غزو الدوقيتين انه جاء « نتيجة من نتائج حكومتى التى توليتموها بهذا الالتفات العظيم الباهر .. ملكك غليوم الراضى عنك » . وعلى الاقل كان الملك متواضعا فى الكلام عن شخصه فلم يخطه بالاحرف الكبيرة

وفى ذلك تقترب دائما ساعة الحساب الكبير ، واذ يراها بسمارك تقترب يعود ينظر الى نابليون والقلق يساوره فالامبراطور وأكثر منه أمته لايروقهما تصالح الدولتين الالمانيتين المتنازعتين ، ذلك أن تزاعهما المزمن هذا بالذات حبيب الى أوربا ، بل ان انجلتره بدأت بالفعل تفكر فى محالفة قوية ضــد ألمانيا المتحدة . ويحسب بسمارك : ان مخاطبة نابليون الآن لتطلعنــه على ما يدور بخلده . وقد أقنع امبراطورا فى حمام جاشتين فليبادر الى الآخر ليسحره فى حمام بيارتز ، وانها لفى الحق رحلة تقرب أن تكون فى أرض العدو اذا ما ظهر فى البلاط الامبراطورى وسكن على مقربة من فيللا « أوجينى » الامبراطورية . ولا يصدق أحد أن ضعف صحة امرأته هو الذى حمله على هذه الرحلة الخريفية المدهشة اللهم الا زوجه نفسها . فهذه الزوجة تكتب من هناك تقول : « لقد بلغ منى اليأس مبلغا مخيفا لأنى .. عــدت على نفسى باللائمة أنى أكلف بسمارك المسكين هذا الكثير من دون أى رجاء فى مساعدته ! ويكاد يلوح لى أنى كنت فى هومبورغ أحسن حالا بكثير » . ويبدو من هذه الكلمات الساذجة كيف كان بعد سنى زواجه الاولى يكتم عن زوجته أغراضه السياسية .

ألم يكن فى العام الماضى أكثر حظا بكثير وهو هنا وحده ؟ فقد قفل عقب الصلح الدانيماركى عائدا الى هذا الساحل على جناح السرعة ، ليقضى وقته ، من دون امبراطور ومن دون زوجة ، مع الاميرة أورلوف الفاتنة نفســها

وزوجها ، فى الاستحمام والركوب والاستماع الى الموسيقى كما كان يفعل من قبل . وفى السنتين اللتين أعقبتا استدعاء رون اياه من هـذا المكان قابل الروسية الحسناء ست مرات ورافقها ، وكان تسمى فى الرسائل « كاتى » ليتصورها المرء كل شيء الا أنها أميرة روسية . ثم تتجدد هذه الساعات الهنيئة ، ويكتب الى زوجه مرتين فيعبر عن الاحلام تعبيرا لا يوائم طبيعته بحال من الاحوال : « انى سعيد هنا يا فؤادى ، كأنى فى حلم . فالبحـر أمامى ، ومن فوقى كاتى تعزف بيتهوفن ، جو لم نعرف مثله فى الصيف كله ، وليس بالبيت مداد ! .. فاذا أرسلت الى برقيات تراجعت الى جبال البرانس . انى لن أشترى لوبن (عند رينفلد) بل سأشترى ايشو أو شيئا على مقربة من داكس . وحين أفكر كم استدفأنا فى بادن بل وفى باريس ، ثم كيف جعلتنا الشمس هنا نخلع المعاطف والسراويل الصوفية ، وكيف لبثنا أمس مستلقين الى ما بعد العاشرة فى ضوء القمر على الشاطىء ، وكيف نتناول اليوم طعام الافطار فى الهواء الطلق ؟ .. لا بد أن أقول صدقا ان فى المناخ فضلا عجيبـا واتاه الله أهل الجنوب .. انى لا ينقصنى للراحة سوى نبأ منك »

حلم ألمانى

الى هذا الحد يغتبط هذا القلب المظلم ــ قلب هذا الالمانى ، وهو يروح عن نفسه متبطلا ، متكاسلا ، فى صحبة أجانب ، وعلى مقربة من حسناء هى موضوع اعجابه ، ويقضى الاسابيع فى هذا الجو على الساحل ، وهو ما لا يستطيع أبدا أن يفعله الآن فى غابات وطنه . هذا البعد ، وهذا الصحو ، وهذه الزرقة والبحر ، والشمس أكثر اشراقا ، وثياب النساء أزهى ألوانا ، والحديث أعذب وقعا : كل هذا حلم رجل ألمانى ..

لكنه هذه المرة وزوجه وابنته معه مريضتان ، وليس معه صديقته الروسية ، ورأسه تجيش بخطط جمة ، لا يرى أمامه نفس الشاطىء ، بل يجد شاعرا هو بروسبير ميريميه فيتبينه الشاعر الاجنبى خيرا مما تبينه مواطنوه فى ألمانيا فيقول عنه : « ان بسمارك أذكى مما يبـــدو للالمان . انه هومبولت الديبلوماسى . انه ألمانى عظيم ، مؤدب جدا ، يلوح عليه أنه غير مرتاح الضمير ، لكنه مفعم بالمرح » . وبعد ذلك بعام : « ان هذا الرجل العظيم أحسن استعدادا من أن نطلب منازلته . وسيفرض علينا أن نغمض من أجله أعيننا على القذى حتى يصبح لنا مثل بنادقه » . لكنه أكثر من فن الشاعر مدعاة للاعجاب فن رجل الدولة : فقد بلغ من جدارة بسمارك أن يخدع الغير بأنه تحول ، وأن يصبغ البلاد سريعا بالصبغة التى يريدها فى الآونة الراهنة . فهل يخدع أيضا هذا الامبراطور ؟

فوق الشرفة

فهناك يغدوان ويروحان فوق الشرفة على مقربة من البحر دائما وهو من تحتهما : يخطو بسمارك قويا ، سليما ، حديد النظرات ، لا يفوته فى كل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استدارة أن ينتقل الى يسار الامبراطور . أما الآخر فشاحب اللون ، منحن ، متداع قبل الاوان ، وان لم يكبر بسمارك الا ببضع سنوات ، ضيق الخطى ، قلق النظرات ، يتبعهما كلبه نيرون وحده وئيد الخطوات . فلو تنبأ متنبىء اليوم بحروب هذين الرجلين بعد خمس سنوات لقرأ فى منظرهما من اليوم فصل الخطاب

أما من ينصت اليهما فيظل يتساءل : أليس بينهما من الحرب بد ؟ ان كليهما يرغب عنها ، الامبراطور المريض بالمرارة ، الواهن من المرض ، يتهيب حربا جديدة كل التهيب ، بينما كان وهو صحيح البدن ، معافى ، يرغب « كل بضع سنوات فى حملة ضخمة » ويود لو شن بها الحرب فى البحر الابيض المتوسط ، بل فى فينيسيا لان ههنا المساهمة فى « مودة » الحرية القومية لايطاليا ، وطلب قطعة من المجد فى نفس الوقت ، أى تحقيق رغبات الفرنسيين من الناحية الواقعية والمثالية . واذ كانت هذه الجائزة لا سبيل الى الظفر بها الا بحرب ضد النمسا فهو — أى الامبراطور — يقدر فائدته فى سياسة يزامل فيها بروسيا أو يناصرها ، فبماذا يطالب بروسيا فى مقابل هذه الخدمة التى لا تقدر ؟

محاورة مع نابليون

ويتساءل بسمارك : ماذا يطلب ؟ ذلك أنه لا يسعه أن يعرض عليه أرضا ألمانية ، وأرض النمسا لا تهم فرنسا . ومن ثم يؤثر أن يتحدث عن بلجيكا . واذ يتحفظ نابليون يلخص بسمارك الموقف فى ايجاز ابليسى بهذه الجملة : « من الصعب أن تعرض على أحد شيئا أجنبيا لا يريده » . ثم يتكلم عن سويسره الفرنسية وعن قطع ألمانية على الرين يقصد بها ترير ولانداو : كل هذا وهما يتمشيان وبمعنى لم يصرح به قط : لا نستطيع أن نعرض شيئا ، لكنكم اذا أخذتموه لا يمنعكم أحد من أخذه . كذلك لا يفصح الامبراطور عن نفسه فيما يتعلق بضم هذه الاراضى فهو يتكلم بصفة عامة :

— اننا نرحب بتوسع بروسيا على أن يكون خلوا من كل استرقاق

فيجيبه بسمارك وهو لايقل غموضا عنه : « ان بروسيا المجدة تعلق أهمية كبرى على فرنسا الصديقة . أما بروسيا التى تثبط همتها فتسعى الى محالفة الغير ضد فرنسا . وفيما خلا ذلك يجب ألا نخلق الحوادث بل ندعها تنضج »

فيلخص الامبراطور بقوله : — اذا جعلت الظروف من المرغوب فيه أن نعقد محالفة أوثق وأخلص فليكتب الى مولاك فى ذلك سرا . ولا يزيد على ذلك . وكذلك لا يذهب بسمارك الى أبعد مما ذهب ، لأن الملك حظر الارتباط حظرا تاما . فهل يبلغه الآن كل شىء ؟ ما يراه حسنا فحسب ، وما يمكن أن يفهمه الملك فحسب : لقد خفت صراحة بسمارك بازدياد سلطته وقلت سريعا ، فهو يقدم لكل ما يفهمه ، حتى الملك الذى يبدو له أنه لم ينضج بعد لتقبل

حرب مع هابسبورغ . « بعد الذى تبينته عامة يصح أن أصف نفسية هذا البلاط فى الوقت الحاضر بأنها مؤاتية لنا جدا » . هذا ما ختم به تقريره فى ضوء هذه الاحاديث أو غموضها . وان المرء ليستشف من وراء الحجب بروق نفسه وكيف يبيت هذا السائس الحرب لأخيه الالمانى ضد الجانب الاكبر فى أوربا ، وضد حالة شعبه النفسية ، وضد ملكه ، وكيف يسعى الى ضمان فرنسا الكبيرة الطامعة بأنصاف وعود . واذ أراد كلاهما أن يخدع صاحبه فقد ظل غير واضح : من منهما المخدوع فى بيارتز

لقد انهت مدافع حرب السبعين مبارزة هذين الرأسين لكنها لم تفصل فيها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثامن

الوطن الضيق

فى أواسط العقد السابع من القرن التاسع عشر بدأ بسمارك البروسى أن يصبح ألمانيا

وليس ذلك لأن ثمة رغبة غير ما يحدوه من رغبة فى هزيمة النمسا داخل الاتحاد الالمانى ، قد حدته الآن أو قبل الآن ودفعته الى الامام ، فالبغضاء والاعتداد بالنفس قد كانا أيضا فى هذه المسألة أقوى من الحب ومن الارادة للنظام . واحلال بروسيا محل النمسا ، والقتال والانتصار على المزاحم ، هو ما كانت طبيعته الشيطانية تبغيه لا « الفكرة الالمانية » ، واذا كان الاحرار يومئذ قد شكوا فى أن هذه الفكرة تحدوه لانه كان يفعمهم نوع من العقيدة الالمانية ، فقد كانوا على حق . فلم يكن اذذاك أهل الرين أو أهل بفاريا أكثر استحقاقا للثقة فى نظره من أهل فينا وسالسبورغ . فلماذا يجعل الالمان فى الخارج طبقات ؟ انه الآن كما كتب الى جيرلاخ قبل عشر سنوات مستعد لأن يطلق النار على هؤلاء الناس اذا استلزمته سياسة مدروسة ، وأن يرى السكسونيين وأهل هس وهانوفر يسقطون فى بضعة أشهر صرعى بالالوف فى حرب يشنها هو . ذلك أن هذا كله فى نظره « خارج » وبروسيا وحدها هى الوطن وهى الموطن

بدء الفكرة الالمانية

هذا الشكل الضيق من اشكال الوطنية اللاصق بالالمان بطبيعة تطورهم لايبعث من نحو بسمارك على الدهشة بقدر مايبعث عليها أن يكون واسع النطاق، ذلك انه (بسمارك) قد ابدى حتى فى شيخوخته انه اذا كان الالمانى يتعلق أسرته المالكة فلانه على الاكثر يحب ركنا واحدا من الارض : فبسمارك كان يحب فى الواقع بوميرانيا وحدها . أما بروسيا وقد كونتها فتوحات تمت بمحض الصدفة وكان جسمها من قبل أهزل مما هو الآن ، فانها اليوم أكبر حجما وأكثر اختلافا من أن توقظ مشاعر الولاء نحو الاسرة المالكة . فبين كولونيا وميمل لم يكن تفاهم ومع ذلك قد كان بسمارك كواحد من قلائل مصمما على أن يحب بروسيا هذه مهما يكن حجمها ، ذلك أن فتوحات بيته

الممالك كانت فى نظره مبدأ . أما الامم التى تؤلف بروسيا فلم تكن فى نظره بذات خطر . وهو كرجل اقطاع من رجال ملك بروسيا وكفارس من فرسان براندنبورغ يسعى فحسب الى توسيع رقعة هذه البلاد ، ولآثر بأسلوب القرون الغابرة ان يهزم امراء المانا ليزيد فى حجم بروسيا على ان يشتغل بمسائل تتعلق بالاتحاد الالمانى . لقد أراد أن يكون الاول وألا يكون له نظراء الا مضطرا . فهذا منطق دمه

ومع ذلك فقد تغلب على هذه الرغبات الطبيعية بالنسبة له ذكاء غريب ومعرفة عميقة بالتاريخ ، واكتناه سام للحقائق . رأى الممكن . وحذف مايتمنى وقرر أن يضمن لبروسيا بعد انتصاره على النمسا الزعامة فى ألمانيا . وحقا انه كان فى النية ضم بعض الاقاليم مع هذا الانتصار ، لكن الفتح كف عن أن يكون الهدف الذى يسعى اليه . فلقد استيقظ فى نفسه طموح جديد فنفسُ كويدل ذلك الشاهد الذى يعول علي شهادته كل التعويل ، والذى قال له بسمارك قبل عشر سنوات : « انى لا أهتم الا بتاج بروسيا » كويدل هذا يسمعه الآن يقول : « ان أعظم أمانى أن أجعل من الالمان أمة واحدة ! » فقبل عشر سنوات لما أصبح رجل الحزب من رجال السلك السياسى ضحى بسمارك ببعض تحاملاته الرجعية ، وجعل يحسب بالعظائم متحررا من كل مبدأ : اما الآن وقد ارتفع من وزير بروسى الى سائس المانى فقد جعل يفكر ويحسب بالاقطار الالمانية . وكونه قد حصر تفكيره هذا فى الاسر المالكة دون الامم امر كامن فى طبعه . وقد عجز فهمه سواء الآن او قبل الان عن التغلب على مثل هذه المشاعر الاصيلة ، ومن ثم بات بسمارك فحسب اعظم سائس فى عصره ولم يصبح من المطلعين على الغيب

دفع الملك

انه يرحب بمركز النمسا الحرج : فهى تود أن تبيع لبروسيا هولشتين التى تثير ادارتها من بعيد مصاعب تقرب من المصاعب الاستعمارية ، وان تبيع نابليون فينسيا فى مقابل اربعة مليارات من الليرات . لكن النمسا لما لم تكن تجرؤ على هذا فقد وكلت بأمير أوغسطنبورغ فى هولشتين من يهيجه فخرقت بذلك معاهدة جاشتين التى تخول بروسيا الاشتراك فى تقرير امور البلدين . فالآن يستطيع بسمارك ان يرى ملكه حقوقه المنتهكة ، الان يستطيع ان يثيره ، فهو يتناول ذلك فى صراحة مذهلة فى حديث مع السفير الفرنسى بينيدتى فيقول : « لقد خلق الله الملك بحيث انك اذا اردت أن تحمله على المطالبة بحق يجب أن تثبت له ان غيره ينازعه اياه . فاذا جرؤ امرؤ على أن يضيق سلطته امكن حمله بذلك على اتخاذ قرارات جازمة» وتقدم شكوى كبيرة الى فينا ، ويجىء ردها معبرا عن غضبها ، ويجتمع مجلس التاج فى برلين فى فبراير ١٨٦٦ ، وتتملك الحدة الملك فيقول : « نحن لانريد ان نثير حربا ، لكنا لا يجوز ان نخشاها » . ويوافقه الوزراء جميعا ، ولا يخالفه سوى ولى العهد . فيقول الملك : « ان امتلاك الدوقيتين يستأهل الحرب ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيجب المفاوضة والانتظار . انى أرغب فى السلم ، لكنى مصمم على الحرب اذا لم يكن منها بد . فانى لأومن بأنها حرب عادلة بعد ان استخرت الله ان يسدد خطاى » . وقبل ذلك بسنة ونصف سنة وهو فى شونبرن كان الله مايزال يؤكد له أنه لاحق له فى الدوقيتين ، اما الآن فلم يعد هناك لا اتحاد ألمانى ولا حقوق نمسويه .

وتتعاظم آمال بسمارك وينشب الخلاف بينه وبين ولىالعهد ويتخذ صورة من الانفعال والحدة . وفى نفس المساء يجلس بسمارك الى النافذة بعد املاء ويخاطب نفسه على مسمع من كويدل قائلا : « انه اذا عاد منزدورف الى السياسة القديمة وجب علينا ان نحك له انفه بشىء من الاسود والاحمر والذهبى . ان مسألة شلزفيج والمسألة الالمانية هما من شدة الارتباط بحيث لابد لنا من تسويتهما معا اذا وقعت الواقعة .. وتأسيس برلمان المانى من شأنه أن يضع دول ألمانيا الوسطى والصغرى فى مواضعها » . ثم يقول بعد صمت . « فاذا وجد بين هذه الدول ايفيالتس * فستسحقه الحركة الالمانية الكبرى هو وسيده » ثم يهب واقفا ويغادر الغرفة . هكذا يصدر بسمارك قراراته : يضع حلقة الى حلقة من سلسلة افكاره متئدا مترفقا ، ثم تبرز له مقارنة تاريخية تتناول حاضره فيسحق بها الخصم . وحين يهب واقفا ينطق بالقرار الذى يخفيه

الديكتاتوريه

ان الذى يتقوى باقتراب الحرب هو الديكتاريوية . فانها تشتد ويذهب بها الى اخر مداها . ومادام النواب يقولون مايشاءون فلن تنضج البـــلاد لقرارات خطيرة : اذن يجب ان يتخذ النائب العام الاجراءات ضد الاحرار لانهم اساءوا استخدام حرية الكلام ، وان يرسل اثنين من القضاة المساعدين المضمونين الى المحكمه

ويثور اللاندتاج « لتحل قضاتك بكل أوسمة الدولة البروسية فان هذه الاوسمة لن تستر ما افتضح من شرف هؤلاء الرجال امام الجيل الحاضر والاجيال المقبلة وشرف الوطن ايضا للاسف الشديد ! بهذا تخلق نفسية من التشاؤم خطرة على الدولة . بل انه ليجول بخاطر رجال هادئين ان المستقبل لن يدخر لنا سوى ايام انتقام » بهذا نطق من فوق المنبر احد من حوكموا وبه خاطب البلاد : وهو تويستن الذى يهدف الى الثورة رأسا بكلامه الاخير والحرب على الابواب

ويرد بسمارك على هذا الكلام بقوله : « اننا اذا سرنا على هذا المنوال فسيكون من المجلس محكمة استئناف فوق المحكمة العليا ، ويكون للنواب

* أثينى من النبلاء وزعيم ديمقراطى النزعة تولى زعامة الديمقراطية بعد طرد ثيمستوكليس فحقد عليه النبلاء وقتلوه

على سائر المواطنين امتياز لم يدر بخلد اشد النبلاء نعرة . وهكذا يصبح من حقكم أن توجهوا الى من عداكم أشنع الاهانات وتغتابوهم أفظع الاغتياب »
لقد بات النزاع ولا أمل فى تسويته ، لكنه بهذه الحال خليق ان يبقى الملك الى جانب وزيره المكافح . ويعطل المجلس ، ويداخل بسمارك الارتياح

نابليون على الحياد

والآن يجب أن تضمن فرنسا وايطاليا . وحين يتحرج الموقف يكتب الملك الى نابليون تلك الرسالة التى طلبها : أن الوقت قد حان وان سيقص عليه السفير كل شيء . ويقول جولتس للامبراطور : « نحن لانبغى الدوقيتين فحسب بل نريد كذلك تأسيس اتحاد شمال المانيا بزعامة بروسيا » . ويوافق الامبراطور على ان يقف على الحياد . واذ كان يشتبه فى أنه ماتزال لبروسيا خطط اخرى فهو يعلن من الآن أن له مطالب على نهر الرين فى حالة أى توسع آخر لبروسيا . فيمضى بسمارك فى المفاوضة محاذرا ، ويبعث الى باريس برجل يثق به كل الثقة هو بليشرودر ليحمل الى روتشيلد رغباتهليبلغها هذا الى الامبراطور . وبذا يفيد بسمارك من العلاقات الخاصة وينتفع حتى باليهود . وسرعان ما يتكلم تيير فى مجلس نواب باريس عن الاتحاد المنتظر لشمال المانيا فيقول ان تمزق ألمانيا هو الذى يحفظ لفرنسا التفوق ، فتثور عاصفة من الهتاف ويتعالى من كل جانب ، فيتولى نابليون الذعر ويفكر من تلك اللحظة فى أن يعوض النمسا فى سيليزيا من فقد شلزفيج حتى لاتستفحل قوة بروسيا . وهكذا تجرى المساومة على البلدان من وزارة لاخرى ومن برلمان لآخر ، وتغرق مكاتب الشفرة بعضها بعضا بأنباء المطالب والمواقف التى ترى الدول العظمى أن تقفها بعد حرب قد لاتنشب أبدا

وحين يزور برلين فى نفس الوقت جنرال ايطالى ينتهز بسمارك هـذه انفرصة اذ أن فى مصلحته ان تذاع فى فينا مفاوضته السرية مع فلورنسا لعقد تحالف ، فتثور ثائرة فينا وتحتج بشدة فيفيد هو من ذلك فى اثارة ملكه ، ومن ثم يسر الى رانجل الهرم بهذه الخطط اذ كان من عادة رانجل ان يذيع من فوره ما يؤتمن عليه ، فيقول للايطالى : « ارجو ان أدفع بالملك الى الحرب لكنى لا يسيعنى من جراء ذلك أن احرق يدى » . ومع أن الاجانب جميعا قد حذروا الجنرال فى برلين من مكر بسمارك فان فلورنسا لم تتحول عن موقفها . فلما جاءت الشكاوى المنتظرة من فينا قررت ايطاليا التحالف مع بروسيا وان تدخل فينسيا بمجرد ان تدخل بروسيا بوهيميا . وهـذه السفتجة قابلة للدفع بعد ثلاثة أشهر . وهـذا الملكى الالمانى لا يتحرج من الاستعانة على قتال هابسبورغ الالمانى بسلاح اجنبى

أزمة عصبية

والآن وقد جعل الحليف أخيرا مستعدا للتوقيع يرفض ملكه هو ! وهنـا تنهار أعصاب بسمارك ويكتب رون يقول : « ان صديقنا قد أتلف أعصابه عمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجبابرة ليل نهار .. عانى أول من أمس تشنجات شديدة فى المعدة ، ووهن من جراء ذلك أمس وهنا شديدا ، فبات سريع الانفعال ، سريع الغضب .. حتى أن القلق عليه لم يزايلنى الى اليوم ، اذ كنت أعلم ما هنالك ، وأنه الآن بالذات بحاجة ملحة الى قوى الروح جميعا ، سليمة من مؤثرات الجسم » . ويفكر فى هذه الاسابيع ، ويفكر رون معه ، فى الاستقالة تفكيرا جديا ، لكنهما فى صباح اليوم التالى يزايلهما القنوط ، فيهب هو وصديقه . ويكتب بسمارك الى أحد معارفه يقول : « انك تعرف بالتجربة ما هى الحياة : تعرف تجاريبها وواجباتها وصور الحرمان فيها وعدم كفاية الزمن والقوى لها .. لا تعتقد أنى فقدت شجاعتى فبت أتكلم على هذا المنوال . فانى لأومن بالحرب ولا أعلم هل أشهدها ، لكنه يتملكنى أحيانا نوع من الخور » . نغمة غير مألوفة فى رسالة هذا المجاهد تنم عن التفلسف والعجز والاعياء

لكنه حين يتجمع حوله الاعداء تعاوده حيويته ، فالآن ينفض من حوله فريق كبير من المحافظين يرون قتال هابسبورغ الامبراطور الشرعى أمرا غير معقول ، ويرون فى الوزير رادوفتش جديدا ، بينما كان قبل ستة عشر عاما يحارب رادوفتش ، وينذره لودفيج جيرلاخ صديقه وراعيه القديم — ينذره من حول الموقد فى المساء ويهدد بين ماء الصودا والسيجار بلعنة السماء . وحين يناهض سياسة بسمارك فى صحيفة كرويتس تسايتونج يغضب هذا ويعتب على المتدين القديم : « ما كنت غرا يجر البلاد الى الحروب . وهنا يجب أن يكون رأيى هو رائدى لا تأثير الآخرين . انى فى عملى أستخير الله لا رفاق الحزب » . قول يبدو فيه « خشنا ، شاحبا ، منفعلا ، متهيجا ، لا تخرج منه كلمات تنطوى على الود » . وحين يرجوه جيرلاخ أن يرعى الصداقة على الاقل لا يرد ، أى يرفض ، ولا يعود يخاطبه أبدا

تجمع الخصوم

ويعمل ولى العهد ووليته وأوغسطا قبل الجميع : يحرضون جميعا ضد الحرب أى ضد بسمارك ، ويستكتب دوق صديق سفير النمسا رسائل تحض على السلام ليبعث بها الى الملك . ويرسل أخلص أبناء البلاد الرسائل ويوفدون الوفود ، ومنهم الامير كارل وسنفت بلزاخ وبودلز شفنج وجيرلاخ وجميع المتدينين الاتقياء . والحلف المقدس نفسه يبرز طيفه كرة أخرى من مهواه . كل شىء يتفزز ويتحرق ، الا واحدا يلتزم الهدوء : ويعلن مولتكه حين ينفخ بسمارك فى بوق الحرب أن الخبر القائل باستعداد النمسا الحربى مبالغ فيه . ومع ذلك يعمل بسمارك على أن تكون النمسا هى البادئة بالعدوان . لان ملكه ، بقدر ما يعلم ، لن يكون البادىء خشية امرأته . وقد روى بسمارك أن مسلك أوغسطا كان يومئذ مناهضا للروح القومية الى حد انه « بينما كان القتال دائرا فعلا على حدود بوهيميا كانت مفاوضات مريبة تدور فى برلين تحت رعاية جلالتها »

خيانة فيكتوريا

وأرعن من هذا المسلك مسلك ولية العهد . فهى تكتب فى آخر مارس كلمة خاطفة الى لندن تقول فيها : « أمى الحبيبة .. أن ما يجب أن تعرفيه كل المعرفة هو أن الرجل الشرير حانق ، غاضب ، لان الملك رغب فى أن يكتب فريتس اليك ، فعد هذا مما لا يجوز ، ورأى فيه تعرضا لخططه وتدخلا لا يجدى الخ .. وقصارى القول انه ثائر وانه يريد أن يحبط كل تدخل من أية جهة . هذا ما يجب أن تعلميه فورا ، ومن ثم أكتب اليك رأسا ، وان لاح ذلك من قبيل الدس الذى أكرهه » . بيد أن هذا لم يكن دسا بل كان خيانة للبلاد . واذا كانت فيكتوريا لم تكف عن أن تكون انجليزية ، فقد كان ينبغى أن تتعلم تقليد الوزراء الانجليز الذين كانوا فى كل الاوقات يحولون بين تدخل الامراء الاقرباء وبين أمرائهم

ويحم بسمارك ، ويمسك أحيانا بجبينه ، كما يصف صديق ، ويقول بصوت خافت : « أعتقد أننا سنجن جميعا ! »

الانتخاب المباشر

ماذا يفعل الامراء الالمان ؟ أيدعون وتدع الشعوب الالمانية بروسيا تقودهم ؟ ويتوقع مثل هذا الحظ العظيم ، فيلجأ الى أشد الوسائل مباغتة ليضمن مناصرة الرأى العام : فيقدم الى الاتحاد طلبا بعقد جمعية ألمانية تمثل الشعب ، وتنتخب أنتخابا عاما مباشرا ! لقد مات لاسال ! لكن هاهى ذى فكرة من أفكاره الكبرى تبرز دفعة واحدة . ويكتب بسمارك فى شيخوخته يقول : « انه بالنظر الى ضرورة الالتجاء أيضا الى وسائل ثورية عند الحاجة القصوى لمدافعة الخارج الذى يبغى التغلب علينا لم يداخلنى أى اعتراض على أن أجعل أيضا من وسائلى قانون الانتخاب العام الذى كان يومئذ أقوى فنون الحرية ، وذلك لأنفر الملكية فى الخارج من محاولة التدخل فى شئوننا القومية .. وفى حرب حياة أو موت لا يدقق المرء فى السلاح الذى يتناوله . والمرشد الوحيد هو أولا ما نصيب فى الكفاح من نجاح بالاستقلال عن الخارج »

البروسيون يستريبون

وقبل ثمانية عشر عاما صاح النائب فون بسمارك ـ شينهوزن فى وجه قانون الانتخاب العام قائلا : « ان رطلا من اللحم والعظم الآدمى لا يصلح معدلا للقياس ! » فصاح فينكه يرد عليه : « أرواح ! »

فالآن يعلن بسمارك الحرب الالمانية بهذه الطلقة فتكون القهقهة لها صدى : فبسمارك الذى لبث أربع سنوات يحكم البلاد ديكتاتوريا لا يحفل بدستور ولا ميزانية يتجاسر على السخر من الالمان بطلب ينم عن خوفه مما هو آت . ولو علموا فى ألمانيا ما قاله ولى عهد بروسيا فيما مضى لهتف له الجميع ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فقد قال : « ان بسمارك يلعب لعبا طائشا بأقدس الاشياء . انه لا يجوز لوزير مشاكس أن يحل المسألة الالمانية » . لكن ولى العهد لم يكن يعلم بحال من الاحوال أن نفس الرجل أشار فى سنة ١٨٦٠ على نفس الملك ببرلمان ألمانى فى مذكرته التى قدمها فى بادن ! ويكتب تريتشكه : « ما هكذا ! ما كالمستنجد فى ساعة الضيق بالارواح ، ولكن باعداد الفكرة اعدادا ناضجا على يد حكومة فى بروسيا من المخلصين للدستور تسندها ارادة الشعب الثابتة فى بروسيا ويستقبلها الشعب الالمانى بالهتاف دليلا على الموافقة . هكذا ينبغى أن تدخل الفكرة التى أعزتها الأمة منذ سنين مسرح السياسة العملية وتخطو اليه !.. لقد حملقت الأمة مذهولة وهى ترى هذا التحول الفجائى فى فن سياسة الدولة البروسية ! » تقرأ ألمانيا هذا فيصفق نصفها لتريتشكه

وهكذا يطغى الشعور الالمانى على العقل الذى كان ينبغى أن يتقبل ما لبثت الأمة طويلا تطلبه . وبينا كان كافة النظريين فى ألمانيا يصيحون : « ما هكذا ! » ناعين الاخلاق ، كان بسمارك هو الوحيد الذى يسكت شعوره المعادى للبرلمانات ويغلب العقل وحده

همزات

ومع ذلك ترن فى أذنه صيحة سلام صادرة من فينا أسوأ مما ترن « لا » هذه الصادرة عن الشعب : ففى فينا يريدون حقا ، من جديد وفجاءة ، أن يظل السلام مرفرفا ، ويقترحون التجرد المتبادل من السلاح : فيمرض بسمارك من فوره مرضا خطيرا ، وهو من تتوقف صحته على أعصابه ، لكنه ما يزال يسعه التكاتب مع الملك . وهنا يقرر فيكتور عمانوئيل تحت سيطرة نابليون أن يكون أول زاحف بجنوده ، فلا تحشد النمسا له الفيالق اللازمة ولكن تعبىء فى الغالب الجيش كله ، ذلك أنها تعلم أمر المحالفة السرية من أمد بعيد ، فيعود بسمارك من فوره معافى ويشير بأصبعه الى « المخادعين » فى فينا ، فيقف الملك عندئذ فى مجلس التاج موقفا أشد مما سبق له . وما هى الا همزة أو همزتان حتى يثب !

« ليعتقد حضرة صاحب الجلالة أنه يتنافر مع شعورى ، وأستطيع أن أقول مع يقينى ، أن أرغب فى التأثير فى أسمى القرارات التى تصدر عن أبى البلاد فيما له من مساس بالحرب أو السلم ، وأن أسعى الى ذلك بالالحاح . فهذا ميدان أفوض فيه لله وحده ، وأنا راض مرتاح ، أن يوجه قلب جلالتكم الى ما فيه خير البلاد ، وأصلى فيه أكثر مما أنصح وأشير . لكنى لا يجوز لى أن أخفى عن جلالتكم أننا اذا نجحنا الآن فى المحافظة على السلام فسوف يهددنا فيما بعد ، وربما فى بضعة أشهر ، خطر الحرب فى أسوأ من هذه الظروف . والسلام انما يستتب بصفة دائمة اذا رغب فيه الطرفان . ومن خبر السياسة النمسوية منذ ست عشرة سنة مثل خادم جلالتكم المطيع لا يمكن أن يشك فى أن عداوة فينا لبروسيا قد باتت أعظم أغراض الدولة ان لم أقل غرضها الوحيد . وستظهر هذه العداوة بمظهرها الفعلى بمجرد أن تجد

وزارة فينا الظروف أكثر مواتاة مما هى الآن . وسيكون السعى التالى للنمسا أن تخفف العداوة لها فى ايطاليا وفرنسا »

« انى العب على رأسى »

وهكذا تعود الصلاة والله واليقين فتحشد من جديد ليعبىء الملك جيشه بدوره . وقد أثر عليه فى الصميم ، وذكره بأولمتس ، وهو من وقع بينه وبين الملك نفسه الخلاف على أولمتس قبل ستة عشر عاما . والآن يرتعد الشيخ من خوف الاخضاع من جديد فيكتب : « عليك أن تقول لمانتويفل انه اذا ذكر لى بروسى أولمتس الآن وهمس بها فى أذنى ، تخليت فى الحال عن الحكم ! »

ويعبىء الملك الآن أخيرا فى أوائل مايو ، وتكون التعبئة بحيث لا يفهم منها بعد أنها الحرب . وتغادر أوغسطا برلين محتجة ، ويعلن ولى العهد وهو ضابط عظيم سخطه على حرب الاخوة ، وينحى عليها باللائمة ، ويتوقع لها عاقبة وخيمة ، ويفرض ضياع سيليزيا واقليم الرين ، وتغضب الملكة الارملة وهى بفارية ، ويعارض فى الحرب حتى فريق من الضباط القدامى متذكرين آباءهم فى معركة الشعوب . فالآن ، وكلا الملك وبسمارك يرغبان فى الحرب ، يظلان فى هذه الرغبة وحيدين . ويقول الملك لمحاضره : « انى أعرف أن الجميع الجميع صدى . الجميع ! لكنى سأجرد حسامى على رأس جيشى مؤثرا الموت على أن تتساهل بروسيا هذه المرة ! » ويقول بسمارك فى نفس الوقت : « أعلم أن الجميع ينفرون منى فى كل مكان ، لكن الحظ قلب كرأى الناس . انى ألعب على رأسى ، لكنى سأمضى الى النهاية ، ولو حملت هذا الرأس الى المقصلة . وليس يسع بروسيا أو ألمانيا أن تظل كما كانت . ولكى يصبحا ما ينبغى أن يكونا لا توجد سوى طريق واحدة »

الاعتداء عليه

أجل انه يلعب على رأسه ، فهناك يتربص به المعتدى . انه ينتظر فحسب حتى يظهر الوزير المكروه فى الشارع لانه كان مريضا . فاذ كان عند الملك لأول مرة بعد مرضه فى ٧ مايو ، ثم خرج عائدا الى بيته عن طريق الشارع الاوسط لأونتردن لندن ، سمع على مقربة صوت طلقات نارية ، فالتفت سريعا ، فألفى أمامه شابا يريد أن يعاود اطلاق النار ، ففى لحظة وثب الى جانبه وربما فوقه ، وقبض على معصمه الايمن ، وأمسك بخناقه فى نفس الوقت . لكن الشاب لم يكن أقل تصميما منه ، فحول السلاح بسرعة الى يسراه وأطلق عليه وهو يلاصقه ، طلقين طاش أحدهما لان بسمارك راغ منه على عجل ، فلم يحدث الا حرقا فى سترته ، واستقر الآخر . عندئذ تلم ببسمارك لحظة وهن ، ويرتج عموده الفقرى ، لكن المصاب يمضى فى خنق الرجل الى أن يقبض عليه أحد المارة وفى أثره جنديان يشتركان فى القبض على المعتدى . ويعجب بسمارك حين يلاحظ أن فى استطاعته المضى فى سبيله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من دون ألم يذكر ، ويعود الى بيته على قدميه ، وكانت يوحنا فى انتظاره على المائدة ومعها بعض الضيوف

بعد الاعتداء على حياته

ويذهب أول ما يذهب الى مكتبه وحده لا يراه أحد ، ويفحص ملابسه قبل كل شيء ، ثم يكتب تقريرا وجيـزا الى الملك . وبعدئذ فقط يدخـل الصالون فيقبل زوجته فوق الجبين قائلا : « لا تراعى يا فؤادى فقد أطلق على أحدهم النار ، لكنى بفضل الله لم أمس بسوء » . ويقص الحادث على المائدة كما لو كان يروى مغامرة صيد ، فيقول : « قلت لنفسى كما يقـول الصياد : لا بد أن تكون الرصاصتان الاخيرتان قد استقرتا ، فأنا مائت . لكنى استطعت أن أعود الى البيت فى راحة . وقد فحصت المسألة هنا فوجدت ثقوبا فى المعطف والسترة والصيديرية والقميص ، بيد أن الرصاصة انزلقت فوق القميص الحريرى وحده من دون أن تمس الجلد . وقد آلمنى الضلع شيئا ما كما لو كنت صدمت فيه ، غير أن الالم لم يلبث أن زال . ويحدث فى صيد الوحش أن يلتوى ضلع فى مرونة حين يصدمه الطلق ، وهو ما يلحظ فيما بعد من خلو موضعه من الشعر . ولا بد أن يكون ضلعى قد لان للصدمة أيضا أو أن الطلق لم يستكمل قوته لان فوهة المسدس كانت تلاصق سترتى مباشرة »

الطاقة والأعصاب

على هذا النحو من هدوء البحاثة الطبيعيين كان بسمارك يقص حكايته من دون أن يباهى بأنه أنقذ حياته بيده منذ لحظة . ذلك أنه مدين فى هذه اللحظة للشجاعة المطبوعة التى انقض بها على القاتل ، وللقوة الطبيعية التى كان يخنقه بها ويمسكه ــ مدين لهاتين وحدهما بأن يرفع كأس النبيذ . وسرعان ما يدخل عليه الملك ليعانقه ، ويهرع اليه الامراء يحدوهم مختلط المشاعر ، ويتجمع أمام داره جمهور ليس بالحاشد ، فيخرج اليه بسمارك فى الشرفة هو وزوجه . لقد كان خير من كرهته بروسيا فلم يحدث أن هتف له جمهور . واليوم يهتف له الديمقراطيون لان ديمقراطيا أطلق عليه الرصاص فأخطأه . ويخطبهم فى كلمتين ويهتف للملك . وفى اليوم التالى ينتحر المعتدى فى السجن : واسمه بلند ، وهو يهودى ألمانى من لندن ذلك الذى أراد أن يزيل عدو الشعب من الطريق . ويقينا لقد أسف الناجى أن فاته الانتقام من المعتدى عليه . ولو كانت عظام هذا الرجل من حديد ، ولم تكن مرنة كذهنه لسقط قتيـــلا ولاستفحل النزاع ، لكن الحرب الالمانية ما كانت لتقع . ولم تكن هذه الحرب حرب شعب ، بل ولا حرب وزارة ، بل كانت شيئا ابتكره وزير واحد كان عليه أن يجر وراءه الوزارة والملك والجنرالات . ولو كان المرض منعه من أن

يتولى تصريف الامور فى تلك الاسابيع لكان معنى ذلك فى رأى رون « خسارة معركة كولونيا للمرة الثانية فى اعتقادى »

ويقال ان بسمارك بعد الاعتداء على حياته « أحس بأنه أداة الله المختارة ، لكنه لم ينطق بهذا » كما يروى كويدل . بيد أن هذا الشاهد اليومى لا يمكن أن تكون أعصابه المرهفة قد أخطأت فهم هذه النفسية ففى أشد حالات الخطر ، وقبل الحرب التى دبرها مباشرة ، غير واثق من نهايتها ، وناجيا بأعجوبة من الموت : فى غمرة هذا تقف واقعية بسمارك لحظة ويشعر بيد القدر الخفية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل التاسع

مروض الاسود

بين أول طلقة للمثال على عدو الشعب وأول طلقة للواقعي على الاخوة الالمان خمسة أسابيع . وقبل أن يتحرك الجيش الالمانى كانت باريس تصيح فى طلب التعويض ، فقد هاجم تيير نابليون هجوما شديدا ، فجعله يندم على سياسته ، لكنه لعله ما يزال يؤمن بكلمات بسمارك التى تظاهر بأنه يسرها اليه عن طريق الايطالى اذ يقول : « لو كان الامر يتعلق بى وحدى فلعلى كنت أرتكب شيئا من خيانة بلادى فى سبيل الغرض الطيب الذى نسعى اليه وأنزل لفرنسا عن أية قطعة من أرض الرين جنوبى الموزل ، اذ كنت بروسيا أكثر مما أنا ألمانى . لكن الملك ، الملك لا يسمح لى بذلك » . ويقارن بسمارك نفسه فى شىء من التفكهة التاريخية ، وفى هذه الاسابيع ، بمروض الاسود ، ويقارن نابليون بالانجليزى ، الذى يتقدم كل مساء من القفص انتظارا للحظة التى يفترس فيها الوحوش مروضها ، وعلى وجهه علائم الهدوء »

لكنه بعد ذلك ببضع سنوات حين بلغ الملك خالى الذهن أشياء بعينها من هذا القبيل فأدهشته ، لم ينفها بسمارك بل قال : « انه وان كان هذا يعرض سياستى الشخصية للملام .. لم يكن يسعنى أن أصد السياسة النابليونية الا بأن أفهم بينيدتى والايطاليين على الدوام انى ميال كل الميل الى الحيد عن طريق الفضيلة ، لكن مولاى المعظم لا يميل هذا الميل ، فيجب أن يتركوا لى الوقت لاقناع جلالتكم . وتعلمون جلالتكم أنى لم أحاول هذا الاقناع قط . لكن اعتقاد الفرنسيين بأنى ساع فيه كان مفيدا لنا جدا »

الصلاة والتعبئة

ويعمل الجميع لدى الملك فى هذه الاسابيع الاخيرة بالذات على الوقيعة مرة أخرى ببسمارك ، وتنهال عليه رسائل التحذير من خلصائه القدامى . ويبلغ من بيتمان هولفيج الذى نصح حفيده لحفيد هذا الملك بمثل هذا أن ينكر على الرجل « الشرير » بروسيته فيقول : « ان كل تفاهم مستحيل مادام الرجل بجانب جلالتكم يستمتع بكل ثقتكم ، وقد أفقد جلالتكم اياها عند كافة الدول الاخرى .. بيد أننا فى الساعة التى قبل الاخيرة فاذا ألقى

« بالزهر » الدموى فات الاوان » . ولا يعلم الكاتب أنه فى الساعة الاخيرة لا التى قبل الاخيرة ، ولا يعلم الملك أنه فى قبضة بسمارك . ذلك أنه حين يستدعى النمسويون فى أول يونية طبقات المجندين فى هولشتين يستطيع بسمارك أخيرا أن يصف هذا العمل بأنه خرق للاتحاد ، ويثير بذلك أيضا ثائرة الملك غليوم ! « ان الخيانة والكذب وانتهاك الثقة أمور تتابع من النمسا » بهذا يرد الملك على أحد أمراء الكنيسة يحذره من مغبة الحرب. فهو يقول له : « لقد ضرعت الى الله فى صلاتى أن يهدينى الى ما يشاء ، واضعا نصب عينى شرف بروسيا كلما خطوت خطوة ، وهكذا تصرفت بما يرضي ضميرى ! » هذا كله يعتقده الملك الطيب ، بينما بيتمان هولفيج قد ثبت يقينه فى أن الحرب بين الاخوة تثلم الشرف الالمانى ـ ثبته بمثل هذه الاستخارة لنفس الاله الالمانى ، وبينا السادة الحاكمون على نهر الدانوب قد استمدوا الامر بحماية الشرف الهابسبورغى من هذا الاله عينه وان لم يجروا فى ذلك طقوسا كثيرة

حتى بسمارك المليئة يداه بالمشاغل يفتح الانجيل قلقا ذات صباح مستخيرا فتقع عينه فى الحال على كلمة صاحب المزمور : « اننى جذلان ، مغتبط بك ، أحمد اسمك يارب ، ان طردت أعدائى بعضهم اثر بعض فسقطوا وهلكوا أمامك ، ذلك أنك ترفع حقى وتأخذ بيدى ، وانك الديان العادل المستوى على عرشك » . ولا يدهش يوحنا بحال من الاحوال أن يحس بهذه الكلمات « انه تعزى وأفعم أملا جديدا » . وكذلك كويدل الذى يروى هذا يلوح أنه لم يسأل نفسه ألعله لم يفتح فى نفس الصباح منزدروف فى بالهوسبلاتس أو بويست فى شرفة برول ـ الكتاب المقدس على نفس هذه الكلمات يتلقاها كلاهما فى ايمان كما تلقاها غيرهما ، ويجد فيها تشجيعا من الله . كذلك لايلحظ أحد كيف أن هذا المسيحى ـ وهو جماع الفارس والموت والشيطان* ـ يفاوض فى نفس الوقت جنرالا مجريا لتجنيد فرقة مجرية مساعدة تحارب مولاه الشرعى ، وكيف يعمل هو نفسه مولاه على اقرار هذا التواطؤ مع رجال ثورة ١٨٤٨

كذلك يحرض التشك أثناء دخوله بوهيميا على الخيانة العظمى فيوجه اليهم منشورا يخاطبهم فيه بقوله : « الى سكان مملكة بوهيميا المجيدة ! » ويعدهم فى حالة النصر بأن يتيح « أيضا لبوهيميا ومورافيا لحظة تحقيق أمانيهما القومية أسوة بالمجر »

أتيللا

وينضم فى تلك الاثناء معظم امراء الالمان الى جانب النمسا ، وتخرج بروسيا من الاتحاد ، ويمهل بلاغ نهائى أمراء هس الناخبة وناساو وهانوفر وملك سكسونيا أربعا وعشرين ساعة للتفكير . ويدعو بسمارك الى تناول

* اشارة الى صورة البرخت دورر التى تجمع بين الفارس والموت والشيطان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطعام على مائدته صحفيا من باريس كان الى أمس يجهله ، فيباسطه ظهيرة كاملة ويقص عليه ذكرياته عن باريس ، ليدخل فى روعه ارتفاع معنويته . فيبرق هذا الصحفى فى المساء بما داخله الى بلده . وفى ليلة البلاغ النهائى يروح ويغدو مع السفير البريطانى فى حديقة الرياسة ، فيتحدث اليه عن اتيللا ، ويخيل اليه أنه اكتشفه لالمانيا فى هذا المساء . « وأخيرا لقد كان أتيللا مع ذلك رجلا أعظم من جون برايت فى مجلس عمومكم » . هنا تدق الساعة الثانية عشرة فيخرج ساعته ويقول : « فى هذه الساعة تدخل جنودنا هانوفر وهس ، ويجد جد القتال . وقد تخسر بروسيا ، لكن ما من شك فى أنهـا ستقاتل ببسالة فاذا هزمنا فلن أعود بل سأسقط قتيلا فى آخر هجوم . ولا يموت المرء الا مرة . فليمت اذن حين يغلب »

أول رضى للشعب

وبعد أسبوعين يحسم فى الشمال كل شىء ـ واذ تتناهى أنباء النصر يأخذ جانب من الشعب فى التحول الى بسمارك وهو من كاد عند الاعتداء على حياته ألا يتحرك له ، بل وضع الناس الأكاليل فى السر على جثة المثالى . ولو كان بسمارك قضى فى أونتردن لندن لكان هيهات أن يفعل له الشعب ذلك . فلقد كانوا يبيعون صورا هزلية تمثل منتقما فخورا على صورة تل يطلق عليه الرصاص فلا يحول دون قتله سوى الشيطان يلقى بنفسه بينهما صارخا : هذا ملكى ! فالآن بعد ستة أسابيع من ذلك تموج الجماهير امام القصر الملكى ، وتهتف لنفس غليوم الذى اضطر فى ثورة مارس أن يهرب من هذا القصر الى احدى جزر الهافل ، فيشكر الملك للجماهير والى جانبه رون وبسمارك . وحين يعـود الاخير الى بيته راكبا يحاول الشعب ان يحل خيول مركبته ليجرها بنفسه . ثم تحتشد الالوف أمام بيته ويهتف أحدهم حسن النية بهـذه الكلمات : « ليحيا الجنرال الشجاع فى ميدان الديبلوماسية ! » ذلك أن البزة العسكرية يجب ان تلبس كل شىء . وبسمارك فى هذا واقف بالنافذة الى جانب زوجته يخاطب الشعب وقد جاز له ان يقول عندئذ هذه العبارة : « الآن ترون ان الملك كان على حق » . لكنه حين ترعد السماء وتغيب كلماته الاخيرة من الشرفة فى قصف الرعد ، يصيح بالجماهير من تحته : « ان السماء تطلق مدافعها تحية ! » فتجعل مثل هذه الخواطر التى تسرى فى المدينة العالمية ، تجعل الشارع أسرع الى فهم الوزير مما كان ، وتتيح من الادلة على صدقها أكثر مما تتيح كل منشوراته

ان بسمارك لم يطلب قط رضى الشعب . واليوم يجوز له أن يزدرى هذا متعزيا . وهو يطلب أساسا آمن لحسم النزاع فيأمر باجراء انتخابات جديدة ، ويرسل بعد ثلاثة ايام من أول طلقة فى طلب اثنين من قادة اعدائه : تويستن الذى تسبب فى الحكم عليه قبل بضعة أيام لما ألقاه فى المجلس من خطب ، يقصد الى بيت عدوه ، شاعرا يقينا فى عمله هذا بما يشعر به البروسى من فخر الطاعة حين تكون البلاد فى خطر ، وان كان اضطر الى الانتظار ساعات . وكما بحث معه بسمارك الحالة الجديدة بحثها كذلك مع الزعيم الحر اونروه فى ليلة من

ليالى الصيف يروح فى الحديقة ويغدو ، ذلك انه ظل طيلة النهار محاصرا . ويفتقد أونروه فى منشور الدعوة الى الانتخابات جملة عن الرجوع الى الدستور فينبهه اليها فيفصل بسمارك ويقول :

« ان الناس يعتقدون أنى استطيع كل شىء . انى ألاقى مصاعب لا تخطر ببال الكثيرين : ان الملك لا يوافقنى على كل شىء ! لقد فرضنا هذا ، لكن الملك يقول : ههنا نفس مافى الدستور . بيد انى اذا فعلت امكنهم بعد الحرب ان يحذفوا بعض كتائبى . فلن أفعل ! »

من دون فريدريك الاكبر

ليس ما بسوقه هذه المرة على التحقيق حجة من الحجج فان الانفعال والصراحة اللذين يكشف بهما الملك امام هذا الخصم المعادى للملكية ليدلان على مبلغ ما يلقى الآن أيضا فى مقاومة الملكة من شدة وما يبذل من جهد . ويقول الحر : — اننا الآن فى مثل هذا الموقف الذى كنا فيه قبل حرب السنوات السبع ، لكن مع كل الاحترام للملك

بسمارك : « ومن دون فريدريك الاكبر ! اجل ! ومع ذلك يجب ان نخوض غمارها الى النهاية .. انى فخور بأنى حملت ملكا من ملوك بروسيا على مثل هذا المرسوم الداعى الى انعقاد برلمان المانى . بيد ان مثل هذه السياسة لا تنفذ بالخطب وبالنصوص ، بل يفصل فيها نصف مليون من الاسنة .. فالحرب مع المجريين والروتيبيين والسلوفاكيين ليست حربا بين الاخوة ! »

— ان الناس ما تزال تتعجب من رؤية العلم مرفوعا فوق القصر

« لقد استفسرت الملك مرارا متى يأمر بالسفر . وقد رد على آخر مرة مغضبا : هذا أقرره أنا . فأنت ترى انه حتى هذه الاشياء لا استطيع تنفيذها . ان الملك يناهز السبعين ، والملكة تتدخل الى ذلك ! »

— واذا هزمنا ؟

« يتنازل الملك عن العرش »

فكل جواب من هذه الاجوبة التى تخرج وكأنها تنطلق تدل على كل عنفوان السباح بعد قفزته : فهمه الآن هو الوصول الى البر الآخر فاذا استفسره أحد شيئا رد عليه ردا مقتضبا . لقد تخلى عن الملك ثلاث مرات فى نصف ساعة . فغدا صباحا سيقص هذا الديمقراطى على رفاقه ما قاله له ، فهذا ما يعلمه . لكنه يعلم أيضا معنى الهزيمة فى الميدان ومعنى التنزل عن العرش بالنسبة له . فحين يتحدث اليه ولى العهد عن احتمال وقوع كارثة يجيبه بنفس العنفوان : « ماذا يهم اذا شنقت ! واذا كان حبل الجلاد يربط عرشكم ويوثقه بألمانيا الجديدة ! »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عند كونججريتس

وبعد السفر بثلاثة ايام يقف بجانب الملك على تل عنــــد كونجريتس . وهنا معركة تتملك نفس جيل قادم لمصير قائد هو بينيدك المهزوم ، تتملكها قبل كل شيء لان عاهلا ارعن ارتكب معه نذالة لم يعرفها تاريخ الشرف ، شرف الرجال . وقد فصل فى المعركة بالنسبة لبروسيا وصول الفيالق التى حاربت نحت امرة ولى العهد فى الوقت المناسب . ويروى الفنان كويدل : «ان بسمارك وهو يمتطى حوادا ضخما منتصبا فوقه فى معطفه الرمادى ، وتبرق تحت خوذته عيناه الواسعتان كان يشبه احدى الصور العجيبة التى ذكرتنى بتصورات الطفولة للمردة فى العصر النوردى الاول » . لكن هذه الصورة المستسرة تختفى ويخرج عن معطفها رجل يحمل بين جنبيه قلبا آدميا ، فيسمعه الناس بين الجثث المشوهة يقول لكويدل بصوت خافت : « انى حين افكر أن (ابنى) هربرت يرقد يوما هذه الرقدة ، تغثى نفسى »

فى النار

وفى ذلك يقف بين القنابل المنهمرة ، ويطلب عبثا الى الجنرالات ان يبعدوا الملك فيرد عليه رون أن للملك أن يركب حيث يشاء . «لقد كان الجنرالات جميعا يعتقدون فى خرافة هى أنه لا يجوز لهم بوصفهم جنودا ان يحدثوا الملك عن خطر ما ، وقد بعثوا بى اليه وأنا من أحمل ايضا رتبة الماجور .. فبعد ان تدحرجت على مقربة منا كرة مؤلفة من عشرة من الفرسان وخمسة عشر من الجياد والدم ينزف منها » بادر الى مولاه على ظهر جواده يقول له : « اذا اصبتم جلالتكم هنا برصاصة ذهبت كل هذه الغبطة بالنصر سدى! فهلا غادرتم جلالتكم هذا الميدان فى الحال » ! هنا يتحول الملك يسرة على جناح السرعة الى طريق غائرة فلا يلبث بعد بضع ركضات أن تحميه سلسلة من التلال . انه فى السبعين من عمره لم يشهد معركة منذ نيف وخمسين سنة . وقد حدث بسمارك حين أبعده عن الميدان مشاعر متضاربة من ناحية اخى الملك .. ذلك الاخ الجبان ، وربما أيضا من نحو خلفه اذا مات الملك ، وكذلك من نحو الله ، لانه يكتب فيما بعد الى زوجه عن مولاه هذه الجملة الهادئة البديعة فيقول : الجيش الذى امسكنا باحدى نواصيه ؟ »

وحين يرتد العدو يركب بسمارك الى مولتكه ويقول له : « أتعرف طول الجيش الذى أمسكنا باحدى نواصيه ؟ »

— ليس بالضبط . فقد يكون ثلاثة فيالق او لعله جيش العدو بأكمله

بيد انه لما كتب لبروسيا النصر لخص احد الياوران مشكلة بسمارك بأسرها تقريبا فى هذه الكلمات : « ياصاحب السعادة ! انك الآن رجل عظيم . لكنه لو كان ولى العهد تأخر فى المجىء لكنت اليوم اعظم مجرم » ! فلم يتأثر الحساس من هذا الكلام بل قهقه منه عاليا

الفصل العاشر

« ان رجالنا يستحقون التقبيل »

« العالم يتحطم » : بهذا صاح وزير خارجية الفاتيكان عندما وصل الخبر الى رومه فى صباح اليوم التالى . فبروسيا من الآن حليفة للعاهل فيتكورعمانوئيل قاطع الطريق ، منتصرة معـــه على صاحب الجلالة الرســـولية ، مرتكبة واياه خطيئة تستحق الموت . لكنهم فى بروسيا نفسها ينتخبون فى يوم المعركة من دون ان يعرفوا نتيجتها مائة واربعين نائبا محافظا . وفى اليوم التالى يتحدث بسمارك مع ولى العهد عن الصلح : فخطاب العرش سيردد نغمة السلام «وفيما خلا ذلك سننشىء اتحادا من شمال المانيا يكون مرحلة فى سبيل الوحدة » . وكانت الخطة واضحة يستنجد بقوة ولى العهد فى تنفيذها ، وتفعم الحركة كلا الرجلين اللذين قاما معا بعمل رغم ارادتهما . وما فى هذه الساعة من عجيب يقرب احدهما من الآخر ، فبينهما شىء من التصافى الصامت يحمل الامير على ان يقبل دعوة الوزير الى تناول الطعام على مائدته وهو الذى يدعوه هذه الدعوة لاول مرة منذ سنين

وكيف يرى بسمارك الشعب فى الحقيقة وهو من كاد الا يطلع على احواله منذ سنى شينهوزن . ان ما يبدو له منه الآن يتملك حواسه جميعا فكيف يراه ؟ « ان رجالنا يستحقون ان يقبلوا ، فكلهم شجاع لا يهاب الموت ، هادىء ، مطيع ، فاضل ، خلو المعدة ، مبلل الثياب والفراش ، قليل النوم ، ودود مع الجميع لا ينهب ، ولا يحرق ، ويدفع ثمن ما يستطيع دفع ثمنه ، ويأكل خبزا عفنا . لابد ان خشية الله تعمر قلب رجلنا العادى ، والا لما كان هكذا » بهذه الكلمات التى كتبها بسمارك الى زوجه ، عامرة بالصدق والتأمل يتعرف الرجل الطيب الاحوال من جديد وكأنما يتكلم عن فلاحيه ، وهو من يتطلب الطاعة والتفانى ومن لا يستطيع ان يفسر كل ما يدهشه من الفضائل الا بخشية الله ويفسره كذلك بيننا نحن البروسيين فحسب . لقد تأثر قلبه مخلصا ، لكنه فى الواقع لا يميزه من عامة الناس شىء ، فهو لايطلب شيئا لنفسه بتاتا وأول فراش لنومه بعد معركة كونججريتس كان أحسن قليلا من روث البهائم » . كان على بلاط الشارع فى هوريك خلوا من القش ، وكان يستعين فيه على النوم بمقعد مركبه ، ويحيطه فيه جمهرة من الجرحى الى ان أدرك رئيس الوزراء دوق من الدوقات فبيته خيرا من مبيته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسمارك والعسكريون

وعلى النقيض من ذلك تثور أعصابه فى الحال حين يلقى الجنرالات : فصعب عليه أن يأمر هؤلاء الناس ولا ينبس ببنت شفه . وحين يوقظ من نومه ذات ليلة ليبلغ ان الملك يريد ان يركب فى الساعة الرابعة صباحا ليشهد مناوشة يتولاه الغضب فى فراشه . « هذه حمية الجنرالات ، وهى حمية اسيفه ! انهم يمثلون للملك مناوشة بين المؤخرة ليسلبونى راحة الليل التى تعوزنى هذا العوز !» بهذه الافتتاحية الغريبة يبدأ نضاله مع العسكريين . فهو يكتب الى زوجه عقيب النصر يقول : « اذا نحن لم نسرف فى مطالبنا ولم نعتقد اننا فتحنا الدنيا فسنبلغ صلحا يستأهل العناء . لكننا ننتشى سريعا كما نقنط سريعا . وعلى واجب لا يقابل بالشكر هو التلطيف من حمية القوم واقناعهم بأننا لا نعيش وحدنا فى أوربا ، بل مع ثلاث دول أخرى تبغضنا وتحسدنا » !

قف

وبينما يتسمع لاوربا اذا بسيوف العسكريين تقعقع ويزحفون من دون مقدمات على فينا . ويعقد فى تسرناهورا مجلس حربى يحضره متأخرا ، فيحيطه الملك بما هنالك علما ويبلغه ان المدافع الثقيلة تنتظر فى خلال اربعة عشر يوما ، ثم يبدأ الزحف على فينا . فيرتعد بسمارك : اربعة عشر يوما ! انه ماجور فقط ، وشارات كتفيه لا تلمع كثيرا ، وليس عليه من الشرائط الحمراء شىء . وهو الآن يجلس امام الخريطة ، ويطلب امام القواد الذين يستمعون له وعليهم أمارات التهكم ، تجنب اطلاق المدافع على فينا ، والتوجه الى برسبورغ ، وعبور الدانوب هناك فاما وقف العدو بجبهته نحو الشرق موقفا سيئا وأما هرب نحو المجر وترك فينا من دون ضربة سيف . فيطلب الملك الخريطة ويؤيد اقتراح بسمارك . « وشرعوا فى تنفيذ هذا الرأى كما بدا لى فى شىء من المقاومة ، لكنه نفذ .. فالمسألة عندى كانت تتناول علاقتنا المستقبلة مع النمسا ، وكانت تقتضى ان نتجنب الذكريات المثيرة ما امكن .. فدخول الجيش البروسى فينا دخول الظافر خليق كطلب التنازل لنا عن ملك قديم ، ان يجرح عزة أنفس النمسويين . ولم يكن يساورنى شك عندئذ فى اننا سيكون علينا أن نحافظ على ما نحصل عليه فى هذه الحرب فى حروب ابعد .. وأن وقوع حرب مع فرنسا فى اعقاب حربنا مع النمسا من مقتضيات التاريخ »

دولة بيزنطية

فلما عقد بعد ذلك ببضعة أيام مجلس حربى آخر فى برون ليدبر عقد الصلح فى فينا مع ذلك قال بسمارك هادئا وفى حضرة الملك : « اذا تخلى جيش العدو عن فينا وانسحب الى المجر وجب علينا أن نتعقبه . فاذا عبرنا الدانوب مرة بات علينا أن نبقى على الضفة اليمنى معا ، ذلك اننا لا نستطيع الزحف فى هذا المأزق الهائل على ظهور الجياد . فاذا ما بتنا على تلك الضفة فقدنا الاتصال

مع المؤخرة فيكون خير ما نفعله أن نزحف على القسطنطينية ، ونؤسس دولة بيزانطية جديدة ، ونترك بروسيا لحظها »

ان رزانة هذا العقل ــ تلك الرزانة الاريبة ــ يندر أن تتجلى هذا التجلى . فلقد ابتكر وحده هذه الحرب وأرغم عليها ، لكنه ما تكاد معركة واحدة تفصل فى كل شىء حتى يأبى المضى فيها ، وحتى يقطعها ، لانه يرى من بعيد حربا أخرى لا يريدها بل عليه ان يخوض غمارها . ذلك انه الآن بعد المعركة بعشرة أيام ، قد اعتزم ما يفعل : الصلح مع النمسا من دون غنيمة . فزحف الجنرالات على فينا انما هو أمنية قلوبهم . واذا وجد حضرة الماجور طريقا أفضل فانه لايجده لانه الخططى العظيم ولكنه يجده لانه السائس ورجل الدولةلاالخططى . بيد انه يجب ان يختاره بحيث يعجب الملك الجندى ، ومع ذلك فانه لا يعجب هذا الملك فى اليوم التالى لمـا أن يقول له جنرالاته ان هذا الماجور دل على تراخيه . وعندئذ يلجأ السياسى المهجور الى وسيلة جديدة ويسعى الى أن يقوى بالتهكم ما تجنبه باللف واحاطه باللبس فى المجلس الحـــربى السابق

القلم والسيف

ذلك أن الفرنسى يكربه بالفعل فقد عرضوا فى فينا فى مساء كونججريتس على الامبراطور نابليون فنيسيا اذا هو أوقف زحف الايطاليين ، فبدل ان يتدخل الامبراطور مع الدول الاخرى ، يتصرف وحده ، ويعرض الوساطة فى الصلح فى مقر القيادة البوهيمية ، فيتنفس بسمارك الصعداء ! ويرى ان يعجل بالعمل ، والا يطلب من النمسا شيئا ، وان يسوف فى المسألة الالمانية على يد جولتس فى باريس فهو ، كما يقول ، مستعد لان «يقسم لهذا الغالى (الفرنسى) قسما هانيباليا » . وبغتة يظهر بينيديتى ، ويقف الى سرير بسمارك بعد أن يغافل خفر الميدان الاغبياء ويمر : طيفا من الاطياف بلا مراء ! وتبدأ الآن المساومة بابرق مع باريس . ويبدو الخطر قد زال بالفعل اذ كان سعى بسمارك موجها الى الالتفاف حول الدول العظمى . فهل تتدخل دولة عظمى لم يفكر فيها : ملك بروسيا ؟

حقا انه خرج « للدفاع فحسب » لكن هذا العاهل المسالم وقد انتصر وألح عليه الجنرالات « تنفتح » شهيته للاراضى ومع أنه من دون قلم بسمارك ما كان أحد ليجرد السيف ، فان الملك يطلب غاضبا الا يتلف القلم ثانية ماكسب السيف . فهو يطلب من نابليون بوصفه وسيطا : شلزفيج هولشتين ،وزعامة بروسيا فى ألمانيا ، وتعويضات حربية ، وتنازل جميع العواهل المعادين وفى سكسونيا ايضا ، وضم كل هذه البلاد . هذا هو السهم الذى أطلقه غليوم على باريس . ومع ذلك يطلق بسمارك فى أثره سهما آخر من جعبته هو : على السفير ان يتحرى تأثير هذه المطالب فى فونتينبلو ، ذلك « أنى مقتنع بأننا ، اذا وفقت الى تخفيضها الى القدر المعقول الكافى لنا ، سنستطيع الاتفاق مع الامبراطور »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نابليون يتدخل ويصد

ونابليون الذى يضغط عليه وزراؤه « مزعزع ، بل متداع كل التداعى » فما العمل ؟ انه اخطأ ، فيجب المحافظة على النمسا وسكسونيا . ان فرنسا ثائرة ضد انشاء ريخ المانى ، فيجب ولو فى الظاهر فحسب ابقاء الجنوب منعزلا عن الشمال . ويعلن القيصر عن وجوده فى نفس الوقت ويرتئى عقد مؤتمر ، ومعنى ذلك انه ايضا يريد ان يجر مغنما : فالعدوى التى أراد الطبيب الكبير أن يمنع سريانها قد سرت ، وحمى الضم قد تملكت وزارات أوربا . وفى نفس الوقت تتفشى الكوليرا فى الجيش البروسى وقد تفصل فى حرب عظمى تهدد بالوقوع

فالبدار الى الصلح مع النمسا ، ليس غدا بل اليوم ! فلا يجوز أن يتعرض النصر للاخطار من جراء بضعة أميال مربعة وبضعة ملايين « ان كل عرقلة لختام سريع الحصول على منافع ثانوية انما يقع مخالفا لرأيى » . لكنه ها هو ذا بينيدتى مرة اخرى ، فهو يتحدث الآن عن ضفة الرين اليسرى . فبدلا من أن يهب الظافر فى وجهه ، يسحره ، وبدلا من ان يكون حديديا ، يبهره : « انى لا أستطيع فى اللحظة الراهنة ان أفاوضك رسميا ، لكنا نستطيع أن نتحدث عن كل شىء . ان لفرنسا الحق كل الحق فيجب ان نفتش على الوسائل التى تحقق هذه الفكرة . فبروسيا الظافرة لا يمكن ان تعطى شيئا ، لكنه يمكن التفكير فى بفالتس الرين . واسهل ما تصنعه فرنسا هو أن تجعل بلجيكا نصب عينيها » . فيغتبط بينيدتى بهذا الكلام ويشير برقيا على باريس بأن تتساهل ، فتوافق . وفى ٢٧ يولية ١٨٦٦ ينعقد مجلس حربى فى قصر نيكولزبورغ . كل شىء معد : لكن الملك وحده ما يزال يحتاج الى التغلب على معارضته !

اخطر ساعات بسمارك

« لقد كنت بعد انعام النظر مصمما على ان أجعل من قبول الصلح الذى عرضته النمسا مسألة تبحثها الوزارة . كان الموقف عصيبا ، وكان القواد جميعا يكرهون ألا يجرى النصر مجراه . وكان الملك فى تلك الايام أشـــد خضوعا للمؤثرات العسكرية وأكثر استعدادا لها منه لى .. فلم أكن استطيع التنبؤ بما يكنه المستقبل ولا بحكم العالم الذى يتوقف عليه ، كما يمكن ان يكون غيرى . بيد أنى كنت الوحيد الحاضر المكلف قانونا بأن يكون له رأى ، وان يبديه ويدافع عنه .. كنت اعرف انهم يشبهوننى فى هيئة اركان الحرب بكويستنبرج المعسكر ، والتشبيه بمجلس فالنشتاين الحربى لم يكن مما يزهينى »

هذه اخطر ساعات مرت بحياة بسمارك : ليس المجلس الحربى الذى يلى ، بل الايام التى تسبقه ، ووحدته فى قراره ، وشعوره بالتبعة حيال التاريخ . فهو فى هذه الايام يكاد يكون لاول مرة ، بل فى الواقع للمرة الوحيدة مستقلا . وستحرمه كثرة العوامل الفاصلة مثل هذه القدرة على التقرير من جانب واحد بعد أربع سنوات . أما الآن فيقف منفردا . وبينما تنقضى الايام فى المفاوضات — ذلك ان كل شىء يصدر عنه — اذا به يتقلب فى فراشه بالليل مؤرقا لاينام ،

يحسب ما عساه ان يصنع . فاذا خضع للملك وتساهل مع القواد ، امكنه ان يؤمن نفسـه ويحمى ظهره حيال البلاد وحيـال الاجيال القادمة بأن يثبت الواقع فى محضر أو يستقيل ، أما اذا قرر أن ينفذ رأيه بالقـوة فانه لا يكون مسئولا عن هذا الرأى الا امام ملك مطلق وفى لحظة هذا الرأى . ثم هو يعرف انه لن يغفر له موقفه الا اذا جرت الامور مجرى حسنا

نيكولزبورغ

فى هذه الساعات كان بسمارك مريضا ينقص مظهره البزة الزرقاء فى دخوله وقيامه ووقوفه . فهو يجلس مريضا على مقعد يرتدى لباسه المدنى ، عليه أن يستقبل الملك والقواد فى غرفته ، فيجيئونها من انتعاش ركبة الصباح ليحتويهم جوها الابخر . ولا يحجم عن ابداء اقتناعه بكل مايقيم الدليل عليه . لكن الجنرالات جميعا يريدون الزحف ويوافقهم الملك ، ولا يكون من معارض سوى بسمارك . « لم تقو أعصابى على مقاومة التأثيرات التى كانت تتملكنى بالنهار وبالليل ، فنهضت صامتا ، وذهبت الى مخدع نومى المجاور حيث تولتنى نوبة بكاء عنيفة . فى تلك الاثناء سمعت كيف انفض المجلس الحربى الذى كان منعقدا فى الغرفة المجاورة »

ونوبة البكاء هذه تملكته من سبعة عشر عاما مضت فوق المنبر آخر مرة . وآخر ماصاح به فى المجلس اذ ذاك كان : « اذا نجحنا حقا فى تحقيق وحدة الوطن الالمانى .. من الطريق الجديد ، فيكون الوقت قد حان لان أتقدم بالشكر الى منشيء النظام الجديد . اما الآن فلا يسعنى هذا الشكر .. » سبعة عشر عاما ظل النائب فون بسمارك وشنيهوزن يقلب هذه المسألة ويرعاها تارة من قريب وتارة من بعيد ، ويحل عقدها ثم يعقدها ، ويحلها حلا آخر ، لايلتزم فكرة واحدة كأصحاب النظريات ، ولا يهدف الى فكر واحد شأن المثاليين ، بل يعمل دائما فى جهد يداخله الشك ، وبالسخر والتهكم ، والايحاء والمنطق ، على تقويض هذه النمسا التى تتكلم سبع لغات ، وعلى زحزحة حجر العثرة . فاليوم قد تدحرج الحجر وخلا الطريق . فكفى ما أصابت العناصر المخربة ، وكفى مالقيت البغضاء : الآن يجب أن يبدأ البناء

لكن ملكه يعارضه من جديد وقد سبق أن حظر عليه ملك من قبل أن يقمع الثورة التى حشد لها آنئذ فلاحى شينهوزن وكتيبة رمزية فوق هؤلاء كما حشد لها عزيمته . وقد كان صاحب السلطان يومئذ جبانا ثم مجنونا ثم انسانا نخرا . واليوم لاخيه ، مثل سلطته ، وهو ليس مجنونا ولا جبانا، ولكنه مثله لم يرد قتالا ، فما ان يكاد ينقلب فى مصلحته مالم يرد ، حتى يأبى أن يبنى شيئا ، ولايريد سوى الفتح . ويجلس بسمارك قبالته مريضا ، مسنا ، مدنيا ، لايتبين فيه أحد ، لا الملك ولا الجنرالات ، صاحب النظام الجديد الذى يسعهم أن يقدموا اليه الشكر عليه . لكنه لايتملكه حنق ، ولا يهدد بالاستقالة ، بل يخرج صامتا كما فعل اذ ذاك ، مبتعدا عن أنظار خصومه وآذانهم ، ويرتد الى تلك النوبة ، نوبة البكاء التى تملكته قبل سبعة عشر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عاما . فمن يفقه فى هذا القصر مافى هذا المشهد من دراما من الطراز القديم ؟

على أن الوقت لا يتسع هنا للمشاعر . فبينما ينهض الملك وقد تولاه شيء من الاستغراب يتبعه الجنرالات ، اذا بالرجل المتداعى يسمع — وهو ما يزال يشهق وينتحب — يسمع بأذنى الديبلوماسى المرهفتين ما يجرى فى الغرفة المجاورة ويدرك فى الحال معناه ، فيتمالك نفسه ويكتب . يكتب الاسباب التى تؤثر فيه مرة أخرى ، ويلحق بها الرجاء فى الاعفاء اذا لم يرد أحد أن يأخذ برأيه . وحين يذهب فى اليوم التالى الى الملك بهذه الوثيقة يسمع فى الردهة آخر الانباء عن الكوليرا المستفحلة ، ويحسب حساب انتشارها فى المجر فى شهر أغسطس حين يقل الماء وتكثر الفواكه ، فيشعر بما فى الاسباب العسكرية الصحية من تعزيز لاسبابه السياسية . ويبسط للملك مايحتمل من أن تعمد النمسا التى يقسو عليها الى الانضمام الى فرنسا بل الى الروسيا للانتقام من بروسيا ، وكيف أن تخريب النمسا خليق أن يحدث ثغرة ويمهد الطريق لنزعات ثورية جديدة ، ويبدى للملك كذلك ان بروسيا ليست بحاجة الى النمسا الالمانية « فان اندماج النمسا الالمانية فى بروسيا لن يجلب خيرا ، وفينا لن تحكم من برلين بوصفها تابعة لها .. فيجب أن ننتهى سريعا قبل أن تجد فرنسا الوقت للتأثير ديبلوماسيا فى النمسا بعمل جديد »

الغـــاية

ويصرح الملك بأن مثل هذه الشروط لا تكفى ، ويطالب بسيليزيا من النمسا وبقطع أخرى من الارض من الدول الالمانية الاخرى . فينهاه الوزير عن كل هذا ، ويحذره من تقطيع أوصال البلاد ، ومن انتقام رفاق لايعول عليهم . بيد أن الملك رجل عسكرى ولا شيء غير ذلك . وهو يريد فى الحقيقة أن يجرى النصر مجراه ، فاذ يجد أنه محرج وليس لديه مايدفع به أدلة بسمارك ينتفخ صائحا :

« يجب ألا يذهب المذنب الاكبر بلا عقاب ! أما من غرر بهم فيمكن ان يعاملوا معاملة ارحم ! » فيرد بسمارك :

« اننا لانقيم أنفسنا قضاة ، ولكن نزاول سياسة ألمانية . فمنافسة النمسا لنا لاتستحق من العقاب أكثر مما تستحق منافستنا للنمسا . والواجب المفروض علينا هو اقامة الوحدة الالمانية القومية ، أو شق الطريق لها بزعامة ملك بروسيا » . هذا قول لم يقل بسمارك فى حياته أعظم منه فى عدالته التى ترتفع فوق النعرة القومية ، وفيما ينطوى عليه من بصيرة انشائية ، ولن يقول مثله . انه يعرف كما نعرف نحن الذين جئنا بعده معنى اقصاء ثمانية ملايين من الالمان عن دولة لبثوا تابعين لها ألف عام ، فهل يعرف كذلك أنه بهذا يأخذ فى حل تلك النمسا التى سوف يستند اليها فى المستقبل كل الاستناد ليكون آمنا ؟ ان رغبته الحارة هى اذن ان يندمل جرح النمسا فى الحال . فهو لا يريد أرضا ولا مالا ، بل يريد التعامل المعقول بين امم ينتمى بعضها الى

بعض ، ويتنزل عما تجلبه المدافع ، ويغلب الحكمة على القوة . فهنا ، وهنا فقط فى نيكولزبورغ يقترب بسمارك من الفكرة الدولية التى عرفها القرن العشرون

بيد ان الرجل الواقف حياله ما يزال من مواليد القرن الثامن عشر ، لايستطيع ان يفهم هذا ، فهو ينفعل انفعالا « يجعل المضى فى المداولة مستحيلا » لما اتسم به من عنف . « فغادرت الغرفة وأنا أعتقد أن رأيى قد رفض » . ويخطر له أول مايخطر ان يلتحق بالآلاى ضابطا ، ويحارب الى جانب الملك والسيف فى يده حربا يجدها خرقا فيريهم ان الشجاعة لم تكن تنقصه . ويلفى نفسه فى غرفته فى حالة نفسية « يخطر لى فيها أنه لعله خير لى أن ألقى بنفسى من نافذة الطبقة الرابعة الشاهقة . وسمعت الباب يفتح فلم ألتفت ورائى وان كنت فرضت أن الداخل لابد أن يكون ولى العهد الذى مررت بحجرته وأنا سائر فى الدهليز . وشعرت بيده فوق كتفى وهو يقول : « انك تعلم انى كنت مناهضا للحرب وقد عددتها أنت ضرورية فأنت الذى يتحمل تبعتها . فاذا كنت مقتنعا الآن بأن الغرض منها قد تحقق وانه يجب عقد الصلح فى الحال فأنا مستعد لمناصرتك والدفاع عن رأيك عند أبى »

وبعد أن غاب نصف ساعة عاد أدراجه فى نفسيته الهادئة يقول : « لقد كان الامر بينى وبين أبى عسيرا لكنه وافق » . هذا التدخل من ولى العهد لمصلحة خصمه يشرف ولى العهد ، ويدل على ان الملك لايستغنى عن وزيره . ذلك أنه يعقب حانقا على حاشية مذكرة بسمارك بقوله : « انه بعد ان تخلى عنى رئيس وزرائى أمام العدو ، فبت عاجزا عن أن أحل أحدا محله ، قد بحثت المسألة مع ابنى . واذ قد انضم ابنى نفسه الى رأى رئيس الوزراء ، أرى نفسى مرغما مع مزيد الالم على أن أعض فى هذه التفاحة الفجة بعد هذه الانتصارات التى أحرزها الجيش ، وأن أقبل مثل هذا الصلح المزرى »

كما فى الملهاه : شيخ مايزال يرغب فى الرقص ، لكن طبيبه الخاص يمنعه اياه ويهدد بتركه . واذ كان لا يستطيع ان يعوضه لا يبقى له ألا ان يترك ولده يشير عليه : فيقبل مشورته وتكف الموسيقى عن العزف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الحادي عشر

على غرار الانجليز

وفى الصالون بين براغ وبرلين ينشب بعد ثمانية أيام من أزمة نيكولزبورغ خلاف جديد بين الرجلين : فما دام الملك قد حيل بينه وبين الانتقام من عدوه الخارجى فهو يريد أن ينتقم لا محالة من عدوه الداخلى . فكل من كافحهم بسمارك الآن فى اليمين يبادرون الآن الى مقر القيادة العليا مقسمين ان اللحظة مؤاتية لالغاء الدستور او تعديله على الاقل وانتزاع حمة الاحرار القلائل الذين أبقتهم الانتخابات الجديدة . وتحيط وفود المحافظين بالملك ويدفعون به فى هذا الاتجاه أيضا

ويقدر بسمارك : أن من لا يرضى فى المانيا عن ذلك النصر سوف يبتعد عن بروسيا المستبدة ، وتقف الاقاليم الجديدة موقف المعارضة . « لقد خضنا عندئذ حربا بروسية غرضها الفتح ، ويكون عصب السياسة القومية الذى يسند بروسيا قد قطع » . بهذه النظرة البعيدة والقياس البعيد عرف والملك فى طريق العودة من انتصاره فى الميدان ، ان يوضح له ان الآن بالذات هو اوان التنويه بالدستور ، كما هى العادة فى انجلتره ، وانه بعد المسلك المنافى للقانون يجب ان يسأل ممثلو الشعب تضمين هذه الاجراءات

تضمين ؟ تجاور عن هذه الاجراءات : « ايلتمس هذا من ممثلى الشعب بعد مثل هذا النصر ؟ اما يجب أن يعد الملك وزيره رجلا جبانا ؟ ويصرخ الملك : « انى لا أستطيع أن أعترف حقا بأنى كنت مخطئا ! » ويعود الى الاستمساك بالاخلاقيات ولا يفطن الى مافى ذلك من فكاهة . ويأخذ الوزير صابرا فى ان يبرهن له على أن «معنى هذا هو التسليم بأن الحكومة والملك ــ كما هى الظروف ــ احسنا التصرف وان طلب التضمين أن هو الا الرغبة فى هذا التسليم » ، وهذا قلب للحقائق ، لكن الملك يستسيغه . وكل شىء عاجل ، فغدا ينبغى ان تتضمن خطبة العرش جملة بهذا المعنى . « هذا الحديث الذى جرى بين ثلاثة ، مع الملك وولى العهد ، والذى استغرق ثلاث ساعات وأضنانى كثيرا ، لانه كان لابد لى من ان آخذ بالحذر ، قد دار فى صالون القطار . . لم يناصرنى ولى العهد فى هذا الحديث ، وان كان قد قوى ظهرى حيال أبيه بما كان يبديه على الاقل من موافقة تامة فى حركات وجهه وتعبيرها السريع . . واخيرا وافق الملك على هذا أيضا بعد ممانعة »

التضمينات

وهكذا تحولت الميادين : فولى العهد الذى كان ما يزال قبل اربعة أسابيع عدواً لبسمارك ومعارضا للملك ، يتحاشى ، الآن معارضة التضمينات لان أباه يعرفه من الاحرار ، لكنه يحمل عدو الامس بالاشارة على الثبات ، ويبث فيه روح المقاومة ، ويقول الوزير عقيب ذلك فى مجلس اللاندتاج : « نحن نتمنى السلام .. وسننهض معكم بحل المسائل التالية ، فلا أحول بذلك دون تنفيذ ما قرره الدستور » . وبعد هذه الكلمات يسمع بسمارك لاول مرة فى حياته هتاف الاستحسان يدوى شديدا من كل جانب ، ويمضى تترسل افكاره يقول : « ان المسائل التى تضطلع بها السياسة الراهنة لم تحل بعد ، والانتصارات الباهرة التى أحرزها الجيش قد رفعت فحسب من مقدرتنا على التضحية فعلينا ان نخسر اكثر مما خسرنا ... ومن المؤكد انكم لن تجدوا فى أوربادولة تشجع عن حسن نية صوغ هذه الصورة من الحياة الالمانية الجديدة ، ومن ثم أيها السادة تقتضينا المهمة الملقاة على عواتقنا ان تتحد البلاد قاطبة فى الباطن والظاهر . وانى لارجوكم ان توجهوا نظرتكم الى الخارج فحسب وان تضعوا نصب أعينكم ان نقف ظهرا الى ظهر مولين وجوهنا شطر الخارج » . كلمات قوية وافق المجلس بعدها على قانون التضمينات بأغلبية كبيرة . وكانت الموافقة كما يلى حرفيا : « ينزل المجلس عن حقه فى مؤاخذة الحكومة على ما اتخذته منافيا للقانون »

صلاة النجاح الوثنية

كذلك كان بعض زعماء الاحرار ، لاسكر وفينكه ، من الموافقين : وقد توقع بسمارك هذا وسعى الى ان ينشق اعداؤه الاحرار على انفسهم ، فهم يؤلفون من الآن حزب الاحرار الوطنيين . لكن الراديكاليين كانوا كالملك لا يستشعرون ارتياحا ، فقال فالدك : « نحن نتحامى أن ننقض ما جاهدنا فى سبيله » . وقال فيرشوف : « لنتحاش القيام بالطقوس الوثنية ابتهاجا بالانتصار ! » اليست السياسة فى الحق شيئا غير فلسفة تطبق ؟ ان هذا الوزير يسميها فن الممكن . واذ لم يفصل فيها شيء سوى النجاح ، فان الصلاة الوثنية التى تقام للمبادىء هى وحدها التى قدر لها أن تفوز فوق ما فازت . وحقا ان مدافع كونجريتس لم تحل أيضا المسألة القائمة بين القوة والحرية بما يرضى بسمارك ، لكن صلاة النجاح الوثنية يجب ان تبدأ حيث تقدم ذلك الياور الى بسمارك يقول له : « لو ان ولى العهد وصل متأخرا لكنتم الآن اكبر مجرم ! »

وبعد عشر سنوات لا اقل حين باتت هذه المساجلات فى ذمة التاريخ جرؤ بسمارك على ان يعترف لفيرشوف : « انى احترم كل الاحترام ذلك التصميم الذى نافح به المجلس النيابى اذ ذاك عما اعتقد انه حق . انكم آنئذ ما كنتم لتدركوا الى أين تقود هذه السياسة . كذلك أنا لم أكن آمنا . ولو انه وسعنى أن أزعم لكم ذلك لوسعكم اذذاك أن تجيبونى : ان الدستور عندنا أسمى من السياسة الخارجية . لقد كنت يومئذ بعيدا عن أن ألوم احدا ، أو أنى اليوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الاقل كذلك ، وان كنت فى حمية النضال لا أحب أن أكون دائما كذلك »

بورصة الاراضى

كذلك تتحول الريح فى مجلس اللاندتاج الآن : فالمحافظون فى المجلس والبلاط جميعا يهاجمونه ، ويحتمون عليه ان يضم بلادا أكثر مما ضم ، فالصلح لم يوقع بعد . والملك قبل الجميع يريد ان يجمع فى اللحظة الاخيرة من ألمانيا ما فوته الوزير عليه فى النمسا : نفس الملك الذى أعلن من بضع سنوات فى شونبرن الا حق له فى شلزفيج ، والذى استخار الله قبل ثلاثة أشهر فى الدخول فى الحرب فأخاره ، قد استخفته انتصاراته حتى وجه الى رون هذه الكلمات البديعة : « انه ليبهجنى ان أبدأ فى الحال حربا جديدة ! » فالهوة القائمة بين الاقاليم الشرقية والاقاليم الغربية يجب أن تتخطى الآن ! يجب أن نكمل أرضنا بهانوفر وهس الناخبة ، واذ قد ابتلع البراندنبورغيون امارة هوهنتسلرن الصغيرة فعلينا أن نضم جزءا من شمال بلادهم الى بروسيا وأن نعيد انزباخ وبايرويت اللتين كانتا ملك الاجداد الى البيت المالك على كل حال !

ويرفض بسمارك نصف ذلك ولا يأباه على الملك وحده . فان أهل بادن يأتون بورصة الاراضى فى برلين ليثبتوا أن بفاريا الكبرى يمكن ان تعوق الوحدة الالمانية ، فالتوازن بين دول الجنوب ، أى توسيع بادن بقطعة من أرض بفاريا هو وحده الخليق بأن يضمن السلام الابدى . وما أن يغلق مندوب بادن الباب وراءه حتى يدخل مندوب هس ليطلب تعويضا بقطعة من بفاريا عن قطعة تنازلت عنها ، وحين يشكو فيقول انه اذا طالبت بروسيا بهومبورغ فستذرف الاميرة كارل الدمع سخينا ، يصيح به الملكى : « اذا أهمتنا فى برلين دموع الاميرات فسوف لا نحصل على شىء ! »

دفاع وهجوم

وتكون الامور مع دول الجنوب اكثر تيسيرا لبسمارك : فهنا يرى اول حسناء لحريمه ويلاطفها سلفا . انه يريد البفاريين ، « فالمشاعر ومطالب الاسرلاتهمنى ، كذلك أرفض دور نيميسيس* فعلى الملك أن يكلف به وزير معارفه ! » فيطلب من الوزير البفارى أول ما يطلب مالا وأرضا . وحين يبلغ من اذلاله الغاية يقول له : « يمكنكم أن تنالوا الصلح رخيصا ومن دون تنازل »

ـ كيف ؟ وفى أى مقابل ؟

« عقد محالفة هجوم ودفاع فى الحال » . هنا ــ كما يروى بسمارك ــ عانقه البفارى وجعل يعوى . ومثل هذا وفق اليه مع غير بفاريا من دول الجنوب ،

---

* Nemesis كلمة يونانية معناها الشعور بالحق وتطلق فى الاساطير اليونانية على ما يقال له «بنت الليل» وهى الهة التوازن والشعور بالحق التى كانت تؤدب المغرور والمتغطرس

وفى هذه المحادثات والوثائق السرية التى لا يطلع عليها الا بضعة رجال يلقى بسمارك أجره . وهو ان اوصد عليها أدراجه ، يستشعر منها هناءه

ويتحرك السحاب فى الغرب منذرا ، ولا يعلم احد متى ترعد السماء . وحين يعود نابليون فى أغسطس عام ١٨٦٦ فتتملكه الحدة ويكشر فجاءة عن انيابه مطالبا بحدود ١٨١٤ ، يغير بسمارك لهجتــــه كذلك مع بينيــــدتى بغتة : « انكم اذا أصررتم على هذا الطلب نصبح فى حاجة الى كل الوسائل ، فلا ننادى الامة الالمانية عن بكرة أبيها ، بل نعقد صلحنا بأى ثمن ، وندع لنمسا جنوب المانيا كله ، بل نذهب الى حد قبول البندستاج ثانية : وعندئذ نسـير معا الى الرين بثمانمائة ألف رجل ونأخذ الالزاس . ان جيشينا معبئـان ، وجيشكم غير معبأ : ففكروا فى العواقب » ! بهذا يخدع الفرنسى . فالحق أن الميزان كان فى هذه الاسابيع من صيف ١٨٦٦ من الاضــطراب بحيث ان هوهنلوهه كان يعتقد بوصفه رئيسا لوزارة بفاريا أن بسمارك يريد مع ما يريد « ان يعطى نابليون جزءا من بفالتس البفاريه . لكن الملك يعارض فى ذلك ، فاذا لم يرضخ نشبت الحرب بين بروسيا وفرنسا » . فالآن يبدأ الجانب الثالث مسعاه الى التحالف مع بروسيا ليبتلع بلجيكا . وجولتس يناصر ذلك ايضا فهو يفاوض فى برلين فى أوائل سبتمبر طيلة أسبوع ، فيتردد بسمارك . ولعله كان خليقا ان يعقد مثل هذه المحالفة لو لم تساوره الوساوس من ناحيةالاسرة الفرنسية المالكة ولو لم يتوقع لها مصيرا أليما . وعلى كل فانه يريد ان يتلقى مقترحات المحالفة كتابة فهو يرجو بينيدتى أن يقدم اليه مشروع معاهدة تضمن لفرنسا بلجيكا ، وسوف يخرج هذا المشروع من خزانته ذات يوم فى ساعة سيئة

النمسا تخرج من الوطن

وهكذا ظل يصد الفرنسيين حتى عقد صلح براغ ، وأسس حلف شمال ألمانيا . ثم انه لم يكن على النمسا فحسب ان تعترف بضم ثلاث امارات المانية وحل الاتحاد الالمانى بل كان عليها كذلك أن تعترف بالاتحاد شمالى الماين قبل كل شيء وان تقبل « دخول الدول الواقعة جنوبى هذا الخط فى هيئة متحدة يحتفظ بالتفاهم المفصل على ارتباطها القومى بالحلف الالمانى الشمالى وان يكون لها كيان دولى مستقل »

كانت الجملة التى عبر بها السائس المحارب فى نيكولزبرغ عن غايته هى : لا ارض ولا ملايين . وقد كتب فعلا منذ اثنتى عشرة سنة يقول عن النمسا انها « خارج » ، فالآن يجب ان تعترف بذلك امام العالم اجمع

ويريد الملك ان يكافئه بعد الحرب ، فماذا يقدم للوزير الذى رفع مرتبته بالفعل الى كونت أو رتبة الجنرال و ٤٠٠,٠٠٠ ريال . وكما سميت الحرب تعبئة فى خجل ، والتجاوز عن المخالفة تضمينات ، كذلك سمى هذا المـال المهدى « هبه » . ومثل هذه الاشياء مما يوافق بسمارك ، لكنه لا يستطيع أن ينعم بها الآن : فهو على وشك الانهيار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الانهيار

ففى ذلك اليوم من سبتمبر ، يوم دخول الجيش العاصمة بين هتاف الشعب وتهليله، وركوبه هو الى جانب الملك ، يشع من حولهما كل شيء ، وقد لفح وجه الملك ووجوه جنرالاته وصغر فى سيماها العمر : فى هذا اليوم كان بسمارك يمتطى جواده ممتقع اللون ، متألما ، فى درع الفارس « كأنما نهض لتوه من فراش المرض وكان حقيقا الا يبرحه » . ويشعر بالضعف ، ويشكو من الاعياء ويقول : « ان خير ما أصنع أن أستقيل الآن . انى أشعر كما لو كنت أديت لبلادى بعض الخير واريد ان أخلف لى فيها هذا الاثر . فلست اعلم هل استطيع أن أقوم بما هو باق على أن أفعله »

وينصح له كويدل : ـ اذهب فى الشتاء الى الريفييرا لتسترد نشاطك

ويرد عليه بقوله : « يقول النساء فى بوميرانيا حين تحين ساعة الوضع : الآن يجب أن أجوز الخطر . وفى الربيع يكاد ألا يكون لهذا الابتهاج أثر . فاذا لم أتنح الساعة كل التنحى ، ويقوم غيرى بعملى ، فسوف يتحتم على أن أواجه هذه الحالة بنفسى . ولست أعرف أحدا أشير بتولبته . واذن لا مندوحة عن أن أسير الدفة بمجرد ان تهدأ أعصابى . فلاذهب الآن الى شواطىء البحر البلطى تنضاء بضعة أسابيع »

ويسافر بعد دخول الجيش ، لكنه يتداعى فعلا فى بوتبوس فى احد الفنادق، فيضيفه بعض الاصدقاء وتبادر اليه يوحنا فتجده منهوكا حزينا وفى مثل الحالة السيئة التى كان فيهـــا حين هده التهاب الشرايين ، فتكتب : « ان السياسة تثير فيه الكآبة وتسخطه . لكنه حين يجلس هادئا يرعى السماء الزرقاء والمراعى الخضراء ، ويتصفح الكتب المصورة يحتمل حالته » . فهو هنا مستلق دوق كرسى فى بلد غريب يبكى او يسب اذا ذكرت شئونه مجرد ذكر . وبينا الامة تبدأ فى تكريم الرجل الذى فكر فى النصر وانتزعه فتكرم بسمارك ، وبينا الكل يتقدمون ويهنئون ، يجلس بسمارك جريحا فى ميدان عمله يقلب صفحات الكتب المصورة

الفصل الثانى عشر

الدستور

فى عصر يوم من أيام سبتمبر ١٨٦٦ كان بسمارك وقد عاد منتعشا ، يملى على لوثربوخر ، صديق لاسال، الدستور الالمانى الجديد. فهذب بوخر أسلوبه بالليل ليبحثه مجلس التاج فى اليوم التالى ، ويعرض فى اليوم الذى يليه على جميع المفوضين . « وكانت نسخه تصل من المطبعة بمجرد طبعها، فكانت تصل تباعا أثناء الجلسة على الدوام » . وهذا الدستور الذى وضع لاتحاد شمال المانيا والذى عدله الريخستاج الاول ثم عدل بعد ذلك ايضا فى عام ١٨٧١ تعديلا طفيفا ، قد نبث خمسين سنة دستورا المريخ حتى عام ١٩١٨ . وقد أملاه خالقه فى خمس ساعات بعد عشر سنوات من التفكير فيه فجاء مرآة تعكس افكاره فى فن سياسة الدولة ، بل قل تنعكس فيها نفسه . لقد كان دستور بسمارك ، لا يقول عن الالمان اكثر من ان بسمارك كذلك كان المانيا ، أى يفكر تفكيرا فرديا

ومن ثم كان دستورا لتقوية الملكية لا الشعب : كان نصرا لتلك الثورة التى جاءت من فوق ، وسلطها على الشعب اربع سنوات ، ومحا خصومهامدةنصف قرن . ولا يستبعد أن الشعب الالمانى لم يكن يومئـذ قد نضج لحكم نفسه بنفسه ، كما ظل بعدئذ نصف قرن قليل التأثير فى شئونه . لكن المؤكد وحده أن هذا الاقتناع لم يكن هو الذى وجه قرارات بسمارك بل الاحتقار كل الاحتقار للجمهور وزعمائه وكراهيته لديموس *

القياس الشخصى

وهذا النفور وهذا الاحتقار لم يكن يقابلهما فى نفسه ميل أو احترام لسلطة الملك ، ذلك أنه فى الحقيقة لم يكن يثق بالحكمة المتوجة أكثر مما يثق بالحكمة المنتخبة . بيد أن اعتداده بذاته وكراهيته للناس كانا يوجهانه فى كافة شئون الحياة والدولة ضد قرارات الجماعة . واذ لم يستطع أن يشرك معه أحدا ، فقد أراد دائما أن يكون هو المسئول وحده ، واذ كان يجوز له أن يعد نفسه

---

* الشعب بلغة الاغريق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خير رأس فى البلاد ، فقد كان دائما يعتقد أنه وحده خير من يعرفها . فمن هذه المشاعر الانسانية ، من الكبرياء والبغضاء والشجاعة ، نشأت ارادة بسمارك لتحمل المسئولية ومناهضته لقرارات المجموع . وقد تحالفت هذه البواعث فى توجيهه ضد الحكومة البرلمانية ، أحدث اشكال الادارة الحكومية ، والادارة التى تطلبت للدولة الجديدة كافة الرؤوس الحرة . واذ لم يكن يرى سلطة الدولة الا ممثلة فيه وكان يجوز له يومئذ أن يرى ذلك ، فقد جمع هذا الشخص مريد السلطة ومبتغيها كل تبعة فى شخصه وكان غيره خليقا أن يتنصل منها . هذا المعمارى قد رسم القصر كما لو كان سيسكنه الى الابد ، وكذلك لاسال الذى عرض نظمه للخطر بمثل هذه الأقيسة الشخصية

وقد جعل مشروعه البندسرات والريخستاج أحدهما قبالة الآخر كأنهما خصمان : ففى البندسرات أراد أن تجد سيادة الامراء تعبيرا عنها لا نزاع فيه ، يجلس مفوضوهم ، كما كانت الحال فى الاتحاد الالمانى القديم وعلى رأسهم مستشار الاتحاد لا يمثل سوى « ساعى بريد » لوزير الخارجية البروسية . فبسمارك بهذه الخدعة يجعل الامراء الذين أبوا أن يخضعوا لامبراطور فرانكفورت وأن يفقدوا سلطتهم فى ريخ فرانكفورت ، حكاما فى مجموعهم للريخ الجديد ، يخفى بذلك فى الحقيقة تفوق بروسيا . والتشريع والتنفيذ فى البندسرات هما فى الواقع فى يد بروسيا . وبذا أمكن لسفينة الدولة المدرعة أن تمخر عباب البرلمان منيعة ، فخورة ، بعيدة عن الاخطار

التبعات

على أن نداء الزمن كان يعصف بها : فالحزب الجديد أيضا ، حزب أولئك الذين تحولوا الى جانب خصمهم القديم ، لم يطالب فى الاتحاد الجديد بجبهتين ، كما هى الحال فى بروسيا ، بل طالب بوحدة الشعب والحكومة ، بوزراء للريخ مسئولين أمام الريخستاج . وقد كان هذا بالذات بغيضا اليه : « فليس ثم من هو مسئول ، فاذا أساء المرء التصرف صفعته قوة خفية . وفى هذه الجماعية الخفية قوة تشبه محكمة فيم* تجعل المرء تابعا وتفقده استقلاله دائما »

على هذا بدأ بسمارك سيرته البرلمانية التى فرضت عليه ، رجلا مفعما بحب الكفاح ، حكم الى الآن حكما مطلقا ، عالما علم اليقين ما ينتظره من نضال، لكنه يكاد أن يكون خالى الذهن من المشاعر التى سوف يخرج بها من هذا النضال . ذلك أن كل شىء أمكن أن يجرى الى الآن — وقد كاد ألا يجرى — لأن ملكا متواضعا يعرف قدر نفسه ، أسلم قياده لسائس عظيم . فلو جاء ملوك متغطرسون ومعهم مستشارون غير مستقلين ، لفتشت الامة عبثا فى

* محاكم ألمانية سرية قامت فى العصور الوسطى لمكافحة الاجرام والفوضى وكانت مؤلفة من رجال ذوى نفوذ وحيثية ، يعقدون جلساتهم بالليل ملثمين فى أماكن خفية

ظل مثل هذا الدستور عن حقوق تقضى بها على كليهما . وقد قرر بسمارك هذا كله سلفا ، لكنه لم يستطع الا أن يوطد سلطته هو فى حاضره أو يثبت عجز خلفه فى غده : لا الاثنين معا . فلو أنه أحب الدولة أو التاج وحده مثل رون لاختار أمام هذا البديل الذى تقدمه الاقدار كما يختار ملك يفكر فى وريثه ، لكنه وهو موظف يمكن أن يقال فى كل لحظة ، كان لا بد أن ينقذ سلطته التى أحس أنها خيرما يطوى فيه الدولة من هوى الاحزاب ، وكان يجوز به ألا يحسب لتقلبات الملك على الرغم من كل معارضاته ، الحساب الذى يحسبه لمجلس الريخستاج

الشعب شريك فى التبعة

حقا انهم يحاولون مناهضته ، فلكى يتخذ الدستور مظهر السلطة العصرية للدولة أنفذوا الصيغة التالية : « تصدر لوائح رياسة الاتحاد وأوامرها باسم الاتحاد وتحتاج لتكون نافذة المفعول الى توقيع مستشار الاتحاد الذى يتولى بذلك المسئولية » . أمام من ؟ أمام الريخستاج ؟ أمام مجلس الاتحاد ؟ أمام الملك ؟ أم أمام محكمة الدولة؟ وقد رفض الريخستاج كل طلب قدم لاستيضاح هذه المسألة ، وضحك بسمارك . ولكى يرأب هذا الصدع الذى قد يحول بينه وبين أن يكون مستشارا للاتحاد قرر فورا أن يعين نفسه بدلا من سافينى الذى كان ، كساعى بريد ومستشار ، أطيب مما ينبغى ـ عين نفسه مستشارا للاتحاد جامعا فى شخصه الى هذا المنصب منصب رياسة الوزارة البروسية : وكان هذا هو المخرج الذى حول به لعبة خصومه الى مغنم له ، ذلك أنه من الآن فصاعدا تصدر جميع وظائف الريخ عن مستشار الاتحاد ، ويصبح الجميع موظفيه

فهو الآن المسئول وحده . أمام من؟ لايجرؤ أحد أن يقول . أمام الله فى الراجح . انه يقف الآن هدفا بلا مراء لكل مزاحمة يتعرض لها فى الريخستاج من الآن الى ثلاث وعشرين سنة . لكنه لماذا قبل الريخستاج ما عرض عليه الوزير ؟ فلو شاء المجلس لرفض المشروع كله . فلقد كانت فى المجلس كثرة متحدة فيما يتصل بمكافأتها البرلمانية ، أما فيما يتعلق بالمراقبة ، بالمساهمة فى الحكم ، بالتفويض فى الدولة ـ فيما يتعلق بهذا كله ، فلم يكن ثم سوى ٥٣ صوتا . اللهم الا حزب الشعب الذى يشبه جمعية العمال الالمان ، اذ يقول فى برنامج واضح : « اتحاد ألمانيا على صورة دولة ديمقراطية ، عدم توارث السلطة المركزية ، لا تتزعم بروسيا ألمانيا صغرى ، ولا تتزعم النمسا ألمانيا كبرى »

واذ كان هذا الدستور لم يفرض من عل كالدستور البروسى بل اختاره ممثلو الشعب فان الشعب أيضا هو الذى يتحمل التبعة التاريخية عن كل النتائج التى تسوقها الاقدار . ولقد انتخب الريخستاج وفاق قانون انتخاب عام يسوى بين الجميع ويجرى الاقتراع سرا ، وان كان بسمارك قد قاوم هذا باشارته العجيبة التى قال فيها انالاقتراع السرى ينافى خلق الشعب ـ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك الخلق الجرمانى الصريح . وقد كان لاسال أول من أثر فى بسمارك بقانون الانتخاب ، لكن لاسال بات فى عداد الاموات ، وكانت المباراة التى دخلها كلاهما صامتا ، قد خسرها لاسال مقدما ، لأن آمال بسمارك كانت معقودة بالبروسيين الملكيين . وقد رأى الديمقراطيون هذه الآمال تتحقق فلم يسعهم العدول عن قانون الانتخاب الذى طال طلبهم اياه دون أن يتعرضوا للسخرية . بيد أن بسمارك قال : « اذا لم يثبت نفع قانون الانتخاب العام وجب علينا الغاؤه » . وقد استبعد على كل حال مكافأة النواب البرلمانية ، مناهضا رأى الاغلبية ، وذلك ليحابى فى الريخستاج ذوى الاملاك ، وأحس الاحتقار فى نفسه لأغلبية أعدائه الاحرار وهم ينضمون اليه لا لشىء سوى أن جيوش رون ومولتكه قد حققت سياسته ، ولم يرفض دستوره الا تسعة عشر من أحرار الفكر بوصفه دستورا ناقصا يقيد حقوق الشعب ويعرضها للخطر . ومع هؤلاء الاشتراكى الديمقراطى الوحيد الذى مثل أفكار لاسال فى هذا المجلس . وقد وهنت دولة الحق وحق الشعب منذ انتصر الدم والحديد ، وضعف نفوذ القدامى من أمثال جيرلاخ منذ تحققت الوحدة الالمانية دون النمسا

قوة بروسيا

وكان أقوى حزب هو الحزب الجديد الذى أثبت باسمه المزدوج « الاحرار الوطنيين » اتفاق عالمين . وبرز لاسكر وتويستن وفوركنبك وأونروه من اللاندتاج البروسى ، وبنجسن من هانوفر ، وجلبت الصناعة الثقيلة وأحواض السفن أموالها ، وجلب العلماء تركيباتهم ، وعد بسمارك الاصوات ، وتساهل فى بعض الشكليات وسره أن يجد فى مجلس البندسرات الذى خلقه ، روح الريخ الجديد قوية فوق كل قوة ، ذلك أنه يتولى فيه رياسة ذات سلطة لم يبلغ مثلها هابسبورغ قط فى ألمانيا مع أنه لا يملك سوى ١٧ من ٤٣ صوتا . وكتب الى رون يقول : « ان الشكل الذى يزاول به ملك بروسيا سيادته فى ألمانيا لم يكن له فى نظرى أهمية خاصة قط ، أما حقيقة مباشرة الملك لهذه السيادة فقد وهبت لتحقيقها كل ما حبانى به الله من نشاط »

ذكريات لا تريح

كان الملك والمستشار والجيش ما أراد بسمارك أن يرى ثالوثه قويا ، فبدأ النضال فى الريخستاج الجديد حيث انتهى بالضبط فى اللاندتاج القديم : بدأ عند الحق فى حبس المال عن الجيش . وليس شك فى أن النزاع احتدم الآن من حول هذا الحق فى مجلس اللاندتاج أيضا : « أبعد أن أنفقت خمس سنوات أكافح كفاحا عسيرا فى سبيل بلوغ ما هو معروض الآن ، أبعد أن ضحيت فى سبيل ذلك بزهرة العمر وموفور الصحة يظهر بهذا المظهر سادة لا يعلمون من كل هذا الجهاد الا قليلا .. مظهر لا يسعنى معه الا أن أوصى بأن يقرأ هؤلاء السادة فى أحد المشاهد الاولى من رواية هنرى الرابع ما وقع فى نفس

هنرى برسى حين جاءه رجل البلاط يطالب ببعض الاسرى ويحاضره ، وهو الجريح الذى أضناه القتال ، محاضرة طويلة عن الاسلحة النارية والجراح الباطنة » . وحين يطالب النواب عندئذ لمجلس الريخستاج بحق الفصل فى الميزانية ، ميزانية الجيش ، يصيح بسمارك من فوق المنبر فى نبرة مؤثرة : « ماذا يكون جوابكم لعاجز من عجزة معركة كونججريتس حين يسأل عن نتيجة ما بذل من جهد جبار ؟ ستقولون له : حقا انه لم يتم شىء فى الوحدة الالمانية ، وسيكون ذلك حين تسنح الفرصة .. لكنا قد أنقذنا لمجلس النواب حق تقرير الميزانية ، حق التعرض كل عام لكيان الجيش البروسى .. وفى سبيل ذلك صارعنا امبراطور النمسا حول أسوار برسبورغ ! »

فاذا رجعنا فى الماضى ستة عشر عاما ألفينا فوق نفس المنبر النائب فون بسمارك ــ شينهوزن يناهض الحرب مع النمسا ، على حين يطلبها جميع الاحرار من الوزيرين رادوفتس ومانتويفل لمحو ما لحق البلاد من عار أولمتس ــ ألفيناه يصيح : « أتؤتون الشجاعة بعد حرب كهذه .. فتتقدمون من العاجز الذى شوهته الحرب ومن الاب الذى فقد الابن فتقولون لهما : حقا لقد عانيتما كثيرا لكنكما خليقان أن تسرا معنا أنا أنقذنا دستور الاتحاد ! » أليس فى القاعة اليوم أحد ممن سمعوه فى ذلك الحين فيذكر الوزير بتلك الكلمة ويجيبه : بالضبط ما أراده رادوفتش ، الاتحاد الالمانى بزعامة بروسيا واستبعاد النمسا ، لقد بعث بعد ستة عشر عاما من جديد ، فما على بسمارك الذى لم يكن اذذاك كونتا ولا موظف دولة ، والذى تجنى يومئذ فسخر من « صوت الخطيب المثقل بالهتاف ، ومن تعبيراته المستسرة وأقواله الباهرة المزوقة » ، ما على بسمارك هذا الا أن يعيد الآن خطبةرادوفتش فحسب : ذلك أن تلك الحرب التى حال دونها ، والحرب التى خاضها ، كلتيهما ، لم يكن لهما غرض سوى الدستور الالمانى الجديد ، ولم تكن حرب بسمارك لتدخل على قلب عاجز كونججريتس من العزاء أكثر من الحرب الذى أرادها رادوفتش

معارضة جنوب ألمانيا

ذلك أنه ، حتى الآن ، لم تتحقق الوحدة الالمانية . حقا ان ديمقراطيى جنوب ألمانيا كانوا يسعون الى ذلك ، لكن امراءهم كانوا سواسية فى عداوتهم للريخ ، فلم يكن بينهم من يبدو مواليا سوى أمير بادن صهر الملك غليوم . وحين يدعو بسمارك ألمان الجنوب الى برلمان جمركى مشترك يمانع جميعهم فى ذلك الذى يراد فرضه عليهم ، فهذا البرلمان « هو أول درجة تؤدى الى الريخ الالمانى » . وحين يقتضى الامر وزير بفاريا المفوض أن يهتف للبروسى مزاحم ملكه « يصعب ذلك عليه جدا ، لكنه لم يكن منه مناص » . والامير كلودفيج ــ هوهنلوهه الذى يثبت هذا وكان يومئذ يقود بفاريا ، مناهض لانضمام بفاريا الى الاتحاد يشاركه البلاط والمجتمع فى ذلك .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وليست مناهضته لأنه كاثوليكى فحسب . فهم من أجل موقف بيت فيتلزباخ ـ ذلك الموقف التاريخى ، لا يريدون سوى اتحاد للدول الالمانية ، يؤثرون فيه الانضمام الى النمسا على الانضمام الى بروسيا . وقد أثبت هوهنلوهه بعد كونجريتس وسجل فى حالة وقوع حرب بين بروسيا وفرنسا « أننا (بفاريا) سننضم الى النمسا وفرنسا » . وفى فيرتمبرج كانوا فى أوائل عام ١٨٧٠ ما يزالون يؤثرون أن يكونوا فرنسيين على أن يكونوا بروسيين . لكنهم لبواعث عكسية أحبوا تحوير الجيش هناك الى ميلشيا على مثال سويسره « حتى لا يسيئوا استخدامه أداة لقتل الشعوب » بينما كانت الملكة فى نفس الوقت وهى روسية الاصل تتبع سياسة معادية لبروسيا . وكان غراندوق هس خير من أفصح عن قلبه الالمانى حين نصح مع وزيره دالفيك فى خريف ١٨٦٨ لحاكم ستراسبورغ ، شخصيا ، بأنه ينبغى أن تضرب فرنسا ضربتها عارضا فى نفس الوقت ذلك الجانب الواقع يسارى الرين من هس اذا أراد نابليون أن يعوضه منه على حساب بادن

القطيع

وقد انتظر بسمارك هادئا يستمهل الزمن والدول والناس أن يأتوا اليه فى حينه . وقد قال لوزير فيرتمبرج فى ربيع سنة ١٨٧٠ : « ان الاتحاد مع الجنوب لا يقوينا من الناحية الاستراتيجية ، كذلك لا حاجة بنا من الناحية السياسية الى الاندماج : اننا لا نعلم من هم ألد أعداء بروسيا ، هل هم أصحاب الموقف الخاص بينكم ، أم الديمقراطيون فيكم . والسياسى الصميم يطلب الضرورى أولا ثم ما يرغب فيه .. واذا كنت أريد أن أنصب شركا لغزلان فانى لا أطلق النار على أول قادم منها فأنفرها ، بل أنتظر حتى يتناول القطيع كله الطعم »

الفصل الثالث عشر

ضد الحرب

كانت نظرة بسمارك موجهة منذ عشرة أعوام ثم منذ عشرة أشهر الى فرنسا : فهنا الدولة الوحيدة التي يمكن أن تحبط غرضه . وقد كان مطمح الديبلوماسي أن يوحد ألمانيا دون أن يحارب فرنسا ، ذلك أنه لم يكن يفخر بشيء فخره بالفن الذي مكنه من منع فرنسا من التدخل في الحربين الاخيرتين . ولا شك أن الحرب كانت تبدو لطبيعته العنيفة « حالة من حالات الانسان الطبيعية » لكنه وهو الذي لم تدفعه كراهيته للشعب الى الاستعانة بالاشراف في الحكم ، كذلك لم يحمله حبه للصيد الخطر والغابات الموحشة وشغفه بالمبارزات والمناورات على نشدان الحرب على اعتبار أنها مدربة للأمة ، وليس في عشرات ألوف الجمل المجموعة التي كتبها أو نطق بها جملة واحدة فيها إطراء للحرب بوصفها حماما فولاذيا للشباب . وهو في رسائل الحرب لم يتحدث قط عن العصر العظيم بل عن العصر العصيب . ومنذ شهد الحرب بعينيه في بوهيميا ورأى أولاده تكبر بات عدوا للحرب ، فكان يؤكد على الدوام حيال خلصائه وحيال من أراد تهدئتهم من الاجانب على السواء أن منظر ميادين القتال وأبشع من ذلك منظر المستشفيات قد حمله على مضاعفة الحذر والاحتياط

زد على ذلك وعيه الحاسم لمهنته ، فانه كان كلما انتشر اسمه في أوربا وذاع صيته في سمائها ، انداح تشككه دوائر تتزايد اتساعا ، وقلت أهمية فن القيادة الحربية في نظره . فلقد قال عقب الشهور الاولى التي تلت توليه الوزارة ــ بصفة عامة : « ان الناس ما يزالون أشد غباوة مما حسبتهم » . لكنه لما لم يكن يعرف الخوف قط ، وكان في هذه النقطة ذا مشابه من سيجفريد ، بل لعله أقرب الى الشبه بهاجن ، فقد جعل الحرب أيضا من بين عقاقير صيدليته دون فزع ، وقرر أن يلجأ الى هذا السم الاشد فتكا اذا لم ينفع شيء غيره . ذلك أن جمع هذا الرجل للذهن والشجاعة بمقدار واحد هو بالذات ما يكاد يجعله فريدا بين الالمان

نهم نابليون للأراضي

واذ كان الى هذا لا تهمه الفتوحات في فرنسا بأية حال ، فانه يهمه أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يهزم فرنسا فى الميدان الديبلوماسى أكثر مما يهمه أن يهزمها مولتكه بالسلاح. وفى الحق لقد مرت به فترات بعد فترات كان يعد الحرب فيها مما يتجنب ، فقد قال فى اللاندتاج سنة ١٨٦٦ فى عرض له : « اننا لا نجنى شيئا من وراء الحرب مع فرنسا ولو خرجنا منها ظافرين . فلقد تبين الامبراطور نابليون على نقيض غيره ممن حكموا فرنسا ـ تبين بحكمته أن السلام والثقة فى مصلحة الأمتين وأنهما غير مكلفتين بطبيعتهما بمحاربة احداهما الاخرى بل هما أخلق بأن يسيرا معا فى طريق التقدم جارتين متصافيتين . ولا يمكن أن يكون مما ترغب فيه فرنسا أن تنشأ فى ألمانيا قوة متفوقة متحدة بزعامة النمسا . ودولة قوامها ٧٥ مليونا ، وقيام النمسا على ضفاف الرين ، بل أيضا وصول فرنسا الى هذه الضفاف لن يتيح توازنا .. ففى ألمانيا المنفصلة عن النمسا وحدها تكون نقط الاحتكاك التى يمكن أن تفضى الى العلاقات العدائية ، أقل .. وأعتقد أن فرنسا فى غيرتها على مصالحها لا يمكن أن تسلم لا باختفاء الدولة البروسية ولا باختفاء الدولة النمسوية » . لقد قال من عشر سنوات مضت لنابليون فى روض فونتينبلو : « انكم عندئذ تلطخون بالطين »

وقد لبث خمس سنوات يصده ببلجيكا ، فلما شعر بقوته أشار عليه بلوكسمبرج بوصفها بلجيكا من الدرجة الثالثة ، ذلك أن شراهة الفرنسيين القلقين من نمو بروسيا ، ونهمهم للاراضى لا يعدو فى الحقيقة أميالا مربعة ، فسيان عندهم نيس أو بروكسل أو ترير أو لانداو أو لوكسمبورغ . ولايدل على طبيعة مطالب نابليون التى ترمى الى حفظ هيبته شىء كتساوى الاختيار عنده ، فهو لا ينشد الالزم فى تصميم بل يسعى فى تردد الى اقتناص شىء يرغب فيه . وقد كان بسمارك سخيا فى عرض بلجيكا . فالآن وقد انحل الاتحاد الالمانى يصح أن يسخو بلوكسمبورغ فيسلم فى الحال بسقوط حق بروسيا فى احتلال ذلك البلد . وقد كان خليقا أن تتاح فى رأيه أرخص ترضية وأهونها لفرنسا لو أن ملك هولنده الذى كان منذ ثلاثين سنة سيدا لتلك الارض الصغيرة بمقتضى صفقات تقوم على الوراثة والتبادل ـ باعها لنابليون بناء على طلبه ببضعة ملايين من الفرنكات : وقد رغب الى بينيدتى أن يوقع مثل هذا الاتفاق على عجل ثم يبلغ اياه ليكون منه أمام الريخستاج أمر واقع فحسب

المساومة على لوكسمبورغ

لكنه ما ان ترد الانباء الاولى حتى ترتفع فى ألمانيا ضجة كتلك التى ارتفعت فى حينها حول شلزفيج ـ هولشتين : « لا يجوز أن يعطى عدونا الوراثى أرضا كانت فى الاصل ألمانية ! » وتريد هيئة أركان الحرب الحرب أيضا لأن فرنسا يجب أن يصفى معها الحساب ، فيحول بسمارك دون الحرب ، وينذر الخصوم بنشر المعاهدآت التى عقدها مع دول الجنوب الالمانية للدفاع والهجوم ، ويستغل فى نفس الوقت خوف ملك هولنده الذى لا يقول له

بسمارك أبدا ما يريد ، ولا يدع أيضا جنرالا مجريا حاضر البديهة يباغته اذ يتناول معه الحديث فجاءة عن الحرب مع فرنسا . « فما أزال الى اليوم أتمثل نظرته تبرق وعينه تشع لما أن رأى انى حزرت أفكاره . ومع ذلك فقد عرف كيف يسيطر على نفسه بصورة لم يسعنى الا أن أعجب بها ، وقال بلهجة مطمئنة : انى لا أرغب فى محاربة فرنسا بحال » . وبعدئذ يرغب الى المجرى فى أن يرجو نابليون استدعاء بينيدتى : « هذا الى أن جلالته يعرف أفكارى عن بلجيكا من مشروع المعاهدة التى تباحثت وبينيدتى فيه . أما ما يتعلق بلوكسمبورغ فلن أسأل حتى عما اذا كانت أغلبية سكانها تريد فرنسا بل أقول خذوها ! » وحين يروى الجنرال هذا فى قصر التويلرى يقول الامبراطور : « انى أدرك أن بينيدتى يضايقه ، فقد وعدنا بأكثر مما ينبغى . هذا الى أن بسمارك يعرض علينا دائما ما لا يملكه »

نغمات الضمير

ان بسمارك يريد أن يتجنب الحرب ، فهو يبسط الامر لأحد النواب بقوله : « لا يمكن أن أعد الحرب أمرا لا بد منه ولا مفر اطلاقا ، ذلك أنى لا أرى لفرنسا ولا لنا أية مصلحة جدية فيها تتطلب أن يفصل فيها بالسلاح. ولا يجوز أن ندخل حربا الا اذا مس شرف البلاد ــ ولا نخلط هنا بين الشرف وبين ما يسمى الهيبة ــ والا فى سبيل المصالح البالغة الاهمية . وليس لسائس حق فى دخول الحرب لمجرد أنه يعد الحرب وفق تقديره الشخصى ولأجل مسمى شيئا لا مفر منه . ولو أن وزراء الخارجية فى كل العصور تبعوا ملوكهم أو قوادهم فى الحروب ولازموهم لكان ما سجله التاريخ من الحروب أقل مما وقع بالفعل . فلقد شهدت فى ميدان القتال وفيما هو أفظع من ذلك ، فى المستشفيات ، شباب الامة يموتون ، وأشهد الآن من هذه النوافذ غير واحد من العجزة يجتاز شارع ولهلمشتراسه فيرفع بصره اليها ويفكر : « لو لم يكن هذا الرجل المقيم هناك ، ولو لم يثر الحرب المنكودة لكنت الآن معافى صحيح البدن أعيش مع أمى . وهكذا لن يرتاح بالى لحظة اذا كان لا بد أن أعود على نفسى باللائمة بأنى تصرفت عن البلاد تصرفا أملاه النزق أو الطموح أو طلب المجد »

ان المرء ليطلع هنا على قلب بشرى يجلس صاحبه الى مكتب يتحدث حديثا يفضى به الى خليصه كويدل ، ويذكر حقائق يشعر بها أكثر مما يشعر بموقفه المدبر حين يخطب من فوق المنبر ــ فلا يطلع فى هذا القلب على أيمان بالله أو اخلاص للملك ، ولكن يجد حساب لاعب بالشطرنج يقلق هذا القلب ، ويهيمن عليه ، فيعتقد انه فى أعالى مرصد موحش أمام سايسموجراف يسجل عقربه الامين الدقيق اهتزازات بطن الارض

على أنه قد كان يحدو ملك هولنده خوف من ثوران هذا البركان ففاتح بسمارك فيما عرضه عليه نابليون ، وازداد الهياج فى البلاد ، ولغط العالم أجمع بالتنازل الذى كان منتظرا قريبا . ويدخل بينيدتى على بسمارك قبل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظهر أول ابريل فيهنئه بعيد ميلاده ويريد أن يبلغه شيئا هاما ، فيقاطعه بسمارك بقوله :

« ليس عندى الآن وقت لأعمال مصلحية، فعلى ان اذهب الى الريخستاج لأرد على الاستجواب الخاص بلوكسمبورغ . فرافقنى لأنى أريد أن أحيطك علما بفحوى ردى . ولا يجوز لى أن أعلم بانتهاء المفاوضات لأن معناه قطع العلاقات مع فرنسا ، واذا علمت رسميا ببيع ذلك البلد وجب ان اعلن ذلك فى الريخستاج . هذا موقفنا . والآن يجب أن أدخل ، واذن يا صاحب السعادة : اعندك برقية تسلمها الى ؟ » ويبتسم العرافون

خطبة حكيمة

وفى داخل المجلس يشتهر بيننجسن دفعة واحدة بخطبة وطنية رنانة اتفق سلفا مع بسمارك على لهجتها لتطلع فرنسا منها على مبلغ جيشان الحركة القومية . ويختم بيننجسن خطبته بقوله : « هل الحكومة البروسية مصممة كما هى رغبة الريخستاج بالاجماع ، على ان تؤمن من الخطر بالاتفاق مع أعضاء الاتحاد ، صلة غراندوقية لوكسمبورغ بسائر ألمانيا وتصون على الاخص حق بروسيا فى احتلال القلعة ؟ » سؤال خطابى تلته مظاهرة هائلة من كافة الاحزاب . وهنا ينهض بسمارك ليلقى خطبة من أحكم خطبه . فاليوم يسعه أن يصبح شعبيا ، فليس اسهل عليه من ذلك . انه بحاجة فحسب الى ان يضرب على نغمة الشرف القومى فيلتف الجميع من حوله : وهذا معناه الحرب لكنه يجرؤ إن يقوم امام المجلس الهائج بدور الحذر بدل الرجل الحديدى :

« اننى حرصا منى على احساس الامة الفرنسية ومراعاة للعلاقات السلمية الودية القائمة بين الحكومة البروسية وشعب قوى ند .. أترك السؤال الموجه الى حكومة حضرة صاحب الجلالة الملكية بلا جواب » . صمت ودهشة « انه ليس لدى حكومة جلالة الملك ما يحملها على أن تفترض أن مستقبل ذلك البلد تقرر بالفعل . وهى بطبيعة الحال لاتستطيع أن تجزم على العكس من ذلك ، هل اذا لم يكن تقرر هذا المستقبل ، يكون بسبيل هذا التقرير »

فحين تتصل هذه الكلمات بملك هولنده فى المساء يأبى التوقيع الذى كان رضيه من قبل ، ويتراجع نابليون المريض مذعورا ، وتقوم بلاطات اوربا على قدم وساق ، وتختلط كتب الشفره وشمع الاختام وخطط الزحف بعضها ببعض ، ويشيع الاضطراب الى أن يرتئى القيصر ، كما هو شأنه دائما ، عقد مؤتمر ، ويعلن فى لندن على أثره حياد البلد الصغير ودك حصنه . وتحاول برلين وباريس عبثا أن تستخلص من ذلك كل منهما أن الاخرى تراجعت ، وتسوء العلاقات بين الدولتين وتتخلف ضغائن قدر لها أن تنفجر فى ثلاث سنوات

تفاقم

ويصبح نابليون الآن فقط عدو بسمارك اللدود : اذ يشعر للمرة الثانية بأنه خدع ، وقد خدع فعلا ، وينشط الى مفاوضة فلورنسا وفينا ، ويتعاطف بعضهم على بعض كراهية منهم لبروسيا ، ويتزايد انفعال الساسة وتسلح هيئات أركان الحرب فى أوربا من سنة ١٨٦٧ الى سنة ١٨٧٠ كما حدث قبل الحرب العالمية . وبعد انتهاء النزاع الاخير يتطاير عبر الحدود من باريس شرر البغض المفتعل ، ذلك أن الامة الفرنسية كأمة ، لم تكن أقل تعلقا بأهداب السلام من الامة الالمانية . ويفك بسمارك الآن فقط عقال صحافته فعليها أن « تكون اوقح فى الحملة مما كانت ، وأن تتوعد وتبدى العدوان .. يجب علينا والمسدس فى جيبنا وأصبعنا على الزناد ، الا نحول انظارنا عن يدى جارنا المريب ، ويجب أن يعلم هذا الجار اننا سنطلق النار فى الحال وباحكام مميت من دون تهيب اذا هو بصق عبر الحدود »

وهذه الحدة حيال فرنسا لم يكن لبسمارك عهد بها . فقد كان العهد من قبل أن يستخدمها مع النمسا ، فاذا اطلع المرء على هذه التعليمات التى أصدرها الى وكيل وزارته يذيلها فى الختام بكلمة صديقكم الوسنان أمكنه أن يفهم هذه الحدة التى بدت من بسمارك بعد أن شبع نوما

انه منذ هذه المساومة على لوكسمبورغ وهو يتوقع الحرب ، وقد تنبأ لاحد زائريه فى سنة ١٨٦٨ بأن مركز نابليون المزعزع سيؤدى الى الحرب فى سنتين . لكنه فى نفس الوقت يكاشف آخر بالباعث الاساسى الذى يجعله يتمنى هذه الحرب وهو مضطر فيقول : « ان اتحاد أغلبية الالمان فى نطاق أوسع لايتم الا بالقوة ، أو لايتم الا اذا أثار الالمان خطر مشترك » . ثم يعود فيتحول فى نفسه هذا الباعث : فهو فى حديث خاص مع صديقه كيزرلنج يصف الاثر الفظيع الذى خلفته الحرب الاخيرة فى نفسه ثم يلخص وكأنه يتنبأ : « واذا انتصرت بروسيا على فرنسا ايضا ماذا تكون نتيجة ذلك فى النهاية . اننا لو اخذنا الالزاس ايضا لوجب ان نحافظ عليها وان تظل جنودنا محتلة قلاعها ، وهذا محال . فقد يجد الفرنسيون اخيرا حلفاء مرة أخرى وعندئذ يمكن أن تسوء الحال ! »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الرابع عشر

ينذر بالالزاس

« اذا هددت بالاستقالة جعل الشيخ يبكى وينتحب ويقول : الآن أيضا تريد ان تهجرنى ! فماذا افعل ؟ » بهذا يصف بسمارك موقفه من الملك لكارل شورتز الذى لايمت اليه بأية صلة ، وذلك بلاشك ليذيع فى أمريكا أن الملك لايستغنى عن بسمارك مهدرا بذلك هيبة الملك. وكذلك يقول لوزير سكسونيا كيما يذيع قوله فى بلاده : « ان شعور مولاى بالواجب فى المسائل الهامة بحاجة الى تمرين ، وذلك ان اباه لم يتح التمرين الحق الا لابنه الاكبر وهذا ما يجعل الملك فى أهم الشئون عاجزا عن التصرف والاستغناء عن مشورة الغير ، وما يحمله على تلقى هذه المشورة من مختلف الجهات » . وفى نفس الوقت يكتب بيننجسن الذى اختلط به اذ ذاك كثيرا - يكتب سرا فيقول ان بسمارك يحتقر كل الوزراء فيما خلا رون وانه والملك ينفر احدهما من الآخر أكثر مما يميل اليه ، أما صلته بولى العهد فتنطوى على الفتور التام »

معاملته للملك

ويظهر أن كلمة النفور ليست بالكلمة الصائبة ، فقد اعتاد بسمارك الملك وعوده على نفسه ، وهو الاصعب ، وكان الملك عنده بمثابة القوة الوحيدة التى لم يجد بدا من احتمالها فوقه ورقق حاشيتها بما فرض عليها من نصر وتوفيق فرضا . فاذا كان بسمارك قبلا الحصان الذى حمل راكبه الملكى ، فقد بات الآن الراكب ، واصبح يقول بحق عن اسابيع عام ١٨٦٦ : « لقد لقيت الامرين فى استخدام المهماز كيما يتخطى الجواد المسن النبيل الحواجز ويقتحم السدود » . وما صنعه بسمارك بالملك اذ ذاك حين استعصى عليه ذات مرة ، واضح فى صورة محزنة مضحكة من طلب الاستعفاء الذى وصل به فى أوائل سنة ١٨٦٩ الى اقصاء أوزيدوم ، اذ كان يشتبه فى أنه الرجل الذى سيخلفه والذى يقربه الملك اليه لانه من البنائين الاحرار :

« ان باعث الوجد هو ما أعتقده من أن قوتى وصحتى تعجزان عن تتبع نوع الخدمة التى تطلبونها جلالتكم .. وما من سبيل الى تأدية كافة الاعمال المفروضة على بكل ما يسعنى من قوة الا بأن يتاح لى من جانبكم السامى

كل تسهيل يجد صداه فى اختيار الموظفين الذين يعاونوننى وفى ثقة جلالتكم التامة وما يتيسر لى بذلك من حرية الحركة » أما تثبيط همته « فيزيده أن تعطف جلالتكم الشخصى على كل خادم من خدامكم يؤثر بالنظر الى ضرورة الصرامة فى الخدمة فى المسائل المتعلقة باختيار الموظفين تأثيرا ضارا بمصالح اولئك الذين عليهم ان يتحملوا تبعة النقص فى اعمال غيرهم .. وقد تعرضت من جراء ما اضطررت اليه من كفاح أثناء تأدية وظيفتى لسخط شخصيات سامية ونفور اشخاص ذوى نفوذ . ولعل جلالتكم تغفرون لى نقطة الضعف هذه ، اذ هى فرط محبة لشخص جلالتكم وان اتسمت بالسقم .. ولست أشعر بأنى سأعيش طويلا ، واخشى ان ينتهى بى الامر الى مثل ما انتهى اليه الملك المرحوم . ولست أستطيع ان أطالب جلالتكم بأن تراعوا أحوالى السقيمة هذه فيما يتعلق بواجبات وظيفتى »

هذه آية فنية . فانه ـ حسب ما يروى ـ بعد أن لبث عدة ايام مضربا عن العمل على غير طائل ، يبدو بهذا الكتاب قد اعتزم التقاعد التام . فهو ينشر للملك سجل سيئاته بحذافيره : كيف يؤثر عليه لاسباب شخصية اناس يفسدون عليه عمله ، ويعرضونه للنفور العام ، فبهذا تخثر همته وتتبلد حواسه السليمة ، وعلى هذا يدفع بالمرء الى الجنون كما كان الملك السابق وليس من هذا سوى مخلص واحد هو : حرية الحركة !

أبدا

ويجفل الملك الطيب : « كيف يمكنك ان تتصور انى أوافقك على فكرك ؟ ان أعظم هناء لى هو أن أعيش معك ، وأن يسود الوئام بيننا على الدوام ، فكيف يبلغ منك الوسواس أن يدفعك خلاف واحد بينى وبينك الى اتخاذ مثل هذه الخطوة البالغة التطرف !.. ان اسمك يرتفع فى تاريخ بروسيا فوق اسم أى سياسى بروسى . أفأدع هذا الاسم وصاحبه ؟ أبدا ! ان الراحة والصلاة ستسويان كل شىء . صديقك الشديد الاخلاص لك ، غليوم » . وقد خط تحت « الصديق » ثلاثة خطوط ، وضحى بأوزيدم . وانه ليدلك على مبلغ ماشق هذا عليه أنه يدفع لاوزيدم فرق دخله من جيبه الخاص . ومع ذلك يجرؤ الملك المساء اليه ان يورد فى كتاب ثان له عن نقط الخلاف هذه الجملة : « انك نفسك لن تطلب منى ان اصم اذنى عن اصوات تتوجه الى فى الاوقات العصيبة وملؤها الثقة » . وحين يتساءل بعد ذلك أيجوز له وهو من يشعر بالتعب شعوره أن يتخلى عن عرشه . يكتب بسمارك على الحاشية : « كلا ، لكنه لابد من ثقة من لايستطيع أن يرى بعينيه مايقع بين ثلاثين مليونا ، وتصديق ما يؤكده وزيره رسميا ! » وبعدئذ يوقع الملك لاول مرة بهذه العبارة الجميلة : « ملكك غليوم الشاكر الى الابد »

وعلاقة بسمارك بولى العهد علاقة محتملة ، فقد الان النصر من صلابتهما وسمح لدونكر خليص فريدريك الحر بان يضع مع ذلك مشروع دستوروان لم يتوله بسمارك ، واصبح الاحرار الوطنيون اكفاء للحكم . بيد ان فيكتوريا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهى أشد انفعالا وتغطرسا من زوجها تنتهز فرصة حديث يجرىعلى المائدة لتطعن الوزير وان فعلت ذلك بلهجة بادية الود والغيظ معا :

« انك يا كونت بسمارك فيما يظهر تطمح الى أن تكون ملكا أو رئيس جمهورية ! » فيهوى بسمارك فوق هذا القول الوقح برد سديد :

ضد فيكتوريا

« انى لا أصلح شخصيا لأن أكون جمهوريا ، وتقاليد أسرتى تحتم على أن يكون لى ملك ليرتاح بالى من ناحية أمورى الدنيوية . لكنى أحمد الله أن لست مضطرا الى أن أعيش على « صينية » كما يعيش الملوك . وليس شك فى أن آرائى لن يتوارثها الجميع فلن يأخذوا منها بأن الملكيين سيفنون يوما ولكن قد يؤخذ منها بأن الملوك قد يفنون جميعا . فاذا عدم الجيل التالى ملكا بات عندئذ جمهوريا » . ثلاثة أفكار كل منها طعنة حربة اخراها قاتله ، ذلك أنه يعنى بها : ان زوجك ينقصه كل شىء ليكون ملكا .

انه يبدو أن هذه اللمحات العبقرية التى تدل على الديبلوماسى المطبوع تزداد من الآن فصاعدا فى عباراته لشىء واحد هو أن كل امرىء يسجل مايدور بينه وبين بسمارك . فكارل شورتز ذلك الفار المحكوم عليه من قديم فى ثورة سنة ١٨٤٨ ، والعائد بعد عشرين سنة جنرالا امريكيا تحدوه تحاملات لاحصر لها داخلته كفرد من ناحية هذا الشريف ـ كارل شورتز هذا الذى لا تلين قناته ، قد اقتحمه بسمارك اقتحاما . فهو يقولعنه : « ان خطبه المتدفقة ، وومضات ذهنه ، وضحكه الذى تسرى غالبا عدواه مريحة ، أو ينضح بمرارة السخرية ، وانتقالاته السريعة من الفكاهة المتعة الى النغمات القلبية المؤثرة والغبطةالتىيحسها القاص فيما يبدو من قصصه هو ، والسرعة المكتسحة ، والشخصية الهائلة من وراء ذلك كله ! » وبعدئذ يدعى شورتز فى مساء الغد الى تناول العشاء حيث لايجد سوى شيوخ من رجال القانون يبعثمجلسهم الضجر ، فحين ينصرفون يستبقى شورتز فيستجوبه بسمارك عن امريكا فى فيض من الحرارة الشخصية

حيل

وصحة بسمارك هى احدى الحيل الديبلوماسية . فاذا أراد أن يصطنع الضعف ، وقلة الحول والطول ، والتجرد عن المصلحة ، زعم أنه مريض . وفى أحد الاستعراضات يقول بحيث يسمعه اثنا عشر شخصا : « ان حالى يرثى لها ، فلست أستطيع الاكل أو الشرب او الضحك أو التدخين ولا أقوى على عمل . ان اعصابى محطمة .. فلم يعد وراء ذلك الجبين مخ بل كتلة من الهلام » . وهو أمام الملكيين موال يقول لاحد مدرسى الاقتصاد السياسى : لو كان الهوهنتسلرن سلطوا قوتهم على النبلاء العاصين « لكانت اسرتى من أولئك النبلاء الذين حاربوا فى صفهم على الضفة اليسرى من نهر الالبه

ليخضعوا النبلاء على ضفته اليمنى » . وان كان الامر على النقيض من ذلك

بيد أنه اذا جاء سياسى من شتوتجارت اصطنع الديمقراطية وتحدث على المائدة عن بركات الخدمة العسكرية ، ذلك « انى أيضا ابن مدلل ، وقد نفعنى كثيرا حمل البندقية على كتفى والنوم مع الرفاق على القش . انك لاتتصور أى تأثير يكون اذا استطاع القروى ان يقول : هناك وقفت فى الصف مع الشريف جنبا الى جنب . وهذا أيضا مما يرفع من مستوى طبقة الضباط : فاذا وجدت أمثال عناصرهم الكثيرة المتعلمة بين الجنود العاديين ضاعف الضابط جهوده » . يريد أمام فيرتمبرج أن يضفى على الخدمة العسكرية ثوبا ديمقراطيا ، مع أنه نفسه لم يكن ابنا مدللا ، ولم يفعل غير أن نام فى الصيد على القش . أما أفراد الجيش وصفوفه فكان يكره أن يكون بينهم

يزهد فى المجد

ويرى رون فى ذلك الحين « انه يعتقد ان فى مكنته كسب الجميع بالمنطق السياسى والحكمة الانسانية وطيهم تحت جناحه ، فهو يتحدث مع المحافظين محافظا ، ومع الأحرار حرا ، ويبدى بذلك كله أما احتقاره الزارى لكل ماحوله واما اوهاما غريبة ترعبنى . انه يريد أن يبقى مهما يكن الثمن ، الآن وفى المستقبل ، ذلك انه يحدوه الشعور بأن المشيدة التى بدأها سوف تنهار بين سخرية العالم وضحكه اذا هو كف يده عنها . وهذا أيضا صحيح ، لكنه من قبيل الغاية تبرر الواسطة ، فهل تكرم الواسطة بذلك ؟ » هكذا يتساءل مكروبا ذلك الحريص على الواجب تدفئه حرارة الصداقة ، ويرتعد امام الروح التى استحضرها

وبينما بسمارك بتميزاته الشخصية يحسب تأثير كل جملة ينطق بها حتى مايذكره فى مجالسه الخاصة فانه يصبح عديم الاكتراث ويظل كذلك لايحفل بالمجد : فهو مهم عنده من حيث هو سياسة وسيان لانه يزدريه . واذ كان لايعرف الغرور فانه يضايقه « أن يحملق الناس فى وجهى فى كل محطة كما لو كنت يابانيا ، أو يتفرجوا على فى « حديقة الشعب بفينا » كما يتفرجون على فرس بحر جديد جىء به الى حديقة الحيوان » . والالقاب والاوسمة مدعاة للسخرية فى نظره ، وقد ألغى من المكاتبات الرسمية بعض المخاطبات المزوقة ، وكان يعبر عن نفسه على سجيته كما هو شأنه . وحين استدعاه الملك اليه مع اثنين من الوزراء فى الساعة الثانية سأل الياور : « ألم يأت بعد انتصابان الآخران ؟ » وكان يعجبه الرقص فى مراقص البلاط فى مبدأ الأمر ، لكن الملك سرعان ماحظر على الأميرات أن يراقصنه ، « لأن الناس يأخذون على أن يكون رئيس وزرائى بهذه الخفة » وجعل مرة أحد رجال البلاط يثبت له على كتفه الوشاح الأكبر من النسر الأحمر لأنه كان ينزلق عنه دائما . وفيما هو يمتحن صبره بهذه التجربة أشار الى أحد الأمراء قائلا : « ان الأوسمة تجد عند هؤلاء السادة محلها . وأحسب أن بجلودهم شيئا ماصا يلصق بهذه الاشياء »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكنه حين ترسمه الكلاديرادتش رسما هزليا فى صورة صياد يقول غاضبا لهوهنلوهه الذى يدعوه الى الحلم : « انه لا يهمنى أن يعادونى فى السياسة كما يشاءون ، فانى لاضحك من ذلك ، لكنه فى الصيد لاهذر ولا مزاح ، فالامر هنا جد ! » وهو يحظر ايضا على زوجه ان تحذو حذو المتواضعات من ربات البيوت الريفيات ، لانها تحب الادخار على الدوام . واذا كان لابد منه فلا يكن أثناء الاقامة فى الحمامات ، ويظهر بسمارك فى كل مكان ، فى البرلمان أو فى البيت ، بمظهر الارستقراطى ، وهو الساخر من رسميات المستشارين السريين ، فيكاد لايرى فى المكان الثالث . وليس غير خلصائه ، وهم فى الغالب من اقربائه ، وغير القليلين من سكرتيريه من يسمح لهم بشهود حالات انفعاله ، ويتيح لهم بذلك نقل ما يشهدون

مركزه الاوربى

وقد باتت شهرته الآن مستفيضة فى أوربا ، فالاوساط الديبلوماسية فى برلين تسميه الساحر الكبير وتلقبه بساراسترو ، والرسائل والمذكرات فى عواصم البلاد الاجنبية حافلة باسمه ، فلا يفتأ ميريميه يذكر أن هذا او ذاك من الأمور واقع الا أن يقرر السيد فون بسمارك غير ذلك . ويصوره زولا صورة بديعة وهو ضيف فىالتويلرى حين يقول : « عندما مر المؤسس سكار بالبهو يمشى مشية الظافر ، وتستند عشيقته الى ذراعه وهى التى يشاطره الامبراطور اياها ، ويتبعهقرينها ، كان بسمارك كالعملاقالكلف المزاح يتندر مع بعض الضيوف فكف عن الضحك ، وتبع الثلاثة الاطهار بنظره مستطلعا »

براعات

وسمعته اذ ذاك اكثر اتساما بالواقع مما أضحت فيما بعد . يرى الناس فيه رجلا لا يكترث للاخلاق ، ويبده العارفين منه مزيج من الصراحة والمكر ويرى بيننجسن انه « مكر بالفرنسيين مكرا رائعا فى مسألة لوكسبمورغ . والديبلوماسية عمل من أشد الاعمال انطواءا على الباطل ، لكنها حين تزاول فى مصلحة المانيا كما زاولها بسمارك علىهذا النحو البديع من الخديعة والهمة لايتمالك المرء نفسه من الاعجاب بها » . وتحدث ديبلوماسيو ذلك العصر اذ ذاك عن خدعه ، وكتب بعضهم الى بعض من دون أن يحاولوا وسمه بالبطولة ، فروى منهم بويست أن بسمارك قال فى جاشتين اننا لانفكر بتاتا فى ضم النمسا الى الريخ الالمانى ، وهولنده احق بهذا التفكير . وبعد بضعة أشهر من ذلك روى لى وزير هولنده المفوض وكان منقولا الى لندن من برلين أن بسمارك اكد له انه لايبغى شيئا من هولنده ، والا لكانت هنالك النمسا ذلك الاقليم الالمانى »

وفى الحق أن بسمارك لم يرد قط لا هذه ولا تلك ، انما كان يريد أنيترك جيرانه وخصومه فى حيرة يتخبطون فى الظلام ، ويساورهم الخوف منجراء

ذلك ، نفس ماكان يفعل وهو طالب . ولعله أبدى الملاحظتين عامدا ليتناقلهما الاجانب . ولم يكن بسمارك يتهيب ان يرفع عقيرته بالسب المقذع امام الناس في أي انسان ، وكان أحب مايصف به خصومه أنهم أشرار . فاذا كان راضيا ذكر من يشاء منهم متلطفا ، بأنه « رجل غبى ! » وهذا القدر من الحرية التى يسمح لنفسه بها غذاء مسعد لكبريائه وبغضه للبشر . ولعل شعوره بأن له أن يفعل ذلك كله ، وأن يصدر حكمه صراحة علي أى انسان ولو كان الملك ، قد أتاح له أهنأ اللحظات

احتقاره البرلمان

وحكم غوستاف فرايتاج عليه حكم عدائى لكن له خطره : « ان بسمارك لايتصور الا فى وقت يخرج من ظلمة الليل الى وضح النهار .. وبين الرومانتيين والالمعيين طبقة متعلمة من هواة السائحين هم طبقة الاشراف بانماطها الانيقة .. وأكبر مولود متأخر فى فترة الجمود هذه هو بسمارك فيما يلوح لى ، ويميزه أنه تنقصه المهابة وأنه يفهم الأشياء على هواه فهما شخصيا كان بداية حيوية منتعشة جريئة ، ومن ثم لن يكون لهذا الرجل مدرسه . وغلطاته اكثر تمثيلا لغلطات عصرنا من غيرها .. ولن يتخلص منه الملك الحالى الا ان شاء هو ، والتمرد فى هدوء لايجدى .. وقد عرف رجل قلق ، موسوس ، شب عن مجتمع فاسد ، ان يربط بالجراة وصفات عظيمة حقا بين نفسه وبين مجد بروسيا وعظمتها حتى بات من يضربه يؤلم الدولة معه »

بهذا الشذوذ كان بسمارك يبدو اذ ذاك لاعين الناس جميعا . واذا كان الكثيرون قد أقروا له بتلك الصفات العظيمة التى سلم له فرايتاج بها لانها أجدت على البلاد ، فقد بقى مع ذلك فى هذا العصر بالذات — العصر الذى تلا أعظم معاركه الحزبية وسبقها ، غريبا فى أعين الاحزاب والطبقات جمعاء وخاصة فى عين حزبه وطبقته . اما ظهوره فى الحياة العامة ، وبعبارة اخرى خطبه التى حاولت الامة أن تستخلص منها وحدها صورة له ، فلم يمكن أن تخلف غير هذا الاثر . لقد جرؤ أن يقول فى مجلس الريخستاج الجديد : « انى أريد ما تريدون ، فقط من طريق اخر . واذا عن لى الكف عن الرد على معارضتكم بأية صورة من الصور فقد تستخلصون من ذلك أنها لا تهمنى ، وأعتقد أنه يسركم أن معارضتكم لم تقابل منى قط بعدم الاكتراث (ضجة) . » أو يقول ردا على الالحاح فى ادخال بادن فى اتحاد الشمال : « لا تلحوا هكذا فى الاقدام على مراحل جديدة أيها السادة . انعموا لحظة مسرورين بما أوتيتم ولا تشتهوا ماليس فى أيديكم .. قد أكون مخطئا ، وقد تكونون مخطئين . لكنه لايسعنى الا أن أقول لكم ، انى لا أشاطركم رايكم ، وسأعمل برايى أنا »

كرئيس

ومن يعامل ممثلى الشعب على هذا النحو فهو فى نظر معاونيه الاوتقراطى الكامل : فهو اذ يرى فى اتحاد شمال ألمانيا صنع يده ، يزعم لنفسه حق حكم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الاتحاد وحده لاشريك له فى حكمة وحكم بروسيا معه . وقد كان أصدقاؤه الأدنون يشكون فى ذلك الحين من « حب أوتو للسلطة والتسلط ، وهو مابات منذ ذهاب رون (مؤقتا) أمرا لايحتمل ولا يطيق هو معه معارضة » . ويقول رون « ان بسمارك .. يتدفق فى الجلسات ، ويكاد لايتكلم احد سواه . وانه ليلوح واقعا فى غلطة قديمة هى اعتقاده أن فى استطاعته التغلب بالنشاط الذهنى على صعوبات الموقف .. انى أنتمى من الناحية السياسية الى المعارضة المحافظة ، لانى لا احب أن أقاد ضد ارادتى معصوب العينين ، لا أعلم الى أين . لكن بسمارك يهمل ، كما فعل الى الآن أوفى اصدقائه واشدهم اخلاصا له ، وهو لن يتردد فى أن يكون معهم فظا اذا ازم الأمر » . ويقول وكيل الوزارة تيله : « الرئيس عنيد ، مستبد برأيه ، متذمر ، يعنى تارة بالتافه وهو لايدريه ، وتارة يأبى الاهتمام بالخطير أقل اهتمام . لكنه ماذا يهم ذلك ؟ فحين يسترد صحته نستطيع أن نسأل فى جرأة : ماذا تساوى أوربا ؟ »

واذ كان الجميع يخشون الطاغية فان احدا لا يجرؤ على أن يبت فى أتفه الامور : فانه عندئذ يستشيط غضبا . فها هى ذى يوحنا تكتب من الريف الى كويدل فيسمع فى كتابتها صوت زوجها : « انك لاتصدق كم يسيء بسمارك تهيب الاطفال الذى يستشعره سادة برلين حين يرون انهم عاجزون عن تحمل أية تبعة ، وحين يبعثون بكل شيء وبكل تافه من الامور للنظر أو التصرف .. انك تعرف مدير دفة دولتنا من أمد طويل وتعلم مايعذبه ، ومالا يحرك ساكنه » . فاذا لم يجر فى غيبته كل شيء على مايرام بالضبط يكتب : « انى آسف لان أوامرى لم تؤثر أثرا يذكر فى القسم الثانى . انه ليخيل الى أنى لا أضايق السادةمضايقة كافية . فاضطرار مريض الىالرجوع ثلاث مرات الى أمر كهذا يبلغ فى الحقيقة ممن يضطرونه اليه مبلغ الاستهانه »

قادة الفكر

وبينما يصبح بسمارك على هذا النحو مفردا ، ويعمل كوكبا ، تصمت من حوله الجوقه . فليس من يجرؤ على الاختلاط بهذا الالمانى الذى هو أقوى رجل بين قومه وأمتع رجل فى نفس الوقت . وقبل أن يكتمل الريخ الالمانى الجديد ينسحب رجال الفكر فى المانيا من هذا الريخ وكأنهم ينسحبون من دون وعى ، بلا منهاج ولا معارضة ، فلا تجد أثرا لقادة الفكر فى ضيافه بسمارك ، فيما خط من رسائل ودار من أحاديث : وحين يطلع تريتشكه على جانب من الملفات أو تذكر قصة لشبيلهاجن أو يشكر فريتس زويتر على كتبه يكون هذا كل مافى القائمة لعدة سنين . وحين يجد الرجل العاقل فون ايكرت فى زياراته الاولى لبسمارك أن كل ضيوفه من الاشراف الذين كانوا يرفعون الكلفة بينهم وبينه فى الداخل ويحاربونه فى الخارج يتساءل دهشا : « كيف نفسر أن يكون مظهر المجتمع الحميم المألوف لهذا الالمانى الذى

هو الاول فى قومه ، بينما قادة الفكر فى الامة اما بعيدون عن هذا البيت واما لايدخلونه الا فى المناسبات غير العاديه ؟ »

والوحيدون الذين يذكر بسمارك أحاديثهم معه فى هذا العصر مقدرا اياهم هم اليهود . فقد وصف لاسال بأنه من أذكى الناس وممن يحرص على ألا تنتهى أحاديثهم معه ولو فى ساعة متأخرة من الليل . وقد كان بليشرودر ، وقد اصطنعه يدخل عليه متى شاء ، ويملك تفويضا عاما منه بتثمير ثروته كما يرى ، وقد رفع بناء على توصية بسمارك الى مرتبة النبل الوراثى . ولبث طبيب يدعى كوهين طبيبا خاصا له وصديقا عدة سنين الى أن مات . وهكذا عهد بصحته وثروته الى يهوديين . ثم هو الى ذلك يقول : « لقد سرنى حقا اختلاطى بسمسون .. فهو رجل ألمعى جدا ، كان حين يزورنى يمتعنى حديثه امتاعا لا أستطيع أن أزعمه لمعظم من كانوا يزورونني . انه رجل يعمر قلبه حب الوطن أنقى مايكون ، ووعاء نبيل ينضح على الدوام بأصفى المشاعر » وهذا حكم لامثيل له فى أحكام بسمارك مع المأثور عنه والمعروف عن اخلاقه . ومع ذلك فقد هزأ وهو سكرتير فى برلمان ايرفورت بسمسون هذا قبل ذلك بعشرين عاما : « ان أبى ليتململ فى قبره اذا رآنى هنا كاتبا لعالم يهودى » . وقد وصف سمسون الوزير فى نزاعه معه بأنه راقص على الحبل ، ولم ينس بسمارك شيئا من ذلك كله . وقد أغدق فيما بعد آيات الثناء على ديزرائيلى حتى تساءل الناس وهم لايشعرون : لماذا بليشرودر بدلا من هانزيمان ، وكوهين بدلا من فريركس ، ولاسال بدلا من ليبكنخت ، وسمسون بدلا من ريشتر ، وديزرائيلى بدلا من سالسبورى ؟

يناصر اليهود

لقد كان بسمارك قد اطرح فى هذا الاوان ومن أمد بعيد كل مادل فى شبابه على عدائه للسامية وما حداه من تحاملات أخرى رجعية فبتنا لا نقع على قول له ضد اليهود ولو من أقواله الخاصة جدا ، وان كنا لانشك فى أن التحامل الموروث فى طبقته لم يزل منه قط كل الزوال مع رجاحة عقله . فهو الذى أنفذ بعد عشرين عاما من خطبته التى عارض فيها تقليد اليهود وظائف الدولة القانون الذى يحررهم ، وأكد أن ليس للدولة دين ، وأن الحكومة لايسعها أن تكون ذات عقيدة . وقد نوه فى الريخستاج بكفايتهم الخاصة وذكائهم فى تأدية أعمال الدوله ، وأطرى فى مجالسه الخاصة من فضائلهم : احترام الوالدين والامانة الزوجية والاحسان ، وتمنى « تصليبهم » بألقاب النبالة ، وعد من البيوت ليناروشتيروم وكوسيروف وغيرهم ممن « أوجدت فيهم صلاتهم باليهود أناسا دمثى الأخلاق ، بالغى الحذق .. هذا الى أنه من الأفضل أن يجمع المرء بين فرس مسيحى ألمانى ومهرة يهودية لا العكس .. والمال يجب أن يتداول ، وليس ثمة مايدعى « جنس ردىء » . ولست أعلم ما انا مشير به على أولادى ذات يوم . » وهو فى شيخوخته يجمل بصفة عامة قيمة اليهود

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاحيائية الاجتماعية فى هذه الكلمة الصائبة : « ان اليهود يطلقون فى اختلاطهم بمختلف العشائر الالمانية شرارة لا ينبغى لاحد أن يقلل من شأنها »

نبل رون

وهو فى قراراته يقف من الجميع : مسيحيين ويهودا ، وزراء وزعماءأحزاب، امراء المانيا أو غير ألمانيا ، موقفا فاترا ينطوى على عدم الاكتراث .. وحتى بين أصدقائه القدامى لم يعد يكن شيئا من الحرارة الا لرون . وانه لمن المؤثر ، بل من المضحك فى نفس الوقت أن ترى هذين الصديقين فى سنة ١٨٦٩ واحدهما يمسك بخناق الآخر ليعيده الى منصبه حين يريد التخلص منه . ذلك انه حين يعتقد رون فى جده الساذج ان بسمارك ينتوى حقا الاستعفاء الذىأوردنا ما جاء فى التماسه ، يكتب اليه : « اننى منذ تركتك مساء أمس يا صديقى المحترم وانا مشغول بك وبقرارك بلا انقطاع . انه لا يدع لى راحة . فاجعل رسالتك بحيث تيسر مخرجا .. فكر فى ان ورقة (الملك) التى تلقيتها امس تتطلب الصدق ، وانظر فى أن ماخلطته ببواعثك من أشياء غير صميمة ان هى الا نجاس الخجل الكاذب الذى يجعلك تأبى ان تعترف ، ولا يمكنك بالنظر الى صيغة رسالتك من ان تعترف بأنك اخطأت ، وانك تريد الاصلاح . انه لايصح بحال ان تحرق سفنك ، فليس يجوز لك ذلك . وهذا العمل خليق ان يقضى عليك فى نظر البلاد ، ويضحك عليك أوربا .. انهم عندئذ سوف يقولون : لقد يئس من اتمام عمله فاستقال . ولست بحاجة الى ان اكرر لك الاعراب عن نفسى اللهم الا أن أفصح لك عن تعلقى بك تعلقا يتسم بالوفاء والبقاء »

يكيل بكيلين

بأى نبل يعـذر الملك دون ان يدافع عنه ! وبأى عمق يحس التـاريخ أثر هذه السطور التى كتبت للتاريخ ! أى تحفظ موغل ! وحين يريد رون نفسه بعد ذلك ببضعة أشهر ان يستقيل مخلصا جادا ، لمعارضة بسمارك اياه فى مسألة تتعلق بالبحرية يحثه بسمارك من فارتسن : « حين وقعت فى يدك فى سبتمبر ١٨٦٢ وانا خالى البال كنت افكر حقا فى كنيبهوف ، لا فى احتمـال ان نختلف بعد سبع سنوات من رفقة مجيدة على وصف للبحرية مطابق لما فى انورق اختلافا اساسيا .. اقرأ شعار ١٤ اغسطس وفسره تفسيرا دنيويا .. ان هذه المسألة لا تلوح لى قبل كل شىء من الاهمية بحيث يكون من حقك أمام الله والوطن أن تتخلىعن الملك وهو فى الثالثةوالسبعين منعمره وانتلقى على زملائك وانا منهم الشبه باستقالتك » . كل شىء فى هذا الكلام يعتمـد على شعور المرسل اليه بالواجب وعلىتقواه ، لكنا اذا نظرنا اليه نظرة انانية محضة وقسناه على غرار بسماركى صميم ألفينا التبعة من البداية الى النهاية تلقى على ذلك الذى اخرج بسمارك مرة عن هدوئه ثم جاء يريد الاضرار به باستقالته

وبعد ذلك بثمان واربعين ساعة يجول قلم ذلك الذى كان منذ هنيهة يعظ باتباع الواجب والأخذ بالاعتدال فى لهجة رجال الدين ، ويصـــول على نفس المكتب والى نفس رون ، فيقول : « ان أحدا لايمكن أن يطالبنى بأن أضحى بصحتى وحياتى ، بل بما لى من سمعة فى الاستقامة وسلامة الحكم على الأشياء لاخدم هوى من الاهواء . اننى لم أذق طعم النوم منذ ست وثلاثين ساعة ، بل لبثت أفرز الصفراء حتى بات رأسى كالاتون المضطرم برغم الكمادات ، وهذا خليق أن يطير صوابى ! اغفر لى هذا التهيج وانا أرى اسمك فى ذيل هـــذا الامر . لكنى لا يسعنى ان افترض انك بهذا الشكل الذى اتخذه امضاؤك قد فحصت المسألة ولو مجرد فحص .. واذا كان قد قدر للمركبة التى نستقلها أن تتحطم ، فانى أريد على الأقل أن أكون بمنأى عن شبهة الاشتراك معك .. لعلنا نحن الاثنين اكثر استشاطة فى الغضب من ان نصلح للمضى فى ادارة دفة السفينة . ويجب أن يكون للمرء قلب وضمير صفيق ليتحمل ذلك » ! فما هذا الذى وقع ؟ هل وعد الملك ووزراؤه الموجودون فى برلين بمحالفة خارجية او انذر بفسخ مثل هذه المحالفة ؟ هل حل الريخستـــاج او رفض اقتراح لبسمارك أو أقيل وزير ؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الخامس عشر

فارتسن

« حين انتهي من تناول طعام افطاري ومطالعة الصحف اخرج في حذاء الصيد الى الغابات أصعد الجبال ، وأخوض في المستنقعات ، وأتعلم الجغرافيا ، وأضع الرسوم لحظائر تربية النبات . فما ان أعود الى البيت حتى يسرج لي الجواد ، واستأنف ماكنت فيه .. ان هنا في الحق ادغالا كثيفة جدا ، وعروقا وكتلا ، وقفارا ومشاتل ، وجداول وغمورا وبراري ، وغزلانا ووعولا ودجاج غاب وغابات من شجر الزان والبلوط لامنفذ فيها ، وغير ذلك مما استشعر معه الغبطة حين اصغي الى ثلاثي الحمامة ومالك الحزين والحدأة او اسمع شكوى المستأجرين من مساوىء الخنازير . فكيف أصف لك ماهنا » !

شئون مالية

هذه فارتسن . وهي تقع غير بعيد من رينفلد . واذ يجوس بسمارك خلالها اثناء زيارته الاولى لها يشعر بان امته قد كافأته حرفيا عن مناضلاته وانتصاراته . ومدهش انه يقبل المال الذي ابتاع به هذه الغابات ، فهو يسلم بعد ذلك ببضع سنوات بأنه : « ماكان ينبغي ان أجازى بالمال . وقد قاومت ذلك طويلا على الأقل ، لكنى لنت أخيرا للاغراء . وكان الأمر فيما خلا ذلك أسوء كذلك عندي لانه لم يأت من الملك وانما أتى من اللاندتاج ، فلم أرد ان أتلقى مالا من أناس كافحتهم سنين هذا الكفاح الشديد » . فقد طلب الاحرار اذ ذاك جهارا ان يصرف النظر عن هبات تعطى الى رون وبسمارك ، فحسبهما ماتم من تجاوز عن اعمالهما . فكونه مع ذلك قد قبل المال يقوم دليلا على حبه المال والعقار يقتنيه لذويه ــ حبا جما يتزايد مع السنين . اما العمل لنفسه فلم يكن له دخل في ذلك ؟ فهو على الاقل لم يكن يملك الوقت ولا يسعه الجمع لتنمية ثروته بالتثمير

ومنذ سنين تتضارب هذه الرغبة في المال مع كبريائه . فانه لما قرر اللاندتاج في مستهل نزاعه معه ان يجعل الوزراء مسئولين بثرواتهم عن المصروفات المنافية للدستور فكر هو في نقل ممتلكاته الى أخيه . لكن «التنازل لأخي انقاذا للمال من مصادرة غير مستبعدة اذا تغير شخص الجالس على العرش كان

خليقا أن يدخل فى الروع انى خائف قلق على أموالى ، الأمر الذى لا يتفق وطبيعتى . كذلك كان مقامى فى بيت ابائى مرتبطا بكنيبهوف » . وعلى قدر ما كان محققا ان هذا التنازل لم يرض طبعه فقد كان من المحقق أيضا انه أراد تنفيذه ، ولو ان كفه عن الاقامة فى بيت آبائه كان خليقا ان يذيع امره ويعرضه لتعليقات قاسية . ذلك انه يعرض فى نفس الوقت ضيعته على أخيه مبررا ذلك تبريرا غريبا اذ يقول : « يعز على ألا أقضى شيخوختى هناك . انى ممن يصدقون الخرافات ، وأشياء بعينها تحملنى على ان ابيع .. بيد أن حالتى المالية أو حالة أولادى هى فى الواقع بحيث تجعلنى أطلب منك أقل كثيرا مما أنا خليق أن أطلبــه من أجنبى » . انه لباعث ملغز ! ومع ذلك فالمحقق أن البيع لم يتم

غابات ودخول

على أنه بعد اربع سنوات ، وقد كافأه نفس اللاندتاج بالمال على أعمال كانت يومئذ مساوىء فى نظره فبات من ذوى اليسار ، يسارع الى التخلى عن نفس كنيبهوف ، وقد ضمت مع ذلك صباه كله من الثانية الى الثامنة والعشرين ! او لم يستشعر حز الندم ، وعذابه الشديد حين اجر كنيبهوف اول مرة ؟ والآن أيضا وهو يزوره قادما من فارتسن يقول : « انهم لا يدعوننى أبدا وحدى . وانى لعندى مع الاشجار ما اتسار معه أكثر مما اتسار مع الانسان » . فهذا المكان الذى قضى فيه طفولته يظل فى نظره النعيم والفردوس الى شيخوخته . ومع ذلك يكتب الى أخيه من فارتسن فى الحال يقول انه يريد ان يبيع كنيبهوف سريعا . « وأحب الى أن أبيعه فيليب أو أبيعك اياه على أن لا يكون الثمن أبخس كثيرا مما ينبغى ان اتلقى فيه » . وليس فى هذا الكلام شىء من الاعتقاد فى الخرافات . كذلك ليس فيه شىء من ذلك التعلق الشديد بالأرض والبيت وهو تعلق خالط شعوره فى كنيبهوف كما خالطه فى شينهوزن

ولاشك ان غابات فارتسن تروقه . لكن هذه الغابات لن تكون الغابات التى يعلقها قلبه ، كذلك لايقاس بيت فارتسن ببيت شينهوزن العظيم ، فهو مبنى « من الخارج على غرار المستشفيات . أى ذو جناحين مديدين ، لكنه فيما خلا ذلك عادى جدا ، كثير النوافذ ، ليس فيه من طراز القصور أو الفيللات شىء » فهكذا يصفه كيرزلنج كضيف نزل به . ولما كانت الغابة لا تجلب له دخلا ، فقد وجب ان تقام فيها مناشير بخارية ومصنع للورق « تتكلف نحو مائة ألف ريال ، لكنها تستطيع الى المساء أن تحول كل شجرة تنوب الى عدد كبير من صفحات الورق » وبذا ينقلب متعشق الطبيعة رجل أعمال : رجلا اقتصاديا وأبا !

واذا كان بسمارك لايعرف الراحة ولا ينى عن العمل ، فهو يشرع من أول زيارة فى بث الحياة فى الغاب وفى بيت فارتسن : « ارسلوا من شينهوزن الاكواب والكراسى الحمراء المحفورة ومكتبا او مكتبين يمكن ايصادهما على الاقل، وكذلك ماهنالك من أسرة .. وفى الامكان جلب الموائد من برلين ونقل المكتب الاسطوانى من ردهة قاعة الجلسات الى حجرة مكتبى القديمة . فما حاجة حجر صاحب الجلالة الى التأثيث !.. الآن أركب لمشاهدة الغابة والغزال ، وانعم باشعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشمس .. اما الكتابة فلا استطيعها كثيرا ، فالمداد لا يطيقنى .. تعالي على عجل ، ودعى الصغار يتبعونك . ففى كوستلن اسرة فيما ارجو .. لا تحضرى فتاة غير وصيفتك . ولعلك لا تحتاجين حتى الى هذه ، فهنا غسالة شابة لبثت فى بلومنتال ثلاث سنوات تقوم بغسل البياضات .. كذلك لا تحضرى الطباخ ولا الخادم الا ان تكون لك رغبة شخصية فى ذلك . ارسلى شيئا من القماش الاخضر السميك لنصنع منه ستائر داكنة للنوافذ ، ولستر الجانب الداخلى من الأبواب الزجاجية التى لاأحب أن نرى خلالها . لاأظن أنى أذهب الى برلين مرة أخرى قبل وصولك فصفى حالتى لمن يسأل عنها بانها من السوء بحيث لا يسعنى ان أضيع بوعثاء السفر ما اكتسبته من استشفائى ، وتعالى سريعا . المخلص »

نفسية سعيدة

هذه أسعد حالات بسمارك النفسية اذ يهجر اعماله ولما يكد ، وينتظر رفيقة حياته ، ولا يريد ضيفا ولا برقية ، بل حراس صيد ومفتشي غاب ، واذ الخيول صحيحة والحساب مقبول : هكذا تروقه الحياة ، وعلى هذا المنوال يحياها احيانا ، أسبوعا كاملا ، ثم تدعوه المتاعب ثانية الى أعماله . فاذا لم يكن ثمة متاعبه دعته عادة العمل والامر والنهى . ومع ذلك فهنا ايضا لا تفارقه ارادة السلطة . وانها لكلمة رمزية عميقة تلك التى يشير بها الى الارض المجاورة لأرضه فيقول : « انى كل مساء أشعر برغبة ملحة فى ضم هذه المزارع ، فاذا أصبح الصباح عدت اتأملها هادئا » . هذه عاطفة بسمارك وهذا اعتداله ، ففى هذه الجملة ايقاع سياسته

وفى الضيعة تلحظ بلادة الضيوف مضاعفة ، فهنا كان الوقت خليقا ان يتسع لدعوة خيرة الرؤوس الالمانية . لكنك اذا لم يكن عنده وزير او سكرتير أو زعيم حزب تلفيه جالسا مع قرابة اثنى عشر شخصا من أهله بينهم ثلاثة صم وكثيرون ترتفع اصواتهم فى الحديث الى درجة الصياح وتتزامل كأنها جوقه . وهو فى هذا متهلل يهش للجميع ويبش ، فاذا انتصفت الساعة الحادية عشرة تثاقل الضيف فى الانصراف مغتبطين . « ويأتى كيزرلنج أحيانا فنجلس معا على سرير من أسرة الميدان فى حديث رضى نستمع خلاله الى الموسيقى يعزفها لنا الهر فون كويدل » . لكنه يبلغ أحيانا من عصبيته أن يسر الى كويدل أن كيزرلنج صديق صباه يتعبه أيضا ، وانه يترقب اللحظة التى يسافر فيها ، بسرور

الصديق

لقد بقي موتلى أحب أصدقائه اليه فى كل وقت . وان تعلق بسمارك بأمريكى مرح ، ساذج ، متعلم كامل التعليم ، عاقل ، لشاهد على اشتياقه الى أن يلطف اضطرابه المطبوع فيه بالانسجام مع الطبائع الموافقة . وليس الملك ولا يوحنا باللذين يسعفانه فى ذلك ، وان كان ينزلهما من قلبه منزلة خاصة مستثناة من

الازدراء الذى يكنه للناس بوجه عام . فكلاهما ينقصه الانتعاش ، والتأثير ، والاستقلال : فأما الزوجة فأرق روحا واقل خبرة ، واما الملك فأكبر سنا واقل ذكاء من ان تهدىء طبيعتهما المطمئنة روعه . اما موتلى فثابت ، ذو رجولة ، راض عن الناس ، طبيعى ، ووجيه الى ذلك ، محب له من دون ان يبغى شيئا منه ، لكنه قبل كل شيء أكثر استقلالا من أى من المحيطين به . وهو فى معترك الأشرار أو ضيقى الذهن رجل يعول عليه : هذا صديق بسمارك. وحقا انه لم يتلق أحد من رسائل بسمارك التى خطها بيده ما تلقاه هذا الصديق الحين بعد الحين خلال عشرات السنين . وبسمارك الذى يدع مئات الناس وأقرباءه أيضا ينتظرون رده على رسائلهم ، هو دائما الذى يعود فجأة فيكتب :

صديقك بسمارك

« عزيزى جاك ، أين أنت بحق السماء ، وماذا تفعل حتى أنك لا تكتب الى كلمة أبدا ؟ انى أكد فى الصباح الى المساء كالزنجى ، وأنت ليس لديك ماتؤديه، ففى وسعك ان تخط الى سطرا بدلا من تأمل ساقيك اللتين تمدهما فوق قواعد نوافذ ، الله وحده يعلم ماذا كان لونها .. انى لا استطيع أن أكاتبك بانتظام .. لكنه ما الذى يحتجزك أيها الكسول ان تفكر فى صديقك القديم ؟ الساعة وأنا بسبيل التوجه الى النوم تلاقت نظرتى ونظرتك فوق صورتك .. لماذا لاتأتى أبدا الى برلين ؟ انى وزوجى ليسعدنا أن نلقاك ثانية فى هذه الحياة الكدرة ... انى أقسم لك انى سأجد الوقت لازور معك المسكن القديم، واحتسى معك زجاجة عند جيرولد حيث أبوا عليك ذات مرة أن تضع ساقيك النحيلتين فوق كرسى . دع السياسة وشأنها وتعال ! ولترفرف راية الاتحاد فوق بيتنا ويصب حديثنا وخير زجاجة من الهوخهايمر اللعنة على المتمردين أجمعين . تكرم وتعال أو اكتب ! صديقك بسمارك » . واغفاله «فون» من توقيعه شيء بقى منذ سنة ١٨٤٨ بلا مثيل

تفان وحيد

وعندما صار الصديق سفيرا فى لندن وقريبا بذلك منه ، تلقى من فارتسن : الا ما اوليتنا مسرة بنقل مركز نشاطك الى غابات بوميرانيا ! فهذا الشيء اليوم سهل على عابر المحيط سهولته بالامس على المسافر من برلين الى جوتنجن . وما عليك الا أن تناول قرينتك ذراعك ، وتمتطى معها مركبة الى المحطة فى ٢٠ دقيقة ، فتصل الى برلين فى ٣٠ ساعة ، ومن هناك الى هنا فى نصف يوم ، الا ان هذا ليكونن شيئا بديعا ! فسنسر انا وزوجى وابنتى والاولاد سرورا كبير ، ونجدد مرح الايام الخالية . ان هذه الفكرة لتستولى على الى حد انى امرض اذا قلت لا . ورفضك خليق ان يكون له أسوأ تأثير فى السياسة بأسرها. صديقك المخلص »

هذا هو التفانى الوحيد الذى يكنه قلب بسمارك . ذلك انه حتى حبه لزوجته وأولاده تشعره بغيرة المالك على ملكه ، أما هذا الامريكى فيحبه بسمارك حبا خالصا مجردا عن الغرض والأسباب. واذ قد اختاره وهو مايزال فى السابعة عشرة من عمره ، واستبقاه دون هؤلاء الكثيرين جيلين ونيفا ، فان شخصه يعدل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عنده شيئا مشتهى او يعوض شيئا ناقصا ــ كما كانت حال تسلتر مع جوته ــ شيئا لا يجده فى النساء الا فى اخته : وهو الانسان الموافق الذى يكون مع ذلك ذكيا ، والانسان المرح الذى يكون مع ذلك مجربا وجادا . وليس من محض الصدفة أن يجد هذا الخلق الألمانى الصديق فى عالم أصغر من عالمه

يوحنـــا

ان يوحنا مريضة . فقد سلبها الهم من خوف الاعتداء على حياة زوجها أيام النزاع كل راحة ، فكثيرا ماوصفها بأنها لا تذوق طعم النوم ، وان قلبها يخفق خفقانا عصبيا وينتهبه اليأس . وهو يرسلها وحـــدها الى حمامات الاستشفاء ، ويحاذر عليها وعلى نفسه ، وهى تختم رسائلها الى أطفالها وهى ماتزال فى الأربعين بعبارة « أمكم العجوز » فحين يكبر هؤلاء وتقل اسقامهم ، وقد كثر ما انتابتهم تصبح لزوجها الام الرؤوم : فالواجبات الوحيدة التى تضطلع بها فى نصف حياتها الثانى هى العناية بصحته وتلطيف انفعالاته ، وتمريضه وحمايته . لقد تخلت عن كل شىء : عن رغباتها ، وهواياتها ، وعن حكمها نفسه ، فهى لا تجرؤ ان تشير عليه بشىء . وحتى مشاعرها لم تخاطر بالاعراب عنها له فى كونججريتس ، فهى تستقر وراء الصديق كويدل ليقول له عنها : أليس من المناسب الزحف على فينا ودخولها . لكن هذا الصديق يرى من الانسب الا يتلو على الرئيس الخطر فكرة زوجته هذه . وهكذا تنطفىء منطوية على حبها ، وحين يسألها وهى معه فى رحلة برفقة كيزرلنج هل تريد المضى فى الرحلة أم العودة تجيبه : « افعل مابدا لك ، فليست لى ارادة غير ارادتك »

لكنه حين يكون مريضا فى فارتسن تلازمه « دائما بالليل والنهار ، صامتة دائما ، اللهم الا تلك الدقائق التى اقضيها فى تناول طعام الافطار او الغداء ، اقرأ أو اعمل أو أقضى له حاجة . ذلك أن كلمة حتى التى ينطقها هوا والتى يسمعها تؤذيه ؛ ومن ثم على الدوام قلقى الشديد عليه »

الاولاد

كذلك الأطفال سلبيون لا يحركون ساكنا ، ولا يجرؤون على شىء . لكنه ايضا لا يطالبهم بشىء فحين شكا من مارى لانها لا تكتب اليه سرعان ما أذعن حين قيل له ان الكتابة تصعب على فتاة فى السادسة عشرة من عمرها . وقد حملته المرارة التى لازمته طول حياته مما عومل به فى صباه على تدليل أطفاله ، وضغينة هذا الانسان الذى بلغ الغاية من التوفيق والنجاح ، وسوء ظنه الدائم ينكشفان حين يقول لكيزرلنج انه لا يحب أن يربى أولاده فى خدمة الحكومة ، « ذلك انه سينظر الينافى النهاية نظرة سيئة ، ولا نلقى من الناس الا الاعتراض » . وذات مرة وهو يعلم ان المانيا بأسرها تترقب ، يكتب من نيكولزبورغ الى ابنه الاصغر بمناسبة عيد ميلاده عن الجديد فى السياسة ، فيقع على الاثر فى حرج بين السياسى والمربى ، ذلك انه « فى السياسة يجب على المرء ، اذا كان خصومه كثيرين ، ان يعطل اقواهم ، ويدمى ضعيفهم وهو ما يعد فى الحياة الخاصة حطة

لا شهامة فيها » . والصحة والقوة هما ما يتمناه لاولاده ، فاذا باهى بهم مرة، فلأنهم أقوياء اشداء . وكان شاب مرة ضيفا عندهم فرأى « مع الدهشة ما يستهلكه بسمارك واولاده من مقادير الطعام : فهم صورة مجسمة من الأسد وأشباله ! » .

الصحة

وتتوقف صحته على أعصابه ، وتتوقف اعصابه على اعماله ، وعلاجه عنيف كحياته . ولما كان لم يخرج قط بمظلة او بحذاء من المطاط ، وكان دائما يركب مركبة مكشوفة ، فهو يحتقر الاطباء فى مرضه ، ويعالج نفسه على مسئوليته . ويكتب بلاكنبورغ من فارتسن يقول : « ان مرضه سيظل مستعصيا ماظل مخالفا لقواعد الصحة . انه ينهض من النوم متأخرا جدا ثم يظل فى الخارج كمفتشى الغاب الى الساعة الخامسة . وعجيب مواعيد أكله ، فهو يبدأه فى الخامسة او السادسة او السابعة حسبما يكون ، ثم يلعب البليار نصف ساعة ، ثم يشرع فى العمل الذى لا مفر منه فى الحقيقة الى العاشرة او الحادية عشرة ، ثم يتناول فى الليل طعاما باردا وهو واع ، فيسوءهضمه ، ويحرم النوم بطبيعة الحال .. وقد تحدث مرة والدمع يكاد يطفر من عينيه عن همه من ان كل شىء جفاه ، لكنه لم يدع لى حتى فى الظاهر ان اعترض حديثه بكلمة ، فكانت نتيجة هذا الانفعال الذى يحدثه لنفسه تشنجا شديدا فى المعدة » . وعندما انتصر فى مسألة مالية تتناول هانوفر بأغلبية لا تتجاوز خمسة اصوات أثر فيه ذلك فى الحال « تأثيرا عميقا ، وأحس ألما فى قدميه ، وظهرت الصفراء والنورالجيا على وجهه على الفور » . وعبثا يحثه رون : « ايعجز نشاطك حقا عن ان يفرض على طبيعتك المسرفة .. نظام الحياة الذى يتبعه مرب البيت الالمانى الشريف ؟ يجب أن تستطيع ذلك » . كذلك كلمة « يجب » يخاطر بها عبثا هذا الشريك القديم والزميل فى الجهاد

الاعصاب

وتزداد قابليته للتهيج ، وهى المطبوعة فيه ، بالاحتكاكات التى يولدها العمل المصلحى أكثر مما تزداد بساعات الفصل العظيمة ـ تلك الساعات النادرة . فاذا أمطرت السماء بضعة أيام فى جاشتين شكا فى الحال من الغرفة التى ينتشر فيها الضباب ، ومن بخار المغاسل ، وتبرم بمسقط الماء القريب من الفندق ، وعذبه انتفاء الافق الفسيح فى كل مكان بالجبال . وحين تبلغه زوجه نبأ برد أسنان أطفاله يكتب اليها : « ان هذا يخيفنى ، وأشعر هنا بأثره فى اعصابى » . وعندما يسأله زعيم من هس عن مستقبل بلده « تنتشر على الوجه غير الجميل ، الكثير التعبير مع ذلك ، سحابة حقيقية من سحب الأفكار .. ثم لايلبث وهو صامت يفكر ، أن يمد يده تارة الى قلمه الرصاص ، وتارة الى مقص الورق ، ثم يطوف بثغره مرح بعينه يزايله بعد لحظات ، ثم تخطف على وجهه ملامح شيطانية حقا ، بينا يهبط حاجباه الكثان »

وفيما هو يهرم على هذا النحو فى كل صورة من صور حياته ، وكل شكل من أشكال جسمه ، وان كانت قواه التى حبته بها الطبيعة تصارع السنين ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعود فيداني الحاد شبابه : فهو ينكص على أعقابه بخطى العمالقة الى تشكك عهده الأول . وما يحتفظ به من عهد كفاحه فى سبيل الايمان لايعدو المظهر تقريبا . فاذا سبه جار تقى من بوميرانيا بأنه عديم الضمير ، فانه يقف أمام هذا الزميل من زملاء طبقته فى رسالة مستفيضة فى عيد الميلاد هذا الموقف المسيحى حين يقول : « انى مستعد للتسليم بأنه كثيرا ماوسعنى أن أدخل بيتا من بيوت الله ، فلم يمنعنى ضيق الوقت من دخوله بقدر ما منعنى اهتمامى بصحتى فى الشتاء .. فمن يصمنى بأنى سياسى عديم الضمير يظلمنى ، ويجدر به أن يجرب ضميره هو فى هذا الميدان » لكنه والمغفرة والندم من عمد المسيحية لابد من سماع بسمارك يقول مغتبطا وهو يسمع الحكمة الفندية القديمة : « لا تندم أبدا ، لا تغفر أبدا ! » وقد كتبها ضابط على رنك أسرته : « لقد اتبعت هذه الحكمة فى حياتى طويلا بوصفها خير مبدأ » . وقبل أن تبدأ الحرب مع النمسا يكتب الى الكونتات هذه الجملة الشيطانية من جمل الفرسان : « لقد ألقى الزهر ، وثقتنا كبيرة ، لكنه ينبغى الا ننسى أبدا أن الله تعالى يرضى اليوم ويسخط غدا ! »

الله والملك

انه اليوم كما كان ذات يوم يعلق ملكيته على مسيحيته كما يعلق الترس على شجرة ويرابط فى ظلها ، وكبرياء بسمارك تدفعه الى الدماء أو الى الثورة لو انه لم يوح الى نفسه على الدوام « بأن سلطة الملك من سلطة الله . » وقد قال مرة على المائدة فى حفل كبير : « لو كففت عن أن أكون مسيحيا لما خدمت الملك ساعة فوق ما خدمته . والعيش امر لابد منه ، غير ان وجاهتى تكفينى ، فما كنت لاحتاج اليه .. والالقاب والنشانات شىء لايستهوينى ، فالأمر عندى ايمان بحياة بعد الممات . ومن ثم أنا ملكى ، والا لكنت بطبيعتى جمهوريا . أجل انى جمهورى الى أبعد حد . انه لم يثبتنى منذ عشر سنوات الا ايمانى الراسخ .. فلو لم أكن استند الى الدين وأساسه البديع قطعت علاقتى بالبلاط من أمد طويل ! » ويرد أحدهم على ذلك بقوله ان كثيرا من الرجال خدموا الملك لمجردشعورهم نحو الدولة ، فيجيبه بسمارك : « ان هذا الانكار للذات وهذا التفانى فى الواجب نحو الدولة والملك هو عندنا بقية ايمان الآباء والاجداد فى شكل متحول ، غامض ، لكنه مؤثر . فهو لم يعد ايمانا ، لكنه مع ذلك ايمانى . وما كان أحب الى أن اعتزل الخدمة ، فانى لاغتبط بحياة الريف وأسر بالغاب والطبيعة . جردونى من صلتى بالله انقلب انسانا يحزم أمتعته غدا ، وينطلق الى فارتسن ، ويزرع شوفانه . عندئذ تجردوننى من ملكى أيضا . فلماذا اذا لم يكن هذا أمر الله ، لماذا أجعل نفسى دون الهوهنتسلرن ؟ انهم اسرة شوابية لاتفضل أسرتى ، فلو تجردت عن دينى لاصبحت وليس ما يدعونى الى الاهتمام بها . وعندئذ أضحى شرا من جاكوبى الذى لا أعترض وقتئذ على أن يكون رئيسا للجمهوريه .. فانه ليكونن فى بعض النواحى أكثر فهما واقل كلفة على كل حال »

ان مجرى أفكاره هذا وقد أعرب عنه مرارا اعرابا شبيها بهذا ، لم يجره بسمارك فى أية مناسبة بأسخف مما أجراه بهذه المناسبة فانه حين يعد فكرة الواجب نحو الدولة آخر ما بقي من العقيدة يقرر شعورا عاما بالواجب لايسلم به لفرد من الافراد . ذلك انه وهو ينسب البواعث الشخصية الى كل تصرف صدر عن انسان فى ذمة التاريخ أو عن معاصر تجد أنه نفسه لم يستهوه الى ميدان السياسة ، ويدفعه الى خدمة الحكومة ، ويرفعه الى سلطان الدولة الا الطموح وارادة السلطة ، فلم تبعثه الى فعل ما لا يستطيع تركه بوصفه من شياطين البشر ، مخافة الله كما كان لوتر ، أو الاستعداد لمساعدة الملك كما كان رون ، أو واجبه نحو المانيا كما كان شتاين

جمهوري

وهو حين يعلن انه جمهوري يكون فى مشاعره الثورية الرجل الحقيق — لو ولد فى بلاد موتلي — بأن يسعى الى رياسة الجمهورية . فاعتداده بنفسه يملي عليه أن يرى أمته وطبقته وأسرته قوية مكرمة وفى الذروة فوق الجميع ، واحتياجه فى ذلك الى هذه الاسرة الشوابية التى كان اجدادها احذق أو أسعد من أجداد بسمارك ، واضطراره الى الخضوع لاناس يبزهم فى الذهن والمزاج ، ويفوقهم بالعاطفة والعبقرية ، قد كان ممكنا فقط بايحاء عقيدته الذاتى الذى سلم لكل أسرة متوجة بأنها تحكم بفضل الله

أو من أين أتت مشاعر النبالة فيه ، وهو فى الحلقة الثالثة حلولى يسخر من المسيحية ؟ لماذا كان هذا النبيل الكافر بالله يكره الاحرار الساعين الى جمهورية اليفة ، بينا يحكم اليوم معهم الوزير المؤمن ؟ أكان يومئذ عدو الله ، اذن لجاز له بحكم منطقه المفتعل أن يكون على الاقل خصما للملك . أهو اليوم عبد الله ، اذن لوجب أن يبجل الملكية ، فهل هو يبجلها ؟ ان أحدهم ليسأله عما ينبغى أن يتعلمه الامير فيسر اليه : « ان الامير يجب فى الحقيقة أن يربى على الطريقة الفارسية ، أى أنه يجب أن يتعلم الركوب والمبارزة . فاذا أراد فوق ذلك ان يدرس مهنته الحقيقية فيجب أن يتعلم : ان يطيل الوقوف كثيرا ، وان يقول لكل غريب كلمة طيبة ، وان يكذب فليس الامير بحاجة أبدا الى أن يقول الحق المؤلم ، فهذه مهمة وزرائه . أما ملكنا فلا يفهم الكذب بتاتا ، فهو اذا شرع فيه انكشف على بعد عشر خطوات »

وكيف يتحدث عن الاسرة المالكة ؟ : « اننى الى الآن اذا توجهت مع الملك الى الصيد فى ليتزلنجن ، فالى الغابة القديمة التى كانت لاسرتنا . فبورجنشتال قد اغتصبها الهوهنتسلرن منا قبل ثلاثمائة سنة حسدا منهم لنا على الصيد ، وكان يومئذ من الغابات ضعف القائم منها الآن ، وكانت قيمتها كبيرة فوق ماتتيحه من الصيد . واليوم تقدر بالملايين . يومئذ انتزعوها منا بمختلف وسائل الضغط والاغتصاب ، فكان اذا رفض المالك خرقت القوانين معه وسجن بطعام مملح دون شراب ، واذا عوض عن ملكه لم يبلغ التعويض ربع قيمة الملك » . هذا هو ايمان بسمارك بفضل الله أوتيه الهوهنتسلرن ، وفضلهم به عليه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مفيستو

أن خير مايعرف بسمارك كراهيته المتأصلة ، فهو لايستشهد بمفستوفوليس عبثا ، وهو يحفظ مواضع طويلة من فاوست الجزء الاول عن ظهر قلب ، ويجيد اعادتها . وبسمارك هو قائل هذه الكلمة المدهشة : « أهدى اليك ثلاثة أرباع ما ألف جوته ، والباقى - على التحقيق - ليتنى أعيش بسبعة أو ثمانية أجزاء من الاربعين جزءا فى جزيرة قاحلة » . وفيما خلا ذلك يصفه بأنه صبى خياط اذ يستشهد به : « هنيئا لمن يستطيع أن يعتزل العالم من دون بغض ، وأن يضم الى صدره صديقا يقاسمه متع الحياة : ان من يستطيع هذا الشعر صبى خياط ! أنظر بالله : من دون بغض ، وصديق الى صدره » . وحين يرى ابنة كيزرلنج شديدة التحمس للمأساة ، وتود لو كانت بطلتها ، يقول بأسلوب أهل مارك : « أتريدين كفالنشتين أن تموتى من يد شقى فى حانة حقيرة ؟ » ويتحدث كويدل عن الخوف والعطف ، فيرد بسمارك على الاثر ردا حاميا : « أجل انى لاحس الخوف والعطف حتى لأهم فى المسرح بأن أمسك بخناق المجرم » . بيد أن كويدل الخبير بطبائع الانسان يتعلق فى الدراما « بالفكرة » الظافرة . وهنا يلتفت بسمارك الى الاوزة المحمرة ويسأل : « هل يؤكل الاوز فى أقاليم البحر البلطى بالبطاطس أم بالتفاح ؟ انى أفضلها بالبطاطس »

الجائب

وبسمارك مايزال يستمع الى الموسيقى وهو يطالع أو يشتغل ، فحين يبيت مستشارا للريخ يرفض سماعها بتاتا لانها تطرد النوم من عينيه

وحالته النفسية الأساسية هى فى العموم حالة المتجول الذى لايستقر ، لكنها حالة تستفحل مع الايام فاضطرابه الباطنى يتفاقم بازدياد توفيقه وبلوغه من السلطة مالم يحلم به فى مبدأ الامر ، فكأنما كان يرجو من شعوره الفاوستى الشفاء بتحقيق رغباته ، ثم وقف اخيب املا مما كان من قبل : « ان فاوست يشكو من الروحين اللتين فى صدره . لكنى آوى من الأرواح عدة لاتنفك تتخاصم . ان الامر يجرى عندى كما يجرى فى جمهورية . ومعظم ماتقوله هذه الارواح أشاطرها اياه . بيد ان هناك أيضا اقاليم عديدة لا ادع غيرى أبدا يطلع عليها » . هذه الاقوال التى يقولها وهو مسافر فى مركبة يصحبه اثنان من مساعديه أحدهما غريب عنه ، تعبر فى الحقيقة عن السخط أكثر مما تعبر عن الوحدة ، أو لما نطق بها . وهو يكتب الى ذويه فى الأعياد أصرح من ذلك فيقول : « ان اضطراب كيانى لايحتمل .. فهذه ليست الحياة التى ينبغى أن يحياها نبيل شريف من نبلاء الريف .. انى أحن الى أيام أهدأ من هذه كنت فيها سيد وقتى وأسعد مما أنا كما يخيل الى الآن كثيرا ، وان كنت أتذكر جيدا ان الكلمة القديمة : post equitem sedet atra cura تنطبق على أيضا يوم كنت أمتطى كالب » . ان هذه

---

* ان القلق الاسود ينتشر خلف الراكب

النغمات التى بعثها تحد واهن للخلق المطبوع ، لترجعهـا أعمق ما تـكون رسالة لبسمارك الى أخته بمناسبة عيد زواجها الفضى يقول فيها :

« وددت لو بعثت معك تأملات كثيرا ماخضت فيها عن سرعة مضى الحياة بما يشبه الاحلام . ان المرء لايدرك الا متأخرا أنه كان واهما حين ظن أن الحياة ستبدأ بالنسبة له قريبا فبلغ من انتظاره وطول ترقبه أن احتاج الى شواخص خمس وعشرين سنة ليتبين من كرة البصر الى الماضى طول الشقة التى قطع ، والمحطات التى مر بها طيبها ورديئها . فهل هو الدليل على أننا لا نشبع .. أو أنه خطأى أن المحطة الثانية تلوح لى دائما أكثر مضـايقة من سائر المحطات ، واننا لا نكف عن الاندفاع الى الامام بلا هوادة أملا فى محطة خير مما سلف من محطات . انى أتمنى لك من قلبى أن تحتفلى بعيد ميلادك بتلك النفسية الراضية التى يحب فيها المرء أن يهيب بسائق مركبة الزمن أن : تمهل يا صديقى ! وانى لاجدنى كافرا بنعمة الله انى لا أبلغ أبدا هـذه النفسية الراضية ، ومع ذلك فلى من بصيرتى مايدعونى كثيرا الى التفكير فى امرأتي وأولادى ، وفى أختى قبل كل شيء ، وفى أشياء أخرى سعيت اليها فى الدولة وفى البيت ، فلما ادركتها لم اقدرها »

ما أرق ما يتخلل تحليله القاسى هذه التأملات ، وما أبرع مايستر تهكماته فى نفس الوقت ! بأى تحفظ يضغط عمل الحياة بأكمله فى مقطع واحد ! ومع ذلك بأى هدوء تراه يشرح نفسه هنا بقلمه ، ويكشف نفسه ذلك المتجول دائما فلا يعد انتصاراته جميعا ، ومناضلاته جميعا ، والنتـائج العظيمة التى أسفر عنها صراعه عشرين عاما سوى محطات رديئة ظل يتوقع أن تتلوها أخيرا محطة خير منها !

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السادس عشر

حكم نابليون

لم يرد نابليون حربا ، لكنه كان بحاجة اليها . أما ما أرادته فرنسا ، وهل كان طموحها سببا لكراهيتها الوحدة الالمانية التى كانت تدنو شيئا فشيئا ، فأمر لايعرف على التحقيق . فان الغضب الذى تولاها فىأيام يوليه كان قاصرا على باريس ، وعلى جانب من شوارع باريس فحسب ، وحتى هناك كان ذلك بتدبير بضع صحف تخدم الحكومة . فليس اذن فى ذلك دليل قوى على حقيقة الشعور فيما سلف من أيام . والدليل الوحيد الذى يمكن أن يقاس به عمق شعور الشعب الفرنسى هو استفتاء مايو الذى أعلن به ، برغم الضغط والتزوير ، سبعة ملايين فقط تأييدهم لنابليون ، ومليون ونصف مليون من المصوتين ، وثلاثة ملايين على الاقل من المتنعين عن التصويت ، تأييدهم الناطق أو الصامت لسياسة دائمة من العمل والسلام . فهذه الامة الهادئة الميالة الى الاستمتاع بطبيعتها والتى لا يثيرها ويحرك عواطفها الا زعماء باهرون ، أو محنة قائمة ، لم تكن فيما يلوح راغبة فى منازعة أحد . وهذه النفسية بالذات كانت تعرض للأخطار فاتحا لامندحة له عن التألق ليبقى . ان حب الامة الفرنسية للسلام كان يتطلب الجمهورية ، ومن ثم كان الامبراطور ينشد الانتصارات ، ويرعبه وهو الرجل المريض المعانى أنه لا يضمنها

انه منذ مساومات لوكسمبورغ ونابليون يرى الحرب دانية لا مفر منها ، وقد كان بسمارك أقل فى هذا هما منه ، لكنه لم يكن من السهل عليه منع هذه الحرب فى ضجة لوكسمبورغ . وقد ارتبط نابليون بايطاليا والنمسا فعلا ، ووضع أخيرا فى ربيع ١٨٧٠ خطة مع أحد الغراندوقات لحملةمشتركة على بروسيا ، وعين فى نفس الوقت الدوق دى جرامون وزيرا للخارجية مع أنه لم يكن يحبه ، لكن التيارات المعادية لبروسيا فى البلاط وخاصة الامبراطورة ، كانت تتطلب هذا التعيين . وحين رغب هذا الدوق فى الزحف على بروسيا سنة ١٨٦٦ كان ذلك فيما قيل لانه بلغته كلمة بسمارك عنه وهى : « أن جرامون رجل غبى » فأقسم أن ينتقم . وهكذا كان كل شيء

معدا لحرب بين البلاطين ، ولم يكن ينقصهما سوى الحجة والذريعة فلم تلبث هذه أن عرضت !

أسبانيا

فقد كان الاسبان طردوا ملكتهم ، وسعوا على غير طائل وراء من يعوضها ، واتجهوا الى بيوت الامارة الألمانية وكانت زودت نصف أوربا بالملوك . فلما سئل فرع جانبى من فروع بيت هوهنتسلرن كان زود رومانيا بعاهل ، اتجه هذا البيت الفرعى الى الملك غليوم يسأله رأيه فعلم أنه غير موافق ، بيد أنه وجد فى بسمارك فى نفس الوقت من يتبع سياسة فتح الفروع الكثيرة لمتجره ومن السخف ان نفرض أنه كان يرمى بذلك الى اثارة الحرب مع فرنسا ، لكننا اذا أردنا أن نذهب بعيدا فذكرنا ما كان منه سنة ١٨٦٤ جاز أن نقول على الاكثر أن وجود عضو من آل هوهنتسلرن على عرش مدريد كان عنده خيراً من حالة الهدوء فى باريس ، وأن انتصارا ديبلوماسيا خير من عضو من بيت هوهنتسلرن وأن التفاهم مفضل عنده على الانتصار الديبلوماسى . ولما لم يكن يحدوه باعث أو رغبة ما فى حرب من أجل الالزاس مثلا ، بل رأى هذا الباعث يبدو له من بعيد من أجل توحيد ألمانيا ، فقد صمم من أجل هذا على قبوله واتخاذه ، ذلك أنه لم يكن يتصيد الذرائع ، بل لعله قدر ان فرنسا ستجد الذريعة التى تنشدها فى المسألة الاسبانية ، وكذلك كان مصمما قبل كل شىء على التريث .

فلما انذر بينيدتى من ثم فى مايو ١٨٦٩ بأن قبول التاج الاسبانى يثير نزاعا من الطبقة الاولى ، وكان ذلك قبل أن يتقدم باحتجاج رسمى ، تجنب بسمارك حمل مليكه على خطر هذا القبول ، وعد المسألة بحذافيرها شأنا عائليا لفرع الأسرة أن يفصل فيه بمحض ارادته : لا ارتباط وانما اخافة الخصم . ولقد تبين خطورة الأمر فى الحال : لكنه كيف يحمل الملك على رأيه وهو الذى عارض بالفعل فى مسألة رومانيا ؟

« والأسبان خليقون أن يعرفوا لالمانيا جميلها اذا هى جنبتهم تلك الأحوال المضطربة التى يخشون أن ينتهى بهم الامر اليها . ومن المفيد لعلاقاتنا بفرنسا أن تكون فى ذلك الجانب الآخر منها بلاد يمكن أن نعتمد على ميولها نحونا . وأن تضطر فرنسا الى أن تحسب حساب مشاعرها » . فبذلك يمكن أن يوفر فيلقان من فيالق الجيش ، وهذان الفيلقان ينفعان فى التأثير على الملك

دواع للحرب

واستطاعة بسمارك أن يجر الحرب بهذا التدبير ، وان يجرها فى نفس الوقت مبكرة ، أمر يعلمه ويقدم عليه . ولما كان يعمل لتعزيز سلطان بروسيا وحدها ، ويتوخى فى سبيل هذا السلطان أغراضا سياسية ، ولما كانت الألزاس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لاتهمه كما لم تهمه سيليزيا النمسوية فى سـنة ١٨٦٦ ، ولما كان لم يرد لا الآن ولا فى ذلك الحين غزو أرض ألمانيـة أو أجنبية ، بل أراد الزعامة السـياسية فى المـانيا فحسب ، فهو اليوم يمهد للحرب مع نابليون كمـا مهد اذ ذاك للحرب مع فرانسوا جوزيف : فكلا الحربين رمت الى انتزاع اتحاد شـمال المانيا ثم الاتحاد الالمانى . والرغبةالمعقولة التىحدتالسائسالالمانى الى جمع شتات مواطنيه على الرغم منهم هو السبب فى كلا الحربين . فلم يكن اذن فى ألمانيا مسألة الزاسية ، ولا فى فرنسا مسألة تتعلق بضفة يسرى للرين ، بل كانت كلتا المسألتين من صنع بضعة من ذربى اللسان فى كلا البلدين لاثارة شعبين مسالمين . وللسياسيين فى فينا وباريس فى الحيلولة دون اتحاد دولة من ألدول على حدودهم ما للعشائر الالمانية والعواهل الالمان من الحق فىنشدان هذا الاتحاد ولو جاء ناقصـا وتم بوسائل مختلفة كل الاختـلاف . وقول بسمارك فى نيكولزبورغ ان قتال النمسا لنا يشينها كما يشيننا قتالنا لها قول ينطبق فى هدوئه التام الواضح على الحرب الفرنسية أيضا . وما دامت أوربا الصغيرة مفتونة بالزعامة والسيادة وبالدول ألعظمى والمحالفات ، فلن يسمح لشعب أن يوحد وان يزداد بذلك سلطانه ، من دون حرب

تضارب البواعث

على أن بسمارك الذى ظل دائما ينشد الممكن لا المشتهى ، قد جره تمزق الالمان وتخاصمهم الى أن تتضارب بواعثه ، فلو كان بفاريا لحالت ارادته القوية دون أى اتحاد بزعامة بروسيا ، لكنه كبروسى أراد هـذه الوحـدة مدفوعا باعتداده بنفسـه ، وطبقتـه ، وأمته ، وهو فى نفس الوقت يتبين كسائس ، صواب فكرته من الناحية الالمانية ايضـا . وهـذه الاسـتبانة الافلاطونية تتزامل مع رغبته الطبيعية ، وقد جعلت هذه الرغبة مقبولة من الناحية الادبية ، وسهلت للرجل حتى فى شعوره التاريخى أن يضغط على دول الجنوب الضغط الذى لم يعترف به . فاذا لم يكن توحيد الامة ليتم الا بغضبة عامة ، فهل أسهل من التدخل الاجنبى فى اثارة هـذه الغضبة ! من هذه الطرق النفسية الملتوية كان التهديد الفرنسى حبيبـا الى بسمارك المحلل ، وكانت الحرب التى لم يسع اليها مما يرغب فيه كرجل دولة

وقد أثارت المشكلة الاسبانية عناصر الفصل ، وأضرمت المقـاومة نارة الديبلوماسية من جديد ، فهو يبعث الآن باثنين من رجاله أحدهما بوخر والآخر ضابط ، لينشطا المسألة بعد أن كاد يصرف النظر عنها : يبعث بهما سرا كى يباغت نابليون بالأمر الواقع ، ويلزمه الحجة اذا عارض . أوليس من حق أسبانيا الدولة ذات السـيادة أن تنشد ملكا لها حيث تشاء ؟ ويقـدم الطلب ، ويتم القبول فى سيجمارنجن من وراء غليوم الذىيوافقأخيرا كارها ، ويكون هذا كله بعد مناضلات داخلية حامية

وتذاع المسألة فى باريس قبيل نشرها رسميا فتقوم وتقعد لها ، ويطلق

جرامون بمقال واحد شبيه بالرسمى نباح الصحافة الباريسية فتصطنع الحنق « من أخذ فرنسا على غرة باختيار ملك من الالمان » ، يريد جرامون أخيراً أن يهزم بسمارك الذائع الصيت هزيمة علنية لانه يزدريه

قصيدة من الشعر

ويجلس بسمارك هادئا فى فارتسن يرعشه الصر فى قلب الصيف كما يصف لزوجته : « لقد أكلت سمكا نهريا وضأنا ، واليوم أكلت سمكا نهريا ولحم عجل ، وكذلك هليونا . والهليون هنا خير منه فى برلين . لقد نفح الصقيع أشجار زان، صغيرة فى فالديكن ، وسود بعض أدغال البلوط .. وكان ما أصاب وردك أشد وانكى .. فباتت ست أو ثمانى شجرات من شجره الفارع وليس فيها مايدل على الحياة .. وتبدو لطع بسيطة من الصقيع على بعض مواضع من القرطم فى الحقل . أما البطاطس ، عزاء بوميرانيا ، فيلوح أن قد نجا . لقد كنت آكل وحيدا كئيبا ، وأصعد الجبال فى الحر ، فيتجه تفكيرى كله الى جعة جريتس ، بيد أن هذه الجعة نفدت ، وكذلك جعة كليتيه . وشوبس عزائى الوحيد ، لكن فيها شيئا من جعة بوك يمنعنى من الاكثار منها . كنت أجول بعد الاكل فى الروض حول الاسيجة فرأيت أربعة غزلان بينها ثلاثة ذكور .. وقد نما ما غرست من أشجار الحور فى الغامرة البيضاء ، لكنه أصابها الصر .. والارض السوداء تحت أشجار الصنوبر الزاهرة أنقلبت بيضاء كلها من لطع الشجيرات التى ترتفع الى ثلاثة أقدام كأنها آس مزهر . وهى تسمى * sedum palustre ويطلق عليها بالبوميرانية اسم شفينه بورز ، وكذلك حصالبان برى .. انى اتوجه فى العاشرة الى النوم . أشد الناس اخلاصا لك »

الملايى

ويغدو عقيب ذلك فى غرفته ويروح وهو يملى ويوعز بما يريد أن يطبع ردا على صخب باريس ــ ذلك ان القنبلة كانت انفجرت فى تلك الأثناء . وما يملى ويوعز به « كوم كامل من المذكرات لمقالات وفصول كاملة مسهبة » فهو يريد رسميا أن يبسط كل شىء فى هدوء ، ويريد بصفة شبيهة بالرسمية أن يرد على جرأة فرنسا ردا حاميا : « فانه ليلوح أن الامبراطورة التى أثارت ذلك ترغب فى رؤية الحرب يندلع لهيبها على وراثة العرش الاسبانى .. ويشبه الفرنسيون الملايى الغاضب الذى يعدو فى الشارع والخنجر فى يده يطعن به كل من يعترض طريقه » .. ويقرأ بسمارك فى ٧ يوليه كل ماجاء فى الخطبة التى القاها جرامون أمس فى المجلس اذ يقول : « نحن لا نعتقد أن احترام حقوق شعب مجاور يلزمنا أن نطيق أن تجلس دولة أجنبية أحد

---

* نبات ينمو فى المستنقعات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمرائها على عرش شارلكان فتخل بذلك التوازن الحالى فى أوربا اخلالا يضر بنا ويعرض مصالح فرنسا وشرفها للاخطار . واذا كان الامر كذلك فاننا سنعرف كيف نؤدى واجبنا بلا تردد ولا ضعف ! » فتهب لهذا القول فى المجلس عاصفة من الاستحسان ، وحين يقرأ بسمارك هذا يقول : « هذه هى الحرب فيما يبدو ! فما كان جرامون ليخطب بهذه اللهجة وهو غير مصمم .. فلو أغرنا الآن على فرنسا لكان النصر لنا ! لكن هذا للاسف غير ممكن — لاسباب مختلفة »

ويكلف جرامون سفيره بمقابلة الملك غليوم فى نفس اليوم ، بحق ، لان بسمارك قد كان رفض اية مفاوضة رسمية فى هذه المسألة العائلية

تساهل الملك

والملك اذا ذاك رخى البال ، لايريد أن يقطع عليه استشفاؤه ، أو يمس مجده ، أو يزعج فى شيخوخته ، فهو من ثم يفاوض بينيدتى بدل أن يرده كما يحب بسمارك . وفى التاسع من يوليه يقول الملك للسفير الفرنسى وهو يشعر بغرابة الموضوع أنه يريد من كل قلبه أن يحمل ابن عمه على التنازل ، ويبعث اليه بأحد ياورانه الى سيجمارنجن . ثم يكتب الى الملكة : « أرجو ان يلهم الهوهنتسلرن الرشد ! » وحين يقرأ بسمارك هذا النبأ وهو فى فارتسن يهب حانقا ويصيح : « ان الملك يحاول الهرب ! » فالآن يشعر بسمارك أنه خدع ويحس عمل الملك تراجعا لبروسيا . فيعرض برقيا فى الحال أن يوافى الملك ، لكنه لا يتلقى أمرا الا فى الحادى عشر بعد أن يقضى يوما ينتظر على أحر من الجمر ، وفى الثانى عشر من يوليه يكون مع كويدل فى مركبة السفر ووجهته برلين ، لانه يريد أن يعرج عليها . وحين يدخل بعد سفر عشر ساعات فناء بيته الرسمى تقدم اليه برقية يبلغ من تلهفه على معرفة فحواها أن يفضها وهو ما يزال فى المركبة . وقد جاء فيها أن بينيدتى عاد الى الطلب فى أيمز ، وأن الملك عاد يرد عليه فى أدب . وكان مولتكه ورون مدعوين الى تناول الطعام ، فدخلا البيت فى أثر الوزير . واذ هم على المائدة وردت برقية تفيد أن المطالب بعرش اسبانيا تنازل

ينتقد الملك

ويرجع بسمارك الى هذا الموضوع فيما تلا من الايام فيكتب : « لقد كان أول ماخطر ببالى أن أستقيل من الخدمة ، لانى رأيت فى هذا التساهل المغصوب اذلالا لالمانيا لم أشأ ان اتحمل تبعته رسميا .. وقد كربنى هذا جدا ، لانى لم أجد وسيلة لاصلاح الضرر البليغ الذى كنت أخشاه على مركزنا القومى من اتباع سياسة التهيب — الا أن أسبب حربا . وهكذا عدلت عن السفر الى أيمز . ورجوت الكونت أويلنبورغ ان يسافر الى هنالك ليبلغ جلالة الملك رأيى . فلقد زج الملك بنفسه فى مركز لم يكن يستطيع أن يأخذه على عاتقه ،

وذلك بميله الى أن يتولى شئون الدولة وحده بشخصه . والميل لا الى الفصل فى المسائل الهامة شخصيا ولكن الى المفاوضة فيها مع ذلك كان عند مقامه السامى أقوى من أن يمكنه من الانتفاع الحق بالحماية المتاحة له . ويقع الذنب فى ذلك الى حد كبير على الملكة ، لانها تؤثر على الملك من كوبلنتس القريبة . وقد كان فى الثالثة والسبعين من عمره ، محبا للسلام ، يكره أن يضيع فى حرب جديدة أكليل الغار الذى فاز به فى سنة ١٨٦٦ . لكنه اذا لم يكن عرضة لتأثير النساء ، فقد كان احساسه بالشرف يوجه خطاه دائما . وقد أضعف شعور الكياسة الذى يحسه الملك نحو المرأة وفت فى قدرته على مقاومة منافسة قرينته له مدفوعة بما يحق للنســـاء من الهلع والجزع ، وما فيهن من نقص الشعور القومى

وبعد هذه الحوادث بعشرين عاما مايزال بسمارك يقذف ملكه وملكته بهذه الشكاوى ، لا بعد معركة خسرها فى ميدان السياسة كما فعل جرامون حين أفعم وصفه لتلك الايام بالملام يوجهه الى الامبراطور والبـلاط ، بل الاغلب بعد أن استأصل ماداخل الملك من نقص فى الشـــعور بالشرف ، وما كان فى الملكة من نقص فى الشعور القومى بأفعال وانتصارات قدرها العالم . فحنق بسمارك جد عظيم لأن الملك سمح لنفسه فى هذه « المسألة العـائلية » بأن يفاوض مستقلا عن كبير وزرائه . ومهما يكن من أمر فقد أبلغ بسمارك بيته أنه عائد ، لكنه لايعرف هل يعود وزيرا

خرق باريس

وتمر الساعات وهو مؤرق ، ويقضى ليلة يدبر ويرسم الخطط ، وتثور كبرياؤه ، وتتلظى بغضاؤه ! وفى صباح يوم ١٣ يتلقى ، لا من ايمز ، ولـكن من السفارة الروسية ، نبأ فحواه : ان باريس ماتزال غير راضية ! فيتنفس الصعداء ! ففى وسعه الآن أن يصطنع التذمر أمام السفير الانجليزى : « انه اذا تقدمت باريس بمطالب أخرى فسيرى العالم انها تسعى فى الحقيقة الى حرب انتقام . ونحن مصممون على الا نصبر على ضيم ، بل أن نقبل التحدى .. وليس يسعنا ان نرضى بالتخلف عن فرنسا فى التسلح .. فنحن بحاجة الى تأمينات وضمانات من خطر غارة مفاجئة ! فاذا لم يسحب ما جاء فى خطبة جرامون المهددة فلا ندحة لبروسيا عن طلب الترضية »

لقد قوم بســمارك ما كان فى الامر من عــوج ، وأمكن أن يحيـله لمصلحته ، وفى الواقع أن خصـمه الاعمى الذى لا يبـلغ شـأوه قـد أجرى فى يده كل الأوراق الرابحــة . فأمس وبســمارك جالس فى مركبــة السفر والامير قد تنازل عن تاج أسبانيا ، بعث جرامون الى بينيدتى ببرقية يكلفه فيها من تلقاء نفسه أن يحمل الملك على اصدار تصريح رسمى بالتنازل ، كما طلب الى وزير بروسيا المفوض أن يرجو الملك أن يوجه الى الامبراطور كتابا يقول فيه أنه لم يرد المساس بمصالح فرنسا وهيبتها ، وفى مأمول جرامون وهاتان الوثيقتان فى حافظة أوراقه أن يحرز غدا انتصارا فى المجلس . وفى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المساء يصطنع الحنق والتهيج فى سان كلود . وكان الامبراطور قبل ذلك بأربعة أيام قد رفض فى مرضه الشديد أن تجرى له جراحة الح عليه فى اجرائها ، مخافة أن يقضي بهذه الجراحة نحبه . وحقا انه ليذهب بعد ثلاث سنوات ضحية لهذه الجراحة ، فلو انه رضى أن تجرى له الآن لقضى بالمشرط ، لكنه ماكان غيره قضى من أجل ذلك رميا بالرصاص

يهدد الملك فى ايمز

ولما علم بسمارك بما طلب الى وزيره المفوض احنقه ان هذا الوزير لم يفعل سوى أن ينصح فى أدب بصرف النظر عن هذا الطلب ، فأقاله عن منصبه ، وابرق الى الملك فى ايمز على أثر ذلك يهدد : انه اذا استقبل بينيدتى مرة أخرى فسيستقيل . ويزوره مولتكه ورون ثانية بعد الظهر مدعوين الى مائدته ، فيبدى تذمره من جديد امام الجنرالين اللذين كانا الى امس يرغبان فى الحرب ، ويصرح لهما بأنه سيستقيل ! فيقول له رون ان هذا معناه الهرب ، بينا ينبغى على الرجال العسكريين ان يتحملوا ، فيهب بسمارك من مجلسه قائلا : « انكما كليكما كجنود مقيدان لا يسعكما ان تقررا شيئا فى حرية ، فلستما بحاجة الى أن تشاطرا الوزير المسئول وجهات نظره . ولست بقادر على أن أضحى بحاسة الشرف من أجل السياسة » . وهنا يؤتى اليه ببرقية شفرية من أيمز وهو على المائدة فيجدها من ابيكن ، فيتلوها وهى الوثيقة الهائلة ذات الاسلوب العجيب :

« كتب الى حضرة صاحب الجلالة : ان الكونت بينيدتى باغتنى وأنا أتنزه ليطلب منى بصورة بلغت أخيرا من الالحاح مبلغا كبيرا ان اخوله ان يبرق فى الحال بأنى أتعهد بألا أوافق فى المستقبل على ترشيح هوهنتسلرن لعرش أسبانيا اذا عادوا الى ذلك . وقد رددته فى النهاية فى شىء من الحزم ، اذ لا يجوز ولا يمكن ان آخذ على عاتقى مثل هذه التعهدات جملة ابدا . وقد قلت له بطبيعة الحال انى لم اتلق شيئا بعد ، وانه يرى بالتأكيد وهو يتلقى اخباره من باريس ومدريد قبل ان اتلقاها ان حكومتى لا يد لها فى الامر . وقد تسلم جلالته فى تلك الاثناء كتابا من الامير كارل انطون . واذ كان الملك قد قال للكونت بينيدتى انه ينتظر خبرا من الامير ، فقد قرر جلالته على اثر ذلك التبليغ وبناء على مشورة الكونت اويلنبورغ ومشورتى الا يستقبل الكونت بينيدتى بعد الآن ، بل أن يبلغه على يد احد الياوران : ان جلالته قد تلقى الآن من الامير توكيد الخبر الذى تلقاه بينيدتى من باريس ، وانه ليس لديه ما يقوله للسفير . وجلالته يترك لسعادتكم أن تقرروا هل ينبغى ان يبلغ مطلب بينيدتى الجديد ورفضه الى وزرائنا المفوضين والى الصحف فى الحال »

برقية ايمز

فلو جردنا هذه البرقية من اسلوب البلاط لدلت على غضب شديد : فانما

هى ماتقدم به اويلنبورغ بنــاء على تعليمات بسمارك : انها رمية تل ! لقد وصف وزير مستشار الاتحاد فى ايمز حنق مستشاره للملك ، واحاطهبنفسية مولتكه ورون ، كما لم يكتم عن جلالته غضب بسمارك من مسلكه ، ويجىء بعد هذا رفض بسمارك أن يوافى الملك بشخصه وبرقيته المهددة ! لقد حافظ الملك على ادبه حيال السفيرالفرنسى ولم يبد نحوه سوى شىءمن الحزم.. ولابد انهم جميعا كانوا حانقين فيما بينهم ، ذلك أنهحين يتكلم ابيكنالذىلايستطيع أن يمس ذبابة فكيف بدوق ـ انه حين يتكلم أبيكن هذا عنتبليغ وعن رفض ، فلابد أن تكون ألفاظ أخرى قد استعملت اثناء الاجتماع . بل أنه سمح لياور ووجب على هذا الياور ان يقول لسفير دولة عظمى أن الملك لا يرغب فىاستقباله بعد الآن وانه ليس عنده ما يقوله له فوق ما قاله ، ويعن أخيرا للسيد الهرم أو لعله أويلنبورغ أو أحد الياوران أن يذاع هذا الرد والصد فى الحال ، وأن يذاع بأشد لغة تخطر بالبال : عن طريق المفوضيات والصــحافة ! ثم يمسك بسمارك بالملك من حمائل سيفه كما فعل فى سنة ١٨٦٢ فى مركبة السـكة الحديدية بين جوتربوج وبرلين ، لكنه هذه المرة يفعل ذلك من ينوب عنه فيلمح للملك فى أدب أنه لم يكن حازما

فصل

وقد كان للبرقيــة على مائدة بسمارك أثر ماحق فى بادىء الرأى فأتلفت شهية الجنرالين « ومجا الطعام والشراب . فلما أعدت النظر فى الورقة وقفت عند تفويض صاحب الجلالة المنطوى على التكليف .. فوجهت الى مولتكه بضعة أسئلة عن مبلغ اعتماده على سلاحه ، وخاصة فى الوقت الذى يحتاج فيه اليه » . فأعلن مولتكه أن الاسراع بشن الحرب خير من التلكؤ . عندئذ تناول بسمارك قلمه الرصاص الضخم ، وأجمل البرقية غير المقروءة فى حضرة ضيوفه لتذاع بالصيغة الآتية :

« بعد ان إبلغت الحكومة الملكية الاسبانية الحكومة الامبراطورية الفرنســية تنازل الوريث أمير هوهنتسلرن قدم السفير الفرنسى الى الملك فى ايمز طلبا آخر هو أن يخوله جلالته ان يبرق الى باريس ان الملك تعهد بألا يوافق أبدا فى المستقبل على ترشيح الهوهنتسلرن اذا عادوا الى ذلك . وقد رفض جلالة الملك على أثر ذلك ان يستقبل السفير الفرنسى مرة أخرى ، وابلغه عن طريق ياوره المنوب ان ليس لدى جلالته ما يبلغه اياه فوق ما بلغه »

لاتزوير

والبيان بهذه الصيغة ليس فيه شىء مختلف ولاشىء مزيد ، بل فيه مواضع مغفلة . بل ان العبارة الشديدة ، عبارة « ليس لديه ما يقوله غير ماقاله » قد خففت بعبارة ارق فقيل « ليس لديه ما يبلغه اياه فوق مابلغه » . غير ان اذاعة هذا الامر على المفوضيات والصحف وهو الخليق ان يكون له تأثير هائل ، هو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من بنات افكار الملك وما اوصى به بل امر فى الحقيقة . وان منشىء البرقية ليسمع من الآن ترجمتها ، ويطرق سمعه كلمة «رفض» فى ملاحق ينادى عليها باعة الصحف فى الطرقات . ومع ذلك فليس هنا شىء مزور بل كل شىء فيها مضغوط : فالمنطاد الطويل ، العديم الشكل ، القليل الغاز ، الرابض من ثم فوق الأرض ، قد جعل ، بزم بعضه الى بعض ، أصغر حجما وأكثر استدارة ، فارتفع فى الجو سريعا ، وجذب آلاف الأنظار . فبهذه الصيغة استدرك الجواب الذى كان بسمارك خليقا أن يرد به على السفير الفرنسى بحق ، والذى كان سيقتضى الحرب أو الاذعان . فاذا سمى ليبكنخت هذه البرقية بعد ذلك « جريمة يكاد التاريخ لا يعرف مثيلها » ، فان الجريمة انما هى فى ذلك الشكل من المجتمع والدولة الذى يسر لرجلين او ثلاثة ان يثيروا الحروب من دون رجوع الى شعوبهم .

برقية أخرى

ويريد بسمارك أن يباغت ملكه أيضا : فهو يفكر فيه فى سرعة هذا القرار الذى تختتم به ، كما هو الشأن فى حياته كلها ، سلسلة أفكار تكونت مع السنين . يريد أن يربط الملك بكلمته ، فقد تنصح له قرينته غدا وولده بعد غد بالتعلق بأهداب السلام . وبسمارك يجعل الحرب بهذه البرقية أمرا لا مفر منه فى الواقع ، من دون أن يراجع مولاه فى ذلك ولو مجرد مراجعة لكن الذى يدل على مبلغ ميل الملك الى الحرب فى تلك اللحظة برقية أخرى من أيمز اذيعت كالاولى على العالم ، وفيها أن الملك رفض لثالث مرة فى يوم واحد أن يستقبل بينيدتى ، وهى كما يلى : « ان ماقاله صاحب الجلالة فى صباح اليوم هو آخر ماعند مقامه السامى فى ذلك الموضوع . وهو لايستطيع الا أن يحيل عليه » فهذه البرقية تؤيد صيغة بسمارك حرفيا !

ومسلك بسمارك يتمشى مع المنطق بعد أن أبدى القائد صلاحية اللحظة الراهنة ، وبعد ان برهنت السنوات الاخيرة على ان الحرب واقعة لا محالة ، ما دامت بغيته المانيا . واذ كان كعالم بالنفس يعرف أن نصف نجاحه وقف على حالة أوربا النفسية ، فانه يتبين هذا الطالع أسعد طالع له وينتهزه كيما يبدو فى قرارة الأمر وبواعثه أيضا انه المتحرش به ، واذا ما بدا للمولودين بعد ذلك ان توحيد الامة ذلك التوحيد المعقول كان يستحق ان تنشب حرب من أجله ، فقد أمكن أن يضطر الجار ، وهو من الناحية الأدبية ليس فى مركز اسوأ من مركز غيره ، الى قتال يرمى من ورائه على كل حال الى أن يمنع هذا التوحيد .

الطلقة

على ان بسمارك قبل كل شىء وقد وجد بعد ظهر ذلك اليوم باعثا

ووجد حالة أمكن أن تثير حتى فى آخر بفارى يعطف على فرنسا وآخر فيرتمبرجي يبغض بروسيا ، هذا الغضب المشترك الذى سعى اليه بسمارك . وبعد ثلاثة أيام كان لسان الشعب يردد أسطورة نزهة الملك الهرم المسالم عند العين ، وكمون الفرنسى الردئ له فى احد الادغال ، يتربص به كالقاتل . وقد توقع بسمارك بنظره الثاقب كل هذا فى لحظة ، وهو ينشئ البرقية قبل الساعة السادسة ليطلق طلقته المرعبة فى جميع عواصم أوربا قبل منتصف الليل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع عشر

وجاء خطاب العرش فى برلين وباريس يؤكدان – بعد ذلك بأسبوع – مترادفين أن العدو أرغم الأمة على امتشاق الحسام ، وان الله الذى كان فى عون آبائنا سيكون أيضا فى عوننا الخ . وقد قعقع البرلمانان بأسلحة الناخبين ، واعتمدا للحرب من أموالهم ، واستشاطا غضبا ، وكلاهما لا يعرف خصمه او يبغضه . لكنه لأول مرة فى التاريخ الحديث ينهض فى هذه الايام من شهر يولية أناس فى كلا البلدين هم فى ذلك الحين أدنى الى الجماعات منهم الى الجماهير ، فينعون الحرب . وقد وجه الى عمال الأمم جمعاء نداء من باريس : « بأن حربا من أجل مسألة تتعلق بالتوازن ، أو من أجل أسرة مالكة ، لا يمكن ان تكون فى أعين العمال اجمعين سوى جهالة واجرام » . ثم اهاب نداء مماثل بأشخاص عديدين . وقد رجعت صدى ذلك عبر الرين اجتماعات للسكسونيين والبفاريين ، الا بروسيا فلم يجرء احد فيها على شىء من ذلك ، ولم يسمح للخطباء الاشتراكيين فى برلين الا بأن يحتضنوا الفرنسيين لحمايتهم من نابليون ، وبأن ينصحوا بمحاربة الامبراطور . ثم جاء مجلس الدولية العام يعلن أن على العمال ان يساهموا فى الحرب الدفاعية الألمانية ، لكنه لا يجوز لهم أن يساقوا الى حرب هجوم

المعارضة

وقد قرر هذا الشعور باعتداء الفرنسيين موقف الراديكاليين فى المجلسين : ففى باريس صوت عشرة نواب ضد اعتمادات الحرب بعد خطبتى تيير وغامبتا النارتين وفى برلين امتنع ليبكنخت وبيبل عن التصويت حتى لا يدافعا عن سياسة بسمارك او سياسة نابليون . وقد اختلف الحزب الاشتراكى على هذا الموقف ، فكتب أولا : « ان انتصار نابليون معناه هزيمة العمال فى أوربا وتقطيع أوصال المانيا .. فمصلحتنا تتطلب القضاء على نابليون ، لان مصلحتنا تنسجم مع مصالح الشعب الفرنسى »

وبعد ثلاثة أيام قالت نفس الصحيفة التى نشرت هذا الكلام : « لتضرب القيصرية الالمانية والقيصرية الفرنسية احداهما الأخرى ومعهما طلاب الربح أما نحن العمال فلا شأن لنا بهذه الحرب ! » وفى اليوم التالى أعلن منشور يناقض ذلك . ثم سرعان ماتحدثت الأحزاب عن ملكية ليبكنخت ، وان كان

ليبكنخت بالذات قد عارض فى الاعتمادات ، فانشق بعضهم على بعض فى مسائل لا تمت الى الناحية الدولية بسبب

وكتب كارل ماركس الى انجلز فى الأيام الاولى مايدل على بعد نظره فى المسائل الأوربية فقال : « ان انشاد المارسيلييز مهزلة كالامبراطورية الثانية بأكملها .. ولسنا بحاجة فى بروسيا الى مثل هذه المهازل . « ويسوع عليك اعتمادى » ينشدها غليوم الاول وعن يمينه بسمارك وعن شماله شتيبر (رئيس البوليس) هو المارسيلييز الالمانى . وانه ليلوح ان الالمانى غير المثقف يسره ان ينفس عن عبوديته من دون خجل . فمن كان يظن أنه بعد اثنتين وعشرين سنة من عام ١٨٤٨ تكتسب حرب قومية فى المانيا مثل هذا التعبير النظرى ! » على أن هذه المناجاة بين المنفيين ظلت بلا صدى

خط يد بينيدتى

وقد عطفت أوربا على فرنسا ، وخشيت بروسيا . ولكى يحول بسمارك شعور انجلتره لمصلحته ينشر فى التيمس صورة زنكغرافية من مشروع المعاهدة الذى كلف بينيدتى أثناء المساومة على لوكسمبورغ بعرضه عليه ، والذى سمح فيه نابليون بالوحدة الالمانية على ان يبتلع بلجيكا ثمنا لذلك . فيرد بينيدتى علانية بأن الفكرة فكرة بسمارك ، وان التوقيع على المشروع من املائه ، فيرد بسمارك على الرد بقوله : انه طالما طرق هذا الموضوع مع نابليون ، فلو لم ينشر المشروع الآن لكان من المحقق ان يجيىء نابليون بعد اكمال تسليحه ويقترح عليه امام اوربا العزلاء وعلى رأس مليون من المحاربين أن يتعاقد معه على حساب بلجيكا . نفس مافعله بسمارك فى سنة ١٨٦٦ مع النمسا قبل اطلاق أول طلقة

والنقطة المهمة فى رد بينيدتى صحيحة ، فاذا صدقته أوربا فمعنى هذا أن أوربا تعتقد فى بسمارك المكر الذى لجأ اليه فى هذا الشأن . وقد لخصه انجلز يومئذ بقوله : « أن للمسألة ناحيتها الطيبة فى أن الأمر كله قد انكشف الآن ، وأن مابين بسمارك وبونابرت من خداع قد انتهى »

خيانة فردريك

اما مالم يعرفه احد فى ألمانيا وما لم يظهر الا فى مكاتبات الملكة فيكتوريا عام ١٩٢٦ فالجحود والخبث اللذان عرفت فيكتوريا أميرة بروسيا المولودة من أصل انجليزى ان تضربهما وطنها فى بداية الحرب . وليست فيكتوريا فى ذلك وحدها ، بل يشاطرها أياه زوجها بغضا اعمى منه لزعيم هذا الوطن . وقد سافر ولى العهد الى انجلتره بعد الحرب ، فكتبت الملكة فى مفكرتها :

« أورسبورن فى ٣١ يوليه ١٨٧١ : رأيت فريتس الطيب وتحدثت معه عن الحرب . فهو منصف ، ودود ، طيب ، ينفر من بسمارك أشد النفور ، ويقول عنه انه نشط ماكر بلا مراء ، لكنه ردىء ، عديم المبادىء ، يركز

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فى يده كل سلطان ، فهو الامبراطور الحقيقى ، الأمر الذى يكرهه أبو فريتس ، ولا يستطيع معه شيئا . اما مايتعلق بالمعاهدة التى نشرها بسمارك والتى يزعم ان بينيدتى اقترحها عليه فيرى فريتس انها من تدبير بسمارك ونابليون على السواء . ويقول فريتس انه يشعر كأنما كانا يعيشان فوق بركان ، وانه لن يندهش اذا حاول بسمارك يوما ما أن يزج بانجلتره فى حرب ! » هذا مبلغ اعتراف وريث هوهنتسلرن بجميل الرجل الذى ظفر له قبل ذلك بستة أشهر بتاج الامبراطورية المشتهى

ويعود كل شىء فيتحول فى الحال الى جانب بسمارك كما حدث فى سنة ١٨٦٦ حين يلوح أن المدافع التى لم ينصبها تجعله على حق . كذلك كان يصح كما كان الشأن فى مساء معركة كونججريتس أن يقول له ذلك الضابط بعد المعركة الأولى كما قال له يومئذ : « لقد بت عبقريا وقد نجح الهجوم ، لكنه لو كان العدو اجتاز الرين لكنت أكبر مجرم ! »

سيدان

كذلك هذه المرة لا مندوحة لرجل الدولة عن التدخل بعد نشوب الحرب ببضعة أسابيع ، فانه لما ناشد ومبفن السىء الحظ مولتكه فى الليلة التالية لمعركة سيدان ان يبقى على الجيش ، واشار باستعمال الرأفة مع الامة بجعلها أسيرة فضله تكلم بسمارك فقال : « انه يمكن الاعتماد على عاهل لا على شعب فى عرفان الجميل ، وأقل من ذلك الاعتماد على عرفان الفرنسيين بالجميل ، فانه لينقصهم كافة الاحوال الثابتة ، فحكوماتهم واسرهم المالكة تتغير بلا انقطاع ، ولا تحتاج احداها أن تحافظ على ماوعدت به الاخرى . ان الفرنسيين شعب غيور ، وقد حقدوا علينا لانتصارنا فى كونججريتس مع أن هذا الانتصار لم يؤذهم فى شىء : فكيف يحركهم أى كرم فيغفرون لنا انتصارنا فى سيدان ! » ويطلب تسليم الجيش الفرنسى بأكمله من دون سلاح او اعلام

سياسة الظافر

ويبدأ بسمارك سياسته حيال الجمهورية بهذا العناد المظلم ، ولم يكن يعيبه أن يتنبأ باعلانها وبأن اعلانها سيكون غدا . وتمر الأشهر الستة التالية وهو يكاد لايغير هذه السياسة فى مفاوضاته ، وهى سياسة الظافر بقضها وقضيضها ، لاهوادة فيها ولا لين ، ولا تتفق وسياسة نيكولزبورغ بحال من الاحوال . وقد أورد من أسبابها واحدا فى تلك الليلة وهو عدم ثبات حكومات باريس ، وسيبدى غير ذلك من اسباب . وتجره هذه السياسة الى ضم اللورين ويكون لها عواقب ليس لها انتهاء

وحين يستدعيه نابليون فى الثانى فى ساعة مبكرة من النهار ، ويلاقيه فى الطريق العام ومن حوله ضباطه على ظهور الجياد ، وهو فى المركبة ، يقول بسمارك فى هذا الشأن : « كان مسدسى مشدودا ، فلما رأيتنى

وحدى حيـاله وحيال ضـباطه الستة القيت نظرة على هذا المسـدس وأنا لا أشعر . ولعلى مددت اليه يدى مستجيبا لداعى الغـريزة . وأحسب الامبراطور لاحظ ذلك ، فقد امتقع لونه حتى بات بلون الرماد » . فى هذه اللحظة كانت الشخصيتان ، وكان لقاؤهما فى نفس الوقت ، كأنما يسوق ذلك حكمة من الحكم : فالظافر يلفى نفسه فجاءة حيال عدوه جسما وروحا واحدا لقاء ستة فيمد يده فى اضطراب طبيعى الى المسدس الذى يحمله دائما ، والمهزوم فى مركبته يرى ذلك فيشحب لونه . وكلاهما يعرف انههنا لن يطلق النار أحد ، بيد أن كليهما يتصرف مدفوعا بغريزته كأن من الممكن أن تنطلق الرصاصة فى أية لحظة

حديث كوتيون

والحديث الذى أداره كلاهما فى حجرة نساج حقيرة تقع على الشارع ، يبيت بعد هذه اللحظة قليل الفائدة . وقد أسماه بسمارك حديث كوتيون وأبدى فيه كياسة وحذرا ، وكان فيـه متفقا والامبراطور ــ بعد الأوان على كل حال ــ على أن كليهما لم يرد حربا . وفى هذه الساعة لا يشعر المبغض العظيم بشىء من شهوة الانتقام وقد نعم بها فى مواقف أخرى . ولم يكن جرامون هو الجالس أمامه ، الشاكى وهنه فى مرضه ، بل كان نابليون الذى وصفه قبل خمسة عشر عاما بأنه رجل عديم الشأن ، لكنه طيب القلب ، والذى لم يبغضه قط بل خشيه أحيانا . لكنه كان دائما يفكر فى كسبه : فالآن يجب أن يتأمله شأن الرجل الذى لبث طويلا يطلب امرأة ثم فاز بها متأخرا ، فانه لا يمكن الا أن يعطف عليها

وهذا الامبراطور الأسير يسبب له قلقا فى الحق . وقد قال فى تفـكيره الخاطف وفى مسـاء المعركة بعد أن سلم نابليون : « لقد بات السلام الآن قصيا » . أجل انه ليجفل من التحول حتى ليفعل ما فعله فى كونججريتس فيعارض فى مواصلة الزحف ، ولا يرغب الا فى الاحتفاظ بالجزء الذى احتله من فرنسا رهينة فاوستيه ! ذلك أن جيش العدو قد أبيد أو أسر أو طوق كل التطويق ، وأن الأمة التى عدمت زعماءها سوف تتمزق شيعا وأحزابا ، وتذعن ضعفا ، فلو أن بسمارك تمكن من تحقيق هذه الفكرة كما حققها قبل أربع سنوات لتوج الحنكة السياسية التى أبداها فى نيكولزبورغ . لكنه اذا كان قد لقى صعوبة فى صرف الملك والقواد عن فينا ، فان صرفهم الآن عن باريس من المحال . ذلك أن هيئة أركان الحرب مستعدة هذه المرة لمقابلة مثل هذه الارتجالات المدنية . والمدنى بسمارك يعلم أن صيرورته جنرالا فى تلك الأثناء لم ينفعه ، فانه حين صعد الى القطار ليقله الى الجبهة سمع بودبيلسكى من نصف الصالون المفتوح يقول : « لقـد احتطنا هذه المرة لمعارضة بسمارك ! »

لا ضم

بيد أن نداء ألمانيا بأسرها هو ما يكربه قبل كل شىء . فلقد كانت فيما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سلف تخشى الاستيلاء على فينا أكثر مما ترغب فيه . أما الآن فالصحافة تطالب بغتة بالألزاس ، لتأمن غارات العدو الوراثى فى المستقبل

والاشتراكيون هم وحدهم الذين أعلنوا أن الحرب تعد منتهية بسقوط نابليون . فقد أعلنت الجمهورية فى باريس فى ٤ سبتمبر ، وأعلن فى الخامس فى عدة اجتماعات حاشدة العطف على هذه الجمهورية . وباتت صحف العمال من ذلك الحين تصدر كل عدد بهذه العنوانات : صلحا عادلا مع فرنسا ! لا ضم ! معاقبة نابليون وشركائه ! وأذيع فى نفس الوقت منشور لكارل ماركس فى جميع نواحى ألمانيا تكهن فيه « بعداوة مهلكة بين البلدين ، وبهدنة بدلا من السلام » اذا ضمت الألزاس . وأمر اثر ذلك جنرال فى داخل البلاد بالقبض على لجنة الحزب وسوقها مكبلة بالاغلال الى احدى القلاع ، ولما اعتقل أيضا يوهان جاكوبى الذى ألقى فى كونجزبرج خطبة ضد الضم تحرك الديمقراطيون القدامى ، فكتب كارل ماركس فى منتصف أغسطس يقول : « ان شهوة الألزاس واللورين تسود طبقتين فيما يلوح : العصبة البروسية ووطنية الجعة فى جنوب ألمانيا . وانه ليكونن أفدح مصاب ينزل بأوربا وبألمانيا على الأخص .. حقا لقد كان ينبغى أن يتعلم البروسيون من تاريخهم أن الأمن من عدو مهزوم لا يكون بتقطيع أوصاله و . الخ »

جارنا العظيم

على أنه لاح بادىء الرأى أن بسمارك أيضا يؤمن بكل ذلك ، فقد أكد فى خطاب العرش عند نشوب الحرب : « ان الشعب الالمانى والشعب الفرنسى وقد نعم كلاهما على السواء ببركات المسيحية والرفاهية المتزايدة ، وتطلع الى ذلك ، قد خلقا لتنافس أشفى من مباراة دموية بالسلاح . ولقد عرف أولو الأمر فى فرنسا حقا أن يستغلوا اعتداد جارنا الشعب العظيم بنفسه فى مصالح وأهواء شخصية ، وهو اعتداد لا مطعن على حق هذا الجار فيه لولا أنه يهيجه » . وما كان مواطن عالمى ليستطيع أن يخاطب عدوه ويخاطب أوربا فى نفس الوقت وفى أول يوم لنشوب الحرب بأجلى ولا أنبل من هذا الكلام ، ولا رجل دولة ليفرق أبدا بين أمة وحكومتها بأوضح من هذا . والشىء الوحيد الذى يصح أن بسمارك لم يفكر فيه فى غمرة هذه الساعة هو هذا الانهيار السريع فى سلطان نابليون وشخصه . واذا كان اعتده ممكنا ، فلا بد أنه نسى أو غفل عن أثر هذا التغيير فى جانب من مواطنيه هو

وأكثر من ذلك! فانه لما وطىء الملك غليوم أرض فرنسا فى منتصف أغسطس بدأ بسمارك منشوره بهذا : « بعد أن هاجم الامبراطور نابليون الأمة الألمانية فى البحر والبر وهى الأمة التى رغبت وما زالت ترغب فى أن تعيش فى سلام مع الشعب الفرنسى .. » وأصدر فريدريك كارل فى نفس الوقت أمرا للجيش جاء فيه : « ان الشعب الفرنسى لم يسأل هل يريد أن يخوض حربا دموية مع جاره . انه ليس ثمة سبب للعداوة »

تحول

والآن مع ذلك ، فانه حين يدخل أول وزير جمهورى للخارجية الفرنسية مقر قيادة الظافر بعدهذين المنشورين بخمسة أسابيع ليلتمس عقد هدنة تمهيدا لاجراء انتخابات لجمعية وطنية : ألم يكن لجول فافر أن يأمل ألا يكون هذا التفريق الصادق بين نابليون وشعبه مجرد كلام ؟ ألم يكن لخصوم هذه الحرب أن يتوقعوا الاعتراف لهم بالروح السلمى الذى أقام ذلك الشعب الدليل عليه باسقاط الحكومة القديمة التى كانت تشتهى الحرب ، واقامة خصومها فى مناصب الحكم ، وقلب الامبراطورية الى جمهورية بهذه الصورة الفجائية ؟ ألم يكن تيير وفافر هما اللذين استنكرا مع أصدقائهما الحرب فى أحسم مراحلها ؟ ورفضا اعتماد المال لها ؟ واللذين يتوليان الآن قيادة الجمهورية ؟

لكن الواقع لا يسمح للنظريات بأن تتحقق فى الحال ، كما أن المعارك التى كسبت لم تكسب من دون خسارة ، فان بسمارك الذى أبدى فى خطاب العرش أسفه لأن جاره ذلك الشعب العظيم قد استغلته قيادته السيئة فى مصالح شخصية ، والذى أعلن فى منشوره اننا ما نزال نرغب الى اليوم فى العيش معه فى سلام ، بسمارك هذا هو الذى يقول اليوم فى منشورين موجهين الى الوزراء المفوضين أن الأمة الفرنسية جمعاء مسئولة عن حرب الغزو . وحين يقول له فافر اننا طردنا امبراطور الحرب ، وأننا نريد السلم ، ونقدم التعويض ، يجيبه بسمارك وقد اتصل به أيضا وسيط مغامر من قبل الامبراطورة أوجينى :

« اننا لا يعنينا شكل حكومتكم . فلو ألفينا نابليون نافعا لنا مفيدا لمصالحنا لأعدناه الى باريس . ولو تأكدت أن سياستكم هى سياسة فرنسا لحملت الملك على الانسحاب من دون أن يطالب بشبر أرض أو يأخذ فلسا واحدا . لكنكم لا تمثلون سوى أقلية زائلة ، فليس عندكم ولا لدى حكومة تخلفكم ضمانة لنا . ومن ثم يجب أن نفكر فى أمننا وكفالته فى المستقبل ونطالب بالألزاس كلها وبقطعة من اللورين مع ميتس »

شكوك

هنا يقف جول فافر المحامى الباريسى ذو الوجه البديع ، والشفة الغليظة ، وقد تولاه الشحوب ، وألم بلحيته الطويلة الاضطراب ، فيتناول معطفه المغبر وقبعته ، ويعلن « لن تأخذوا حجرا واحدا من قلاعنا » ومع ذلك فان بسمارك الشرير يعجبه ، فيصفه بأنه « مؤثر ، قاس ، يلطف منه مع ذلك بساطة طبيعية تكاد تنطوى على الطيبة . وقد استقبلنى فى أدب وجد ، مجردا من كل تصنع وجمود ، فاتخذ وجهه سيماء من يريد الخير لى ومن يفتح لى قلبه واحتفظ بهذه السيماء الى النهاية »

ان هناك أشياء حاسمة ظل خطرها قائما نصف قرن ، تتولد من هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النفسية ـ نفسية بسمارك المتحولة ، وسيثبت تاريخ الأشهر التالية أنه أمكنه وحده أن يقرر كل شيء مع ملكه المسالم رغم أنف القواد جميعا. ومطالبته بالألزاس واللورين تأمينا للامبراطورية وللسلام مما يشوب ما كان له من رأى عميق فى الاشياء . ولم يمض الا عام واحد حتى كان يسر الى كيزرلنج : «وأخيرا الام يؤدى انتصار بروسيا وقد انتصرت؟ واذا كنا فزنا بالالزاس فعلينا أن نحافظ عليها وأن نظل محتلين لستراسبورغ ، وهذا محال . فسيجد الفرنسيون أخيرا حلفاء من جديد ، وعندئذ يمكن أن تسوء الحال ! »

فكرة كارل ماركس : هدنة بدلا من السلام ! لقد رأى بسمارك الحرب آتية فلم يكره أن تأتى ، ذلك أن غرضه الوحيد فى الحرب كان عندئذ اكمال تأسيس الامبراطورية ، فلم تكن أفكار بسمارك وأمانيه موجهة قط ضد جار ، لأن هذا الجار كان فحسب مصدر قلق . وقد نسى هذا الجار منذ ٥٥ سنة آخر زحف للألمان أو كاد ، لكنه منذ أربع سنوات فقط جعل نمو بروسيا يقلقه . ولا تجد منذ عشرين سنة فى أى من مذكرات بسمارك وخطبه ولا فى رسالة من رسائله الخاصة أو حديث من أحاديثه هذا القلق العصبى يؤلف باعثا من بواعثه ، ولا تقع فى أى موضع على كلمة العدو الوراثى ! حقا ان بسمارك لا يحب الفرنسيين ، لكنه من ذا الذى يحبه بسمارك ؟ أما الآن فقط وعلى حين بغتة فانه يبسط لنفسه على خلاف ما كان يرجى من منشوراته ، غرضا من أغراض الحرب هو أمن الامبراطورية التى هى وليدة هذه الحرب . وهذا تحول تام يلم بنفسيته الأساسية من ناحية السياسة العالمية : فبسمارك المعمارى يصبح دفعة واحدة بسمارك الغازى

أسباب الضم

وتتساءل أوربا : لماذا لا يبقى هذان البلدان على الحياد كما هى مشيئتهما ؟ فيرد بسمارك فيما بعد فى مجلس الريخستاج : « اذن لأصبحت هناك سلسلة من الدول المحايدة تمتد من بحر الشمال الى الألب السويسرية وتجعل من المحال على التحقيق مهاجمة فرنسا برا ، لأنا ألفنا أن نحترم المعاهدات والمحايدات ، (هتاف : حسن جدا !) .. ان فرنسا على هذا النحو تصبح ومن حولها نطاق يحميها ، على حين نبيت نحن معرضين فى البحر للخطر ما دام أسطولنا لا يبلغ شأو الأسطول الفرنسى . وهذا سبب من الأسباب ، لكنه ليس بالسبب الرئيسى » . فالسبب الرئيسى هو أن بلجيكا وسويسره ترغبان فى أن تبقيا دولتين مستقلتين محايدتين ، لا الألزاس واللورين .. « بل انه لينتظر أن العناصر الفرنسية القوية التى سوف تتخلف فى البلاد طويلا ، والتى ستجعلها مصالحها وعواطفها وذكرياتها متعلقة بفرنسا سوف تكيف هذه الدولة المحايدة بحيث تنضم الى فرنسا .. اذا نشبت حرب فرنسية ألمانية جديدة .. ومن ثم لم يبق الا وضع هذه القطعة من الأرض بقلاعها تحت السلطة الالمانية كل الوضع لتكون تقية ندرأ بها اعتداء فرنسا

عليها نفسها ، ولنؤخر ما يمكن أن يقع من هجوم فرنسى عدة أيام تستغرق فى الزحف »

نفور الألزاسيين

« وقد كان نفور السكان أنفسهم يقف حائلا دون تحقيق هذه الفكرة .. فقد كان هناك مليون ونصف مليون من الألمان قادرين على أن ينفعوا بجميع مزايا الالمان شعبا له مزايا أخرى غير هذه بالذات . وقد كان لهم من هذه الصفات مركز ممتاز .. فمن خلق الألمان أن تظهر كل عشيرة ألمانية تفوقا بعينه على جارتها ، وكان من وراء الألزاسى واللورينى ، وهما على فرنسيتهما، باريس ببهائها وفرنسا بعظمتها ووحدتها ، فكانا يقفان حيال المواطن الألمانى والشعور يحدوهما بأن باريس لهما .. والواقع أن هذا النفور موجود .. وأنه من واجبنا التغلب عليه بالصبر . ولدينا نحن الالمان وسائل كثيرة لذلك ، فمن عادتنا على العموم أننا فى الحكم أكثر ارادة للخير وتوطيدا للانسانية من الساسة الفرنسيين ، وان كنا أقل مهارة منهم (ضحك) ولا يجوز لنا أن يزهينا ذلك فنتسرع فى تصور أن الأحوال من حيث مشاعر الألمان ستكون فى الألزاس كما هى فى تورينجن »

هذه الآراء المتناهية فى الانصاف تنم عن القلق الذى يساور رجل الدولة ، فاذا جرؤ عقب صلح مكلل بالنصر أن يقول لأمته عن غنيمة الظفر أنه لم يبق الا قبولها ، فانما يدل هذا مرة أخرى على أنه راجع نفسه كثيرا وتغلب على كل اعتراض . بيد أنه لماذا قبل هذه الغنيمة ؟ انه لن يزال بعد سنين يؤكد لمثلى الاقليمين الجديدين انه أخذهما كارها مذعنا فقط للعسكريين

أسباب جديدة

وترجع الأسباب أولا الى حالة الجيش النفسية والى النفسية العسكرية : فثمة معارك كبيرة ، وخسائر فادحة ، وعدو ردىء السلاح ، وقلاع لم تصمد فى الغالب طويلا ، وليس من حول المرء سوى أمراء وقواد منتشين بخمرة الانتصار ! هذا الى كراهة حاسمة لغطرسة شعب لم يرد أن يصبر على جار فى مثل قوته ، وأخيرا يأتى اعتبار ألمانى قومى : فقد صرح ملك فيرتمبرج مرة لبسمارك أن انكشاف ألمانيا حيال فرنسا سيكون دائما عقبة فى سبيل الوحدة . وبسمارك نفسه يصوغ ذلك أمام الريختساج بقوله : « ان الاسفين الذى تدقه زاوية الألزاس عند ويسنبورغ فى جسم ألمانيا كان يفصل جنوب ألمانيا حقا عن شمالها كخط الماين السياسى » . ومع ذلك فهذا الاعتبار الواقعى الوحيد لا يتناول الا الألزاس والا جانبا منها

كان بسمارك فى هذا يضحك من عبارات « جميع الألمان » التى كانت البلاد تتشدق بها من الناحية المعنوية ، فما يحتاج اليه هو القلاع ، أما الألزاس (التى كانت ألمانية) فخاطر مما يجول بأذهان الأساتذة . فقد كان يعرف أن الألزاس ضاعت فى الحقيقة من جراء المسلك الذى سلكه الأمير الناخب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكبير حيال لويس الرابع عشر ، وأن الهوهنتسلرن لهذا بالذات ليس لهم كبير حق فيها ، كذلك تبين بسمارك فى الحال خطر ضم اللورين، وذلك انه قال فى ٦ سبتمبر : « انى لا أرغب فى الحصول على اللورين ، لكن الجنرالات يرون ميتس ضرورية لا غنى عنها اذ هى تعدل ١٢٠٫٠٠٠ جندى » وأنه صرح رسميا لأحد الدبلوماسيين الانجليز بقوله عقب ذلك : « نحن لا نطالب بالالزاس أو باللورين ، فلفرنسا أن تحتفظ بهذين الاقليمين بشروط تجعلهما كنقطتى ارتكاز عديمى الفائدة فى حرب ضدنا ، أما ما لا بد لنا منه فهو ستراسبورغ وميتس »

فكرة الريخ

على أن أبعد سبب اضطر بسمارك الى قبول الضم وقد بدا له خطره ، كان تفكيره فى الريخ الذى كان بسبيل التكون . « فالغضب المشترك » وحده قد كان فى نظره الوسيلة الوحيدة لتحريك الأنفس الجامدة والانة الصلب فيها . هذا الى الرهينة التى يجدها الحلفاء فى هذا الملك الجديد . وهذا السليل الذى سيشترك الجميع فى تربيته كان بسمارك ينتظر أن يكون باعثا مرموقا على الزواج وداعيا من أحب الدواعى الى الاتحاد

وقد قال ديلبروك خليص بسمارك فى يوم سيدان هذه الكلمة : « من أرض الريخ نبت الريخ ! »

الفصل الثامن عشر

يقترب بسمارك من ريخه فى هدوء المعلم . فكلما كتب كاتب فى برلين بعد المعركة الأولى التى خاضت غمارها بروسيا الى جانب بفاريا ، انه يجب أن يصبح غليوم امبراطورا ، كلف من يعلن الى وزير بفاريا المفوض غضبه من هذا القول « لأن أحدا لم يفكر فى تضييق استقلال بفاريا ، بل انه لأدنى الينا من ذلك أن نحفظ جميل الحليف المجيد . ووحدة ألمانيا لا تحتاج الى سعى أو صنع وانما هى موجودة بالفعل » . وهو بوصفه المتجر الأكبر يدع المتاجر الصغرى تتقدم اليه بالطلب . وسيسير على هذه السياسة ثلاثة أشهر أول ما يسير ، فهو يبعث بديلبروك الى درسدن ليتلقى الاقتراحات لا أكثر ، وهو يقول للفرتمبرجيين : نحن فى انتظار ما تعرضونه . وقد صمم على أن يستمع الى كل رأى ، ليفعل بعد ذلك ما يراه صوابا

وحقا انه لما تحرك شعب الفرديين الى الاتحاد كانت وسيلة كل من عشائر هذا الشعب تختلف عن وسيلة العشيرة الأخرى ، فكان أن كافح بعضهم بعضا : العشائر والطبقات والاحزاب وأصحاب النظرات الى العالم جميعا مصممون على ألا يعمل أحد بوصفة جاره ولو ذهب الاتحاد الالمانى الى صقر ... فالبروسيون القوميون يريدون عاهلية ألمانية تحت حكم الهوهنتسلرن ، والأحرار يريدون ذلك ، ولكن تحت سيادة الشعب الكامل ، والملك لا يريد شيئا اطلاقا ، لا امبراطورا ولا ريخا ، ولا يبغى سوى توسيع نطاق ارتباط الجيوش ، وولى العهد يريد الامبراطورية واخضاع أبناء عمومته لتاج الامبراطور . وليس سوى بادن من تريد — أميرا وشعبا — أن يكون الريخ بزعامة بروسيا ، وفى بفاريا تريد الحكومة اتحاد جنوب ألمانيا مع النمسا ، بينما تدخل المدن الكبرى فى اتحاد شمال ألمانيا ، على حين يؤثر الملك أن يعفى من سماع أى شىء . وفى فيرتمبرج تدس الملكة الدسائس لبروسيا ، يريد الأحرار فحسب الدخول فى نوع ديمقراطى من ألمانيا الشمالية ، وفى هس يقترح وزيرها القوى دستورا لا يريده ، فقط لان المستشار راغب عنه ، وبذا يشيع الاضطراب فى الامر كله على السواء . وأخيرا يذهب الجميع الى فرساى ، ذلك أن بسمارك يجلس هناك الى الموقدة ، ويعد العدة لاخراج المارد من القمقم

حلم ولى العهد

وولى عهد بروسيا هو عاهل المستقبل ، بخاصة وأول امبراطور يبلغ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخامسة والسبعين ، فهو بهذه المثابة ، وبمعنى معين أهم شخص ، فمنذ بدأت الحرب وبسمارك مختلف معه أشد الاختلاف . فادماج بروسيا فى ألمانيا، وحرمان العواهل الالمان الا من اللقب ومن حقوق فخرية ومجلس أعيان ، ومنح الهوهنتسلرن التاج الامبراطورى والسلطة ، وتخويل وزارة الريخ الحكم مع المسئولية أمام الريخستاج : هذا كله هو حلم ولى العهد بالريخ ــ ذلك الحلم الرومنتى الأسرى الديمقراطى . وقد أدلى به بحذافيره الى خليصه غوستاف فرايتاج فى منتصف أغسطس أثناء تقدمه فى احدى قرى الفوج : « لقد التمعت عيناه وانفجر يقول : كلا ، انه يجب أن يكون امبراطورا ! » ويروى فرايتاج : « فنظرت الى السيد مشدوها ، فقد كان يرتدى معطف الجنرال فضفاضا يتدلى فوق قامته المديدة كطيلسان الملوك ، وكان يتقلد قلادة الهوهنتسلرن مع أنه اعتاد ألا يحملها فى المعسكر أثناء الراحة ، ويخطر فوق الخضرة . وظاهر أنه كان يلائم بين مظهره وحديثه ، وأن خطورة الفكرة الامبراطورية كانت تفعم نفسه »

رؤيا شاعر

وعبثا أنذره الصديق الشاعر ، وتنبأ له بكافة الاخطار ، وبأن « سترة الهوهنتسلرن البسيطة الزرقاء ستصبح مجرد ذكرى تخرج كلما دعت الحاجة اليها من قلب الماضى . وقد بات من العسير الآن والرفاهية تزداد أن تحافظ فى منتديات الضباط على الدربة والبساطة القديمة ، ولن يتيسر ذلك فى المستقبل الا بأن يظل أمراؤنا على الدوام قدوة صالحة فى البساطة .. وكما هو الشأن الى الآن سيتسرب الى كيان الشعب شىء من الملق والذل لم يكن فى ولائنا البروسى القديم . وكل جانب يتطلب ما يقابله ، وهذا القرن الذى نعيش فيه يتخلله تيار سفلى ديمقراطى قوى ، فاذا عم الاستياء الشعب يوما لمصائب فادحة وسوء حكم هددت الأخطار الأسر الحاكمة القديمة أيضا . وأمراؤنا من الآن واقعون كممثلى المسارح فى مركز بين باقات الزهور والهتاف المتصاعد من النظارة المتحمسين ، على حين تتربص بهم تحت خشبة المسرح شياطين الهلاك ! »

وأصغى ولى العهد الى فرايتاج فلما انتهى من هذه الرؤيا البديعة انطلق ولى العهد يقول : اسمع ! ثم رد على هذه الانذارات الهامة بقوله ان الملك غليوم لما سأله نابليون كيف يريد فى معرض باريس أن يحل مسألة الترتيب بينه وبين القيصر ، أقر للقيصر بأن يتقدمه « لكنه لا ينبغى لهوهنتسلرى بعد الآن أن يقول ذلك ، ولا أن يطبق ذلك بعد الآن على هوهنتسلرى ! » بذا ختم ولى العهد اشارته فى عنف ، وختم فرايتاج روايته بقوله : « لقد يسرت لى هذه الكلمات أن أطلع على دخيلته فقد كان مفعما بكبرياء الأمير .. الى حد أن كل اعتراض آخر لم يكن تحته طائل » . وقد أيد الشاعر مشاعر الأمير هذه بعدة مناظر أخرى

فريديك ضد بسمارك

وبعد معركة سيدان عرض ولي العهد على بسمارك مسألة اللقب الامبراطوري فراغ منه بسمارك ، لكنه ما ان يجيء الى فرساي حتى تجيل هذه المخادع الفاخرة التي كان يسكنها ملك الشمس في ذهن ابن أخي فريدريك غليوم الرابع أن « ههنا بالذات يجب أن يحتفل بعودة لقب الامبراطور وعودة الريخ » . لكنه سرعان ما يستدرك فيقول : « لكني كنت خليقا ألا يغيب عن بالي قبل ذلك أن الكونت بسمارك بوصفه « سائسنا العظيم » لم يتحمس للمسألة الألمانية تحمسا حقيقيا .. بيد أنه اذا لم تتملكه النار المقدسة بعد أمثال هذه الانتصارات لا يبقى لأحدنا الا أن يذعن لما لا مفر منه ، ذلك أن موظفي ملك بروسيا لا يستطيعون أن يرتفعوا فوق صغائر الحكم البرليني .. فالويل لأولئك الذين لايتبينون الحقيقة في هذه الأوقات العصيبة التي نقضيها ، ولا يريدون أبدا أن يتعلموا أو يكونوا حكماء ! »

هذا هو الحكم الخاص الذي أصدره وريث بروسيا على الوزير البروسي وأودعه مفكرته في موضوع الريخ الألماني . وهذا السائس العظيم الذي سخر منه بعلامات التعجب موظف من موظفي ملك بروسيا ، فالويل له أنه لم يتعلم شيئا من الحروب الألمانية ! هذا الحكم الذي يرجع تاريخه الى أكتوبر ١٨٧٠ وتلك الافشاءات التي ترجع الى أغسطس ١٨٧١ تدل على أن الأسرة المالكة تتدهور تدهورا سريعا ، وتبدى الملك الهرم الطيب الذي يقول عنه بسمارك فيما بعد انه حمله على كتفيه الى عرش الامبراطور بطلا الى جانب ولده

ويقف الوريث عقيب ذلك حيال موظفه بشخصه . فيطلب اليه أن يهدد دول الجنوب لتنضم الى الريخ أخيرا ، « ذلك أنه لا خطر من أن نظهر لتلك الدول ارادتنا الثابتة ، فاذا ما وقفنا حيالها موقف التصميم والاقتضاء فسترى أنك لا تفطن الى كل ما تملك من سلطة ! »

حوار

بسمارك : « اننا نقف مع حلفائنا في الميدان متزاملين ، ولا يسعنا من أجل ذلك أبدا أن نهددهم ، فهذا خليق أن يلقى بهم في أحضان النمسا »

ولي العهد : ــ ان هذا يتوقف على ما نفعل ! فليس أبسط من أن نحمل العواهل الموجود معظمهم هنا على المناداة بالملك امبراطورا ، واعلان دستور بكل بساطة ! وهذا الضغط سيضطر الملوك جميعا الى الرضا به

بسمارك : « ان الملك نفسه لا يرضى بهذه الاجراءات »

ولي العهد : ــ اذا لم ترد أنت يا صاحب السعادة كان هذا بالتأكيد كافيا لأن لا يقبله الملك

بسمارك : « يجب أن تترك المسألة الألمانية للزمن »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولى العهد : ـ لكنى وأنا أمثل المستقبل لا يمكننى أن أنظر الى هذا التردد نظرة من لا يكترث !

بسمارك : « ما كان لولى العهد أن يبدى مثل هذه الآراء »

ولى العهد : ـ انى أمنع منعا باتا أن يحظر على الكلام على هذا المنوال . فلصاحب الجلالة وحده دون غيره أن يسمح لى أو لا يسمح بهذا الكلام أو ذاك !

بسمارك : « فليأمرنى ولى العهد أنفذ رأيه »

ولى العهد : ـ ليس لى أن آمر الكونت بسمارك . وانى لأحتج على هذا القول !

بسمارك : « انى مستعد فى كل وقت لأن أتخلى عن منصبى لكل من ترونه أليق منى بتصريف الأمور »

الديمقراطى الزائف

كان لولى العهد الحق فى كل انتقاد ، ولم يكن ملزما بأن يميل مع بسمارك ، فقد خول والده السلطة رجلا تتعارض أفكاره فى سياسة الدولة مع أفكاره ، واذا كانت طائفة من المواطنين تريد ألمانيا أكثر استقلالا مما هى فليس هذا بمحظور على وريث التاج : فقط كان يجب أن تكون أفكاره فى الدولة عن خبرة وعن احساس ، وكان يجب أن تكون هذه الأفكار بمثابة دين يدين به . أما أن تكون هذه الأفكار وليدة تأثير زوجته عليه ، وهى زوجة ترجحه عقلا وتفوز باعجابه ، ويفوز وطنها بتقديره على التحقيق ، أما ان هذا النسيج الانجليزى الأزرق ليس بنسيجه ، فما يدل عليه الخيط القرمزى البروسى الذى تخلل هذا النسيج بعد ذلك وشاع فيه . واذا كان هذا الهوهنتسلرى يريد أن يشرك شعبه فى الحكم على غرار انجليزى ، فانه فى نفس الوقت مصمم على أن يبسط سلطانه على العواهل من أبناء طبقته وأن يجردهم الا من الألقاب والشكليات

ان فريدريك يريد أن يسود وأن يحمل القرمز والتاج ويلبسهما زوجه ، لكنه لا يريد أن يكون الاول بين نظرائه وهو ما كان ينبغى أن يكون شعاره مع ذلك . انه يريد تهديد هؤلاء النبلاء المتمردين وارغامهم وأن يحط بغطرسته الملوك الألمان الى مرتبة النبلاء . واذا ما قال لبسمارك انه لا يفطن كل الفطنة الى سلطته فان هذا اللوم يصيب هذا الموظف لأول مرة بلا ريب وهو أمر يدعو الى الابتسام . أما أنه يخون رفاقه فى الحرب حين يقلب لهم ظهر المجن ، ويوجه ضدهم السلطان الذى أحرزه بمساعدتهم فما لا يخطر ببال هذا الضابط الذى يختلف فى عدم الوفاء هذا عن والده كل الاختلاف . وأن النبيل بسمارك ليبدو الى جانب هذا الديمقراطى المزيف أكثر أصالة ، مع أنه الرجل الذى هزأ « بأكذوبة السيادة التى لاتعرف ربا ولا حقا ، ويزعمها الامراء الالمان لأنفسهم » والذى ود لو خلعهم جميعا كما خلع أمير هانوفر وأمير نساو ،

لا من اجل شعارهما ، ولكن من اجل سلطتهما الفعلية التى لا يدع هو اى ريخستاج يحد منها . وفى أمثال هذه اللحظات التى تظهر الشخصيات تهول الأيام ، ولكن بغير طلقات المدافع وكرات الهجوم التى لا نتحدث فيها عن عنف ساعد ضعيف تلاشى أمام تدبير ذكاء قوى

كلمات فى ليلة عيد الميلاد

ومع ذلك تتجه العبقرية مضادة لريح الزمن ، على حين ينساق الوريث الباهت مع الريح ! انه نفس ولى العهد الذى سجل فى ليلة عيد الميلاد هذه الخلاصة الصائبة : « يخيل الى فى الوقت الحاضر أننا لا محبوبون ولا محترمون بل مهابون فحسب . ان الناس تعدنا اكفاء لكل عمل ردىء . وسوء الظن بنا يتزايد على الدوام . وليس هذا نتيجة الحرب وحدها ـ فقد جر هذا علينا نظرية الدم والحديد التى ابتكرها وأخرجها الى حيز الفعل منذ سنين ! ماذا تفيدنا القوة جميعها والمجد الحربى والبهاء العسكرى جميعه اذا كنا نقابل فى كل مكان بالبغض وسوء الظن .. لقد جعلنا بسمارك عظماء وأقوياء ، لكنه حرمنا أصدقاءنا ، وعطف العالم ، وضميرنا الحى . انى ما زلت اليوم على رأيى بأن ألمانيا من دون دم وحديد ، بل بالحق الطيب وحده ، تستطيع أن تحرز فتوحات أدبية ، وأن تبيت متحدة ، حرة ، قوية . لكن الشريف الجسور العنيف أراد غير ذلك . ففى سنة ١٨٦٤ أضرت مخاتلاته ودسائسه بالنصر الذى أحرزته قضية رابحة . وفى سنة ١٨٦٦ حطم النمسا من دون أن يوحد ألمانيا .. فما أصعب مكافحة هذه العبادة العمياء للقوة الغاشمة ، وما أشق تنوير الأذهان واعادة الطموح والمنافسة سيرتهما الأولى الى أغراضهما الجميلة السليمة »

خيالى وواقعى

هذه لغة تلائم أريستيدس أو لينكولن . ويجوز أن يتحدث بها اليوم وفى هذا المقام فرايتاج أو ليبكنخت لكنها لاتليق بقائد جيش يدع أعلام ألفيلد مارشال بلومنتال المظفرة تخفق باسمه ، ويريد أن يرغم أبناء عمومته على الخضوع وألا يراجع الشعب ، وأن يعلن الدستور بكل بساطة ، وأن يحمل فى ظرف ومهابة كما جرب ذلك فوق مرعى القرية . وهو فى ذلك لم يفقه تاريخ عشر السنوات الاخيرة ، والا فكيف كانت الحرب الدانيماركية رابحة اذا كانت الدوقيتان لم تنضما الى بروسيا ؟ وبم حطمت النمسا وقد أيد هو نفسه مطالب بسمارك فى نيكولز بورج لصيانتها ؟ لماذا ارجأ مستشار الاتحاد الالمانى الشمالى انضمام الجنوب وهو الانضمام الذى لم يحرزه الا الآن بفضل الدم والحديد ؟ حقا انه كان يمكن أن تتم ألمانيا من دون سلاح ! لكنه عندئذ كانت الاسر المالكة تفقد سلطتها على الاقل ، وكان لا يبقى لمنتقد ليلة عيد الميلاد سوى نفس الفروة التى يلبسها ٢٢ من أبناء عمومته معه ، وهو مصير ميمون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأمير حمته شيخوخة أبيه من التعرض للتجربة الكبرى ــ تجربة الواقع ، وحبته فى التاريخ بالترحاب الذى يكون من نصيب المثالى !

الى جانب هذا المثال لغير المكيافيلليين يخطو الواقعى العظيم الى الغرض الذى ينشده للدولة وهو مصمم . فاذا أراد ولى العهد الديمقراطى اعلان الدستور فى المعسكر ، فكر الوزير الرجعى فى دعوة الريخستاج الالمانى بأكمله الى فرساى ، واذا بدا هذا فى مبدأ الامر بمثابة تهديد للأمير المتردد كان بسمارك فى الحق الرجل الذى ينفذ التهديد : فهو يأمر باحصاء مخادع النوم فى القصر . وفى تلك الأثناء يجى وزراء دول الجنوب الاربع ويذهبون ، فبفاريا وحدها تعترض على ٢٢ نقطة فى المشروع فيرفض بسمارك كل اعتراض ، ويرحل الوزراء الى مونيخ ، ويسكن كل شىء من جديد

فى سبيل الوحدة

والآن يبدو بسمارك كما لو كان يريد التعاقد مع بادن وفيرتمبرج وحدهما وهو ما يلقى استعدادا من بادن على الأخص ــ بادن التى تريد بفاريا أن تتوسع من بلاتيناتها . لكنه هاهي ذي مصالح البريد والسكك الحديدية والبرق ترفع جميعها اصواتها السريعة ، وهاهم أولاء رجال العسكرية يطالبون فى نفس الوقت بشارات خاصة ، فيهدد الوحدة الالمانية بالاخفاق لون بنيقة . ويطرى الآن وزير من بادن بسمارك فيذكر له : « ذلك الاحساس الرقيق العجيب الذى لا يمس به أقل مصلحة للدولة الا عند الضرورة ، والذى ينتقل به الى جدول الأعمال متخطيا أهم المصالح البفارية ، اذا ما تطلبت ذلك التخطى مصالح للريخ أهم شأنا » واذ كان يريد الريخ ، فانه يتساهل فى شئون البذلات وغيرها من الاناقات . ويوافقون ويبدو كل شىء فيما خلا بفاريا مفروغا منه : ويراد التوقيع ، فتتدخل عندئذ ملكة شتوتجارت وهى روسية ، وتحمل زوجها الضعيف تحت ضغط بارون دساس ، على ارسال برقية يسحب فيها موافقته . ويؤثر الصبر على بفاريا ، ويتملك بسمارك وهو الهادىء فى ظاهره دائما لأنه لايجرى فيما يبدو وراء أحد ــ يتملكه الحنق وهو بين ذويه ويمرض ، ويفكر فى حشد جماهير ألمانيا الجنوبية ضد حكوماتها

ويعود البفاريون الآن فتنتفخ أوداجهم ، وحين يعودون الى الظهور بعد أسبوعين يتحتم التساهل معهم من جديد . ويضمن الدستور لجنة ديبلوماسية برياسة بفاريا ، ويستقل البريد والسكك الحديدية والبرق والجيش فى زمن السلم . وحين يضمن لبفاريا الضرائب على الجعة والمشروبات الروحية يبلغ بسمارك أخيرا مايسعى اليه : بفاريا الراضية التى توقع

ويدخل بسمارك الصالون بعد المؤتمر فى ذلك المساء من نوفمبر وفى يده قدح ، ويجلس الى معاونيه يقول : « ان المعاهدة البفارية جاهزة معدة للتوقيع والوحدة الألمانية قد تمت ، وكذلك لقب الامبراطور . ألا ان هذا الحادث لن ترضى عنه الصحف . ومن يؤرخ على النحو المألوف يسعه أن يقول : أن هذا الرجل الغبى كان ينبغى أن يطالب بأكثر ممـا طلب ، وكان يجب أن يفعل

كذا وكذا .. وقد يكون محقا فى « يجب » لكنه ماقيمة المعاهدات مع «الوجوب» انى أعلم أنهم انصرفوا مغتبطين . وفى المعاهدة عيوب لكنها بهذه العيوب أرسخ وما ينقصها سوف يكمله المستقبل .. انى لأعتد هذه المعاهدة من أهم مابلغنا فى هذه السنوات »

محفوف بالاسرار

وحين يتكلم بعد ذلك عن ملك بفاريا متشككا يقول ابيكن المخلص دائما : ــ لكنه فى الحق انسان لطيف ! فيحملق فيه بسمارك ويقول : « كلنا هنا ذلك الانسان »

بهذه البساطة المنطوية على التأمل يرضى بسمارك عن عمله العظيم فى المساء الذى تم فيه هذا العمل . لكنه حين يطول به الجلوس وهو يحتسى الشمبانيا غارقا فى نوع من الاستعراض والتأمل لا يهمه المستمعون ، يقول فجاءة من دون مقدمات : « سأموت فى الحادية والسبعين » ويستخلص ذلك من عملية حسابية لايفقهها المستمعون

فيقول أحدهم : ــ لاينبغى أن تموت فى هذا العمر قبل الأوان ! ولا مناص من طرد ملك الموت !

فيقول بسمارك هادئا : « بل فى سنة ١٨٨٦ ، بعد ست عشرة سنة اخرى . وهذا رقم محفوف بالاسرار »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل التاسع عشر

وتداخل بسمارك فى فرساى أحيانا أحاسيس تاريخية وسط عمله الواقعى فيقول مرة : « ان العالم اليوم عجيب . كل شىء فيه مقلوب وقد كان الى أمس قائما على رجليه : فقد يزور البابا قريبا مدينة بروتستانتية ألمانية : وفى فرساى يعقد الريخستاج ، وفى كاسل تعقد الهيئة التشريعية ، وغريبا لدى جنرال فرنسى ، وجنود البابا تحارب معه جنبا الى جنب ! » وحين ينتظر الملك لودفيج يقول : «لم أكن أظن أنى سأقوم ايضا بدور كبير أمناء تريانون مرة أخرى . ونابليون ؟ ولويس الرابع عشر ؟ ماذا كان هذا الاخير حريا ان يقول فى ذلك ؟ »

مطبخ

كانت حياة بسمارك فى هذه الاشهر الخمسة وقفا على العمل التافه ، فحالاته النفسية وقد سجلتها مئات الاحاديث لا ترتفع فوق المستوى العادى . وحين يسأل كيف يستمتع بهذه اللحظات يجيب هذا الجواب : « ليس فى الحياة السياسية غاية وقمة تتيح النظرة الراضية الى الوراء . انى لا أعلم ماذا يكون نصيب مازرعت اليوم » . اعتراف جديد بين فوست ومفستوفوليس . وفى أحاديثه على العموم من الغيظ والعداوة أكثر مما فيها من التأثير والروح . فاذا اغفلت احاديث المائدة التى يستأثر بها وحده شئون اليوم والغد واستنفدت النوادر التى يروبها عن حياته الخاصة ، فان أحاديثه لا تكاد تتناول بعد ذلك سوى الصيد والسياحة والمطبخ والنبيذ . فليس فيها شىء عن الشئون السياسية والثقافية التى تشغل ألمانيا بأسرها كالخطابات المتبادلة بين رينان وشتراوس مثلا ، وما يحكى من هذه الاحاديث عن عش الغراب والسمك والمقليات والمقانق ونبيذ الميدوك وديدزهايمر والشمبانيا وعن الانبذة الحلوة والفوارة يدل على الاهمية التى لهذه الاشياء فى حياة بسمارك اليومية ، فهو لايحتاج فقط الى كميات بل يحتاج أيضا الى الاطايب . وهنا أيضا تتبدى طبيعته التى تمتزج فيها الطاقة بالاعصاب امتزاجا خطرا

واذا دعاه الملك الى مائدته اكل فى بيته قبل ذلك او بعده ، وزعم «ان مايقدم هناك قليل ، فاذا لاحظت عدد قطع الكستليته لم أتناول سوى واحدة خشية

أن يخرج أحد الضيوف من دون نصيب فالكستليته بعدد المدعوين . ولست بمستطيع عقد صلح حسن الا اذا قدم لى طعام حسن وشراب حسن ! فهذا شيء تستلزمه مهنتى ، ومن ثم أوثر ان آكل فى بيتى » . وكثيرا ما يعود الى هذه الملاحظات حين يكون احد الياوران حاضرا .. ويذهب وهو على المائدة الى حد الوطنية المتطرفة فيعلن : « مثل هذا الارنب الفرنسى ليس شيئا مذكورا اذا قيس الى أرنب بوميرانى فليس فيه طعم الصيد ، وهو يختلف كل الاختلاف عن ارنبنا الذى يستمد طعمه الطيب من عشب البرية والصعتر .. ان اسرتنا جميعا اكالون فلو كان فى البلاد كثيرون على غرارهم لما امكن ان تقوم للدولة قائمة ، ولهاجرت »

نوم

ويشكو بعد عشائه الوفير من انه لا يستطيع النوم ، ذلك انه وان لم يتوجه الى النوم قبل منتصف الليل يتنبه منه فى الساعة الواحدة ، « وعندئذ تخطر ببالى أشياء كثيرة وخاصة حيث يكون أسيء الى . عندئذ أعد فى رأسى رسائل وبرقيات أيضا دون ان انهض من سريرى بطبيعة الحال . وكنت قبل الآن ولما ينقض على زمن طويل فى الوزارة ، أنهض من فراشى وأسطر هذه الرسائل والبرقيات . لكننى كنت حين أعود اليها فى الصباح ألفيها لا تستحق التحبير ، واجدها محض تفاهات مما يمكن ان يصدر عن حضرة صاحب السموفون فلان . انى أحب أن أنام . لكننى يجب أن أنام ، فانى أفكر وأضرب أخماسا فى اسداس» . ونوم الصباح ضرورى له ، لاغنى له عنه ، ولا يجرؤ احد على ايقاظه قبل العاشرة أو الحادية عشرة ، وهكذا تفوته المحاضرات العسكرية

ركبات

وهو لكى يجعل هذه الحياة التى يحياها سقيمة كل السقم لا يركب الا قليلا ويمشى بالليل على الاكثر وحده فى الحديقة التى تحيط بها الاسوار العالية اذا لم يحس ألما فى قدميه . ورأى هناك مرة سلما مسنودا الى السور « فأحسست فى الحال حاجة ماسة الى الصعود عليه ، فلو كان هناك حارس ؟ وقد حادثت الديدبان أخيرا أسأله : « هل يعتقد أننا سندخل باريس ؟ » وكان اذا خرج خرج بلا سيف « لكننى أحمل مسدسا لأنى وان أحببت أن أقتل فى ظروف بعينها ، لا احب ان اموت من دون ان يشعر بى أحد ! » وحقا انه لمكروه فى هذه البلاد . وقد تعقبوا معتديا اثناء الزحف مرة فكتب بسمارك الى زوجته يقول : « لابد ان الناس هنا يعدوننى مصاص دماء . فالعجائز حين يسمعن اسمى يخررن راكعات ويتوسلن الى ان ابقى على حياتهن . ان أتيلا بالنسبة الى كان حملا وديعا »

وقل أن عاودته نفسياته الحالمة القديمة ، فهو يكتب مرة فحسب فيقول : « لقد هربت اليوم من المضايقة لاركض فى جو الخريف البليل ، مخترقا رياض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لويس الرابع عشر ذات المماشى المديدة المستقيمة ، والعرائش الحفافةوالاسيجة المشذبة ، مارا بصفحات البرك الساكنة ، وتماثيل الآلهة المنحوتة من الرخام وذلك كى لا اسمع شيئا يشعرنى بالبشر اللهم الا رنين سيفجوزيفمن ورائى، وكى استرسل فى حنينى الى الوطن مع الاوراق المتساقطة ، ووحدتى فى الغربة، وذكريات الطفولة عن الاسيجة المقصوصة التى ألم بها الزوال » . هذهالنفسيات الشعرية لا تعاوده ، وان كان يحيا هنا فى الظاهر حياة اهدأ من التى كان يحياها فى برلين

أبوة

وزود ابنيه فى مبدأ الامر بقوله : « اذا جرح احدكما فأبرقا الى فى مقر قيادة الملك . . لكن لا تبرقا الى امكما قبلى » . واذ هو عند الملك مساء عقب معركة مارلاتور يدخل ضـــابط ويسر الى مولتكه الواقف خبرا يجفل من سـماعه فيبتدره بسمارك بقوله : « ايتعلق الامر بى ؟ »

الضابط : ــ لقد سقط الكونت هربرت بسمارك فى الهجـوم الاخـير الذى شنته فرقة الدراغون الاولى وجرح الكونت بيل جرحا بليغا

« ومن أين جاء الخبر ؟ »

ــ من قائد الفيلق العاشر

فيأمر بسمارك على الاثر باعداد الخيل ، ويمتطى جواده دون ان يلفظ كلمة ، ويبحث فى المستشفى فيجد بيل معافى وكان قد سقط عن جواده ، ويجد هربرت جريحا من طعنة حربة . وقد كانت ساعات البحث هذه أشق عليه من كل ما خبره فى الحياة منذ مرضه فى الروسيا . فلو أنه الفى ولديه ميتين كما لابد انه خشى ، لكانت تلاشت قواه كما كان شأنه حين أرادوا بتر ساقه ، ولاستعفى عقب الحرب . فالحياة من دون اولاد لا غاية لها عنده ، وما كان ليجد فى عمله العوض . ومع أنه لم يحمل فى تربيتهما هما ، ولم يبذل جهدا ، فقد كان شعور الفارس فيه يتطلب الوريث الذكر ويريد الاطمئنان عليه ، وكان بغضه للناس مما يزيده حنوا على ولده ، ودمه يطلب ضمانة للبقاء

الابنـــاء

ومن ثم تراه فى الحرب يفكر فى أولاده اكثر مما يفكر فى غيرهم . وبينما يدير فارتسن من فرساى مع المملكة فى وقت واحد ، وبينما يأمر برقيا باحتجاز رسالة بعث بها الى زوجه ، خشية أن يفتحها حموه بعد ارتحالها عن رينفلد وهو البالغ الثمانين من العمر ، ويطلع عليها القسيس ، فتتسرب بذلك الى الصحف ، تجده يفكر فى نفس الوقت فى ولده بيل وهل تراه يرتعش من البرد ، ويسأل زوجه هل لدى ولديه ملابس داخلية ، ويتضايق من انهما لم يتلقيا الصليب الحديدى الذى استحقاه ، لكنه يتحاشى ان يحث الملك على الانعام

عليهما بكلمة واحدة ، ويهدى الى هربرت الناقه سيفا جميلا بمناسبة عيد ميلاده ، ولا يسعى فى الحصول له بعد ذلك على مركز فى الجبهة ، عمـلا على الاخص برأى رون الذى فقد فى الجبهة ولده . وحين يسمع الناس انه زايله هدوءه فى جرافلوت وهو الى جانب الملك ، لانه علم ان ولديه فى حومة الوغى ، وانه كان واقفا هناك منحنيا الى الامام وعلى وجهه امارات انفعال لا يعرفها هذا الوجه فى العادة ، يصبح الشيء الذى لم يكن سبيل الى اثباته عندئذ مؤكدا ، وذلك ان رغبة بسمارك السياسية فى التعجيل بالصلح كانت تزجيها عاطفة الابوة فيه

اســـــتياءات

وهذا الضغط من كل الجهات ينال من أعصاب الرجل المسئول كما تنال أعصابه الثائرة من موظفيه فحين لاتثبت بالمداد هوامشـه المكتوبة بالرصاص فوق اضبارة من الاضابير يبعث بها فى تلك الاثناء الى المطبعة ينتهر المستشارين السريين فى الحال بقوله : « انكم تشيعون الفوضى فى المكتب ! نحن هنا لا نقوم بنزهة ترويحا عن النفس ! فاذا كنتم جميعا ستخذلوننى وتضايقوننى حتى المرض فانكم تكونون اسأتم اختيار اللحظة المناسبة لذلك ، اذ من العسير جدا ان تجدوا من يعوضنى »

وحين يقاطعه بأرون مرة أثناء حديث لا يديره على المائدة سواه تقريبا يقول له بحدة : « يجب الا يقاطع المرء آخر يروى شيئا ، فلقد اخرجتنى عن طورى. وقد كان يسعك ان ترجىء ما اردت ملاحظته الى ما بعد انتهائى » . بل ان أبيكن الطيب ليشكو الى زوجه ان اسوأ ما هنالك هو حين « لايريد الاصغاء الى مايبسط له من حقائق بسيطة لامندوحة له عن الاحاطة بها .. فهو لايرد فى الغالب على الشيء المراد ، بل يرد على شيء آخر يختلف عنه كل الاختلاف ولا يصغى الى ما اقول ، بل يفكر فحسب فيما يريد هو ان يقوله .. وهذا كله يحدث .. فى الغالب عمدا » . ويشعر بسمارك فى نفس الوقت بأنالناس تسيء فهمه ، وتبغضه ، ويشكو الى زوجه كيف أن حمأة الكراهية والبغض تظل تطغى عليه حتى تصل الى قلبه ، « فالمرء لا يكتسب اصدقاء جددا ، والقدامى منهم اما يموتون ، واما ينكمشون فى تواضع على مضض . وفتور من هم فوقنا يزداد ، وهو ما يلازم التطور الطبيعى للأمراء ، لا يستثنى منهم احد ولو كان خيرهم . انى مغرور ، واتوق الى ان أكون بجانبك ومعك فى عزلة الريف »

اغواءات

ويخالط الأجانب وحدهم فى مقر القيادة حذرا منه ، ويؤكد لجنرال أمريكى أنه كان منذ الصبا يتجه قدما نحو المذهب الجمهورى ، لكن أسرته هى التى صرفته عنه ، فألمانيا لم تبلغ من التقدم بعد ما يؤهلها للجمهـــورية . وكثيرا ما يستدعى مكاتب التيمس ويستقى منه أحيانا أكثر مما يستقى هو من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسمارك . وحين يسمع أن مندوبا لجريدة النويه فرايه بريسه موجود عند بوخر يدخل عليه على غير انتظار ، فهذا المندوب نبيل من نبلاء بوميرانيا حكم عليه فى سنة ١٨٤٨ بالاعدام ، ثم سجن ست سنوات : فهنا خصم خفى يجب أن يظفر به . فهو ـ أى بسمارك ـ يزعم أولا أنه يعرف وجهه مع أنه لم يره قط ، وهو يقول له : « اننا فى سن واحدة ، وقد حافظت جيدا على صحتك »

فيقول له كورفين مرحا : ـ انى استطيع أن أصف لك وصفة طيبة لذلك : ست سنوات سجنا انفراديا ! ـ ويعجب بسمارك هذا القول ، ويستفسر صاحبه عن كثير من أبناء عمومته ثم يعمد فجأة الى المقارنة الآتية :

« لقد نشأ كلانا فى ظروف واحدة تقريبا ، فقد أثرت مثلك مخاوف أسرتى من أفكارى الحرة ، وحلمت مثلك فى أوان باكر بتوحيد ألمانيا ، لكنى اصطدمت فى ذلك بقلة جدارة الكثيرين من زعماء الشعب فى سنة ١٨٤٨ . بلى ان المرء فى شبابه ليكونن أشد حمية ، فهو يطل على الاحزاب فتتماوج ألوانها لعينيه . ثم انك تعلم انه من العسير على المرء أن يتجرد كل التجرد من شخصيته كنبيل ، وهكذا ترى تصاريف الاقدار . وقد حملك رأيك الى السجن ، وحملنى الى المكان الذى ترانى فيه »

ويصغى اليه الصحفى مذهولا : فأى فن هذا الذى يلجأ اليه لاغواء خصم سياسى بالمقارنة ، والمغالطة ، والاشارات الباطلة ، وأية كياسة من هذا الذهن تلك التى يذكر بها خصمه بشخصيته كنبيل ولد نبيلا ، وبمذاهب حرة تقادم عليها العهد ، ونشأ عليها هو . هكذا يتملق بهذه المقارنة أجنبيا ، ويبلغ بذلك ما يريد ، فان هذا الاجنبى يبعث حقا بتقرير يسجل فيه الاثر الذى خلفته فيه حفاوة بسمارك به وأسفه له وتقديره لمصيره

دسائس الجنرالات

وينقسم أعداء بسمارك فى فرساى الى مدنيين وعسكريين ، الى بيروقراطيين وأمراء . وهو فى الواقع لا يطيق الا الفرنسيين . فان ستوش يكتب من مقر القيادة يقول : « لم أر قط امتعاضا من أحد كالامتعاض الذى يحس نحو بسمارك فى الوقت الحاضر ، وهو الذى لا يبالى ـ الآن خاصة ـ اى شىء فى سبيل تنفيذ أفكاره » . وقد كانت علاقاته مع هيئة أركان الحرب أسوأ العلاقات ، فهو يصيح : « ما هذا الجحود من رجال الحرب ، وقد كنت فى الريخستاج دائم العناية بهم . لكنهم سيرون كيف أتحول . لقد خرجت الى الحرب مؤمنا بالعسكرية ، فاليوم أعود الى الوطن برلمانيا قحا ! لن يكون بعد الآن ميزانية حديدية ! » انه يسمى ذلك مقاطعة عسكرية ، وفى الواقع لقد سعى العسكريون بكل الوسائل الى اقصائه عن مداولاتهم ، وكانوا يجرونها فى وقت نومه . « وقد كان رسل مكاتب التيمس فى العادة أكثر اطلاعا منى على النبات والماجريات ، وكان لى مصدرا نافعا استقى منه المعلومات . » حقا لقد كانوا فى هيئة أركان الحرب يراقبون من لعله يتصل بمستشار الاتحاد ، وينقل اليه الأخبار فى السر والعلن . وكان بسمارك يراقب من الجنرالات كما لو كان

محايدا غير مأمون الجانب . وترجع سخافة اخفاء العمليات الحربية عن رجل الدولةالمسئول الذى يساهم بحسابه فى تدبيرها وتنفيذها ــ الى غيرةالعسكريين من سلطانه ، وعلى الأخص الى الامتعاض من طريقته الديوانية ، اذ يريد أن يدير كل شىء بنفسه . وقد قال مانتويفل : « ان من العيب أن يكون نفوذ مثل هذا السياسى أكبر من نفوذ قادة الجيش ! »

وهو ثانية يفرض عليه منذ عشر سنوات أن يدع لأول مرة أمورا تجرى على مقربة منه دون أن يسمع فيها صوته ، وتقع على خلاف رأيه ، يراد منه أن يكل ملكه الذى لم يتركه لحظة بعيدا عن نظره ، الى الجنرالات الذين يؤثرون فيه أيضا من الناحية السياسية . وتتمرد كبرياؤه وديكتاتوريته واعتياده كأقوى رأس فى الدولة أن يكون الفيصل ــ يتمرد كل ذلك فيه على هذه العزلة بقدر ما يتقوى الجنرالات فيها . وبينا ينتقدون سياسة السلام وسياسته الخاصة بأمور الريخ ، ينتقد هو عملياتهم الحربية علنا لكى يتصل بهم لومه فيقول :

« ان القيادة العليا هى استراتيجية حجرة الدراسة . فالجندى هو الذى أدى كل شىء . وقد تم لنا الفوزلأن جنودنا أقوى أجساما من الجنود الفرنسيين وأقدر على الزحف منهم وأصبر ، واعمق شعورا بالواجب وأعظم اقداما . ولو كان لما كمهون جنود من البروسيين ، وكان لألفنزليبن جنود من الفرنسيين لمنى بالهزيمة »

بذلات بغيضة

وهو على مائدته ينتقد شتينمتز وألفنزليبن ، ويستدعى الوزير أويلنبورغ الى المعسكر ليرى « بين ذوى البذلات رجلا لطيفا » . وحين يشكو لفالدرسى وهو مريض يحتويه مكان بولغ فى تدفئته فيقول : « ان العمليات الكبيرة تخفى عنى ، والحوادث التى لها عندى قيمة كبرى أسمع بها اتفاقا » ، وحين يشكو ذلك يزداد ــ طبقا لهذه الرواية ــ « اتساع عينيه ، ويتصبب وجهه عرقا ، ويكون الى جانب السيجار القوى الذى يدخنه قد احتسى نبيذا قويا تدل عليه الزجاجة التى رأيتها »

لكنه يصرح للبرنس هوهنلوهه فى ايجاز بأنه منذ معركة سيدان لا ترتكب سوى الحماقات : « انى رأس عديم الشأن جدا ، وليست لى جدارة ما ، لكنى أزعم الكفاية فى شىء واحد هو الفن الاستراتيجى الذى افهمه . فبدلا من أن نركز قوانا فى غابة أرغون ، ونقف هناك ليصطدم بنا العدو ، نعدو الى باريس كالمجانين دون أن نعرف لماذا . ولقد احتججت على ذلك ، بيد أن مولتكه لم يرد أن يصغى الى صوت العقل »

ذلك أن مولتكه هو ألد خصوم بسمارك من قبل باريس ، فالنفور الذى ظل بينهما سنوات طويلة يجد اليوم طريقه الى الظهور

والتناقض بين الاثنين قائم منذ الشباب حيث للمرء فيما يبدو أن يختار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المستقبل الذى يريده لنفسه . فبسمارك كله عضل ، وجسم ، وارادة، ومولتكه كله عظم ، وقراءة ، وفكر . وفى منتصف العقد الثالث حين كان بسمارك يضمن رسائله سخرياته من نفسه ــ وهى سخريات مليئة بالغطرسة ــ كان مولتكه يصف نفسه فى قصة يروى فيها تاريخ حياته فيذكر : « خصلا شقراء ، حول وجه شاحب تقريبا ، لكنه أقوى ما يكون تعبيرا ، وجه عليه سيماء الجد وأمارات النبل وان لم يزعم لنفسه جمالا . ولصاحبه هيئة أنيقة ، وملامح لا تتأثر الا بما يجرى فى نفسه هو . وقد كان كالتيار العميق الذى يجرى بصفحته الملساء لا يلوى على شىء ، فاذا صادف فى قراره صخرا يعترضه أزبد وتغلب عليه » . هذا بينما روح بسمارك الدائبة الحركة قد كانت فى شبابه تشبه البحر

مولتكه

ومولتكه عطوف كريم مع الجميع معنى بجوهر الاشـــياء كرون وان كان أهدأ منه ، معتدل فى كل شىء ، معروف تقريبا ، لايحتاج الى العمل ليلطف من اضطرابه الباطنى بل يغلب باطنه الهادىء على كل اضطراب فى عمله ، قليـــل الكلام لا عن عمق ، ولا عن بغض للناس ، ولكن لأنه ليس لديه ما يشكو منه ، ولا ما يقوله ايثارا لذاته ، ولا هو يحتاج الى أن يخفى شيئا بقول أريب . ولا يصمت مولتكه عن تعال او اكتئاب ، ولكن لأنه يؤثر ان يتفرج على ان يشترك ، وحيث يشترك لا يحتاج الى متفرج . وطبيعته صباحية نيرة فى كل شىء حتى فى استجمامه ، ونومه ، وفى شرابه ومطالعاته . يفضل روضته على الغابة ، وينجز كل شىء بيده ، ولا يغفل فى تقاريره الى الملك حتى ذكر الاشجار التى نشرت والتى طعمت ، عديم الأولاد ، يفكر فى غيره دائما ، ويعيش بلا خادم دائما، روائى موتسارتى ، ومترجم أشعار أجنبية . حسب المرء أن يعكس كل مميز له ينقلب شخصا آخر هو بسمارك

ويزيد هذا التناقض بروزا أن مولتكه عديم الوطن ، فهو فى ألمانيته كبونابرت فى فرنسيته . وهو وان لم يختر لنفسه وطنا الا فى الثانية والعشرين من عمره اذ هو ضابط دانيماركى برتبة الملازم ، تراه يسدد بعد ذلك بأربعين سنة مدافعه كمدفعى ، فى رباطة جأش ، الى نفس التلال ، والاعلام ، والجنود الدانيماركية التى أقسم يوما ان يدافع عنها . واذ كان يحسب بالارقام لا بالعظائم كبسمارك وكان فى الخدمة رجلا فنيا محضا ، لا شخصية محضة كالآخر ، فقد استطاع أن يدافع عن هذا التحول بأسهل مما دافع بسمارك عن قرار اطلاق النار على الالمان . كذلك كان يعين له أين يوجه هجماته ، وكان بسمارك هو الذى يقررها ويسأل عنها . والسفر أحب الأشياء اليه ، فقد ظل سنوات طويلة فى بلاد الغربة ومنذ أهلت الاربعون وهو زوج لانجليزية كان يمكن أن تكون ابنته. وليس عليه سيماء الالمان لا فى الصورة ، ولا فى الكيان ، ولا فى حياته الدنيوية ، وكانت الصدفة خليقة أن تجعله ملازما فى الجيش الروسى ، وكان يمكن أن يتخذ فى الروسيا موطنه كما اتخذه فى الضيعة السيليزية التى قدمت له آنئذ ، وأن

تكون استراتيجيته هناك كما كانت فى برلين ـ الاولى . وهى استراتيجية تتسم بمواهبها وأعمالها بآصل طابع دولى

ضد مولتكه

ومثل هذا التناسق فى المواهب وأساليب الحياة ، وهذا الخلق الصموت المنطوى على نفسه لابد أنه كان فى نظر بسمارك أغرب مما كان بسمارك فى نظر صاحبه . وسوء الظن وحده هو الشيء المشترك بينهما الذى ترعى به هاتان الطبيعتان المتنافرتان كل التنافر احداهما الأخرى : فمولتكه لم يفهم كيف أمكن أن يعيش الآخر فى كل هذه الضجة الكبيرة ، وبسمارك لم يفهم كيف عاش مولتكه بهذه الضجة اليسيرة ، ومن ثم لم يتبادل كلاهما مع الآخر كلمة تدل على الصداقة كما بادلها رون كليهما . أما الآن والأمر يقتضى أن يشتركا فى العمل فان الاحتكاك بينهما يتزايد . وحين دعا مولتكه فى مساء معركة سيدان بسمارك المتعب الى الترجل عن جواده وامتطاء مركبته ثم هتف الجند لقائدهم مولتكه قال بسمارك : « غريب أن يعرفنى الجميع بهذه السرعة ! »

فسكت مولتكه ، ولم يذكرها الا بعد بضعة أيام وهو يبتسم

وفى أكتوبر يشكو المستشار من الجنرال لأنه لم يصغ الى شرحه « وكان سيماء الطير الجارح تزداد وضوحا على وجهه » ، بينا يصفه آخرون بأنه « يكاد يكون لوجهه سيماء اعتذارى »

وحين يجعل من جواز ضرب باريس بالمدافع وعدم جواز ذلك مشكلة من المشاكل ، وحين تندخل « اميرات انجليزيات وغير انجليزيات تدخلا انسانيا » فترين من البر ، على قول بسمارك ، أن تجوع العاصمة العالمية بدلا من أن تضرب بالمدافع ، وحين تنقضى أسابيع وبلاغات الجيش لا تحوى الى درجة الارهاق سوى عبارة : لا جديد امام باريس ، يأخذ رجل الدولة يرتعش من خشية تدخل المحايدين كما فعل فى نيكولزبورغ ، ويصب جام غضبه على رأس مولتكه الذى اعلن أن المدن الكبرى تسقط من تلقاء نفسها اذا ما طوقت

وهذه النظرية التى أثبت العلم الحربى بعد ذلك فسادها ، تخرج بسمارك الآن عن طوره ، فهو يشكو من الملك ومن مولتكه الى بلومنتال مر الشكوى ، وهو يسمع يقول وقد تملكه الحنق : « لقد تركانى لا أدرى شيئا وعاملانى معاملة خالية من الادب ، متسمة بالخشونة . اننى لن ابقى وزيرا ساعة واحدة اذا ما انتهت الحرب . فهذا الاهمال لى لن أطيقه بعد الآن . لقد عاد على بالمرض ، ولابد من أن أضع حدا له اذا كان لابد لى أن أعيش ! لقد كنت دائما معارضا فى حصار باريس وانى لأعده غلطة كبرى .. وقد كان أحب الى من هذا أن أعيد نابليون مع جيوشه الموالية له ، ذلك أن هذا الرجل المريض ليس خطرا علينا . بيد ان الملك لا يريد ذلك اطلاقا . لقد دخلت الحرب ملكيا ، لكنى اخرج منها شيئا آخر ! »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويشكو لبيننجسن : « انى سأنعم النظر فى الامر مليا : فاذا ظلت العمليات الحربية معطلة فسأركب جوادى الى الحدود الألمانية ومعى سائسى ! » ويشكو مولتكه من بسمارك فى نفس الوقت الى ولى العهد : « لانه يريد ايضا ان يحل ويعقد فى الشئون العسكرية وحده بلا شريك دون ان يسمع آراء الخبراء المسئولين . وخلا ذلك يوجه الكونت بسمارك الى هيئة أركان الحرب اسئلة ورسائل تتناول مسائل استراتيجية سرية من الاهمية بحيث اضطررت الى أن أرفضها مرارا وتكرارا . انى هنا مستشار الملك العسكرى . ولن يؤثر فى رأيى حكم الكونت بسمارك على الأشياء »

وفى منتصف ديسمبر يلجأ بسمارك الى وسيلته القديمة : فيضرب عن العمل ويظل أسبوعا محتجبا ، ويدع صحفيا يعلم عن هذا الخلاف الشيء الكثير كيما يذيعه فى أمريكا ، ولا يعود الى الظهور الا بعد أن يتقرر ضرب باريس بالمدافع . وحين يدعو ولى العهد بسمارك ومولتكه عندئذ الى تناول الطعام على مائدته ليصلح بينهما ، يضطر مرارا الى التدخل ليلطف من حدة حديثهما ، اذ ينحى بسمارك الآن أيضا على مولتكه باللائمة ، وينتقد الحرب كلها منذ موقعة سيدان

ضد الأمراء

ويلى الجنرالات فى مقر القيادة الامراء الألمان فى ايئاس بسمارك ، فهو يشكو لزوجته ولما تنقض ثمانية ايام على خروجه الى الحرب فيقول : « انه لمما يسخط حقا أن يشغل الامراء المتفرجون كل مكان ، ويضطروننى أنا ورون الى ترك مساعدينا وراءنا ليجد هؤلاء النظارة من أصحاب السمو الملكى وخدمهم وخيولهم ويأورانهم أماكن لهم » . وهو يفعل أثناء الزحف كل ما من شأنه أن يجنبه اياهم ، فاذا لقيهم عند الملك أعاد المسرحية كلها على سمع معاونيه : «لقد كان هناك من الامراء اكثر مما تسع الاماكن .. مثل هؤلاء الخواة الرؤوس بعباراتهم الجوفاء ، وشعورهم المرهف بأهميتهم كأمراء ، وبأنى أيضا مستشارهم فى الاتحاد !.. ان الذنب فى هذا ذنب التربية الى حد ما ، اذا نحن حكمنا عليهم من اقوالهم .. لقد أجلسونى على مائدة الملك بين الامراء البفاريين وغراندوق فايمر تقريبا فبات الحديث بهذا الوضع على أعظم جانب من الغثاثة »

تهكمات على الأمراء

واحد اولئك الذين يعلن عليهم الحرب هو هذا الغراندوق بالذات فهو يقول لبسمارك : « الآن والمفاوضات على وشك ان تدور ارجو مستشارى فى الاتحاد أن يحيطنى بكل ما ينبغى الاطلاع عليه لاستطيع ايصاله فى حينه الى الروسيا » . وهذا بالذات هو ما يريد بسمارك ان يتحاشاه ، لكنه ينحنى للدوق ويقول له متهكما : « لن اقصر فى شيء يمكن أن يرغب فيه غراندوقى » . وحين يرسل الغراندوق فى طلبه بعد ذلك يكلف بسمارك من يقول لوزيره انه يعجب

مزيد العجب من أن يتحكم مولاه فى وقته وصحته الى هذا الحد . ويكتب اليه دوق كوبورغ ١٢ صفحة فى السياسة الالمانية فيتلقى جوابا مفاده ان كافة الاقتراحات المقدمة من الدوق قد نفذت من قبل عن آخرها فيما عدا اقتراحا واحدا . وهذا الاقتراح الواحد لا يستحق النظر

وحين يبرق دوق فايمر الى قرينته متخذا لهجة الملك غليوم فيقول : « لقد حارب جيشى بشجاعة » يستدعى بسمارك ــ وقد مرت عليه هذه البرقية ــ سكرتيره فى ساعة متأخرة من المساء ليريه اياها ، لا لشىء سوى أن يضمن بذلك ذيوع هذه الاضحوكة . وعندما يستخدم دوق مايننج اسلاك البرق المرهقة فى خصوصياته يكلمه بسمارك من يقول له : « ان استخدام تلغراف الميدان فى مهازله غير مسموح به فهو يكاد لا يستخدمه الا فى شئون تتعلق بتربية الأشجار ، والبنات المنشدات ، وشراء الخيل ، وما شاكل ذلك . واسخف من هذا ما يفعله دوق كوبورغ » بيد ان دوق هس الذى يحتفظ لنفسه بحرية التصرف والذى هو ايضا وطنى ألمانى يكلف فى نوفمبر من يبلغ انه يأتى الى فرساى اذا ضمنوا له فى حالة دخول باريس الا يمتطى جوادا

ويلقاهم جميعا مرة اخرى عند الملك : « ان اصحاب السمو يحومون حولى كما تحوم الغربان حول البومة : كلهم مسرور بالدقيقتين او الثلاث التى يفوز بها من وقتى اكثر من غيره . وكان اخيرا فى مكان ما فى غرفة مجاورة رجل متخلفة ، أو ظهر باق من كرسى قديم من كراسى التتويج فخفوا جميعا لتأمل هـذه الأعجوبة ، فانتهزت هذه الفرصة للهرب » وحين يستدعى فى بيته عن المائدة لان غراندوق بادن حضر يعود الى المائدة محنقا يقول : « هذا شىء لا يطاق ! ان المرء لا يجد الراحة على الاقل ، فلعلهم يطاردوننى فى المرة التالية الى مخدع نومى ! انهم فى برلين يعلنون عن مقدمهم كتابة فلماذا لا يفعلون ذلك هنا ؟.. ان من يدخل على احدا على غير موعد سابق سآمر بالقبض عليه .. ماذا اشرب فى هذه المضايقة .. انى حين أغضب على الاكل أتقايأ الصفراء : انهم يظنون انى هنا لهم وحدهم ! »

ليتنى « كونت » من الريف

لكنه بعد هذه المساخر وبعد هذا الازدراء من « نصير الملكية » للامراء العواهل يتصاعد تأوه هذا الديكتاتور المسخر تصاعدا مؤثرا ، اذ يحضر فى احدى أمسيات نوفمبر الى الصالون متأخرا بعد مفاوضات طويلة مع وزراء ألمانيا الجنوبية ، ويطلب جعة ، ويتنهد ، ثم يقول : « لقد عدت افكر فيما فكرت فيه مرارا . فلو أن لى مدة خمس دقائق سلطة لأن اقول : هذا يجب وهذا لا يجب ، لما تعذبت « بلماذا » و « لاجل ذلك » لادلل واستجدى فى ابسط الامور . لقد كانت الامور تجرى بأسرع من هذا مع أناس مثل فريدريك كانوا أنفسهم عسكريين وكانوا على شىء من العلم بشئون الادارة . لقد كانوا أنفسهم وزراء أنفسهم ، وكذلك كانت حال نابليون . أما هنا فالأخذ ، والرد ، والاستجداء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذى لا آخر له ولا مفر منه ! » ثم يقول عقب ذلك : « ما الذى يجثم فوق صدرى حتى أعجز عن التنفس !.. الا ليتنى كونت من كونتات الريف ! انى واثق من أنى أستطيع أن أكون قاسيا ، لكنى لست كونتا من كونتات الريف ! »

هذه هى المشكلة التى تكتنف مركزه ، وهذه مأساة الحياة البسماركية تتضمنها بضع كلمات مكتومة تنضح بالتذمر ينطقها الرجل المتعب مساء وهو يحتسى الجعة ويخاطب بها نفسه : لقد خلق ليسود واختير ليخدم ، فلم يعجبه العالم . الاشياء التى كان يجب أن يؤديها قريبة من متناوله ، لكنه وهو يشرع فى تناولها ينزل عاهل من عل ذلك الحاجز الزجاجى دونه فيحال بينها وبين مفكر الدولة ، ويقضى عليه بالانتظار فى الخارج . الا ليتنى كونت من كونتات الريف !

الفصل العشرون

حوار مع فافر

« ان الحالة لم تعد اليوم ما كانت فى سبتمبر . فاذا كنتم لا تزالون تقولون : لن نسلم فى حجر واحد من حصوننا ، فالكلام بيننا تحصيل حاصل » . هذه أول كلمات يخاطب بها بسمارك جول فافر حينما زاره هذا فى آخر يناير للمرة الثانية ، بينا كان الالمان لا يزالون واقفين امام باريس ما ينوف على ثلاثة اشهر ويستطرد بسمارك قائلا : « لقد شبت منذئذ كثيرا يا حضرة الوزير . هذا الى أنك تأتى متأخرا ، فهناك خلف الباب رسول جديد من نابليون ، ومعه اريد ان اتفاوض . . اذ ما الذى يحملنى فى الحق على مفاوضتكم ، ما الذى يضطرنى الى ان اكسب جمهوريتكم مظهرا شرعيا ؟ فهى فى الواقع ليست سوى جمهرة من الساخطين ! ولامبراطوركم اذا عاد ، الحق فى اعدامكم كخونة ، رميا بالرصاص »

فافر : — عندئذ تنشب الحرب الاهلية وتعم الفوضى

بسمارك : « أواثق أنت من ذلك ؟ على أنى لا أرى كيف تضر بنا نحن الالمان حربكم الاهلية ! »

فافر : — ألا تخشون عندئذ ان تدفعونا الى ابعد مدى ، فنجعل مقاومتنا أشد مما هى ؟

بسمارك : « اى نعم ، مقاومتكم !. . انه ليس لأحد الحق — وأعرنى فى ذلك سمعك ! — ليس لاحد الحق أمام الناس وأمام الله أن يسلم مدينة مؤلفة من مليونين ونصف مليون نسمة للجوع فى سبيل مجد عسكرى تافه ! ان الخطوط الحديدية مقطوعة ، فاذا لم نصلحها فى يومين ، زهق من الارواح كل يوم مائة ألف نفس . فلا تتكلموا عن المقاومة فهى جريمة ! » ويتجه عندئذ نحو الباب الذى ينتظر وراءه ذلك الرسول

فافر : — بربك لا تفعل ! لا تلحق بفرنسا بعد كل هذا الشقاء عار قبول رجل بونابرتى !

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معاملة العدو

وما هى الا خمس دقائق حتى يكون مبدأ التنازل والغرامة الحربية مقبولا ويلى ذلك مأدبة يجعل الجميع بالهم فيها الى مبلغ ما يأكل رسول المدينة الجائعة ثم يأخذون فى وضع الشروط التمهيدية . ويقدم بسمارك سيجارا يرفضه الفرنسى فيقول الالمانى :

« انك مخطىء فى هذا الرفض . فانه اذا ما بدىء حديث يمكن أن يفضى الى مناقشات عنيفة ، وجب على المرء أن يدخن . فعندئذ يحرص على ألا يسقط السيجار من يده ، فيتجنب العنف فى حركاته . هذا الى ان التدخين يعود بنا الى الهدوء المريح ، فالدخان الأزرق الذى يتصاعد ، يسحرنا ، ويحملنا على التساهل ، اذ تكون العين مشغولة ، واليد مقيدة ، والرائحة طيبة ، والمرء سعيدا » . وحين ينشط بسمارك بعد ذلك فى حديثه عن غريبالدى يقدم له الكونت الفرنسى الذى يرافق فافر ويسجل هذا كله ، سيجارا وهو يبتسم

يالها من براعة كاملة تصحبها مجاملة دائمة يطربها الفرنسيون فيه ! حقا انه يلعب كما تلعب الهرة بالفأر ، لكنه يلعب فى جو الحاضرين بروح غالية كى يقنص خصمه ، ذلك أنه يريد السلم ، ويحتاج اليه سريعا كما يحتاجون اليه . ولو كان هؤلاء الخصوم انجليزا لخاطبهم بغير ذلك ، ولما اشترك تيير فى الحديث بعد ذلك وانهمك فى حديث طلى ، ثم طالب بسمارك بستة مليارات ، وصاح به تيير : « هذا غير لائق ! » انقلب بسمارك فجاءة يتكلم بالالمانية ويطلب مترجما وهو يقول : « ان معرفتى بلغتكم لا تكفى لان أفهم الكلمات الاخيرة التى فاه بها السيد تيير » . وحين يتناقشان ، ثم يهدءان ، ويمضيان فى المفاوضة فى الموضوع يعود بسمارك الى الحديث باللغة الفرنسية

حكم العـدو

واليك ما يسجله فافر : « لقد تبينت فى رجل الدولة رجل أعمال يفوق كثيرا كل ما يمكن أن يخطر بالبال فى هذا الشأن . انه فيما يلوح يحسب الواقع ، ويطلب الحلول العملية وحدها ، ويقبل التأثر بكل شىء . انه عصبى المزاج ، ذو طبيعة قلقة، ليس دائما بالذى يحكم انفعالاته العنيفة. وقد حضرته متساهلا وحضرته قاسيا لا يرحم ، فلم أستطع تفسير قسوته . وهو لم يخدعنى قط وكثيرا ما أساء الى بقسوته واسخطنى ، لكنى وجدته فى الصغيرة والكبيرة على السواء مستقيما دائما ، دقيقا فى مواعيده » . وهذا الحكم من عدو لبسمارك هو فى الحق اعظم اطراء لقيه بسمارك

وقد جرت مع الملك والقواد مداولات عطلت المفاوضات ، وكان كل من لا شأن له بها يحشر نفسه ناصحا ومشيرا ، وأوغسطا على رأسهم . فقد قال بسمارك : « انى أعرف هذه الدسائس الشائنة تمام المعرفة . بيد ان الملك كتب اليها رسالة عظيمة اجابة لرجائى ، فهى لن تعود قريبا الى الكتابة ! » وحين يريد ان يعيد الى الامراء الالمان من حلفائه الآن وممن استنزفهم عام

١٨٦٦ — حين يريد أن يستخدم مائتى مليون قدمتها مدينة باريس ، فى التعويض عليهم ، يأبى الملك . ويستمسك الجميع بالقلاع ما خلا بسمارك ، لكنه أخيرا يطلب الألزاس مع قلعة بلفور، وقطعة من اللورين مع قلعة متس ، وذلك فحسب لان مولتكه بحاجة ملحة اليها ليأمن الاعتداء . وقد عاد قبل ختام المفاوضات يطالب بستة مليارات وبدخول باريس . والخمسة المليارات التى ينخفض اليها المبلغ يترسم فى تقديرها — وفاقا لمذكرة بليشرودر الذى استدعاه — الغرامة الحربية التى دفعتها بروسيا عام ١٨٠٧ نسبة الى عدد السكان . وأخيرا يخير الغدوبين بلفور ودخول باريس ، فينقذ الفرنسيون القلعة أثر هذا التخيير فى الحال ، ويقبلون المذلة التى تتعارض مع مايقدر الناس فى العادة من خلق الفرنسيين

على أنه بينا يطرب الجميع ويهللون يبقى رجل الدولة على تشككه ، لايرضى عن هذا الضم . ويقول لولى العهد : « ان مراعاتى للعسكريين هى وحدها التى حملتنى على التمسك بمتس . هذا الى أن الملك قد صرح بما يوحى بأنه يميل فى سبيل امتلاك هذه القلعة الى مواصلة الحرب » . ويكتب الى زوجه يقول : « اننا قد فزنا بأكثر مما تحيزه تقديراتى السياسية . غير أنه لامفر لى من مراعاة نفسيات من هم فوقى ومن هم دونى ممن لا شأن لهم بعملى . اننا نأخذ متس .. ومعها عناصر عسرة الهضم الى حد كبير »

وحين يتم الاتفاق أخيرا مع تيير وفافر يتنفس الصعداء ، اذ تزول فجأة تلك الحالات العصبية التى كانت ترهقه فى الايام الأخيرة ، فهو يذهب الى الحجرة التى ينتظر فيها الضباط ، ولا يعدو فعله أن يصفر « الهالالى » . وفى المساء يضيف وزير بفاريا المفوض ومعه بليشرودر ، وأحدهما رمز الاتحاد والآخر رمز المال ، وبعد انصرافهما يحس بحاجته الى الموسيقى التى كان يحن اليها من زمن بعيد . ويرجو كويدل أن يعزف له أولا مارش هوهنفريدبرج

« ربما »

وحين يعود تيير فى اليوم التالى للتوقيع ينقلب الوزير المهزوم مؤرخا أفلاطونيا مرة أخرى ، فهو ينظر الى الظافر ويقول : « اننا من حقق وحدتكم ! »

ولابد أن بسمارك قد استشعر هذه الكلمة كالسهم يصمى أفكاره فى الصميم فهو ينظر الى الرجل العالم ولا يعدو رده كلمة « ربما »

وهذا الحوار بعد كل هذه المناضلات والدسائس ، وكل هذا الكذب والمكر الذى تخلل أحاديث دامت أياما — يرتفع حين يبلغ ذورته الى جو الذهن الصافى صاعدا من غيوم الأرقام والمصالح المحضة . فالمشكلة القائمة بين جارين ، كان أحدهما لا يتمنى للآخر وحدته ، وكان الآخر خليقا ألا يبلغ تلك الوحدة لولا جهاده — هذه المشكلة بحذافيرها ، وهى أن تقدم أحد الطرفين من الناحية القومية رهن بعداوة الدولتين ، قد ظهرت بغتة يغمرها الضوء فى نهاية كل ما تبادل الفريقان من اطلاق النار والتراشق بالأدلة ، فلم ينكرها أسعد الطرفين حظا . وهذا السعيد لا يريد أن يكون فى النهاية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فظا مع ذلك الشيخ الحكيم ولا أن يحمله على الاستخفاف به اذا ما تبين أنه لم يدرك هذه المشكلة ، لا ولا أن يدع له الغلبة الذهنية يحمل نبـأها الى وطنه ، ولا أن يتركه يتخذ فى مجلس باريس من تساهل بسمارك اكليل غار ليس فى حسبانه ليهزه من فوق المنبر . كل هذا يحسه بسمارك ويحسبه ويحله فى ثانية ، صاحب فضل فى نفس الوقت : سؤال يوجهه الشيخ الى العبقرى فيرد عليه العبقرى بكلمة « ربما » فحسب

الشخصية القهرية

وكانت الوحدة تنقصها الرأس حين لاح فى آخر نوفمبر أنها تمت . وهنا استحال نضال الجميع مع الجميع الى مهزلة كرة أخرى ، مهزلة لم يعرفهـا تاريخ الامبراطورية فى أوربا منذ رد يوليوس قيصر التاج ثلاث مرات . وقد كانت كل العناصر الحرة ضد الامبراطورية ، وكان أيضا رجل كفرايتاج يكافح هذا اللقب الدال على السيادة العالمية ، ويرى معه « مثالية باطلة » تتبدى فى الأفق . كذلك كان معظم الأمراء وكل الملوك الألمان يناهضونها تحاسـدا منهم بوصفهم زملاء ، كما كان يناهضها قبل الجميع أكبر رأس بين هؤلاء . فهل توج نفسه بيده قبل عشر سنوات لتأتى اليوم جوقـة من الأمراء بل الشعب فى النهاية أيضا ، يعرضون عليه تاجا ثانيا نعته أخوه من قبل بأنه طوق من الأقذار والحمأ ولم يقبله ؟ لقد قال الملك غليوم : انى بروسى ، وفكر فى أجداده وفى الرابعة والسبعين التى بلغها ، فقرر ان يعارض هذا الادعاء . لقد جابه الملك الضابط وزيره بقوله : « ماذا تفيدنى هذه الشخصية القهرية »

اللقب الامبراطورى

وكان يعنى بذلك أن يخلع عليه لقب فخرى أو يقلد منصبا حديثا ، فلم يسع بسمارك الفكه الا أن يرد بقوله : « حقا ان جلالتكم لا تودون أن تظلوا على الحياد الى الأبد ، وأن تكونوا مجرد رئيس ! »

لقد كان الملك المتواضع ما يزال يقول لولده فى ليلة عيد الميلاد : « ان أشد مايرهقنى ويزعزعنى من فرعى الى قدمى هو مسألة اللقب الألمـانى ، فاذا فـكرت فى أن مسألة اتحاد المانيا فى أوسع من نطاقها الحالى قد كانت تقريبا المهمة التى أخذها الملك المرحوم على عاتقه طيلة حياته ، بل اذا فكرت فى أنه قد عرض عليه التاج على الورق فلم يسعه والحمـد لله قبوله على هـذا النحو !.. ثم يقدر لى مع هذا أن يخبر قلبى البروسى أن أتخلى عن اللقب الذى ظفر بالشىء الكثير العظيم أو أوجده فى مقابل آخر ظل طيـلة قرن يعادى اللقب البروسى ! ألا ان الأقدار لتتآمر على ! »

من ألف سنة مضت استولى مثل هذا التفكير على شارلمان اذ يفاجئـه البابا بتاج الامبراطور رغم ارادته ، وقد اعترف بعد ذلك بقوله :

« se eo die, quamvis praecipua festivitas esset, ecclesiam non intraturum, si pontificis consilium praescire potuisset » *

كذلك بسمارك وهو من يفكر دائما فى الحقائق ، كان فى البداية مناهضا للقب الامبراطور ، وكان ما يزال يحذر ولى العهد فى أكتوبر من أزج ببلاط بروسيا القديم فى أبهة أعظم مما ينبغى له ، لكنه لم يلبث أن تزايد اهتمامه به لما أن تبين فيه عنصرا يغرى بالوحدة والمركزية

وقد كان يناصر فكرة الريخ فريق كبير من العشائر الألمانية ، كما ناصرها غراندوق بادن وولى العهد قبل الجميع وهو من كان اختراع تاج جديد وشعار جديد له وولية العهد من جد الأمور فى نظره . ويقول فرايتاج الى ذلك وهو من طالما تحدث اليه فى تلك الأيام حديثا حميما : « أحسبه أول مبتكر للشكل الجديد وأنه القوة الدافعة اليه »

وقد كان أيضا هو الذى أمر بادخال الكرسى العتيق الذى كان لامبراطور السكسونيين الى قاعة الريخستاج الألمانى الأول عند افتتاحه فأدهش النواب

أما الآن فلا ابن الملك ولا صهره بالذى أمكن أن يطلب هذا الطلب ، انما وجب أن يصدر عن أقوى ملك ألمانى ــ وقد جلس هذا الملك فى قصر احلامه مسحورا بالموسيقى ، يجول كلوهنجرين فى البحيرة المحوطة بالأصداف . وقد ترك رسائل ابن عمه فون بادن الجميلة بلا جواب ، ذلك أن الملك لدفيج لم يرد لا لقب الامبراطور ولا الريخ . أما حين قيل له أنه يستطيع أن ينزل قصرا أجمل من قصره ويسكن التريانون استرعى ذلك القول انتباهه فبعث بناظر قطره الى ميدان القتال يعد المعدات لسكنى الملك ولاصطبلاته خارج باريس

رسائل بارعة

وقد استحوذ بسمارك على الكونت هولنشتين ناظر القصر هذا . فهل قدر له بعد كل هذا العناء أن يرفض ملك التاج ، وأن يأباه عليه ملك ؟ انه يدبج فى الحال ثلاث رسائل على مائدة غير ممدودة ، وعلى ورق من نسختين ، وبمداد غير طيع . وفى هذه الرسائل يبرهن للملك الساذج لودفيج على طريقته أن تأثير ملك بروسيا على بفاريا وفيها أمر لا يستحبه ، لكنه حين يكون هناك امبراطور ألمانى فلن يكون على النقيض من ذلك جارا للملك بفاريا يختلف عنه فى المرتبة بل يكون مواطنه ، فاذا ما تساهل الملك لودفيج فانما يتساهل للامبراطور الألمانى لا لملك بروسيا . فاذا لم تنفع معه هذه الحجة فليصغ اليه وليناشده مناشدة أقوى . ويفكر بسمارك : أليست هنالك صلة بين أسرة فيتلباخ وأسرة بسمارك ؟ ــ بلا ريب . فقد كانت هذه الصلة قائمة بين الأسرتين قبل ٣٠٠ سنة فحسب ! ويشكر للملك فى نفس الوقت

* انه ما كان فى ذلك اليوم ، على الرغم من الابتهاج العظيم ، ليدخل الكنيسة ، لو انه لم يمكنه أن يعرف سلفا ما رسمه الحبر الاعظم من خطه .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فى رسالة ثانية يضمها الى الرسالة الأولى فى غلاف واحد ـ يشكر للملك ما « أبداه البيت البفارى نحو أجدادى أثناء أن كان يحكم مقاطعة براندنبورغ من عطف خاص »

نسخة الملك لودفيج

ان هـــذه خليقة أن تكون حجة الى الملك تساق الى الانسان . بيد أنه ماذا يخلق بالملك لودفيج أن يكتب اذا كتب ؟ انه اذا أبدى من الأسباب غير الذى يبدى بسمارك ، واذا مس عصب الأسرةعند ابن عمه ولو أهون مس ، ضاع كل شيء ، ذلك أن ابن العم هذا ينتظر تكأة يستند اليها فى رفض التاج الامبراطورى . وغليوم أيضا ، فى رأى بسمارك ، ليس مبرءا من السعى فى اظهار أسرته المالكة على سائر الاسر المالكة الأخرى ... وفى حمل هذه الأسر على التسليم بتفوق التاج البروسى على اللقب الامبراطورى فى الاعتبار

واذن لابد أن يجرع طبيب الأعصاب هذا مريضـــيه كليهما عين الدواء بطرق مختلفـة ، وهكذا يتصرف أحكم تصرف يمكن أن يخطر بباله فيرفق بكتابه الى الملك لودفيج مسودة الـكتاب الذى يرسله لودفيج الى الملك غليوم (راجيا إياه ان ينسخ صورة منهـــا فحسب) ، ويعـود ناظر القصـور بالرسائل الثلاث لـكنه يجد الملك منحرف المزاج ، فهو يؤثر الاستماع الى الملك هنرى فى خلال ثلاثة من فصول فاجنر على أن يسمع عن امبراطوريدعى غليوم ، هذا الى مايكابده من وجع الأسنان . على أن هولنشتين يوفق الى المثول بين يدى الملك فيقرأ الملك الرسائل مرتين ويحس كما توقع بسمارك أن هذا يطريه ، ثم يأمر سائس خيل له باحضار مداد وقلم ، وينسخ من دون أن يستشير وزيرا وناهضا فى فراشه ـ ذلك الـكتاب الذى يعرض فيه اللقب الامبراطورى على الملك غليوم والذى أملاه عليه ممثل الملك المعروض عليه . ويعجل هولنشتين بالـكتاب الى فرساى

وكان يحتفل هناك فى ذلك الحين بميلاد أميرة ، فيقوم أمير بفارى قبيـــل تناول العشاء بتلك المهمة التى ود بطبيعة الحال لو لم يقم بها ويؤدى الرسالة الى الملك غليوم . فهل هو خطاب يتعلق بالدولة ؟ اذن يجب أن يكون بسمارك أول من يقرأه فهو يخصه قبل غيره . ويقدم الملك الرسالة الى بسمارك بعد تناول العشاء ليتلوها فى حضرة ولده ، فيتلوها بسمارك وهى من املائه ، وعليه سيماء الجد ، وفى صوته نبرة التوكيد . ترى بم يجيب عليها متلقيها . ان الملك غليوم ليس بحاجة الى مراعاة مرسلها فهو بعيد منه ، ثم هو مع وزيره وولده لا غريب بينهم ، فهو ـ ذلك السيد الهرم ـ يصيح مغضبا : « ان الوقت لهذا غير مناسب أبدا » . بلى انه كما يروى ولده « قد أخرجه فحوى الرسالة عن طوره عنادا ، وأحزنه حزنا شـديدا » . ويصرف الملك وزيره وولده بعد ذلك من دون أن يفطن الى المؤامرة المحبوكة بينهما ، غير أن ولى العهد يفعل فى الخارج شيئا كان باقيا عليـه أن يفعله وهو يرى أعز أمانيه بسبيل التحقيق : انه يصافح بسمارك ويثبت فى مفكرته على الأثر : « انه من هذا اليوم قد عاد اللقب الامبراطورى وعاد الريخ عودا لا رجوع فيه . .

فالآن قد ولى ذلك العهد المزعج الذى حرم من الامبراطور . وان فى هذا اللقب الفاخر لضمانا »

ويبدى المرشح للقب الامبراطورى مقاومة سلبية فى أول الأمر ، ولا يجرؤ أحد أن يذكر أمامه التاج الجديد لأنه يزهد فيه . غير أن كل شىء معد ، وليس الا أن تقول الامة نعم وآمين . ويمثل الفصل الثانى من المهزلة فى الريخستاج فيكلف أحد النواب أن يسأل : ألا يكون للشعب الألمانى رئيس أعلى ، فيتلو دلبروك رسالة ملك بفاريا بصوت له قعقعة الصفيح .. وكأنما أخرج من جيب سراويله تاج الامبراطورية الألمانية ملفوفا فى ورق الجرائد . ويقول بسمارك فى ذلك : « بلى ان هذه النكتة الامبراطورية كانت تحتاج الى أبرع من هذا المخرج ، فقد كان ينبغى أن يكون المنظر أكبر تأثيرا من هذا ؟ »

ومع ذلك فان ثلاثين نائبا من ممثلى الريخستاج يدعون الى فرساى لا ليقدموا التاج الامبراطورى ولكن ليقدموا خطابا

هؤلاء النفر

ويبدى اللاندتاج البفارى فى نفس الوقت رغبة شديدة عن المعاهدة وتثور ثائرة الملك ويعلن فى نفس المساء الذى وصل الوفد فى يومه أنه لن يستقبله قبل أن يكون أمامه طلب مكتوب بذلك من كافة الأمراء العواهل ، وذلك حتى لايبدو أن طلب اعادة اللقب الامبراطورى والريخ صدر عن الريخستاج قبل أن يصدر عن الأمراء . ويروى ولى العهد أن رجال البلاط تساءلوا جهرة : ماذا يريد هؤلاء النفر هنا ؟ ويكتب شتيبر مدير بوليس القيادة العليا الى زوجته يقول : « لقد بدا الفتور على حزب البلاط والحزب العسكرى ، وكنت أمثل هنا الشعب الألمانى » . واذ كان شتيبر شيوعيا قبل هذا فقد وسعه أن يزيد على قوله عبارة : أيام مليئة بالعجائب !

وأخيرا لايسع الملك الا أن يستقبل الوفد ، بيد أن الأمراء والقواد لايعزمون على حضور الاستقبال الا قبله بساعة . وهكذا يرتجل المنظر فى ادارة البوليس . ويشكو ولى العهد : « انه مما يدعو الى الأسف ألا يستعمل الدرج الرخامى الجميل فى هذا اليوم » . ويلقى سيمسون الوقور خطبة يعيد بها الى الذاكرة فى تلك اللحظة تلك الخطبة الأخرى التى عرض بها منذ احدى وعشرين سنة مضت نفس هذا التاج على شقيق الملك الحالى فرده ردا غير حميد . يقول سيمسون فى خطابه : « يتقدم ريخستاج ألمانيا الشمالية بالاتفاق مع أمراء ألمانيا برجاء صاحب الجلالة أن يتفضل بقبول التاج الامبراطورى الألمانى فيدشن بذلك عمل الوحدة » . ويترك الوضع القانونى فى رد الملك فى مثل هذا الغموض اذ يقول : « فى صوت الأمراء الألمان والمدن الحرة ــ ذلك الصوت المتحد ، وفى رغبة الأمة الالمانية وممثليها ــ تلك الرغبة المتفقة مع ذلك الصوت ــ فى ذلك وحده أتبين دعوة العناية الربانية التى ألبيها معتمدا على الله » . واذن فللأمراء أصوات ، وللرعايا رغبات فحسب ، وهكذا يموه طوق الأقذار والحمأ بالذهب ، يقابل ذلك أن يمثل ألمانيا هذه المرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يهوديان ، ذلك أن ماتلاه سيمسون قد ألفه لاسكر . وقد قال الملك فيما بعد : « وى ! انى مدين للسيد لاسكر بشرف رفيع ! »

غليوم يمانع

ويعتقل فى هذه الأيام التى تتسم باللقب الامبراطورى كل من بيبل وليبكنخت بتهمة نشر الخيانة العظمى : فقد طعنا فى صيغ الدستور الجديد ، ورفضا مع ستة آخرين الموافقة على الاعتمادات الحربية الجديدة بحجة أنها ترمى الى الفتح . وكان القبض عليهما مطية للحيلولة بينهما وبين الدخول فى المعركة الانتخابية

وكان أسوء ما هنالك ما يزال ينتظر السيد الهرم كفصل ثالث للرواية . فقد وجه مكتب كبير الأمناء دعوى الى يوم ١٨ يناير على النحو الآتى : « فى بهو المرايا فى قصر فرساى فى الساعة الثانية عشرة ظهرا تقام تشريفة كبرى وصلاة وجيزة تتبعها المناداة .. » هذه الدعوة التى تحمل صيغتها الألمانية مع كلمة المناداة المنقولة عن الفرنسية Proklamation على التفكير ، قد رفض الداعى أن يلبيها : ففى اليوم السابق لها أبى الملك أن ينادى به امبراطورا ألمانيا ، وأعلن فى ايجاز أنه اما أن يكون امبراطور المانيا أو لا يكون امبراطورا اطلاقا . وعبثا حاول بسمارك أن يبين له ان هذا معناه أن يزعم لنفسه حقا على أرض ، واستشهد فى ذلك بالقيصر الروسى الذى لا يسمى قيصر الروسيا . بيد أن الملك عارض فى ذلك مستندا الى ترجمة خاطئة لاحدى الكلمات . وهنا يبرز بسمارك الريالات المنقوش عليها فريدريك الملك البروسى لا ملك بروسيا ، ثم يرجع الى فحوى رسالته هو ــ تلك الرسالة التى كتب الملك البفارى صورتها للملك ، ثم يجيىء الكلام بعد ذلك عن مراتب البراطرة والملوك والغراندوقات وكبار الامراء ، ويتحدث عن الخص الذى التقى فيه ملك البروسيين بأحد البراطره : كل ذلك أمثلة من التاريخ أوردها ليدلل لملكه على ان احتفال الغد لايراد به رفعه بحال . لكن الملك الهرم لا يزداد بهذا الا سخطا ، فهو يصيح : « حتى لو كان هذا هكذا فانى آمر الآن بما ينبغى ان يكون ! لقد كان الغراندوقات يتقدمون دائما على الأمراء البروسيين فينبغى أن يظل هذا فى المستقبل على حاله ! »

حديث قلبه

ويتملكه بغتة نشيج ونحيب ، ويندب سوء حاله اذ يحكم عليه بأن يودع بروسيا التالدة ، ثم يصيح وهو هائج مائج : « ان ولدى يناصر النظام الجديد قلبا وقالبا ، بينا أنا لا أعلق عليه قيد شعرة من الأهمية ، ولا أتحول عن تعلقى ببروسيا ! » وأخيرا يهب وهو يتميز غيظا ، ويقطع الحديث ، ويعلن أنه لاشأن له بالاحتفال المحدد له غد . هذه آخر صيحة عامرة بالمغزى ندت عن آخر ملك للبروسيين . لقد كان الرجل الذى أمر بسرير الميدان أن ينصب له أثناء الزحف فى مخدع نوم فاخر فى قصر لروتشيلد ، والذى استخدم الحمام

غرفة مكتب له ، هو نفس الرجل الذى غضب حين سمى بشيخ الأبطال ، ونازع ، حين ذكرت عبارة نسر الهوهنتسلرن ، فى أن شارة الهوهنتسلرن تحتوى نسرا ما . وغليوم الذى أراد الاستعفاء فى سنة ١٨٤٨ انقاذا لمركز أخيه ، وفى سنة ١٨٦٢ انقاذا لشرفه أثناء كفاحه فى سبيل الجيش ، يريد الآن ان يفعل ذلك للمرة الثالثة ، ويسلم فريتس كل شيء لأنه يتعلق ببروسيا ، تتهيب نفسه المتنبئة هذا اللقب الجديد المحوط بالأبهة

ويكتب ولى العهد : « لقد توعكت بعد هذا المنظر الى حد أنى اضطررت الى أن أعالج طبيا : ولقد سمعت بعد ذلك أن الملك لم يحضر الشاى فى المساء » . فماذا عسى أن يقع غدا ؟ لا يعلم أحد . غير أن مكاتب كبير الأمناء أقوى سلطانا من الملوك . والدربة التى شب عليها ضابط من ضباط بروسيا التالدة تحمل على الطاعة ولو كان سيصبح فى الغد امبراطورا . وهكذا يسير فى صباح اليوم التالى حرس الشرف بقيادة ولى العهد فى البهو الزجاجى بقصر فرساى ، ويمر ستون علما و ٦٠٠ ضابط وبعض الكتائب . ثم يأتى الأمراء الالمان ومن خلفهم الملك غليوم . واذ كانوا يجهلون تحت أى الرموز يريد الملك أن يصير امبراطورا ، فانه يشرف على أهم شيء وهو ترتيب الأمراء أولا ، وينظم أمكنتهم ومراكزهم من جديد فى صورة رسمية ولكن فى تواضعه الفروسى

الاعـــلام

ويقص فى اليوم التالى قصته على طريقته المستقيمة : « لم أحفل أقل احتفال بالترتيب العسكرى ، ولم أكن أعرف أيضا أين تقام الأعلام . وقد أراد السادة أن ينصبوا لى عرشا ، لكنى نهيتهم عن ذلك ، فقد أردت ان أظل طيلة الاحتفال أمام الهيكل بين الأمراء . بيد أنى لما رأيتهم نصبوا أعلامى والويتى فوق الدرجة العليا توجهت بطبيعة الحال الى هناك . اذ حيث تكون أعلامى يجب أن أكون . على أن الدرجة العليا كانت مكتظة الى حد أن الأمراء ما كانوا ليجدوا مكانا لهم فوقها فيضطرون الى الوقوف دونى . من ثم أمرت باصعادهم الى أولا ، ثم بأن ينصب ورائى مباشرة أعلام آلاى الحرس الأول الذى كان انضمامى اليه فاتحة دخولى الجيش ، وعلم آلاى مدفعيتى ، وعلم أورطة حرس اللندفير الذى لبثت طويلا قومندانها الاول . وقد احبط وضع الاعلام فى الدرجة العليا ما كنت انتويه من الوقوف امام الهيكل ، وقطع العهد الجديد الثقيل . وانه ليؤسفنى أن أعلام الحرس كلها لم تكن موجودة ! »

فبعد أن أقصى العرش عن الهيكل ، وأقصى الهيكل عن الأعلام ، وبعد أن استدعى الامبراطور الجديد أبناء عمومته المتوجين اليه ليكونوا واياه فى مستوى واحد ، وان كانت ألويته قد فصلتهم عنه ، يلقى القسيس بدلا من الصلاة الوجيزة التى صدر الأمر بها ، خطابا يحمل فيه على لويس الرابع عشر ويتكلم عن ١٨ يناير الذى يسخط بسمارك فيه على « التأله البروسى » ، ثم يتقدم بسمارك ويتلو الاعلان مبتدئا : « نحن غليوم ملك بروسيا بفضل الله ، بعد أن وجه الينا العواهل الألمان والمدن الحرة نداء موحدا بأن نعاود مع عودة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الريخ حمل اللقب الامبراطورى الذى لبث مستقرا منذ أكثر من ستين عاما ، نعلن أننا نرى من واجبنا نحو الوطن بأسره أن نلبى هذا النداء الموجه الينا من حلفائنا العواهل الألمان ومن المدن الحرة ، وان نقبل اللقب الامبراطورى الألمانى » . وهذا الخطاب موجه الى « الشعب الألمانى » ، لكن هذا الشعب هو مجرد « مستمعين » فهو يذكر فى هذا الدور السلبى مجرد ذكر ، أما الريخستاج فلا يرد له ذكر . وهكذا يبلغ العالم فى نهاية القرن التاسع عشر بهذه العبارات الرسمية ان العواهل الألمان قد اختاروا لهم امبراطورا كما كان الشأن فى القرون الوسطى ، ويعلم الرعايا المخلصون ذلك

المنـــاداة

« وتخرج الجمل الاولى من صدر بسمارك يدفعها دفعا ، ويلهث وهو يلقيها من الانفعال ، شاحب اللون ، قد خلت أذناه من الدم خلوا خيل معه انهما باتتا شفافتين » هكذا يصفه طبيب شاهد عيان . فى هذه الحالة تغلب خطر اللحظة . ولا يلاحظ ولى العهد على هذا الموقف سوى أنه «مطبوع بطابع الاعمال ، لا أثر فيه لحرارة أو وقار » ، فهو اذن يفتقد ألمثل . لكنه فى اللحظة التى تعالت فيها الهتافات كان يفكر فى جماعة بعينها : « هذه اللحظة قد كانت بالغة التأثير . فقد جثوت على ركبتى أمام الامبراطور ، وقبلت يده ، فأنهضنى على الاثر وعانقنى فى تأثر عميق . وانه ليعجزنى ان اصف ما كانت عليه نفسيتى » . على أنه يراقب فى نفس الوقت تأثير ذلك ، ويتبين « حتى بين حملة الاعلام تأثرا قلبيا لا سبيل الى انكاره »

على أن البروسى الهرم لا يلبث أن يتمالك نفسه وقد أقلقته هذه المسرحية ، فهو يغادر مكانه ، ويرى الناس فى اتجاه نظرته وخطوته أنه يقصد الى أولئك الرجال الذين أدوا جلائل الأعمال . وكان القواد وقوفا فى المقدمة بجانب الأمراء ، وبينهم فوق المكان الخالى واحد فقط : واقفا ما يزال المنشور بيده منتصب القامة ينتظر : ذلك أن المصافحة التى لابد أن تتلو ، رمز على شىء بعينه ، وبسمارك لن يركع بحال كما ركع فريدريك غليوم ، وهو انما يبجل بالفعل لا بالتأليه ، بالاعصاب المتوترة لا الاعصاب المرخاة . فالآن يصح ان يتوقع هذا الشكر الصامت النادر أمام هذه المئات من الأنظار مفعم النفس بالتأثر . على أنه بالرغم من كل شىء لم يكن عرف مولاه الهرم بعد كل المعرفة : فهذا السيد لم يرد أن يصبح شيئا أو على الأكثر أراد أن يصبح امبراطورا لالمانيا ، فجاء هذا المستشار فأفسد عليه الاحتفال بأكمله ! من ثم يتجاهل المذنب وهو يهبط الدرج ، ويتخطاه ليمد يده الى الجنرالات فحسب

نقط ضعف الأمبراطور

ان هذه اوهن لحظة فى حياة غليوم الاول . ليس ذلك لانه ينكر خالق هذه المناسبة فهو يعلم علم اليقين من دبر هذا كله ، ولكنه يدع عناد الشيخوخة يتغلب على لباقة القلب المطبوعة فيظهر فى هذه اللحظة ، لحظة الاحتفال ، أمام

الأمراء ، وحملة الأعلام ، والصحفيين ، والقواد ، ومعظمهم عدو للمستشار وحاسد ، وبوق سيذيع غدا على الملأ كل شيء ــ يظهر فى هذه اللحظة وأمام هؤلاء من هو الأثير عنده ومن البغيض اليه . واذ كان الوزير واقفا وحده رمزا على موقفه ، فكل من هنالك لابد مشاهد اهانته بعينيه ، وكما تردد المرايا المائة الموجودة فى البهو هذا التخطى وتسجله فسيرجع صداه غدا ألف قلب : فصل له قوة التشبيه الذى جعلته أسطورة النيبيلونجن سببا للتطاحن بين العشائر

لكن بسمارك يقابله بفلسفة الرواقيين فهو يسجله فحسب لأنه لا يضير السياسة فى شيء ، ثم يثبت بعد أيام « عودة المياه تدريجيا الى مجاريها » . ويهدأ الملك ــ وندع له لحظة هذا اللقب الجميل الذى لم يكف بسمارك عن العودة اليه ــ نقول يهدأ الملك من ناحية تلك الاهانة التى لحقته باسناد لقب الامبراطور اليه . واذ كان من عادته عندما يعيد الأوراق التى تعرض عليه أن يضمنها نفس الغلاف الذى كان يحتويها ، فهو ينجز ما عليه فى هذا المساء أيضا ، ويرد الأوراق التى تتصل بذلك اليوم . لكنه حين يقرأ فوق الغلاف : « الى جلالة الامبراطور من مستشار الاتحاد » يشطب الكلمة الأخيرة ويكتب فوقها : مستشار الريخ

بيضة الامبراطور

على هذا النحو من الحيطة والقصد والتواضع بدأ الريخ الألمانى

ويكتب رون الذى لبث بعيدا من حفلة المناداة الى زوجه يقول : « لقد أملت أن تبعث بيضة الامبراطور التى بيضت سليمة ، على رضى بسمارك فى الآونة الراهنة ، لكن الأمر كان على العكس من ذلك » . ويكتب بسمارك الى امرأته يقول : « لم أكتب اليك من أمد طويل ، فمغفرة ! لكن هذا الوضع الامبراطورى كان عسيرا وللملوك فى مثل هذه الأوقات شهوات عجيبة كشهوات النساء قبل أن يسلمن الى العالم مالا يستطعن الاحتفاظ به . لقد أحسست وانا أساعد على هذا الوضع بحاجتى الملحة الى أن أكون قنبلة تنفجر فتدك البناء كله دكا » . وحين يدور النقاش على مائدته فى مساء اليوم الثالث حول « الامبراطور الألمانى » و « امبراطور المانيا » وما شاكل ذلك ، يلزم بسمارك الصمت ثم يسأل :

« أيعلم أحد من السادة معنى « مقانق (١) » باللاتينية ؟ ــ Farcimentum ? Nescio , quid mihi magis farcimentum esset ! » (٢)

---

(١) تستعمل « مقانق » هنا مجازا ، ومعناها «سيان» (المترجم)

(٢) مقانق ؟ ــ أنا لا أعرف شيئا أحب الى من المقانق (السجق)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتاب الرابع

السيّد

« ان بسمارك يجعل ألمانيا عظيمة
والألمـان ضئالا »

ج . فون بونسن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

« ان الكونت بسمارك ـ شينهوزن ليكون مدينا للنائب . . . بالشكر اذا راقه أن يزوره فى التاسعة من مساء كل سبت من ٢٤ أبريل فصاعداً فى خلال دورة انعقاد الريخستاج »

هذه الدعوة المرسلة لأول مرة بعد افتتاح ريخستاج ألمانيا الشمالية قد أثارت قلقا ، وحماسة ، واعتراضاً بين مندوبى الشعب ، فقد كان مثلها جديدا على ألمانيا . وقد صرح سيمسون بقوله : « لابد بطبيعة الحال من ارتداء الفراك للمحافظة على الوقار » ، لكن بسمارك لم يرد لافراكا ولا وقارا ، بل كان يريد مجمعا من السياسيين فى كل أسبوع « ينجز فيه المرء فى احدى زوايا الصالون وفى خلال عشر دقائق ما يستلزم فى العادة سؤالا فى الريخستاج » وقد لبث بسمارك طويلا لا يقبل دعوات ، ويكاد ألا يذهب الى البلاط ، ويؤثر فيما خلا ذلك ان يرتدى سترة طويلة ، واليها رباط رقبة غريب الشكل ، او يلبس كشكولا من قطع البذلات الرسمية يثير ابتسام مولتكه . وهكذا كانت الرغبة العصبية التى تحدو رجلا مدللا يهرم ، والكبرياء التى تداخل الأوتوقراطى ، تؤدى به الى ايثار التضييف على الضيافة ، حتى لا يضطر أبدا الى شكر احد . كذلك حمله فى نفس الوقت مكر رجل الاعمال وتقديره المنبعث عن الالهام ـ حمله ذلك على التصميم على دعوة عدوه الاكبر كل أسبوع الى داره

ذلك أنه اذا كان بسمارك فى عشر سنوات الحروب قد أحس بأن فيرشوف ودونكر أعدى له من نابليون أو فرانسوا جوزيف ، فان الريخستاج فى مستهل عشرين السنة التى رنق عليها السلام قد واجه بسمارك جبهة واحدة ، فأثار وقوفه وحده حيال مئات ، حب النضال ، اذ كان لم يرضه بحال من الأحوال أنه أوصد بيت الخصوم ببساطة ودس المفتاح فى جيبه . انه أحوج الى المعارضة ، ولابد له من القدرة على السب والتنهد ليحس الراحة . وهو القمين بأن يخلق هذا بنفسه فى ظل الحكم المطلق ليوفر أسباب الاحتكاك . واذا ألفى بسمارك فى عشرين السنة التالية ساخطا دائما ، متأوها أبدا ، فقد كان مع ذلك وعيه للاحتكاكات المتواصلة يقوى من شعور هذا المجاهد بالحياة . ولولا هذه المعارك الداخلية المتجددة على الدوام لوهن عزمه فى الحيلولة دون المصادمات فى الخارج

زحـــل

ومع ذلك فان هذه الشجاعة التى لم تهن قط هى فى نفس الوقت السبب الأكبر لاخطائه . ولأن عداوة بسمارك لبنى الانسان كانت تتحول فيه بتقدم السن الى احتقار عنيف للانسان ، ولأنه لم يعترف قط لخصم أنه جدير بمثل مركزه ، أو أنه يدانيه فى مواهبه ، ولأنه كان على الدوام أميل الى الأمر والنهى منه الى المفاوضة ، فان نظراته عجزت عن رؤية تحول روح العصر ، وعن ادراك الأفكار والرغبات المنطقية لمن عداه من الناس والطبقات . وهو فى الخارج لم يستهن قط بخصم ، ولم يجرؤ قط على العمل بغير القوة والمدافع والائتلافات المتفوقة ، لكنه الآن يقدم فى الداخل على مثل ذلك . ولأن عهده الذى لم يحكمه قانون كان يحالفه التوفيق ، فان توفيقه يحمله على التمادى فى الاستخفاف بخصومه القدامى والمحدثين ، أولئك الخصوم الذين سوف يسقطونه فى الختام. وتقديم بسمارك القوة على الحق قد حمل أوربا على التساهل معه ، لأن مدافع رون وبنادق مولتكه وتدريب البروسيين المطيعين قد أرغم القارة على التساهل، أما تغليبه القوة على الفكر فأمر انتقم له شعبه فى النهاية

ولقد جعل من مجلس الريخستاج بفرضه شخصيته على بلاده ، عـــدوا لدودا ، بدلا من أن يجعله آلة فى يده ، حتى لقد شبهته صورة هزلية بساتورن (زحل) يأكل أولاده ، ــ فقد فض الأحزاب كلها من حوله واحدا واحدا ، وعقد المحالفات فى الداخل بنفس هذه النزعة الواقعية ، وكان يفصم عراها كلما بدا له ذلك ضروريا من حيث علاقاته بالخارج ، وهو قد أثار سوء ظن طبقات الشعب به شيئا فشيئا حين كان فى كل خمس سنوات يحارب فى المعركة الانتخابية فريقا من هذه الطبقات غير الفريق الذى حاربه من قبل . وبينما كانت عبقريته كأوربى تدهش القارة كانت أوتوقراطيته فى سياسته الداخلية تزيد فى مرارة الشعب الذى لم يستطع ان يفقه فنونه فى السياسة الخارجية . فقد كان فى هذا الصدد يستطيع الجلوس بمفرده بين الدول العظمى يلاعبها الشطرنج صامتا غير مسئول الا أمام الملك الهرم الذى اطرحه وراء ظهره . اما فى الداخل فكان ضروريا حين يقتضى الامر اجراءا ما ان يطلبه اولا ثم يدافع عنه ، آبيا أثناء ذلك على الريخستاج مثل الذى يأباه عليه الريخستاج ، لا لشىء سوى بغضه لهذا الزعيم أو ذاك ، بغض الريخستاج له هو ، فالمرء اما ديكتاتور أو برلمـانى ، لكنه ليس بالاثنين معا

سهرات

وتزدحم دار المستشارية وقاعاتها الخالية من الذوق وتغص بممثلى الشعب فى كل سبت ، وفيهم فريق من المعارضة يستهويه الخصم العظيم كما يستهويه مقصفه الحافل الذى لا عهد للناس بمثله ، قد اتخذ منه رب البيت مهدئا سياسيا عن قصد . فهو يبالغ فى الاحتفاء بكل ضيف ، ويقابله أحيانا باحتفال مقصود . وهو يعرف كلا منهم دون حاجة الى تذكر اسمه دائما ، فكانت عينه كالبندقية السريعة ، اذا قورنت الى ذاكرته البطيئة الانطلاق . ويطأ الزائر عتبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الباب فاذا كل ما يلى المدخل عديم الشكل فى عينيه ، فليس ثم من يخـــدم الضيف ، بل يذهب الكل الى برميل من جعة مونيخ ليدير حنفيته بيده . ويندر فى هذا المجتمع أن تزعج السيدات الرجال فيما يقع منهم فى مساء السبت الذى يحكى أمسية المنتديات . وعندما ينتصف الليل يلقى المضيف نفسه وحده يحدث جمعا كبيرا ، ويتناول فى حديثه الماضى ، ويرسم ما يدبره، شأنه دائما شأن النجم بين زملاء يريدون أيضا أن يكون هذا شأنه بينهم

بينجسن

فهو يجلس متكئا على كرسيه الكبير المستطيل ، غليونه الطويل فى يمينه ، تظلله سحابة من الصحف لا تفارقه أبدا ، مفردا حيال هذه الجوقة ، تنتقل نظراته الفاحصة بين بضع عشرات من أزواج الأعين غادية رائحة ، جاعلا كبار الأعداء دائما نصب عينيه . واذ كان فى هذه المناسبات لا يحمل سلاحا حتى وهو يرتدى سترته العسكرية ، فان من الخير على كل حال أن يتخذ الى جانبه بضعة من الحراس : ومن ثم يرى المرء كلبى الريخ ، ذينك الكلبين الضخمين المشرب سوادهما بالغبرة يقظين دائما ، مستعدين دائما للعراك ، بوصفهما مدافعين عن صاحبهما . يراهما الناس اما الى جانب سيدهما ، واما رابضين تحته ، ويرونهما فى الأمسية البرلمانية تجاه مائة وجه لا تريد بسيدهما خيرا ، شاعرين على التحقيق بأنهما يؤديان واجبهما . ويكتب صديق من أصدقاء البيت عن هذه الاجتماعات يقول : « كان يأكل ويشرب كثيرا ، ويبدو حين يأمر باحضار غليون له كالأب بين صغاره »

أما أولئك الذين تضمهم هذه الدائرة ويقفون بها ، فتختلف رؤوسهم اختلافا كبيرا ، وهى رؤوس جلبت لأصحابها مصائر تختلف كذلك اختلافا كبيرا

فهذا الذى هناك ، هذا النحيف الملموم ، ذو الوجه المحمر واللحية الداكنة المحيطة به ، والجبين العالى الذى يكاد الصلع يأتى عليه ، ترى عينيه العاقلتين وملامحه الجدية الودودة ، فتعده من المعنيين بأحوال الانسانية ، لكن حركات بعينها ، وندبة عريضة فى وجهه توحى مع ذلك بأنه ضابط من النبلاء ، وهو فى الواقع كلاهما . انه رودلف فون بينجسن من خيار الناس وخيرة الرؤوس فى عصره . وهو كتوم يتحلى بالرجولة ، نبيل مخلص كرون ، طبيعى فى اعتداد متواضع بالذات ، يبدو بهذه المثابة خليقا بأن يقود جمعا ، لكنه وهو يحجم فى اللحظة الحاسمة عن الوثوب الى مقعد الوزارة يقف حياته على رأس حزب يرفع من شأنه بخطب نادرة خطيرة فى الغالب ، ونشاط عظيم يبديه فى اللجان، واختلاط مستمر بالزملاء جميعا ، ويزيد فى خطره أنه الرجل الوسط المطبوع: هذا الحزب هو حزب الوسط يقوم وسطا بين الأحرار الوطنيين ويستقر فى ذلك بين الجناحين

ويجده بسمارك اكثر نعومة مما ينبغى ، ويجد جمال نفسه وتجرده عن الهوى غريبين ، فهو على حق اذا عده مثاليا ألمانيا يفكر آخر الأمر أحسن مما يتصرف . ولن يزال بينجسن يجلس فى الســـبعين على مقاعد الطلبـــة فى جوتنجن يتعلم . بيد أن بسمارك يشعر معذلك بشىء منالاحترام حيالهذا

الرجل الذى هو ابن جنرال من سكسونيا السفلى والذى يذهب أجداده فى العراقة مذهب آل بسمارك ، كذلك يفهم الرجل الذى ضم هانوفر الى بروسيا ما أداه ابن الجنرال هذا حين ضحى بهانوفر وطنه لألمانيا من غير أن يكن حبا لبروسيا . وان بسمارك ليدعوه أحيانا « صديقى المحترم » لكن الذى لايفهمه بسمارك ولا تستسيغه طبيعته هو أن يتزعم هذا الرجل حزبا ليس من الضرورى أن يحاربه حين يكف عن أن يتبعه . هنا يسميه بسمارك الرجل الغبى

كاردورف

والى جانب بينجسن بين المدعوين رجل يبدو أخشن منه وأبرد ، تنطق قامته المديدة الراسخة بارادة أقوى من ارادته ، ويلوح الشعر الكث الذى يخطه المشيب الآن كأنه توكيد عنيد فوق هذه الظاهرة . ذلك أن غليوم فون كاردورف رجل حرب وجلاد كبسمارك ، فخور أبى ، لكنه أصغر منه سنا ، واذاكان لايحمل منظارا ، فان عينيه الزرقاوين تلمعان وتقنصان كعينى بسمارك . غير أنه فى وسط الملامح المسمرة البادية الرجولة يستقر شيء أبيض يضرب الى الزرقة ويسترعى نظر الغريب فيجفل منه : انه أنف صناعى يذكر بضربة بتارة أصابته فى صباه المتسم بالفروسية

لقد حماه من شباك بسمارك أنه نزوع الى الاستقلال ، واسترعى انتباه بسمارك بمزاجه وعقله ، فوسعه ان يبقى على صداقة كان خليقا أن يضيعها لو أنه زامله فى عمله . وسيظل وفيا لهذا البيت حين يتحول النبلاء الأخر الى الشمس الجديدة . وقد جلس كاردورف بين أحزاب اليمين ، وهو أكثر مرونة من طبقته ، واذا كان أقدم غير مرة على جولات يلتمس هواء أكثر حرية فانه ظل من الناحية الاقتصادية أسير تصورات نشأت شرقى نهر الالبه ، وساعد على تحول بسمارك الى الحماية الجمركية

لاسكر ـ بامبرجر

والشرقى الواقف الى جانب هذا النبيل الألمانى ، نحيلا ، أسمر اللون ، ذا ملامح حادة بعض الشيء هو ادوارد لاسكر : درس التلمود ، ونقل « تقسيم الأرض » لشيلر الى اللغة العبرية نظما وهو غلام فى بلدة بوزن فى الوقت الذى كان لدته بينجسن يتعلم فيه ركوب الخيـل والمبارزة فى ضياعه الموروثة . ولاغرو أن يصبح سريعا منافسا خفيا لبينجسن بوصفه القانونى الأدق والذهن الأحد ، وزعيم الجناح الراديكالى . وهو يفوقه كناقدومساجل وخطيب ، مثالى فى دولة القانون ، بينما الآخر مثالى فى دولة الأمة ، اجتماعى أكثر منه لكنه لايقل عن صاحبه تعلقا بالوطن ، وهو الى جانب ذلك الزعيم اشبه برئيس أركان الحرب . جوهرى واقعى الفكر مكفى الحاجة ، لكنه أيضا طموح الى السلطان ، ومن ثم بغض بسمارك له وهو الذى يريد من حوله رجالا ذوى بدانة

وينصت الى جانبه أخ له فى الدين ، ورفيق فى الحزب ، على وجهه أمارات الشحوب والتشكك . وهذا الرجل الأسن المائل الى أمام ، ذو الكتفين الضيقين ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والصدر الغائر ، والملامح الممتلئة شيئا ما وان كانت نحيلة مع ذلك ـ هذا الرجل لن يصدق أحد أن له ماضيا فى سنة ١٨٤٨ ، وأقل من ذلك فى تصديق الناس أنه كان يعقد اجتماعات حاشدة للتدريب . وقد كان هذا أيضا لا يعدو منه وثبات وموجات فى خضم السياسة ، وكان عمله لا يتجاوز دق جرس الرياسة وتكريسا خطابيا للاعلام . بيد ان لودفيج بامبرجر كان يومئذ على رغم سعاله المصحوب بالدم ، وعلى رغم الحمى ، مدفوعا الى الراديكاليين بنار كامنة ، ومن أجل هذه النار كان لابد له يوما من الهرب ، وكان يريد السفر الى أمريكا لكنه بقى معلقا عند اقارب له أغنياء فى لندن ، مؤثرا العمل فى السادسة والعشرين من عمره تلميذا فى مصرفهم ، فكان أن أثرى وان جاء باريس قبل أن تنشب الحرب ، حيث استقر ذهنه الهائم ، فنعم فيها بالفكاهة ، والأسلوب ، والتهكم واستمتع بالرشيقات من نساء المدينة العالمية ، حيث يلقى الفنان ترحيبا فى جميع المحافل

ريشتر

من ذلك الحين جعل الرجل الذى أسرف ذات يوم فى النشاط ، يعد الحياة تمثيلية يشترك فى أدوارها أحيانا حين يروقه الاشتراك . واذ كان عديم الوطن ، وضيفا على كل الحضارات ، فقد وافقت اللغة الفرنسية التى حذقها حذقه للغته الاصلية ، موهبته المواتية للاثنتين . وقد أعاده العفو العام الى ألمانيا فصار فيها حرا وطنيا ، وشهد الحرب كمحايد تقريبا ، فهو يكتب سرا هذه الجملة العميقة : « فى باريس يقيم ابداع الكثلكة الزاهرة ، أما فى فرساى فى مقر القيادة الالمانية العليا فراديكالية حديث النعمة . ان باريس هى الباستيل الذى يهاجم ، وفافر وغمبتا هما الشرعية ، وغليوم وبسمارك الثورة » . ومع ذلك فانه يستدعى الى مقر القيادة العليا لأن بسمارك يريد أن يفيد من معرفته الواسعة بشئون المصارف ، أما بامبرجر فينعت بسمارك فى هدوء بأنه « مزيج من الفارس فى عهد ستيوارت ، والملازم البروسى ، وسيد العهد الاقطاعى الألمانى ، ودون كيشوت الاسبانى » . ثم يتبين مع ذلك عظمة بسمارك الآن وبعد الآن ، وان كان بسمارك فى الواقع لا يستسيغه

وبسمارك أشد كراهية لذلك الرأس الفتى الملتحى الذى لا يحتاج الى أن يراه فى منزله الا نادرا جدا ، ومن المؤكد أنه سيأرق اليوم ساعات ، لأن هذا الانسان الواقف الى الخلف فى دائرة ضيوفه ، يرعاه من منظاره القداح بنظراته الفاحصة : فالصحة ، والشباب ، وحب النضال ، تبده هنا ذلك الشيخ وتثير غيرته . لكنه يعرف خلف هذا الجبين علما غزيرا ، وفى هذا القلب نزاهة تأبى كل تساهل فى الرأى على حساب المبادىء : ذلك أوجين ريشتر الذى دربته سنوات النضال ضحية لبسمارك ، ومديرا مقالا ، ومحافظا لم يثبت ، حرم الوظيفة والدخل لانه حمل على تعسف البوليس ، ثم صحافيا خصما للاسال ، عندما كان لاسال يفاوض بسمارك . يعمل للخير العام ، يقظ فى تجنب العمل لنفسه أو السعى وراء السلطان ، لا يريد الا خدمة الحق ، فتعقب أولا لاسال ، وهو يتعقب الآن بسمارك تعقبا خطرا . لا يريد اخضاع طبقة النبلاء بقدر ما يريد اذلال هذا النبيل المعتد بنفسه ، لكنه أخفق فى ذلك

عشرين عاما . لذا يغادر بسمارك قاعة المجلس اذا ما بدأ ريشتر يخطب ، فاذا قرأ فى صباح اليوم التالى حملته عليه وهو يتناول طعام الافطار كنقده منلا لميزانية الجيش التى يرهقها الخطيب بالارقام ويخففها بالافشـــاءات ، ركب فى الحال الى الريخستاج ليرد حملته فيقول : « يؤسفنى أن حضرة النائب ريشتر لم يعش الا بين البيوت والصحف ، ولم يعرف شيئا عن الحياة العملية . ان أوتوقراطى الحزب الديمقراطى هذا يعيش على المبالغات واشاعة الذعر ، وفى خطبه دائما وخز خفى » . هنا يرد ريشتر فى هدوء مهين : « أيعلم حضرة مستشار الريخ .. ؟ »

ليبكنخت

ولعل حضرة مستشار الريخ يرى الآن خلف هذا الضيف ظل ضيفين آخرين يبرزان ويبدوان على هذا المقصف كطيف بانكو * بلاريب، يودان لو لم يجيئا ، ذلك أنه ليس من سبيل معهما الى مناقشة جوهرية ، بل بينهما وبين بسمارك سخيمة سوداء تتوم بين عالمين متطاحنين متنافرين على : أنا أو أنت ! ومع ذلك يستطيع غليوم ليبكنخت أحد الظلين أن يستقصى أجداده حيث أجداد بسمارك فى القدم ، ثم يقع حين يحصى ، على رجل أشبه ببسمارك من آبائه الفرسان قطاع الطرق ، يقع على لوتر ، ثم أيضا على كثيرين من العلماء الألمان أصبح ليبكنخت بوصفه وريثهم طالب علم وزميلا . لقد تيتم فى عقب صبا قاس ــ ومع ذلك فما كان أخلق طريق هذا الفتى أن يكون معبدا ، لو أنه سار على الدرب الذى تســير عليــه طبقته ! لكن الذنب ذنب التحامل اللعين الذى يحدو المثاليين ، اذ يرون أن الأمر يتعلق بخير الناس أجمعين لا طبقتهم وحدها ، وهكذا نفى شيوعيا وهو فى العشرين . فطاف بزوريخ وباريس ، وبثورة ٤٨ وثورة بادن ، وهنا ترك ابن الثانية والعشرين يحمل العلم وينادى بالجمهورية ثم لا يرمى بعد ذلك بالرصاص مع شركائه بفعل الصدفة ، بينما اغتيل ابنه بعد ذلك بسبعين عاما لاشتراكه فى تأسيس نفس الجمهورية

ثوريون

أى نوع من الحياة تحيا هذه الطبائع ، دائما أمام قضاة مستريبين وبين سجانين ، وتجاه سماء حالكة لا يستشعرون الحرية الا فى الخارج حيث يفرون أو ينفون ، ــ ومع ذلك يناديهم واجبهم على أرض الوطن بالذات ، وهو الوطن الذى لا يقلون عن الشرعيين حبا له ! كذلك من يعرف التوترات التى فرض على أعصــاب بسمارك أن تتحملهــا فى نضال دام أربعين سنة ، والتأوهات المتصاعدة من هذا الخادم الذى ولد ليكون سيدا ، يره مع ذلك يستمتع فى الأيام والسنين بصور من الحياة تتعاظم على الدوام ، من غاب ، وقصر ، ومائدة

---

* شخصية فى رواية ماكبث ، أبت الاشتراك فى قتل الملك دانكان فسلط عليها ماكبث من قتلها غيلة (المترجم)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وخمر ، يجدد بهما النشاط ، وتتنافس الملك والأمة على غمره بالهدايا . وعلى النقيض من ذلك يصيح ليبكنخت فى وجه قضاته : « اذا كنت بعد التوفيق المنقطع النظير يعضنى الفقر بنابه ، فانى بذلك جد فخور » . وحقا ان حياته ليصيبها العوز بعد نفى يطول اثنى عشر عاما ، ولا يضىء ظلامها سوى نور الفكر ، لا الضياع ولا السلطة على الأقل ولكن نور الايمان

فلو أن بسمارك وليبكنخت تلاقيا فى الغربة على غير معرفة سابقة فى طريق من طرق الغابة أكانا يفهمان أحدهما الآخر فهما جيدا ؟ فكلاهما يعشق الشجر ، ويعرف الطير ، فلو دار بينهما الحديث على ألمانيا لكان كلاهما محبا لألمانيا . لكنه ما أسرع ما يكتنه الواقعى والمتشكك والحاسب عندئذ المهيج والمؤمن والخيالى ، فلو قام بينهما أن يقتحم أحدهما طريق الغابة على الآخر أو يرتد على عقبيه لتحدى كلاهما الآخر فى الحال ، لأن كلا منهما فى الواقع أوتوقراطى

بيبل

أما أوغست بيبل فأقل اوتوقراطية منهما . فليس فى شجرة نسبه ثورى كما هو الشأن مع ليبكنخت ، بل انه لأدنى اليه من ذلك أنه محب للطاعة اذ ولد لضابط من ضباط الصف فى مغارة فى قلعة ، فهو خليق بدمه أن يكون من رعاة النظام ، وهكذا لا يزاول صبى الخراط شيئا سوى رى النفس المتعطشة للعلم فى جمعية التربية التابعة للعمال . وهنا سرعان ما يتجلى لهذا الذهن الرائق سبب ما يلقى من بؤس والتبعة فيه ، فتحل الضغينة عقدة اللسان ، فيهيج الرفاق ويدخل الريخستاج ، ويسعى فى نفس الوقت الى مزاولة عمله . لكن بسمارك يكون أول من يعينه على الهدوء الذى يستشعره فى الدراسات الحقة التى تنقصه : وفى القلعة التى لاتخيفه بعد هذا الصبا الذى مر به يلاقى ليبكنخت الذى يكبره فى السن كثيرا وكان معتقلا معه ، فيعى رأسه من صاحب السجن نظريات ناضل قلبه فى سبيلها من قبل وجاءت حريته تكفر عنها ، وقد تركهما بسمارك يدمدمان عامين : وفى هذه الفترة يمكن أن ينتهى من ماركس الذى كان فى لندن معلما لليبكنخت

على أن ابن الشعب يظل أقدر من وريث العلماء على التحول وأكثر طواعية فى العمل ، فعقله البشرى أمتن وأصفى ، ونقده ابسط وأكثر شعبية من عقل صديقه الجديد الذى لبث من ذلك الحين حريصا عليه ، ومن نقده . غير أن الايمان والتضحية بالحرية وبالصحة مشتركان بينهما ، وحين يجفو النوم بيبل الذى ظل خمس سنوات معتقلا ، فى حطمة من حطمات أعصابه « جعلت أفكر عندئذ كثيرا فى بسمارك الذى طالما كابد الأرق والآلام العصبية »

وتنحسر الظلال وينهض الضيوف ويمدون ايديهم الى رب البيت وينصرفون : عندئذ يتحرك رجل ضئيل الجسم فوق كرسى لم يبارحه المساء بطوله ، فهو ينهض الآن وله سمت الاقزام ، ويمضى قدما بخطى متقاربة فسرعان ما يقف حيال مضيفه قزما أمام مارد . ويرفع كلاهما اليد التى يود الطويل أن يحطم

بها القصــــير ، ويود القصير أن يسحق بها الطويل بقوى سحرية ، يرفعها كلاهما للتحية . وترفع الآن الظاهرة الماردة صوتها فى اللحظة الاخيرة ليجتذب من القزم معجزة :فهذا فندهورست برأسه الضخم وجسمه الهزيل الضئيل وفمه العريض الصموت المركب فى هذا الرأس الضخم ، وعينيه الغبراوين كأنما خبا ضياؤهما ، ينظر بهما الى الفضاء من منظار سميك ، ويكاد لايرى الآخر ومن ثم لا ينظر اليه ، لكنه وهو واقف يستمع ويده اليمنى فوق صــدره مدسوسة فى سترته السوداء الطويلة ييسر للمارد تبين ابراقة فى اســــاريره هى أدق نبضة فوق هذا السطح الذى تشيع فيه الروح على الدوام . وحين يفتح الرجل الضئيل فاه اذ ذاك يسمع منه صوت ثابت يخشخش بعض الشىء ويرد على ذلك الصوت العالى الرقيق الذى يخرج من فم بسمارك

فندهورست

واذا كان صاحب الســـعادة القزم لايكاد يبصر شـــيئا فان له أذنا وذاكرة مرهفتين ، يتبين فى الريخستاج صوت كل مقاطع ، ويعى فى رأسه كل احتجاج اذ هو لا يسعه من فوق المنبر أن يدون مذكرات ، فاذا ما انتهى الخصم من خطابه انبرى له وجعله على التحقيق عبرة العبر . وليس عبثا ان كان ابنا لقانونيين وورثيا . وان ضئولته وضعف بصره المطبوع فيه ليحفزانه كل الحفز الى تدريب ذهنه ليعوض مافقده فى جسمه . وهكذا درس فندهورست الصغير فى جوتنجن بهمة ، وكان يتناول طعام الغداء بأربعــة قروش ، ولم يشرب خمرا قط ، بينما كان بسمارك الصغير يبدد فى نفس المكان نقود أبيه المعسر على الشراب ، ولا يكف فى عربدته عن موبقاته بحال ، معتمدا وحسب على قوته البدنية وشجاعته ، فكان الآخر فى الثلاثين من عمره مستشارا فى الاستئناف العالى ، حين كان هذا مايزال يجرى وراء الكونتسات البوميرانيات يحاول التأثير عليهن بركباته ، وسقطاته ، وولائمه

وفندهورست فى رأى أصدقائه مؤمن لـكنه غير متعصب بأية حال ، وله من دعاباته ما يمنع أن يكون له سمت الأنبياء . وتهكمه الذى يصل فى نضاله الى حد السخرية الهادئة لا ينجو هو منه . فهو يتندر «بشخصه الصغير» ودمامته ، ويضحك عندئذ ضحك الخبيث ، أحب الموسيقى الخفيفة ، وأغاظ النبلاء بظريف ماكان يصطنعه من ارتباك من خلق خلقا أعوج ، فلم يلق رداءتهن المأثورة ، بل لقى منهن مراعاة أكيدة لنقط ضعف أخيهن فى الانسانية . وهو لم يحتقرهن لذلك كما احتقرهن بسمارك . ولعل اعتداده بنفسه لم يكن أقل من اعتداد بسمارك ، ففى الحزب الذى يقوده يعد من الميالين الى التسلط . وهو كرجل دولة أقل أيضا مما يعتقد فى نفسه ، وهو محام برلمانى أكثر منه رجل دولة كما يبدى أحد أصدقائه ، لـكنه كمحام برلمانى مداور منقطع النظير . واذ كان رجلا بلا جسم كما هو مظهره ، فانه لم يحتج فى حماية هذا الجسم الى شىء مما واتى بسمارك فى شجاعته ، بل لاح وهو يصبغ الحقائق الأساسية بالصبغة الذهنية أنه قد ولد ليكون المنافح عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سلطان الفكر . وقد غلا فى الحيطة فلم يخط رسائل قط أو كاد ألا يخط ، فاذا كان قد كتب فقد ناشد المرسل اليه أن يحرق كتبه فى الحال . ولأنه لم يرتد ثوبا كهنوتيا فقد كفي التواضع وأصبح من مناضلى الطليعة دون أن يكون بحاجة الى اصطناع الحمية النبوية . واذا كان فى برلين لحضور الريخستاج ذهب فى صباح كل احد الى كنيسة هدويج أولا ثم الى بليشرودر . وهذا المنافح الدنيوى فى سبيل العقيدة ، والذى لم يسع الى الافادة من شيء لنفسه ، قد أثبت نفسه بانتفاعه بيوم راحته على هذا النحو

امرأتى وفندهورست

لقد كان فندهورست هو الوحيد الذى غلب بسمارك شخصيا ، ومن لم يغفر له المهزوم هزيمته . لقد قال : « ان البغض كالحب حافز عظيم الى الحياة : وثمة شيئان لا غنى لى عنهما : امرأتى وفندهورست »

الفصل الثانى

لقد تعالت سحب خطرة من ثلاثة انتصـــارات ، وقد تبينها بسمارك فى لحظات ، لـكنه رأى من الممكن أن يتغلب عليها بسلطانه الشخصي . وقبل عشرين سنة عده ملك بروسيا صالحا لأن يكون وزيرا فى حالة واحدة فحسب : حين يكون الحكم للأسنة بلا منازع ، وقبل عشر سنوات أدخله الملك الآخر فى الوزارة وهو يسيء به الظن ، وذلك لينتفع فى الداخل بالرجل القوى . وقد انتفــع بديكتــاتوريته فى الخارج لينتصر ثلاث مرات . فهل عجيب أن يعود مثل هذا الرجل الى حيث بدأ ، وأن يشعر بأن بيده القوة الكافية لأن تجعله ديكتاتورا فى الداخل ؟ وهل عجيب أن يخفق ؟ لقد كان يبــاهى بأنه لا يتقيد بمبدأ ، فلم يتبين الخطر الكامن فى عدم استناده الى نظرة الى العالم ، واذ هو لايرى حياله سوى أحزاب كثيرة يرمقها جميعا بعين الاحتقار ، فقد فاته أنه ليس من ورائه حزب ما . واذ كان لم يعد من الحرب بأفكار اجتماعية أساسية ، بل عاد من مدافعها متجدد النشاط ، فقد كان هذا المعمارى العظيم أقل جدارة فى ترتيب بيته من الداخل

أسباب العجز

والسبب الأكبر هو اعتداده المطلق بذاته ، ذلك أنه حيث يتعلق الأمر بالدول يلفى نفسه حيال خصوم أنداد ، يملك معهم دائما من القوة ما يعينه أما على خديعتهم ، واما على القضاء عليهم . أما فى الداخل فيشعر سلفا بأنه يبز الجميع فى العلم والطاقة والفن . فى الخارج دول عظمى يتحتم عليه أن يكسبها وفى الداخل أناس عديمو الشأن لا يجوز لهم أن يعارضوا . فى الخارج يقف بسمارك من الناحية الرسمية مع نظراء يحق لهم أن يكونوا خصوما لألمانيا وفى الداخل لا يفهم أحد الألمانية كما يفهمها : فلا يجوز أن يعارض أحد طرقا مؤدية الى عظمة البلاد متى دل المعلم عليها . فهو فى مسائل التوازن المتعلقة بألمانيا فى أوربا فنان ، وهو فى هذه المشاكل الاجتماعية التى تتعلق بأوربا فى ألمانيا ديكتاتور . واذ كان قد ألف الحساب بالعظائم لا بالأفكار ، وبالسلطات التى لا تحمل الطابع المدنى ، فانه ينقصه كل تساهل ويوطد سيادته فى الداخل ليجعل منها صخرة من البرونز

وقد خسر المعركة الأولى مع الـكنيسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حوار مع الأسقف

ففى ذات يوم جلس الى المستشار فى فرساى أسقفماينس سليلا كاثوليكيا للنبلاء فى مسوحه حيال نبيل لوترى فى بزته العسكرية ، وكان يحاول أن يدخل على دستور الريخ مواد بعينها لحماية الكنيسة ، فلما لم يبلغ منه مأربا حول الحديث الى المعتقدات فقال : يعلم صاحب السعادة أن للكاثوليك بعد الموت ماليس لغيرهم من ضمانات !

صمت وابتسام

ــ أو لعلكم تعتقدون أن الكاثوليكى محروم من الغفران ؟

هنا يفصح البروتستانتى عن نفسه فيقول : « الكاثوليكى العلمانى مغفور له بلا ريب . أما رجل الدين فأشك فى ذلك ، فقد أخطأ فى حق روح القدس والانجيل يجابهه »

ويرد الأسقف على هذه الدعابة بانحناءة تنطوى على التهكم . اثنان من رجال الدولة متنكران ، أحدهما يرتدى ثوب الجنرال والآخر ثوب الأسقف يحدج كلاهما صاحبه بنظراته ويبتسم . لـكنه بين اللعب والابتسام يتميز بسمارك حقدا على الكاثوليك ثم يسعى فى نفس الوقت وفى ذلك الحين الى دعوة البابا الذى يكربه « ملك اللصوص » الى كولونيا أو فولده لأن « البحث المباشر فى الادارة الكهنوتيه سوف يزيل الغشاوة عن أعين الألمان بأقوى مما يزيلها غيره ، وينورهم أسرع من كل شىء آخر »

هنا أيضا ينقص بسمارك الشعور بالقوى المعنوية ، بل ان المرء ليسعه أن يثبت على هذا الملم بالتاريخ قلة المامه بتاريخ الكنيسة

على أن الحقيقة انه لايدور فى هذا المقام « نضال حضارى » : فهنا مناضل عن السلطة لا عن الفكرة التى لبثت تتحول عنده كلما دعت الحاجة وظل يغيرها عشرين سنة . ثم هو فيما خلا ذلك متسامح فى كل مالا يكلفه شيئا . وقد حارب الكنيسة كسلطة فحسب لا كحضارة . حاربها فحسب حيث هددت باضعاف دولته ، فهو فى هذا المقام عدوها . وقد عرف هذا كله قبل ذلك بعشرين سنة ، وأعلن وهو فى فرانكفورت أن مكافحة « روح الفتح الذى يحدو المعسكر الكاثوليكى » حرب لا هوادة فيها ، وكان يجد أعداء بروسيا فى هذا المعسكر دائما منذ عقد الكونكوردات مع النمسا ، وكان لا يجهل منذ تولى السلطة وصف الفاتيكان اياه بأنه « الشيطان مجسما » . وقد قال فندهورست فيما بعد : « ان النضال الحضارى يرجع تاريخه الى معركة كونججريتس » وحقا لقد أعلن المهيجون البروسيون ذوو الثوب الكهنوتى يومئذ لا سيما واعظ البلاط البرلينى وكتبوا : يجب ان تصبح اوربا انجليكانية وفى جملتها السلطان !

المجمع المقدس

بيد أن الأزمة لم تقع الا على يد المجمع المقدس الذى جمع السلطة كلها

من جديد فى رومه ، فقد أعلن عصمة البابا فى الأيام التى بدأت فيها الحرب فى منتصف يوليه ١٨٧٠ ، فمس ذلك شعور بسمارك كما مس حسابه . فان الشيء الذى لم يكن يطيقه هو أن يعلن أحد أنه معصوم ، وهو مالم يعتقده فى نفسه . لكن أن تدين طبقة ألمانية برمتها للخارج بالطاعه قد كان أمراً يبدو له مهددا ! وقد حذر الأساقفةالألمان من اقرار ذلك فى اللحظة التى توجه فيها الى جبهة القتال فى فرنسا ، وحذر البابا من ارغام الأساقفة الألمان ، ثم أعلن كافة التدابير المضادة كى يقى دولته سلطان رومه والا « كان الأساقفة حيال الحكومة موظفين لدى سيد أجنبى »

حزب الوسط

فى اثر ذلك ، والحرب ماتزال دائرة ، يؤسس أصدقاء فندهورست حزب الوسط كحزب ينافح عن الكثلكة ويتحول بسمارك الذى يخفق فى تأسيس كنيسة كاثوليكية ألمانية الى الهجوم ، ويعلن بطلان الاجراءات التى اتخذها كبير أساقفة كولونيا اذ حظر على طلبة بون الاستماع الى محاضرات القساوسة الأحرار . ولأنه يشيد الريخ ، وأثناء أن كان يشيده ، يجعل من نزاعه مع الكنيسة ومنازعتها له نضالا منها ضد هذا الريخ ، ومن رومه نقطة ارتكاز لكافة أعداء الريخ . وحين يعود يجد الحزب الجديد ممثلا فى جبهة مؤلفة من ٥٧ رجلا يتعلق بها الساخطون أجمعون

وهذا خليق أن يسخط حتى الهادىء الرزين ، فقد لبث عشرين عاما يتجه بفكره الى هذا العمل ، وظل ثمانى سنوات يحارب فى سبيله ، ثم كان أخيرا أن وفق فيه جميعه رغم كل مقاومة وفى أسابيع شديدة الارهاق ، ــ والآن اذ هو متعب ، مغبر ، متوتر الأعصاب ، واذ هو عائد ليتداول مع الشعب فى هذا الأمر ، ماذا يجد ؟ يجد عصبة من نواب الشعب المعادين يجمع بينهم ايمان ، ويرى أن رئيسها البعيد من المانيا لابد أن يكون معاديا للامبراطور اللوترى الجديد ، متحسرا على الامبراطور الرسولى القديم . افلا يجب على ذلك المتشكك الكامن فيه الذى يشهد الآن بتزعزع عمله ، ان يرى فى أيدى هذه الجماعة معاول خفية تبغى أن تهدم ثانية ما كابد المشقة فى بنائه ؟ ومن عساه أن يطلب فى مثل هذه الحالات النفسية انصافا من شخصية عارمة ؟ وهذا الرامى المصمم على الذود عما صنعت يده ، والذى ماتزال تستغرقه نعرة النضال ، يبالغ فى تقدير المسافة ويسدد فيصيب بدلا من بضعة أفراد من الكاثوليك الألمان ــ سلطان رومه العظيم من دون أن يجرحه . وهذا الخطأ فى هذا الواقعى ، وهذا الخوف من حلف كاثوليكى عالمى يناهض ريخه الفتى ، مفهوم من الروح الحربى الذى يحدو الظافر ، ومن القلق الذى يساور البانى

الوسط المهدد

ذلك أن من يقف فى وجهه ليس هو الحزب فحسب ، بل كل من صودرت أملاكهم ، وكل المناهضين للسلطة الألمانية ، وكل البولنديين والألزاسيين ، كل أولئك تتراص صفوفهم فى الداخل كما يرتبط النمسويون والفرنسيون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فى الخارج ارتباطا ليس بالوثيق ، وكما تتفاهم الاشتراكية الديمقراطية وهى فى مثل فتوة الريخ ، الضعيفة رغم ذلك ضعف أوربا ، مع خصمها هذا . وقد كان الوسط أول من نهض « بين كافة أعداء الريخ » . وان مناهضة بضعة لاهوتيين من الجامعات الألمانية ونفس الكردينال هوهنلوهه ، للعقيدة القائلة بعصمة البابا من الخطأ ، وحماية ملك بفاريا الكاثوليكى لهذه الاعتراضات ، وكون الحزب الألمانى الجديد يتعرض للوم رومه من مبدأ الأمر — كل ذلك مما يزيد الاضطراب الذى يشترك فيه أيضا زعماء أهينوا ، اشتراكا لاتدعو اليه ضرورة ، ومن هؤلاء سافينى الذى أغضب بسمارك طموحه قبل سنوات

قوانين النضال

ومع ذلك فان تخاملات بسمارك وحالاته النفسية لا تكفى أبدا لأن تدفعه بعد غضبه الاول الى اتخاذ قرارات : فانه لا يعمل الا بعد أن يزن مشاعره من الناحية السياسية فهو يقدر أنه يستطيع بهذا النضال أن يقوى فى الخارج ايطاليا الحديثة فى ميولها المناهضة للكنيسة ويقصيها عن فرنسا ، وأن يحالف الروسيا التى تحارب رومة على وجه عام ، وتحارب كهنة رومة بوجه خاص ، بوصفهم مثيرى بولنده . أما فى الداخل فيسعه فى نفس الوقت أن يجرد ولى العهد من عداوته الشخصية ويرضى الاحرار عن الدستور ، ذلك أنه لا يوائم نظرتهم الى العالم من الناحية الطبيعية شىء كالنضال ضد الكنيسة

هجـــوم

وهكذا يبدأ بسمارك هجومه بشدة يلحظ فيها شدة معسكر الميدان ، وذلك بعد أن وقع الصلح فى أول مايو رأسا : فهو يكلف من يكتب بصفة شبيهة بالرسمية : « أن الحكومة ستجد نفسها مضطرة فى القريب الى اللجوء من جانبها أيضا الى العدوان .. واذا كان سلطان الألمان قبل ٣٠٠ سنة قد كان أقوى فى ألمانيا من سلطان رومه فكم هو أقوى الآن .. حيث لا تكون رومة حاضرة العالم ، وحيث لا يرتفع تاج الامبراطور الالمانى فوق هامة أسبانى بل يستقر فوق رأس عاهل المانى » . ولم يكن وقتئذ مما لابد منه لبسمارك أن يفصل الدولة عن الكنيسة ، بل كان يريد « مركزا دفاعيا قويا تجاه الكنيسة الكاثوليكية المعتدية » . فلكى يوجد هذا المركز يضع أولا تلك الفقرة المتعلقة بالخطابة ، والتى تهدد بالسجن كل باحث فى شئون الدولة من فوق المنبر ، لكنه وقد تحركت آلته تندفع هذه الآلة الى الامام سريعا ، وتتفاقم حركتها فى بروسيا فى السنوات التالية بصدور « قوانين مايو » وظهور عواقبها ، فهو يلغى القسم الكاثوليكى من وزارة المعارف ، ويستبعد من الدستور الفقرات الحامية للكنيسة ، ويتدخل فى ادارة الاسقفيات ، وفى تدريس الدين فى المدارس ، ويبعد الجزويت والجماعات الدينية المماثلة لها من بلاد الريخ ، ويجعل الزواج المدنى اجباريا ، ويهدد المتدينين أو المعاندين بالطرد والعقاب ، والقلعة والسجن ، ويحبس عنهم كل مورد ، وينقص على هذا النحو من الاهتمام بالروح ، ويتم دورا بأكملها لقسس النواحى ، ويبذر بذور العداوة بين الاساقفة والقسس ، وبين القسس والعلمانيين ، وفى داخل الاسرة ، ويدفع رعاة الكنيسة والمواطنين

والطلبة والنساء الى محن الضمير ، يثير بذلك فوضى فى المشـــاعر والمصالح فيتحقق على غير ما أنذر كثيرا أقوى تهديد له : * Acheronta movebo !

كانوسا

ويصيح بخصومه قائلا : « لا يتولكم الهم ، فنحن لن نذهب حتى كانوسا (١) لا بالجسم ولا بالروح » . ولسوف يندم على هذه الكلمة التى تطير فوق ألمانيا وعبر الالب ! ويقارن أمير من أمراء الكنيسة الحكومة برجل يدخل فى النهر من دون أن يدرى غوره فيقع فى كل خطوة على أعماق لم تكن فى الحساب ، وينعت آخر بسمارك بأنه أفعوان ، ويذكر فندهورست بالاضطهادات التى لقيها المسيحيون الاولون ، ويعلن أساقفة بروسيا أنهم يعارضون فى أمثال هذه المبادىء « مبادىء دولة وثنية » ويحظر البابا على الكاثوليـــك الالمان طاعة القوانين . وهنا يصعد بسمارك الى المنبر ويعتليه مدججا بالسلاح ويلقى كلمة مؤثرة لا عهد للناس بها منه :

« أن الأمر لا يتعلق بنضال أسرة بروتستانتية مع الكنيسة الكاثوليكية ، ولا بنضال بين الايمان والكفر ، ولكنه يتعلق بذلك النزاع القديم على السلطان ، وهو نزاع يذهب فى القدم الى أصل الانسان ، نزاع بين الملكية والكهانة ، نزاع أقدم كثيرا من ظهور مخلصنا فوق هذه الارض ، أنه النزاع على الســلطان الذى اعتاق أجاممنون مع منجميه فى أوليس ، وكلفه ابنته ، ورهن اليونانيين بالثغر فلم يستطيعوا الابحار ، النزاع على السلطان الذى ملأ صفحات التاريخ الألمانى ، والذى وجد فى القرون الوسطى خاتمته فى لقـــاء آخر ممثل لأسرة البراطرة الشوابيين السامين حتفه بسكين مقصلة فاتح فرنسى ، وفى أن هذا الفرنسى كان اذذاك حليفا لبابا ذلك العهد . لقد كنا دائما قريبين من مثل هذا الحل للموقف على ما تقضى به عادات عصرنا . فلو أن حرب الغزو التى شنها الفرنسيون والتى وافقت صدور المنشور بقرارات الفاتيكان كللت بالنجاح لما علمت ما كنا خلقاء أن نرويه فى مناطقنا الكنسية فى ألمانيا عن gestis Dei per Francos ! (٢)

النزاع على السلطان

هكذا يقذف سـامعيه بكلمة النزاع على الســلطان خمس مرات ، وهو الضنين فى العادة بكل كلمة يمكنه الاستغناء عنها ، فيذكر بها الباعث الحقيقى بمثل الصراحة التى يلفق بها الموقف التاريخى ويزيفه بمقارنته البارعة . اما الحضارة فلا يذكرها بكلمة : فلماذا اذن « النضال الحضارى » ؟

---

* سأحرك نهر الاخيرون

(١) كانوسا بقايا قصر فى اقليم ايطالى أذل نفسه عندها الامبراطور هنرى الرابع فى القرن الحادى عشر أمام البابا جريجور السابع ، فذهبت مثلا لكل خضوع مذل للكنيسة الكاثوليكية . وكذلك ذهبت عبارة بسمارك التى ألقاها فى الريخستاج مثلا اذ عنى بها أن الدولة البروسية والريخ الالمانى مصممان على ألا يطيقا اعتداء الكنيسة على أراضيهما (المترجم)

(٢) أعمال الله التى تمت على أيدى الفرنسيين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويذود فيرشوف أقدم أعدائه وأحدث حلفائه عن نفس القضية تحدوه بواعث تختلف عن ذلك الباعث كل الاختلاف . وقد استخدم فى دفاعه عنوان « النضال الحضارى » تمشيا مع كلمة للاسال : « ان الاتجاه البرتستانتى يفتح بحرية البحث وفى كل الجهات ، وجهات من النظر أعظم من غيرها فى رأى الانسان ، ويعوده مبكرا على الاستقلال فى العمل . فاعملوا على أن تقودوا أساقفكم الى حرية أعظم ، وموظفيكم الى عمل أكثر استقلالا ، يتغير كل شىء .. انكم يجب أن تواجهوا هذا الشىء الرومانى غير الالمانى .. فاذا رأيتم أنه يصح أن تمدوا حيز الايمان الى حيز الحواس فيتناول شئون هذه الدنيا .. ضعنا ، وعقتم عندئذ التطور الالمانى بأسره ! »

الحرية والعلم ؟ الم يكن الكلام يدور منذ هنيهة عن تنازع السلطان ؟ عالمان ، فيرشوف وبسمارك ، اليوم وقبل عشر سنوات ، يتصالحان على تقلبات السياسة التى تتنكر فى ثياب الفكر مادام المرفع قائما ، ويرقصان معا . لكنه هاهوذا مالينكروت المشاكس وأحد زعماء حزب الوسط ينهض ويرد على المشرح الجامد فيقول :

« أين اذن ما يدل على رجاحة فكر البروتستانتيين ؟ أذلك أن كلا منهم يرى الحق بخلاف ما يراه الآخر ، ويذهب فى ذلك الى حد الخبط ؟ .. ان الكنيسة هى رافعة لواء الحقيقة ، فاذا فصلت جهة مختصة فى أمر ، فعلى الكاثوليكى أن يسلم بحقيقة هذا الفصل . وهذا هو كل الفرق بين مبدئنا القائم على السلطة ومبدئكم المستند الى الفرد . ومن ثم نقف بعد ١٩٠٠ سنة متحدين ، ثابتين ، أقوياء فى العالم كما كنا فى سالف السنين ، بينما تتأملون أنتم بناءكم محزونين ، وأنتم تشهدون حجارته تتداعى واحدا بعد آخر ! » فماذا عسى أن يفكر مستشار الريخ وهو يقرأ هذا الخطاب ؟ ألا يشعر بأنه متفق مع هذا الخصم أكثر مما يتفق مع حلفائه كثيرا ؟ ان لهذا الكاثوليكى طابعا بسماركيا يتناول حتى نغمة بسمارك وأسلوبه ، فهو يقذف فيرشوف نفسه بهذه الكلمات التى كان يجب أن يسمعها من شفتى بسمارك فى خلافه معه !

شركاء غير متساوين

وأرشق من ذلك صراع المتصارعين ، فان خطبهما عن النضال الحضارى لتصبح فى ذروة النقاش السياسى الألمانى . لكن المنتصر دائما هو فندهورست . وحين يهاجمه بسمارك مرة بوصفه خارجا على السلطة الالمانية ممعنا فى الخروج ، ثم يحذر الوسط من هذا الزعيم العدو للريخ ، وينصح له متهكما بأن يتحلى بالتواضع المسيحى والحلم ، يرد عليه هذا بقوله :

« حقا ان لى أخطاء كثيرة ، لكنه ليس من أخطائى أن انفعل فى المناقشات البرلمانية . أن نبضى يدق الآن ستين دقة هى عين ما يدقه خارج البرلمان . وفيما خلا ذلك يلوم السيد المحترم حزب الوسط على أن شخصى الضئيل فى جملة أعضائه ، فهل أراد بها تقديرى أم أراد تعييرى ؟ »

وحين يقول فندهورست ان بسمارك يريد أن ينقل الى البرلمان مركز

الثقل فى سلطة الدولة يتناول بسمارك الكأس الموضوعة أمامه بيدين عصبيتين، ويحتسيها جرعة بعد أخرى وهو يرتعش باحثا عن جواب فيمضى فندهورست يقول : « اذا طردتم الكنيسة من المدرسة فمن يدرس فيها الدين ؟ أفتفهم الدولة هذا وهل عندنا من يقوم به ؟ اذن أرجوكم أن تقوم الدولة بهذا التدريس الدينى الجديد ! وانها لتصبحن عندئذ دولة وثنية ، دولة لا تؤمن بالله ، أو تصبح هى الله نفسه فوق هذه الارض » . ويريد بسمارك أن يرد الآن وهو لا يستطيع أن يرد ، لكنه يرد منفعلا ردا شخصيا محضا فيقول : « لقد حصلت على خبرتى الطويلة فى خدمة المبدأ الملكى فى بروسيا ، وما تزال هذه الخبرة تنتظر حضرة نائب ميبن فيما أرجو »

مساجلة كلامية

ويرد بسمارك الضربة أول ما يرد فى اليوم التالى ، مقذعا فى رده : « ان الزيت الذى تنضح به كلماتك ليس من النوع الذى يبرىء ، ولكن من النوع الذى يزيد نار الغضب لهيبا . لقد ندر أن سمعت أن حضرة نائب ميبن يعنيه أن يقنع أحدا أو يسالمه — وأدعو الله الذى أؤمن به أن يقينى أن يكون لحضرة العضو المحترم التصرف فى رحمته والا ساء مصيرى .. انك لتدرك السلام مع الدولة من أهون سبيل اذا تنحيت عن زعامة الحزب الخارج . فان آمال الخوارج لا يمكن أن تتحقق الا اذا ساد الدولة النزاع ومنيت بالانقلاب »

ويرد فندهورست على الفور : « لست شيئا ولا أستطيع شيئا ، لكنه يبدو لى أيها السادة أنكم تريدون أن تجعلونى شيئا مذكورا .. انى أمتنع عن نعت هجمات حضرة الوزير لأنى خاضع لسلطة الرئيس . وذلك ما لا يتبينه الوزراء تماما . لكنى مع ذلك لا أتراجع أمام أحد . ان السيد المحترم يسألنى هل ما أزال مواليا لأسرة هانوفر الملكية ، وهذا الولاء سوف يلازمنى الى القبر ، وليس من شيء فى العالم ، حتى ولا وزير المانيا ذو الشوكة والسلطان ، يستطيع أن يصرفنى عن ذلك ، بيد أنى أعتقد أنى باتباعى الكتاب المقدس أقوم بواجبى كأحد الرعايا بما يرضى ضميرى كل الرضى .. فاذا لمح الى أن لحزب الوسط مآرب خفية ، واذا حوول ارهاب هذا الحزب بتعريض أحد النواب للريب ، فان هذا خليق أن يشعرنا بأنا قريبون من عهد ارهاب يضغط على حرية الرأى . وأحب أن أقول للسيد المحترم : ليس من الصعب أن يناصر المرء المبدأ الملكى فى السراء ، لكنه اصعب من ذلك ان يناصره فى الضراء والطاعة مفروضة عليه ! »

داود وجوليات

على هذا النحو الباهر يهزم فندهورست خصمه . وهو فيما بعد يوضح جوهر هذا النضال بين القوة والفكر فيقول : « ان السيد المحترم ينجح فى رأيه أكثر مما انجح فى رايى لأنه يملك أكثر مما أملك من الجند والمال .. فمن كان يسنده مليونان من الجنود ، فليس من البراعة فى شيء ان ينجح فى سياسته الخارجية ! » فحين يغادر بسمارك المجلس أثناء خطاب فندهورست يسجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا مع الابتسام : « ان من عادة الفرسان فى مثل هذه الهجمات أن يتلقوا الرد عليها بأشـخاصهم . ولكنت خليقا ان أعلق أهمية بالغـة على التحادث سويا أمام ألمانيا » . بهذا الفخر ، وهذه المرونة ، وهذه الدعابة ، وهذا الشر يثب داود على جولياث ، ويسدد ضربته الى رأسه

لكنه لن يصيبه ! فان بسمارك يتبين مبكرا ما ارتكب من خطأ فى قضـية الكنيسة ، فهو بافادته من وفاة بيوس الشاكس وتنصيب ليو الثالث عشر الديبلوماسى لتغطية تراجعه ، يعرف أن يلقى على مرؤوسيه تبعة الحرب التى أمر بشنها ، ويكف بغتة عن الكفاح فى الداخل ، ويكتب أندراسى أيضا فى نهاية سنة ١٨٧٣ يقول : « لقد احمرت عينا بسمارك حين ذكر البابا ، فكانت كلماته تخرج وكأنها لعنات . وقد نعته بأنه خطر على كل البلدان ووصفه بأنه ثورى ، فوضوى ، يجب على أوربا بأسرها أن تحاربه اذا أراد أمير ان يطمئن على عرشه » . وسرعان ما يرى أنه لا سبيل الى هزيمة رومه ، فيلقى على وزير معارفه فالك كل تبعة ، ويتفكه أمام وزير فيرتمبرج مينتخت بالدولة فى شتى الصور البديعة « كشرطى يجر سيفه من وراء كهنة خفاف الخطى » . ويزعم أنه كان فى فارتسن حين سن القانون الخاص بالزواج المدنى ثم يصرح رسميا لفريزن وزير سكسونيا بقوله :

« ان النضال من أوله الى آخره لم يكن بارادتى ، فقد قصدت فحسب أن أكافح حزب الوسط كفاحا سياسيا . أما أنهم أثاروا بذلك الأمة الكاثوليكية جمعاء فما أنا منه براء ، فلقـد كنت ضـد هذا . غير أن كامبهوزن وفالك هددا بالاستقالة فكان حتما على أن أذعن . وانى الآن لآسف أنى لم أقرأ هذه القوانين قبل توقيعها على الاقل ، ذلك أن فيها سخفا كثيرا .. انى أرجوك أن تبلغ ملكك هذا كله فلا يجعلنى مسئولا عن كل ما حدث فى بروسيا فى السنتين الأخيرتين »

الرجعة

هذا هو عين اللسان الذى حرض قبـل سنة فى مجلس اللاندتاج نصف المواطنين على النصف الآخر حين قال لهم : « ان البابا المعصوم هو من يهـدد الدولة ! انه يقتطع لنفسه من الحقوق الدنيوية ما يروقه .. ويعلن بطلان قوانيننا ، ويجبى الضرائب .. وبالجملة ليس فى ألمانيا من هو أقوى من هؤلاء الأجانب ! »

يعتقد بسمارك أنهم نسوا كل هذا فى سكسونيا ، أما فى أوربا فيعرفونه ، وتذكره رومه قبل الكل ، كما أنه يذكر الناس بأنه صاح فى اللاندتاج من ٢٥ سنة مضت يقول : « آمل أن أعيش حتى أرى سفينة المغفلين فى هذا العصر تتحطم على صخرة الكنيسة المسيحية ! » وحين يذكره جيرلاخ الهرم بهذه الكلمات التقية مستشهدا بها أمامه وقد نطقها فى عهد تقاه يجيبه بسمارك جوابا جريئا هو أنه كان يومئذ يعنى بها الكنيسة البروتستانتية . وهنـا بلا ريب يحق لعظماء رومة أن يبتسموا . وقد أمكن بيوس قبيل موته أن ينعت عدوه الكبير بفيليب البروتستانتى ويتنبأ : « ستتدحرج فى النهـاية صخرة الى سفح الجبل وتحطم المارد ! »

الفصل الثالث

« الحرب على القصور »

فى ١٨ مارس ١٨٤٨ فر غليوم من برلين هربا من الثورة ، وبعد ذلك بثلاث وعشرين سنة فى ١٧ مارس كان يدخل برلين بين الهتاف امبراطورا مظفرا . وفى اليوم التالى لدخوله برلين ثارت العامة فى باريس ، وأبدت الجماهير فى ألمانيا بأسرها عطفها عليها ، وارتعب بسمارك : « لقد عاد هذا يكلفنى أول ليلة لم يغمض لى فيها جفن » . وكان بيبل هو الاشتراكى الوحيد فى أول مجلس للريخستاج عقب انتخابات المنتصرين ، فاعتلى المنبر بعد أسبوعين من عقد الصلح يرفع عقيرته بأن « هذا قد كان فحسب مناوشة بين الطلائع ! فلن تمر بضع سنوات حتى تصبح صيحة العامة فى باريس : « الحرب على القصور والسلام للأكواخ » صيحة الحرب لطبقات أوربا العاملة ! » (ضحك عال) ثم أهاب بأهل الالزاس واللورين أن يساهموا فى حرب تحرير ألمانيا بأسرها كيما يحين أخيرا الوقت الذى تفوز فيه شعوب أوربا بحق تقرير المصير ، وليس سوى الجمهورية ما يحققه . وهنا يرد عليه بسمارك : « لا تخشوا أن أرد على حضرة الخطيب السابق فانكم لتشاطروننى شعورى بأن خطبته فى هذه القاعة لا تحتاج الى رد ! » غير أن بسمارك حين تمر على هذه الخطبة أيام يعود فيصفها بأنها شعاع من نور أضاء الموقف كله على حين بغتة فاذا الدولة والمجتمع يجدان نفسيهما فى حالة دفاع عن النفس : ان هذا العدو يجب أن يسحق !

لقد اتصل بخلف لاسال بعد موت لاسال بزمن طويل ولم ينس قط أفكاره عن الدولة الاشتراكية . أما الآن بعد ثورة العامة فيهمل كل شىء ، ولا يقدر الا أنه لم يعد بحاجة الى مناهضة الاحرار ، فيحاول حماية الملكية بقوانين جديدة ، ومعاقبة كل من يخطب فى الاشتراكية بالسجن . وحين يرفض الريخستاج ذلك ينذره بقوله : « ان الاشتراكية الديمقراطية قد خطت أوسع الخطوات .. وسيلهث المواطنون بعد بضع سنوات فى طلب العقوبات » . وحين يدخل الحزب الفتى المجلس بعد الانتخابات التالية باثنى عشر رجلا ينشد علاج ذلك فى عصا التأديب التى يصلتها الله فوق رؤوس العباد ، ويتحدث فى جهل تام بمجرى الأفكار الجديدة عن السخف الخيالى القائل بأنه حسب المرء أن يفتح فاه يطر اليه شواء الحمام « ويريد أن يعالج هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجهالة الاجرامية بالهواء والشمس » ، لكنـــه لا يضرب ضربته : اذ يخشى الريخستاج اصدار قوانين استثنائية ضد فريق من المواطنين

طلق نارى

ويطلق عيار نارى يزيل التوتر

ذلك أنه فى شهر مايو ١٨٧٨ يطلق النار رجل على الامبراطور البالغ الثمانين وهو فى مركبته فيخطئه ، وكان طالبا متصعلكا ، وأحد الرعايا الارديا، وفتى مطرودا من الحزب الاشتراكى . ويضرب بسمارك المائدة بيده حين يعلم الخبر ويقول : « الآن يقعون فى قبضة يدنا »

ـ الاشتراكيون ياصاحب السمو ؟

« كلا ! بل الأحرار ! »

لقد رسم خطته فى لمح البصر : فاليوم يجب أن يدفع هياج الشعب الأحرار الوطنيين الى اصدار القانون الاستثنائى ، فعلى هذا النحو يتخلص من الأحرار الذين بات بغير حاجة اليهم وقد وضع « النضال الحضارى » أوزاره . ويطلب فى نفس اليوم الى وزير العدل أن يضع قواعد هذا القانون ليعرض فى اليـــوم التالى على الوزراء ، ويقدم فى العاشر الى مجلس الريخستاج ذلك المشروع الذى طالما تاق اليه والذى يعجل به الآن حاويا للكثير من الأخطاء الفنية ، ذلك أنه « يمكن مكافحة الاشتراكية الديمقراطية مكافحـــة فعالة اذا جاز لنا تخطى الحدود التى أقامها الدستور حرصا منه على مبدأ حماية الأفراد والاحزاب فيما سمى بالحقوق الاساسية » . لكنه بعد عشرين يوما من حادث الاغتيال يكون الريخستاج بأكمله فيما عدا المحافظين قد رفض القانون الاستثنائى . ويتنبأ بينجسن : « لو قبل القانون لكانت عاقبة ذلك مساعى سرية خطيرة ومرارة فى أنفس الطبقات المصابة ولقال الناس : اذا كانت طبقات الملاك تلجأ الى مثل هذه الوسائل وتعلن أن مئات ألوف المواطنين طريدو القانون فلن يلزمنا شىء احترام هذه القوانين . ومثل هذا القانون لابد أن يعقب اشد هياج » . وكذلك يحذر ريشتر من أن هذا القانون لو صدر لكان خليقا أن يرفع بعض من لا شأن لهم ولا خطر فى أعين الجمهور الى مرتبة الشهداء

اعتداء على الحياة

وتنطلق رصاصة ثانية بعد ذلك بثلاثة اسابيع من نافذة فى «اونتردن لندن» فتصيب الامبراطور الشيخ اصـــابة بليغة ، فيتداعى فى مركبته ، ويذهب المستشار السرى فون تيديمان بعد الحادث بثلاث ساعات والخبر فى يده يفتش عن البرنس فون بسمارك فى رياض فريدريكسروه : « وأخيرا تبينته برفقة كلبيه يسير الهوينا فى أشعة الشمس مقبلا فوق الروض فتقدمت منه ، وانضممت اليه . وكان فى حالة من المرح الشديد ، يتحدث عن جولاته فى هذا اليوم وتأثيرها فى أعصابه »

ــ لقد وردت برقيات هامه

« اهى عاجلة الى حد ان لابد من انجازها هنا فى الحقل ؟ »

ــ للاسف ! فقد اطلقت النار مرة اخرى على الامبراطور واصيب هذه المرة اصابة بليغة

فهب بسمارك هبة ظل بعدها واقفا وجعل يضرب الأرض بعصا من البلوط فى حركة عنيفة ويقول وهو يتنهد تنهدا عميقا : « اذن نحل الريخستاج ! »

وعجل بالخروج من الروض الى بيته وهو يستفسر تيديمان عن تفاصيل الجريمة . ولما دخل البيت أمر بالاستعداد للسفر الى برلين

لن يرى أبدا اوتو فون بسمارك بأجلى مما يبدو الآن ، فهو يحب الملك الشيخ على أسلوبه لأنه يهبه القوة منذ ١٦ سنة على مسايرة شيطانه واجهاد عبقريته . وهو يئن تحت يد هذا الشيخ العجفاء ، لكنه لا يزدريه كما يزدرى الآخرين بل يحتمله على الأقل كما يحتمل الابن أباه الهرم وهو يأمره وينهاه من أمد طويل . وهو انما يطلب لنفسه قبل كل شيء خدمة طويلة ، ويطلب لسيده الشيخ حياة مديدة ، وولى العهد خصم له وقد يصبح غدا ملكا ، عندئذ يصبح سلطان بسمارك الى ختام ، فشعوره ومصلحته لا يمكن أن يمليا عليه غير السؤال الأول عن حال الجريح

فرصة مؤاتية

على أن هذا الرجل مجاهد قبل كل شيء ، عدو لأعدائه ، يكره والليل يطويه ، ويقدر والنهار يمر به ، يرصد عدوه دائما ، ويترقب دائما عدوا جديدا . كيف ؟ هذا الريخستاج الذى خلقه هو يعترض على خططه ؟ أريشتر وفندهورست ولاسكر وبينجسن من القوة بحيث يأبون عليه كفاح المخلين بالنظام ، السارقين للمتاع ؟ ألم يشهد منذ هنيهة هذا « المجلس الثرثار » ينتزع سلاحه من يده ؟ أنها لطلقة منقذة كائنا من كان مطلقها ! انه لا يعرف بعد من أية طبقة ومن أى حزب هذا الفاعل المجهول ، لا يعلم شيئا بعد عن خطورة الجراح ، وهل يتغلب عليها جسم فى الثمانين ، لكنه يعرف شيئا واحدا : ان هذه الجريمة التى لا تقدر كالنصر فى ميدان القتال ، تؤلف قاعدة مباركة لمعركة انتخابية ! فليسقط أعداء الداخل أجمعون ! الآن نحل الريخستاج !

ولا تمضى تسعة أيام حتى يكون هذا قد تم ، وبعد بضعة أسابيع يحرز بسمارك أغلبية جديدة بفضل المجرم

وماذا يهم رجل الدولة ان مطلق النار مجنون لا ينتمى الى حزب ، وأن يعلن فيما بين شروعه فى الانتحار واعدامه انه لا يريد الخروج من هذا العالم من دون أن يصطحب معه عظيما ! انه يملأ الصحف باعترافات نوبيلنج وخطاياه ، ويطير على جناح البرق وبصفة رسمية أنباء المؤامرات والاشاعات فى كل يوم !

انه يعلن الأحكام العرفية فى برلين ! ذلك أنه من الأحكم أن يعجل بالاصطدام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذى لاندحة عنه وأن يقمع الثورة بالقوة ثم ينفذ فى الريخستاج تحت تأثير الفزع قوانين صارمة . وهكذا يعود هذا الوزير بعد نصف جيل الى حيث بدأ وهو الذى لا يحفل بالحق ، فعلى الدم والحديد أن ينتزعا له فى الداخل مثل الذى أحرزاه له فى الخارج . بيد أن ولى العهد يرفض مطاوعته فى هذا الاجراء . فهو كنائب عن أبيه لا يريد أن يبدأ حكمه بالدم . ويتمنى الأحرار جميعا أن يموت الامبراطور وأن يخلفه ابنه ، لكن الابن لا يجمل به أن يعارض فى قانون استثنائى يسن زغما من مشترعه أنه للمحافظة على حياة أبيه . ومن ثم يزداد ولى العهد تخبطا فى مشاعره

ابلال الشيخ

وهنا يقع ماليس فى الحسبان : فان الشيخ تتحسن صحته ، وتكون الخوذة التى كان يلبسها فى ذلك اليوم على خلاف عادته هى وحدها التى تنقذه . وهو الآن بعد أن انتصر فى ثلاث حروب رغم أنفه ، يحمل حياته على كفه . وهذا شيء يفهمه الشعب . فهذا الأمير الذى كان مكروها ذات يوم سرعان ما يصبح أدنى الى قلب الشعب من أى عاهل قبله . وحين ينهض من فراشه معافى ويعلن متهكما أن نوبيلنج قد عالجه خيرا مما عالجه أطباؤه ، وأنه لم يكن يعوزه الا هذا الفصد ــ حين يفعل ذلك تهلل ألمانيا عن بكرة أبيها ، ويلفى بسمارك مولاه أطلق نفسا ، وأنشط روحا ، مما كان منذ أمد طويل . فهو والشعب وولى العهد وزوجه : بل أوربا بأسرها ، يأخذون بعد هذه التجربة فى اطلاق النار ، يشعرون بأن الأقدار تهيىء لهذا الملك شيخوخة عجيبة لا مثيل لها الا فى الأقاصيص : شيخوخة لم تكتب منذ قرون لعاهل قط . وهكذا تفيد الرصاصة كل الاطراف ، وينتفع بسمارك بهذه اللحظة وبالحالة النفسية التى تسودها فيقدم على أخطر اجراء

ويخرج اليسار من الانتخابات التى دارت حول حادث الاعتداء ، والتى لم يكف بسمارك فيها عن تصحيح مواقفه ، فله فى كل حالة محور جديد ــ يخرج اليسار موهنا ، ويخرج اليمين المحافظ أقوى مما كان : فالآن يستطيع المعلم ان يفرض على الريخستاج قانونه الاستثنائى . وانه ليفعل ذلك حقا فى صرامة مضاعفة . فهو يزأر بالأحرار اليوم كما كان يفعل من قبل ، ويقبل معونة فندهورست الذى يعلن افلاس السياسة التى اتبعت حيال الكنيسة ، ويحول الجبهة على هذا النحو وما تزال له مزية استخدام الوسط والأحرارالوطنيين بالتبادل فى احراز الأغلبية

ويقضى القانون الجديد الذى وافق المجلس أولا على أن يسرى سنتين ثم مده أربع سنوات أخرى ــ يقضى بأن يكون لولاة الأمور فى كل قطر ألمانى قمع كل شيء يرمى الى تقويض دعائم النظام الاجتماعى والمعاقبة عليه من تلقاء أنفسهم . فلهم مطاردة الطباعين والكتبيين وأصحاب الحانات واعتقالهم . بل كل من يشايع التعاليم الاشتراكية جهرة يمكن أن يبعد من أجل ذلك ، فحرية الصحافة والاجتماع معطلة فيما يتصل بهذه الدوائر ، ولكل مدير أن يعلن فى اقليمه الأحكام العرفية

ويظهر بوضوح فى خلال المناقشة معالم قرن جديد من الزمان كأنما يكشفها برق ، ويصيح بسمارك بالاشتراكيين وكله ذلك الشريف والنصير للحلف المقدس وكأنه لم يتقرب قط من نابليون ـ يصيح بهم قائلا : « اذا كنتم تبذلون للناس الوعود وتهزءون وتسخرون من كل ما كان الى اليوم مقدسا عندهم فتخيلونه لهم أكاذيب .. ايمانهم بالله ، وايمانهم بالملكية ، وتعلقهم بالوطن ، والأسرة ، والملك ، واستمساكهم بتوريث ما يكسبون .. اذا سلبتموهم هذا كله فليس بالصعب كل الصعوبة أن تحملوا انسانا ليس له كبير قسط من التعليم على أن يقول آخر الأمر وهو يهدد بقبضته : ألا فليذهب الأمل والايمان الى الشيطان ولينفد الصبر قبل كل شيء !.. وماذا يبقى لمثل هذا الانسان غير أن يجرى وراء متع الحس التى يمكنها وحدها أن تحبب اليه الحياة ! اننا اذا شئنا أن نعيش تحت طغيان جماعة من قطاع الطرق فقدت كل حياة قيمتها ! »

اضطهادات

فيرد بيبل : « ان محاولة الافادة من فعلة مجنون لاحداث انقلاب رجعى أعد منذ أمد طويل ، والقاء التبعة الادبية عن هـــذه الفعلة ولما يختتم فيها التحقيق ، على عاتق حزب يستهجن القتل بأنواعه ويريد أن يرى التطور الاقتصادى بعيدا عن تحكم الأفراد كل البعد ، لشيء يقضى على نفسه بنفسه .. فاننا لانريد الغاء الملك بل توزيعه بالقسطاس لخير الجميع » . ثم يبسط ، وألمانيا تشهد مندهشة ، ما كان من تعامل لاسال وبسمارك

وتأخذ البغضاء تنبت الآن ، وينجم الفساد ، وتتفشى الجاســـوسية ، ويشيع الجرى وراء المنافع فى طول البلاد وعرضها ، وتنتشر التفتيشـــات والاعتقالات ، وينفى الكثيرون ، وينقض بسمارك وعده الرسمى للأحرار الوطنيين بألا يعلن الأحكام العرفية أو ينفى أحدا الا لضرورة قصوى ، فيصلت هذا الاجراء فوق برلين وضواحيها بعد أربعة أسابيع من هذا الوعد ، وينفى ٦٧ من زعماء الاشتراكيين من برلين ، وتحاصر مدينة هامبورغ الحرة بعد انتخاب لم يأت على ما يرام ورغم الاعتراض . وتعـــود عقوبات تحـــد من الحرية كانت معطلة ماينوف على ألف من السنين ـ تعود الى الظهور شيئا فشيئا فتتناول ١٥٠٠ من الناس ، ولا تنقضى بضعة أسابيع حتى تكون ٢٠٠ جمعية و ٢٥٠ مطبوعا ، ولا نصف ســـنة حتى تكون ٦٠٠ معطلة وآلاف الكيانات فى حكم العدم ـ : فيستطيع بيبل فى هذا المقام التذكير بالقرون الوسطى كما ذكر فندهورست ذات يوم بعصر المسيحيين الأولين ، فيقول : « لقد حرموا العمل والقوت من يشاطروننا الرأى ، لقد أهانوهم ، وشهروا بهم ، ووصموهم بعدم الشرف ، وأطلوا دمهم . لقد أرادوا أن يثيروا الاضطرابات. ألا ان هذه الأيام ، أيام الاعتداءات والاهانات المزعومة الموجهة الى صاحب الجلالة لمن أسوأ ما مر بالتاريخ الألمانى الحديث ! »

ويقع فى نفس الوقت ما حذر منه بينجسن لما كان ما يزال يقول : لا ، اذ يتشاور الزعماء مع أنصارهم فى اجتماعات سرية لا حصر لها ، وفى الغــابات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والمحاجر ، ويلاقون اخوانهم فى سويسره فى مؤتمرات علنية أو سرية .. ويكتب بيبل الى انجل يقول له : « ان مشغولية بسمارك التى يتولاها الاضطراب وأعماله المخربة تبيت فى مصلحتنا » . ويشمت ليبكنخت من فوق المنبر قائلا : « ان قانون الاشتراكية هو الطوق الحديدى الذى يضم حزبنا ، ولايدع الانقسام الى معتدلين وراديكاليين يتسرب الى صفوفنا ولابد ان يجنى من عاون على ذلك ثماره المره . وسننتصر على أية حال ، فاعملوا شر ما تستطيعون فسيكون فى ذلك الخير كل الخير لنا . وكلما أسرفتهم وركبتهم فى ذلك الشطط عجل هذا بنهايتكم ! »

الفصل الرابع

مرتبة الأمير

عندما بات بسمارك كونتا راقه أن يرتفع بيته ، ونظر الى أبناء عمومته نظرة شزراً ، لم تخل من الشماتة ، ذلك انهم لم يكونوا يصدقون أن تنجب أسرتهم عبقريا . فلما رفعه الملك بعد عودته من فرنسا الى مرتبة الأمير أجفل ، بل انه يقرر أن يصرف مولاه عن ذلك ، لكنه يفاجأ بالأمر الواقع فيستقبله الملك كأمير ، ويهنئه أفراد الأسرة المالكة جميعا بهذا الالتفات ، وكلهم عدو له ، فلا يسعه أن يقول شيئا . غير انه عندما يلومه البرنس فريدريك كارل على موقفه ، ويبدى له أنه أولى له أن يحمد الله ، يجيب بسمارك هذا الضابط جوابه السديد : « لقد كنت أشعر دائما بأنى نبيل »

فلم يخشى بسمارك مرتبته الجديدة ؟ لقد قال : « حسب المرء وهو كونت أن يكون موسرا ، أما وهو أمير فيجب ان يكون ثريا . فرفع طبقتى يغير أسلوب حياتى تغييرا غير مموق . وعلى كل فهذا مؤسف حقا ، فقد كنت قبل هنيهة على وشك أن يصبح بيتى من اعرق بيوت الكونتات » . فهذا الاعتراض الذى يبديه بسمارك لبعض خلصائه يجتهد الملك فى ازالته فى بعض نقطه بأن يهدى اليه غابة سكسونيا الواقعة على مقربة من هامبورغ ومساحتها ٣٠٫٠٠٠ فدان ، وقيمتها الاسمية ثلاثة ملايين ريال . أما فخر بسمارك بالنبل العريق فمالا قبل للملك باسكاته فيه ولا فهمه منه ، وكان حسبه ان يتذكر ما ألم به هو أخيرا فى فرساى من ارتباك حين جعلته أمثال هذه المشاعر الصادرة عن نفس التعلق بالآباء يخشى رفع مرتبته

ابنـــاء العم

ولو أنه قابل بين لحظة الأبهة تلك وهو سيد ، ولحظة الأبهة هذه وهى تتاح لخادمه لحزر أيضا ماساور خادمه من وساوس اعمق من وساوسه تتمثل فى خشية ابناء العم . فالام يرضى ملكا بفاريا وسكسونيا هذه الرفعة المنقطعة النظير يصيبها ابن عمهما الهوهنتسلرى ، والام يرضى نبلاء بوميرانيا والمارك رفعة ابن عمهما صاحب شينهوزن هادئين ؟ أثم مفر من التحاسد ؟وهلا ينم عنه فى تلك الدوائر وفى هذه على السواء تمرد سياسى ؟ ان الحسد والغيرة اللذين أكلا قلوب الاقرباء الاعزاء الذين يندبون حظهم الأسود بدل أن يندبوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مواهبهم الأقل ، قد كانا فى هذا المقـــام كما هى حالهما فى الغالب ، أعمق البواعث على الانفضاض من حول بسمارك . وهو انفضاض جرت به الطبقة التى ينتمى اليها المستشار العار على نفسها أمام التاريخ بدلا من أن تعكس نفسها فى هالة الضياء الذى يشعه عبقريهم الوحيد

لقد كان العداء السياسى سببا لتحول التوتر الى قطيعة ، وكانت الارادة الحسنة خليقة ان تبعدها . فقد انفض هؤلاء النبلاء البروسيون الذين لم يرتفع بينهم قط رأس آخر وارادة أخرى بهذه القوة ــ انفضوا رسميا من حول بسمارك بوصفهم حزب المحافظين لا بوصفهم أعضاء فيه جاءت بهم الصدفة فانفض بهم من حول رئيس الحكومة آخر حزب ، وقضوا بأيديهم على مصالحهم حين يسروا له الاشتراك مع الأحرار اشتراكا لم يكن حتى فى هذا الأوان بالشىء الطبيعي . وهكذا مثلوا بعملهم دور الزوجة الغاضبة التى تقصى عنها زوجها فى حالة تجدد شبابه ، وتدفع به على هذا النحو المهدد الى أحضان غيرها بدلا من أن تبعده بحلمها عن هذه الأحضان

اغتياباتهم

وقد كان بسمارك أنذر حزبه من قبل فى سنة ١٨٦٨ حين صرح بأنه يجب على المرء وهو آمن كل الأمن أن يعتمد على فريق لا يرضى عنه هذا الحزب كل الرضا او « تضطر الحكومة الى المناورة والعمل ضد الدستور والتعرض بعدئذ لنقط الضعف التى تصيب الوزارات الائتلافية »

وفى ذلك الحين شكا رون المحافظ القح من «غطرسة بعض المحافظين غطرسة تنطوى على الحسد وسوء النية .. فالحزب يجب أن يفهم أخيرا أن آراءه وواجباته الحالية يجب ان تغاير آراءه وواجباته فى عهد الخلاف . يجب أن يكون الحزب ويصبح حزب التقدم المحافظ وأن يعدل عن القيام بدور الفرملة »

والآن بعد اذ بات ابن العم بسمارك برنسا وديكتاتورا ، تزداد القطيعة . وهو لا يقول الآن فحسب : « تنح لآخذ مكانى ! » مستوحيا فى ذلك روح جولتس وارنيم . بل هو أيضا فى مذكراته وبعد كفاحه بزمن طويل يعد هذين الطامحين من خصوم الدرجة الثانية ، اما الطبقة الثالثة من هؤلاء الخصوم فهى فى رأيه أبناء طبقته من نبلاء الريف « الذين اسخطهم انى فى سيرتى غير العادية شببت عن المساواة التقليدية بين نبلاء الريف ، وهى مساواة ترجع الى فكرة بولندية أكثر مما ترجع الى فكرة ألمانية . ولكانوا خلقاء أن يغفروا لى أنى أصبحت وزيرا بعد اذ كنت نبيلا ريفيا ، اما الهبات وربما أيضا لقب الامارة الذى أنعم به على رغم أنفى فما لم يغفروه لى . « فصاحب السعادة » تقع فى حيز ما ينال فى العادة وما يقدر ، أما «صاحب السمو» فشىء أثار الانتقاد . ولكنت خليقا ان أطيق سخط اصدقائى وابناء طبقتى السابقين وأنا أرضى نفسا لو أنى كنت أرى مايبرره . » وليس من يستطيع أن يبز شاهد الملك هذا فى حالته النفسية حيال طبقته . وفى الواقع لقد كتب أحد هؤلاء السادة من

أهالى بوميرانيا سنة ١٨٧٢ يقول : « سوف نذل بسمارك حتى يصبح بحيث يأكل من يد أى نبيل بوميرانى شريف ! »

وقد بدأت القطيعة بالنزاع الكنسى الذى تغنى فيه الاتقياء اللوثريون بمحامد البابا . اذ اتهم بسمارك بالزندقة لأنه حالف الزنديق فيرشوف على الكنيسة ، فاضطر بسمارك دفاعا عن نفسه الى التحمس من فوق المنبر لعقيدته البروسية « التى هى الاساس الاول والاعمق لهذا النضال ، الاساس الذى يرتبط بروحنا وخلاصنا » . ولم يكن المسنون فى هذا الهجوم أردأ الخصوم ، فحين يقول جيرلاخ الشيخ : « ان بسمارك يسىء معاملته لكنى أحبه مع ذلك » ، يسمع المرء فى هذا القول موسيقى القلب ، ويعتد أيضا ذلك الراعى التقى الآخر من رعاة بسمارك وهو سنفت ــ بلزاخ ، رجلا شريفا من فرعه الى قدمه اذ يحثه الآن بلهجة تنطوى على المجاملة والتنبؤ على أن « يستمد سموه الشجاعة من التواضع ومن السيد المسيح الذى ضحى بنفسه فى سبيلك ولايزال الى اليوم يمد اليك يديه المثقوبتين . فاذا كنتم سموكم ستصرون فى هذه الأثناء على معصية الله فسيريك الله أن عمله هو الحق ، ويشجب عملكم العظيم الجميل ، وتقفون بلا ريب امام قضائه »

رد مريش

ويحمل الفارس بهذا على ارتداء درعه ، ففى الساعة التى يقرأ بسمارك فيها هذا القول يبعث برده مريشا فيقول :

« وددت لو تأكدت أن صوت نذيرك لن يمنع خصوم حكومة جلالة الملك الذين يؤازرونك والذين لم يعرفوا تواضع مخلصنا الذى تنصحلى به بحق ، أن يروا أن مهمتهم فى غرورهم الغاضب الملابس لحكمتهم وفى توخيهم السيادة الحزبية بهذه النزعة الوثنية ، هى التسلط على البلاد والكنيسة . . انى وأنا مخلص فى تفكيرى أؤدى عملى اليومى من دون حاجة الى انذار سعادتكم . لكنى وأنا أخدم ملكى صاحب الحق الموروث فى ملكه خاشيا الله ، محبا اياه ، مواليا للملك ، متفانيا فى عملى ، لن يضللنى فى ثقتى بفضل المسيح أن يسيىء خصومى من رجال بوميرانيا وروحه استخدام كلمة الله . فلعل سعادتكم أن تحتاطوا من جانبكم فلا تقفكم أمام قضاء الله تلك الغطرسة التى وجهتم بها انذاركم الى » . وفى الختام يشير عليه أن يقرأ ما جاء فى الكتاب المقدس : « أيها الرب ، يا الهى ساعدنى ! انك تلطم أعدائى كافة على خدودهم ، وتحطم اسنانهم الفاجرة . . انتهى »

فى هذه الروح التى يروق بسمارك أن يستشهد فيها بالكتاب المقدس ترتفع موجات مسيحيته للمرة الأخيرة

ريشجلوكه

أما أعداؤه ممن هم أصغر سنا فيمضون الى غرضهم لا يحيدون عنه ، ويستخدمون الصليب فحسب فى الانضواء تحت شارة صحيفة كرويتس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تسايتونج التى ساهم بسمارك يوما فى تأسيسها والتى يقول عنها فى مذكراته : « انها لم تعد تمثل الحزب المحافظ ولا المسيحية بما اتخذته من رمز الصليب ومن شعار « مع الله فى سبيل الملك والوطن » . فهنا وفى صحيفة ريشجلوكه التى اسسها ابناء عمومة بسمارك لاسقاطه ، تبدا فى سنة ١٨٧٢ حملة التشهير بالمستشار والمساس بشرفه . فسلسلة المقالات الأولى المنشورة غفلا من التوقيع ، اللهم الا من توقيع محرر ما تطبيقا للقانون ، قد صدرت معنونة بهذا العنوان « عهد دلبروك ، كامبهوزن ـ بليشرودر » . والاسطر التالية من انشاء البارون فون لوئى الديبلوماسى الذى أساء اليه بسمارك :

« انى أقترح أن يخصص العدد القادم من الريشجلوكه لمستشار الريخ. فانه ليلوح أن من المهم جدا من الناحيتين النفسيةوالطبية أن تورد الصحيفة المقالات المؤثرة أولا فالمقالات المضحكة . فالمهم هو أن يسوء هضم المستشار من أول الأمربضعة أيام . ولن يحدث هذا الا بأنيلمبالمستشار الانفعال ». وفى نفس الوقت يكتب أحد من يحملون اسم مانتويفل الى سمى آخر ـ ومانتويفل هو رئيس بسمارك القديم وخصمه الذى يخطب الآن ضده فى مجلس الأعيان ـ يكتب يقول : « انك لست بحاجة الى استشفاء فى حمام لتكون رئيسا للوزراء » . وهذه نغمة هؤلاء السادة من وراء الستار . واليك مايقولونه على خشبة مسرح هذه السلسلة من المقالات :

أفعال أشقياء

« ويقال أيضا عنالبرنس فونبسمارك انهقبلأن يصبح وزيرا فى بروسيا كان على اتصال وثيق بدوائر مالية عالمية . فالعلاقات الحميمة القائمة بين بليشرودر والبرنس من الجائز أنها كانت قائمة ـ بصفة غير مباشرة على الأقل ـ قبل توليه الوزارة يوم أن كان على البرنس أن يستأنس فى الشئون المالية بالرأى السديد كى يستطيع أن يمثل مولاه فىسان بطرسبورغ وباريس وفرانكفورت بمرتبه الضئيل الذى كان يتقاضاه فى بروسيا ، ومن دون أن تكون له ثروة كبيرة .. وللبرنس كما لغيره من الناس أن يطالب الغير بأن لاينسبوا اليه فيما يتصل بهذه الفترة الطويلة سوى البواعث النبيلة حتى يثبت أنه كانت له بواعث مما يقع تحت طائلة القانون . على أن هذا السائس ذا الحول والطول قد حابى مع ذلك بعضا ممن استغلوا الشعب وعادوا من ذلك بسمعة رديئة .. وليس من غلطة لم ترتكبها الحكومة الحاضرة لتستر علاقاتها الفاضحة بماليى برلين » . وقد كتب البارون فون لوئى نفسه فى اليوم السابق لاعلان الحرب يقول ان بسمارك قابل بليشرودر فى الوزارة فى شهر يوليو ١٨٧٠ : « والظن أن الجو لم يكن موضوع حديثهما . فهل فى ذلك اليوم اشترى السيد فون بليشرودر أو باع ! أو بعبارة أخرى ضارب على الحرب أو السلم ؟ هذا ما لا أعلمه .. لكن الذى لا يرتفع اليه الشك بحال هو أن الصداقة بين السيد بليشرودرواالسيد فون بسمارك كانت نافعة للأخير ، وأقصد بذلك الناحية الفكرية »

وقيل غير ذلك أن بسمارك يسر لبيريند اليهودى مكترى مصنع ورقه فى فارتسن الحصول على بعض مناقصات الحكومة ، وانه أخيرا ، كما كتب بوزباشي يدعى فون بوتكامر ، أصدر القانون الخاص باقطاعات بوميرانيا الخلفية لا لشيء سوى أن يورث زوجته اقطاعا من هذه الاقطاعات

فهل يذهب الاسفاف الى أبعد من هذا ؟ ان أبناء طبقة المستشار يصمون الرجل الذى يحجبهم ظله جميعا ، يصمونه أمام الأمة بأنه من عاقدى الصفقات ، ويجردونه بأدب الأسلوب من سلاح يشكوهم به ، ويؤذونه ايذاء مضاعفا فى عصر التأسيسات ويضعونه بين كيانات موصومة بالنصب والرشوة يستهدف اليهود فى نهايتها للاتهامات ، ويضرون قبل كل شيء بالبلاد التى ترمق أوربا مايذاع عن فسادها بعين الشماتة . وبينا هذه الطبقة مشتركة فى مضاربات عصر منتصر كل الانتصار وذلك بوساطة مصارف ليهود حاذقين تشهر هذه الطبقة فى الوقت نفسه بهؤلاء اليهود أمام العالم الخارجى ، وتجعل بسمارك وهو صاحب الفضل فى نهضة البلاد صاحب وزر أيضا فى مساوىء هذه النهضة . « فالفساد قد انتشر واستفحل استفحالا هائلا .. وانها لحكومة فاسدة تلك التى نعيش فى ظلها ، لكن اسمها هو بسمارك » . وهذه الجملة وحدها هى التى أمكن أن يؤخذ قائلها بها ، لكن قائلها وهو محرر عدو لليهود فر هاربا من السجن وظل يكتب بعد ذلك فى سويسره

وهذا كله وهو مالعله موجه الى فندهورست الذى كان كذلك يختلط ببليشرودر كان يمكن فحسب أن يثير ضحكه وضحك الجميع . ذلك أنه بقى فقيرا معدما حتى أدركته الوفاة . وقد كان بسمارك عاقدا النية على الافادة مما يدره عليه ذهنه وسلطانه شخصيا ، وكثيرا ماا ستشهد بالهدايا الفاخرة التى كانت الأمة الانجليزية تهديها الى رجال دولتها . وقد جعل رفعه الى مرتبة الامارة وقفا على هدية من هذه الهدايا ، وأحرز فى ٣٠ سنة ثروة طائلة

بيد أن بسمارك كان أحكم من أن يخاطر بمركز مستشار كالذى يشغله ، ويخاطر فى نفس الوقت بسمعته الشخصية ولو فى سبيل الملايين . فماذا فعل ؟ انه كسياسى عبقرى قد وجد الطريق الوحيدة لبلوغ مأربه من دون أن يعرض نفسه للاخطار فانتقى من بين رجال البنوك ذلك الذى عده فى نفس الوقت أجرأهم وأشرفهم ، وجعل هذا الرجل مدينا له بالفضل فى أحاديث عرضية كانت تجرى أثناء الأعمال ، وضمن لنفسه فى عين الوقت أعظم نمو ممكن فى ثروته الخاصة وذلك بامضاء واحدة اذ فوضه عنه تفويضا عاما

يهودى كبير

وقد كان الاعتراض كبيرا على هذا أيضا بخاصة وهذه الأوقات المتسمة بالانشاءات والتأسيسات — كانت تجعل من كل منتفع عينا على الآخر وقد تحدث بعض من أثرى من النبلاء عن « الأخطار التى تتعرض لها رفاهية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدولة بأسرها من اعطاء أول سائس فى الريخ الألمانى تفويضا عاما فى ادارة ثروته لأول صيرفى ويهودى كبير » . ولقد حاول مولتكه وغيره من القواد بصفة غير مباشرة أن يفرقوا بين بسمارك وبليشرودر ، وحذره خلصاء قدماء كتابة ، اذ قال له بعضهم : « انى لا أستطيع السكوت عن ابلاغك مايتفكه به الشعب اذ ينعت بليشرودر بأنه شريك حكومة الريخ .. وأن الاستقامة البروسية المعروفة من قديم تتأذى من محاباة الجهات العليا لأصحاب المؤسسات » . وقد أعرض بسمارك عن كل نصح ، وحمل الامبراطور الذى جاءه التحذير هو أيضا كتابة على أن يدع بليشرودر يزوره فى ضياعه ، بينما كان « يهودى كبير » كذلك يدير ثروة الامبراطور بالمثل ادارة حسنة

وقد قال بسمارك فى شيخوخته : « انى أعرف رأيى فى بليشرودر وأولاده كبشر .. فقد كان بليشرودر صيرفيى ومن الكذب الزعم بأنى كنت أمده بمعلومات سياسية تعينه على جلب المنفعة لنفسه ولى . صحيح أنه فى سنة ١٨٦٦ مدنى بالمال اللازم لادارة الحرب على حين لم يتقدم الينا أحد به . وقد جعلنى بهذا العمل أسير فضله . وانى كرجل شريف لا أدع يهوديا يقول عنى انى احتجت اليه ثم ازدريته بعد ذلك جزاء له على خدمات أداها كان واجبا على كرجل دولة أن أقدرها تقديرا عاليا » . وهذه النظرة الى الماضى تجمع بين الشكر والوفاء

كذلك كان بسمارك يعنى بالتفاصيل فى عشر السنوات الأولى ، فهو يروى أنه فى سنة ١٨٦٦ لا بعد ذلك كلف من يبيع له آخر ورقة مالية أجنبية : « فلقد سمعت وقتئذ بتعيين شوفالوف سفيرا فى لندن فلبثت ليلة مؤرقا أحسب : فانه اذا كان الروس فى هذه اللحظة يقصون أرجح رجالهم عقلا فأراهن بعشرة لواحد انهم سيرتكبون حماقة ما . ومن ثم كلفت بليشرودر فى اليوم التالى ببيع ما أملكه من سندات الدولة الروسية . وقد هنأنى بعد ذلك ببعد نظرى فى هذا الصدد »

أكاذيب الكرويتس تسايتونج

ثم كف عن شراء شىء فى الخارج ليستطيع أن يلعب لعبته مع أوربا غير وجل . ولم يزاول بسمارك لا قبل ذلك ولا بعده أعمالا أو سياسة متأثرا بتقلبات البورصة كما فعل هولشتين وغيره فيما بعد . وكل ماهنالك أنه كان فى كل سنة أرضى عن حساب بليشرودر من السنة التى قبلها . وصحيح أنه ترك مصنع ورقه فى فارتسن ينافس غيره على طلبات الحكومة ، فقد رست على مكتريه مناقصة لا تجلب له شيئا ، وذلك فحسب لأن عطاءه كان الأقل . كذلك ينهار ما عابه عليه اليوزباشى بوتكامر ولا تقوم له قائمة

وهكذا أمكن بسمارك أن يعود فى الريخستاج الى اطلاق قذائفه من مرفئه الأمين الذى يعتمد فيه على التفويض العام . فهو يقول : « اذا كانت صحيفة كرويتس تسايتونج لاتتورع عن أن تذيع فى العالم أفضح الاتهامات وأكذبها

عن رجال من العلية بصورة تحميها من الوقوف أمام القضـاء ، وان كانت تدخل فى الروع أنه يؤخذ على الوزراء فى هذه البـلاد مسلك يتنـافى مع الشرف .. فان هذا ليكونن اغتيابا دنيئا يجب علينا أن نقاومه جميعا ، فلا ينبغى أن يساهم فيه أحد بالاشتراك مباشرة فىالصحيفة .. فكل منيتناول هذه الصحيفة انما يشترك فى حملة الـكذب والتشهير اللذين يصاغان فيها »

معلنون

غير أن أبناء عمومتـه يعاندونه : فسرعان ما يعلن ٤٦ من ذوى الأسـماء العريقة واليهم بعد ذلك مئات من الآباء الروحانيين ــ سرعان ما يعلنون فى كرويتس تسايتونج أنهم أنصار الراية الملـكية وراية المحافظين التى ستظل ترفرف فوق صحيفتهم ، وأنه اذا كان السيد بليشرودر يشكك فى اخلاصنا للفكرة المسيحية فانا نتورع عن الاحتكام معه فى ذلك . ونرفض أيضـا أن نتلقى عليه دروسا فى الشرف والاستقامة » . وعلى ذلك توقيع طائفة كبيرة من أبناء فيدل وتسيتسيفتز ومارفيتز وشرتس وجوتنبرج . كذلك يوقع عليـه أقدم أصدقاء بسمارك وأبناء عمومته بلانكنبورغ وكلايست ــ رتسو ثم أخيرا الشيخ تادن ــ تريجلاف مع « الألم العميق »

على هذا النحو ينهض رفاق صبا بسمارك الذين لازموا المغـامر فيما سلف من الزمان ــ ينهضون ليناهضوه فى شيخوخته ، ويعادوه ، لأنه وهو أقوى رجل فى الدولة ، يقف مزايدا فى وجوههم . ويتناول قائمة هـؤلاء « المعلنين » فينشرها فى ريشأنتسايجر ، فيعلن بذلك أن محاربة شـخصه عمل عدائى للدولة ، فينفصل عن طبقته بهذه الحرب سنين

وأكثر منالسياسى احساسا فىبسمارك بالهزيمة ، النبيل الفخور بطبقته. انه لا يحب أحدا من هؤلاء المعلنين ولا أنصارهم بوصـفهم أفرادا ، لـكنه يشعر نحو الحزب والطبقة التى هم منها شعور القـائد نحو أركان حربه الذين يخونونه : فـكبرياؤه بهذا مجروحة . « انه اذا فوجىء المرء بانقطاع صلته بأناس يراهم فى مستواه ومرتبته ، واذا قاطع الوزير المسئول كل من كانوا الى ذلك الحين أصدقاءه فعاملوه كمـا يعاملون عـدوا لهم مدفوعين ببواعث شخصية أكثر منها جوهرية ، مطبوعة بطابع الاستياء أكثر منهـا يحدوها الاخلاص ، فاذا كان الاخلاص حاديهـا كانت مع ذلك منحطة كل الانحطاط ــ انه اذا كان هذا شأنهم معه فبات وحيدا بشخصـه منعزلا بأفـكاره ، فلابد أن يشتد مع هذا تأثير الهموم التى تنتـابه من عمله على أعصابه وعاداته .. وفى هذه السن التى بلغتها وفى اقتنـاعى بأنى لن أعيش طويلا يكون لفقدان جميع الأصحاب القدامى ، وانقطاع كافة الصلات القديمة شىء مثبط فى هذه الحياة الدنيا يبلغ مبلغ الانفراد والعزلة ، زد على ذلك همى واهتمامى بامرأتى »

ان غضبه ليحسر فى كل من هؤلاء الأعداء القناع عن أحطالبواعث . وحين يراجع مع أحد خلصائه قائمة النبلاء الذين عارضوا فيما اشترعه من قوانين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضد الكنيسة يخاطب نفسه كما لو كان فالنشتاين وهو يؤشر على كل اسم بقلمه الرصاص الضخم : « جوتنبرج ؟ حانق لأنه لم يصبح مديرا بعد . وروزنبرج الذى أنقذته من كل الأخطار ! انه يصوت ضدى ! وجرونر ؟ لأنى عقت طموحه . وبوتكامر ؟ لم يكن للرجل علاقة قط بالكنيسة . فهو يريد بالخشونة والمعارضة ان يرينى فقط أنه ند لى ! ان هؤلاء النفر يغيظون لأنى أصبحت أميرا ، وهم يتضايقون فى نفس الوقت اذا لم أدعهم الى مائدتى ! انى خبير بمواطنى البوميرانيين ! »

ويصب غضبه على مورتس بلانكنبورغ قبل الجميع لأنه أولا رفض منصبا وزاريا ثم أذاع باهماله بعد ذلك عبارات أسيىء فهمها من حديث يتناول احدى أوراق البورصة ، فالتقطها مناهض آخر وأبلغها الى القضاء . وهكذا تنتهى صداقة بدأت بالتحمس ، وتختتم أغنية تناولت حب مارى فون تادن وموتها ، هكذا ينتهى هز بسمارك و « ايقاظه » باشاعات عن أسهم بعينها قيل ان بليشرودر اشتراها لحضرة مستشار الريخ ولم يشترها قط

ويقف الى جانب ذلك ويسقط هانس فون كلايست — رتسو قريب يوحنا ورفيق بسمارك فى منامه أيام اللاندتاج ، والصديق الصغير الورع الذى رشح نفسه معه للوزارة ، ثم كان بعد ذلك اشبينا لابنة بسمارك ، الرجل الذى صبر بسمارك طويلا على مواعظه الدينية ، يقف كلاهما الآن حيال صاحبه فى مجلس الأعيان مرير النفس . ولعلهما حين يهين أحدهما الآخر فى خطبه العامة يتذكر ماكان من أمرهما قبل خمس وعشرين سنة حين كان أحدهما يقرأ على الآخر فى غرفته خطبه ضد الديمقراطيين قبل أن يلقيها . وقد دعا المستشار صديقه مرة اليه ليقنعه ، لكنه حين سمع جوابه تناول السكين وكأنه يقطع بها غطاء المائدة ثم نهض على قدميه وصرفه وسخر منه بعد ذلك من فوق المنبر قائلا : « لقد شغل حضرة الخطيب نفسه كثيرا بعلم اللاهوت حتى لقد ألقى على مرة هذا السؤال : أليس من الخير لخلاص روحه أن يعتنق الكثلكه »

ويحاول كلايست الصلح بعد ذلك من جديد ، ويبعث الى بسمارك بقصيدة فى عيده الفضى ، لكن بسمارك يمنع زوجته حتى من الكتابة اليه ، ويقول للخادم بحيث يسمعه الغير : « لاتعلن السيد فون كلايست اذا جاء ! »

الفصل الخامس

لقد رأى بسمارك وهو فى الستين ، نهب شعور تمتزج فيه المرارة بالغبطة ، عداوته للناس وهو فى الحلقة الثالثة ، تتأكد ويقابله الناس بمثلها : فهو يقول آنئذ للوسيوس : « حين أرقد فى فراشي مؤرقا يتملكنى غالبا التفكير فى اساءة تكون لحقتنى من ثلاثين سنة مضت ولم أردها ، فأثور لذكراها وأحلم فى غفوتى بالدفاع عن النفس . ومن قبيل ما أفكر فيه خشونةالمعاملة التى كنت ألقاها فى معهد بلامان حيث كانوا يوقظوننا من النوم بطعنات السيوف الكليلة » . فمن يمسك هكذا فى غفوته بعد ٥٠ سنة بخناق مربييه يزداد فى بغضه الطبيعى الذى يتولد فيه امعانا على الدوام فى شهوة الانتقام ، ويكون كما لاحظ بونسن ذلك الرقيب الأريب « أميل الى البغضاء وحب الثأر من الملوك المستبدين ، وصغيرا فى الصغائر »

المرارة

الآن يتزايد اضطهاد كل من يخالفه فى الرأى فيحال الى النيابة كل من يهينه فى السنين السبعينية على الأخص ، وقد أعد المستشار للحالات العاجلة صيغا مطبوعة بشكاوى الاهانة ، وبات من النادر أن يقف أحد فى وجهه ، حتى مومسين الذى رفعت الدعوى عليه لقذفه فى حقه قد ضعف الى حد أن أنكر ما جاء فى خطبته الانتخابية فكان أن أمكن بسمارك التشفى قائلا : « لعله كان من الخطأ رفع الدعوى ، لكننا وقد تدنى مومسين الى أن ينكر قوله قد كسبنا القضية »

وحين ينشر محرر الكلاديرادتش خباثة بريئة عنه ، وهو الذى يسر بسمارك أن يساجله النكتة على مائدته الخاصة يأمر فى سخطه برفع الدعوى عليه بغتة والقائه فى سجن بلوتسنسي . بل انه ليعترف لسائس من السواس الروس اعترافا عجيبا حين يقول له : « ان المرارة تؤذى جسمى ايذاء بليغا ، وأشد ايذاء من هذا لى أنها تفسد أحيانا حكمى » . وحين مات لاسكر فى أمريكا وأعرب البرلمان عن مشاطرته للشعب الألمانى أسفه على موته فى برقية بعث بها الى المستشار ، مرتكبا فى ذلك خطأ شكليا ، رفض مستشار الريخ أن يبلغ الريخستاج هذا التكريم لخصمه الميت ، ورد البرقية الى واشنطون . وان سوء الظن ليتفاقم عنده الى حد أن يجفل لمرأى ضوء فى قبو ، وهو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتنزه فى حديقة المستشارية ، فيسأل : « ماذا عسى أن يكون فى القبو ؟ ان أحدا لا يقيم فيه ، ألعل تحت من يزيف نقودا ؟ »

أرنيم

وكل رأى مخالف لرأيه لابد فى نظره أن يكون صادرا عن باعث من اثنين : اضمار الشر له أو الطموح الى مركز أسمى . وفى الواقع ان بلاطات الملوك والسفارات والوزارات لتصبح مراكز خطرة للدس . وحين يكتب فى الشيخوخة مذكراته سوف يحمل أطول فصل من فصول هذه المذكرات عنوان «الدسائس» وأشهر قضية فى هذا الباب هى قضية أرنيم

وقد قال بسمارك فى رفيق صباه هذا كلمة ، وصوره قبل نزاعه معه بزمن طويل صورة ماحقة فوصفه بأنه « رجل ذو عقل لكنه عديم الهمة ... » ومن يدرس هذا الرجل عن كثب يفقده العطف عليه فى محنته : فهو متكلف ، مغرور ، هستيرى ، مزعزع ، جبان هذا الديبلوماسى الذكى ، أسد فى الصالونات ، وعازف صاخب على البيان ، بخيل مذ تزوج زيجته الغنية ، ممثل يحلو له القيام بدور من لا يبالى ، ويستشهد بمكيافيللى ، ويرطن باللغات ، ويسر الى بسمارك مرة وهو يعاقره : « انى أرى فى كل متقدم على فى سلكى عدوا لشخصى وأعامله على هذا الاعتبار : لكنه لاينبغى أن يلحظ ذلك منى مادام رئيسى ! »

وهذا الرئيس بسمارك الذى ينعته بأنه موهوب يجعله أول مايجعله وزيرا مفوضا لدى البلاط البابوى ثم سفيرا فى باريس ، وفى هذه الأثناء يصبح أرنيم كونتا ، ويسير فى سلكه أسرع من كل الآخرين . وليس شك فى أنه يبغى أن يكون مستشارا ، فهو يتقرب من ثم الى الامبراطورة أوغسطا التى تجد فيه صديقا الكاثوليك والفرنسيين وتقدر فيه محدثا مصقولا وهو ما كان بسمارك خليقا بلاريب أن يكون لو أراد ، لكنه لم يرد أن يكون ذلك المحدث فى حضرة أوغسطا . واذ كان بسمارك يحب الاحتفاظ فى فرنسا بالجمهورية ويحول دون تقويتها بملكية جديدة فقد كانوا فى تلك الدائرة كما هو حالهم دائما ، على نقيضه ، وكانوا من ثم فى هذه المرة من أنصار المطالبين بالعرش ، لذلك حارب أرنيم فى باريس تيير وحزبه وحاول التأثير على الامبراطور فى رسائله الخاصة ، والامبراطور رجل نزيه يعرف النظام ، فهو يحيل الرسائل على المستشار كما كان يحيل من قبل رسائل فون جولتس

ويقرر بسمارك اسقاط أرنيم فى الحال ، فلا يستقبله فى برلين ، ويسافر ، ولا يرد على رسائله ، بينما يأمر الامبراطور باستدعاء سفيره مرارا وتكرارا ليعوضه قصدا من اهمال المستشار اياه . ويرتكب ارنيم غلطة فى التفكير حين يظن من هذه الرعاية أن فى وسعه العمل فى الريخ الألمانى مع الامبراطور ضد بسمارك . ويعرض أرنيم استقالته على مولاه ومولى بسمارك فى شكواه الخاسمة اليه ، فيرفض الامبراطور هذه الاستقالة لأن الأمر ، فيما يقرر أرنيم يتعلق بسخيمة فى نفس البرنس « والسخيمة هى الصفة الغالبة فى خلقه .

وانه لمؤسف أن يضطر المرء الى اثبات ذلك فى رجل بهذه الجدارة » . ويتشجع أرنيم فيدخل على الأسد عرينه ، ويتبادلان حديثا خلفه كلاهما

اعتراف

يبدأه بسمارك « بلهجة جارحة وتعال هادىء وتنزل رصين » ، ثم يسأل أرنيم لماذا يضطهده ، فيقذفه بوابل من الملام قائلا :

« منذ ثمانية أشهر وأنت تؤذينى فى صحتى وتسلبنى راحتى ! تتآمر مع الامبراطورة ! ولا تهدأ حتى تجلس فى كرسى . وترى ألا نفع لك من وراء ذلك ! »

ويندر أن يصل المرء فى الاطلاع على عالم هذا القلب المغبش الى أعمق مما يصل فى هذه اللحظة حيث تستهويه ارادة السلطان الى اعتراف بهذا الجلال، وحيث يسلم للرجل الذى يريد أن يقصيه عن كرسيه ، فى ضجة الحقائق التى أطلقها ، بألا جدوى آخر الأمر فى الحكم فوق هذا الكرسى

بيد أن أرنيم بدل أن يهب ، ويرمى بمركزه على قدمى رئيسه يشكو بصوت رخو :

ــ ألم يعد لسموكم ثقة بى ؟ فينظر اليه بسمارك « بعينين جامدتين » ويرد عليه : « كلا ! » فيمد اليه أرنيم يده على الأثر ويقول :

ــ ألا تريد أن تمد لوداعى يدك ؟

« لا أريد فى بيتى أن أرد هذا الطلب ، لكنى فى خارجه أرجوك ألا تتقدم الى به »

ويصبح أسهل على بسمارك بعد هذا المنظر المخجل ، أن يخير مولاه بين هذا الرجل وبينه ، ويكتب الى الامبراطور مهددا بأنه لا يريد أن ينازع « سفيرا بهذا الخلق الكاذب » ثقة مولاه أو يصارعه عليها فانى ، ولست فى ذلك وحدى ، أرتاب فى أنه يخضع عمله المصلحى لمصالحه الشخصية . وليس من سبيل الى اثبات ذلك ، لكنه من الصعب وهذا الارتياب فى النفس أن يظل المرء مسئولا عن الطريقة التى ينفذ بها هذا الموظف الكبير تعليماته !

شكاوى

وينسب الى أرنيم أنه فى ذلك الحين تعمد تأخير مفاوضات بعينها لدفع الغرامة الحربية الفرنسية كيلا يعرض للخطر مضاربة تولاها مع البارون هرش . وهذه الاتهامات التى تتلاقى فى وقت واحد ، ويتراشق بها اثنان من نبلاء بوميرانيا وموظفان كبيران من موظفى الريخ يقودهما اثنان من اليهود المرفوعين الى مرتبة الأشراف ، فينسب أحدهما الى الآخر انه يزاول أعمالا خاصة تضر بالدولة ، هذه الاتهامات تتلاقى فى تشابه عجيب ، ذلك أن أرنيم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ينتمى . وان لم يذكر اسمه ، الى أبناء عمومة بسمارك المعادين له . وانها لتماثل بعضها بعضا حتى فى النص ولتقابل بعضها بعضامعوزة الى مايثبتها، وغير قابلة أيضا للاثبات ، لولا أن أقوى الطرفين يستطيع أن يدحض ماينسب اليه

ويريد الملك الهرم على الأكثر أن يحيل سفيره الى الاستيداع ، لكن بسمارك يخشى أرنيم الدساس فى برلين أكثر مما يخشاه فى باريس فهو ينفيه الى الآستانة سفيرا فيها . وهنا يرتكب أرنيم جهالة . فبدلا من أن يستقيل ويقود معارضة المستشار فى مجلس الأعيان ، يمضى فى خضوعه لرئيسه الذى يعاديه والذى كان فى الأشهر الأخيرة يسلقه بأوامر مصلحية شنيعة : « انى لابد أن أتطلب قدرا أكبر من الانطواء لتعليماتى ، وقدرا أقل من آرائك السياسية ، مما تدل عليه تقاريرك ويقوم عليه مسلكك فى العمل » . فيقابل ذلك أرنيم بنشر أوراق مصلحية بعينها من دون توقيع ليظهر منها فى جلاء أنه كان بعيد النظر وان بسمارك على العكس من ذلك كان قصيره . لكنه يكون هو من قصر النظر بحيث لايتوقع اكتشاف أمره . فالآن يناله بسمارك ، الآن تعجز أية امبراطورة عن سنده ، ويستطيع بسمارك أن يقيل عدوه لاجرامه فى حق واجباته . والى هنا كان النضال بين متنافسين سهل فيه الأضعف للأقوى احراز النصر

قسوة

والآن تبدأ قسوة بسمارك التى دفعت نصف الامة بقوة عجيبة الى الشكوى من الظافر لصنيعه فى « قضية أرنيم » . والذى لم يغتفره الجيل الحاضر ولا الاجيال المقبلة هو العدوان الادبى فى أن بسمارك لم يرد هزيمة عدوه فحسب بل أراد هلاكه . فحين يعلن خلف أرنيم فى باريس نقصان أوراق بعينها من الاضابير يرفض أرنيم ردها بوصفها من أوراقه الخاصة . ويعتمد وهو المطرود من منصبه الباهر ، والموظف المحال الى المعاش الذى أراد أن يكون فى الغد مستشارا ، يعتمد على حماته وعلى أصله ، فيمعن فى اثارة ابن عمه ذى الحول والسلطان فيأمر الآن ابن العم هذا فى ايجاز ، وفى تسلحه بحقه الشكلى ، بالقبض على الشقى فى ضيعته . وترفع عليه الدعوى ، ويحكم عليه بالسجن تسعة أشهر . فيفر الى سويسرة . وقد قدمه بسمارك الى القضاء ليتفادى من افشاءات تناولت سنين ببيان يدلى به مرة واحدة أمام القضاء وقال ان الامبراطور أشد اهتماما منه بأن لا تقدم الى المحكمة كل الملفات ، وفى الوقت نفسه يكلف من ينصح لارنيم بأن يلتمس العفو

لكن هذا كان قد أمعن فى الجموح فهو ينشر فى الخارج رسائل خلوا من الروح والنباقة ، فترفع عليه دعوى جديدة لافشائه أسرارا دبلوماسية ، ويحكم على الغائب بالاشغال الشاقة خمس سنوات ، وتقرر المحكمة انه كان فى تفكيره عديم الشرف . وعند ما يوفق ، بعد أربع سنوات ، فى أن يسمح له بالمثول أمام محكمة الريخ لتطهير ذيله يموت قبل سفره فى نيس « عديم الشرف » عديم الوطن

وفى هذه القضية يظهر أمام الجمهور للمرة الاولى والاخيرة رجل يتهيب العلانية بخلقه وطبعه الا وهو البارون هولشتين الذى عرفه بسمـــارك فى بطرسبورغ والذى استخدمه بعد ذلك فى السفارة فى باريس عينا له على أرنيم خصمه ، وطالبه بموافاته بتقارير سرية عن رئيسه ، فتلقى منه بذلك الادلة القاطعة على أحلام أرنيم بمنصب المستشار

فالآن يبعث بهولشتين الى المحكمة شاهدا فيضر به افشاء دور تجسسـه ضررا بليغا ، ويكون هذا سببا ، كما أعلن هو نفسه ، لأن يكن لبسمارك عداوة وينطوى له على بغضاء تظهر أول ما تظهر على مر السنين ، ويكون لها نتائج بعيدة الاثر فى تاريخ العالم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السادس

رون

ان الوحيد الذى جمع من حول بسمارك بين الاخلاص والنقد والصداقة والمسلك اللائق ، كان رون وبقى كذلك ، وقد عرضت العواصف التى تخللت السنين السبعينية هذه الصداقة أيضا للخطر فلم تنقذها سوى شهامة رون . وقد تبين رون بهذا الجد الذى سعى أن ينفع به الملك والوطن لا نفسه ولا مركزه ولا حزبه ، ماكان من تطور مضطرب فى الداخل ، فكتب فى سنة ١٨٧٢ فعلا يقول : « ان توفيقات سنة ١٨٦٦ أو بالحرى ما كان من أوهام تتصل بهذه التوفيقات فى اتفاق الآراء السياسية المتضاربة وزوال الخصومات قد كلفتنا أول عثرة ... لم تستطع وثبة البطولة التى وثبناها فى عام ١٨٧٠ أن تقيلها . وقد كان من شأن النشوة التى صاحبت هذه الوثبة أن عاقت أفاقتنا . فمضينا نمرح ونلعب على شفا الهاوية »

وقد بقى الى جانب بسمارك على الرغم من هذا الذى تبينه ، على حين انقلب عليه جميع رفاق الحزب القدامى وأبناء العم تقريبا ، ولم يك ممكنا بحال من الأحوال حمله على الانضمام الى قائمة « المعلنين » مع أن بلانكنبورغ لم يكن ابن أخيه فحسب بل كان كذلك خليصه السياسى منذ عشرات السنين . وقد جنبه كل غيرة وكل حسد أنه كان يحب وطنه أشد من أى بروسى فى عصره ، وأنه كان أيضا يؤمن بالاعظم . وقد كان أحكم من أبناء عمومته وأكثر انطواء على الخير ، شبعان من السلطة والسلطان ، فكان يشعر بأنه الشخصية الثانية فى البلاد . ولم يحتج الى أن يحمر خجلا ، وقد نعت نفسه بأنه الترس الذى رفع عليه بسمارك الى العلاء

حرفتى

فلعل هذا الاحترام الباطنى بالذات هو الذى دفعه الى الانفصال عن بسمارك وعلى أسلوبه أمكنه أن يبلغ ذلك بالاستقالة وحدها . أما الملك الذى لم يبق له سوى هذين الخادمين القديمين فانه ينزعج حينما يلتمس منه رون الاعفاء ، ويفعل كل شىء لاستبقائه ، بيد أن بسمارك يسعى ويصل الى أكثر من ذلك ، فهو يبقى المخلص الاخير بنفحة من نفحات عبقريته ، ويخفف

بذلك عن نفسه هو ، وذلك بأن يطرد ما استشعر رون من تعب الخدمة برفعه الى منصب رئيس وزراء بروسيا ، ويتخلص من المسئولية فى وسط نزاعه مع المحافظين . كل هذا فى مثل خطف البرق وعند تلقيه تبليغ رون اذ يشخص فى الحال الى برلين وفى عيد ميلاد سنة ١٨٧٢ ليرتب كل شيء ويكتب فى اليوم نفسه الى الصديق قبل السفر فى استعراض شامل يقول انه نفسه مريض لا يستطيع القيام بالاعمال على النحو السابق :

« انى أريد من قلبى أن أظل خادما للملك كوزير للخارجية مادام الملك يأمر بذلك ، فلست بمستطيع التخلى لآخر عن خبرة ما ينوف عن العشرين سنة فى السياسة الاوربية وعن ثقة البلاطات الاجنبية . بيد أن الشئون الخارجية لاقوى دولة عظمى تقتضى ممن يدبرها خدمة كاملة . وانه من الشاذ الذى لم يسمع به أن يفرض على وزير خارجية ريخ عظيم أن يحمل الى ذلك تبعة السياسة الداخلية . وحرفتى من تلك الحرف التى يجر فيها المرء على نفسه عداوة الكثيرين ، ولا يكسب منها صديقا جديدا ، بل يخسر أصدقاءه القدامى ، اذا هو ظل يؤديها عشرة أعوام بشرف وبلا خوف . وقد خسرت فى الداخل العون الميسور لى ، بتخلى حزب المحافظين عنى ، وتعطلت لوالبى من طول ماشدت . والملك بوصفه راكبا فى سرجه يكاد لايعرف أنه قد امتطى منى جوادا كريما ولا كيف أرهق هذا الجواد وأتعبه . والجياد الرديئة هى التى تتحمل » . من ثم يريد أن يبقى مستشارا فحسب ووزيرا للخارجية

تقسيم الوظائف

« وانى فى حالتى النفسية الهابطة لعاجز عن أن أتحمل التبعة .. عن تلك الآراء التى يعرب بها جلالة الملك عن مشيئته ولا أشاطره اياها ، غير قادر بعد الآن على النضال فى سبيل تحملها . وقد بات مايعترض مساعى من نفوذ أقوى من أن أتغلب عليه ، وأصبحت منذ الربيع الفائت لا أستشعر الغبطة فى النضال من جراء الغطرسة الخبيثة التى يبديها المحافظون وقلة غنائهم فى السياسة . فليس من شيء يمكن بلوغه من المحافظين ، ولست أحب أن أعاديهم ، فبعد غد سألتمس من صاحب الجلالة بهذا المعنى أن يقيلنى من بعض عملى .. واذا وهبنا الله العمر فسنذكر الاوقات العظيمة التى عملنا فيها معا صديقين قديمين ، ونستشعر الغبطة فى هذه الذكرى ... صديقك المخلص الباقى على صداقتك . بسمارك »

بهذا الاسلوب السامى يستطيع بسمارك أن يخلع على التراجع النصفى الذى حسبه من الناحية السياسية حسابا هادئا ، مظهر الشيء الذى يقرره بباعث من قلبه . ذلك أنه سيلمح قريبا لخلصائه أنه راجع عما قريب ، وانه انما ينتظر دعوة جديدة . بيد أن رون أسير عنده من الناحية الادبية ، وسيبقى تسعة أشهر لا أكثر ، ذلك أن العمل مع بسمارك شيء عسير ، والبقاء بجانبه مستحيل . فالآن قد قسم بسمارك حتى سلطته ، الآن عليه وهو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مستشار أن يستأذن آخر فيما يريد وهو رئيس وزارة ، الآن بسمارك هو الريخ ورون هو بروسيا مع كل الاحتكاكات التى كان يمكن أن تتجنب بذلك الجمع بين السلطتين فى شخص واحد وأن تتحاشى بهذا وحده ! ومن ذلك الغلطات الاساسية التى يشتمل عليها دستور الريخ فانها لا تلبث أن تبرز وتنتقم من صاحبها وخالقها

هاهوذا فبراير سنة ١٨٧٣ : ان اغتياب أبناء العم لبسمارك يبلغ ذروته فهم الآن يضبطون فاجينر الهرم خليص بسمارك الذى كان يوما صحفيا، واليوم مستشارا سريا ، يضبطونه متلبسا بالرشوة ويحاولون أن يثبتوا على بسمارك تواطؤه معه فيثور بسمارك لهذا أمام رون وغيره ، ويهيج الوزراء والاصدقاء ، ويحس بسمارك انه لا يدافع عنه الدفاع الكافى ، وينسى نفسه ، فيصب جام غضبه على رون نفسه ، فاذا جاء المساء فوجىء بالخطاب الآتى :

رسالة عظيمة

« لقد حرصت دائما فى اعترافى بتفوقكم فى معالجة ما تتعدد فيه الصلات على أن تظل علاقاتي بسموكم حسنة ، حتى اليوم ولهجة ما ألقيتموه على مما يجعل عسيرا على أن أتجنب الانفصال عنكم . والظاهر أنه دخل فى روعكم أن قابليتكم للانفجار أعنف من قابليتى .. لكن تجنب أمثال هذه المصادمات فى المستقبل قد يبدو فى مصلحتنا وهو فى مصلحتى على كل حال . ومن ثم أتوجه الى سموكم ، وأنا أتذكر علاقة الصداقة التى ألفت بيننا هذه السنين الطوال والسنوات العشر التى اشترك فيها السعى ، أتوجه برجاء أكيد بأن توقنوا فى كل وقت بأنه فى وسعكم الاعتماد على قلبا وقالبا ما لبثتم تجدون من حقكم أن أعمل معكم عملا صالحا ، وانه فى مكنتكم أن توجهوا الى ملامكم بل مؤاخذتكم فيما يتصل بعملى المصلحى ، ولكن بشرط أن تجعلوا فى حسابكم أنى يمكن أن أنفجر .. أما أن أوجه ضـــدكم قواى التى هرمت ونفوذى الضئيل فما لا أفكر فيه لأنى لست أحمق ولا أنانيا . هذا أكيد ما فيه شك : لكن المحقق كذلك أنى لا أطيق أن تتجاهلوا طبيعتى فتحاولوا معاملتى كمرءوس عاص مهمل فى غير اكتراث وبروح العداء ، وهو ما لم أكنه قط ، وما لست اياه ، ولن أكونه » . وهو يرجو بسمارك أن يرى فى كتابه « محاولة لتنوير سموكم فيما يتعلق برأيى فى علاقاتنا المتبادلة والشروط التى لا مندوحة عنها لامكان استمرار هذه العلاقات تنويرا تاما ، وأرغب فى أن أقيم لكم دليــلا جديدا ــ سواء انفصلنا أو لم ننفصل ــ على مبلغ حرصى على أن أبقى صديقكم القديم . رون »

انها لأجمل رسالة خطتها باللغة الالمانية صداقة مجروحة وكبرياء مهانة الى ذهن رئيس ، وليس بعدها ما يبقى لمتلقيها سوى المبادرة الى الصـــديق واسترجاعه بهزة من يده ، ونظرة من عينيه الواسعتين . لكن بسمارك الذى خط فى حياته الجم من رسائل التحمل والغضب ، لـكنه لم يتلق قط مثل هذه الرسالة ــ بسمارك هذا يخطو الى الرد عليها خطوة وسطا تتسم بالوهن

رد واهن

« عزيزى رون

« يؤلمنى أن تكتب الى مثل هذا الكتاب المنطوى على الفتور ، ذلك أنى أعتقد أننى سبق أن تعرضت من جانبك لانفجارات أشد من انفجارى اليوم ، وانى نسيتها بعد قليل . كذلك أحس مما وقع اليوم أن عدوى الغضب كانت أسرع اليكم منها الى . ولست أعتقد أنكم أحللتم نفسكم محلى والتمستم لى العذر كما كان خليقا بصديق السنين ، وكما كنت خليقا أن أحاول أن أكون ، لو أنكم هوجمتم علنا بمثل هذه الدناءات .. لقد كنت أعتقد أنى أضمن عطف زملائى وحميتهم بى اذا ما تعرض شرفى وتعرضت استقامتى للتجريح العلنى .. لكن لعل هناك مما يشغلك ما لا يترك لعواطف غيرك الشخصية شيئا من وقتك وأعصابك . والواقع أنه لم يرتفع من بين الزملاء أو الصحف أو الاصدقاء صوت يؤازرنى طوعا فى استيائى الشديد مما لا أستحقه .. ولا بد لى من اتخاذ اجراءات رسمية للحصول على هذا التأييد الذى لم تبذله لى صداقة الاصدقاء ، ولم تبده حسن الارادة الشخصية

« وعلى كل حال فان مشاعرى لم تكن بهذا التعالى الذى فرضته ، بل كانت مشاعر زميل يقابل باعتبارات مصلحية واعتراض غاضب فيما أسيىء به اليه من اساءة بالغة ظالمة فى حين كان يعتقد أن فى وسعه الاعتماد على معونة الاصدقاء . فهلا اتأدت معى وحلمت على ، وأنت تذكر عشر سنوات من العمل المشترك وأطول من هذا فى عهود أقدم ! انك لن تضطر طويلا الى الصبر على .. اننى سأجاهد الى النهاية فى سبيل سمعتى الحسنة ، ولا يزال على فى سبيل هذا النضال أن أبذل آخر ما يترك الله لى من ألياف الاعصاب .. عندئذ لن أتيح لك مناسبة أخرى لأن ترى بمثل الأحاديث والمكاتبات التى تجرى اليوم أن صداقتنا القديمة فى خطر . وهى صداقة أحب أن أحافظ عليها فوق الصلة المصلحية »

ورون رئيس وزراء بروسيا يقيم أثناء ذلك فى بيت على مقربة من مستشار الريخ ، ولعله كان مستطيعا أن يراه من نافذته وهو يغدو ويروح فى الحديقة يريد تهدئة أعصابه من حرارة هذا الكتاب . ثم ألا يبتسم لتأكيد هذا الأنانى الكبير بأنه خليق أن يدافع عن كل صديق وأنه فيما خلا ذلك بسبيل الاستقالة عن قريب ؟ ويغفر رون فى ترفعه هذه الشكوى المعادة ، وينسى بوصفه ضابطا أنه أهين أمام شهود سيسرعون الى اذاعة ما تهجم به المستشار على رئيس الوزارة البروسية ، فيتناول قرطاسا ويبدأه : « عزيزى بسمارك »

عزيزى بسمارك

وهو لم يخاطبه قط هذا الخطاب ، بل ما كان يفعله أحيانا هو أن يخاطبه « بصديقى المحترم » متجنبا فى الغالب مخاطبته باسمه ، مترددا فى الرد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«بعزيزى بسمارك» على «عزيزى رون» التى يخاطبه بها بسمارك على الدوام، اما لأنه يجد فى مخاطبته بها أكثر مما ينبغى من الوداد أو أكثر مما ينبغى له من حق . فحين يناديه اليوم هذا النداء للمرة الاولى والاخيرة ، يبغى أن يمحو ما خاطبه به فى كتاب الامس من « صاحب السمو » ويعيد الى حيز الحب ى نفس الوقت ذلك الذى أدخل فى زمرة الامراء . ويمضى فى هـــذا الحب وهذا الأدب اللائق يصف فى نفس الوقت بنفسه ما وقع بالامس :

« اذا كنت اضطر الى أن أكتب اليك هذه الكتب « الفاترة » فيجب أن تعلم انه كانت تنتهبنى فى كتابها أشد المشاعر ألما . وليس من سبيل الى أن يظل خافيا عنك مبلغ تقديرى السامى لك . بل انه لا بد من أن تقول لنفسك انى فى شعورى هذا أجد الفرصة سانحة كل يوم لأن أكسر النصال من أجلك ، وانى أنتهز هذه الفرصة بكل قواى فى حيثما لقيت العداوة لك . وفرضك أنى لا أهتم بشرفك وسمعتك وأنى أميل الى التضحية بك غير مكترث ، قد جرحنى أبلغ جرح ، هذا الى أنك قد ربطت أمس بهذا تهديدات خطيرة ليس ما يبعث عليها . ثم اننى حين أعربت عن استغرابى لتوجيــه كل هذا الى انهالت على على الاثر مطاعن جديدة تدل على سوء ظن لا يستند الى أساس ، ينال حتى من غيرتى ، وتكررت شكوككم الحانقة فى عطفى عليكم ومشاركتى اياكم . .

« على أنه كفانا ما وقع بالأمس وما أصبح فى ذمة الماضى ! انكم تكتبون الى أن على أن أتريث معكم . . وأن ألوذ بالصبر ، وأنتم تعرفوننى معرفة كافية لأن تعلموا انى أغلب فى قلبى الكلمة الرسولية القائلة « ليحمل أحدكم عبء الآخر » ، وانى أهتم اهتماما صادقا بمراعاة ذلك ، لكنى أيضا انسان ضعيف فحسب ، لا أطيق أن أرى من أوثرهم بتقديرى السامى على الغــير ، ومن أحبهم من كل قلبى ، ينكروننى ، وأن أعتقد أنهم يسيئون معاملتى . ان هذا فوق ما أستطيع . من ثم يجب أيضا عليكم أن تتساهلوا معى ، وألا تتطلبوا منى أن أكون مجرد أداة صماء فى خدمتكم ، اذا ما غلا مرجلكم ، وصببتم على جام غضبكم بلا مسوغ ولا باعث . أما عن ذلك الأمد الوجيز الذى تتطلبون منى فى خلاله أن أصبر عليكم ، فان أمنية قلبى ومرجوه أن يطول تأثيركم المبارك على مصائر بلادنا أكثر مما طال كثــيرا حيث تكون عظامى قد طال استقرارها فى قبرى »

بهذا الاسلوب تكلم ذات يوم رجل نبيل

الى الأمام

لكن الاعصار لم يلطف من شىء . وليس هذا ممكنا الآن . واذ يريد رون أن يبقى على بسمارك بأى ثمن فهو يستقيل فى الخريف . وهو يكتب الى ابن أخته يقــول : « كان من الميسور السير مع بسمارك ضـــد التيار الحر فوق ما سرت على كل حال ، لكن أن أســير ضد الاثنين فهـــذا ما لاتحتمله قواى » . ويكتب الى نفس بسمارك كلمات يختتم بها كتابه ويبرىء

فيها ذمته فى رجولة : « اسمحوا لى أن أهيب بكم مرة أخري من كل قلبى : Adelante, adelantador, atrevido! (الى الامام أيها البطل الهمام !) وسأظل أفعل ذلك الى آخر نسمة من حياتى والى أن يحين الأجل الذى لعله ليس ببعيد ، وسواء أكنت على المسرح أم كان مكانى بين المتفرجين »

صوتا رجلين

والآن لا يقل الرد عن الكتاب السابق جمالا : فبسمارك الذى يعرف أن يميز بين قلوب الناس ما انتفى من نفسه الغرض وسوء الظن ، يتبين الخسارة التى جرها على نفسه بيده : « انى أقف فى الخدمة على شفا الهاوية ، وليس لمولاى فوق هذه الأرض خط رجعة ، أى * vexilla regis prodeunt وأريد ، مريضا كنت أو سليما ، أن أظل رافعا علم مولاى فى وجه أبناء عمى المشاكسين فى مثل عزمتى حيال البابا والاتراك والفرنسيين . فاذا أصابنى الوهن أكون قد استنفدت لغرض معين ، ويكون لما استنفد من شخصى ما يبرره أمام أى ديوان للمحاسبة . لقد بت بخروجك وحيدا ، والقلب الوحيد الذى ينبض بين الوزراء . وما بقى من العشيرة القديمة قد أدركه الفساد .. وسأظل أفتقد من يسد الثغرة التى استحدثت فوق مكانك فى الأريكة فى قاعة الجلسات الصفراء وأقول لنفسى خلال ذلك : لقد كان لى رفيق »

فى هذا الثنائى العظيم لصوتى رجلين تنتهى بروسيا القديمة . وقد كانا من احدى عشرة سنة مضت قد خرجا معا ليذبحا تنين الديمقراطية ، وبدا هذا الامر لكلا الفارسين محقق النجاح : ظلا يطلقان سهامهما على روح العصر حتى صاح : مرحى ، وسقط . لكنه هاهوذا يعود الى الحياة ، ويعود الآن بثلاثة رؤوس ، ويسمع تذمره من الاعماق ، فكيف تكفى قوة الواحد وحدها لتقتله فى النهاية !

وسرعان ما ينغلق القلب الذى ندر أن فتح ، ويعود للأغراض والمصالح فصل الكلام : فما ان ينقضى نصف عام حتى يزعم بسمارك الذى قد كان حال دون استقالة رون ، فقيده برياسة الوزارة البروسية ، ان على غرور رون تقع التبعة فى كل الاغلاط . أنه لم يرد أن يتخطى ، بينا كامبهوزن قد كان أصلح منه ، لقد بات خمولا فلم يعد يؤدى شيئا . لكن رون الذى كان ما يزال أمامه ست سنوات من السكون ، كان يعلى من بعيد صورة الصديق ، ويجد حين يعود بسمارك فيهدد علانية بالاستقالة مرة أخرى — هذه الكلمات التى يقولها شاعر فيوجهها الى ابن أخته : « اذا كان بروميتيوس قد سرق النار فعليه الآن أن يرضى القيد ويطيق العقاب .. انه ليس مخيرا

---

* ان أعلام الملك تتقدم الجيش

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ماذا يختار ! ان المرء لا يأكل من شجرة الخلود وهو آمن . فاذا شاء الآن الاعتصام بهدوء الريف فكأنه .. ينزع عن سالفيه اكليل الغار »

وفاة رون

وحين يرى الموت ماثلا ، يرحل الى برلين ، وينزل فندقا تجاه القصر ، ويبصر من مقعده العلم وهو يرفع عليه كل صباح ، ويتلقى من ثم الاستفسارات والهدايا ، ويستقبل فى اليوم السابق ليوم وفاته ، يستقبل المارشال البالغ من العمر السادسة والسبعين ملكه فى الثانية والثمانين، فيجلس الشيخان الشريفان من الاساس ، والرجلان فى شعورهما بالواجب ، والطفلان فى التقوى والصلاح ، يتحدثان عن المعارك القديمة . واذ يسير الملك يشير الى أعلى ويقول : « بلغ تحياتى الى الرفاق القدامى ، فستلقى بعض هؤلاء ! »

هكذا يموت ألبرخت فون رون

الفصل السابع

« اذا قلت للثور « هت » اتجه الى اليمين ، واذا قلت له « هيه » اتجه الى الشمال . لكن الرجل الهرم لا يفهم « هيه » ولا « هت » ! » بهذه التنهيدة يبدى بسمارك رأيه فى ملكه فى هذه السنوات العشر ، فالآن، وأحدهما فى الستين ، والآخر في الثمانين ، تزداد ذات بينهما سوءا . وكيف يستطيع سائس ذو عقل راجح ، مزهو بانتصاراته الأوربية ، مدلل بما يلقى من انصياع مولاه لرأيه مئات المرات ، أوتوقراطي قح فى أعماله ، صبور مع ذلك مؤدب — كيف يستطيع بحال أن يتحمل مرارة السؤال والرجاء الرسمى ! لكنه أيضا كيف أمكن شيخا عنيدا ، شريفا ، مزهوا بشعوره الملكى ، معتادا أن يأمر وينهى ، صبورا مع ذلك ومهذبا ، كيف أمكن لمثل هذا الشيخ أن يعترف بحال بحق أحد فى الحكم وحده بلا شريك ؟

نبل الملك

وفى الرسائل يتفانى بسمارك ولا يخفف أبدا من التنميقات التى يتطلبها البلاط ويستلزمها التاريخ ، بلي انه فى جلسة مجلس التاج ليجهد كما يروى شهود عيان فى استعمال « لهجة من التبجيل تقرب من لغة البلاط » . فحين يرد عليه الملك عندئذ متفضلا ، متوددا ، يكون هذا المشهد صادقا صدق دموعه حين أنعم عليه الملك بلقب الامارة . ولا يصل الأمر بينهما أبدا الى الغيرة . فالملك يفعل كل شيء يمكن أن يمجد اسم وزيره ، ورسائله الرسمية طافحة بالشكر : « ملكك وصديقك المعترف بفضلك لما بعد الممات ، ملكك وصديقك الشاكر الى الابد » . وحين ينبغى رفع أحد أفراد الشعب الى مرتبة النبلاء لغرض الزواج من احدى الاميرات ، يستأذن الملك بسمارك أولا، لأن المرشح لهذه النبالة قد كان أبى ذات مرة أن يشرب نخب المستشار ، « ولست بمستطيع بحال من الاحوال أن أجيب رجاء لا تقرونه ، لأجعل حبيبين من السعداء ! » ويمتدح بسمارك من جانبه فى شموخ العبقرى وكبريائه الهادئة — يمتدح فى سيده على الدوام وفى وجه كل انسان جده وشعوره بالواجب ، صفتين لم يتحل بهما من سبقوه ومن خلفوه كما تحلى هو بهما ، ولم يكف غليوم عنهما بالليل وبالنهار

بيد أن بسمارك يتحدث الى عشرات الوزراء والنواب والى زواره غير السياسيين أيضا ، وكلهم يسجل حديثه ، أجل يتحدث الى هؤلاء وأولئك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والى غرباء بصراحة يريد أن تنقل عنه وتذاع فاذا اقتضى الأمر نفاها فى الحال

« ان الأشياء التى يمجد الملك الآن من أجلها قد حملته عليها حملا .. ان التعامل معه يزداد على الايام صعوبة ، وكلما ازداد وهنه وأمعنت شيخوخته ، أصبح عوزه الى قوة الفصل مما لا يحتمل » . ويذكر لهوهنلوهه : « انه لم لم يعد يدرى ما يوقعه ، فاذا سمع أن شيئا حدث من دون علمه على مايعتقد خشنت لهجته أحيانا »

انتقاد الملك

ويقول لفون متنخت وزير فيرتمبرج المفوض : « لقد حملت ملكى على كتفى الى عرش الامبراطورية وكان سنة ١٨٦٦ يتحدث عن التخلى عن العرش والآن يزعم أنه يعرف خيرا مما يعرف وزيره ويريد أن يفعل كل شىء بنفسه» . ويقول لبوث مدير الحدائق بين أسنانه وهو يدخن غليونه : « انه ضابط حسن ، ودود حيال السيدات ! » ، وحين يمجد الغريب خطب غليوم فى اللاندتاج وهو أمير ، يعلق بسمارك : « لقد كانت هذه الخطب محضرة من قبل ، فليس هو بالفصيح وان أجاد الكلام أحيانا مع قواده ! .. ومزيته الوحيدة هى الوفاء وأنه يمكن الاعتماد عليه . لكنه ليس يكفى أن أجد هذا فيه ، بل يجب أيضا أن أكون مقتنعا بأنه معى ، يشد أزرى »

وأثقل على الخادم وأبهظ له ، أن يجد سيده يوما لا يوليه اخلاصه ، وانه ليجعل عبئه أشد وقرا أن يعلم كل ما يبديه الملك ضده ، فان الشيخ ليقول لهوهنلوهه : « انه يهدد دائما بالاستقالة ، لينفذ مشيئته فحسب ، وهذا شىء لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال ! وليس من يعرف الى أين يسوقنى فوق ما ساقنى » . ويبسط بسمارك فى ارتياح التماسا من التماسات الاستقالة كان الملك قد اعتصره بيده وكوره ، وذلك لأنه كان بهامشه كلمة : « أبدا » فحسب . وحين يلقاه الملك بعد ذلك يبادر المولى خادمه بهذه العبارة المؤثرة : « أينبغى أن أعرض نفسى للسخرية فى أخريات أيامى ! انه للغدر بعينه أن تتخلوا عنى ! » وفى مرة أخرى يدع بسمارك التماس استقالته معلقا تهديدا، اذ يرجو مولاه ارجاء الفصل فيه الى ما بعد انتهاء اجازته ، وبعبارة أخرى يكون على الملك أن ينتظر خمسة أشهر صامتا ! ويستشيط السيد الهرم غضبا كرة أخرى : « ستغفر لى أن أصف بصورة ما ما خلفه كتابك فى نفسى من أثر . لكن أرجوك شيئا واحدا وأنت تكتب الى أن أكتم فحوى خطابك : أن تحلف اليمين ناسخ خطابك بأن يلتزم الكتمان ... غليوم العميق التأثر »

شد وجذب

ومع ذلك يقرأ نفس الملك صحيفة ريشجلوكه كل أسبوع ، وفى مذكرات بسمارك التى يلطف المستشار فيها من وقع هذه العلاقة ، لا يكف هذا

المستشار عن الشكوى من قراءة الملك لهذه الصحيفة ، ذلك أنها لم تؤسس الا للطعن فيه . وعندما عين بعض السادة كبار موظفين احتج بسمارك على هذا التعيين لدلالته على رضى الملك عن أعدائه وكتب عن واحد من الثلاثة المرقين يقول : « ان عداوته الطويلة لى شخصيا هى وحدها التى أمكن أن تلفت اليه الانظار ، ذلك أنه عاطل من كل كفاية أو فضل ، وأنه كان فى وزارة الخارجية عقبة فى اللحظات الهامة بما أبدى من قلة دراية تكاد أن تكون مرضا عقليا ، فلم يعمل منذ ١٥ سنة شيئا غير أن يتكلم ويكتب ضدى فى حرقة الموتور الذى يحقد على لأنى لم أحفل بغروره »

ويعرف بسمارك أن يثأر لذلك باذلال مولاه فى احترام المؤدب . فحين يبدو للملك عام ١٨٧٤ ان عبارة فى خطبة العرش أشد مما ينبغى يبعث بسمارك من فارتسن يهدد بألا يحضر الى برلين لشهود حفلة افتتاح المجلس اذا أدخل على الخطبة أى تغيير ، ويكلف هوهنلوهه أن يقول للملك . ان غروره ككاتب أعظم من أن يجعله يستسيغ مثل هذا التصحيح . ويؤدى هوهنلوهه هذه المهمة . ويقول السيد الهرم تعقيبا على ذلك : « انه قد يستخلص من هذا الموضع من الخطبة اننا نريد الحرب مع فرنسا من جديد ! .. ولست أريد شيئا من هذا بحال من الاحوال ، فقد بلغت من الكبر عتيا ، وأخشى أن يكون بسمارك يرمى الى جرى الى حرب كرة أخرى ، وشيئا فشيئا » . وحين يؤكد له هوهنلوهه العكس فى أدب يمر غليوم يده على لحيته ويقول له عندئذ مع ذلك : « سيقوم بينى وبين الامير بسمارك نزاع حول هذا الامر ، فخير لى أن تخاطب الامير فى هذا المعنى » . وهكذا يتبادل السيد والخادم الحقائق على يد ثالث حتى لا يصطدما . وطبيعى أن يحذف السيد الهرم تصحيحه

الملك المطيع

ويصرح ولى العهد : « لا سبيل الى تغيير هذه الحال ، فلو عرض بسمارك على أبى محالفة مع غريبالدى أو حتى مع ماتسينى لذهب يعدو فى الغرفة يائسا أول الامر يصيح : بسمارك ماذا تصنع بى! ثم لايلبث بعد ذلك أن يقف فى وسط الغرفة ويقول: اذا اعتقدت مع ذلك أن هذا أمر لامفر منه لمصلحة الدولة، فلن أعارض فيه آخر الامر» . ومن هنا يسهل علينا أن نفهم لماذا يسمى بعض المتفكهين من كبار موظفى برلين ـ بسمارك « كارا كالا » فى رسائلهم الخاصة. وعندئذ نفهم لماذا يكتب السيد الهرم الى بسمارك بمناسبة عام ١٨٧٣ الجديد كتابا مؤثرا بناء على طلب مستشاره ، هذا الى أن بسمارك يسر على أثر ذلك الى أحد الاحرار ما يريد أن يذاع ، فيقول له ان الخطاب الذى كتبه الملك بخط يده قد عرضت عليه مسودته من قبل ، وأنه صحح فيه غلطتين كتابيتين فحسب ، ثم يضيف ، وكله ابليس قوله : « وانه لمؤسف حقا أننى أجريت هذه التصحيحات أو لكان الناس خلقاء فى المستقبل أن يكونوا أقل تشككا فى صحة هذا الكتاب »

ويندر أن يذكر أحد الحقيقة فى هذه الاشياء . ويجرؤ أونروه مرة فيقول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لبسمارك : « سيحاسب التاريخ الامبراطور على أنه اتخذ وزيرا متعبا الى هذا الحد لم يتخذ مثله ملك من ملوك بروسيا من قبل . وليس هذا فحسب بل انه اتخذ منه مستشارا له لا يرد له كلمة » . ومثل هذا الكلام يسمعه بسمارك هادئا ويرد عليه رده المأثور : « حقا . فللملوك فى الواقع نظر بعيد لكل ما ينفعهم »

ولا تعوقه حضرة أحد عن التخلى عن مولاه الهرم . ففى جماعة سجل لوسيوس ما قيل فيها، يذكر بسمارك عام١٨٧٥ أنه «كثيرا ماترد استفهامات بخط اليد يقتضى الرد عليها عملا يستغرق أسابيع كاملة . والامبراطور لا يدخن ولا يقرأ الصحف ، بل يطلع فحسب على الملفات والبرقيات ، فكان أجدى لو انه لاذ بالصبر . . لكنى حين أرد مرة ردا حادا ، يلين ويبدى : انى أعلم فعلا أنى قد وهن منى العظم ، وبلغت منى الشيخوخة ، لكنى مع ذلك لا ذنب لى فى طول العمر ! وهذا طبعا مما يحز فى الفؤاد . » ويحدث بسمارك طبيبه عما فى لغة البلاط من التواء وما تفرضه من تحرز فيقول : « لا أستطيع أن أقول ببساطة : ان ما تقوله جلالتكم باطل أو أن رأى جلالتكم فى السياسة لا يفضل رأى التلميذ ، بل يجب أن يصاغ هذا صياغة بارعة ويلمح اليه تلميحا . والناس يجهلون ما يتطلبه السير مع أولمبى هرم خلال ثمانية عشر عاما . ولا يحالف المرء فى هذا توفيق الا ومسدس مكتبه قريب منه على الدوام »

انتقاد جديد

وحين يثنى خليصه لوسيوس على السيد الهرم يجيبه هذا الجواب الشنيع : « ان لكل الملوك وصفة واحدة فى استغلال أشد مستشاريهم ولاء وأكملهم موهبة . ولا بد أن ملكنا قد تلقى وصفة كهذه من فريدريك الاكبر : فقلبه قاس كالحجر ، بارد ، لا يعرف لى جميلا ، ولكن يحتفظ بى لأنه يعتقد انه فى وسعى أن أؤدى له أكثر مما أديت »

وتبلغ العداوة بينه وبين الامبراطورة أوغستا أشدها فى السنين السبعينية : فكل من يكتب ضد بسمارك أو يدس له ، كاثوليكا أكانوا أم نبلاء ، تتلقاه الامبراطورة بالترحاب ، هى ووزير قصرها شلاينتس ، ومنذ سار بسمارك مع الأحرار انقلبت فجأة ضد الأحرار . وعندما دخلت برلين فى موكب الظافر عقب الحرب لم يعلم الشعب ، ويكاد الى اليوم لا يعلم ، أنها جاهدت جهاد المستميت فى تأجيل هذا الموكب لكى تتم استشفاءها فى أحد الحمامات، وهو ما أخر تسريح الجنود ستة أسابيع ، وما كبد البلاد ملايين أخرى من النفقات . وقد كانت هذه لوثة طفيفة من لوثات القياصرة (جنون العظمة)

ضد أوغسطا

وقد ألحق موقفها حيال النواب والوزراء فى الداخل ، والأمراء الأجانب فى الخارج، ضررا بليغا بسياسة الريخ الداخلية والخارجية، وجرت على المستشار

أعنف المنازعات . فهو يشكو فى نفس الوقت الى اثنين من خلصائه يقول : « انها تكتب رسائل بخط يدها الى ملوك أجانب مكلفة من قرينها فيما يقال ، وتعترض سياستى ، وتفاوض السفير الفرنسى ، وتتبع ارشاداته ونصائح فندهورست . ودسائسها تقرب أن تكون خيانة للبلاد .. فهى تكلف من يكتب اليها رسائل تقدمها عندئذ الى الامبراطور وهو يتناول طعام الفطور ، اذ أتلقى أنا بعد ذلك ورقات بخط يد الامبراطور غير مرضية . فاذا لم ينقطع هذا قدمت استقالتى وعندئذ سأفشى كل شىء »

واذ كانت تسند رغبة سفير فرنسا فى استرداد الالزاس واللورين ، وهو رجل من النبلاء ، وتتخذ متأنقا ماكرا يعمل جاسوسا قارئا لها بالفرنسية ، واذ كانت تؤثر أنماطا غريبة وقسسا من الكاثوليك ، وينقل اليها شلاينتس بوصفه «نوعا من وزير مضاد» كل ما يعرفه ويراه أرنيم وفندهورست وأبناء العم المشكسون عن بسمارك وضده ، فان جراءة هذه الدوائر تزداد وأملها يعظم فى اسقاط المستشار الخالد فى النهاية مع ذلك . وقد تحقق بسمارك من أن الريشجلوكه تستقى أخبارها من مكتب وزير القصر « وكان الوسيط من كبار المرؤوسين ، يعد لمدام فون شلاينتس أقلامها ويرتب لها مكتبها . وقد أشعرتنى الامبراطورة على الدوام بغضبها على ، فكان أكبر موظفى البلاط ممن يلونها رأسا يقصرون فى سلوكهم نحوى الى حد انى اضطررت الى الشكوى كتابة الى صاحب الجلالة »

وحين يريد ذات صباح أن يشكو للامبراطور من تعطف للبلاط على حزب الوسيط يجد بجانب سرير الامبراطور المريض أوغسطا فى «هيئة من لباسها تدل على أنها نزلت الى الامبراطور اثر سماعها أنى حضرت . فلما أبديت رجائى فى أن يؤذن لى فى التحدث الى الامبراطور على انفراد ابتعدت الامبراطورة ولكن الى كرسى ملاصق للباب الذى لم تقفله وراءها تماما ؛ ثم عنيت بأن تدلنى بحركاتها على أنها سمعت كل شىء » . وكان فى المساء حفلة راقصة ، فرجاها بسمارك ألا تعرض صحة قرينها للخطر بالنصح له برأى مخالف هذا الرأى غير المنتظر لمغايرته لتقاليد البلاط قد كان له على الامبراطورة تأثير غريب . فانى لم أشهد الامبراطورة أوغستا فى عشر السنوات الاخيرة من حياتها بمثل جمالها فى هذه اللحظة : فقد انتصبت قامتها ، وبرقت عيناها بنار لا عهد لى بها ، لا قبل ذلك ولا بعده ، ثم قطعتنى ، وتركتنى واقفا ، وقالت كما سمعت من أحد رجال البلاط : ان مستشارنا المحترم جدا لم يبد اليوم أى احترام »

مشهدان

وفى هذين المشهدين اللذين يقصهما بسمارك تبدو أوغستا كما هى تماما : فهى فى الصباح تدفعها الغيرة الى عناد لا يتفق والكرامة وذلك فحسب لتشترك بأية حال فى شئون الحكم ولو من وراء الباب ، لكنها فى المساء تحرص على حقها فى هيبة الملك فيجدد هذا الحرص فى المرأة العجوز حمية الشباب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرة أخرى ، ويرد اليها جمالا تخللت سمعته ثلاثة أجيال . أفيمكن أن يستغرب ألا يتمنى بسمارك خيرا من موت أوغستا ؟ انه يصرخ مرة فى نوبة من الحنق الملطف بالفكاهة فيقول : ان احدى سنتين يجب أن تزول ، الزواج أو الملكية فكلاهما معا كارثة من الكوارث ! لكنا ونحن فى حاجة الى الملكية لا بد أن يكون الزوال للزواج ! » ويجد أكثر من ذلك فى قوله للوسيوس : « يكون المرء فى المساء متفقا على شيء فما ان يصبح الصباح حتى يؤثر عليه عند تناول القهوة فيبدل الرأى .. ألا ليت الامبراطور أرمل ! »

طعن فى الملكية

لقد انطفأ ولاء بسمارك للملكية فى ذروة السلطان . فقد قبر الآن الايمان الذى ينبغى أن يقوم عليه هذا الولاء ، قبره تماما تقريبا . وحسب المرء أن يسمع المطلعين من أمثال بوخر وبوش : وهما يدبجان مقالا وضع الرئيس نقطه لينشر فى انجلتره تهديده بالاستقالة فاذا ما نقلته الصحف الالمانية عن الصحف الانجليزية استطاع أن يحمل الملك على الاذعان . وعندما يذكر بايعاز من بسمارك « اخلاصه للملكية وتفانيه فى ملكه ، يبتسم العظيمان ، أحدهما للآخر » . كما يكتب بوش . وبسمارك يشكو بنفسه لميتخنت هازئا فيقول : « ان ما خبره المرء من مبلغ ما يعانى الوزراء أحيانا من السادة الحاكمين يمكن أن يحمل على التفكير فى أن يصبح المرء جمهوريا .. فهم فى رسائلهم الخاصة يتحدثون عن وزرائهم بكل بساطة كما لو كان هؤلاء الوزراء مفتشين فى ضياعهم ! » ويسخر من أحد وكلاء الوزارات فيقول عنه انه خليق أن يذكر أبطال هوميروس بمنتهى التبجيل فيقول : « المغفور له حضرة صاحب السمو الملكى هكتور » . وفى سنة ١٨٨٠ يجمل رأيه لأحد خلصائه بقوله : « لست من أنصار الحكم المطلق . فمن تقلد الوزارة بضع سنوات لا يمكن أن يكون من هؤلاء . فالمرء لا يتصل فى عمله بالملك وحده بل كذلك بالملكة وربما بالخليلة وكل عصابة البلاط .. ويفكر نبلاء البلاط فى المظاهر الحقيرة ، ولأصحاب النبالة العريقة السامية خيلاء وغطرسة ، ومباهاة بالاصل العريق » . لكنه يصارح الوزير شولتس بقوله : « ما أزخر ما كانت مشاعرى الملكية وأعظم ما كان احترامى للملك حين تقلدت منصبى ، وما أشد أسفى وحزنى بعد ذلك حين رأيت هذه الزخرة من المشاعر والاحترام تنقص شيئا فشيئا » . وعقب ذلك بقليل يقول فى مذكرة بارعة : « لقد رأيت ثلاثة ملوك عراة فلم يكن منظرهم دائما حسنا »

الفصل الثامن

لقد جاب الديكتاتور أنحاء دولته بخطى صاخبة . فالشعب الذى بدأ الآن ينعته بالمستشار الحديدى ، كان يسخر من نفسه ولا يعلم كيف ، ذلك أنه كان حديديا فى الداخل ، حيث لم يكن يجيب للشعب كل رغبة ، أما فى الخارج فقد لبث أكثر الديبلوماسيين جميعا مرونة . ومع كل فقد كان ثمة رجل استطاع أن يأمر وينهى ولم يكن الألمان يريدون أول الامر أكثر من ذلك . واذ كان هذا الرجل لا يثق بأحد ، ولا يتطلب فهما أو اخلاصا فى أحد ، وكان يسلم لنفسه بالحجى والعقل الراجح ، ويشتم فى كل رجل حاذق أنه سوف يكون منافسه ، فان كل البواعث تتحالف على أن تجعل منه أوتقراطيا قحا ، يريد أن يفعل كل شىء بنفسه . ومع ذلك يزيد فى نفس الوقت اعتداده بذاته «وكراهيته المطبوعة فيه للمتاعب» وعداوته لبنى الانسان وحبه للطبيعة، وما ينطوى عليه من بغض كبار الموظفين من المستشارين السريين ، يزيد وينمى ارادته للهدوء ، ولارتياد الريف ، وللاجازات الطويلة دائما ، وهى تبلغ أحيانا خمسة أشهر . وعليهم عندئذ فى برلين أن يقوموا بالعمل وحدهم — ولكن الويل لهم ان هم أدوه ! وهذا أيضا لم يفهمه أحد كما فهمه رون الذى يكتب ما يلى ولما يتول رياسة الوزارة بعد :

ناسك فارتسن

« وعلى مقربة ناسك فارتسن الذى يريد أن يفعل كل شىء بنفسه ثم هو ينهى أشد النهى عن ازعاجه .. واذا هو لم يوجه كل شراع ليوجد لنفسه مجلس أعيان ، ويخلق الوزراء اللازمين للريخ فسيقسو حكم التاريخ يوما عليه . وان يصلح له على الدوام أن يعيش من اليد الى الفم ، ولو كانت اليد الى ذلك بهذه المهارة والقوة ، وكان الفم ما يزال هذا الفم الفصيح الحاد الاسنان .. انه ليس له الا القليل من الاصدقاء المخلصين ، يغلو فى الاكتراث لأعدائه ، وأشدهم عداوة له الذين يؤلهونه .. ولأنى فحسب أقدره هذا التقدير العالى أحب أن يكون فى بعض الامور غير ما هو » . ولا يلبث الجميع أن يروا فيه هذا الرأى : فيشكو لاسكر من أن بسمارك لم يعد يحتمل الوزراء ولا يطيق سوى مديرى المكاتب . ويكتب البعض : « ان ألمانيا تريد أن يحكمها بسمارك وتغضى حتى عن أن يدعى المرض وهو فى فارتسن وانها لتؤثر ألا يتوفر على حكمها كل التوفر على أن يحكمها غيره »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمراء يلامون

وهو يسلط أوتوقراطيته فى مختلف الصور على الوزراء والامراء أولا ثم تتفاقم هذه الصور فى معاملته للريخستاج وتبلغ أشدها مع الموظفين . فهو لا يستقبل الدوقات اذا لم يحضروا فى الميعاد ، كذلك الملوك يمكن أن يكون هذا حظهم معه من الاهمال . فهنا غراندوق حددت له التاسعة ميعادا ، ففى التاسعة الا ربعا يطلب بسمارك سترته الرسمية أثناء عمله ، فاذا تجاوزت الساعة التاسعة الى الربع عاد فارتدى سترته المنزلية وقال لتيديمان الذى يملى عليه ما يكتبه : « لا يعتقد صاحب سمو ملكى أنى أنتظره أكثر من ربع ساعة » . ويعلن اثر ذلك مجيء الغراندوق ، فتفتح الابواب على مصاريعها ، ويرى فيديمان بعد كيف يجلس بسمارك الى مكتبه وكان الى ذلك الحين يملى رائحا غاديا ، وكيف يبدو وكأنه مستغرق فى أوراقه ، ويأذن للغراندوق بالدخول عليه ، فلما يدخل يتلقاه بانحناءة عظيمة قائلا : « لقد اعتقدت أن سموكم الملكى لن تولونى بعد كرم الحضور . فالساعة الآن : الثلث بعد التاسعة » . على هذا النحو لم يعاقب الامير فحسب ، بل أذاع أيضا هذا الاذلال بهذه الحركة التى أحكم تدبيرها أمام مستشاره السرى ، ذلك أنه يعرف القيل والقال . وحين مر ملك سكسونيا بمركبته على دار المستشارية على غير ميعاد سأل بواب الدار البروسى القح : « أهو على ميعاد ؟ كلا ؟ اذن لا أستطيع ادخاله » . وعندئذ مضى الملك فى طريقه ليتلقى بعد ذلك اعتذارات المستشار

ويظل بسمارك أسابيع لا يسمح لوزرائه وسفرائه بمقابلته اذا كان لايرتاح اليهم أو يريد أن يتحاشى كلاما بعينه . ويعدد لوسيوس وتيديمان الاساليب والفنون التى يلجأ اليها بعضهم لابلاغه شيئا أو لاستدراجه الى البت فى شيء على غير ما يحب . وهنا تقرأ من النوادر ما يقرأ فى مذكرات رجال البلاط عن قياصرة الروس المستبدين . وعلى قدر ما تأبى خيرة الرءوس الدخول فى وزارة صورية كوزارة بسمارك تزداد حيرة بسمارك فى ايجاد وزراء لوزارته ، فما ان يستهويهم أخيرا حتى تلح به الرغبة فى التخلص منهم ، ومن هنا يشبهه كونت ذكى بدون جوان ، الذى يتودد أولا الى الفتاة الحسناء ثم لا يلبث أن يطلقها اذا باتت ملك يده . ولا يلبث بسمارك أكثر من سنتين يحترم أحدا وان استبقى البعض أطول من هذه المدة . ذلك أنه « حين أريد أن أحتسى ملعقة من الحساء لا بد لى أولا من استئذان ثمانية من الحمير ! » فاذا تحول عندئذ بعض زملائه المغضبين الى صفوف أعدائه شكا من العقوق ومن عليهم بأنه رفعهم من الحضيض ، وأخرجهم الى النور

لا يقرب

ويضجره كل زائر الا أن يكون هو المتكلم : « من يرد أن يقول لى شيئا فليفعل ذلك فى عشرين دقيقة . ومعظم الوزراء المفوضين يمكثون عندى أطول مما يجب ، يريدون دائما أن ينتزعوا منى شيئا يبلغونه بلادهم » . وأسمى

الناس مقاما وبعض الموظفين من أصدقائه الشخصيين لا يجوز لهم زيارته فى الريف غير مدعوين ، حتى الامبراطور فقد حقه فى ذلك . فانه حين قال لسفيره فى باريس وهو يزوره ، انه يرى أن يذهب الى فارتسن ، وهذا بمثابة أمر له ، أجاب هوهنلوهه انه لا يستطيع الذهاب من دون أن يطلبه بسمارك . ويواجه أمير أمبراطورا ، فيلازمان الصمت لحظة ، ثم يوافق الامبراطور الصبور . لكنه اذا أراد بسمارك أن يبلغ الامبراطور شيئا فانه يبعث بنفس هوهنلوهه من فارتسن بمهمة مباشرة الى الامبراطور

والصحة وسيلة من وسائل أوتقراطيته ، ذلك أنه اذا عجز عن انفاذ شيء مرض مرضا بعضه حقيقى وبعضه سياسى ، وأعلن عندئذ نهائيا أنه لا مفر له من الاستقالة وقد شبهته كلاديرادتش بهينى اذ يقول :

« من آلامى العظيمة أتقاضى المكوس الضئيلة »

وكل التماسات الاستقالة ـ وتبلغ ستة ـ لا تشكو فحسب من الصحة المهدمة بل تعزو أيضا الى الخدمة والى الامبراطور غالبا ذنب هذه الحالة وتلقى عليه تبعتها . وفى نفس اليوم الذى يجد هوهنلوهه بسمارك فيه « معافى ومنشرحا جدا » فى فارتسن يكلفه بسمارك بأن ينبىء الامبراطور بأنه ما يزال مريضا وأنه يعانى من أعصابه ، « ذلك أن الامبراطور لا يبالى بى ولا يتحاشى اغضابى »

احتقاره الريخستاج

وهو يطلب من الريخستاج الالتفات الذى يأباه هو عليه . فانه فى سنة ١٨٧٩ بينما كان يحمل على لاسكر حملة شخصية سمع جرس الرئيس يهز هزا خافتا ، فقطع حملته قائلا : « ما خطب الجرس ! ان كل شيء هادىء فى القاعة ! » بعد ذلك قال للوسيوس : « انى هنا أسمى موظف فى الريخ ، لا أخضع لأمر الرئيس ، فليس جائزا أن يقاطعنى ولا أن ينذرنى بدق الجرس. فاذا حاول مثل ذلك فسيكون عمله بمثابة خطوة فى سبيل حل المجلس ! »

بذا يجر العداوة على نفسه ، وتنمو جرأة النضال فيه مع احتقاره خصومه ، وحين يوجه ديكارت الى الحكومة هجمات جوهرية يجرد بسمارك سلاحه قائلا : « أجل أيها السادة ، انكم تهاجمون التشريع وتطعنون فى أحوالنا وفى سياسة الحكومة فمن تعنون بذلك ، أتعنون أحدا غيرى ؟ .. اننى لا أستطيع التسليم بأن توجهوا الى مثل هذه الاهانات تحت ستار الدولة دون أن أجد من حقى الرد عليها ! »

لكنه فى نفس الجلسة يغير باعثه ، فينقلب الشرف لعبا ، ذلك أنه يقول لريشتر : « أحب أن أقول انى لا أستطيع من الناحية الرياضية ألا أدفع مثل هذه الهجمات اذا كنت هنا بالذات ! » وفى يوم آخر تتسلط عليه حالة وسط بين الاعتداد بالذات والتواضع. فانه اذ يقول لاسكر انرجلا واحدا لا يستطيع كل شيء يشعر بسمارك بأنه يتحداه كبطل ويرد عليه بقوله : « لكنى أعتقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ان ما يستطيعه أمثال البا عندكم يستطيعه شارل أيضا لا أكثر ! » (يعارض بذلك عبارة شيلر : وشارل يستطيع أكثر ! وظاهر أنها معارضة فى غير مصلحته) . ويندر أن يستشهد بسمارك بتاريخه ، لكنه فى ذات مرة صاح بمجلس الريخستاج قائلا : « لم أدع أوربا بأسرها تؤثر فى ، فلن تكونوا الأولين ! » وفى مثل هذه اللحظات يرتعد شىء فى ألد أعدائه : انهم يشعرون أن هذه هى الحقيقة

مهزلة الاستقالة

لقد كان آنئذ يشعر بأنه فنان فى فن الدولة أكثر مما هو غير ذلك . وكان يعلم أصحاب النظريات فى الريخستاج بأن : « السياسة ليست علما كما يتصور حضرات السادة الاساتذة ، بل هى فن . انها كالنحت والرسم فان كانا علما فهى علم . ويمكن أن يكون المرء ناقدا لاذعا ومع ذلك لا يكون فنانا. حتى ليسنغ ، أستاذ النقاد أجمعين ، ما كان ليأخذ على عاتقه أن يصنع مثل صورة لاؤكون » . واذا أتى الى مائدته من هذه المصادمات مغضبا فانه لا يلبث بعد الالوان الثلاثة أو الاربعة الاولى أن تعاوده فكاهته المغيظة فيتمنى أن يبدأ خطابا كذلك الرجل الذى بدأ خطابه فى الوليمة بقوله : « أيتها العصابة المنحطة * ! ــ توقف طويل ، ووجوه يتولاها الرعب ــ توحد بيننا هنا »

ان تقلبات المزاج التى تصل اليها اوتقراطيته تصدر فى الغالب عن شعوره بأمن مركزه : فبسمارك هنا يشبه فى الحقيقة الاسد الذى يبدو أنه يفلت فريسته ، السلطة ، الحين بعد الحين ، ثم هو فى اللحظة الاخيرة ينتهزها بمخلبه الكبير . ففى ابريل سنة ١٨٨٠ تملكه الغضب لأن بروسيا هزمت فى مجلس الاتحاد بأغلبية الاصوات ، فلما كانت الساعة العاشرة استدعى تيديمان ، وهو ما لم يحدث من قبل قط ، وطلب اليه نشر كلمة فى نفس المساء عن طلبه الاستقالة فى صحيفة « نورد دويتشه » . ويكلفه على رغم نهيه عن ذلك أن ينشىء الالتماس والمذكرة : ثم يذهب فى تلك الاثناء يتنزه فى الحديقة ، ويعرج فى كل دورة على نافذة الحجرة التى يكتب فيها تيديمان ليكلفه فى كل مرة بما هو أسوأ . ويلقى التبعة على عدة أمراء فى الاتحاد ومعهم ممثلوهم . وينصحه تيديمان مرة اخرى قبل اعداد الصحيفة للطبع بقليل، بالانتظار الى الغد . فيرفض بسمارك . وفى هذه الاثناء يحمل التماس الاستقالة الى غرفة الشفرة ليتولاه أربعة من الكتبة وهو المكتوب فى أربع ورقات من الفولسكاب ، ذلك أنه بغير ذلك يكون من المحال الى منتصف الخامسة أن يصل الى يدى الامبراطور . وعندما دقت الساعة النصف بعد الرابعة حملها راكب ركضا الى القصر . وفى الخامسة الا ربعا يذهب بسمارك الى المائدة فما يكاد يحتويه أعلا الدار حتى يبعث الى أسفلها برسول يبلغ أمره بألا ترسل الاستقالة ! فيبادر تيديمان الى أعلى ويبلغ المستشار أن الالتماس أرسل منذ نصف

---

* هذه الكلمة تؤديها العبارة الالمانية الصادرة عن الخطيب كما تؤدى : « انأواصر مشتركة » وهو ما ينسجم مع كلمة « توحدبيننا .. » (المترجم)

ساعة فيبدى أن فى الامكان استرداده من الياور ، لكن الكلمة تكون قد ظهرت فى الصحيفة التى يكون الامبراطور بسبيل الاطلاع عليها . فيقول بسمارك : « اذن دعها تنطلق ! فلطالما ضحك على فلأضحك الآن مرة عليه ! »

بوش

يندفع بسمارك فى هذه المهازل حين يتعلق الأمر بمركزه ، فاذا تعلق بأتفه مسألة خارجية لم تنتهبه الأهواء ولم تتنازعه مزايا هذه المسألة ومضارها ، فاذا فعل ذلك أحد من رجاله خرج معه عن طوره . أما هنا فالمسألة تتعلق بالسلطة والسلطان ، وبهذه السلطة يستطيع أن يلعب لأنه غير قابل للعزل . وقد جعل بسمارك من نائبين هما لوسيوس وتيديمان ــ جعل من أحدهما وكيل وزارة ، ومن الآخر مديرا للمستشارية ، فهما الوحيدان اللذان تحملا بسمارك سنين بما قدما من لباقة وضبطا من أعصاب ، وقد انضم اليهما بعد ذلك شولتس وزير المالية

وبوش وبوخر من الشخصيات الممتعة فكلاهما يكاد لا يصغر بسمارك سنا ، وكلاهما ثورى سابق ، وقد اكتشفهما بسمارك صحفيين ، وأدخلهما الخدمة . فأما بوش فقد استرعى بسمارك محررا فى « جرنزبوتن » بعد أسفاره ورحلاته الطويلة ، ماهرا ، عديم الضمير ، مرؤوسا ، أجوف ، قربه بسمارك قبل الحرب الفرنسية ثم غضب عليه فأقصاه بعدها ، فالتجأ الى طرق ملتوية تقرب من الابتزاز ليعود كما كان ، لايستغنى عنه ، فحرص عليه بسمارك من جديد ، اذ كان يخشاه أكثر مما يخشى بوش بسمارك . لكنه عليم بكل فنون الاخبار يرى ويسمع ويلاحظ كل شيء ، قد قدم لتعرف رئيسه مساعدات لاتقدر على صورة مذكرات بدت لمن كتبت عنه حقائقها أصدق ماينبغى

بوخر

والى جانب هذا الرجل العريض المنكبين ، المرح ، الماكر ، السعيد دائما ، شخصية معقدة هى لوتار بوخر . كان قبلا قانونيا ، ونائبا راديكاليا فىاللاندتاج سنة ١٨٤٩ ، فحكم عليه بالسجن ، ففر الى لندن ، وظل عشر سنواتوحيدا ، كئيبا ، فقيرا ، غير بعيد من كارل ماركس ، فلما صدر العفو العام عاد الى بلاده ، وقدم لاسال الى بسمارك ، لكنه وهو يناهز الخمسين مايزال بلا مورد يعيش منه . وهنا يتعب المرء . هنا اللحظة التى يستأجر فيها بسمارك قلمه الفياض . فالآن فى أوان النزاع ، والصديق اللندنى ليبكنخت يبدأ سيرته الوعرة ، الشحيحة ، يفتح بوخر باب وزارة الخارجية ليوصده وراءه الى الابد . هنا يصبح بوخر مستشار مفوضية سريا حقيقيا محاطا بصنوف التكريم حين يساهم فى كل شيء ولا يعود يتحزب لرأى

فاذا ما انسابت هذه الظاهرة المضناة المستخفية وتسللت من الوزارة ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فرت من الناس والصحف ، وذهبت تجول فى الغابات بعينين وادعتين تحمل صندوقة خضراء تجمع فيها الكلأ والعشب . وقد عرف بوخر الطير ، وحنا هذا الأعزب المسن على الاخت يقضى لها حوائجها ، وكان قليل الطعام ، عديم الشراب ، فاذا عاد ودخل من باب بسمارك بات النهار عنده والليل سواء ، فاذا أراد الذهاب الى المسرح وجب عليه أن يبلغ رقم كرسيه ليستطاع الاهتداء اليه عند الضرورة . وهو حديد فى تفكيره ، طلق فى كتابته ، يدبج فى ذلك المقالات الانجليزيه ، والمذكرات الفرنسية ، ومشاريع القوانين الالمانية وكل مايرغب فيه المعلم وعلى نحو مايرغب المعلم الذى باعه روحه من دون ان يمحضه الحب . واذ قد جرد من الارادة فانه يجوز له أيضا أن يصلح سيده يتبين من أسلوب تعبيره ان كان اصلاحه قد نجع ونقده قد « أصاب » . لذلك كان الوحيد الذى قدره بسمارك فهو لم يقل عن أحد غيره ممن عاونوه : « انه لؤلؤة حقيقية ! فقد كان صديقى المخلص ، وكان أحيانا رقيبى » ، على حين نعت بسمارك أبيكن الطيب المتفانى مرة بأنه أجيره

هوائيات فى العمل

ويتطلب بسمارك من المستشارين كافة أن يوجزوا حين يحاضرونه وأن يتوخوا البساطة فى الكتابة . فمن يوجز فى القول كتيديمان وبوخر ويؤدى عمله بالليل لايفرغ صبر بسمارك معه أبدا . وتوخى التأثير فى الخطاب واستعمال أفعل التفضيل فى الكتابة شيئان محظوران قد وضع لهما بسمارك قاعدتين ذهبيتين : « كلما بسطت الكلمة عظم التأثير » . ثم « ليس من شىء مهما بلغ تعقيده ألا يستطاع استخراج لبه بالكلام القليل » . وعلى من يريد الاشارة الى مشاريع قوانين تتألف من مائة مادة أن يفعل ذلك فى عشر دقائق « وان كان اعداد هذه المشاريع قد استغرق ساعات » . وحين أراد معلومات عن مسألة اقتصادية استكثر خمس صفحات من الفولسكاب فى شرح هذا الموضوع

ويطيق بسمارك المعارضة الهادئة ويفيد منها فى الحال متى أثر عليه من أول وهلة . وعلى المرء أن يفهم هذا المخلوق العصبى ، الذى قد من «حديد» : فانه اذا ثارت أعصابه فتل حاجبيه الكثين كما يفتل الغير شاربيه . ولمثل هذه الايام يدخر تيديمان دائما فى الدور الاعلى مسألة سهلة فى حافظة الاوراق . « فاذا لحظت عند دخوله انه أطل من النافذة وفى عينيه أمارات الالم اجتزأت بالاشارة الى مسألة عرضية فى منتهى الايجاز وتلقيت الجواب المألوف : « هذا سواء عندى ، فافعل مايروقك . أعندك شىء غير هذا ؟ » وينصرف تيديمان . فاذا جاء الغد واعتدل مزاج الرئيس استمع له عدة ساعات صابرا

ويؤجل العمل نصف يوم بنومه فى الصباح فان احدا لايراه فى هذا الاوان . فاذا حلت الثانية عشرة تواصل العمل الى السادسة بلا هوادة ثم استؤنف من التاسعة الى مابعد منتصف الليل . فقد طبع على حب العمل فى المساء حتى ليتمنى أن تعقد جلسات البرلمان متأخرة كما هى الحال فى انجلتره ، ذلك « أن

المرء فى المساء يكون خيرا منه فى غير هذا الاوان كثيرا ، يتكلم أفضل مما يتكلم عادة ، ويكون أكثر مسالمة . أما فى الصباح فيكون المرء فى حالة من يلتمس مطعنا فى كل شيء يسمعه »

فاذا كان منشرح الصدر طلب من رجاله غير المألوف كما تفعل الطبائع المسرفة فى العصبية : مسودة مسهبة فى ساعة واحدة ، يزعج الكاتب فى أثنائها عشر مرات أحيانا . « وكان خدم المستشارية يخبون فى القاعة على الدوام فكل شيء يركض ، وليس لعمل ما مايقتضيه من الراحة وهو ماجعل أقوى الأعصاب تتحطم »

الادب فى العمل

بيد أن نفس تيديمان قائل هذا هو الذى يؤكد فى عين الوقت « اننى لم أتبين فيه قط شيئا من العنف .. فلم يستعمل معى قط لهجة تغاير مايستخدمه السادة الاماجد ، فقد كان على العكس من ذلك ، الادب بعينه ، وكان فى هذا كغيره من الوزراء . وهذا على أن لايعال صبره وألا تثار أعصابه .. وقد كان موظفو المكتب والخدم على خوف شديد من السيد ، يعلمون أن أقل سهو لن يغتفر لهم ، ويرتعدون من أرعاد جوبيتير »

وحين يحاضر وهو مضطجع نصف اضطجاع فى مكتبه الواسع الخالى تقريبا يستمع الى مستشاره على ضوء المصباح الفضى العالى ، يفصل فيما يعرض عليه سريعا فلم يلاحظ تيديمان فى ست سنوات ترددا قط عليه فى الفصل . اما اذا كان يملى فانه يروقه أن يغدو ويروح أثناء املائه يتدفق كما يفعل من فوق المنبر ، ويصمت أحيانا فترة طويلة ثم يعود الى التدفق . وينطق أحيانا بالمعنى متشابها فى عبارتين أو ثلاث لاختيار احداها . « واذا كان لايجوز أن يقاطعه أحد أبدا ، اذ يفلت منه الخيط فى الحال ، فانه كان من أصعب الأمور متابعته . وقد أملى على فى آخر سنة ١٨٧٧ تقريرا الى الامبراطور ، .. وكان بيانا فى السياسة العليا يدور حول تطور أحوالنا الحزبية بأسرها منذ الدستور : فظل يملى بلا انقطاع وأسرع من المعتاد خمس ساعات متوالية فكنت أحرص ماأكون على أن أثبت على الورق أفكاره الاساسية وكنت فى حال من شدة الانتباه خفت معها ان أتشنج أثناء الكتابة فخلعت سترتى من حرارة مابى واستأنفت الكتابة فى أكمام قميصى فنظر البرنس الى أول الامر نظرة تدل على شيء من الدهشة ثم هز رأسه بعد ذلك هزة تدل على فهمه ماأنا فيه ، ومضى فى املائه لايسمح لشيء بازعاجه . فلما أخذت فى اكمال عملى (وكان قوامه ١٥٠ صحيفة من الفولسكاب) راعنى حبكه وحسن سبكه ، فقد كان بيانا بديعا كأنه خيط مشدود ، خاليا من التكرار ومن الهوامش »

وهو حريص فى غير عمله من الشئون على مايبدى فى عمله من صرامة فى الموضوع ، وأدب فى المعاملة الشخصية ، وهو ما يظهره أثناء العمل أوتقراطيا وشهما معا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخياط

واذ كان لم يؤت الصبر ولا الوقت لأن يدع خياطه يقيس جسمه للابسه ، فانه لامفر لفنان ثيابه من أن يقيسه بعينيه ، فاذا أخل بمقاسه تلقى من المستشار هذا الكتاب : « لقد صنعت لى فيما مضى أشياء لاءمتنى جدا ، أما الآن فأراك نسيت للاسف ماعتدته من قبل وفرضت أنى أصغر وأهزل مع الشيخوخة وتقدم العمر ، وهو ماينذر ان يتفق مع واقعى .. ان ماأرسلته الى منذ سنة ١٨٧٠ لا أحتاج اليه ، وماكنت لأنتظر من متجر كمتجرك كان يدار فى العادة ادارة ذكية ان تكون درايته بالتاريخ الطبيعى لجسم الانسان هذه الدراية القليلة » . هذه الفكاهات الدالة على ضيق الصدر هى مايلجأ اليه هذا الأسلوبى العظيم حين لايرى مفرا من لوم مرؤوس حاذق من مرؤوسيه

زملاء

وعلى العكس من ذلك يكون اعتداده بنفسه فى اطراد عصبى على الدوام اذا كان يعامل من هم فى مستواه : فزملاؤه دائما غير محتملين ومن ثم يعاملهم أسوأ مما يعامل مستشاريه السريين الذين لايستطيعون دفع السوء عن أنفسهم . والكثيرون من الوزراء يذكرون فى تقاريرهم « علياءه التى لاتقرب » وأنه كان يعاملهم كما لو كانوا مساعديه : واليك مايكتب وزير البحريةستوش : « لقد أمرنى بالجلوس وراجع عملى كما يراجع المدرس واجب تلميذ غبى عنيد .. فاذا أبديت اعتراضا بتر فى ايجاز فلم يسعنى سوى السكوت والاذعان » . على هذا النحو يفقد المرء فى نصف ساعة احترام بسمارك الى الابد . أما اويلنبورغ فعلى النقيض من ذلك يرغم هذا الجبار الذى أساء اليه رسميا ، على ان يكتب هذه الاسطر بعد أن احتج على الاساءة احتجاجا شديدا : « لقد جعلنى فحوى خطابك أعتقد أنى أخطأت فى حقك خطأ أعتذر اليك منه وان كان ذنبه لايقع على ولم أكن على الاكثر مسببه » . وقد ظل هذا الكتاب فى أسرة المخاطب يتوارثه الابناء عن الآباء ويحرصون عليه . وغير أويلنبورغ من الوزراء ممن كانت علاقاتهم الودية ببسمارك سببا لرفعهم الى مناصبهم ، كانوا يضيعون أولا هذه العلاقات ثم يخسرون بعد ذلك هذه المناصب فى انتظام ، ولا يلبثون أن يتلقوا أولا رسائل خاصة يهانون فيها ، فتوبيخات رسمية رديئة ، ثم ينتهون بأن يكونوا أعداء ألداء لمن كان الصديق فى يوم من الايام ، ذلك أن الشكر ينتظر دائما من جانبه لكنه لايزجيه

لكنه فى لحظات نادرة فحسب يتحرك فى قلبه هذا الشعور ، فتخطر بغتة على باله لفتة لم يسبقه اليها أحد ولم يستطع أحد بعده ان يحتذيها . فانه وهو يدخل بوابة براندنبورغ خلف الامبراطور متوسطا مولتكه ورون عقب النصر على فرنسا يلحظ موظفى وزارته فوق منصة خاصة ، فيتناول اكليلا من أكاليل الغار الثلاثة المعلقة فى سرج جواده ويلقى به على معاونيه

الفصل التاسع

فى سنة ١٨٦٠ والرئيس فى بطرسبورغ جالس ذات مساء فى الشتاء الى الموقد يصطلى مع شلوتسر وكروى وهولشتين الشاب ومعلم البيت الذى يدرس للاطفال دار الكلام حول الخلود ، فحاول هولشتين أن يدلل على ان الخلود مضمون فى الشهرة المعقبة . فتناول بسمارك كأسه من فوق رف الموقد وقال : « أتعلم ياسيد فون هولشتين ؟ ان هذا الكأس من نبيذ الميدوك أحب الى من ثلاثين صفحة فى تاريخ بيكر العالمى ! »

ضد الشهرة

فى هذا الازدراء للشهرة التى هزأ بها وهو طالب ثم وهو شيخ يتحدد خلقه من احدى نواحيه جليا محصورا ، ولعل اختلافه فى هذا عن نابليون الذى لولا بلوتارخ والشهرة مابات شيئا مذكورا قد كان أحفل من غيره بالنتائج . ولما أصبح الآن تاريخ بيكر العام فى السنين السبعينية معلوما مشهورا كان هذا البطل صاحب الصفحات الثلاثين حيث كان ، نزيها غير قابل للارتشاء . كان يعلم من هو ، وقد شطب فيما كتبه كارليل عنه كل المواضع التى يتحدث فيها عن العبقرى السياسى ، مرتين وثلاثا ، وهنأ كارليل فى عيد ميلاده المتمم الثمانين بما لم يبده نحو ذهن ألمانى قط من تكريم ، وعلى كل فقد تلقى كارليل قبل ذلك الأوان بخمسين عاما من ألمانى أعظم من بسمارك مثل الذى تلقاه من المستشار

كان بسمارك لايأبه بتصفيق المعاصرين : فقد كان يحتقر الناس ومن ثم كان يؤلمه تبجيلهم اياه . وفى مجلس الريخستاج حيث رماه ريشتر بأنه يجهل الاقتصاد اجابه بسمارك جوابه القائل بأنه ينتظر حكم معاصريه من المواطنين هادئا ، لكنه زاد على ذلك قوله الصريح : « لاأريد أن أذكر الاجيال القادمة . فهذا موضوع أشد تأثيرا فى من أن أذكره » . وعندما كان الناس يحتشدون أمام الريخستاج ليروه وهو يركب ، كان يضايقه هذا . وقد قال بهذه المناسبة أنه وقد كان الوزير المكروه يعلم جيدا ماذا كان يبدو على وجهه والناس يبصقون أمامه ، أما الآن فعليه أن يتعلم مظهرا آخر لهذا الوجه . ويدعوه الملك الى حفلة لتثبيت أعلام فيها علم يحمل شعار بسمارك واسمه فيعتذر من عدم الذهاب لانه يمكن أن يصيبه فى الحفلة زكام . وحين يبعث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليه غليوم بقطع من الماس لوسام ويشفعها بهذه الكلمات المؤثرة : « انه آخر نشان أستطيع أن أخلعه عليك ، وقد ابتكر لك وحدك » . يقول فى بيته : « كان دن من نبيذ الرين أو جواد كريم أحب الى من هذا التكريم »

الدعاية

ويسلى بسمارك مايطبع له على الحجر من صور رمزية بالألوان ، فحين يرى نفسه على مثال ملك من ملائكة السلام أبيض الثوب عارى النحر وعلى جمجمته الصلعاء اكليل من ورق « لاتنسنى » ومن الغار ، يدهش لامكانياته السامية . لكن تماثيله الأولى تؤلمه فهو يتحدث صراحة أمام البلاد فيقول : « لست ممن يستسيغون هذا النوع من الشكر . ولست أدرى ماذا يمكن أن يبدو على وجهى اذا مررت بتمثالى فى كولونيا .. وفى كيسنجن يزعجنى فى نزهاتى أن أجد بجانبى صورة حجرية منى »

الى هذا الحد لاتحرك الشهرة ساكن هذا الواقعى : فليس فى وسع أحد أن يجعل منه شيئا . لكنه اذا تعلق الامر بالرأى العام الذى يحتاج اليه لايكف عن توجيهه ، ولاينى يبدى من الاستخفاف بما يخلد به شخصه من أسلوب مايلوح أعظم اذا قيس بما يبدى من قلة الاكتراث لما يكون لهـــذا التخليد من تأثير مقصود فى معاصريه . فهذا الشخص الذى يكره أن يرى نفسه ممثلا فى تمثال ، هو نفسه الذى يعضد كل مايصور أعماله وابتكاراته بقصدالدعاية . ويكلفسيبل بكتابة تاريخ «لتأسيس الريخ الألمانى على يد غليوم الاول» وتفتح له المحفوظات ليأخذ حاجته منها ، لكن بوخر يطلع قبله على المحفوظات ولا يسلمه من أضابيرها سوى « الخالى من الأذى والخطر » ، فيكون أن تصبح المجلدات السبعة التى صنفها ، بعد قليل ، عديمة القيمة تقريبا . ويقدم الى بسمارك هيزيكيل وبوش وغيرهما كتبهم قبل الطبع فلا يشطب فى صفحاتها فحسب ، بل يطلب الى مؤلفيها اضافة اشياء اليها ، ويوبخ أصحابها على مايسوءه منها . وهذه الكتب هى « مستشار ريخنا » وأضرابها ، بل ان بسمارك ليسلم هيزيكيل رسائل خاصة عنى باختيارها ، وسمح بنشر ماكتب منها عام ١٨٧٠ ، فى سنة ١٨٧٧

كان يقدر ، لكل ظل من الظهور ، تأثيره السياسى . فالرجل الذى شكا عاليا فى البلاط من أن وزير بلاط الامبراطورة لم يحيه ، هو نفسه الذى يرخى سدول القطار الذى يقله أثناء سفره فى النمسا حتى لايغضب زملاءه فى فينا بهتاف الجماهير المهللة فى وقت تكتنفه الازمات

الصحافة

ولم يبلغ أحد الى اليوم شأوه فى استغلاله للصحافة : فالاقلام الخاضعة لاتكف بالليل وبالنهار ، وبالحرف الواحد ، عن التحضير والايعاز والتلخيص والتكذيب : كيفية تحديده جرعات سمه ، ونسبته اخباره ومقــالاته الى

مصدر المانى أو حاضرة أجنبية ليؤثر فى الجمهور بأصوات ظاهرها الانصاف تصل الى برلين ، واملاؤه فى غرفة مكتبه مايلفقه عن نفسه كى تصدر هذه التلفيقات بعد ذلك عن ستوكهلم الى بوتسدام . كل ذلك يدبره تدبيرا يبلغ من براعته أن يقول فيه تيديمان الامين عن سيده انه « ابليس اكثر منه فاوست » . ولما شجعت أوغستا أرنيم سنة ١٨٧٢ أملى بسمارك على الدكتور بوش فى فارتسن مقالا عنوانه « رغبات سيدة سامية المقام فى تغيير المستشار » وحين يحتاج الى مناقشة نمسوية يدع بوخر بوصفه مكاتبا عرضيا لكولنيشه تسايتونج ينشر من ستولب فى بوميرانيا « خبرا من فعل الصدفة »

وفى سنة ١٨٧٤ والنزاع مع الكنيسة على أشده واتته مرة أخرى رصاصة أطلقت . وقبل ذلك ببضعة أشهر كان يفاخر فى الريخستاج بصوت ينم عن الاحتقار ، مخاطبا النواب : « لقد كان لى الشرف فى حياتى السياسية بأكملها أن أعدائى كانوا جد كثيرين . طوفوا بأنحاء البلاد من جارون .. الى الفستولا ، ومن بوغاز البلت الى نهر تيبر ، وفتشوا على ضفاف مايجرى فى بلادكم من نهرى الاودر والرين تجدوا أنى فى هذه اللحظة ـ وهذا ما أزعمه مباهيا ـ أبغض شخصية فى البلاد وأوفر الشخصيات نصيبا من الكراهية والبغضاء » وقد كان فى هذه اللحظة يجهل أن حدادا بلجيكيا عرض فى ذلك الحين على كبير أساقفة باريس رأس بسمارك لجهاده ضد رومه وأنه أضاف الى ذلك قوله : « انى مستعد لان أكون الساعد الذى يذبح الهولة اذا كنتم تعتقدون ان الله سوف يغفر لى ذلك ، واذا أعطيتمونى مبلغ ٦٠٫٠٠٠ فرنك اذا ماختم المارد سيرته اللعينة قبل انقضاء العام »

اعتداء مموق

وبعد ذلك ببضعة أشهر يطلق النار على مركبته فى كيسنجن شاب فلا يعدو أن يجرحه فى اصبعه جرحا خفيفا ، ثم يعلن الشاب انه من حزب الوسط ، فيسر بسمارك . ويستجوب أولا عدة قسس يظن أنهم أعانوا الرجل وأوقفوا المركبة ، ثم تبدأ حرب صحفية تستمر ستة أشهر وتنتهى فى الريخستاج . ويكون فى الريخستاج من حزب الوسط رجل يبلغ من خرقه أن يقول : ان رجلا نصف مجنون أطلق النار على البرنس بسمارك فأصاب الهذيان فريقا كبيرا من أمة المفكرين الالمان . عندها ينهض بسمارك ليلقى خطبة من أشد خطبه، لقد جرح فكل مشاعر البغضاء فيه تتدفق الآن فى خطبته :

« ان الرجل وقد حادثته بنفسى يملك كل قواه العقلية . وعندنا الى ذلك شهادات طبية . وانى أفهم أن يتهيب حضرة الخطيب السابق فكرة الاشتراك مع مثل هذا الرجل أيا كانت . كذلك أوقن انه لم يكن ليحدوه أقل رغبة فى أن يرى هذا المستشار ضحية مصاب كائنا ما كان ! انى مقتنع بأنه لم تداخله أمنية كهذه ولم تخطر له على بال . ولكن مهما قلتم عن هذا القاتل ، فانه متعلق بأذيالكم متشبث بأحضانكم يسميكم حزبه (ضجة كبيرة) . انى أقص عليكم الوقائع التاريخية فحسب .. فقد قال لى كولمان هذا ردا على سؤال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« لقد اردت قتلك من جراء قوانين الكنيسة .. فقد أهنت حزبى ! » (ضحك عال) ثم قال بعد ذلك امام شهود ردا على سؤالى : « انه حزب الوسط فى الريخستاج » . فى هذه اللحظة يرمى الكونت بالسترم المستشار فوق المنصة بصيحة : خسئا ! ولو طاوع بسمارك طبعه لنزل من فوق المنبر وبطش بالكونت، لكنه يزم حاجبيه ويهزمه بهذه الكلمات الهادئة : « ان « خسئا » تعبر عن الاشمئزاز والاحتقار ، فلا تعتقد أن هذه المشاعر لاتحدونى ، لكنى فقط أكثر ادبا من ان أبديها »

يوحنا

لقد لبث الاعتداء على حياته يشغله طويلا ، فهنا النقطة الوحيدة فى سيرته ، التى فكر فيها جديا فى الاستقالة . وقد كان فى أشد هياج حين أعلن الى بينجسن أنه سيستقيل الآن ، وانه أطلق الرصاص عليه مرتين ، وان البوليس يحذره كل يوم . « فليأت مستشار آخر يطلق عليه هؤلاء الكاثوليك النار ! اننى سأبلغ الستين فى أول أبريل . وعندئذ أتقاعد نبيلا من نبلاء الريف ! » وزوجه وأبنته تسعيان الى ذلك من قديم : فالآن تنسجم نفسيته ونفسيتهما

والواقع أن يوحنا فقدت فى هذه السنوات العشر نفوذها كل الفقدان ، فبدلا من أن تلطف حدته ، تقوى هى فيه كل انفجار للبغضاء . وفى جيل كامل لم تحاول مرة واحدة ، كما تروى كافة التقارير ، أن تتفادى من الصدوع أو ترأبها . فهى تحبه وتكره جميع الناس ، وهو عدو لكل انسان ، ثم هى تزداد فى ذلك مع السنين انفعالا ، فقد رآها اويلنبورغ مرة تحطم كوبا أثناء دفاعها عن زوجها . ولم تذهب الى البرلمان الا مرة واحدة ، ولم تطق فى هذه المرة البقاء ، فهى تذكر فى أحد تقاريرها أنها كانت خليقة أن ترمى النواب بأرجل الكراسى . لكنها حين تقول لكريسبى : « انك محق ، ان زوجى حقا رجل طيب » ، يبتسم ابتسامة السخر ويقول : « ليس هذا رأى الجميع »

ومايزال الى هذا الوقت يحذرها فى المناسبات فحين تخرج أسرته الى احدى الاسواق يقول لزوجه امام رجل غريب : « لاتبقين أكثر مما يبقى الملك . فليس يليق بكن أن تتسكعن طويلا فى الزحام » يقابل ذلك منها أن تربط له على المائدة وأمام ضيوف شرف من الأجانب رباط رقبته . بيد أنها تستبقى رقته نحوها كاملة ، فانه وان قضى أسابيع طويلة من الصيف وحده غالبا يكتب اليها مع ذلك بعد ثلاثين وأربعين سنة من زواجه يقول : « حبيبتى .. انى أخط اليك تحية الحب هذه » ، أو يبرق من فريدريكسروه : « انى لاأستطيع البقاء هنا طويلا من دون خيول ومن دون زوجة . سنعود غدا » . ويروقها الآن البقاء فى برلين اكثر من ذى قبل ، فصديقتها تعتذر عنها من الاقامة طويلا فى فارتسن فتقول : « ان هذا يرعب الأميرة ، فالوحدة المطلقة تؤثر على أعصابها »

منزليات

ويدهش المرء أن تتفق كل هذه التقارير عن وصف بيته العديم الشكل الذى لايوائم الروح والفكر . فلماذا يعيش رب هذا البيت الذى لم يكن فحسب أعز الالمان سلطانا فى عصره بل كان كذلك أهمهم شأنا وأعظمهم خطرا ، والذى كان رجل دنيا فى شبابه ، واليوم مايزال يباهي به محدثا وقاصا كل من يجتمعون به فى مجالسه الخاصة : لماذا يعيش فى الجانب الظليل من الروح ؟ ولو علم الناس من حياته هذا فحسب لحزر الناس انعدام الروح فى عصره

وليس يهم بسمارك من ناحية الجمال فى أى غرف أقام مادامت المقاعد مريحة ، وحين ينوه له بأثاث رون الجديد يقول : « ان الذين يعنون كثيرا بالاثاث الجميل يأكلون فى العادة أكلا رديئا » . هذا الرجل الهائل يجلس بعد المائدة على مقعد مديد وسط ضيوفه وبين أثاث عديم الذوق وديبلومات فخرية ملصقة بحوائط مورقة توريقا دميما ، وعلى كراسى من الموغنا مكسوة بالكريتون وفى غمرة من فوضى الالوان ، أو يستلقى ، مطبقا سترته حتى رقبته ، لابسا وبطة رقبة بيضاء بدل البنيقة التى تضغط على رقبته ، يربض كلبه عند قدميه ، يدخن من غليون طويل ويقرأ الصحف وهى ملقاة على الارض .

اختلاط

ويروى اويلنبورغ الذى ظل السنين يتردد على البيت ، يروى ان دائرته لم تعرف الاختلاط الدولى ، ولم ينقطع فى صالون بسمارك قط انفاس نبلاء الريف من صغار الملاك . « وتجد فى الصالون ضيوفا دائما تقريبا ، تجد عدا معاونيه ضباطا من الشبان يأتى بهم ولداه ، وأقارب معظمهم من النبلاء ، قد اختلط كل شيء اثناء تناول النبيذ والجعة والكونياك » صورة غريبة ولوحة جديرة بالملاحظة فى صالون اول ديبلوماسى فى القرن التاسع عشر ! دخان تتصاعد سحبه من غلايين المدخنين وتتخلله زينات باهرة من أثواب السيدات »

والحديث الذى يدور فى هذه البيئة يناسبها حين لايقص الامير شيئا او يعلق تعليقاته السياسية . وحتى وهو يفعل ذلك لايترتب عليه حديث فكرى ، بل ان احاديثه هو لتقاطع كثيرا فى فوضى الجماعة التى ليس لها ضابط . وتصويره للحظات التاريخية ، وبرقية امز ، والاعتداء على حياته ، وفرساى ، تتكرر فى كل تقرير وتعود على الدوام على كر السنين . وفى هذه التقارير بالذات يعرب عن الأسف على أن أمتع بيان لبسمارك كان يقاطعه ولد له ، أو خبر يعلن اليه ، أو طعام يتخلله . وفى عرس ابنته حين حضر جمع غفير من الناس كان اصحاب الدار ، كما يروى بسمارك بنفسه ، يطنون « كذبابتين رائحتين غاديتين فى فانوس مقفل ، ويتداخلون غير مدعوين ، ويوقعون الفوضى فى كل شيء »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لاقائمة للفكر

لايجوز أن يسأل أحد عمن كان يزوره من المفكرين فيما بين ١٨٧٠ و ١٨٩٠ من سنين ، فلم يزره منهم أحد . والوحيدون الذين يستثنون من ذلك هم الاخوان ليندااو اللذان احتاج اليهما بسمارك وكورتيوس وفيلدنبروخ . وغير ذلك قائمة أولئك الذين لم يدخلوا بيت بسمارك قط فى خلال عشرين عاما بينا كانوا يسيطرون من الناحية الفكرية على مجتمع برلين او يغشونه ، أمثال هايزه وشتورم وفيلبرانت وبراندس وابسن وبيورنسن ومنتسل وكلنجروبرامز وهلمهولتس وديبوا — ريمون ولانجنبك وروبرت كوخ وهرمان جريم واريش شمت وشيرر ورودنبرج ورانكه وفونتان : لا أحد . ولا تسل عن دائرة خصوم بسمارك أمثال فيرشوف ، وفرايتاج ، وومسين فليس من يذكر منهم فى هذا الصدد. ولما أحضر لانجبين (رمبرانت الالمانى) الى الاميرة يوحنا قصة هيبريون من تأليف هولدرلين وقرأتها قالت له بعد القراءة : « ما أكثر ماضحكنا ! »

ولا يطعن هذا الشذوذ فى ما لبسمارك فى شيكسبير وجوته وشيلر وبيرون من نظرات عميقة شهدت بها رسائله ايام الشباب . وانه ليبدو هنا ومن مئات الأحاديث المأثورة عنه التى ليس فيها مما يتسم بالفكر دستتان — يبدو أن هذا الرأس الحافل بالخطط ، وهذه الارادة المشتبكة فى النضال كانا يتحاشيان الاختلاط برجال ليس من ورائهم طائل من عمل أو غرض أو حزب ولا يجلبون حتى العداوة ، ويتجنبانه لاسباب ترجع الى الصحة كما ترجع أيضا الى الاوتقراطية

وعواقب ذلك وخيمة . ذلك أن من يظل ثلاثين عاما لايقرأ جديدا ، ولايتلو أحيانا الا أشعارا لهينه وبيرون وأولاند وريكرت ، ويعتزل من الناحية الشخصية أيضا كل حركة غير سياسية تقوم فى بلاده ، سيكون من أمره ان يحكم هذه البلاد على مر الايام بأسلوب يزداد يوما عن يوم بعدا من الفكر ، وان يجدد فصل الدولة عن الفكر فى الاقطار الالمانية ، وأن ينكر حركات أوربا الكبرى الثلاث وهى الاقتصاد العالمى والكنيسة والاشتراكية . وأن يحاول عبثا مواجهتها بتكاليف لمصلحة الحاكمين . ولقد كان الملك الهرم يرى مع ضيق ذهنه ويسمع اكثر مما يرى بسمارك ويسمع عن مسائل العصر ، وهو الذى يستطيع رأسه فى العادة ان يلم فى حديث من احاديث المائدة بأهم الامور ويدبر شئونها على جناح السرعة . وقد اتحد كسل أسرته مع رغبته فى الراحة ووراءهما ، فاذا شاءت اعصاب الديكتاتور المتوترة دائما ان تزداد توترا وجب ان يحدث ذلك على حساب الفكر الالمانى . ولو لم يكن ثمة سبب لتحفظ بسمارك لتحفظ من تلقاء نفسه ، ذلك ان العلماء الالمان كانوا فى ذلك الاوان مايزالون يتهيبون الضباط واصحاب السعادة ، وتبدو لهم دربتهم اهم من دربة الدولة . وقد حكمت بعض الرؤوس الهامة الملمة بالتاريخ أحكاما على بسمارك فى ذلك الحين نوردها فيما يلى :

أحكام

برانديس : « ان بسمارك سعد على المانيا وان لم يكن محسنا الى الانسانية . وهو لالمانيا كالنظارة البديعة القوية لقصير النظر : يسعد المريض ان يجدها لكنه يشقيه كل الشقاء أن يحتاج اليها »

بوركارت (١٨٧٧) : « ان استعفاءه وعودته يدخلان فى الروع أنه لم يعد يرى مايفعل . وقد أخطأ الحساب فى كل المسائل الداخلية الكبرى .. ومن الممكن اذا نشأت ضائقة أوربية كبرى من جراء الحرب التركية المنتظرة أن يسيطر على الموقف مرة أخرى ، لكنه لم يعد يستطيع معالجة مسائل الريخ الداخلية »

فونتان (١٨٨١) : « ان زوبعة تتجمع تدريجا فى الشعب لتهب على بسمارك ، وهى قائمة فى الطبقة العليا من أمد طويل . واجراءاته ليست هى التى تقضي عليه ، بل ظنونه السيئة . وهو عبقرى كبير لكنه رجل صغير » . وفى سنة ١٨٩٣ : « لابد دائما من استذكار العمل الهائل الذى أداه ببراعة ليتجنب المرء التأثر بما يصدمه من متناقضاته الذريعة . انه أعظم شخص ممتع يمكن ان يخطر بالبال ، ولست أعرف من هو اكثر منه امتاعا . لكن هذا الشغف الدائم بخديعة الناس بغيض فى الحق الى . واخضاع كل شىء فى النهاية للغاية التى يسعى اليها نظرية مخيفة » . وفى سنة ١٨٩٥ : « هذا المزيج من الانسان الكامل والخب المخادع .. ومن البطل الالهى والقوال الذى لا يكدر غرفة ماء ، يحرك فى مشاعر مختلطة ولا يبعث فى اعجابا خالصا جليا . هذا المزيج ينقصه شىء ، ينقصه بالذات مايكسبه العظمة حقا »

نيتشه : أنشأ عندما رأى مبذلة نوم يقول : « ثاب الألمانى ذات مرة الى رشده على الرغم من مظهره الرث . ويحه ! كيف تم هذا الانقلاب ! ثم كان أن زرت من حوله ملابسه باحكام فتجرد لخياطه بسمارك من العقل والرشاد »

ومع ذلك فبسمارك هو الذى عرف عن المؤرخين اشياء عميقة جدا : «هنالك منهم طبقتان ، الأولى تجعل محيط الماضى صافيا ترى قاعه ، والأخرى تكدره ، ومن الاولين تين ومن الآخرين سيبل » هذا على الرغم من ان سيبل مجده وتين هاجمه . وقد تبين أعظم المؤرخين فى قرنه بثاقب نظره فهو يقول : « ان المؤرخين ينظرون كذلك دائما من خلال نظاراتهم الخاصة : وانى لأكبر كارليل لأنه يفهم أن يطلع على خفايا النفس عند الآخرين »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل العاشر

فريدريكسروه

كان قصر فريدريكسروه فندقا فيما مضى ، فعندما كان الهامبورغى يتوجه فى ايام الآحاد الى غابة سكسونيا كان يبيت ويأكل حيث كان بسمارك فيما تلا من الزمان يقضى جانبا كبيرا من ايام حكمه كمستشار ، وحيث مضى سنيه العشر الاخيرة كلها تقريبا . فقد كان ميله الى سكنى القصور يضعف مع الايام بانتقاله من شينهوزن الى فارتسن الى فريدريكسروه ، بينما كان السيد يرتفع مع تعاقب منازله من بارون الى ان بلغ مرتبة الامير . وحين أبى أن ينشىء فى هذه الغابة الجديدة قصرا ، ولم ينهض بهذا الفندق العتيق الذى ظلت فى عهده أرقامه القديمة قائمة فوق الغرف ، كان ذلك داعيا للتساؤل مع ذلك ، لماذا وهو الفخور بأجداده لم ينفق المال ويبدى الميل الى توسيع بيت أسرته . وقد تخلى عن كنيبهوف الذى كان يعود بالذاكرة اليها آنا بعد آن ، ولم يكن يحب فى الدنيا سواه ، مع انه كان فى مكنته أن يسترده من أسرته ، وقصر شينهوزن مسقط رأسه قد ظل ملكه على الدوام . وقد كانت هامبورغ حين انتقل الى جوارها غريبة عليه ، وكان نزل فارتسن كنزل فريدريكسروه رومانتية ووحشة ، ومثله تفاهة ، ولكنه لم يكن شرا منه ، وقد كان أيضا يوزع صيفه بين القصرين والضيعتين

وطن بسمارك

كان حنين بسمارك قاصرا على بوميرانيا ، وكان شعوره الطبيعى يتناول البقاع الشمالية ، وكانت الغابة وطنه ، فهى حبيبة اليه فى المجر والروسيا والدانيمارك . وقد استشعر الاطمئنان فى غابة سكسونيا من اول يوم ولم تعد غريبة عليه ، فهى عنده كفارتسن المعروفة لديه . وفى الغابة يتجرد بسمارك عن الغرض . ويجد اليوم كما كان يجد فى أيام الصبا مايعبر به عن هذا الهوى والشغف فيقول :

« أحب الاشجار الباسقة فانها كذلك اجداد .. ولو لم أحب الشجر هذا الحب ماعلمت كيف كانت حياتى خليقة ان تكون . والغبطة بالطبيعة هبة من عند الله لايملك المرء ان يهبها نفسه أو يحرمها اياها . والانسان الذى لايحب الطبيعة أكاد أسىء به الظن .. وحين أنام نوما هنيئا أحلم بغابات الصنوبر

التى لاتناتها فأس الحطاب ، والتى تقوم فى الربيع منعشة خضراء ، تنبت فوق نبتها وهى مبللة بالمطر .. عندئذ استيقظ منتعشا .. هنا يستطيع المرء التسكع فى المركبة والتكاسل فوق المقاعد ساعات يحملق فى الخضرة ، لاتساوره أفكار ولا يدركه سأم » ، بل تساوره الافكار ، اذ يعترف ذات مرة فيقول : « ان أهم القرارات قد أصدرتها فى وحدتى ، فى قلب الغابة »

وتفقد فى الغابة وحدها عداوة بسمارك لبنى الانسان هدفها ، فكل مايمكن أن يسخطه هنا حطب شجرة فى غير ماضرورة . وحين يرى أجيرا شتاما يهوى بعصاه عند حافة الغابة على خيول الحرث ، يترجل عن جواده ويلهب الاجير بسوطه . وهو يباحث كبير حراث الغابة فى كل شجرة : « ماذا ؟ جفت أعاليها ؟ انى كذلك قد ذبلت ناصيتى » ويعرى رأسه الاصلع . ولعله ليست فى حياته صورة اجمل من صورته حين تراه مع ولديه فى غابة فريدركسروه يطلقون بنادقهم على ماجف من أعالى الشجر فيسقطون أوراقها الذابلة ليخدعوا الحارس : فهو ، من يرتعد من أوامره كل شىء وكل انسان ، يلجأ الى هذه الخدعة ليحمى الشجر الحبيب اليه من موظفه . بل انه ليكف تقريبا عن الصيد ليبقى على التيوس الجبلية ، ويقول لمن يسأله من ضيوفه وهو يأبى تناول شىء من لحم الصيد انه لايحب ان يأكل صيده ، لكنه يدع ضيوفه يصيدون

قصائد

ولا رومانتية فى هذا تقريبا . فكله تبين اذا نظر الى الشىء على حدة ، لكنه تبين بادى الحب لاالنقد ، كما يفعل حين ينظر الى العصر . وحقا أنه ليعلن أنه يحمل فى فريدريكسروه نظارة لأن كل شىء فيها يهمه ، ولا يحملها فى برلين لأنه ليس هناك مايهمه . لكن الحقيقة هى أن نظارته أضعف هنا وأن روحه مسالمة . ويكتب فى سنة ١٨٧٠ الى زوجته هذه القصيدة الواقعية :

« ان الأحوال هنا جميلة جدا ولو أن الزيزفون متأخر عن برلين ثلاثة أيام والبلوط ستة . والخوخ البرى هنا كما هو فى برلين .. لا بلابل هنا ، بل بل ذوات الأعناق البيضاء وزرازير وما شاكلها من طيور لاحصر لها ، أذكر منها الوقوق الذى لم أكن سمعته فى برلين . وقد سألته : كم يبقى من تغريداته ، فأجاب المداهن : ١٢ ، وكانت الاخيرتان منهما واهنتين . ان تيار الماء الذى يدير الطاحونة قد خيب الآمال ، لكنه يسر العين ان تراه . والمستنقع والعفن والماء الذى كان من قبل مختلطا بطبيعته قد حوله الفن والمال بضع مئات من الخطوات الى اعلى ، وازدادت مساحة الماء الصافى زيادة كبيرة . والطاحونة تطحن ، لكن الطحن يتخلل كل شىء . وفى سيلك ... سنابل الجاودار هزيلة شيئا ما ، والشعير بحاجة الى مطر اكثر ، والاجير يشكو ، .. وقد باتت برك الشبوط بهجة للعين ، وعادت الغرائس الجديدة تتأصل فى الارض ! اكمل الله عافيتك فى القريب ! »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العدل

بل ان بسمارك ليحدوه فى الغاية الانصاف ويكون عادلا . فانه وقد سمع فى فارتسن عن سرقة حيوان الصيد يركب لمجرد الاشتباه الى الطحان الهرم فى طاحونته مستصحبا ضيوفه ويسبه سبا شديدا ، ويعود اثر ذلك ادراجه الى البيت ويستدعى كبير حراس الغابة فيذكر له الحارس ان الطحان الهرم لايملك بندقية وانه فقد ابنه فى ميدان القتال . ويسمع بسمارك ذلك فيطرق لحظة وهو فى أشد التأثر ، ثم يقول : « اذن فلينتظر الطعام ، وانتم ايها السادة تكرموا مرة اخرى بالركوب معى » . ويعود الى الطاحونة ، لكن الشيخ لايخرج اليه ، فيترجل بسمارك عن المركبة ، ويدخل على الشيخ يصحبه ضيوفه ، ويعتذر اليه من اهانته . ولا شبيه لهذا فى الكثير مما بدر من بسمارك من اساءات لموظفيه : فالحادث هنا وحيد فى حياته . فهو هنا يصون شرف تابع له لايستطيع الدفاع عن نفسه ، ورجاؤه اياه ان يغفر له اساءته يؤثر تأثيرا عميقا فى جميع شهود الحادث ، ويريح ضميره فى نفس الوقت من كل حالة مماثلة أخرى ، ذلك أن طبيعته البروتستانتية تجعل كل بادرة تبدر منه تالية لتفكيره ، ولابد ان بسمارك قد اطال التفكير بالليل فيما صدر منه لوزراء او خدم مستشارية او حراس غاب أو أمراء رفع عليهم الدعوى أو أهانهم ، وان تفكيره فيهم كان اطول مما ظنهأحد ممن اساء اليهم ، ومما كان خليقا هو ان يعترف به

كيف يمر اليوم

أما ماظل بسمارك محافظا عليه الى أخريات حياته وأرذل عمره فهو استقباله الناس على عتبة داره استقبالا رسميا بل حفيا : وكلهم سواء أكان الضيف وزيرا ام جارا من الملاك أم امرأة القسيس أم أميرة فايمر يصفون استقباله وصفا واحدا ، فهو فيه عظيم ، كيس . وبسمارك لم يمد يده لاحد قط وهى فى القفاز ، بل هو ينزعه ويقدم يمناه . أما فى داخل الدار ، وفى غرفها غير المرتفعة السقف ذات النوافذ العريضة المنخفضة فتجرى حياة الاسرة مع ضيوفها عديمة الشكل ، فالمرء يجلس هنا يحتسى كل أنواع الخمور على موائد مضموم بعضها الى بعض تغطيها مفارش ذات مربعات ومن حوله كؤوس موضوعة حيثما اتفق وطقاطيق للرماد وصور . فاذا ساد السكون البيت كتب الى زوجه يقول : « ان ادلهيد تقرأ عن ايطاليا وهربرت يكتب الى جانبها ، وتيراس يقضم عظمة ضخمة ، وابريق الشاى يطن » . وقد عمل تيديمان عند الامير هناك اسابيع فهو حين ينزل فى الساعة الثانية عشرة لايجد عادة سوى الأميرة « التى تكون فى هذا الأوان قد نهضت من نومها » . ويظهر بسمارك حوالى الواحدة ويدع مستشاره يعرض عليه ماهنالك وهو يفطر ، ثم يركب الخيل غالبا ساعتين الى أربع ساعات مصطحبا ابنه أو ابنته يمضى خطوا أو خببا ، ومعه تيديمان يحمل كراسة جيب مربوطة فى زر سترته ليسجل فيها مذكرات الامير . وكثيرا ماتنجز أهم الاعمال اثناء ذلك ، فاذا كانت نصف

الساعة الاخيرة من الركوب أسرعوا . ويربض على مقربة من الامير بضعة من رجال الشرطة السرية منذ وقع الاعتداء الاخير على حياته ، ويتبعه أحدهم دائما : ولابد لبسمارك من احتمال هذا الواحد ليدفع بذلك فى عزلته أيضا ثمن السلطان . ويتناول فى السادسة الغداء « أربعة ألوان دائما واليها الشمبانيا ونبيذ المائدة والبورت .. وانها لمتعة ان تراقبه وامامه طبق فيه أكباد الاوز وقوانصه وقلوبه . وقد قال مرة عن السرطانات ان لها لازمة غريبة هى انها تصغر كلما دار طبقها على الضيوف » . فاذا كان بعد ذلك فى الصالون الكبير الى نار الموقدة يدير الحديث كان من ذلك « أمتع ساعة من ساعات اليوم فهنا يميط اللثام عن أخفى أفكاره فلا يمل الرواية عن ماضيه .. فاذا كانت الساعة ٩ انتقل الى مكتبه ، وعندها يبدأ أوان عملى . ولابد من انجاز كل شيء حتى منتصف الليل . وفى منتصف الساعة الواحدة نأخذ فى تناول الشاى عند الاميرة ونقضى ساعة »

أعمال

ويخرق هدوء الغابة الى جانب العمل المصلحى سخطه الدائم على تزايد النفقات وتناقص الايراد . ففى برلين ، حيث يتقاضى مرتبا قدره ١٨٠٠٠ ريال يحتاج حسب مايقول الى ٥٠ ألفا ويشكو من المصروفات التى يستلزمها اللقب والهبات : « لقد كنت حسن الحال قبل ان اتلقى الهبة الاولى ومن ذلك الحين وفارتسن تستنفد كل شيء . ولست أملك قرشا واحدا فيما خلا مرتبى وأيجار شينهوزن .. وكل مايدره الايجار ينفق هنا ولا يكفى . والمستقبل كفيل بتيسير الامور ، وان كنت لاأعلم هل يجلب دخلا حسنا . أما الهبة الثانية (فريدركسروه) فقيمة جدا ، لكنها لم تدر على الى اليوم سوى ٨٥٠٠٠ ريال تناولتها لاشترى بها قطعة ارض للجار فى أرضى ، وهى البقعة الوحيدة التى يمكن ان أقيم فيها اذا لم أرد أن أقيم فى قصر ملعون من قصور الصيد فى غابة قاحلة » . وقد طالما شكا الى اخيه من انه يكاد لاينتفع بحبوب فارتسن وان الخشب فى غابة سكسونيا لايدر شيئا ، وانه يتكلف فى السفر بمركبة الصالون أكثر مما يتكلف من قبل ، « ذلك انى ملزم بكل الاصلاحات ، آجر عليها رجلا من رجالى اجرا سخيا ، لانه من سوء حظى أنى أمير .. فبقدر ماكنت أرتاح الى ان يكون ولداى نبيلين هانئين من نبلاء الريف ، كنت أكره أن يكونا أميرين لايكفيهما دخلهما »

وهو فى هذا يؤجر مصانع الورق فى فارتسن بثمانين ألف ريال فى السنة ، ومصنعا للبارود على ضفة الب باثنى عشر ألفا وتدر عليه فريدركسروه ٣٤٠٠٠ « وهذا دخل حسن لكنه يجب ألا يكون المرء معه أميرا . فان هذه الامارة مما لااعتقد أنى سأعتادها » . وبعد ذلك تأتى يوحنا وتشكو الى زوجها المبتسم فى حضرة صديق من أصدقاء البيت من أن لها ساعة وهى تبحث فى كراسة التدبير المنزلى عن عجز قدره أحد عشر ماركا وخمسون فنجا

وحين تجمع فى عيد ميلاده المتمم للسبعين التبرعات فى المانيا بأسرها لتقديم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« هدية الى بسمارك » يحدث هذا بزعم أنه يراد أن يقدم الى بسمارك « مبلغ من المال لأغراض قومية » ، فيتبرع مئات من صغار المواطنين بقليلهم ويحمل أصحاب المصانع الغيورون آلاف عمالهم على التبرع ، ويدر الجمع أخيرا مليونين ونصف المليون . وفى قرار رسمى أعده بسمارك نفسه يتكلم الملك عن « مليون ومائتى ألف مارك توضع تحت تصرفك فى يوم ميلادك لاغراض عامة . وانى ليسرنى اجابة لطلبكم أن أخولكم بهذا أن تقبلوا ذلك المبلغ المذكور فوق ، والمبالغ المنتظرة التى لم يسفر عنها الجمع بعد فى الوقت الحاضر ، وأدع لكم ابلاغى فى حينه ماتنعقد عليه نيتكم فى استخدام هذا الاكتتاب » . توقيع غليوم وبوتشر

لحظة ضعف

بيد أنه بعد مراجعة المهدى اليه تشترى لجنة الاكتتاب بمبلغ مليون ونصف مليون بضع ضياع حول مقر الاسرة فى شينهوزن ، ويقدم اليه الدوق فون راتيبور فى يوم ميلاده حجة ملكية هذه الضياع « التى كانت من قبل ملكا لاسرة بسمارك ثم ضاعت منها على مر الزمن » ، ملكية خالية من التكاليف

وقد اثار هذا دهشة عامة ، وان كان المهدى اليه قد خصص من مبلغ المليون والمائتى الف المارك الاولى حصة فى شينهوزن ليؤسس بها معهدللمتقدمين لوظائف التدريس العالى . اما القول بأن الامة قد استردت لزعيمها مقر اسرته فلا يجد من يصدقه لان هذا المقر لم يفقد قط ، وحتى تلك الضياع التى تخلى عنها آباؤه من أمد كان يمكن الامير الذى قدمت اليه الهبات مرتين أن يستردها بالشراء من ماله . وقد كتب لوسيوس يقول : « ان استياءا يسود الجمهور من هذا القول ، ويرى الكثيرون انه كان خليقا بالامير أن ينشىء بالمال مبرة كبيرة » . لكن الامير يعود من جديد فيستشهد بالانجليز الذين قدموا لابطالهم اكثر كثيرا مما قدم له ، وينسى أو أنه لايعرف خيبة أمل الفقراءالذين لم يدر بخلدهم الا ان المال المكتتب به ستنشأ به مؤسسة خيرية . وبقدر ماكان الملام الذى وجهه اليه ابناء عمومته فى السنين السبعينية قدحا فيه وتشهيرا به ، كان الاجراء الذى اتخذه فى هذا الشأن ضارا به ومن عمل يده

فهذه لحظة ضعف فى حياة بسمارك

انه فى الريف يسعى دائما الى تهدئة الاعصاب والاعضاء أو شفائها ، لكنه بافراطه فى الطعام والشراب يجعل أعصابه وأعضاءه أسوأ مما كانت . واذا ما ألزم الحمية رآه لوسيوس بعد تناول الحساء يزدرد سمكة دسمة وقطعة محمرة من لحم العجل وثلاث بيضات من بيض النورس ، ويذوق الى ذلك عدة ألوان من نبيذ بورغنيا . واذ كان يزعم أنه ينام بعد الاكثار من شرب الجعة ، فانه يأكل من البطارخ ومن المآكل الحريفة مايجفف حلقه ويصديه لتناول الجعة . وحين يشكو من سوء الهضم ومن فقدان الشهية ومن النورالجيا يسجل عليه هوهنلوهه ، وهو ضيف عنده ، هذه الاصناف التالية التى أسرف فى الأكل منها وهى : الحساء والسمك واللحم البارد والكابوريا

والمحار واللحم المدخن ولحم الخنزير النيء والروستو والبودنج .. لكنه حين يطرى مظهره الحسن يجيب بقوله : « تمنيت لو ساء منظرى وأحسست فى ذلك أنى خير مما انا .. ان هذا بالذات .. هو شقائى ، وهو أنى لاأجد ابدا من يعطف على ! هذا الضغط فى دماغى حتى ليخيل الى ان كل مايحتويه ماهو الا هلام .. والدم سائل عظيم القيمة لكن العصب خيط حيوى أعظم قيمة نشد فيه بأيدينا واسناننا نحن المخلوقات المسكينة »

شفيننجر

والسبب فى ذلك هو الاوتوقراطية ، فهو يقول : « لقد كنت أنا الذى أعالج كل الاطباء السابقين أما اليوم فأجد أخيرا طبيبا يعالجنى » . آنئذ وهو فى الثامنة والستين من عمره كان كثير التهيج ، متعبا مع ذلك تعبا شديدا ، وكان يعانى الصداع ويكابد ألما فى الوجه ، لا يغمض له جفن ، وتعذبه أمعاؤه ، ويعانى ورما فى الساقين ، يقطع الاطباء وهو يزن ٢٤٧ رطلا ، الامل فى شفائه لسرطان فى المعدة والكبد . ويفحصه أرنست شفيننجر ، طبيبه بل صديقه ، فى فارتسن ويرد على ذويه حين يسألونه بقوله : « اذا استمر الامير على هذا الحال من التهاون فسينهار بعد ستة أشهر » . ويسأله المريض نفسه بعد هذه الكلمات المدهشة الاولى فيجيبه بقوله : « لا أستطيع أن أبدى كلمات سر ... أو أعالج أمراضا مزعومة » ، فيعجب بسمارك هذا ، فان أحدا لم يتكلم معه على هذا النحو : ههنا رجل !

انقاذ

وفى برلين يبدأ أحد الرجلين العنيفين علاجا مع الآخر لم يسمع به ولم يره ، اذ يرغمه على النهوض فى الثامنة ، ومزاولة الرياضة ، والاكتفاء بالرنجة يوما كاملا . وحين يصيح بسمارك : « انك مجنون ! » يرد عليه شفيننجر بقوله : « اذن استدع طبيبا بيطريا يا صاحب السمو ! » ويمضى . فهذا المشهد الذى طالما رواه شفيننجر قد قرر سلطته على ذى السلطة : فبسمارك يذعن . ويظل الطبيب الجديد أسبوعين لا يغادر دار المستشار ، ينظم له أكله وشربه وقيامه وقعوده وعمله ونومه تنظيما صارما ويسهر عليه . ويطرأ التحسن الحاسم بعد أسبوعين ، ويخرج شفيننجر لأول مرة ، فما ان يكاد يفعل حتى يطلب المريض « نصيب ثلاثة رجال من الصحيرة » فيتناوله فتتشنج معدته ويفرز الصفراء وينتقل الى فريدريكسروه ، ويراقب السجين من جديد ، فلا يفارقه الطبيب يوما واحدا حتى فى كيسنجن وجاشتين . ويبل المريض من مرضه بعد شهرين ، ويعترف نفسه بأنه يعود شابا الى عمله المضنى

لقد أنقذ شيفننجر حياة بسمارك لأنه لم يدعه يؤثر فيه بل أثر هو فيه ، ولو فعل غيره من الالمان فى غير ذلك من الميادين مثل الذى فعل لما وجدوا بسمارك دائما صعبا لا يلين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الحادى عشر

ترى متى استمتع الرجل الساخط دائما فى سن الشيخوخة هذه بالحياة ؟

حين ينظر الى أولاده الذين يغفر لهم كل شيء ويسمح لهم به الا أن يخرجوا شخصيا عن الحد وحين يرى صديق الصبا ويحتسى الخمر . وانه ليدل على مبلغ ايثاره الخمر على مظاهر التكريم ذلك الخاطر البالغ الجرأة الذى أوحى اليه بتركيب كافة أوسمته الروسية على دورق كبير من الفضة ، وكان يملك من كل وسام اثنين ، فأثار ذلك استياء الامبراطور . وانه ليقول ان لكل امرىء نصيبا معينا من النبيذ والطباق « فانى أختص نفسى بمائة ألف سيجار وخمسة آلاف زجاجة من الشمبانيا » ، واذ يضحك أحدهم عند سماع هذه الارقام يحسب له بسمارك ذلك

الصديق

ومن أصدقائه كيزرلنج الهرم ، وهذا يكاد لا يأتى اطلاقا . « ان كايزرلنج هو الانسان الوحيد الذى استشعرت الخوف من عقله أحيانا » . فهو بهذا المديح الغريب يجعل نفسه بمنأى عن صديقه بعض الشيء . وذلك ما يحسه صديقه الأحكم منه فيظل عشر سنوات لايزوره فى الريف ، ذلك أن «بسمارك قد بات حقا .. ذا سلطان فاذا لقيته اتفاقا فهو أشد الاصدقاء وفاء وودا . أما أن أقصد اليه لتزجية فراغ فما لا تسمح به لحظة من وقته لانها أهم من أن تسمح بذلك »

لكنه حين يأتى موتلى فهذه أسعد أيام بسمارك دائما ، ويأتى أول ما يأتى بعد غيبة ثمانى سنوات فى صيف سنة ١٨٧٢ اذ يكتب اليه بسمارك يقول « لما رأيت خط يدك باتت دهشتى أروح لنفسى مما كانت حين حزرت قبل فض خطابك انه يتضمن وعدا بالزيارة . فمرحبا بك ألف مرة . فأول يوم تستطيع التصرف فيه هو خير يوم تجيء فيه لزيارتنا » . ويعين له بالدقة القطر التى يجب أن يستقلها الى برلين ومنها . ويمكث موتلى أسبوعا ويقضى معه بسمارك كل يوم أربع عشرة ساعة : وهذا ما لم يصبر عليه بسمارك فى حياته كلها مع أحد .

ويبعث الصديق الى بلاده يقول : « ان بسمارك بات أقوى بعض الشيء مما كان ، وأصبح وجهه أدل على العناء لكنه ما يزال قوى التعبير هائلا

كسابق العهد به ، وهو يحكى ماردا ، بيد أن صحته قد اضمحلت . وهو لا يستطيع النوم قبل الرابعة أو الخامسة .. يتحدث فى نزهاته طيلة الوقت على أبسط نحو وأمرحه وأشده امتاعا عن كل ما وقع فى تلك السنين المزعجة . لكنه كان يتكلم عن هذه الحوادث كما يتكلم العاديون من الناس عن العادى من الاشياء ، من دون تصنع ، فهو بسيط من فرعه الى قدمه يدع المقادير تجرى فى أعنتها حتى ليقولن المرء لنفسه طول الوقت : هذا هو بسمارك العظيم .. هذا هو أعظم حى على وجه البسيطة .. ليس فى كل ما أعرفه عنه ، حقيرا أكان أم خطيرا ، بالمتكلف وحقا انه لم يعش على وجه الارض فان على سجيته وعلى هواه كما يعيش » . هاهوذا تأثير رجل حكيم ، حر ، مرح يبدو مرة أخرى فى هذه الزيارة الاخيرة ، اذ كان موتلى يومئذ لا يفصله عن الأجل سوى بضع سنوات ، وكان رجلا لا يبغى من صديقه شيئا . ومن هنا يتبين المرء من جديد لماذا لم يستطع أحد من طبقة بسمارك ، لا زوجه ولا ولداه ولا أخوه ، ولا من هو أقل من هؤلاء استطاعة وهو رون ، ولا أحد غيره من معاونيه ممن هم فى مرتبته ــ لماذا لم يستطع أحد من هؤلاء أن ينعش هذا القلب المثقل كما أنعشه موتلى ذلك الابن والممثل لجمهورية بعيدة وقارة غريبة

الكلاب

لقد كان أصدقاء القلب من صحاب بسمارك بكما . وبعداوته لبنى الانسان كان حبه يتزايد للكلاب التى صاحبته العمر كله ولازمته أطول مما لازمته زوجه نفسها . فمن كل المحادثات والمذكرات ، وبين الخطط والقرارات والأوامر ، وفى ولهلمشتراسه والغابات ، وفى الأوقات العصيبة وأيام العز : كانت رؤوس هذه الكلاب الغبراء أو السوداء تطل . وكانت تشبه سيدها ، اذ كانت أيضا ضخمة عصبية ، وكانت جريئة خطرة . وهى ترقد فى روضة فارتسن فى صف طويل ، وفى بقعة حسنة المنظر ، الى جانب جياده العزيزة عليه ، تبلغ الثمانية عدا . وهذه الكلاب هى المخلوقات الوحيدة التى لايصبر عليها بسمارك كما يصبر على الاطفال فحسب ، بل يهدئها بدلا من أن يثيرها واذ كانت هذه الكائنات لا تريد منه شيئا ، ولا تقاومه أبدا ، بل تلزم الصمت دائما ، وتبدو وكأنها تفهم كل شىء ، فان قلبه يعلقها أكثر مما يعلق غيرها من سائر المخلوقات . « انى أحب الكلاب ، فهى لا تنتقم قط ممن أساء اليها » . كلمات يكشف بها فى أرزل العمر عن كيانه هو أكثر مما يكشف عن كيانها

وحين يرى ربيكا الصغيرة عصية لا تطيع يعاملها كما يعامل فتاة مدللة ، فيضحك من مكرها ودلالها ، وحين « تنطلق فلورا فى الغرف كالمجنونة » أو يعطل «سلطان» الحديث ، يتركهما سيد البيت وأهله على حريتهما . وحين تثير أعصابه محادثة مصلحية يمسح بيده على رقبة ناعمة لكلبه وهو رابض عند ركبته ، أو حين ينتظر الكلبان صابرين تحت مائدته فى فريديكسروه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معتمدين رأسيهما الكبيرين على مخالبهما الامامية ، لكنهما يرفعان بصرهما الى سيدهما بين الحين والحين ويديران رأسيهما نحوه حيث كان ، حين يكون هذا مسلكهما وينهض سيدهما ويتناول عصاه المصنوعة من خشب البلوط ، فانهما يبصبصان له عندئذ بذنبيهما ، اذ يدركان أنهما سيصحبانه الآن الى الغابة . وحين تشكو له يوحنا من أن المنجد قد جعل الستائر أطول مما ينبغي يثنى هو على المنجد اذ يكون بذلك قد ترك موضعا للكلاب تنعم عليه . فاذا تردد بين التوجه فى الصيف الى جاشتين والبقاء حيث هم ، فصل « سلطان » فى الأمر اذ يكون عندئذ متوعكا لا يحتمل عناء السفر . ويرعب بعض الكونتات المتأنقين وهم على المائدة أن يطلب رب البيت قطعا كبيرة من اللحم يرمى بها الى كلبيه عبر الغرفة

تيراس وغليوم

وفى الديوان يستخدم بسمارك هذه المخلوقات الحميمة ككل ما يملك ويستطيع ، ويحب أن يستخدمها فى تعظيم تأثيره السحرى فى النفوس ، ذلك التأثير الذى لايصطنعه فحسب بل ينمقه ، فانه عندما ينهض واقفا ، وينهض فى نفس الوقت هذان الكلبان الهائلان معه ، يحدقان بالسائس الخطر ، بينما يتقدم هو لاستقبال زائر ، يعرف كيف ينتفع بذلك . وكذلك يطمئن الى غريزة الكلاب ، ويعلن أنها أعقل من الخيل . وعندما يرضى « سلطان » عن مدير جديد ، اذ يتشممه أولا ثم يضع رأسه على ركبته ، يرتفع الرجل فى الحال فى نظر الامير « ذلك أنى أحترم معرفة الكلب بالانسان احتراما كبيرا فهو أسرع وأعمق ادراكا منى ... فأهنئه »

وهو لم يغفر على عكس ذلك موقف ملكه من كلابه على التحقيق . ذلك أن القيصر وهو صديق كبير للكلاب لما أطرى الكلب تيراس لخاله غليوم وكان قد عرف الكلب ، أبدى الامبراطور الرغبة مجاملة له فى رؤية هذا الكلب أيضا . فاستدعى تيراس وسلك الكلب مسلكا جديرا بالاعجاب ، فعامل الامبراطور فى منتهى الرقة ، فقال الامبراطور على أثر ذلك : « كلب جميل ، لكن له للأسف أذنين مبتورتين ككل الفطس الصغار ! » وكان هذا القول كارثة

موت سلطان

وكان سلطان ، وهو هدية من أمير مراكشى ، أجمل هذه الكلاب ، لكنه لم يكن يجور لأحد أن يناديه الا بأيها السلطان الصغير والا حدثت ، كما يقول سيده ، اشكالات مع تركيا . والكلب عدا ذلك لم يكن شرقيا ، ذلك أنه لما قيد ذات مساء فى فارتسن عند اللقاء « أساءه ذلك الى حد أن جعل يقفز فى سلسلته ويفترس الخشب السميك حتى علق دمه بالشظايا المتناثرة ، ثم انطلق يطلب الفضاء . ومن ذلك الحين والغابات سليبة الأمن بوجوده . وما يزال فى تلك الجهة ، وآمل أن نجده ثانية . وقد ركب بيل وفيليب

للبحث عنه ، وبللهما المطر خلال ذلك . حاشية : عاد الصغيران مبللين . لقد أصبح السلطان الصغير ذئبا وهو يعيش على التيوس البرية ، وسيصبح، ولا مناص ، هدفا لأن يصطاد »

ويعود سلطان ، ويظل خمس سنوات أخرى صديقا لسيده ، يستوحش أحيانا ، ويعاقب أحيانا ، ويدلل فى الغالب ، ثم تقع على رواية تيديمان هذه الحكاية المحزنة : « فى هذه الايام من الخريف كان الامير فى حالة نفسية لم أعهدها فيه من قبل .. كان من الصباح الى المساء منشرح الصدر يتقبل كل نكتة . فلما كان أمس ونحن نتناول القهوة اكتشف بغتة أن سلطان قد اختفى . واذ كان سلطان يعشق كلبة فى القرية القريبة فقد فرض الامير أنه انطلق الى عشيقتههناك ، وغضب لهذا ، وأعلن أنه سيجلد الكلب جلدا لن ينساه . وانطلقنا الى غرفنا لنعمل فيها حتى الفراغ من البريد ، واذا أسفل الدار فى حركة بينة حوالى الساعة الحادية عشرة . ثم قيل ان سلطان الذى عاد الى انبيت منذ قليل يعالج سكرات الموت

« وشهدنا تحت منظرا مؤثرا حقا فالامير يقتعد الارض وفى حجره رأس الكلب المحتضر وهو يهمس اليه كلمات التحبب ، ويحاول أن يغالب الدمع فى حضرتنا . وعلى الرغم من رجاء هربرت فقد بقى الامير قاعدا عند كلبه ، ثم نهض لكنه عاد ثانية . فلما مات الكلب قال الامير : « لقد كان للجرمان القدماء دين رضى ، كانوا يعتقدون أنهم سيلقون فى بقاع الصيد فى السماء كل الكلاب الطيبة التى رافقتهم على الارض . ألا ليتنى أعتقد ذلك . » وذهب الى غرفته ولم يعد فى ذلك المساء الا ليتمنى لنا ليلة سعيدة ..

« لم أحب أحدا مثلما أحببته »

« لقد كنا صباح اليوم كأننا فى بيت فيه مأتم . فكنا لا نتكلم الا همسا . ولم يذق الامير ليلته طعم النوم يعذبه تفكيره فى أنه جلد الكلب قبل أن يفارق الحياة . ومع أن تشريح الجثة فى صباح اليوم قد أسفر عن أن الكلب مات بالسكتة القلبية فان الأمير لم يكف عن تعذيب نفسه بالانحاء عليها باللائمة . وبعد الغداء امتطينا صهوة الجياد ، وكان الامير فى خلال الركوب قليل الكلام ينشد الطرق التى رافقه فيها فى الأيام الأخيرة كلبه الحبيب القديم . ومضينا أنى الأمام خببا أمدا طويلا والمطر ينهمر علينا . واذ أركب مرة الى جانبه قال لى ان من الخطيئة أن أفعل ما فعلت فأتعلق حيوانا ، لكنى لم أحب أحدا فى هذه الحياة مثلما أحببته ، وانى لأقول مع هنرى الخامس : « كان خيرا لى أن أفقد ما هو خير منه ! » ثم أطلق جواده ركضا حتى بلغ الراكب والجواد القصر يلهثان »

وبعد ذلك بأربعة أيام : « لا يزال الأمير عاجزا عن أن يتعزى عن فقد كلبه يؤلمه بالذات أنه ضربه قبيل موته . وهو يعذب نفسه بمحاولته أن يدخل فى روعه آنه كان السبب لوفاة الكلب ، يتهم نفسه بأنه سريع الغضب وحشى،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يؤلم كل من يتصل به . ثم يعود فيلوم نفسه على أن يحزن هذا الحزن الطويل العميق على موت حيوان »

وليس لهذه القصة مثيل فى حياته . ولا هى مما يوائم حياة غيره . انها أسطورة ، وهى فى نفس الوقت تجربة لخلقه العويص

علامات استفهام

ولما كان هذا الكلب هبة من أمير شرقى أراد أن يأسر بجميله مستشار الريخ الالمانى ، فانه كان يلوح وكأنه أمير مسحور ، واذ كان بعد ذلك فى شبابه الحرون لا يطيق القيد ويقرض الخشب بأسنانه حتى يأتى عليه ، وينطلق الى الغابة يعيش على صغار الحيوان البرى ، فانه يبدو وكأنه حفيد لسيده ، يحكى خصال النبيل المجنون على أسلوب الكلاب ، وهذا بالذات يروق مولاه . ثم تقع مناظر ما كان ليقع غيرها مع أجداد صارمين ، فيلقى الدمار هذا الكائن المستوحش فى مغامرة من المغامرات

عندئذ يعض السيد الوحيد بنان الندم على حين بغتة ، لأنه أساء معاملة هذا المخلوق ، فلعله هو الذى أورده حتفه ! وماذا لو كان تعلقه واحدا من بنى الحيوان خطيئة من الخطايا ؟ أيوائم ذلك عقيدته التى يعتنقها ؟ ألم يكن الجرمان القدماء خيرا منا ؟ ألم يستشهد هو نفسه فى أيام ردته بذلك الأمير الوثنى الذى أبى أن يعمد مفضلا أن يلحق بأجداده الكافرين ؟ وماذا لو أن اله النصارى أراد بهذه الفعلة أن ينذره ، وأن ينبهه الى خطايا أخرى ، وأن يظهره على سرعة غضبه ويكاشفه بكل أنانيته ؟ انه ليخطر بباله فى هذه الايام الحزينة من عهود وشعوب ، ومن معارك وضحايا ، ومن انتصارات وهزائم ، أناس أغضبهم ، وأهانهم ، وربما أوردهم حتفهم كما فعل بهذا الكلب الذى لعله لم يستطع أن ينسى ما أصابه من جلد — والآن تمر أمام هذا القلب الكسير تلك الكتائب الشاحبة ، كتائب أعدائه جميعا ، أولئك الذين تغلب عليهم ، فتخور الارادة الفولاذية فجأة ، ويشك فى فائدة هذه الحركة الهائلة وغايتها ، ثم انه حين يستيقظ من هذا الكابوس ويعاود أعماله ونضاله يبقى من هذا كله حقيقة واحدة : أن الكلب القوى الطيب الذى زامله فى طرقه يرقد على مرمى بصره بجانب الآخرين فهى الآن تسعة

الفصل الثانى عشر

اكتئاب

« الحق اننى من الطبائع الحالمة العاطفيه ، والذين يصورونني يخطئون جميعا فى اكساب صورتى مظهر العنف » . يرسم بسمارك بهذا جانبا من كيانه . واذا كان فى شبابه يعبر عن تعب حياته أحيانا على طريقة بيرون ، وكان حب الحياة الذى يحدو المجاهد هو ما أبقى عليه فى العمر الوسيط ، فانه فى الشيخوخة تنتابه الكآبة أكثر من ذى قبل وتشتد عليه ، ويتحقق فوق ما كان يتردد فى حدسه أيام الشباب . وقد كان فاوست يستيقظ على سعى لا يهدأ أبدا ، وابليس يستيقظ على قسوة لا تقر أبدا ، لينقض كلاهما غزله ، ويطرح ما بلغه . ولو أراد مرب فاشل أن يدلل على أن كل صراع ذاتى عبث لا طائل تحته ، لكان بسمارك شاهده المثالى . لكنه ليس فى محيط بسمارك أحد فهم هذه النفسيات الحاسمة واحترمها ، فها هى ذى يوحنا تقول للوسيوس :

« لما أطلق خادمه هنرى الرصاص على نفسه من أسبوع مضى ، ثار ثائره ، وطار النوم من عينيه ، واستذكر كل الحالات المحزنة .. ونحن هذه الأيام نرتكب أشد الحماقات فى مسائل الكلاب وغيرها ، لا لشيء سوى تسليته والترفيه عنه » . يعيش بسمارك على هذا المنوال بين أناس يحبونه ، لكنهم لا يفهمونه ، ويعاملونه معاملة مقلوبة .. والافكار المظلمة لا تنأى عنه اذا كان لا مناص من أن تنتابه ، فهو من ثم يفتح شفتيه بين عديد من مستمعيه ، وهو جالس ذات يوم فى الثانية والستين من عمره وفى أوج سلطانه ، يسرح الطرف أمامه فى صمت :

« ما أقل ما أشعرنى الأمر كله الغبطة والإرتياح ! وليس من أحد يحبنى لذلك ، ولا من أحد أسعدته أنا ، لا نفسى ولا ذوى ولا الغير » . فيحتج سامعوه ، فلا يضلله احتجاجهم بل يمضى يقول : « بل أشقيت الكثيرين . ولولاى ما نشبت ثلاث حروب ولا قضى ثمانون ألفا ، ولا لبس أبوان الحداد ولا ترملت زوجات .. لقد كان هذا فى تلك الأثناء بينى وبين الله .. لكنى لم أستشعر من كل ما فعلت غبطة تذكر أو غبطة على الاطلاق ، بل استشعرت على العكس من ذلك الغم والهم والتعب » . وليست هذه هى المرة الوحيدة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التى يتكلم فيها على هذا النحو ، فهولشتين وبوخر يؤكدان معاودة هـذه النفسية له . وهذه النفسية تنم عن الروح اللوثرية التى تنشد المسئولية ولا تتهيب التبعة ، لكنها تدل فى نفس الوقت على ما يزعمه لنفسه حدبث النعمة من حق أنانى لا تفهمه طبائع بروسية كطبيعة الملك أو طبيعة رون

وأحيانا يحول هذه النفسيات المتعبة الى ميدان السياسة فتضيئها الكبرياء عندئذ . من ذلك أنه فى سنة ١٨٧٧ وهو جالس بين عشرين من المستمعين فى مساء برلمانى قال : « اذا خرج المرء للصيد مبكرا جعل يطلق النار على كافة أنواع الحيوان ، وكان مستعدا لأن يمضى بضعة أميال فى أرض وعرة ليصطاد طائرا بريا . ويقضى نهاره على هذه الحال ، ملىء الوفاض حتى اذا اقترب من بيته جائعا ، صاديا ، مضنى .. طلبت نفسه الراحة . ولم يكلف نفسه عناء خطوتين اثنتين يخطوهما ليصطاد بضعة من الدجاج البرى . لكنه اذا جاءه أحد وقال له : ان فى قلب الغابة خنزيرا بريا تستطيع أن تصادفه : فسترون أن الرجل المتعب ، اذا كان يجرى فى عروقه دم الصياد ، سينسى كل تعب ، وينطلق الى الغابة ، يفتش عن الصيد حتى يرديه . لقد كنت فى الصيد منذ طلوع الشمس ، وهاهوذا النهار يوشك أن يولى ، وأنا متعب ، وغيرى يريد أن يصطاد بعض الارانب والدجاج . لكنه اذا كان ثمة خنزير برى يصاد فأعلمونى »

وهو بعد هذه الآونة من النصب يصبح طروبا اذا عاوده استخفافه القديم: فهو عندئذ يمس ابليس الحقيقى الذى يسر الى أقرب صديق له وهو فى الغابة: « عندما كنت فتى ، كنت أعتقد أنى أمهر انسان ، لكنى الآن مقتنع بأنه ما من أحد يستطيع أن يتحكم فى الحوادث ، ولا من أحد ذى سلطان أو عظيم فى الواقع . وانى لأضحك دائما اذا سمعت من ينعتنى بأنى حكيم ، وأنى متنبىء، وأنى أثرت فى العالم تأثيرا كبيرا الخ وبينا من لا دخل لهم فى الامور يفكرون أتمطر السماء غدا أم تطلع الشمس ، يكون من هو فى مثل مركزى مضطرا الى أن يقرر : اما أن السماء ستمطر ، واما أن الجو سيكون صحوا ، ويكون عليه أن يعمل وفقا لهذا القرار . فاذا صدق حدسه ، صاحت الدنيا بأجمعها : يالها من فراسة ! وياله من تنبؤ ! أما اذا أخطأ الحساب ، فان العجائز ينطلقن وراءه بأيدى المكانس . واذا كنت لم أتعلم شيئا فقد تعلمت التواضع ! »

نيهيليه

ان ههنا نيهيلية كاملة تنطلق أمام الصديق موتلى بديعة كتلك الكلمات التى قالها فى تهيجه لعدوه أرنيم : اعترافات انسان هو أشد الناس اعتدادا بالذات، ينكر بينه وبين الصديق كل فضل له ، ويرجع فى ذروة الحياة جبريا كما كان فى قديم الزمان ، ويبلغ من طرق ملتوية تواضعا ترن من ورائه قهقهة المزدرى ببنى الانسان

فى هذه الساعات يستعيد النضارة محياه المتغضن ، ويعود المغامر الشاب

الى الظهور ، وعندئذ يحسد كل مغامر ... وأنهم الجالسون فى حفلة صغيرة لمستأجرى أرضه فى فارتسن اذا بغناء رجل من النور ينفذ اليهم من الباب المفتوح ، فيبعثون اليه بكأس من الشمبانيا ، فيظهر النورى بأربته على الباب، ينحنى للسادة مثل انحناءة بسمارك لملكه ، ويغنى فى عهد الورود ، ويشرب نخب الامير ، ثم ينصرف وهو يغنى . وتتساءل يوحنا ترى كيف يعان هذا الرجل عنى حياة صالحة ، فيقول لها بسمارك : « ان هؤلاء الناس لا تنفعهم الحياة الصالحة ، فشغفهم بالحرية أقوى عندهم من الرغبة فى النظام وفيما نسميه نحن العاديين السعادة » . ثم يسكت ، ويتابع الظاهرة المختفية ببصره كأنما هى ظاهرة شبابه ويقول : « حقا انها لنفسية يحسد عليها صاحبها ، وحياة جديرة بالحسد ! »

ومع ذلك فانه يتشبث بالحياة « ككل رجل صالح » وهو يبرر لأخيه عند شاخص من « تلك الشواخص » ما يحدو حياته من مشاعر فيقول : « انه يجرى على فى سنى الاخيرة فى هذه الحياة الارضية ما يجرى على كل حركة هابطة ، فهى تنقضى فى سرعة متزايدة .. ولست أستطيع القول ان هذا الترقى السريع مما يرضينى ، ذلك أنى وان لم أغفل فى حسابى أن أى يوم قد يكون آخر أيامى ، أرانى مع ذلك غير قادر على أن أستسيغ هذه الفكرة . فانى أحب الحياة . وليس النجاح الظاهرى هو الذى يرضينى ويأسرنى ، ولكن مفارقة الزوج والولد خليقة أن تبهظنى .. وقد كان حظى حسنا فيما مسسته من عملى المصلحى ، لكنى كنت أقل من ذلك حظا فى مشاريعى الخاصة .. على أن ما بارك الله لى فيه على الاكثر ، وما أتوسل الى الله أن يديم فيه بركته على ، انما هو رفاهية بيتى فى وئام وسلام ونمو أطفالى فى العقل والجسم، فاذا أبقى الله ذلك على ، فكل شكوى حمق منى »

الهدوء فى البيت

هؤلاء الأولاد الذين ييسر لهم أبوهم سبل العيش يسلكون فى الحياة مسلك الأنانية البسماركية . فالابنة التى وصفها أحد أصدقاء البيت بأنها « أدنى الى الغرابة منها الى خفة القلب » تزداد مع الأيام اضطرابا فى مظهرها ، واظلاما فى مخبرها ، فهى فى نظرتها الشاردة وسخريتها عديمة الحيلة ، غير عملية وغير منظمة الى حد أن أويلنبورغ وجد فى المفوضية التى بارحتها منذ قليل مع زوجها رانتساو الشاب اثنى عشر كرسيا من القصب حول سريرها وعليها ثلاث كعكات من الحلوى نصف مأكولة وحولها فى كل مكان طيور وأرانب وعلب لحفظ القبعات ، ويسر بسمارك الى صديقته سبتسمبرج « لقد كثر ماتشاجرنا مع مارى . فهى لا يعنيها سوى زوجها وأطفالها وسوانا . أما غيرنا فقل أن يهمها . وهى فى باطنها كسول وهذا هو السبب » . وحين يرد رده المؤسف فيقول أن ابنته لاتشاطره مصالحه يعترف بأن « امرأتى تشبهها فى هذا ، ولهذا خيره ، فانى فى منزلى أتنفس هواء يختلف كل الاختلاف »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قصة هربرت

كان ولداه فى مبدأ الأمر ثم كان هربرت وحده بعد ذلك عونا له ، وكان أنشطهما يلوح أقل موهبة ، واكثرهما موهبة وهو بيل كسولا . وقد تزوج هذا من احدى قريباته ، وحرم على الآخر أن يتزوج على هواه . وكلا الاخوين مفرط فى الشراب وكلاهما يموت مبكرا حوالى الخمسين . ولم ينجب آل بسمارك فى الجدود ، وأنجب آل مينكنز رجلا ذا شأن : فالآن بعد هذا العبقرى الوحيد ينحط هذا التصاهر ثانية فى الحال فى هـذين الولدين اللذين ورثا عن أبيهما تجاوز الحدود وعن أمهما القليل من التفانى فيما يبدو

كذلك قل أن ادخل الأولاد الى بيت والديهما أحدا من ذوى الفكر أوالجمال. وقد حاول الاكبر ذلك مرة ، لكنه اذ يجرؤ على مخالفة أبيه ومعارضة بعض حالاته النفسية ينشب بينهما النضال فى الحال ويخسر الابن المعركة

وقد كان ما بينه وبين المحافظين من قطيعة قد زال سياسيا منذ أمد طويل ، لكن الضغينة ظلت باقية ، حين أحب ولده هربرت الأميرة كارولات فى نهاية السنين السبعينية، ليصبح عما قليل عشيقا لهذه السيدة الكيسة التى عاشت، أغلب حياتها منفصلة عن زوجها . وتريد الاميرة أن تطلق لتضحى زوجة لهربرت وكنة لبسمارك ، وهو الأهم ، وبروتستانتية كذلك . واذ كانت من أجمل النساء وسليلة بيت من أرفع البيوت ، اذ هى اليصابات ابنة الامير هاتسفلد، فقد كان طلاقها خليقا أن يغتفر ، وكان أب رحيم ربى ابنه ليخلفه فى وظيفته ورتبته ، وهو اذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، خليقا ان يجد ما يبرر اجابة ابنه الى رجائه الصادر عن القلب

لكن لليصابات اختان ، احداهما متزوجة من الفريق فون لوئى والأخرى متزوجة من وزير القصر فون شلاينتس : وكلاهما على رأس المتمردين على بسمارك ، شلاينتس خليص الامبراطورة اوغسطا منذ عشرات السنين ولوئى شقيق زعيم النبلاء النمامين . فهل ينبغى ان يكون هذان الرجلان صهرين لهربرت ؟ انه سيكون على أسرة بسمارك ان تدعوهما الى مائدة العرس أو تدعوهما على التحقيق مرة الى حفلة التعميد . أفينبغى ان يتآلف روح هذه الأسر البغيضة التى يسود فى صالوناتها جميع الساخطين شروحهم وتعليقاتهم على بيت بسمارك وسهامهم على مؤسسه ، وتنمو الاكاذيب والمفتريات ويستفحل الحسد فيضحى دسائس تحاك ضد الدولة .. أينبغى أن يمتزج روح هذه الاسر ببيته ؟ أليس من وراء هذا الحب مؤامرة تدبر ؟ ان الرغبة فى الانتقام وسوء ظنه بالخصوم ، وبغضه لهم وحذره منهم ليحمله كله على حظر هذا الزواج

وفى تلك الاثناء تظل السيدة الجميلة مطلقة مراعاة لخاطر هربرت ، وتلوك الصحف فى موضوعها وتقع الواقعة بينها وبين أهلها ، وتستأجر فى البندقية قصر مودنيا ، كما هو خليق برومانتيتها وغرامها وأكثر مما تجيزه تقاليد الاقارب . واذا قورنت رسائلها من البندقية برسائل هربرت اليها بدت هى

الحاسبة وظهر هو المزعزع . وقد يكون غرامه عظيما لكن أعظم منه خوفه من أبيه ذلك الرجل الهائل وهيبته منه

ويكتب هربرت الى فيليب أويلنبورغ (بعد صدور الحكم بالطلاق) يقول : « انى أريد أن أذهب الى البندقية بنفسى فى أول مايو وأحاول معها أن أهتدى الى وسيلة نرتب بها حياتنا بحيث تصبح محتملة .. فاذا عدتِ حاولتمحاولة أخيرة مع أبى ، فأنى لأحس من الآن أن المسألة مسألة حياة أو موت ، ولا يعلم الا الله كيف تكون العاقبة ، وأجد نفسى أمام محال لا حيلة معه وهو أن أهب الأميرة ما بقى لى من العمر »

تهديدات الأب

وبعد ذلك بيومين : « لقد قال لى أبى وهو يبكى ويشهق انه مصمم كل التصميم على الموت اذا تم هذا الزواج . لقد شبع من الحياة أملا فى أن يجد فى العزاء من مناضلاته، فاذا كان هذا الامل أيضا سيتبدد فعليه العفاء . ويقال أنه كان مع الثلاثة أو الأربعة الذين تكلم معهم أكثر تعبيرا عن أساه وقلقه مما كان معى .. وقد قال لى طبيبان عن أمى أن حالتها خطرة .. وأن أى انفعال نفسانى قوى خليق أن يكون له أسوأ الأثر عليها ! ومن جهة أخرى فان الأميرة المسكينة لم تنقه الا من هنيهة ، وهى وحيدة كل الوحدة ، تأمل على التحقيق أن يتم الزواج . وقد تمرض ثانية اذا ما اضطرت الى الاقتناع الآن باستحالة ذلك .. فاذا فارقت أنا الحياة فسوف أجعل مركزها أحرج ، وأسبب لكل من يحبنى أفدح الاحزان »

وبعد يومين آخرين : « يقول لى والدى انه لا يجمل باحساسه الشريف ان يصاهر اسمه كل ما يسمى هاتسفلد ، وكارولات ، ولوثر الى آخر القائمة وأنه اذا ما قيلت هذه الأشياء كلها عن امرأة فلا يمكن ان تكون أبدا كنته ، وانني لا أحمل وحدى اسم بسمارك بل ان مايمس هذا الاسم سوف يمسه أيضا ويمس أخى . فهو سيقاوم هذا الزواج « بيديه وأسنانه » ! وتكتب الى الأميرة أنه بعد أن خاضت الصحف فى المسألة لن يكون ثمة حل سوى الزواج. ولو لم تنشر هذه المقالات لما تمنت الزواج بتاتا ! لكن أبى فى هذا يرى رأيا آخر

« ويحال فى هذا بينى وبين الخروج من الخدمة ، واذن فلن أستطيع الزواج من دون موافقة (ولن يمكن هذا من الوجهة القانونية قبل مضى عشرة أشهر)، كذلك لا بد لى من التفكير فى أنى لن أستطيع أن أقدم للأميرة شيئا ، ذلك ان الوثائق الخاصة بالبكر ، وقد عدلت منذ قليل بموافقة الامبراطور ، تنص على أن الابن الذى يتزوج من مطلقة يحرم من الميراث ، واذ كان أبى لا يملك شيئا سوى الارض الكبيرة التى تؤلف ميراث البكر بوحدتيه فلن يبقى لى شىء فميراث البكر لا يقبل التجزئة وهذا على كل حال لا يهمنى اذا كنت لن أعيش طويلا بعد زواجى ، ذلك أن القطيعة بينى وبين أبوى والدمار الذى يمكن أن يحل بهما سيقضى حتما على ، فاذا مت بعد الزواج فقدت الاميرة بذلك نصف الدخل الذى يجب على الامير كارولات أن يدفعه اليها ، فهذا ما ينص عليه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العقد ، وعندئذ لن يكون لديها ما يكفيها للعيش . لقد بات المخرج عزيزا ، وفى هذه المرارة التى يتكلم بها أبى عن الاميرة لا يمكن أن يدور بخلدى أنه سوف يقدم الى مالا . انه يقول : اذا حملت الأميرة اسمه فسوف ينتحر !.. ولا أستطيع التعبير عن مبلغ ما زعزعنى هذا الحديث مع أبى فلن أجد ما أعبر به عنه ، ولن أشفى منه ، وما فى مقدورى أن أنسى أن أبى قد ثار هذه الثورة من جرائى »

الأب والابن

وبعد أسبوع : « تكتب الاميرة الى تقول .. ان الانجيل يقول ليهجر الرجل من أجل المرأة التى يحبها أباه وأمه .. ومحال أن يبقى سفرى الى البندقية سرا مكتوما : وأقارب الاميرة الذين تحوم للأسف حول بعضهم الشكوك سيعنون بأن يتسرب الخبر الى الصحف . ولا يتمنى هؤلاء وبيت كارولات على السواء شيئا أعجل من الزواج ، وذلك لغير ما شىء سوى اعتبارات مالية بغية التخلص من كل التزام .. وسوف يوفر الأمير كارولات .. مبالغ هامة على كل حال اذا تم الزواج . ومحاميه هنا هو صاحب المقالات الاولى المنشورة فى الصحف .. وقد صرح أبى لى بأنه ، اذا كان لا بد من سفرى الى البندقية ، سيسافر معى ، وانه يهمه من أمرى وأمر الارتباط بالزواج أكثر مما يهمه من أمر الريخ بأسره وأعماله جميعا وبقية حياته .. فهو لا يدعنى أسافر وحدى بحال من الاحوال ، بل يريد أن يكون معى ليحادث الاميرة .. وقد قلبت هذه الاحاديث التى دارت بينى وبين أبى كيانى الى حد أن بت لا أصلح لشىء ، ولا أستطيع أن أكون سعيدا ولو يوما واحدا .. وبعد أن لبثت الاميرة متصلة بى سنوات ، وباتت اليوم فى أحرج حالة من التورط بما تذكره الصحف عنها ، أجد أن من واجبى كرجل شريف أن أتزوج منها حتى ولو خبا ميلى اليها وانطفأ شعورى . ويجادل أبى فى هذا ، بيد أنى لا يسعنى أن أشعر بغير ذلك فيدور بخلدى أن أضحى بحاسة الشرف عندى فى سبيل والدى ! وكيف أعيش اذا فعلت ذلك ! »

شكوى هربرت

واذ لا ترى اليصابات طائلا تحت كل هذا تقطع صديقها وتبلغه عن طريق طرف ثالث مزيد احتقارها وأنها تعيش عيشة راضية . ويتخلف هربرت مزعزعا قائلا : « انى أكابد الألم من وعيى الذى يهد كل شىء بأنى خدعت الثقة التى وضعت فى ذات مرة والتى كان يجب أن تداخل حياتى .. ولا بد أننى المسئول عما وقع ! فنفسى هى التى أشكو ، ومنها أشمئز . وستظل بقية حياتى أمام عينى طريقا بين صفين من أشجار الحور ، ممدا وسط منطقة منبسطة رملية الى ما لا نهاية ، لا أفتأ أخوض فى رمله رغم العناء ، ما دمت أتبين بالضبط أن أمرى فى المستقبل لن يخرج عما هو الآن »

وهكذا يبقى هربرت فى النهاية الوحيد الذى يعانى والذى نير عطف من

يقرأ هذه الرسائل الأليمة . وقد وعد أبوه فيما سلف الكثيرات بالزواج أيضا، لكنه لم يلبث أن تملص من وعوده حين أفاق ، ولاذ بالفرار . ولم يستمسك به أحد طويلا لأنه لم يعد وقتئذ مغامرا فى أوائل الحلقة الثالثة ، لا مركز له ولا مال عنده . فالآن يهيىء لابنه كل ذلك فيجب على الصبى أن يدفع ثمنه . لكنه أقوى من أن يرثه فى ذلة ، وأضعف من أن يفعل فعله »

وحقا أنه من السهل أن تلوم هربرت على أنه أدى بالامر الى هذه النهاية ، والمخرج منه عسير ، لا يهتدى اليه القارىء حتى فى هذه الايام ، فقد كان هربرت مكبلا بنظرة أبيه الهائل ، خاضعا لتهديده

أما موقف السيدة فنموذج لموقف المرأة : تسعى الى الطلاق بكل الوسائل لترغم الصديق على التزوج منها ، وتحاول حمله على السفر الى البندقية لتضطره الفضيحة الى تصحيح مركزه من الوجهة الشرعية ، ثم تستشهد فى النهاية بالانجيل ، ولا تريد كزوجة أن تعيش فى أصغر كوخ ولا أن تسكن فى فيللات الريفييرا كعشيقة فحسب : فهى تبغى أن تحصل مع هربرت على اسمه وضياعه ، فلما أخطأت الحساب بدأت حياة واسعة كيسة على غرار آخر أو تابعت على الأصح هذه الحياة

التنين

ومن وراء ذلك أقرباؤها يحرضون ويدفعون بكل شيء الى الفوضى : زوج لا يبغى الدفع وأخوات عندهن من يعينهن على أذكاء النار بالمقالات الفاضحة عاملات على زواج أختهن من بيت يكرهنه ، لأنه بهذا الزواج يكسب الجميع ولا يخسرون ، يكسبون مالا ، لأن أحدا لا يحتاج عندئذ الى أن ينفق على القريبة المغامرة ، ويكسبون سلطانا ، لأن الديكتاتور الذى يعادونه سوف يضطر من الآن فصاعدا الى استقبالهم فى بيته وتزويد أبنائهم بالمراكز ، ولعله أيضا — فالى هذا الحد تأتلق آمالهم — لعله ينهار حقا من هذه الضربة ، فينفذ تهديداته ، ويمضى ، وعندئذ تنجح اليصابات فيما لم تنجح فيه الريشجلوكه، فتذهب الاميرة الجميلة الى التنين ، كما ورد فى الاقاصيص وتقف ظافرة وقدمها الاطلسية الصغيرة على جلده الجامد

بيد أن التنين معمر له ألف سنة ، يدرى كل ما عند أعدائه ، ويعرف السموم والوسائل . كيف ؟ وهل ألحق الهزيمة بدول أوربا أو عقد معها الأحلاف لتهزمه مناورة امرأة كيسة ليست بذات مال ؟ ويدلى الديبلوماسى العظيم دلوه فى النزاع ويقوده الى النصر

وكيف ينال هربرت ؟ نفس واهنة ، وخوف وهيبة من الوالد، وتعلق الى ذلك بالضياع ، وعجز عن أن يشق لنفسه طريق الحياة بنفسه ، أو أنه لا يفكر فى ذلك بحال من الاحوال . وفى بضعة مشاهد عظيمة يقسم بسمارك أولا بوصفه أبا ، أن يتخلى عن عمله ويتخلى عن الريخ ، أجل ، ويقتل نفسه اذا لم يعدل الابن ، ثم تحشد الاطباء فى نفس الوقت ليتكهنوا للأم بالوفاة . ثم يناله بوصفه رئيسه ، ويمنع موظفه أن يتزوج من دون موافقته ، وأخيرا يناله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بوصفه مورثه : فيسرع الى الامبراطور واهب الغابات له والذى عليه أن يغير الآن وثيقة الهبة بحيث يظل هربرت فقيرا مدى الحيـــاة قانعا بالعيش مع صديقته الجميلة على الدخل الذى حكم به لها على زوجها

انتصاره

أكثر من ذلك ! فقد كان خبيرا بالنساء وان كانت خبرته من أمد بعيد ، لكنها لم تكن عبثا ، فهو يعلم ما يمكن أن يكون لمساء من أمسيات مايو فى قصر غوطى وفى أحضان عشيقة من نتائج . ومن ثم لم يحظر على ابنه السفر الى البندقية ، فاذا كان لا بد مما ليس منه بد فليصحبه اليها . والابن الذى ربى سياسيا ديبلوماسيا وخبر الرأى العام ، ألا يقدر ما فى هذه المهزلة من ضربة قاتلة ؟ ألا يظل الى الأبد سخرية فى عين أوربا اذا أفسح رواة الاخبـــار والمصورون والمغنون الطريق لبسمارك الأب للنزول من الجوندول لانقاذ ابنه الحبيب ؟

بيد أن هنالك نقطة لبث المكروب يرددها ، فهنا يجب عليه أن ينجز وعدا أدبيا وعده ، فلولا هذا الحب ما احتاجت الاميرة الى الطلاق لتلهو على هواها . لكن المبارز القديم يرد هذه الضربة فى سهولة ، فقد كانت الاميرة من قديم سيدة كيشة ، فما يكتب اليوم عنها مرتبطا باسم هربرت قد كتب أمس ويكتب غدا متصلا بأسماء أخرى . فالاسم الذى يريد الابن الذود عنـــه لا يستحق الذود . أما هو فلا يريد أن يسمع اسم بسمارك فى نفس واحد مع اسمى لوثر وشلاينتس ، فاذا قوبل بين شرف وشرف فشرفه المتقدم

كيف ؟ هوى وتأنيب ضمير ؟ وحاسة الشرف عند ابنه البكر ؟ هذا شىء يتغلب الشباب عليه ! فالى الأمام !

الفصل الثالث عشر

كابوس الائتلاف

فى خريف سنة ١٨٧٧ وبسمارك يستشفى فى كيسنجن ، أملى على ابنه هذه الأسطر : « قالت أخيرا صحيفة فرنسية عنى أنى مصاب بكابوس الائتلاف. وهذا النوع من الكابوس يظل له طويلا ما يبرره بالنسبة لوزير ألمانى ولعله يظل على الدوام هكذا . والائتلافات بين دول الغرب يمكن أن تقوم ضدنا بانضمام النمسا ، وأخطر منها فى المحتمل الائتلاف الذى يقوم بين الروسيا والنمسا وفرنسا . واذا توكدت الصداقة الحميمة بين اثنتين من هاته الدول الثلاث يسر ذلك لثالثتهما فى كل وقت أن تضغط علينا » . فبسمارك فى همه بهذه الاحتمالات التى لا يخشى وقوعها فى الحال بل على مر السنين لا يتمثل صورة الطمع فى أرض بل يتمثل صورة من حالة سياسية عامة « تحتاج فيها الدول جمعاء الينا فيما خلا فرنسا ، وتمنع فيها الدول من التألب علينا حسب الأحوال بما يكون من علاقات بعضها ببعض » .

وهنا الفكرة الأساسية التى تقوم عليها سياسته كمستشار ، وهى ناتجة من ثلاثة اعتبارات : مركز ألمانيا ، وحسد أوربا ، واختلاف دولها. فمن هذه الاعتبارات الثلاثة يبرز الواقعى ولاعب الشطرنج : فهو يعرف كيف يفرق بين الضرورى وما يتمناه ، ولا يطمع بدافع من اعتداده بنفسه فى الاستيلاء على قرية فوق ما استولى ، اذ كان لا يجوز له أن يعرض للخطر وطنا يسوء مركزه ، ومصدرا للسلطان، وغرضا له ، بأمانيه فى التسلط على العالم ، وهو فى نفس الوقت يتصور الدول العظمى خصما له ، ويسعى الى ابعاد « الفيل » الانجليزى عن « الطابية » الروسية و « الحصان » الغالى عن « العساكر » النمسوية

وليس فى العالم من يصدقه : فرسائل ملكة انجلتره وتقارير الساسة الروس وخطب الشعبيين الفرنسيين تنم عن سوء الظن بنيات بسمارك السلمية . ووثائق الخوف والبغض تتراكم ضد « الفاتح » . ذلك أن العالم يجب أن يعتده كذلك : أفلم يطلق ثلاث حروب من عقالها فى سبع سنوات وفى أوربا المسالمة ، ثم ختمها كلها بضم الاراضى ؟ ألم يقم ماردا فى قلب القارة التى فتح فيها الانقسام الالمانى لكافة الجيران ميدان الفساد منذ ثلاثة قرون ؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فكيف وهو الظافر بالدم والحديد فى بلاده أولا ثم فى بلاد الغير ، ينبغى أن يستبقى هذه الخليقة النابوليونية الحربية بغير الفتوحات وتجديدها على الدوام ؟ أليس شعبه هو يسميه المستشار الحديدى ؟

ليس بالفاتح

لقد ساعدت قلة ادراك الشعب الالمانى لطبيعة بسمارك على غلطة باتت مع الزمن شؤما على الاسم الالمانى ، وحسبنا نظرة واحدة الى شخصيته والى حالات هذا القلب العويص ، ليتبدد هذا التحامل عليه ولا يكون له ما يبرره . ونظرة واحدة فى الأضابير والرسائل والأحاديث ، وأخرى تلم بالعشرين السنة التى تناولت حكمه كمستشار ، كافيتان لاثبات ذلك . وقد طالما تساءل فى شيخوخته أيضا هل كان يستطيع تحقيق الوحدة الالمانية من دون هذه الحروب الثلاث ، فلم ينف ذلك فى مذكراته سنة ١٨٤٩ . والمحقق فقط هو أنه لم يشن هذه الحروب ابتغاء الفتح ، بل فتح بطبيعة انتصاراته . فهو فى هذا كالرجل المدلل الذى يجد فى طريق طموحه نسوة يستحوذ عليهن لأنه ليس من يكره النساء

بل انه لم يدر حروبا للفتح . فليس لفتح شلزفيج كان خروجه الى الحرب ولكن ليعبىء الشراع البروسى بالريح القومية . وليس من أجل هس وهانوفر بل لاخراج النمسا كان خروجه الى الحرب الثانية ، كما كان خوضه غمار الحرب الثالثة ليبطل حق الفيتو الذى كان لفرنسا لا طمعا فى الألزاس . لكنه بعد الانتصارات التى تجاوزت فى سرعتها وقوتها كل ما كان يؤمله ، جلس الى الخريطة واقتطع ما أتيح له

فقد كان بسمارك أبرع من أن يشد القوس أكثر مما ينبغى نحو الخارج . وليس شك فى أنه لم يطلق سهمه دون الهدف كما أن المحقق أنه لم يطلقه الى أبعد من هدفه ، فلماذا أعوزه فى الداخل هذا الشعور بالمسافات ؟ هذا ما كان موضوع التحقيق ، فقد قال فى سنة ١٨٦٦ : « ان الشئون الخارجية عندى غاية فهى فوق كل شىء آخر » . وقد كان من حظه أن يجد الحروب الى طلبها ، لكنه لم يسىء قط استخدام تفوقه لينتصر . وقد استبقى لأوربا هدوءها عشرين عاما . واذا كان لا بد للاجيال المقبلة من أن تنتقص بعض فضله فانه يبقى له : أنه حافظ على سلام أوربا عشرين عاما

محالفات

لم يكن ذلك عن انسانية ولا عن خوف من أن يفقد مجده : بل كان عن اقتناع بأن أوربا لن تقف موقف المتفرج مرة أخرى ، وأن الائتلافات التى حمله تهديدها فى سنة ١٨٦٩ على أن ينزل نظريا عن الألزاس ، قمينة على الأرجح بأن تتكون . وأن الكيفية التى عامل بها بسمارك فرنسا مباشرة وغير مباشرة بعد عام ١٨٧١ لتعيده بعد اظلام الجو فى فرساى الى ذروة حنكته السياسية ، الى

نيكولزبورغ . « ان حاجتنا هى أن تدعنا فرنسا فى سلام ومهمتنا هى أن لاتجد فرنسا حليفا اذا هى لم تشأ أن تتركنا فى سلام ، فما دامت فرنسا لا تجد حلفاء فانها لن تكون خطرا علينا ، وما دامت الملكيات الكبيرة فى أوربا متماسكة فان أية جمهورية لن تكون خطرا عليها . وعلى العكس من ذلك سيعيى أية جمهورية فرنسية أن تجد حليفا ملكيا يظاهرها علينا »

الائتلافات

هنا يقول بسمارك لماذا يتفادى من الائتلافات ، ولماذا يتحتم عليه السعى الى مثلها . وقد شاء بسمارك عزلة بروسيا من سنة ١٨٥٠ — ١٨٧٠ ليعرض نفسه فى الأزمات الكبرى بثمن أغلى ، أما الآن فانه ينشد المحالفات لألمانيا القوية . كان اذذاك ضعيفا يريد من ثم أن يبقى وحده ، أما الآن ، وقد بات قويا ، فانه ينشد الاصدقاء . وفكرته الأساسية عما يتجاوز عصره فكرة سليمة : « ان مصلحتنا هى فى المحافظة على السلام ، بينا تحدو جيراننا فى القارة أمان خفية أو صريحة رسمية لا تتحقق الا بالحرب .. انه يجب أن نعنى بأن نلطف الاستياء الذى أثاره نهوضنا الى دولة عظمى حقيقية باستخدام نفوذنا استخداما شريفا يدل على حبنا للسلام ..وانه ليسهل على الريخ الالمانى وعلى سياسته احترام حقوق الدول الاخرى ، ما فى الخلق الالمانى من نزعة موضوعية من ناحية ، وما لا فضل لنا فيه من حقيقة واقعة هى أننا لا نحتاج الى توسيع منطقتنا المباشرة ولا كان يسعنا هذا التوسيع من دون تقوية العناصر المركزية فى بلادنا . وقد كان هدفى المنشود دائما بعد أن حققنا وحدتنا داخل الحدود الممكنة هو كسب ثقة .. وحتى ثقة الدول العظمى فى أن السياسة الالمانية تريد ، بعد أن بدلت الأمة اتحادا بعد انقسام ، ولمت شملها ، أن تكون منصفة مسالمة . واننى لم أفهم قط المنازعات الدولية التى لا يمكن فضها الا بحروب الشعوب وحدها دون غيرها ، من وجهة نظر المبارزات الفردية والغضب للشرف فيها »

الأوربى

وقد طالما نعت بسمارك نفسه بشهادة تيديمان وفى السنوات السبعينية بأنه أوربى ، وقد كان ذلك الاوربى من مجمل سياسته الخارجية من حيث أنه لم يغال فى قوميته ولم يؤمن قط أو يناد بأن شعبه هو الشعب المختار ، فقد كان «مجردا تماما من الشعور العامى بحب الوطن» . فهو يقول لأحد الوفود : « لقد كنت أعد الألزاسيين من الأول نخبة الشعب الفرنسى ، فجنودهم خيرة الجنود ، ولهم الى ذلك مزية فى نظرى هى أنهم أخذوا عن الأمتين شيئا طيبا . فاذا أمكننى أن أجمع بالمصاهرة بين كل فرنسية وكل ألمانى صميم لخلص لى من ذلك ذرية ماهرة » . وحين أراد تهنئة تيير بعيد ميلاده سأله أولا : عن طريق السفارة : أيتأثر حب الشعب له بذكر بسمارك . وحين مات تيير حمل بسمارك أصدقاءه على أن يشربوا كأسا ترحما عليه . وقد كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فى وسعه سنة ١٨٧٥ أن يهزم فرنسا مرة أخرى فى حرب اذ كان أخذ فرنسا فى الاستعداد وصيحاتها الصاخبة بطلب الانتقام قد أثاره ، لكنه داس الشرارة « ذلك أن الكراهية الظاهرة لهجوم لانبغى من ورائه سوى منع فرنسا ثانية من التنفس كان خليقا أن يتيح أول ما يتيح حجة مرموقة للانجليز ليتشدقوا بعبارات الانسانية ، ثم بعد ذلك لروسيا كيما تنتقل من السياسة القائمة على الصداقة الشخصية بين الامبراطور والقيصر الى السياسة القائمة على مصالح الدولة التى لا تعرف حرارة الصداقة ، اذ كانت الشكوك تساور الروس على نهر النيفا وقتئذ فى هل كان من الصواب ترك الامور تجرى مجراها دون تدخل ؟ »

هل الحرب على الأبواب

لقد بدأ لحظة من الأزمة التى نشأت فى ربيع سنة ١٨٧٥ أن محالفة سنة ١٩١٥ تطوق ألمانيا ، فقد كان النزاع الكنسى تكأة ، فظاهر فرانتس يوسف وفيكتور عمانوئيل وليوبولد الثانى الحزب الكاثوليكى ، وتقرب جورتشاكوف بعين البلقان الى الفرنسيين . بل ان انجلتره نفسها اقتربت من الروس بدافع من استيائها ، فتعرض نظام بسمارك بأكمله للخطر وألفى نفسه لأول مره حيال هزيمة سياسية ديبلوماسية . فماذا يفعل ؟ يوعز أولا بمقال عنوانه : « هل الحرب على الابواب ؟ » فيدير به كل الرحى ، وتتحول رومة ولندن ويتحول الجميع بدافع من بغض بسمارك صوب رئيس الوزارة الروسية فى هذه اللحظة ، ويتساهل هذا مع الانجليز فى البلقان فى نقطة صغيرة ، ويصحب القيصر الى برلين لحل الأزمة أو لزيادتها حدة ، فيستقبله بسمارك هناك بحمامة السلام ، ويريه أحدث طلب قدمه للاستقالة معتذرا بالمرض ، وبأنه لم تعد ثمة حاجة اليه بعد أن أصبح كل شىء هادئا ، ويقص ذلك على القيصر أيضا ، وكان يسره ألا يضطر الى الضرب .

ويرى الشيخ الروسى الماكر المغرور نفسه مخدوعا من تلميذه ، ويرى فرصته الاخيرة فى سبيل المجد تفلت من يده فيحاول انقاذ ما يمكن انقاذه ويرسل الى ممثليه فى كافة العواصم برقية علنية فحواها بالتقريب : « الآن ضمن السلام » . وتجعل هذه البرقية التى دبرت لينتصر جورتشاكوف على بسمارك وروسيا الأم على * Furor teutonicus تجعل أوربا تعتقد أن روسيا وجورتشاكوف أنقذا فرنسا المسالمة من جشع الرجل الشرير

ضربة ديبلوماسى

وتثور ثائرة بسمارك ويقول للروسى فى الحال حقائق مفزعة ، يقول له على

---

* حنق التيوتون وغضبهم

روايته : « لا يجوز أن يثب المرء على كتف صديقه من الخلف فجاءة ليعرض على حسابه عرضا بهلوانيا ! .. فاذا كان يهمك أن ينوهوا بك فى باريس فان الوقت لم يحن بعد لافساد علاقاتنا بالروسيا . وانى لمستعد أن أسك فى برلين قطعا من ذات الفرنكات الخمسة وعليها : « جورتشاكوف حامى فرنسا » كذلك نستطيع أن نقيم فى السفارة الالمانية بباريس مسرحية تظهر فيهـــا للمجتمع الفرنسى تحت العنوان المتقدم فى دور ملك السلام ، فى ثوب أبيض وجناحين ، تضيئك نار البنغال ! » ويقال ان جورتشاكوف كان مضطربا فى رده . ومحقق أن الخلاف قد كان له فى نفس بسمارك أعمق الاثر ، وأن آثاره لم تلبث أن ظهرت فى صورة تتناول تاريخ العالم

وحقا أن القيصر ركب فى الحال الى بسمارك من دون اعلان سابق وأنه دخل عليه بهذه الكلمات : « دعنى أقول أول كلمة لأؤكد لك انى لم أصدق قط ما أشيع عن رغبة ألمانيا فى الحرب » . بل ان بسمارك ليقص فى مرة أخرى أن القيصر قال عن رئيس وزرائه : « دعه ينعم بهذا الغرور الشائخ ! » على أن بسمارك فيما يبدو قد هزمه هذا الشيخ ديبلوماسيا ، وقد كان فوق هذا مرتاح الضمير من الناحية السياسية بصورة استثنائية : ولن ينسى هـذه الساعة . وهو يمنع تفنيد أقوال خصمه الذى ينشر فى كل مكان أن القيصر موافق ، لكنه يسرها فى نفسه . واذا كان شيخ لايستطيع النوم من جراء « اساءة لم يثأر لها » لحقت به من خمسين سنة وهو تلميذ ، فأخلق به مع هذه الاهانة التى لحقته فى أوج السلطان أن يظل شعوره بالثأر متأججا

« حيوانان من ذوى الرنوك »

وبعد سنة يخيره الروس تخييرا له خبىء وفيه دس ، اما أن يكون للروسيا واما أن يكون للنمسا ، ذلك أنه عقب الأزمة الأخيرة مبـاشرة أى فى صيف سنة ١٨٧٥ شبت ثورات جديدة بين شعوب البلقان الاصلية ضد الاتراك زادت غيرة الامبراطوريتين حدة ، فكل ما كان يعد هناك كان يتوقف على القرار الذى يتخذه بسمارك ولقد حاول عقب الصلح مباشرة أن يشل حركة المتنافسين على البلقان بعقده محالفة البراطرة الثلاثة ، فقد قال سرا : « انى لا أفكر فى التدخل ، فان هذا التدخل بالذات قد يسبب حربا أوربية .. اذ أننى لو ناصرت هذه الدولة على تلك لانضمت فرنسا فى الحـال الى الدولة الأخرى .. وقد أمسكت بخناق حيوانين قويين من أصحاب الرنوك ، وسأبقيهما منفصلين أحدهما عن الآخر ، أولا كيلا يمزق أحدهما الآخر وثانيا كى لا يتفاهما على حسابنا » . وقد حبب هذه الفكرة الاساسية البديعـة الى الريخستاج بهذه الكلمات : « ما كنت لأنصح بأن تشترك ألمانيا بأية صورة فعلية فى هذه الامور ما دمت لا أجد فيها كلها مصلحة لألمانيا تستأهل ولو ــ وليغفر لى المجلس خشونة التعبير ــ عظام فارس بوميرانى واحد »

غير أنه كان يعلم علم اليقين ما فى حلف البراطرة من اشكال ، فكان يشك فى امكانه الحيلولة دائما بين الرفيقين . والشىء الوحيد الذى أوجد الأمل فى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يكون لهذه المحالفة وزن أدبى هو البراطرة الثلاثة بالذات ، اذ كانت محالفتهم موجهة فى نفس الوقت ضد الجمهورية والديمقراطية ، فكانوا يؤثرون أن يتحمل بعضهم بعضا على أن يهزمهم من لا يطيقونه . وهكذا نمى بسمارك المحالفة الشرقية الثلاثية فى السنوات السبعينية بل أوجدها ، وقد كان فى السنوات الخمسينية فهم كيف ينسفها . لقد كانت الرغبة فى سلامة الأسر المالكة أقوى عند رومانوف وهابسبورغ مما بينهما من تحاسد . لكنه لكى يضفى على هذه المحالفة القداسة التى أضفاها عليها آباء البراطرة الثلاثة ، كان ينقص الورثاء الثلاثة خصم يخشونه

ليفاديا

وقد كانت ألمانيا فى هذا التزاوج العجيب بين الثلاثة هى الرجل الأصغر الذى تتنافس عليه امرأتان ناضجتان ، فالنزاع صادر عن المرأتين . وحرصه على أن لا يميل الى هذه أكثر من ميله الى تلك ، كان يزداد مع الايام صعوبة ، فقد قال بسمارك فى ذلك الحين لهوهنلوهه : « لو وقفنا على الحياد فى قتال ينشب بين الروسيا والنمسا لما غفر لنا هذا من يهزم منهما ، فاذا قضى على النمسا قضاء مبرما لم يكن فى هذا منفعة لنا ، اذ أن فى مكنتنا عندئذ أن نضم ألمان النمسا ، لكن ماذا نصنع بالسلاف والمجر؟ ومحاربة النمسا شىء يمنعنا منه الرأى العام ، وروسيا خليقة أن تصبح خطرا علينا اذا حل الدمار بالنمسا . فبقاؤنا مع النمسا هو وحده الذى يمكننا من صد الروسيا » . وبعد هذا التصريح بقليل قدر لبسمارك أن يتعرض للتجربة تعرضا خطرا

فقد كان لزاما أن يقول سفير بسمارك لجورتشاكوف فى ربيع سنة ١٨٧٦ بتكليف منه ان المسرحية التى مثلها فى برلين فى العام الماضى قد خلفت أثرا ينطوى على « سوء الظن بالروسيا وعدم الاطمئنان اليها » . وأجاب جورتشاكوف جوابا غزليا كاذبا حين قال انه اذا كانوا مايزالون يسمون بسمارك تلميذه فانه تلميذه فحسب كما كان رفائيل تلميذ بيروجينو ، لكنه مضى فى معركته الديبلوماسية أسوأ نية فنصب لخصمه شركا بغتة وهو يعلم ورطته ، ووجه من ليفاديا فى خريف سنة ١٨٧٦ سؤالا الى برلين عن طريق الملحق الحربى الالمانى ، يستفسر عما اذا كانت ألمانيا تقف على الحياد فى حالة نشوب حرب بين الروسيا والنمسا . وكانت أصابعه الديبلوماسية أكثر مرونة من أن تختار هذا السؤال الخشن من دون أن تحسب حساب خشونته . وكان بسمارك وقتئذ فى فارتسن ، فلما تلقى فيها البرقية أمر ديوانه بخط يده أولا ومخططا تحت كلماته على غير المألوف « بأن يرفض هذا السؤال الأخرق بحجة اننا لسنا متأكدين لأى غرض يريد جورتشاكوف هذا التصريح وفى أى شىء سيستخدمه .. والسؤال جرىء كما هو فى غير وقته المناسب وهو دسيسة محبوكة بخيط أبيض » . ويصف بسمارك المسألة كلها فى حنقه بأنها «محاولة لحملنا على امضاء سفتجة على بياض تملأها الروسيا وتقبض قيمتها من النمسا وانجلتره أو تنتفع بها قطعا »

رفض الاختيار

هنا أيضا راجع بسمارك حالاته النفسية على جدول لوغارتمات حسابه . فقد كان يعلم علم اليقين عما يسأله خصمه : هل يجوز تقسيم النمسا ؟ فاذا قال ذلك توقعا لطوفان الجامعة السلافية الذى سوف يطغى على شرق أوربا كله ويجعل ألمانيا فيما بعد فى ركابه ، اذن فخير له أن يحصل القيصر على ما يفكر فيه ويشغله ، فقد كانت سياسة بسمارك من أمد طويل أن يجعل الدول الثلاث المتنافسة على الشرق وهى روسيا والنمسا وانجلتره والمتوترة علاقات بعضها ببعض ، تعقد أملها على ألمانيا . فالآن يبغى منع الحرب العالمية وتحويل جيش الروسيا المستعد الى البلقـــان لما أن أحتث مرة أخرى الى الجواب فأجاب : انه يستطيع أن يتفرج هادئا على صديقيه وهما يتطاحنان ، لكنه لا يسعه أن يتفرج فى الختام على هذا الصديق أو ذاك وهو ملقى مثخنا بالجراح وقد كف أن يكون دولة عظمى

الآن كان جورتشاكوف قد استطاع أن يثبت لمولاه بالحرف أن بســمارك هو الذى يقف فى طريقه ويحول بينه وبين قبة أياصوفيا الذهبية ، فكان أن القيصر المقتنع بذلك ، بدلا من أن يبطش بفرانتس يوسف ، تفاهم معه فى الحال فى رايشتات على البلقان ، ووعده بالبوسنه تهدئة له ، وحول الاعصار نحو الجنوب الشرقى ، وانطلق فى قلب الشتاء الى الآســتانة ، لكنه لقى فى الدردنيل سفنا انجليزية ، وصادف مصاعب أخرى ، وأحس أمام العاصمة العالمية أن الدول تقف فى وجهه ، « فأخل بالتوازن » فى صلح سان استفانو

لا

وكتب جورتشاكوف فى رده على بسمارك يقول : « ان المسألة المراد حلها لا هى ألمانية ولا روسية بل أوربية » فكتب بسمارك الى جانب ذلك : « من يقل أوربا يخطىء ــ فما هى أوربا ؟ » نفس الكلمات العريضة الثلاث التى تنطوى على شيء من الفكاهة ــ نفس الكلمات التى قالها للسفير البريطانى قبل عشر سنوات وهو يهدده « لقد وجدت دائما أن الساسة الذين يبغون شيئا من الدول الاخرى لا يستطيعون أن يطلبوه باسمهم هم الذين يلوكون كلمــة أوربا » . فبهذه الكلمات التى كانت وقتئذ صوابا رد بسمارك على الجملة الروسية ردا داخليا فحسب بطبيعة الحال

لكنه فى بطرسبورغ كان دماغ آخر يفكر تفكيرا أوربيا ، وقلب أكثر رجولة يدق الى جانب المستشار المسن ، فحين كبرت دولة البلغـــار التابعـــة فى صلح سان استفانو الذى زحزح الاتراك من أوربا ، وشعرت النمســا بأن الروسيا تطوقها وأحست انجلتره أنها مهددة ، وأصبحت هناك حرب فظيعة أخرى تخشى ، هرع الكونت شوفالوف الى بسمارك وكان صديقه من أمد طويل ، وطلب وساطته . وكان بسمارك مريضا فى فريدريكسروه بالهرص والنورالجيا ، وقد أطلق لحيته لألم فى وجهه ، فاستقبل الروسى لكنه رفض الوساطة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ان غريزته السياسية الاولى ظلت مرة أخرى لا تخدعه كما كان حاله قبل ضم أرض الريخ ، فقد رفض الوساطة رفضا باتا قبل بضعة أشهر مضت عندما بدأوا يطلبونها بصفة شبيهة بالرسمية ذلك « أننا لا يسعنا أن نعتقد أن وساطة دولة أخرى يمكن أن ترتب بحيث لا تتخذ صبغة الضغط على الروسيا : واذا ما أحس الروس بهذا الضغط فلن يكون من وراء ذلك الا تصعيب تساهلهم .. وعلاقتنا بالروسيا أهم عندنا بكثير من تركيا بأسرها لما بيننا وبين الروسيا من حدود واسعة : فنحن مصممون على ألا تتكدر علاقاتنا بها من غير داع بتولى الوساطة » . أما انه بعد ذلك فى شيخوخته قد وصف تدخله بأنه كان خرق حياته الذى ما بعده خرق فأمر لم يقم عليه الدليل ، له وقع الافتراء ، فالمحقق فحسب هو أنه رفض التدخل قبلا . لم يهن شوفالوف ، بل جاءه فى اليوم التالى ، بايعاز منه ، برقية من جلالة القيصر نفسه يرجو فيها بسمارك أن يتدخل لأنه سيجد فى تدخله الدليل على تعلقه . فماذا يصنع بسمارك ؟ فقد كان كتب منذ أمد وجيز الى سفيره فى بطرسبورغ يقول : « ان عاهلا .. وعاهلا قريبا كالقيصر اسكندر .. يجب أن يكون له عندك وعندى .. حقوق السيدات »

نعم

وجاء الاعتداء على حياة الامبراطور من هنيهة سببا فى الراجح لصدور قانون الاشتراكيين : فأحس بسمارك أنه قد تقوى فى الداخل بهذا القانون ، يضاف الى ذلك ما لعله داخل بسمارك من سخيمة ضد جورتشاكوف الهرم الذى لا بد أنه كان يئن من وقر الرياسة حينذاك . فكان أن رد بسمارك على تصميم القيصر على تدخله بنعم ، فأنكر بها ملمحا أساسيا فى طبيعته ، ونهض عن المائدة ليملى على ابنه برنامج مؤتمر برلين فى خمس وعشرين دقيقة

وقال بسمارك للجمهور : « سنسلك مسلك السماسرة الشرفاء » ، لكن بليشرودر حين يقرأ هذا يهز رأسه مرتابا ، وتنهض فى نفسه تجربة عريقة حين يرد بقوله : « ليس ثمة سمسار شريف »

الفصل الرابع عشر

فى ١٣ يوليه ١٨٧٠ تلقى بسمارك برقية ايمز وفى ١٣ يوليه ١٨٧٤ تلقى رصاصة كولمان وفى ١٣ يوليه ١٨٧٨ وقع على وثائق مؤتمر برلين . واليوم الثالث عشر الذى كان يؤثر أن يتحاشاه وهو يوم الجمعة ، قد جلب له الحظ مرتين وسط الشقاء ، فهل يجلب له السوء هذه المرة ، بعد مظهره الباهر ، ويلحق به الضرر ؟ مع أنه لم تلمع فى حياته لحظة أبهر من هذه اللحظة ، اذ ينهض عن مجلسه على المائدة الكبرى وسط حدوة الحصان فى البهو المقبب فى سراى المستشارية رئيسا لأوربا ليحيى ساسة الدول العظمى ، وهذا شيء لم يقع له منذ عشرات السنين . وكانت لحيته البيضاء تكسبه مظهر البطريرك ، لكن ما كان يعانيه واضطراره الى التكلم بلغة أجنبية أدبا منه كرئيس ، وطمعه فى التحدث بالفرنسية على سجيته ، ثم شكه قبل كل شيء فى صواب هذا المشروع بأكمله ـ كل هذا كان يقلقه الى حد أنه افتتح المؤتمر مضطربا « فى شيء من النرفزة »

مؤتمر برلين

ويجلس من حول المائدة الخضراء عشرون رجلا من القادة يمثلون سبع أمم . فعن يمينه تجلس الملكية . أليس هذا رجلا من النور ذلك الذى يمثل اليوم دور جنرال من الاونفيد ؟ ان ملامحه الضيقة الهزيلة يختلط بعضها ببعض ، وأنفه وأذناه كبيرة ، وفمه يدل على أنه لم يحرم نفسه شيئا ، ولحيته قصيرة ، ومظهره أشعث قليلا ، لا يدل على مهابة : انه الكونت أندراسى رجل الادراك السريع والتصميم البطيء ، والى جانبه الكونت كارولى سفير النمسا الابدى فى برلين ، ذلك الذى لم تستطع الحرب ابعاده عنها الا بضعة أسابيع ، ومعهما فيناوى يجلس بين ممثلى فينا هو الكونت هايميرله يبرز كل شيء فيه مدببا ، أنفه كالقلم الرصاص الذى يدون به ملاحظاته

والرجل الجالس عن يسار بسمارك والذى يبدو كانجلتره العجوز الطروب ، راضيا فكها ، هو وادنجتون رئيس الوفد الفرنسى الحامل لاسم انجليزى والراجع الى أصل انجليزى ، العالم الاثرى أكثر منه وزيرا للخارجية ، لكن جاره الكونت سان فالييه ، الكثير الحركة يمثل أمته خيرا مما يمثلها هو ، فله حمية الرجل الدموى الذى انكسر ، والى جانبهما ديسبريه ذو الملامح الذكية والمظهر الذى ينم نصفه عن الوصيف والنصف الآخر عن رجل الدين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن ماذا يريد الشرق الأقصى هنا ؟ أليس هذا الماكر القصير يابانيا ؟ انه الكونت كورتى الذى يمثل ايطاليا هنا بذكاء أوفر مما يمثلها جاره الكونت لاؤناى الفارس . والى جانبه يجلس رجل أزرق العينين له سمت أجراء الريف الألمان ، لكنه يلبس طربوشا . ان كل شىء على هذه المائدة يلوح مختلطا ويدل على سخف الكلام عن الاجناس والامم ! وهذا الجرمانى الوسيم يدعى على باشا ، هو الآن جنرال عظيم ، لكنه لما كان غلاما من ماجديبورغ ، كان يسمى باسم آخر ، ويقال انه هرب من سفينة كان غلاما فيها وأعجب به الصدر الأعظم فشمله برعايته . وقد بقى له من العمر شهران يختم بعدهما حياته المغامرة بخناجر الالبانيين . أما الآخر فبلاشك ذلك الشرقى الاصيل قره تودرى ذو الانف الدقيق والشفتين المطبقتين ، الشاحب اللون ، المتحفظ ، اليونانى الغامض من فرعه الى قدمه

وهناك الى جانب البارون الفيناوى ـ أيمتد الوفد الالمانى ؟ هذا هو اللورد رسل سفير بريطانيا فى برلين ، ذو الوجه الفطن الطيب والحركة الدائبة ، لكنه لا شكل له ، كذلك هذا الجالس الى جانبه ذو الرأس الرسولى الجميل ، والجبين البديع واللحية الشقراء ، من يظن انه اللورد سالسبورى ذلك الرجل الدقيق المغالى فى دقته والعليم بشئون الشرق ؟ لكن العين لا تظل مسلطة عليه وعلى ملامحه الانسانية الرحيمة اذا هى أخذت من يجاوره ووقعت على الرأس التالى : فهذا الشخص الاول لا يمكن تعيين قوميته ، وهو أبعد من أن ينسب الى انجلتره . ذلك هو الايرل أوف بيكونزفيلد الذى كان نمطا من اليهودى الشاب الجميل حين كان ما يزال يسمى ديزرائيلى ويكتب القصص ، أما الآن فنصفه شيطان ونصفه موسيقار ، بأنفه الضخم ، وشفته السفلى المدلاة ، وشاربه الذى يشبه شارب القط ، وجبينه العالى الذى تتدلى فوقه خصل خفيفة ، كأنما هو عالم من العلماء رسمته ريشة رمبرانت ، وحين قصد الى مكانه متكئا على عصاه ، ما كان أحد ليظن على رغم بذلة البلاط التى كان يرتديها أن هذا هو الرجل الذى فتن ملكته

ولكن أين جورتشاكوف الشهير كديزرائيلى ؟ هناك ، هذا الرجيل المتداعى ؟ انه فى الثمانين ، على نقيض الامبراطور غليوم الذى لا يزال منتصب القامة كأنه ملازم ، يحمل جسمه المصاب بداء النقرس الى كرسيه ، فاذا تأمله المرء عن قرب لم يلف وجهه متغضنا كجسمه ، ووجد فمه لا يزال شهويا ، وخده طريا ، وليس سوى أنفه ما هو حاد . فاذا تلفت حوله مستطلعا ذكر رائيه ، ونصفه من أصل ألمانى ، برجل ألمانى غريب من سبتسويج ، وبدا من أهل اللهو لا من أهل الدسائس ، لكنه كلاهما على الاقل . وقد حمل مولاه حملا على أن يجلسه الى هذه المائدة ، لكن التصويت عليها ليس له بل لسفير مولاه . أما الاعمال فليس لكليهما شأن فى ادارتها بل لذلك الجار الانيق الكونت شوفالوف ، مخترع هذه المائدة وصاحب فكرتها ، وأنموذج المارشال الفرنسى ، والرجل الفطين الكيس ، الذى لا يشق له كمفاوض غبار

« نرفزة »

وعندما بدأ المؤتمر جعل الخصوم يقعقعون بسيوفهم فى خفوت : ومع أن الرئيس كان يتكلم الفرنسية فوق أرض ألمانية فقد كان ديزرائيلى يرد بالانجليزية التى يتكلمها فى وقار ، وبلهجة اكسفورد الكلاسية ، وان لم يفهمها سوى القليل ، فيقفيه جورتشاكوف ، فبدلا من أن يتحدث بالروسية (كما يتوقع بسمارك) يقول بالفرنسية أشياء ليست من الردود فى شىء ، فيضطر الرئيس البرم بخطبته المتقعرة الى أن يكتب فى ورقة هذه العبارة : بومبوس ، بومبو ، بومب ، بو . ويتوجه الجميع على الاثر الى مقصف فى القاعة المجاورة يسجل فيه بوخارت « أكبر توفيق للمؤتمر فى كل من جلساته العشرين »

حوادث

وقد كان بسمارك قبل الجلسة الاولى حانقا ، لأن السادة وهو يرد لهم الزيارة « استقبلوه جماعة على نحو ما يجرى فى المدن الصغرى ، وأتعبوه » . ثم جعل يتفكه بهم ويحط من قدرهم بألفاظ مقذعة ، ويحاول فى الجلسات التالية أن يحكم على أسلوبه ، ويقول بصوت عال حين يتقدم سالسبورى بطلب جديد : « طلب آخر ! » ويقدم التقرير اليونانى « فلا يأبه لما يرد فيه من حجج ، بل يعجل معيل الصبر باسكات كل اعتراض ، ويشعر الجميع بوقر سلطته تدريجا » . وهو فيما عدا ذلك يتكلم فرنسية بديعة ، لكن فى تدفق كما يتكلم الالمانية ، وبطلاقة أو تريث كما تكون حالته النفسية والعصبية . « لقد ندر أن نمت قبل السادسة بل كثيرا ما أنام فى الساعة الثامنة صباحا فلا أغمض جفنى سوى بضع ساعات ، ولا يقابلنى أحد الى الثانية عشرة ، ولكم أن تتصوروا فى أية حالة أكون حين أنهض بعد ذلك للجلسات . وقد كنت اتناول قبلها قدحين أو ثلاثة من الجعة المزوجة بأقوى نبيذ من البورت ، وذلك لأنشط دمى كما يجب ، والا كنت عاجزا عن أداء المهمة الملقاة على عاتقى » ومع ذلك تجمع كل التقارير على أنه كان عظيم الاثر فى توسطه بالاقتطاع تارة وبالتساهل أخرى وبالتحويل ثالثة . وقد كانت ثقته أول الامر بأندراسى ورسل وحدهما ، يفتش فى رسل عبثا عن رذيلة خافية إذ لا يمكن أن يوجد مثل هذا الانجليزى الكامل الذى يجيد الى ذلك كافة اللغات ، أما سالسبورى فيود لو وكل الى ضابط صف تدريبه نصف ساعة فى كل يوم ليجعل له خيرا من هيئته ، أما أحمد على فان بسمارك يعامله معاملة الخوارج فهو فاتر معه يكاد أن يكون فظا ، وجورتشاكوف عدوه يتودد اليه توددا مشبعا بالتهكم . وحين أراد فى احدى الزيارات أن يعين الهرم على النهوض عن كرسيه ، فهم كلب بسمارك هذه الحركة على أنها اشارة له بمهاجمته ، فصاح به سيده ، فظن الروسى الذى لم يكن قد رأى الكلب أن بسمارك يبغى به شرا ويريد الانتقام منه فجاءة فتراجع أمامه مذعورا . وفى المساء يقص بسمارك هذه الحكاية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويزيد عليها هذا الشرح وهو المدرب السياسى للكلاب : « ان بتراس لم يتم تدريبه فهو لا يعرف من ينبغى أن يعض ، ولو عرف لعض التركى »

وقد كان لمغامرى المؤتمر الثلاثة ، وهم غلام السفينة والكاتب الروائى وبسمارك ، تأثير بعضهم فى بعض . وقال بسمارك فى أول مساء « أود لو أعرف هل يريد بيكونزفيلد الحرب ؟ » . ولم يكن أحد يدرى ذلك ، بل كان الجميع يشعرون بأن بيده المفاتيح . وقد كان سيىء الظن ، جعل فرئزالذى رسمه أثناء انعقاد المؤتمر يؤكد له الحين بعد الحين جهله بالانجليزية. لكنه كان يضحك من نكات برلين ، وسمع أيضا بما أجاب به حارس الشرف ضابطه حين سأله فى خدمة من يقف فقال : فى خدمة B. A. Cohnfeld يا حضرة الضابط

ديزائيلى

لو كان بسمارك عدوا لليهود لكره كل شىء فيه وخاصة قدرته على الخطابة، لكنه بعد بضع محادثات معه كانت علاقته به خيرا من علاقته بأى انسان غيره فى المؤتمر . وقد قال عنه فيما بعد : « لقد زارنا مرارا فى المساء . ولما كان مريضا فقد اشترط أن يكون وحده ، وهذا ما يسر لى معرفته : فانه على الرغم من قصصه العجيبة كان من الميسور كل اليسر مفاوضته ، ففى ربع ساعة كان المرء يعرف أين هو معه ، ويعرف مدى ما يريد الذهاب اليه معينا بالدقة ، وكان الاتفاق معه مضمونا بعد ادلاء وجيز بأفكاره » . وقد ظل بسمارك محبا لديزرائيلى حتى مات ، وان كان هذا قد صوره عقب المؤتمر فى صورة « الكونت دى فيرول » بعد أربعين سنة من رواية موتلى عن بسمارك

ولم يتحدث بسمارك عن أعمال المؤتمر الا لبليشرودر فيما يلوح ، اذ قال له فى أول مساء « ان السلم بالنسبة الى الحرب هو بنسبة ٦٦ الى ٣٤ وربما بنسبة ٧٠ الى ٣٠ » وأدب بليشرودر لاعضاء المؤتمر « مأدبة عظيمة لم تقدم فيها ملاحات ولكن عزفت فيها الموسيقى عزفا كثيرا » ودعاهم ولى العهد الى نزهة مائية فى فانزى ، كاد المؤتمر يهلك كله غرقا فيها من هبوب العاصفة ، ثم توجه بهم بعد ذلك الى سان سوسى حيث وجد المؤتمر ــ كما يروى البرنس هوهنلوهه ــ « قبل المأدبة حقا أحواضا كثيرة للغسيل ، ولكن آنية خزفية واحدة فقط لم تكن مما يغسل فيه ، فتجمعت حولها أوربا بأسرها »

والمسائل التى دارت حولها المفاوضات لم تعد مما يروى اليوم ، وتفاصيلها لا تهم أحدا . لكن الهام وحده هو ما كان بين المتنافسين الثلاثة على الشرف من تنافس . وقد بلغ هذه التنافس بين الروسيا وانجلتره الذروة فى بلغاريا. فانه لما لم يرد الروس تساهلا ، وأوصى بيكونزفيلد على قطار خاص يغادر فيه برلين تدخل بسمارك ، اذ كان يعرف من شوفالوف ما كانت عليه الروسيا آنئذ من ضعف ، فحمل الانجليز على تساهل بسيط ثم حمل الروس بعدئذ على تساهل كبير جدا ، وأنقذ السلم على حساب الصداقة : ذلك أنه سرعان ما تحدثوا عن « اذلال الروسيا على يد بسمارك »

نتائج

وكان الامر يومئذ يدور فيما خلا الاكذوبة العامة القائلة بضرورة حماية المسيحيين من الكفار ، حول التساوم على الاراضي : وتحديد ما يسمى بمناطق المصالح التي لم يهتد ساسة لندن وبطرسبورغ في خرائطها الى أكثر مما اهتدى الوسطاء الالمان . فانهم لما أعطوا بلغاريا السنجق ، على سبيل المثال — وجد ان هذه الارض تتجاوز جبال البلقان الامامية وأن انجلتره تساهلت أكثر مما ينبغي فهي تريد الآن أن ترجع فيما تساهلت فيه . ويكتب هوهنلوهه يقول : « لقد وجدنا بعد طول البحث قطعة صغيرة أمكن أن نأخذها من الروس، وتقع خلف سلسلة من الجبال ... أما أن هذه القطعة من الارض تصلح لان تكون حدا معقولا فما لا يعرفه أحد منا .. هذا الى أن الخرائط غير دقيقة ومتناقضة »

فلما أمضيت المعاهدة بعد أربعة أسابيع لم يسد في البلقان ولا هدوء المقابر. فقد « أقيمت » بلغاريا ، و « استقلت » صربيا ورومانيا والجبل الاسود ، ووسعت اليونان ، وجعل نهر الدانوب على الحياد ، وألفت له لجنة أوربية ، وبقيت المضايق مقفلة كما كانت ، لكن النمسا احتلت البوسنة والهرسك اللتين بقيتا تحت السيادة التركية ، وأدارتهما : فكانتا مصدر توتر دام عشرات السنين ، وان كان قد اتفق عليهما قبل ذلك بسنة بين القيصر وهابسبورغ . ولم يسو شيء وفق الاجناس أو طبقا لرغبة الاهالي ، فقد بقي الصربيون ممزقين في أربعة بلدان ، وبقي البلغاريون في ثلاثة ، وأقصى الاسلام ، لكنه كان ما يزال في أوربا : ثم أسدل على المسائل التي لم تحل ستار رقيق

خيبة أمل الروسيا

وخسرت ألمانيا بهذا المؤتمر الذي لم تكن لها فيه مصلحة مباشرة ، مصلحة كبيرة بصفة غير مباشرة : فقد تزعزعت صداقتها للروسيا من دون أن تتوطد بينها وبين الانجليز صداقة ، ويورد بسمارك لهذا أسبابا شخصية : « لقد كنا اتفقنا قبل المؤتمر مع القيصر على أن نؤازر كل رغبة للروسيا ، ووعد القيصر في مقابل ذلك بأن يحل شوفالوف محل جورتشاكوف .. ولا بد أن جورتشاكوف قد علم بهذا الاتفاق ، اذ كان في المؤتمر يطلب للروسيا أقل مما تبغيه حتى قلت لشوفالوف اني لا يسعني أن أكون روسيا أكثر من الروس .. فلما عرض جورتشاكوف النتيجة على القيصر فيما بعد قال له : « الفضل لبسمارك في هذه الخاتمة السيئة » ويقال ان القيصر رد على ذلك بقوله : « صحيح ! اذن فلتبق رئيسا للوزارة ! » ومحقق أن القيصر كان يشعر في هذا النضال بأن « السمسار الشريف » قد خذله ، وكان يسمى المؤتمر « الائتلاف الاوربي ضد الروسيا بزعامة بسمارك » ، وينعت شوفالوف بأنه مخدوع البرنس بسمارك

لقد نشر مؤتمر برلين القلق في البلقان وأوجد الشقاق بين الدول العظمى فلم يلبث أن تحول الشقاق الى الانقسام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الخامس عشر

رسالة القيصر فى سنة ١٨٧٩

« اننى يا خالى العزيز ، وقد شجعتنى صداقتك الدائمة ، أرجو أن تسمحوا لى بأن أبدى لكم نقطة دقيقة تقلقنى . فالامر يتعلق بمسلك بعض الوكلاء السياسيين الالمان الذين يجهدون للاسف منذ زمن فى معاداة الروسيا ، مناقضين بذلك كل المناقضة تقاليد صداقة كانت منذ أكثر من قرن رائد سياسة حكوماتنا ، وكانت مطابقة لمصالحنا المشتركة . وهذه الصداقة باقية فى قلبى لا تتغير ، وتعمر قلبكم فيما أرجو . بيد أن العالم يحكم وفقا للافعال .. فالاتراك الذين يؤيدهم الانجليز والنمسويون أصدقاؤكم ، يسببون للبلغاريين على الدوام متاعب بسيطة والفصل الآن لأغلبية القوميسيرين فى أوربا ، ففى كل المسائل تقريبا تناصرنا فرنسا وايطاليا بينا يؤيد الألمان النمسويين على الدوام، عملا بأمر يلوح أنهم تلقوه ، ويظهرون لنا العداوة بصورة متواصلة ..

« أرجو ألا تؤاخذونى ! لكنى أرى من واجبى أن أوجه التفاتكم الى العواقب الوخيمة ، التى يمكن أن تكون لذلك فى علاقاتنا الودية ، من قبيل ما بدأته صحافة البلدين .. انى أدرك جيدا أنكم تعتمدون على حسن الصلات بالنمسا، لكنى لا أرى للالمان مصلحة فى التضحية بالمصالح الروسية . فهل يليق فى الحق بسائس عظيم أن يلقى فى كفة الميزان بسخائم شخصية ، حين يتعلق الامر بمصالح دولتين عظيمتين أسدت احداهما الى الاخرى فى سنة ١٨٧٠ خدمة وصفتموها أنفسكم بأنها لن تنسى ؟ اننى ما كنت لأسمح لنفسى بأن أذكركم بها لولا أن الظروف جدية لا تحتمل أن أخفى عنكم خشيتى التى يمكن أن تكون عواقبها وخيمة على بلدينا ، وقانا الله شرها وأضاء لكم السبيل ! »

حين قرأ غليوم فى أغسطس ١٨٧٩ فى هذه الرسالة المستفيضة التى بعث بها القيصر هذا التحول الجدى كان ادراكه للعواقب قليلا كادراك مرسلها . فكثيرا ما وقع الاحتكاك فى صداقة الحليفين ومصالحهما فى قرن من الزمان ، لكن الامور كانت ترد الى نصابها اذ كانت القواعد التى أقامها بسمارك للصداقة الالمانية الروسية أعمق من أن تنال حملة الصحف منذ مؤتمر برلين من حالات القيصر وخاله الامبراطور النفسية أو تصل حتى الى رقعة شطرنج بسمارك

فان الحدود الطويلة المشتركة بين البلدين وانتفاء أى غرض لحرب تقوم

بينهما قد جعل كلاهما من بسمارك ، فى مواقف حرجة منذ ٢٥ سنة ، صديقا لروسيا لا بد منه تقريبا ، وقد دخل فى هذا منذ سنة ١٨٧١ عامل آخر هو رغبة فرنسا فى أن تحالف الروسيا فى سبيل حرب مخيفة فى ميدانين . ومن ثم كانت سياسة بسمارك منذ ثمانى سنوات أن يقف بين الروسيا القيصرية والنمسا الامبراطورية ، وأن يحول بين « حيوانى الرنوك » وألا يفضل أحدهما على الآخر ، لأنه ــ كما قال من عهد قريب لمتنخت ــ « اذا انضممنا الى النمسا باتت الروسيا عدوا لدودا لنا وحليفا لفرنسا »

سوء الظن المتزايد

وآخر خبر من السفير الالمانى فى بطرسبورغ كان يسجل فى يوم شكوى للقيصر من تلك الاحوال السيئة التى أشار اليها ، وفى يوم آخر تلطفا فى مأدبة وهتافا للجيش الالمانى . لكن بسمارك عزا منذ ثمانية أشهر أفكارا جديدة الى الروسيا وتقرب الى صديقه المجرى أندراسى الذى استدعاه أيضا الى جاشتين . ولا يمكن أن يكون الثأر من جورتشاكوف ، الذى كان مايزال يحكم بصفة رسمية فحسب هو ما حفزه الحفزة الاخيرة الى موقفه . لكن تلك الاهانة التى لحقت بسمارك فيما مضى كانت أول ما أثار سوء ظنه ، ثم جاء سخط الروسيا بعد مؤتمر برلين الخطر فزاد سوء ظنه فى سرعة ، ثم جاءت بعد ذلك حملة الصحف وزيادة الجيش الروسى زيادة من الصعب مراقبتها ، ونفوذ وزير الحربية المعادى لألمانيا ــ ذلك النفوذ المتزايد ــ جاء ذلك كله ضغثا على ابالة . والآن تأتى رسالة القيصر فتشعل رغبة بسمارك فى النضال . ومن ثم يعجل اجتماعه بأندراسى

ذلك أن ما يسطره الى مولاه من جاشتين هو أشد ما كتبه عن بلد منذ أيام ايمز : « ان الكلمات التى يستطرد بها القيصر ليؤكد لجلالتكم صداقته ، تفقد أهميتها الى جانب التهديد المكشوف .. الذى يهدد به اذا لم تخضع جلالتكم سياستكم لسياسة صاحب الجلالة الروسية وحدها . ومثل هذه اللهجة بين عاهلين هى الخطوة المألوفة فى سبيل قطيعتهما ، اذا لم تحل معاهدات دون هذه القطيعة ، والمجاملة المعتادة بين عاهلين لا تسمح فى العادة بأشد من هذه اللهجة حتى فى حالة ما اذا كانت النية معقودة على حرب . فاذا رددتم جلالتكم بنفس هذه اللهجة فمعنى ذلك أننا سائرون الى حرب فى الراجح »

التحول

وبعد ذلك يصور وزير حربية الروسيا فى صورة النهيليست المتنكر الذى يريد فى الراجح أن يخطو الى الجمهورية من طريق الحرب ، ويرد تحفظ الروسيا فى سنة ١٨٧٠ الى ضغط النمسا ، ويعدد أفضال بروسيا على الروسيا ، ويستخلص من ذلك فى النهاية انه كان الى الآن ينصح بالميل الى الروسيا لأن هذا الاستناد اليها كان الآمن « لكن أسباب الاشتراك مع النمسا أكثر منها مع الروسيا . وآصرة الأصل الالمانى ، والذكريات التاريخية ، واللغة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الالمانية ، واهتمام المجر بنا ، كل هذا يساعد على جعل التحالف مع النمسا أمرا مرغوبا فيه فى ألمانيا وربما أيضا أكثر قابلية للثبات من التحالف مع الروسيا . وليس سوى الصلات التى تربط الأسرتين الملكيتين والصداقة الشخصية التى يكنها القيصر اسكندر ـ ليس سوى هذا ما هو فى الروسيا أكثر مواءمة لهذا التحالف وما يرجح كفته ، فمتى ما بات هذا الذى يرجح كفة التحالف الروسى غير مضمون أصبح من الضرورى فى نظرى أن نتعهد بهمة ما يربطنا بالنمسا من علاقات »

واذا كان الامبراطور قد قرأ هذا مذعورا فانه أيضا قد فرض عليه أن يقرأ فى ختامه ما يرغب فيه بسمارك من الذهاب الى فينا من جاشتين ، وهو ما حمل الامبراطور على أن يرد فى عزم ندر أن عرف عنه قائلا : « محال ! فان روسيا لا بد أن ترى فى هذا قطعا للعلاقات معنا ! »

وبعد ذلك ببضعة أيام يتلقى الامبراطور برقية من بسمارك عن محادثاته مع أندراسى الذى اقترح عقد محالفة دفاعية ضد كل هجوم روسى فيتولاه الهلع ويتفق بدلا من ذلك مع القيصر ، من تلقاء نفسه ، على أن يتقابلا فى موضع روسى على الحدود ليزيلا سوء الفهم الذى أثاره خطاب القيصر . فيغضب بسمارك الآن أيما غضب ويثور لهذا التساهل ، ويشرح لمولاه فى عشر صفحات من صفحات الكتاب سياسته الجديدة شرحا بديعا ، فيبدى له بواعث هذه السياسة فى : غيرة جورتشاكوف ، ورسالة الاسكندر المهددة ، والخطر الذى ينطوى عليه ائتلاف كائتلاف حرب السنوات السبع ، يقابل ذلك اشتراك مع النمسا منذ ألف سنة وقد أشار اليه فعلا فى نيكولزبورغ ، واتقاء العزلة من دون تكاليف واضطلاع بواجبات . يصحب ذلك فى النهاية تهديده المألوف بأنه لا يسعه الاشتراك فى سياسة تغاير هذه السياسة

مدائح تنظم للنمسا

ويقابل الامبراطور هذا بمذكرة بخط يده عن الحديث الذى دار بينه وبين القيصر . فالامر لا يعدو سوء الفهم ، وليس فيه ظل من التهديد ، فهو مجرد خطأ ، فالمرجو أن تعتبر الرسالة وكأنها لم تكتب . وبعد ذلك استذكار لوصايا الأبوين الملكيين ، ووعود قلبية ، وصداقة تامة . وهذا أدعى الى رفض التحالف مع النمسا ! لكن بسمارك الذى يمضى مستقلا فى العمل لهذا التحالف ، يرسل الى مولاه الذى عاد الى ألمانيا من الحدود ، يرسل اليه الآن من جاشتين أحاديث مستفيضة كل يوم تقريبا ، يتناول فيها الكلام عن أوربا حتى اذا جاء سبتمبر تطورت هذه الاحاديث الى طلب :

« ان توقف أمننا على الروسيا عامل غير مضمون . أما النمسا فعلى العكس من ذلك ليست غير مضمونة الى هذا الحد . فالنمسا بطبيعة مركزها وتأليفها بحاجة كألمانيا على الأقل الى ما تستند اليه فى أوربا ، على حين يسع الروسيا عند الضرورة أن تقف بمفردها دون ما حاجة اطلاقا الى من يسندها ، ومن غير أن تتعرض لخطر الانحلال . وفى النمسا والمجر تملك الشعوب المؤلفة

لها ويملك ممثلوها أن يكون لهم رأى . وهذه الشعوب قبل كل شيء محتاجة الى السلام .. أما الروسيا فمن الميسور كل يوم اتباع سياسة حربية ضد ألمانيا من دون أن يلحق الحالة الداخلية فى امبراطوريتها ضرر .. والنمسا تحتاج الينا ، أما الروسيا فلا. وحالة النمسا الداخلية من الناحية الاجتماعية ربما كانت من دون الدول جمعاء أسلم حالة ، وسيادة البيت الامبراطورى المالك ثابتة فى كل قومية من قوميات الامبراطورية . أما فيما يتعلق بالروسيا فلا يعلم أحد أية عناصر ثورية تختمر فى الامبراطورية العظيمة ويمكن أن تنفجر فجاءة »

بواعث التحول

كان بسمارك من قبل يعتقد عكس هذا أو يزعمه ما فى ذلك شك : فقد كانت الروسيا فى نظره صخرة من البرونز فى وجه الثورة ، وكانت النمسا تنخرها الغيرة التى تأكل شعوبها ، فاذا بها الآن أنموذج الامبراطوريات واذا بالروسيا جمهرة من المتمردين ، بهذا يحاول بسمارك أن يقنع نفسه ويقنع الملك ، بيد أن الباعث الحقيقى ــ وسيظل كثيرا يتنوع ــ يلوح من بين السطور : فالنمسا ضعيفة وبحاجة الينا ، أما الروسيا القوية ففى غنى عنا ، وهى تهدد . وبسمارك الذى ألف أن يحكم ويتسلط ، قد كان يؤثر دائما فى الوزارة وهو رئيسها أناسا استطاع أن يحكمهم ــ فالآن وهو حليف يراد منه أن يطيق قيصرا مهددا كصديق ، فالحق فى المساواة هو قبل كل شيء ما يصده عن الروسيا التى تتقدم اليه مقعقعة فى جرأة مع أنه لم يسلم بهذا الحق لا فى الحزب ولا فى الاسرة ولا بين الزملاء . أما المجرى فرجل آخر ، لطيف دائما ، يجرى دائما وراء الالمانى القوى ، سعيد بأن يعيش تحت حماية الأقوى

ــ محال ! هذا ما يرد به الامبراطور . وهو الآن فى الثانية والثمانين من عمره ، وقد سمح لبسمارك الى الآن سبع عشرة سنة أن يقوده : لكنه فى هذه المرة يلوح صوانا . فلماذا ؟ لقد استثيرت حاسة الشرف عنده ، ثم ان هنالك فى نفس الوقت وصية الوالد ، ومسئولية القريب ، والعادة ، والميل . وقد اعتذر اليه ابن أخته الروسى اعتذارا رسميا خالصا ، وزال كل أثر : « فضميرى ، وهذا اقتناعى ، يمنعنى من الموافقة على اقتراح مستشار الريخ .. اننى فى ورطة يقشعر لها بدنى ، وخير لى أن أتراجع من الميدان وأتخلى عن الحكم لابنى ، من أن أعمل خلافا لاقتناعى ورأيى الذى أعتقد أنه الأفضل وأن أرتكب خسة فى حق الروسيا .. فاذا أراد البرنس (بسمارك) أن يدخل مع أندراسى فى محادثات يتناول فيها الكلام احتمالات بعينها من احتمالات المستقبل فلا مانع ، أما أن يعقد محالفة فلا ، فهذا ما لا أشترك فيه .. فقد كان البرنس نفسه يعارض من قبل فى غل أيدينا بالمحالفات .. وكان يعلن فى المناسبات أن النمسا لا يمكن الاعتماد عليها »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النضال مع الامبراطور

ان ذاكرة السيد تكون دائما بهذه القوة اذا ما أزعج . وأجوبة بسمارك تتشعب دائما وتتبع خطوطا أطول ، فهو الآن كما يرى ، يقوم بعملية الانشاء : فانه يكاد يبدو له أن الامر لا يتعلق بأكثر من اقناع الملك . فهو الآن يشكو من صحته المضعضعة ، ومن أنه لا يتحمل هذه الاحتكاكات والخلافات ، وأنه يستقيل اذا لم تتم المحالفة . « ربما كنت قادرا على أن أخدم الملك أكثر مما خدمته لو أنه حالفني الحظ فاتفق رأيي فى المسائل السياسية الفاصلة مع رأى صاحب الجلالة . فما تزال عواقب أمثال هذه الخلافات التى وقعت فى نيكولزبورغ وفرساى ، تؤثر الى اليوم على صحتى ولا سبيل الى التغلب عليها ، بيد أن قواى اليوم قد وهنت الى حد أنى لا أفكر فى المضى فى مزاولة أعمالى فى مثل الظروف السابقة . وفى ١٩ الجارى أتم سبع عشرة سنة أخوض غمار مناضلات لا تنقطع وجهاد كهذا . وأعتقد أنى بهذا الجهاد قد أديت واجبى فى خدمتى . فاذا لم تتغير الحالة فى هذه الاثناء فسأطلب اعفائى من الخدمة رسميا أو بالمعنى الذى يوحى به قانون الريخ اعلان استقالتى من الخدمة ، وذلك فى خلال ثمانية الى عشرة أيام »

فبعد ان وضع الفتيل للامبراطور بتحديد الوقت وهدده على هذا المنوال لم يزد الامبراطور الا حنقا ، فهو يعلن من جديد أنه من جانبه سينزل عن العرش اذا هدد بسمارك هذه المرة أيضا بالاستقالة

وهكذا يهدد هذا الزوجان الشيخان أحدهما الآخر من برلين الى جاشتين وبالعكس بالطلاق اذا لم يتساهل أحدهما مع الآخر ، وفى هذا يكلف المستشار وكيل الوزارة موافاته برقيا ويوميا بدرجة حرارة نفسية الامبراطور ، ويسأل الامبراطور هوهنلوهه : « ان المستشار غاضب منى ؟ » فكيف ينتهى مع بسمارك وهو يذهب الآن الى حد اعداد أهم المعاهدات على مسئوليته ! ويكتب الى بسمارك :

أخلاقية غليوم

« لقد حز فى نفسى ما قيل من أننا يجب أن نستخدم فى مسلكنا حيال الروسيا لغة ودودة فيما يظهر على حين نتحالف مع النمسا ضدها . وهذا التحالف قد استقر فى ذهنك وبات مقررا عندك الى حد أنك لم تعرض على الكونت أندراسى مشروعه بحذافيره فحسب ، بل سمحت له أيضا أن يحدث مولاه عنه ، وهو ما أقره مولاه أيضا فى الحال . . ألا ضع نفسك مكانى لحظة . فى الوقت الذى أقف فيه حيال صديقى الشخصى وقريبى وحليفى فى السراء والضراء فى شأن مواضع شط بها القلم وأسيىء فهمها من خطاب ، ولنصل فى ذلك الى نتيجة مرضية ــ فى هذا الوقت يفرض على أن أعقد محالفة وائتلافا ضد هذا العاهل ، أى أن أسلك خلف ظهره ما يغاير حديثى معه ؟ . . ولست أحب ولا يجوز لى أن أتنصل مما اتخذته بالفعل من خطوات مع أندراسى

ومولاه . فلك اذن أن تبسط فى فينا ما يترتب من احتمالات فى المستقبل على شقاق يمكن أن يتطور الى قطيعة مع الروسيا . لكنى لا أخولك (ارضاء لضميرى) أن تعقد أى ائتلاف بل أية محالفة .. غليوم الوفى المخلص لك »

عالمان هنا يتحاوران : بروسيا القديمة والريخ الجديد ، فارس وديبلوماسى ، ضمير ودهاء . لكن لابليس وسائل أقوى وأنجع . فيجب أن تلقى سياسته التأييد من هوهنلوهه فى باريس ، ورويس فى فينا ، ومولتكه فى برلين ، ومن الوزراء أجمعين ، ويهدد باستقالة الوزارة بأسرها : ويرى الامبراطور نفسه محدقا به من كل جانب . لكن الذى يعجب به هذه المرة ليس سياسة بسمارك ولا تكتيكه ، بل الامبراطور الشيخ

تضعضع الشيخ

وانه ليشبه الأسطورة الألمانية كيف يسافر بسمارك الى فينا فيختم المفاوضات ، ويثبت المحالفة فلا ينقصها سوى التوقيع ، وكيف يتجنب برلين وستيتين وبادن التى يغشاها الامبراطور الحين بعد الحين ويتحاشاها عنادا لأنه قد يكون خاشيا أن تقع بينه وبين الامبراطور الواقعة ، وكيف يحاول الامبراطور ويحاول الدفاع عن شرفه والذود عن كرامته خطوة خطوة ، لأنه لا يستطيع تبين سياسته ، وكيف يبغى أن يظل اسم الروسيا بعيدا من معاهدة تعقد ضد الروسيا ، ثم يخسر فى النهاية كل شىء . ويكتب عندئذ المهزوم يقول :

« منذ أربعة أسابيع وأنا أناضل ضد معاهدة فى فينا تناهض حاسة الشرف عندى ، وتناقض شعورى بالواجب . وهو نضال كففت عنه ليلة أمس بعد أن استنفدت كل ما عندى من أوجه الاعتراض واشترطت أخيرا أن تبلغ الروسيا البواعث التى حدت الى اتخاذ هذه الخطوة فى مذكرة . لقد تداعت كل قواى المعنوية ! ولست أعلم ماذا يكون من أمرى ! ذلك أن القيصر اسكندر لا بد أن يعدنى مخلفا وعدى بعد أن كتبت اليه أقول باملاء البرنس بسمارك ، « بالمحافظة على وصية آبائنا المئوية » . هاهوذا آخر وريث للقرن الثامن عشر جالس يفكر الآن فى أنه دخل باريس راكبا من ٦٥ سنة مضت فى صحبه جد هذا القيصر أيام أن بعثوا بنابليون الاكبر الى جزيرته

الآن هو على حق ، ومع ذلك لا يستطيع الثبات ! وليس ذلك لأنه أبصر بالأمور من وزيره ، ولكن لأنه وهو أسير الأخلاق والتقاليد مؤمن بآصرة القرابة التى تربطه بالأسرة المالكة الروسية ، لا يستطيع التخلص من دون أن يجرح شخصيا ولأن البلاد لا يمكن أن تتخلص من دون أن تتعرض للخطر . ولأنه هرم وقد بلغ من الكبر عتيا ، ولان ذهنه بات أكثر تيبسا من أعضائه ، فانه يرى الملابسات العظيمة فى هذا الصدد خيرا مما يراها وزيره . ولم يكن أحد فى عشرات السنين التالية ولا أحد ممن ولدوا بعد ذلك أصوب فى انتقاده لقرار بسمارك ولا أسد مما كان غليوم وقت تقرير هذا الانحياز الى النمسا فيما دونه من كلمات على هامش رسالة مستشاره

https://telegram.me/maktabatbaghdad

احساس غليوم

«لماذا يراد منا تأييد النمسا ضد الروسيا بكامل قوانا ثم نكتفى فى دفع هجوم فرنسا علينا بحيدة النمسا ؟. فما نفعل للنمسا ضد الروسيا يجب على النمسا أن تفعله لنا ضد فرنسا .. هذه قسمة ضيزى !! ان المعاهدة المعدة لا بد أن تلقى بالروسيا فى أحضان فرنسا فتطفىء هذه شهوة الانتقام ، ذلك ان فرنسا لن تجد أكثر ملاءمة من الفرصة التى تضع النمسا وألمانيا بين نارين .. لذلك يجب الابقاء على حلف البراطرة الثلاثة ، وعدم تمزيقه بمحالفة بين اثنين .. فان اذاعة المعاهدة المعدة أو حزرها لا بد أن يؤلف بين فرنسا والروسيا ! »

لقد تأمل بسمارك فى كل من هذه الأدلة المعارضة وأدحضها . لكن الذى فرض عليه هذا التحول عن سياسته ـ وهو أعظم تحول وقع فيها ـ يبدو من وحى شعوره أكثر منه نتيجة تقديره . وقد كان الاصل شعورا . وما كتبه اذذاك كارل ماركس ليس الا ما سبق لبسمارك تدوينه عن جورتشاكوف . فان ماركس يكتب الى انجل يقول : « ان أدل ما يدل على شخصية بسمارك هو الطريقة والكيفية التى وقع بها فى خلافه مع الروسيا . فقد أراد اخراج جورتشاكوف واحلال شوفالوف محله . فلما فشل فى هذا، كان من البديهى أن يقول : « هذا هو العدو ! .. فالى أن يجد جديد تخدمه هذه النقطة السوداء البادية فى أفق الشرق : فهو من جديد الرجل الذى لا يستغنى عنه .. وستجدد ميزانية الحرب فى الريخستاج التالى ، وربما جعلت ميزانية « دائمة » . »

أسباب أعمق

وكذلك كان السبب الثانى مرده الى الشعور : فما جعل بسمارك موافقة الشعب باعثا على محالفة قط ، لكنه تذرع بعكس ذلك لتفكيك عرى محالفة قائمة وتوهينها ، والآن يلجأ الى هذا التوهين فى كل ما يصرح به . فجنوب ألمانيا يهلل فى الواقع لذلك ، وتوافقه جميع أحزاب الريخستاج تقريبا ، وهو ما تكهن به ، وما رغب فيه لأسباب داخلية ولتزعزع الأغلبية التى تسنده . والسبب الثالث يرجع كله وفى حذافيره الى خلقه ، فقد قال للوسيوس : « ان التحالف مع اوتقراطى ، مع أمة مرهقة نصف همجية شيء محفوف بالخطر ، على حين أن التحالف مع دولة ضعيفة كالنمسا ينطوى على مزايا كثيرة » . وقال بعد ذلك « اذا كان لا بد لى من أن أختار ، فانى سأختار النمسا : فهى دولة دستورية مسالمة تقع تحت رحمة المدافع الالمانية . بينا نحن لا نستطيع أن نقضى من الروسيا وطرا » . فمتى تحاشى بسمارك من قبل أن يتخذ من الاوتقراطى حليفا ، ومتى طلب الدولة الدستورية ؟ منذ متى كانت النمسا أكثر تعلقا بأهداب السلام من الروسيا ؟ ايحاء ذاتى ليخفى عن نفسه وعن الغير أعمق الاسباب : فالحليف الضعيف الذى يقع تحت رحمة مدافعنا هو من يؤثره بسمارك فى شعوره بالسلطان بخاصة حين يخضع له الوزير الحليف

هذا التفاوت فى الشعور ، وهذه الظلال المستقرة على نفس السائس الذى لم يكن عظيما الا حين يحسب ، قد سببت التحول العظيم ، ثم شجعت عليه ، وأخيرا قررته . وكونه قد اختار ، مما يغاير مبدأه القديم ، واختياره النمسا أمر جلب الشؤم ، فما بلغه بذلك لم يعد الحماية من دولة عرف الى ذلك الحين أن يربطها بدلا من أن يبعدها . وما بلغه كان هذه المرة أقل مما نشده

ذلك أن بسمارك بدلا من مجرد تجديد التأمين تجديدا هدد بانهيار حلف البراطرة الثلاثة من دون أن يخلفه حلف آخر ، أراد أن يعقد محالفة كبيرة مع النمسا تقدم الى البرلمانيين وتضمن دستورى البلدين . والشعور هنا أيضا هو الدافع : فاصلاح الفاسد هو ما كان يدور بخلده ، واكمـــال ما نجح فى بعضه ، واقامة دولة ألمانية كبرى ! فهل ذلك الحاسب الهادىء الذى كان فى السنوات الستينية لم يعد موجودا بعد نصف جيل ؟ هل اندثرت الفكرة التى بعثته الى استبقاء تلك الملايين الثمانيـــة من الالمان خارج الريخ الالمانى ليتخلص من مزاحمة الشعوب الغريبة الكثيرة ويتخلص قبـــل كل شىء من مزاحمة آل هابسبورغ ؟ بلى لقد ذهبت هذه المزاحمة ، لكن الشعوب بقيت. والمحقق فقط هو أن بسمارك الذى أوهن يوما قوة النمسا ، قد سعى الآن الى النمسا لأنها باتت الأضعف

قسمة ضيزى

وهكذا يعود العدو الى ضحيته بعد أن دار به القدر دورته ، ويحالف الكيان الذى أوهنه بنفسه ، فهو يتزوج فى الشيخوخة امرأة هجرها فى شبابه . أفلا يربك أعقل الناس ذلك التهافت من شريكه ؟ فان فرانتس يوسف يأتى بنفسه الى ذلك الذى انتزع منه نصف سلطانه ، ويزور صاحب كونجريتس فى مسكنه فى فينا بعد ثلاث عشرة سنة ، لكنه حين يصر بسمارك على الصيغة التى وضعها هو للمحالفة يصطدم عند زائره وعند أندراسى برفض ينطوى على تصميم . ففى ذلك الحين هدم الاتحاد الالمانى، فالمهزومون يريدون اليوم أن يبعدوا عنهم روحه ــ روح هذا الاتحاد . واذا كان بسمارك يبغى اعادة مركز الثقل فى القارة الى وسط أوربا فان النمسا تؤثر أن تتطلع الى الشرق ، واذا لزم الامر تطلعت أيضا الى الغرب . ذلك أن أندراسى يرفض بتاتا أن يشترك أيضا فى حرب من أجل الالزاس . وانه ليحق لغليـــوم الهرم الذى يتوقع الاخطار من تلك الناحية ، أن يصيح مندهشا : هذه قسمة ضيزى ! فلأول مرة فى حياة بسمارك تجلب معاهدة من معاهداته لشريكه أكثر مما تجلب له هو من المزايا.

وتتقوى الآن الروح المعادية لالمانيا فى بطرسبورغ فاذا كانت شهوة باريس لأخذ الثار قد بدأت تتشبث هناك فانها تعتمد على الكسارة الشرقية الغربية فى أن تكسر البندقة من الوسط متى كان نصفها فارغا ، اذ أن هذا أسهل . وسيحتاج بسمارك الى ثمانى سنوات لتهدئة الخطر الذى تسبب فيه ، لكن خلفاءه سوف يستحضرون شبحه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولقد وازن بسمارك فى ذلك بين هذا وذاك فى أحاديث فردية قبل أن يختار ، فوصف الروسيا بأنها الرابطة الأقوى من الناحية المادية . ولم تغب عنه صداقة العاهلين ولا حب البقاء ، ولم ينس أنه ليس بين الدولتين خلاف ما ، كذلك قد أضاف الى ذلك فيما بعد نقط ضعف النمسا وهى : تأثرات الرأى العام المتحولة « فى السكان بين المجر والسلافيين والكاثوليك . . ونفوذ قسس الاعتراف فى الأسرة الامبراطورية ، وامكان قيام صلات فرنسية على قاعدة كاثوليكية » ، وأخيرا المسألة البولندية ، التى يحذر فى مذكراته منها ، اذ أن مسألة مستقبل بولندة هى ، بين ما يتطلب عقد محالفة عسكرية ألمانية نمسوية ، مسألة عسيرة من ثم ، ويلخص بسمارك اعتباراته بقوله : « ان أية رابطة من الاثنتين لم تكن مضمونة بصفة دائمة ، لا رابطة الاسرة التى تربطنا بالروسيا ، ولا التعاطف الالمانى المجرى الشعبى » . ويأبى كابوس الائتلاف أن يفارقه فهو يكتب فى سنة ١٨٨٠ يقول : « اننا نرجو ونتمنى أن نعيش مع الروسيا فى سلام ، فاذا لم نوفق فى هذا ، كأن تهاجمنا الروسيا أو تهاجم النمسا ، نشبت حرب مع الروسيا وحدها أو معها مؤتلفة مع فرنسا وايطاليا . حرب تكون على جانب عظيم جدا من الأهمية والخطر ، ولا نفيد منها شيئا تشتهيه حتى لو انتصرنا فيها »

هكذا كان شبح الحرب العالمية يلوح عندما عقدت المحالفة مع النمسا ، ويتمثله بسمارك . ولم يكن فى وسع أى رجل ولا أية وسيلة أن تبعد هذا الشبح

الفصل السادس عشر

تحزيب جديد فى أوربا

لقد كان اختيار بسمارك للنمسا عندما اختار ، حاسما : فكل شيء تلا ذلك نشأ عنه حتى المحالفة الثلاثية ، ولا يهمنا اليوم كثيرا ما وقع من الاضطراب وما نشأ من الأزمات بعد حدوث الكارثة العظمى . واذا كانت أسباب الحلف النمساوى والاسباب المعارضة له قد شرحت شرحا وافيا من واقع الوثائق والبواعث والمشاعر والاعتبارات الشخصية ، فان فى مقدور المرء أن يلم المامة سريعة بحوادث الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر ، فقد عاد بسمارك فأقام بناء وسط أوربا ، ونزل عن حرية الاختيار ، وعادى الروسيا ، وسعى عبثا وراء التقرب من انجلتره

وهذا الاخفاق بالذات قد جلب له فى البداية حظا : فاذا كانت انجلترة لم ترض أن توجه ضد فرنسا ، فان عدوها ، وهو القيصر ، قد شعر بالانحياز الى الدولتين الالمانيتين. وجاء حلف البراطرة الثلاثة الجديد يوزع مصالح البلقان قبل كل شيء ، فبات القيصر حرا فى مناهضة انجلتره فى الشرق ، وكانت هذه الفرصة سببا لحيلولة بسمارك بينه وبين الانضمام الى فرنسا فترة أخرى . وقد جدد تحالف سنة ١٨٨١ فى سنة ١٨٨٤ ، وعقد فى تلك الاثناء التحالف الثلاثى مع النمسا وايطاليا وهو التحالف الذى أريد به التفريق بين ايطاليا وفرنسا أيضا ، وان كان بسمارك لم يأمل من مساعدة ايطاليا أكثر من « أن يظهر طبال ايطالى على مشط الالب بالراية المثلثة الالوان » . أما أن أحد حليفيه كان عدوا لدودا للحليف الآخر فهذا ما لم يكن يجهله وان كان قد اعتقد أنه يستطيع التغلب عليه .

ولم تكن أية محاولة من هذه المحاولات تبدو له حاسمة ، وانما كان يرمى من ورائها جميعا الى غرض مشترك هو ضمان السلام . وحتى أثناء الأزمات التى نشأت فى السنوات الثمانينية لم يرد بسمارك حربا قط كما كان موقفه فى عشر السنوات السابقة، بل انتزع السلام انتزاعا فى مرتين أو ثلاث. وفى استعراض له لحوادث الماضى يعدد كرة أخرى تلك المسائل التى كانت تقوض دعائم النمسا وهى اختلاط الشعوب ، وتأثيرات رومه ، والجامعة السلافية ، والبوسنه ، وصربيا ، والمسألة البولندية ، والتشكية ، ومسألة تورينو ، فيتكهن بأنها جميعا « يمكن أن تصبح نقطا متبلورة فى الازمات الاوربية لا فى الازمات النمسوية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحدها ، نقطا تتأثر منها المصالح الالمانية على قدر ما يكون تضامن الريخ الالمانى والنمسا فحسب .. فمن الخرق أن نعد التحالف الثلاثى أساسا أمينا يعتمد عليه فى كل الاوقات العصيبة » . وقد رفض بسمارك كل زعم للنمسا فى حقها فى المساعدة الالمانية فى البلقان ، أولا عند عقد التحالف ثم بعد ذلك دائما على مر السنين ، وتجنب كل قطيعة بينه وبين الروسيا : فعلى هذين الشرطين فحسب كان التحالف الثلاثى ممكنا ما دام بسمارك هو الذى يقـوده . أما خلفاؤه فسوف يحلون الوفاء النيبيلونجى (١) القاتل محل المحالفة الخطرة

رؤيا سنة ١٩١٤

ان مسلك بسمارك فى أزمات العقد التاسع من القرن التاسع عشر ليكاد يدل بالدقة تقريبا على ما كان خليقا أن يسلكه فى الأزمة التى سبقت الحرب العالمية ، فانه فى سنة ١٨٨٥ لما انهار حلف البراطرة الثلاثة من جراء المسألة البلغارية ووقف بسمارك اذذاك حليفا للنمسا وايطاليا ورومانيا ، وأراد الروس اقصاء أمير باتنبرج والاستئثار بحكم بلغاريا ، طلب النمسويون من ألمانيا بغتة أن تقدم لهم العون فى مشاغلهم البلقانية ، فرفض بسمارك رفضا باتا قائلا ان ما تملكه النمسا هو ما يصان وحـــده أما التوسع فيما خلا ذلك فيتم على حسابها ، ولتتعرض فيه للخطر وحدها . « اننا نقف الى جانب النمسا بكل قواتنا اذا سلكت معها الروسيا مسلكا عدائيا أو أثارتها اثارة تناقض المعاهدات، لكنه اذا جر الحرب مع الروسيا زحف النمسا فى صربيا من دون تفاهم سابق تفرضه المعاهدات ، فلن نستطيع أن نبرر بمثل هذه الحالة حربا بين ألمانيـا والروسيا أمام الأمة الالمانية » . رؤيا يوليه ١٩١٤ .

هذه الأزمات تجدد قلقه فهو يقول لوزير الحربية كلمة المجاهد حين يقول : « اذا لم نحصل على المال اللازم للتسليحات الجديدة ، فسأسرقه وأنام بعدئذ فى السجن أهنأ مما أنام الآن ! »

الرجوع الى الروسيا

فى تلك الأثناء قتل القيصر فى أوائل عام ١٨٨١ وكان ابنـــه صعب المراس لكنه لم يكن معاديا لألمانيا . فلما لم يجدد حلف البراطرة الثلاثة تحول بسمارك من جديد ، ثم سعى فى بداية عام ١٨٨٧ الى تحالف مع الروسيا . أجل انه كان بعد ثمانى سنوات من عقد محالفته مع النمسا ، مســـتعدا لأن يماشى الروسيا أقوى مما ماشاها ، بيد أنه ما كان يجوز له أن يطفىء نار الحماس للتحالف النمسوى القائم ولو جاز له ذلك ما استطاعه : فان رغبة الالمان فى الاتحاد مع اخوتهم الالمان شعور طبيعى أعمق من أن يسمح بالتفكير فى أن الالمان فى المملكة النمسوية ليسوا سوى فئة صغيرة ، وان معظم المواطنـين

---

(١) نسبة الى قصة « النيبيلونجن »

والجنود النمسويين غرباء لا يكنون لنا من الود أكثر مما يكن الفرنسيون فى الناحية الاخرى

وفى تلك الاثناء بات شوفالوف أخيرا سيد السياسة الشرقية فأعلن أنه اذا استطاع القيصر الحصول على المضايق كان لبسمارك أن يبعث الى باريس بحاكم بروسى . فبسمارك يجرى وراء هذه المحالفة الجديدة كما كان أندراسى يجرى وراء المحالفة الالمانية قبل ثمانى سنوات ، فقد كانت كلتاهما تأمينا مجددا وان اختلفت الاغراض . وهذه المعاهدة الجديدة يراد بها تأمين بسمارك ضد فرنسا

تأمينه فقط . فانه لم يكن فى نيته حتى ولا اضعاف فرنسا بوصفها دولة عظمى ، فهو يفكر بالاحرى فى امكان تحالف انجلتره فى عهد غلادستون مع الروسيا ، وهو أمر يحولنا رأسا الى ناحية فرنسا ، ويريد أن يضمن احدى الدولتين على كل حال . على اننا حتى « لو هاجمتنا فرنسا لما اعتقدنا أن فى امكاننا القضاء على أمة مؤلفة من أربعين مليون أوربى لهم ما للفرنسيين من مواهب واعتداد بالذات . فان هذا لم تستطعه ثلاث امبراطوريات عظيمة فى الشرق منذ مائة سنة مع الامة البولندية التى هى دون الامة الفرنسية بكثير . . لكنه اذا بقيت فرنسا قوية على كل حال ، أو أصبحت قوية مرة أخرى بعد استجمام قصير بحيث يتحتم علينا أن نحسب على الدوام حساب جيرتها ، فانه مما يحسن اذا نشبت الحرب التالية وانتصرنا فيها أن نعاملها معاملة كريمة كما عاملنا النمسا فى سنة ١٨٦٦ . فاذا كنت قد تحدثت فى مجلس الريخستاج بغير ذلك فلكى أنفر من الحرب . فاذا لم ينجح هذا وكسبنا أول معركة فسنعرض الصلح على فرنسا عندئذ بشروط حسنة . فاذا هزمنا فيكاد لا يكون عندئذ سبيل الى أن نفترض أن السياسة الروسية سترحب كثيرا باقتراب الجمهورية الفرنسية المظفرة من الروسيا جغرافيا »

ويقترب ثانية خطر الحرب فى مايو ١٨٨٧ أى فى الوقت الملائم لبسمارك لان يضغط على شوفالوف فى عقد المعاهدة . وهنا يضرب الساحر الشيخ ضربة من ضرباته التى لا يخطىء فيها الحساب : فهو يطلع زميله الروسى على محالفته السرية مع النمسا عام ١٨٧٩ ضد الروسيا ! فيرى الروسى جليا أن شريكه مصمم على أن يؤمن نفسه من حليف على يد حليف آخر فيؤثر أن يشترك فى هذه اللعبة لمصلحته على أن يفسدها ايثارا للأخلاق ، وكذلك اسكندر الثالث رجل أصغر سنا وأربط جأشا من غليوم الأول الذى لم يرد بحال أن يخلف وعده . وبذا يشترى شوفالوف تفويض بسمارك بالزحف على البوسفور والتقدم نحو بلغاريا فى مقابل وعده اياه بوقوف الروسيا على الحياد فى حالة هجوم فرنسا على ألمانيا ، وهو حياد لا يقوم

فالآن يملك بسمارك فى جيبه أخيرا ، وكما حدث له من قبل ، معاهدة على أسلوبه تنفعه بقدر ما تنفع شريكه المتعاقد معه ، وحقا أن الروسيا لراضية ، فعندها وعد ألمانيا بالمحافظة معها على الحالة الراهنة فى البلقان ضد النمسا أيضا ، وأكثر من ذلك ، أن الروسيا لم تعد بحاجة الى أن تخشى الآن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تآمر ألمانيا عليها مع النمسا ، فاذا هاجمتها هذه وقفت ألمانيا على الحياد المشرب بالعطف ، فلقد نسيت ليفاديا . ولقد يكون هناك الشيء الكثير يفصل فيه ضد النمسا ، اذ ليس فى استطاعة أحد فى اللحظة العملية أن يقرر أى الطرفين « المعتدى » !

مكيافيللى

ان هذه القاعدة المضحكة التى تقوم عليها كل معاهدات التحالف فى أوربا والتى يتردد ذكرها فى عبارات « من دون تحرش ، وفاتح ، ودفاعى » قد سلبت كل هذه المعاهدات الصراحة العملية كما سلبتها سريتها فى الوقت نفسه كل وزن أدبى ، وقد كان مافى هذا النظام الذى سعى به بسمارك الى تأمين نفسه من دسائس فينا بالواجبات التى اضطلعت بها بطرسبورغ ومن مكر بطرسبورغ بخوف فينا ، كان مافى هذا النظام من خداع لايزيد يومئذ على أساس كل المعاهدات السرية المعقودة فى أوربا ، بيد أن بسمارك تكهن يومئذ بما يمكن أن يوجه اليه من لوم فكتب مايلى تبريرا لمسلكه :

« اعتقد على النقيض من ذلك أن امبراطور النمسا يرغب فى عقد مثل هذه المعاهدة .. وحتى اذا كنت مخدوعا فى هذا الذى أعتقده .. فان التأثير الذى يكون لارتياب النمسا سيكون أقل خطرا من ارتياب القيصر اسكندر ذلك أن علاقاتنا بالنمسا تقوم على قاعدة أعرض من أن تسمح لشكوك عارضة تساور عاهلا مرتابا بأن تفسدها ، كذلك لا يضيرنا أن تذيع الروسيا هذه المسألة ، بل انى على العكس لأتمنى ذلك . فلست أعتقد بحال أن اذاعة المسألة تقلق امبراطور النمسا .. فسيعلم بعدئذ اننا نريد فحسب أن نمنع تحالف الروسيا وفرنسا لمدة ثلاث سنوات لا أكثر »

لقد خط هذه الأسطر تلميذ نابغ من تلاميذ مكيافيللى ، فقد كان غرضه أن يشل التنافس بين جاريه القلقين بخوفهما من جارهما الثالث القوى ، وأن يحول دون تماسك هذين الحيوانين ذوى الرنوك ، وقد أتيحت له عقب ذلك الفرصة لأن يقنع المعتدى عليه فى حادث اختيار البرنس فون كوبورغ أميرا على بلغاريا من روح محالفاته بأن الحالة ليست حالة حرب . لكن ماذا تكون النتيجة لو عرف السر ؟ يكون ذلك خيرا ، فان فرانتس يوسف يرى عندئذ أنه قد أسىء به الظن ثلاث سنوات فقط . لكنه يقول للعاهل الروسى الذى يعامله بسمارك معاملة الند للند ، يقول له فى حديث أخير مستفيض معد ، اننا اذا لم نتسلح دفعا لخطر الجامعة السلافية الذى يمكن أن يقع كنا مستهينين بجيوش الروسيا الجرارة

أفكار عن محالفة انجليزية

وهكذا يجمع بسمارك فى صفحتى الفولسكاب اللتين تتألف منهما المعاهدة الروسية بين أربعة أخطار دفعة واحدة ، فحيث لا يستأصل منها خطر يؤجل

بضع سنوات : فالروسيا المتطلعة الى بيزانطة تخفف الضغط على حدودنا الشرقية ، والنمسا تحذر من المغامرات البلقانية ، وفرنسا يزداد التفريق بينها وبين الروسيا قوة ، لكن انجلتره يثار قلقها فتتقرب الينا : تمثيلية من الدرجة الأولى تمثل فى نهاية العصر الذى جعلت الشعوب فيه تلعب الشطرنج بعضها مع بعض

ذلك أن كسب جانب انجلتره قد كان آخر رغبة حدت بسمارك ، وقد وصفه مرة فى عشر السنوات الاخيرة من خدمته بأنه مسعاه الاكبر ، وحاول « بالتحالف الثلاثى الشرقى » الذى كان وقتئذ صاحب فكرته أو مشجعه الحاسم أن يقرب انجلتره من التحالف الثلاثى ، اذ هنا تضمن انجلتره وايطاليا والنمسا بعضها بعضا الحالة الراهنة فى البحر الابيض المتوسط . لكن قنص انجلتره نفسها فى محالفة أمر بدا لبسمارك فى سنة ١٨٨٢ أصعب الصعاب وذلك من جراء استحالة كل محادثة سرية مع الوزراء لأنهم يفشونها للبرلمان ثم لانتفاء الضمان فى محالفة لا يضمنها فى انجلتره التاج بل وزارة من الوزارات المتغيرة فحسب . فمن الصعب التفاهم مع انجلتره تفاهما يعتمد عليه الا أن يكون التمهيد له وتأمينه على رؤوس الاشهاد وأمام أوربا بأسرها . وقد أراد بهذه الاسطر التى كتبها الى البرنس فردريك ولى العهد أن يبين له مضار الحكومات الديمقراطية ، وليس شك فى أن سياسة العلنية مما يكرهه بسمارك ، فلو انه أضطر يوما فى سياسته الخارجية الى افشاء شئ للبرلمان لما مضى فى مزاولة هذه السياسة

محاذرة فى البحر

وهو كلما تقرب من انجلتره ، فى خلال العقد التاسع من القرن التاسع عشر وقبل ذلك ، خطا الى هذا خطوات عملية بطيئة تجمع بين انجلتره والفاتيكان فى التكتيك ، وأبدى براعة فى التمهيد تعهد فى رجل الدولة وفى الشاعر ، ولم يكن بسمارك قط أكثر حيطة مما كان فى هذه المناسبة ، فقد كتب قبل ثلاثين سنة يقول ان عنده بالنسبة لانجلتره نقطة ضعف ، « لكن هؤلاء الناس لا يريدون أن نحبهم »

وحين رأى ، أثناء نضاله مع الامبراطور فى سنة ١٨٧٩ ، أن المحالفة النمسوية لم تؤمن بعد ، كلف من يجس له النبض فى انجلتره لكنه تظاهر على الأثر بأنه لا يهمه ما تعطى لندن من جواب ، وسواء أكان هذا أم ذاك فان حكومة غلادستون كانت تغل يده يومئذ

فلما عاد سالسبورى الى السلطة فى عام ١٨٨٥ كان بسمارك بسبيل الحصول على بضع رقع من أفريقيا ، وفوزه بهذا من دون أسطول ، ومن دون أن يطلق طلقة واحدة من مدفع على الاقل ، لعبة من « لعبه بالكرات الخمس » يغنينا عن شرحها وايراد تفاصيلها ماهنالك من تكتم عام ثم انقضاء فترة الاستعمار العالمية ، وبسمارك فى هذه المناضلات عظيم كسائس ورجل دولة ، لانه كان يلطف لهفة الرايخ الفتى على التوسع بالقلق على مركزه . ولم يخطر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ببال بسمارك قط أن يدفع ألمانيا كدولة عالمية الى مزاحمة انجلتره ، لانه من ناحية يقدر مواهب الانجليز كمستعمرين ، ولانه من ناحية أخرى وقبل كل شيء يرى موقعهم الجغرافى أصلح ، وقد أفصح عن كلا الامرين . والشعور الاساسى الذى تغلب عليه بعد اقامة الريخ وساد سياسته الخارجية خلال عشرين عاما لم يكن الاستزادة من الاراضى بل كان الاستزادة من الامن ! وقد كان هذا الهم الدائم حول المحافظة على الدولة العظمى الجديدة على الرغم من موقعها السيىء يظلل كبرياءه دواما ، فبينا هو يشجع فرنسا على انشاء دولة استعمارية كبيرة ليصرفها عن الطمع فى الالزاس ، تراه يعتقد أنه مما يجوز له أن يحبس عن الرواد الالمان عون الريخ الكامل أو أن يظهر لهم هذا العون فى حيطة . وكما انه لم يضم شعوبا بيضاء لمجرد الرغبة قط فكذلك منع ألمانيا أن تضم شعوبا ملونة لان ضمها وان جلب على ألمانيا بعض النفع يمكن أن يجر عليها أخطارا محققة ، فمستقبل ألمانيا فى رأى بسمارك ليس على الماء

استعمار أفريقيا

لقد قال فى مسألة أمين باشا لاحد الاستعماريين فى أفريقيا : « ان الخطر من هذا الاستعمار أكبر مما أستطيع مواجهته ، وخريطتكم عن أفريقيا جميلة حقا ، لكن خريطتى عن أفريقيا موجودة فى أوربا ، فهنا الروسيا وهناك فرنسا ونحن فى الوسط ، هذه خريطتى عن أفريقيا »

ومع ذلك فقد كانت سلطته الشخصية فى أوربا فى العقد التاسع من القرن التاسع عشر من العظم بحيث كلف من يقول للزميل الانجليزى عند أول اعتراض له على حصول ألمانيا على غرب أفريقيا الجنوبى هذه الكلمات :

« اذا كنا حقا نوى أن نؤسس مستعمرات فكيف يستطيع اللورد غرانفيل أن ينازعنا حقنا فى هذا فى نفس اللحظة التى تفوض فيها الحكومة الانجليزية حكومة مستعمرة الكاب ممارسة نفس الحق ! ان فى هذه السذاجة الانانية لجرحا لشعورنا القومى أرجو أن تلفتوا اليه نظر اللورد غرانفيل ... ونحن متلهفون الى أن نعرف لماذا نحرم حق الاستعمار فى الوقت الذى تمارس فيه انجلتره هذا الحق فى أوسع نطاق ، ان ثقتنا لتتزعزع بهذه الغطرسة التى تبدو فى ايراد نظريات ومزاعم لاتتفق ومبدأ المساواة بين الدول المستقلة »

اقتراح على انجلتره

ولما تحرج فى تلك الاثناء مركز أوربا العام ، ومركز ألمانيا قبل كل شيء ، وبلغ الامبراطور التسعين وكان ولى العهد فى الاحتضار فى نهاية عام ١٨٨٧ لخص بسمارك ماجاء من أفكار فى مفاوضات طويلة قام بها سفيره وولده مع الانجليز ، وكتب الى سالسبورى رسالة باللغة الفرنسية تمثل هيكل سياسة المحالفة الالمانية وتتضمن فى نفس الوقت ايماءة الى انجلتره بأن تنضم الينا

« ان حروب القرون الماضية التى كانت تنشب نتيجة لحالات نفسية من

الرضى والسخط تلم بالأسر المالكة ، أو نتيجة لمطامع الملوك ، لم تعد مما يخوض غماره الآن جيش كجيشنا مؤلف من جميع طبقات السكان بلا تمييز ... ومعنى هذا أن سلطتنا العسكرية هى سلطة دفاعية قبل كل شيء ، مقررة فقط لان تجرد اذا مااقتنعت الامة بأن الامر يتعلق بصد هجوم ورد اعتداء .. والريخ الالمانى .. لا يجوز أن يغفل من حسابه مسألة الائتلافات التى يمكن أن تكون ضده ، ولنفرض أن النمسا هزمت ، أو أوهنت قوتها ، أو انها تضمر لنا العداوة ، فاننا فى هذه الحالة أو تلك نكون فى عزلة فى القارة الاوربية ، نقف وحيدين حيال الروسيا وفرنسا وتجاه ائتلاف يتكون من هاتين الدولتين .. والنمسا وكذلك المانيا وانجلتره هى فى عداد الدول الراضية الشبعانة .. ومن ثم محبة للسلام محافظة عليه .. وقد اعترفت النمسا وانجلتره بالحالة الراهنة للريخ الالمانى مخلصتين ولا مصلحة لهما فى اضعافه . أما فرنسا والروسيا فتلوحان على النقيض من ذلك مهددتين لنا

« ومادمنا غير واثقين من أن تلك الدول التى تتفق مصالحها ومصالحنا ، ستتخلى عنا ، فلن يتبع أى امبراطور المانى سياسة غير السياسة التى تفرض علينا الدفاع عن استقلال الدول الصديقة لنا ، الراضية مثلنا عن الحالة السياسية الراهنة فى أوربا . من ثم سنتجنب الدخول فى حرب ضد الروسيا مادام هذا التجنب متفقا مع شرفنا وأمننا ، ومادام استقلال النمسا والمجر اللتين من الضرورى لنا أن يظلا دولة عظمى ، لا يمس ، وهى ضرورة من المرتبة الاولى بالنسبة لنا . فنحن نتمنى أن تتقوى الدول الصديقة التى لها فى الشرق مصالح تحميها لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، بحيث تبقى بتضامنها وقوة جيوشها سيف الروسيا فى غمده أو تكون قادرة على مقاومته اذا ما أدت الظروف الى قطيعة ، ومادامت أية مصلحة المانية لا تتعرض فى ذلك للخطر فسنقف على الحياد ، ومحال أن يفرض أن أى امبراطور ألمانى يمكن عندئذ أن يعاون الروسيا بالسلاح على هزيمة أو اضعاف تلك الدول التى نعتمد على مؤازرتها »

رفض

لكن سالسبورى ، الذى كلف بسمارك مرارا من يرغبه فى محالفة ألمانيا ، لم يرد أن يتقيد ، فالهدف الذى ترمى اليه ألمانيا يمنعه من محالفتها ، فهو ليس ضد فرنسا وان كان ضد الروسيا بالفعل ، وهكذا سوف فى المسألة وتهرب من هربرت بسمارك ملتجئا الى حل وسط بين القبول والرفض :

« مما يؤسف له أننا لم نعد نعيش فى عصرى بت (الصغير والكبير) ، فقد كانت الاريستقراطية هى التى تحكم وقتئذ ، فكان فى وسعنا أن نزاول سياسة عملية رفعت انجلتره بعد مؤتمر فينا الى أغنى دولة فى أوربا ، تتمتع بأكبر قسط من الاحترام . أما الآن فان الديمقراطية هى التى تسود ، ويسود معها نظام الأحزاب الذى يقيد كل حكومة انجليزية ويرهنها برضى الشعب ، فهذا الجيل لا ينفع فى تربيته سوى الحوادث »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع عشر

صاح المستشار وهو فى الثانية والسبعين من عمره بالريخستاج الذى كان يحاربه مهددا قائلا : « سأناضل مادمت قادرا على النضال »

وكان تصالح مع اثنين من أعدائه ، تصالح تدريجا مع حزب الوسط الذى سحب معظم الاجراءات التى كان اتخذها ضده ، والتى ختمها بهذا الانذار الكيس الذى ألقاه فى الريخستاج : « نريد أن نلقى السلاح فى ساحة نضالنا لا أن نسلمه »

وقد حضر فندهورست فى شتاء سنة ١٨٧٩ ثانية لاول مرة حفلة ساهرة لبسمارك واستقبل فيها بالترحاب ، وكتب البابا الجديد فى نفس الوقت الى الامبراطور والى بسمارك أيضا ، وأنعم على لوتر الجديد بعد ذلك ببضع سنوات بلقب فارس المسيح ، وكان الوشاح الاكبر بصليبه وعلامته المالطية يحمل كتابة لاتينية ، فتهلل بسمارك له ، وأعلنت الكلاديرادتش بهذه المناسبة أن « بوتكامر سافر الى رومه ليوسط الاب الاقدس لدى بسمارك لماله من نفوذ عظيم عنده وتأثير عليه ، كى يقر كتابته الجديدة »

العودة الى المحافظين

كذلك كانت تسويته مع المحافظين لا تقوم على أساس ولا يقتضيها سوى انتهاز الفرص وسياق الحياد ، اذ خرج المحافظون من انتخابات سنة ١٨٧٧ بأكثر من عددهم وخرج الاحرار الوطنيون بأقل مما كان لهم فآثر بسمارك دوام الشقاق بين الفريقين . وقد رغب الآن فى ادخال بينجسن الذى خفت غلواؤه فى الوزارة ليظل لاسكر الحاد وحده . لكن بينجسن الذى أحس احساسا صادقا أنه لايراد بادخاله الوزارة الا استهلاكه يأبى أن يعرض مركزه للخطر ويطلب أن يدخل معه الوزارة اثنان من حزبه . وما ان يحبط المشروع بهذا حتى يضحى بسمارك ببينجسن الذى كان يريد منذ لحظة أن يتخذه زميلا ، ويقول : « بأمثال بينجسن وميكويل من السياسيين غير الأكفاء الذين هم طوع اشارة الرأى العام ، لاأستطيع أن أعمل عملا . فهم من تلاميذ المدارس الابتدائية ! »

الحماية الجمركية

وقد حمل بسمارك على العودة الى حزب شبابه أو عجل بهذه العودة اذ ذاك مسألة الحماية الجمركية التى عاد فأخذ بها بعد أربع عشرة سنة من نظام حرية التجارة . وقد كانت هذه الحماية مجرد وسيلة أخرى لتقوية سلطان الدولة ، وكان جعل السكك الحديدية فى يد الريخ والتخفيف من أعباء ملكيتها بالضرائب غير المباشرة مما يلوح له نافعا فى توطيد فكرة الريخ . وقد بلغ من توقه الى فرض ضرائب جديدة أنه أسف عندما سمع بفائض قدره ٣٩ مليونا من الغرامة الحربية الفرنسية ، ذلك « أنه خير للحكومة أن تنقصها الموارد لتستطيع أن تفرض ضرائب جديدة »′ . أما أن هذه الضرائب كانت ترهق الطبقة الرابعة من السكان فما لم يمنعه من فرض الضريبة على التبغ والجعة والسكر والقهوة والبترول وهى « مواد كماليه عند الدهماء » . وهكذا كانت عبارة حماية الصناعة والزراعة ترن لأول مرة فى نواحى الريخ الألمانى يسوغها بسمارك تسويغا له دلالته اذ يقول :

« ان حرية التجارة مثل أعلى يستحق كل الاستحقاق أن يتغنى به الألمان مخلصين . ومن الميسور أيضا أن يتحقق فى مقتبل الأيام . وفى كل هذه المسائل لاأجد العلم يساعدنى على الحكم عليها أكثر مما يساعدنى فى أحكام أخرى على تركيبات عضويه . ولم يوفق علم الطب الى حل هذه الألغاز .. وكذلك الأمر فى ألغاز الدولة . والتعاليم العامة فى العلوم لاتؤثر فى فتيلا ، فانى انما أحكم بتجارب الحياة .. وانى لأشعر أننا بعد أن خفضنا تعريفاتنا الى أقل مما ينبغى قد بتنا فريسة لعملية نزيف .. فيجب أن ندخل فى الجسم الألمانى دما من جديد »

لايزال اعتماده على شعوره دأبه كما كانت الحال قبل خمس وعشرين سنة : التجربة تجاه العلم ، ومازال يسخر من العلم وينعته بأنه تحمس أجوف . وفى الحق أن بسمارك ليبغى التخلص من حق الريخستاج فى تقرير الميزانية ، ويريد اليوم كما أراد بالأمس أن يكسب للريخ ما أمكن من المال بفرض ضريبة على الدخل : فهذا برنامج المحافظين

ويرد عليه الشعب بعد سنتين : فينتخب مائة من الأحرار ومثلهم من الوسط ، وكلا الحزبين مناهض للاقتصاد الجديد : أما المستشار فلا يفوز بأغلبية ! ويكتب جوستاف فرايتاج يومئذ الى خليص له يقول : « هذه الانتخابات بالنسبة له وللشعب وللخارج دليل على أن سيادة الفرد الذى فرض على الأمة صورته وطابعه ليست مما لاندحة عنه ، وأنها تقترب من نهايتها .. فقد فقدت فنونه كثيرا من مفعولها ، وبات الناس الآن يعرفون ذلك المزيج من الأسد والذئب والثعلب وهو ماتجمعه نفس هذه الشخصية الدرامية .
ان الألمان الآن يدركون متأخرين بطيئين أن الرجل الذى تغنوا على أسلوبهم بعظمته وطيبته لاينطوى على كل صفات الرجل الشريف .. وقد حان الوقت الذى ينحى فيه الى الوراء لكنه بهذه الجسامة والبدنة والحكمة »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المجاهد يعود شابا

فى هذه الحالة النفسية يتجدد نضال بسمارك ضد أغلبية الأمة بعد عشر سنوات من تأسيس الريخ وعشرين سنة من النزاع . وهو كلما قدم اقتراحا اضطر الى اصطناع أغلبية جديدة له ، واتبع نظاما من المحالفات يتسم بالتقلب: شأنه فى سياسته الخارجية . يقذف كل معارضة ويصب عليها اللعنات : الوسط والألزاسيين والبولنديين والاشتراكيين وكل أعداء الريخ ! فاذا سمعوه الآن من فوق المنبر ألفوه قد استرد فتوته وبدا ذلك المجاهد فى شرخ الشباب. قال فى سنة ١٨٨٠ : « لقد عشت وأحببت وناضلت أيضا فلم أعد أكره حياة الهدوء . والشيء الوحيد الذى يحتجزنى فى مركزى هو ارادة الامبراطور الذى لايسعنى وهو فى هذه السن المتقدمة أن أهجره » . وبعد ذلك بعام عقب الانتخابات المعادية : « سأموت وأنا أؤدى واجبى ان شاء الله ، وقد أموت على هذا المكان اذا لم أستطع أن أعيش وانتهى الاجل . والجواد الكريم يموت وهو يجرى . وقد كنت قبلا أنتوى الاستقالة ، وأرى من الخير أن أقرر أنى عدلت تماما عن هذه النية : فأنا هنا وسأبقى هنا !.. وارادة الامبراطور هى وحدها التى تعفينى من العمل . وقد ساعد كثيرا على اقتناعى بالبقاء أنى رأيت من ذا الذى يسره أن أستقيل .. ومن ثم صممت أن أظل أخدم وطنى مابقى فى عرق ينبض »

وبعد عام من ذلك : « ماالذى يقيدنى بهذا المكان ان لم يكن شعورى بأنى مخلص لعملى ؟ انه ليس فيه الكثير مما يسر . وقد كنت فيما مضى أخدم راضيا وفى حمية ورجاء ، فلم يتحقق معظم ماعلقت على خدمتى من آمال . كنت اذ ذاك صحيحا وأنا اليوم مريض ، وكنت شابا وأنا الآن شيخ . فما الذى يستبقينى هنا ؟ أهى الرغبة والهوى أن أقف هنا كالبومة أمام عش الغربان تدفعها الطيور وتنقرها ، عاجزا عن الدفاع عن نفسى من الاهانات الشخصية والسخريات ؟.. فاذا أعفانى الملك اليوم راضيا عنى ، فانى أودعكم عندئذ أيها السادة مسرورا لا أرجو لقاءكم ! »

احتقار الريخستاج

هكذا تقذف حالاته النفسية البغضاء والغضب على الساحل ، وتتكسر الأمواج على شلالات رائعة من الكلم . هذا هو بسمارك الذى يدهش سامعيه لحظات لايزوق كلاما ولا يبغى تأثيرا ولكن يرسل جملا طويلة جارحة فى نظرة الغاضب وهيئة المهان ، فاذا ماتناول بعدئذ حافظة أوراقه وانصرف مديرا ظهره الهائل للمجلس ، والمجلس مايزال يرى منه بنيقته الصفراء فى بذته الرسمية الزرقاء وهو يتوارى عن نظره فى الباب ، عندئذ يتزايد مع البغضاء احترام أعدائه اياه ويزداد مع ذلك احتقاره اياهم

ويهيج على أسلوبه أحيانا ويختلط حابله بنابله ، ثم ترن كلماته كأنها النذير من رسول أو كأنها استسلام ينطوى على تهكم ، فهو يقول فى الريخستاج :

« لاأستطيع أن أنكر أن تشابه تاريخنا الألمانى فى عشرين السنة الأخيرة مع أساطير الآلهة الألمان كان يعذبنى على الدوام . ان ربيع الشعوب لم يدم بعد النصر العظيم سوى بضع سنوات .. ثم جاء شئ أدعوه باسم لوكى* : ذلك العدو القديم الوراثى لنا معشر الألمان ، الحزبية التى تجد غذاءها فى خلافاتنا الأسرية والدستورية والقبلية وفى تطاحن الأحزاب . لقد انتقلت هذه الحزبية الى حياتنا العامة .. واذا كان روح الحزبية أضل بصوت لوكى* ذلك الناخب الاول هودور وأعماه حتى أردى وطنه، فهو ما أشكوه الى الله والى التاريخ اذا تداعى ذلك العمل المجيد بأكمله الذى قامت به أمتنا من سنة ١٨٦٦ الى ١٨٧٠ .. لقد كانت لنا فى الشباب نهضة قومية تختلف كل الاختلاف وفهم للحياة السياسية أروع مما يستكن فى كافة رفقاء شيخوختى الذين اجتازوا سنتى ١٨٤٧ و ١٨٤٨ وعليهم طابع الحزبية ثم لم يستطيعوا بعد ذلك أن يمحوا هذا الطابع . لنمت جميعا : عندئذ سوف ترون كيف تزدهر ألمانيا ! »

قوانين اجتماعية

وكان الاشتراكيون الديمقراطيون أيضا قد خرجوا من انتخابات سنة ١٨٨١ أقوى مما كانوا ، اذ سيف القوانين الاستثنائية مصلت اذ ذاك فوق الرؤوس ، ووزير النضال بوتكامر يحاصر العواصم ، ويحكم فى ليبتسيج بالأشغال الشاقة على الزعماء لنشرهم صحفا محظورة . بيد أنه فى نفس الوقت حقق ماوعد به ، وأنجزت للعمال المساعدة الموعودة . فأعقب قانون الكوارث الذى استفتح بهذه الاجراءات ، والذى نعته بامبرجر نصير الحكومة بأنه باطل ، أعقبه قانون التأمين من المرض ، فقانون الشيخوخة والعجز فى سنة ١٨٨٨ : كلها خطوات فى سبيل اشتراكية الدولة التى رسم بسمارك خطوطها من قبل مع لاسال

ولم يكن هذا الخاطر من عنديات بسمارك ، فنابليون الثالث « الملك الابكم » وغيره قد سبقوه اليه ، لكن بسمارك كان البادىء به للريخ الألمانى . « يجب على المرء أن يدرك مايبدو عادلا فى المطالب الاشتراكية وما يمكن أن يتحقق فى نطاق نظام الدولة الراهن » . وهذا ما اقترحه على وزير التجارة فى سنة ١٨٧٠ ، فاذا كان بعد ذلك بعشر سنوات قال لبوش صادقا متنبئا ، وهو الذى يستطيع أن يحصل على المال من أهون سبيل : « ان الدولة يجب أن تتولى هذه المسألة . لاكصدقة ولكن كحق فى اعانة فى حيثما عجزت الارادة الحسنة عن العمل . لماذا يتناول معاشا من يعجز عن أداء الواجب كجندى أو موظف ولا يتناوله جندى العمل أيضا ؟ ان هذه المسألة ستشق طريقها ، فهى ذات مستقبل . وغير بعيد أن تحبط سياستنا فى يوم ما ، لكن اشتراكية الدولة لابد أن تشق طريقها . وكل من يتلقى هذه الفكرة ثانية سيصل الى الحكم »

---

* ممثل النار والدمار فى أساطير آلهة الشمال (المترجم)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نوعان من البواعث

بهذه البصيرة النافذة يطلع بسمارك على الغيب فجاءة حين ينقلب مزاجه لحظة افلاطونيا ، لكنه اذا رفع الغطاء عن بواعثه ألفيتها حساباته القديمة وأرقامه التى لاتقع أقسى ماتكون الا حين يريد بها تسويغ « مسيحيته العملية » فى السر : « ان من يضمن معاشا لشيخوخته يكون أرضى كثيرا وأسهل فى المعاملة من غيره . انظروا الفرق بين خادم لفرد من الأفراد وخادم من خدم المستشارية أو البلاط ، فهذا يؤدى من العمل أكثر مما يؤدى ذاك لأنه ينتظر معاشا . وليس كثيرا على المحروم من ميراث أن تشترى رضاءه بمبلغ كبير .. فهذا استخدام طيب للمال بالنسبة لنا أيضا : اذ يسعنا أن نتقى به ثورة .. تبتلع اذا نشبت أبهظ من هذا المال ، وأكثر كثيرا » . لكنه بعد هذه الهذريات يقول من فوق المنبر : « حتى أفقر الناس يجب أن يحدوه الشعور بالكرامة البشرية »

ويعجز بسمارك عن بلوغ شىء بنظامه لأنه لايدرك معنى الحركة الاشتراكية بحال من الأحوال : وتزداد أصوات الحمر حتى تبلغ الملايين ، وتجدد لذلك القوانين الاستثنائية من انتخاب لآخر أثناء اتخاذ هذه الاجراءات الرحيمة . ويبلغ من حدة المشروع المقترح فى سنة ١٨٨٧ أن ينص على حرمان المحكوم عليهم من الجنسية الألمانية : اهدار يرفضه الربخستاج

وفى هذا النضال فى الداخل والنزاع فى الخارج يبلغ الامبراطور غليوم التسعين من عمره . ويبدو الأجل قريبا الى حد أن يتساءل الجميع فى شهر مارس ١٨٨٧ وأثناء الاحتفال بعيد الامبراطور : ترى كم يعيش بعد ؟ وماذا تكون العواقب ؟ وتهمس اشاعة من البلاط ان ولى العهد مريض ، فقد كان فى صوته بحة فى يوم الميلاد . وبعد ذلك بشهرين يكون الناس جميعا قد علموا : أن الشيخ سيخلفه فتى

تحذير للقيصر

ويسرع نبض بسمارك ، ويستشعر تصريفا من القدر لم يقع قط مثله منذ رأس سنة ١٨٦١ حين قضى الملك الأخير . وتتساءل أوربا الآن بعد كل خروج للشيخ الفانى عن صحته ، ولا يأمن أحد أن يجدد محالفه ، ويتحالف الشك والخوف والتحامل على توهين هذه الجديلة البديعة التى جدلها المستشار . ويسأل سالسبورى أليس الأمير الفتى فى ميله الى الروسيا عدوا لانجلتره ، لكن القيصر يحمل الأمير على أن يسر اليه بعض الخفايا ضد انجلتره . وحين يقدم اسكندر فى آخر سنة ١٨٨٧ الى برلين تكون الحالة النفسية غامضة ، وتتوقع الحرب

ويرسم بسمارك للامبراطور الشيخ كيف يكون حديثه مع القيصر ومضمونه : ان الحرب القادمة ستفصل بين الثورة والملكية ، فاذا انتصرت فرنسا فسوف تبيت ألمانيا قريبة من الثورة ، فهل يريد قيصر جميع الروس ذلك وهل

يحب أن يهدد ملكيات الشرق بارتباطه مع فرنسا ؟ انه اذا انهارت النمسا بذلك فستقوم على أنقاضها جمهوريات ، وكذلك فى البلقان ، وعندئذ لاتكسب الروسيا شيئا ولا يمكن الا أن تخسر . كذلك ينبغى على كل عاهل أن يتجنب الحرب لأن الشعوب هذه الأيام تعد سادتها مسئولين عما يحيق بها من هزائم كما حدث فى سنة ١٨٧٠ : حتى فى ألمانيا سوف تحيا الآمال للجمهورية اذا حاقت بها هزيمة ، وسوف يتحالف الفوضيون الفرنسيون مع الاشتراكيين الألمان والثورة الروسية . انه لاحروب اليوم بين الحكومات ، بل الحرب بين العلم الأحمر والنظام !

ويظل الشيخ أياما يستذكر هذه العبارات التى استوحاها بسمارك من عالم أفكار الشيخ وأفكار القيصر . لكن حلما يزعج الشيخ اذ يرى فيه القيصر واقفا فى المحطة وليس من يستقبله . ويظل الامبراطور يبدى فى هذا الحلم ويعيد . وأخيرا يجلس الامبراطوران معا يرنق عليهما السلام ويؤكد أحدهما للآخر صداقته كما يؤكدها الوزراء الذين يعقدون معاهدة

آخر خطبة للمستشار

لكن الظلال تتجمع ، ومن يملك شيئا لابد أن يتسلح للذود عما يملك . فالآن وعصر غليوم الأول يشارف الختام فيما يلوح يعود رجل اقطاعه الى بداياته . فقد كان أول ماصنع لمليكه أن أمسك له بالترس وجعله منيعا . وستكون هذه المهمة أيضا آخر مهامه . فهو يعود الى النضال فى سبيل ميزانية الجيش كما كان شأنه عام ١٨٦٢ ، ويعود الى حل البرلمان ويفرض انتخابات أصلح له ، ويأتى الريخستاج الجديد فيصادق على مايلزمه من جنود ومدافع لسبع سنوات . ويصعد بسمارك مرة أخرى الى المنبر ويلقى آخر خطبة له فى الريخستاج قبل نهاية ملكه بأربعة أسابيع . وهى خطبة طويلة جدا ، كانت اللحظة التى جلس خلالها ابن الثالثة والسبعين ليستريح أثناء القائها أليمه له ، كذلك لم تكن الخطبة غنية بالصور حافلة بالتشبيهات ، بل كانت خطبة جوهرية تستعرض الموقف العالمى كما وصفه غالبا ، بيد أن انذارا خفيا يلوح بين عباراته الهادئة ويبدو خلالها شبح التوتر الحائق بأوربا وبألمانيا يكتنفه مرض ولى العهد بالظلام ، فيخرس أعداء بسمارك أجمعون فى ذلك اليوم

ويقول بسمارك : « يجب أن نكون فى هذه الأوقات أقوياء مااستطعنا الى ذلك سبيلا . وفى مقدورنا أن نكون أقوى من أية أمة فى العالم فى مثل عددنا .. اننا نقوم فى وسط أوربا ، تكتنفنا على الأقل جبهات هجوم ثلاث ، ونتعرض خلا ذلك أكثر من أى شعب آخر لخطر الائتلافات .. تمنعنا أسماك الخرم النهمة فى بركة الشبابيط الأوربية أن نكون شبوطا فتشعرنا فى جنبينا بوخز أشواكها .. وتضطرنا الى التكاتف نحن الألمان الذين يغاير ذلك طبيعتنا الصميمة ولولا ذلك لتفرقنا شيعا ..

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشجاعة والسلام

« ان دولة كالنمسا لاتختفى بل يتغير قلبها اذا خذلناها وتبيت ميالة الى أن تمد يدها الى من يكون يومئذ خصم الصديق الذى لاتعتمد عليه . وبالاجمال اذا أردنا أن نتقى العزلة وجب أن يكون صديقنا مضمونا . ان الآخرين يساووننا فى عدد الجيوش لكنهم لايستطيعون أن يدانونا فى الكيف والقيمة . والشجاعة سواء عند كافة الأمم المتمدينة ، فالروسى والفرنسى يقاتل كلاهما بمثل الشجاعة التى يقاتل بها الألمانى ..

« وهذه الأداة الهائلة التى نكمل بها عدة جيشنا لانتولى بها هجوما . فاذا تقدمت اليكم اليوم وقلت لكم — والظروف غير ماهو قائم الآن — : ان فرنسا والروسيا تهددانا تهديدا عظيما ، وأننا ننتظر أن تهاجمانا ، وانى معتقد بهذا مقتنع به بوصفى ديبلوماسيا وأن من الأنفع لنا لما نعلمه عسكريا أن نستفيد دفاعيا من دفعة الهجوم ، فنضرب الآن ، ولذا أرجو اعتماد مليار أو نصف مليار : اذا قلت لكم هذا أيها السادة فلست أعلم هل تثقون بقولى فتوافقون على الاعتماد : انى لاآمل ذلك ! لكنكم اذا فعلتم فلن يكفينى هذا . اننا فى ألمانيا اذا أردنا أن ندير حربا تسندها قوتنا القومية وتأثيرها الكامل فيجب أن تكون .. حربا شعبية .. أما الحرب التى لاتدفعنا اليها ارادة الشعب فلن تشن الا اذا عدها ولاة الأمور آخر الأمر ضرورية وأعلنوا ضرورتها لكن مثل هذه الحرب لن تكون عندئذ بدافع من الوطن وسند من حرارته .. طبيعى أن يعتقد كل جندى أنه يفوق خصمه ، والجندى الذى لايشتهى الحرب ولا يؤمن بالنصر فيها يكف تقريبا عن أن يكون جنديا نافعا .. كذلك نعتقد نحن اعتقادا راسخا بأننا سننتصر فى قضية عادلة كما يمكن أن يعتقد أى ملازم أجنبى فى حاميته وهو يحتسى الكأس الثالث من الشمبانيا . بل ربما كان ايماننا أكثر يقينا من ايمان مثل هذا الملازم ..

ابن التسعين

« ان تهديد صحف الخارج فى الحقيقة غباوة لاتصدق .. فكل بلاد مسئولة على مر الزمن عن النوافذ التى تحطمها الصحافة . والحساب عن هذا التهشيم سيقدم فى أى يوم يداخل الاستياء فيه البلد الآخر . وفى الاستطاعة استمالتنا بالحب وحسن النية ، بل لعله أسهل من السهل أن نستمال بذلك ، أما بالتهديد فلا ، على التحقيق ! ونحن الألمان نخشى الله ولا نخشى سواه فوق هذه الأرض ، وخشية الله هى التى تحبب الينا السلام وتجعلنا نرعاه »

فلما انتهى صفق له المجلس كله لأول مرة منذ سنوات ، وجعل الجميع يتحدثون عن حدث أوربى . وحتى الامبراطور لايفوته أن يقرأ ماقاله بسمارك ، وقد كان قبل ذلك بقليل لما كانت الحرب على الأبواب ، أعلن أنه وان لم يعد فى استطاعته أن يقود ، سوف يرافقهم الى مقر القيادة العليا ، مامن ذلك بد . وكان منذ هنيهة قد احتفل بعيده الثمانين العسكرى ، فحين وقف أمام

احدى الصور وتمثل « خروج المتطوعين من برسلاو سنة ١٨١٣ » ورأى بدل القيصر بلوخر الهرم راكبا فى مقدمة الصورة قال : « كلا ، هذا غير صحيح . فانى لأذكر جيدا يوم عدنا راكبين الى برسلاو والدى والقيصر وأنا ، فلم يكن بلوخر معنا . فعلى الفنان أن يجعل من بلوخر القيصر اسكندر الذى ندين له بالشكر العظيم ! » هكذا يتكلم التاريخ الحى

وقد كان الاهتمام بالابن المحتضر أقل من الاهتمام بالبلاد ، فان الامبراطور الشيخ ، فى قلقه الزائد على تربية حفيده الفتى وكيف يمكن اكمال تربيته من دون أن يمس شعور المريض ، يكتب الى بسمارك فى عيد ميلاد سنة ١٨٨٧ آخر رسالة له ، ويرفق بهذه الرسالة الانعام على هربرت بلقب صاحب السعادة « لتسلم البراءة الى ولدك . والغبطة بذلك غبطة مثلثة : لك ولولدك ولى .. غليوم الشاكر »

وفاة غليوم

وفى أول مارس يتداعى الامبراطور ، ويحس هو هذا التداعى فيدعو المستشار الى موافاته الى فراشه ، ويطلب اليه أن يعده بمد يد المساعدة الى حفيده ، فحين يعده بسمارك « يكون جواب الامبراطور الوحيد على هذا أن يضغط على يدى ضغطة محسوسة بعض الشىء . ثم يصيب الامبراطور هذيان الحمى فيعتقد أن الجالس معه هو البرنس غليوم لا أنا فيخاطبنى بغتة بأنت دون كلفة ويقول : ـ يجب أن تكون دائما على اتصال بقيصر الروسيا فلا ضرورة لقطيعة بينكما . ـ وبعد فترة طويلة من الصمت يزايله خداع الحواس فيصرفنى بهذه الكلمات : ـ « سأراك مرة أخرى » . فاذا كان اليوم التالى توفاه الله

وعند الظهر يبلغ بسمارك المجلس الخبر رسميا ، تتساقط دموعه أثناء هذا التبليغ الوجيز .. « لقد رجوت جلالته ألا يوقع الا بالأحرف الأولى ، لكن جلالته أجابنى على ذلك بأنه يعتقد أن فى استطاعته التوقيع بالاسم الكامل . ومن ثم تجدون أمامى هذه الوثيقة التاريخية تحمل توقيعه الأخير . ولا يجمل بى أن أعرب عن مشاعرى الشخصية فى هذا المكان الرسمى .. ولا حاجة أيضا الى ذلك ، لأن المشاعر التى تحدونى تقيم بقلب كل ألمانى ، فلا داعى للاعراب عنها .. فليجعل الله شجاعة الأبطال التى كان يتحلى بها وشعوره المرهف بالشرف وقيامه بالواجب فى اخلاص وجد فى خدمة وطنه قبل كل شىء ، ليجعل الله هذا تراثا لأمتنا لاينال منه الزمن » . وفى الختام غطى بسمارك وجهه

وان قيام بسمارك فى هذا المقام بواجبه الرسمى ، وبقاءه على وفائه حتى فى هذه اللحظة ، وعدم تهيبه التأثر الباطنى وتورعه مع ذلك عن اظهاره ، ومنعه نفسه وسامعيه أن يستبد بهم الحزن فينفجر ، وكونه قد جعل التوقيع الأخير رمزا للامبراطورية بدلا من التحدث عن الامبراطورية ، وكيف أنه لم يقل كلمة واحدة فوق ماينبغى ، وأنه لم ينعت الميت لا بأنه عظيم ولا بأنه مظفر ولا بالفطنة ولا بالحكمة بل نعته فقط بأنه شجاع ، فخور ، مجد كما هو فى الواقع : هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كله دلالة على نضوج سام يبرزه فى أمثال هذه اللحظات اعتداد قلب متأثر ولا شىء غيره

اونتردن لندن

وقد اشتركت العاصمة والشعب الألمانى واشتركت أوربا والقارات الأخر فى تسجية الملك وتشييع جنازته . لكنه لما مر الموكب فى شارع اونتردن لندن هتك حجاب السكون صيحة جمعت سيرة هذا الأمير العجيب فى ثلاث كلمات غريبة ، فقد رن من بين الأشجار صوت عال يقول : ها ليمان آت ! وليمان هو الاسم الذى فر البرنس غليوم متنكرا به الى انجلتره فى مثل هذا اليوم قبل أربعين سنة ، فى مثله تقريبا ، يوم كانت نفس أشجار الزيزفون تهب عليها نفس ريح مارس الباردة فتميل فوق ثورة نفس الشعب ، والكل يصيح : ليسقط أمير الخرطوش ! اذ ذاك اختبأ هذا الذى كان وليا للعهد فى جزيرة الطاووس ، ولم تفض زوجه حتى لنبيل شينهوزن بسر مخبئه ، ولما فر وذاع خبر جواز مروره المزور نظمت الأشعار فى برلين سخرا من ليمان ، ولابد أن بسمارك قرأ هذا المنظوم

فهل بلغته صيحة الزيزفون ؟ وماذا عساه يفكر خلف المركبة السوداء ؟ ان مولتكه يسير الى جانبه فى فرائه يبادل بين ساقيه العريقتين ، غريبا عنه كل الغربة ، يناهز الى ذلك التسعين ، ورون ليس بين المشيعين فقد ودع الحياة . فمن عدا هؤلاء من ذلك العهد ؟ لأحد ، لا ضابط ولا وزير ولا رجل بلاط ذو شأن . وماتزال أوغسطا على قيد الحياة ، لكن هذه السيدة العجوز قد لزمت البيت . أما من يلمع هنا فى البذات الرسمية فحديثو سن ، لاسيما الحفيد الذى يسير فى المقدمة وحده وراء النعش . والامبراطور الجديد فى قصره يحتضر ، وشهود بروسيا التالدة أموات

وبسمارك آخر هؤلاء الشهود

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتاب الخامس

المنفى

« لماذا أكون منسجما »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

« ان نبضى يزيد الآن فى المتوسط خمس عشرة دقة فى الدقيقة عما كان عليه فى عهد الحكومة السابقة ... ومن يدرى ماذا يفعلون اذا أدرت لهم ظهرى ؟ »

بهذا الاعتراف القائم بين الخوف والحمى وبهذه الحركة البسيطة التى تفضى الى المقطع الأخير فى السيمفونية الكبرى يعرب بسمارك عن حالاته النفسية الأساسية التى كان فيها خلال مائة يوم قضاها الى جانب الامبراطور المريض

وقد لبث سنة يتسع له الوقت لمقابلة المركز الجديد بوسائل جديدة ، ذلك أنه باعلان الوفاة بات فريدريك نقطة عابرة فى حساب بسمارك على حين أصبح البرنس غليوم هدف هذا الحساب . فلما تولى بعد ذلك ولاول مرة مهمة المستشار للامبراطور المحتضر العائد الى الوطن فى سكرات الموت كانت أربعون سنة بالضبط قد مرت عليه منذ بات لاول مرة مشيرا للملك بروسى ، فبوتسدام التى سهر فيها بسمارك على الملك فى مارس سنة ١٩٤٩ هى نفس بوتسدام الفريدريكية الصغيرة التى سهر فيها على ملك بروسيا فى مارس ١٨٨٨ .. فهل تراه يفكر الآن فى شعوره التاريخى فى الماضى وهو يمر فى مركبته من باب الروض ؟!

لم تكن آنئذ من مركبات البلاط تلك المركبة التى مرت به من ممشى الاشجار الى حيث يقابل أوغسطا سرا فى احدى غرف النوم حتى لايراها أحد مع هذا النبيل من نبلاء بوميرانيا ، ذلك أنه كان مايزال آنئذ ينطلق الرصاص فى برلين ولو قد آزرها هذا النبيل وقتئذ فى خطتها لبات فريدريك فى الثامنة عشرة من عمره ملكا فى الراجح ، وقد تخلى عمه وأبوه ، لكنه أرغمها بموقفه على أن تصبح ملكة فامبراطورة ، فجعلها بذلك ألد عدوة لسيرته بوصفها قرينة مولاه ، فالامير الذى كان مختبئا هنا قد ختم حياته الآن فى سن الاساطير ، وذلك الابن الذى حال اعتراض النبيل اذذاك دون اعتلائه العرش على جناح السرعة يرقد الآن بعد انتظار أربعين عاما ، رجلا مسكينا تتقطع به الانفاس ، على مقعد ، وكما ربطوا « سيد* » والمهدى الميت فوق الجواد للتعمية على الناس كذلك رأوا الشعب أمس فردريك الثالث رهن المركبة

---

* بطل شعبى أسبانى اسمه فى الاصل رودريجو . حارب المسلمين وخدمهم وآزر قومه المسيحيين وحاربهم . فأطلق عليه المسلمون لقب « سيد » . فلما مات فى آخر القرن الحادى عشر الميلادى نقلته زوجته هذه النقلة حتى لا يعرف موته . (المترجم)

كلتا الفيكتوريايين

والآن اذ يعتلى بسمارك الدرج ، يجد فيكتوريا، التى تسلطت على زوجها فى صحته فيما سلف من الزمان ، تمسك اليوم بكل شيء فى يديها ، لكنها بعد الذى سلف من النضال الطويل تلفى نفسها مضطرة الى الاتفاق مع العدو والخادم ذى السلطان ، ذلك انها لن تلبث أن تحتاج كأرملة الى مساعدة هذا العدو على عدوها الثانى ابنها والامبراطور المنتظر .. ويعرف الآن هذا الابليس أن يكسب كلتا الفيكتوريايين ، ذلك أن فيكتوريا ملكة انجلتره أيضا قد قدمت الى هذه البلاد وأخذت بفتنة هذا الشيخ المرهوب الذى يستخدم معها ومع فيكتوريا بنتها كافة فنون الاغراء .. فأى لعب بين السحرة فى هذا القصر اللعين الذى يمشى الكل فيه مخافتين حتى لا يزعجوا المريض ، ولايفشوا شيئا للابن والوريث الذى بث فى دار المحتضر العيون . فى هذا القصر الملعون تبغى المرأتان الحكم الى أن يأتى الرجل المخوف الحين بعد الحين من برلين ، ذلك الشيخ العملاق المقبب الرأس ذو النظرة الغبراء الزرقاء المطلة من تحت حاجبيه الكثين فيقدم الى المرأتين فى جمل وئيدة ويضع عند أقدامهما بارادته التى لا تتحول اقتراحا يزجيه الخضوع ،

بيد أن ثمة فيكتوريا ثالثة ، وكما تتلاطم فى هذا القصر الامبراطورى الاهواء فى الخفاء وتتصارع الرغبة فى السلطان والتعطش الى الحياة ، وتعترك الشحناء والكبرياء ، كذلك لا ينقص هذا المعترك اشتهاء المرأة الطاعنة فى السن التى تصل بالخلافات الى أزمة . انها تريد أن تتخذ أمير باتنبرج والمطالب الجديد بعرش بلغاريا زوجا لابنتها ، لكن الساحر الهرم يصيح : الى الوراء ! ذلك أن عمل النساء هذا قد يمزق شبكته بأسرها . فهو يقول لبوش :

باتنبرج

« ان أمير باتنبرج ربما كان أبغض شخصية الى القيصر فيما يعرف .. وقد كانت الامبراطورة الجديدة انجليزية الميول دائما فى أغراضها ، وهى فى موقفها الحالى أكثر انجليزية منها فى أى وقت مضى ، تريد أن تخلق من باتنبرج أداة لها ، انه ابن آنسة تدعى هاوكه من بولونيا ، فأسرته من ثم لا تستحق أن يوصى بها »

ويقول للصديقة سبتسمبرج قولا أهم من هذا : « ان فيكتوريا الوسطى أردأ الفيكتوريات ، فهى امرأة وحشية اذا تأملت صورتها استبشعت منها شهوة هائجة تتحدث بها عيناها . وهى مغرمة بأمير باتنبرج تريد أن تستبقيه من حولها كما تستبقى أمها أخاه تلك التى يسميها الانجليز « القلب الانانى الهرم » ، ومن يدرى لاية فكرة مخزية »

ويجعل المستشار من هذه المسألة مسألة وزارية من اختصاصه ، فان الامبراطور المريض الذى لا يعارض فى الزواج يغتبط مع ذلك بهذه اللحظة التى تبلغه فيها من دوائر بسمارك أصوات النذير من أى تغيير . وقد انحسر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن نفسه الطموح والعداوة بانحسار قوى الحياة ، وباتت نفسه تتوق الى الهدوء ، لكن قلب بسمارك ،ذلك القلب العنيد ، يمضى ينبض كنبض المجاهدين فقد قال لأحد الأمراء فى سنة مضت عن فريدريك وفيكتوريا : « انهما يرتكبان الخيانة العظمى ، انه لاأثر فيهما لتفكير ألمانى ، قد فقدا كل تأييدفى الشعب ، وهما يبذران بذور البغضاء فى الاسرة وينثران الشحناء »

فالآن يحكم على هذا النحو : « لقد كان مولاى القديم شاعرا بتبعيته فكان يقول : « ساعدنى فانك لتعرف أننى واقع تحت الخف » . لكن سيدى الجديد أشد كبرياء من أن يقول ذلك ، لكنه تابع بحالة ما ، وخاضع على نحو لايصدق فهو كالكلب »

احتقار

ويزداد احتقاره للانسان شدة وسبه اياه عنفا ، فكأنما تحجر هذا الاحتقار وهكذا يأخذ بسمارك فى النهاية فى فقد بصيرته النافذة وحدة نظرته الروحية، فهى تغيم فيه ، ويزداد فى نفسه تحجر المشاعر وسوء الظن ، فكأنه أسد هرم رابض أمام عرينه ترسل عيناه نظرات الغضب ويسدد مخلبه الضخم الى كل من يقترب منه ، ويسهر على كنزه فى داخل العرين ، يسهر على الريخ. بيد أن كبزرلنج صديق طفولته القديم يتساءل بعد زيارة من زياراته النادرة : « ترى ماذا يدور فى قرارة قلبه وصميمه ؟ ليس وعيه الفخور ولاشعوره المطمئن بما أدى من جلائل ولا المتعة بما احرز من هدوء وسلام »

ألا ترتد مثل هذه الكراهية المتراكمة لبنى البشر الى مصدرها ؟ ألا يشعر معاونوه ونواب المجلس ، ألا تشعر الأمة بهذا البرود وهذا الاحتقار اللذين يكنهما الزعيم نحوها ؟ ان هوهلنوهه يسجل لنفسه : « انه يدخل فى نفسه منه أنه رجل ليس بكامل قواه العقلية » فالبغض له يزداد فى مجلس الريخستاج الذى ظل منذ عام ١٨٨٧ يحرز فيه الاغلبية المدبرة من المحافظين والاحرار الوطنيين ، وهى أغلبية يستطيع بها تنشئة قوانينه الاجتماعية والحماية الجمركية . وهو يقول مرة وقد عاد الى منزله من احدى الجلسات : « انه ينتابنى بعد أمثال هذه المناقشات ثورة فى الاعصاب فكأنى تشاجرت مع أوباش فى حانة قذرة »

ويلتف أبناء عمومته من جديد حول الامبراطور الشاب ، وتلتئم صفوفهم كما فعلوا قبل خمسة عشر عاما ، يحدوهم الرجاء . ويجلس هولشتين وفندهورست على أريكة فى زاوية صالون يتفاهمان على مستقبل محفوف بالآخطار

ويتحول العصر الدائل فى رأس بسمارك سريعا الى أيام حلوة ماضية ، فيتغنى بمحامد مولاه القديم بقدر ماكان يندد به فى حياته: «أجل ان الامبراطور القديم كان رفيقا يمكن الاعتماد عليه ويضن بالمرء أن يسقط .. وقد كان فى أول الامر يتنكب الطريق القويم ، لكنه ترك نفسه فى النهاية يوجه الى الطريق المستقيم »

بل انه ليأخذ فى تمجيد أوغسطا بالقياس الى فيكتوريا فيقول : « حقا انها قد سببت لى ضيقا شديدا لكنها ظلت دائما سيدة جليلة مفعمة شعورا بالواجب وهو ما ينقص الجديدة كل النقص ، فهى تحب أن تقدم الضحايا لاصدقائها التقدميين ، فانه (أى الامبراطور الجديد) عديم الارادة . لكنه فى مثل هذه المواقف لا يصح أن يتعزى المرء بأن الامور سائرة اذا لم تكن الامور على ما يرام . اننى سأتشبث بكرسى ، ولو بعثوا لى بالاقالة الى بيتى ما استقلت . لانى لا أكون عندئذ قد وقعت عليها مع مقيلى !.. انه لن يولد عواهل بعد الآن ، لكنى كبير الامل فى مولاى الشاب ، الذى أسعفه فى ذلك صباه المتعب »

البرنس غليوم

فانه لما كان البرنس غليوم يشعر بأنه فى البيت تساء معاملته ، تقرب فى السنوات الاخيرة من بسمارك بصورة حاسمة ، واذا كان الاب قد شكا للمستشار فى سنة ١٨٨٦ من « تسرع ابنه فى الحكم على الاشياء ونقص نضوجه وما يرتبط بذلك من تعلق بالتعالى والغطرسة ومن الشطط فى التقدير » فان مثل هذه الشكوى كانت خليقة أن تثير العطف على الامير عند متلقى الرسالة الشديد الانفعال ، واذا كان هذا الأخير قد حاول الآن أن ينتزع الأمير من جو بوتسدام الراكد فقد دفعه الى ذلك شعوره بأن حكم فردريك سيكون وجيزا وهو ما أعرب عنه أيام أن كان فردريك معافى صحيح البدن . فعداوة بسمارك لوالدى الامير قد ألفت فى مبدأ الامر بين بسمارك وغليوم

لكن بعد سنة واحدة من ذلك ولد عناده الاحتكاك ، فقد كان ستوكر وفالدرسى قد أقنعاه بأن السماحة والكرم ينفعان فى مكافحة الاشتراكية ، فوضع غليوم مشروعا لاعانة فقراء برلين باقامة حفلات للفروسية فأغضب بسمارك بذلك لا لانه ظهر فى هذا بمظهر حزبى فحسب ولكن على الاكثر لهذه الهواية التى يراد بها حل المشكلة الاجتماعية من قاعة المجلس ومن فوق أعواد المنابر ، وهو الذى بوصفه ذلك المجاهد القديم قد عمد الى حلها بالقانون والسيف ، وقد أكد الأمير فى دفاعه عن نفسه قوله : « انى لأوثر أن أقطع جسمى لك عضوا عضوا على أن أشرع فى شىء يسبب لك المصاعب »

الاحتكاكات الاولى

وقد أوقعت هذه التأكيدات المنطوية على الغلو الارتباك ببسمارك ، بل انه لما بعث اليه البرنس غليوم عقيب ذلك وفى أخريات أشهر الامبراطور القديم بمشروع تبليغ الى جميع أمراء الاتحاد أراد أن يوزع من الآن مختوما على المفوضيات « نظرا الى احتمال وفاة الامبراطور ووالدى قريبا أو عاجلا » زاد فى ارتباكه ، فقد جاء فى مشروع التبليغ أنه « ينذر الأعمام الكبار بألا يضعوا العراقيل فى سبيل ابن الأخ الصغير » ، اذا ما بات امبراطورا

ويتزايد قلق بسمارك . فأية حمى تلهب هذا الشاب الذى يحرر منشورين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن وفاة سلفين ينتظر موتهما ويريد أن يودع مكاتب المفوضيات اياهما !.. فهلا يعرف البرنس دستور الريخ ، حتى يعامل أمراء الاتحاد من عل ؟ وفى رسالة بخط يده تقع فى ثمانى صفحات وتتجاوز على قوله ما يملك فى الكتابة من جهد يعلن الى الوريث مبادىء الريخ ويدع له « فى خضوع حرق هـــذه الرسالة من دون تردد» . انها وخزة فى قلب الامير: اذن فأول كلمة له كامبراطور لانفع فيها وان كان من المسلم به احترامها مقدما ؟ ويقول له هذا فى وجهــه ذلك المستشار الذى تكبد من أجله وفى سبيله ماتكبد ؟ ذلك أن الأمير يرى فى مخاصمته الانانية لوالديه تضحية سوف يطلب عليها شكر الشيخ بعـــد سنين

ويجىء رد الامير فاترا ، ويجىء مهددا بأن « الويل لهم اذا ما بات بيدى الامر ! » وقد كتب هذه العبارة يهدد بها آخرين ، لكن لهجتها القاطعة تســك سمع القارىء المرهف وتحمله على التفكير فى أشياء بعينها ، فهو يعرف جيدا لماذا أشار على وريث العرش فى هذا الخطاب الطويل « بأنى أطلب أوطـــد دعامة للملكية .. فى مملكة يكون حامل التاج فيها مصمما لا على أن يعاون فى أيام السلام بجد فى النهوض بأعباء الحكم فحسب ، بل على أن يؤثر الموت فى الاوقات العصيبة على درج عرشه والسيف بيده ذائدا عن حقه على التراجع. فمثل هذا السيد لن يتخلى عنه جندى ألمانى» فهل هو محض اتفاق أو معرفة بالناس أو قوة تنبىء أن يكتب بسمارك الى هذا الامير بالذات هذا التحذير قبل أن يدفع القدر غليوم هذا نفسه بثلاثين عاما الى تجربة على هذا النحو فيمنعه خلقه من هذه التجربة ؟

حكمة العمر من شاعر

انه وقد أصبح وليا للعهد يأخذ فى نشر ملاحظاته على الاوراق الرسمية على نحو ما كان يفعل فردريك الاكبر ، وفى احدى هذه الاوراق يمكن المرء أن يطلع على حوار بين غليوم الشاب وبسمارك ، كيف يفند هذا تعليقات الامير فى باب السياسة العظمى بتعليقات مقابلة ، ذلك أن تبليغات بسمارك لسفرائه يزداد تلاحقها ويزداد عمومها على الدوام ، وللامير الآن أن يقرأ صورا منها فيجد فى الافادات والاوامر وثائق وحكما فى شئون الدولة ويرى المرء أوراق بسمارك هذه فى الشئون الخارجية كما لو كان يطلع على حكمة العمر من شعراء أو صور الذات الاخيرة من رسامين عظماء ، وان هذه الوثائق لصور ذاتية رسم فيها بسمارك نفسه . ولما اشتد من حوله روح العداء للروسيا وألح العسكريون فى الحرب كتب بسمارك الى سفيره فى فينا :

« ان امبراطورية الامة الروسية ، تلك الامبراطورية التى لا سبيـــل الى تدميرها ، القوية بمناخها وصحاراها واستغنائها .. ستظل اذا حاقت بهـا الهزيمة عدونا الطبيعى المتعطش الى الانتقام كما هو شأن فرنسا فى الغرب اليوم بالضبط ، وبذلك نخلق لانفسنا فى المستقبل حالة من التوتر الدائم .. لا أحب أن أتحمل تبعة جرها طوعا . و « هدم » قومية أمر أخفقت فيه الدول العظمى

فلم تستطعه فى مائة سنة مع أمة أضعف من الروس كثيرا وهى الامة البولندية .. ولعله خير لنا أن نعالج الخطر الروسى كما لو كان خطرا أوليا نقيم فى وجهه السدود للوقاية »

تحذير

وحين يقرأ غليوم هذا يكتب الى جانب فكرة الخصومة الجديدة « ليس أكثر مما هى الآن » ، فيعلق بسمارك على ذلك بقوله : « بل أكثر ! » ويكتب غليوم الى جانب التعطش الى الانتقام « ربما تعطشت ، ولكنها عاجزة » فيعلق بسمارك « لكنها سرعان ماتقدر كما باتت فرنسا منذ اثنتى عشرة سنة قادرة » . ويعلق غليوم على كلمة هدم أمة بقوله : « ولكن يمكن تحطيم وسائل حربها » فيكتب بسمارك : « هذه يمكن تعويضها فى خمس سنوات ، أنظر فرنسا »

فى هذا الحوار المكتوب الوجيز تسمع التجربة تنازل نفاد الصبر والحكم الناضج يناهض المبتسر . لكن الشيخ مايزال يرغب فى تربية الشاب ، فهو يكتب اليه عقب هذه الجمل العابرة رسالة ضافية يتناول فيها السياسة الروسية ويحذر الأمير فى نفس الوقت من تعليقات بهذه الأهمية ، « اذ يصبح الموظفون الذين يطلعون على هوامشكم السامية وأنا من بينهم ، عاجزين (اذا ماتغيرت الحكومة فى المستقبل) عن الاحتفاظ بالمسلك السلمى للسياسة الألمانية بالقدر البادى الى الآن وبنفس الاطمئنان . وعلى قدر ما أفهم من هوامش سموكم الملكى سيكون على أن يكون كلامى مخالفا لاعتقادى واذا ماذاع أننا غير صرحاء وعرف عنا أننا غير مخلصين كان ذلك أخطر على سياسة الامبراطورية الألمانية من ميل الى الحرب ينطوى على التصميم »

مثل هذه الكلمات العظيمة يختارها بسمارك لانذار الفتى ويدهش أكثر حين يتكلم هذا فى اليوم التالى عن « الأهمية المفرطة » التى تعلق على هوامشه ، ويقول انه حريص أشد الحرص على السلام . فهل السيد الفتى قلب المزاج ؟ ألا يعرف مايكون لهذه التصريحات من تأثير فى الداخل ؟ انه يقول انه سيقلع عن هذه الهوامش « تسليما جزئيا منى بما أبديتم سموكم من أسباب » لكنه يحتفظ لنفسه بحق ابداء آرائه « صراحة بغير ذلك من الوسائل » . وماكان السيد الهرم نفسه ليكتب بهذه الجراة . فالتسليم الجزئى شىء جديد على بسمارك . ولا غرو أن يستسهل أولياء العهد الحديثو السن الكلام عن الحروب التى يمكن أن تقتضيها الضرورة ، فهم لايدرون الأخطار ، ولا يأرقون بالليل من الهموم . ولو قرأ الأمير الذى يحيط به قواد يحبون القتال الأسطر المظلمة التالية التى ينذر فيها بسمارك وزير حربيته كأنه من الانبياء لأجفل وذعر . فبسمارك يكتب يقول :

« اذا شاء الله أن نهزم فى الحرب القادمة فان عدونا المنتصر سيلجأ بلا أدنى شك الى كل وسيلة ليمنعنا فى الجيل المقبل من النهوض ثانية على أقدامنا .. ولا أعتقد أنهم سيقنعون بالألزاس بل انهم سوف يطالبون بأشياء على الرين ، وعندئذ لن تتيسر لنا معونة الروسيا والنمسا وانجلتره كما كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحال فى سنة ١٨١٢ ، بعد أن ترى الدول مبلغ قوة ألمانيا المتحدة » . وهو فى نفس الوقت يتنبأ بأن الروسيا أكثر أخذا بالنزعة الراديكالية مما يظن : « فالثورة والجمهورية الروسية شيئان يمكن أن تطرآ قريبا جدا . وكثيرون فى الروسيا يرجون اللحظة التى تنكسر الروسيا فيها فى حرب ليتخلصوا من الأسرة المالكة » . أجل ان همه من خطر قريب ليبرق من جملة وجيزة على هامش أحد التقارير ، : « اننا الى اليوم محتاجون الى انجلتره اذا كان لابد من صون السلام فوق ما صين »

سماء أوربا

بهذا الظلام كان أفق أوربا حين موت فريدريك . وقد كان يشعر بذلك ، فانه فى اليوم السابق ليوم وفاته بعث فى طلب المستشار ، فلما جاء مد اليه يديه فى حماه ، وهو ملتهب ، ثم تناول يد الامبراطورة ووضعها فى يمين بسمارك وضغط على كليهما معا . وكان مؤثرا فى بكمته وهو يوصى الاثنين ويلوح وكأنه يبارك حكم بسمارك وسلطانه فى موته وقد كان يناهضه فى حياته

وفى اليوم التالى يبلغ الأمير غرضه ، فغليوم الآن عاهل

الفصل الثانى

« ماكان فريدريك ياصاحب الجلالة ليصبح الأكبر لو أنه وجد عند توليه الحكم رجلا فى سلطان بسمارك وخطر شأنه واحتفظ به » . بهذه الكلمات أصاب فالدرسى الامبراطور فى الصميم ، ذلك أن الوصول الى لقب « الأكبر » كان سعى ابن الثامنة والعشرين المخلص فى البداية . أما سعى فالدرسى فكان أن يصبح مستشارا . وحقا ان السيد كان فى البداية يخشى المارد فطواه فى سحابة من عبارات الاجلال والاكبار . وكان الوسيط الملائم فيما يلوح هو هربرت ابن الأربعين

كلا الوريثين

وكان هذا البسمارك الصعب الآخر السيء الحظ فى الحقيقة يرى نصيبه القاسى وهو ابن العبقرى يزداد قسوة بما انتواه أبوه* من جعله خلفا له . وكان خليقا بهذا الرجل الذى جاء لآباء أقوياء أن يتفق فى مشاعره مع العاهل الشاب وأن يجدد فى صورة معدلة تلك العلاقة فى الاخلاص والثقة التى كانت بين أبويهما من قبل . لكنه بينا غليوم الأول وبسمارك الأول كانا مدفوعين بفرق مابينهما من عشرين سنة الى أن يقف أحدهما رسميا من الآخر موقف السيد من الخادم أو كانا بهذا الفرق مسنودين فى هذا الموقف ، كان غليوم الثانى وبسمارك الثانى يقفان بحكم الطبيعة موقفا عكسيا اذ كانت السنون هى التى فوقت الخادم على السيد ، وكان لامحل لتلك المشاعر التى قارنها بسمارك بمشاعر ابن لايمكن أن يسخط من كل قلبه على أب غاضب

وأسوأ من ذلك حظا فى حالة الابنين توزيع المواهب والنقائص ، فان غليوم الأول الذى كان أقل من الثانى فهما وأكثر لباقة واستقامة وتحفظا ترك الرجل العبقرى يقوده تدريجا باختياره . أما الثانى وخلقه العصبى يدفعه الى أعمال تتجاوز شجاعته الشخصية فقد شهد بجانبه بسماركا آخر دفعه الاعجاب والتربية وشعور خفى بأنه تنقصه القدرة على الخلق — دفعه كل هذا الى خدمة والده أكثر مما دفعه الى خدمة وطنه . فاذا كان غليوم يثق

---

* يجد القارىء فى كتابى عن تاريخ غليوم الثانى وصفا أوفى لاقالة بسمارك اذ كانت هذه الاقالة فى حياة غليوم مما يبرز بداية عهده (المؤلف)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بنفسه أكثر مما ينبغى ولا يوقر أجداده كما ينبغى فقد كان هربرت أقل اعتدادا منه بنفسه وكان يجل والده اجلالا لايجعله يفكر فى تحول تعاليمه التحول الذى يلائم الزمن . وكان غليوم الى ذلك قد تربى تربية خالية من الحب فى حين تربى هربرت تربية يحوطها الحب وحصد بعد أن ضحى فى قصة التضحية الـكبرى بحبه وبشرفه أيضا تقريبا ، ميل أبيه بل حنان الوالد الذى كان يعمل فى شعوره الأسرى ومع تقدم العمر على أن يخلفه ابنه ويمضى فى ذلك قدما

هربرت

وهربرت الذى أصبح خليص أبيه الوحيد والذى دربه على فن الدولة أمهر معلم فى أوربا كان حريا أن يكون كأبيه ذا ذهن ثورى كيما يرى ناحية ما جديرة بالانتقاد فينقدها . لكنه خبر بتجارب أبيه وفنونه وورث أيضـا احتقاره للبشر ــ ذلك الاحتقار الذى يصدر كلاهما عنه ، وازداد فيه الى حد أن جعله عقيما . فقد قال أبوه عنه : « انه يبغض حيث يكفينى أن أحتقر . وهذا شعور قويم جدا فيه ، لكن حرارته لاتدوملديه طويلا » . واذ كانت تنقصه القاعدة التى يقوم عليها النجاح والتى جعلت الشيخ مهوبا ، فقد ظن الناس مسلكه الفاتر الكاره غطرسة وكتبوا سرا أن الوزراء جميعا ضـده وأنهم انما يحتملونه من أجل والده . وهكذا اجتمعت حول قلب الامبراطور المتردد الذى صادق هربرت وهو أمير ، أصوات عدة لتخفض من مرتبةهربرت بل وتغتابه . وقد زاد هؤلاء البطانة وقع وقيعتهم باشارة ماكرة الى أن ههنا قهـرمة تستفحل من شأنهـا أن تعرض للخطـر سلطان البيت المالك ومجده . واذ كانت هذه الدوائر تعيش على النفاق والمداهنة اللذين لايعرفهما بسمارك وولده فانه كان من شأن نشاط هربرت كوكيل وزارة لوالده أن يزيد الامبراطور بعدا عن الأب وابنه

فى المركبة

بيد أن غليوم كان ماكرا فلم يدع أحدا منهما يلحظ شيئا فى أول الأمر . فقد كتب سفير النمسا الى بلاده يقول : « ان هنالك شهر عسل حقيقيا من التبجيل والميل » . وانخدع بسمارك فى البداية حتى نوه بأن الامبراطورأشجع وأكثر استقلالا عن تأثيرات البلاط من آبائه . وحين انتظره فى فريدريكسروه حتى الساعة الحادية عشرة شكره السيد الشاب على هذه الرعاية التى لم تغير شيئا فى أوضاع بسمارك وكان قد نهض من أجله فى الساعة التاسعة صباحا . لكنه فى رحلته الى الشرق لم يصطحبه بل أبرق اليه يحييه ثم لم يلبث أن شكا منه الى غراندوق بادن قائلا ان الشيخ يعطيه دروسا ويتحدث اليه أكثر مما يجب عن التجارب . ولابد أن غليوم قد ذكر لعمه عنه أسـوأ من ذلك ، اذ أن هذا الغراندوق قد أبدى أن الامبراطور قد بلغت روحه التراقى من بسمارك وابنه

وفى سنة ١٨٨٩ العصيبة حين كان المستشار يتراوح فى رضاه بين الروسيا والنمسا ليحفظ التوازن وفق الوصفة القديمة رغب الامبراطور فى نظام أثبت من هذا النظام ــ نظام « بسيط » يحل محل هذا النظام المعقد .* والامبراطور فى العموم معاد للروسيا محب للحرب ، وبسمارك من جراء ذلك ميال الى الروسيا لأنه لابد فى العام القادم حين ينتهى أجل المعاهدة من اعداد النفوس لتجديد التأمين المشترك الذى يتعلق به أمن امبراطوريته . فحين يحل القيصر ضيفا ويؤكد للمستشار ثقته به ويعامل الامبراطور وهو ابن خاله معاملة فاترة لكنها مؤدبة يدعو الامبراطور نفسه الى الصيد فى الروسيا فلا يسع القيصر أن يرفض دعوته . وبعد سفر القيصر يرجو الامبراطور بسمارك أن يصحبه فى مركبته لأنه يريد أن يتحدث معه بعد ذلك فى دار المستشار ، وفى الطريق يتحدث اليه عما خطر له من زيارة القيصر فلايجد من بسمارك سوى الصمت فيصيح أخيرا متهيجا : « مالك لاتطرينى » !

توترات

فى هذه العبارة التى تنكر كرامة مركزه كما تدل على جهل بخلق بسمارك ، تبدو لهفة الشاب . لكن الشيخ الخبير ببنى البشر والذى يستشف كراهية القيصر لمثل مزاج الامبراطور ، ويعرفه سيدا بدينا محبا للراحة ، يخشى أن تتعكر الصداقة المزعزعة بصيد وقنص يشترك فيهما الاثنان ولا يكون من ورائهما غير ذلك ، فينصح للامبراطور بألا يزوره . أفلا يصدم الشاب بهذا ؟ فهو يحس أثر الصدمة فى صميم كيانه ويستشعرها فى غروره ، وينزل المستشار أمام داره ويحييه تحية مقتضبة ولا يترجل معه

وقد تجمعت القطيعة بينهما فى هذه الركبة ، وهذا المشهد شبيه بالضائقة التى يقع فيها محبان عند أول قبلة تأباها الحبيبة . وسرعان ماتتدخل الضباع ، فالآن يسهل اشعال ضغينة السيد . ألم يرغم الشيخ الامبراطور عن سوء نية أن يطيق رسميا ملاما شديدا موجها الى أبويه حين نشر مفكرات ولى العهد فريدريك عن الحرب فى غير ما لياقة ؟ وقد كان غرض بسمارك من ذلك أن يقضى على أسطورة الهوهنتسلرى الحر الذى زعموا انه صاحب هذه المفكرات حتى لاتستشهد الديمقراطية فى الانتخابات المقبلة بالامبراطور الاخير . ويتحرك ثانية أبناء عمومة بسمارك «المشاغبون» فيسعون الى نسف القائمة ومعها بسمارك ، فيعمد هذا ثانية الى النضال كما فعل فى السنين السبعينية ، بحجة سلامة الدولة ويهاجم الكرويتس تسايتونج فى ريشأنتسايجر ، ــ ولا يرى حين يفعل ذلك مايراه اوسيوس من أن هذا اليوم أخطر مما كان أمس ، لأن بسمارك لم يعد وهو حيال العاهل الشاب فى نفس المركز الذى كان فيه حيال مولاه القديم من حيث النفوذ والسلطان »

كذلك فى الداخل كان البناء يتصدع . فالامبراطور يريد مكافحة اضراب المعدنين بالنظريات المثالية ويريد بسمارك مكافحته بالدم والحديد : فيعود من جديد فينكر معنى الحركة الاشتراكية وضرورتها ، ويوقع نفسه أمام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التاريخ فى الخطأ فيريد الافادة من هذا الاضراب كما أفاد اذ ذاك من حادث الاعتداء على الحياة لمناهضة الحمر فى الانتخابات ، الى أن يظهر الامبراطور فى جلسة مجلس الوزراء « على غير انتظار تقعقع مهاميزه » فيلقى تبعة الاضراب على أصحاب الأعمال ويعلن أنه أصدر اليهم أوامره بأن يعطوا عمالهم أجورا أحسن والا سحب جنوده. فالى هذا الحد كان الفتى يخشى الثورة ويريد ملافاتها بالاصلاحات ، على حين كان الشيخ يسعى اليها ليرميها بالرصاص . ويتظاهران بأنهما متفقان . وكل هذا سليم من حيث المبدأ ، غير قابل للتطبيق فجاءة وعلى هذا النحو . وقد تعلمه الامبراطور من بعض رجال الحاشية الذين يريدون أن يدخلوا فى روعه انه رحيم ويلبسوه دور ملك الشحاذين ، ومن هذه البطانة هنتسبيتر معلمه الذى لا يستطيع أن يمتدحه كثيرا فى حضرة بسمارك ، والذى يتخلى عنه بعد ذلك فى مذكراته ، ودوجلاس ، وهو مضارب فى أسهم المناجم ، غنى ومسل ، « يدردش » بأرقام الاقتصاد ، ويرتفع الى مرتبة الكونت سريعا . وفون هيدن الرسام وأحد مديرى المناجم ، الذى يرسم عاملا مسنا من شرق برلين على صورة نبى ويعلم منه محن المجتمع .

العمى

ويقع الآن مالم يقع فى حياة بسمارك قط : فهو يستهين بالعدو ، ويغلو فى تقدير مركزه ، ويدع حفنة من رجال البلاط يفعلون مايشاءون ، وهو الذى عقد النية منذ هنيهة على مناهضة طبقة كاملة. يذهب يعيش فى فريدريكسروه فى مايو ١٨٨٩ الى يناير ١٨٩٠ ، ثمانية أشهر لا تنقطع الا فترات وجيزة ، ولا يتنبه والامبراطور يحثه على المضى فى الاستجمام . واذا كان ثمة زوج مسن لا قبل له بمتابعة زوجته وهى فى ميعة الصبا فى أسفارها وقفزاتها ، فلا أقل من أن يسعى الى العيش معها ، فهنا يدع خبير عظيم هذا المخلوق للمعجبين به من الشبان المرحين المغامرين ولايرى مبلغ مايسهل عليهم خديعته. فالاعتداد بالنفس واحتقار البشر يتدفقان معا ليرميا بسمارك بالعمى

وقد أنذر فى هذا ، فحين يتصفح فى فريدريكسروه الصحف يجد الاحزاب جميعا ضده : فاحداها تكتب : « أن الحياة العامة مصابة بما يشبه الشلل » وتعنون « جرمانيا » مقالا لها بقولها : « لم يعد شىء يلقى نجاحا » . وتمتلىء أعمدة كرويتس تسايتونج بالسخيمة . وصحف الاحرار حافلة بالتهليل لما يبدى الامبراطور من رغبات اجتماعية ، والاشتراكيون يحاربون المستشار كعادتهم . لكن المستشار يعجب حين يسأله القيصر هل يبقى فى منصبه ، وحين يحذره بوتيشر من المضى فى البقاء بعيدا يجيبه هادئا: «ان ماضى ومركزى ينفيان كل خطر من بعدى عن الامبراطور » . هذا دانتون الذى كان يرد على كل انذار بقوله : لن يجرأوا !

ومع ذلك فهو لا ينى عن النقد ، فهو يندد بمعيشة الامبراطور التى لاتعرف الثبات ولا تنطبع بالاستقرار « حتى أن الوزراء كثيرا ما يتصيدون اللحظات لعرض أهم المسائل فلا يلقون غالبا الالتفات اللازم » . ويرجع بسمارك مسلكا

للامبراطور فى صالح قولكس تسايتونج الى « استعداد وراثى عنده المجنون » وفى نفس الوقت يكتب السفير الروسى لبلاده على التحقيق أن الناس تتساءل : هل الامبراطور سليم العقل ؟

كلب

لكن هاهى ذى رهينة وضعها الامبراطور بين يدى الشيخ . ففى خاتمة هذه الحياة يقوم كلب فيكون منه وجه شبه النزاع « كلب أسود دميم ذو رأس هائل ، وعينين ثرتين ، وصدر أعجف . لايرتد الى نوع ما » يعيش الآن مع البرنس بسمارك هدية من الامبراطور . ويقول البرنس : «هذا يرجع الى أن المرء خادم ملوك . فقد أعطيت كلبى تيراس الجميل الى حارس الغابة لاحتفظ بهذا الكلب . وفى وسعى أن أسمه لكن فى عينيه من معانى الوفاء ما أتردد معه فى ذلك » . هنا يجلس بسمارك نصف منفى بالفعل . يحتمل فى الغابة كلب مولاه ويدعه يسهر عليه ، بينا يدع مولاه فى العاصمة بلا خفارة أو سهر . أماتيراس رفيق حياته « وأحب شىء اليه فى هذا العالم » فلاينتظره كل صباح كما كان ينتظره منذسنين ، بل يضطر الى قيدهعند الحارس حتى لا يفلت فجاءة ويبطش بالدخيل الامبراطورى . وحين يمشى الشيخ أو يركب يجرى الى جانبه حيوان غريب قبيح المنظر يضع عند الموقدة رأسه الدميم على ركبتيه ويريده أن يمسح على جسده بيده . وهذا يتأتى حين يكون المرء خادما للملوك . فهكذا يتهكم على نفسه وهكذا يفعل مع ذلك

يجهل غليوم

لكأنما يعاند نفسه فى أنه غير قابل للعزل ، وكأنما يريد أن يجرب كبرياءه على هذا النحو . وأنه ليقول فى ديسمبر لصديقته : « انه لاكثر الناس مراعاة لى ، وهو لم يجرؤ بعد قط على مخالفتى فى الشئون السياسية .. ولو كنت أصغر سنا من ذلك وأمكننى أن أكون معه حيث يكون لطويته .. وفى الوسع حل الريخستاج ثلاث مرات لكنه لامناص من ثورة فى النهاية . وهذه المسائل من قبيل الاشتراكية الديمقراطية لايمكن حلها من دون دماء تسفك ، مثل المسألة الألمانية أيضا . واذ كان مولانا الشاب يكره الالتجاء الى العنف .. » ولم يتم الجملة ، لكنه أبدى بما فيه الكفاية كيف كان يجهل غليوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثالث

فى ٢٣ يناير سنة ١٨٩٠ استدعى بسمارك بالبرق من برلين أخيرا ، فغدا يبحث مجلس التاج فى المسألة الاجتماعية . ويسافر يوم الجمعة وهو مايتحاشاه فى العادة ، ويصل الى العاصمة متسائلا ، ويعقد مجلس الوزراء ويقترح عليه أن يقف من الامبراطور موقف المنتظر . وهنا ينهض بوتيشر ، وكان منذ عشر سنوات خليص بسمارك وصديق الأسرة ، وأثيرا اليوم عند الامبراطور بين الوزراء ، لكنه منذ أمد قريب محل استرابة بسمارك ، يقف بوتيشر هنا ويرى أن لابد من توجيهات ليتم شىء ما. وكان قد أكد للبرنس بسمارك أخيرا أن الامبراطور يريد أفعالا اجتماعية ــ أكد له ذلك وهو جالس اليه فى فريدريكسروه يحتسيان النبيذ ــ أما الآن فيعيد هذا القول أمام الزملاء ويقع مالم يكن فى الحسبان ، اذ يوافقه الجميع

مجلس التاج

لحظة مخيفة لم يخبرها منذ ٢٥ سنة ! فبسمارك يهجره رجاله بعد أن تعلموا فى هذه الاشهر الثمانية ان ينصاعوا لغيره . الآن يرى مافاته . الآن يحاسب الغاضب وزراءه ، ويندد بعملهم ، ويهدد بالاستقالة ليثير اعتراضهم ، لكنهم لا ينبسون ببنت شفة . وترفع الجلسة فى « حالة توتر شديد » ويركب بسمارك الى الامبراطور الذى لم يره منذ كانت ركبتهما الاخيرة. ويقول الشيخ: « أريد الغاء قانون مكافحة الاشتراكية لأنى بحاجة الى أصرم منه» فينزعج الامبراطور ويعقد مجلس التاج اثر ذلك ويعلن الامبراطور فيه ارادته وهى حماية العمال وتتمثل فى التفادى من الثورة المهددة بالوقوع والدعوة الى مؤتمر وتوجيه نداء « حماسى » الى الشعب فى يوم ميلاده ، فهذا حلمه

ويكتب لوسيوس : « وكنا جلوسا تتزايد دهشتنا : ترى من نفخ فيه هذه الافكار »

نزاع

ومع ذلك فان الامبراطور يذكر مستشاريه ، فهم من سلف ذكرهم ، ويكلف بوتيشر بتلاوة المذكرة اثر ذلك ، ويطلب الى بسمارك قبل الجميع ان يبدى رأيه فيشير ، وفى مظهره هدوء ، بالتأجيل ، ويحذر من تأثير هذا الامر على

الانتخابات ، اذ سوف يسخط الملاك ويشجع العمال . فيرد عليه الامبراطور فى أدب ، ويرغب قبل كل شيء فى تخفيف قانون مكافحة الاشتراكية ويضيف الى ذلك أن رجالا مخلصين للملك وللحكومة قد نصحوا له بذلك . وهنا يثور بسمارك قائلا : «انى لااستطيع أن أقيم الدليل على أن هذا التساهل سيكون له عواقب وخيمة على جلالتكم ، لكنى أعتقد ذلك بعد خبرة السنين . فلو تساهلنا الآن ماوسعنا فى المستقبل أن نحل الريخستاج ولوجب أن ننتظر دواعى أخطر شأنا . لكنه اذا ظل القانون معلقا فان فراغا يحدث وقد تترتب على ذلك مصادمات ! »

فينفعل الامبراطور : « انى اريد التفادى من أمثال هذه الكوارث دون أن تضطرنا الى ذلك ضرورة قصوى ، فلست أحب أن تتخضب أولى سنى حكمى بدم رعاياى »

بسمارك : « سيكون هذا ذنب الثوريين ، فلن تحل المشكلة من دون دم ، والا لكان هذا تسليما ! ومن واجبى أن أصونكم مما تنتوون مستندا الى خبرتى . اننا منذ دخولى الحكم نشهد سلطة الملك فى ازدياد .. فهذا التراجع الاختيارى ليكونن الخطوة الاولى فى ارتداد هذه السلطة نحو سلطة برلمانية تبدو مريحة فى اللحظة الراهنة لكنها تنطوى على خطر . واذا كنتم جلالتكم لاتقيمون لنصيحتى وزنا فلست أعرف هل يسعنى البقاء فى مركزى »

فيقول الامبراطور لبوتيشر فى صوت خافت لكنه مسموع : « اذن فبهذا يفرض على ما أسلك » فيقدم الدليل على ما بينهما من تفاهم حميم ضد بسمارك . ويطلب الى السادة الوزراء على الاثر أن يبدوا آراءهم ، فيحسون جميعا بوقوع القطيعة لكن احدا منهم لا يجرؤ أن ينضم علانية الى الامبراطور ، فهنا حيث يخيرون بين هذا أو ذاك ماتزال سلطة بسمارك من القوة بحيث تضمن له موافقة زملائه موافقة رسمية جلية نوعا . لكنه يشهد ذعرهم ويتبين فى أعينهم وسيمائهم أن السلطان هنا لضغطه لالنفوذه

ويعلم زعماء المحافظين فى نفس المساء بهذا النزاع الذى أبلغ اليهم فيقويهم نبؤه ويصوتون فى اليوم التالى لالغاء قانون مكافحة الاشتراكية كما يطلب بسمارك . فيهدمون قبل الانتخابات الكثرة التى لبث بسمارك يستند اليها ثلاث سنوات بهدمهم ماكان بينه وبينها من اتفاق . وفى نفس اليوم يثور الامبراطور ، ويهدد وزير الحربية بقبضته قائلا : « انكم لم تعودوا وزرائى بل وزراء البرنس بسمارك ! لقد كنتم وكأنما ألهبت ظهوركم بالسياط ! لقد قطعنى ! » فى هذه اللحظة عينها كان بسمارك مستلقيا فى الاريكة فى رداء نومه مضعضعا يقول لمدير المستشارية : « لقد بات يعرض عنى كل الاعراض ويستمع الى أمثال دوجلاس ، لقد هجرنى كل زملائى » . لكن أحدا لايجرؤ أن ينصح له بالاستقالة فى الحال سوى ابنه بل ، فانه يقول لصديق : « لم يعد لوالدى تلك الضربة القاضية التى كانت له من قديم »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عدم الامان

بلى انه لم يعد ذلك الرجل . ذلك أنه يأخذ الآن يتأرجح ويتردد ويلبث على هذه الحال الى النهاية سبعة أسابيع كما لم يكن من الممكن قط أن تفعل ذلك ارادته الفولاذية وذكاؤه الطيع فى العادة وهو الرجل الخبير ، انه يلوح قدعلق كل شيء بالانتخابات التى يتمناها ويخشاها . فهو يلاقى زملاءه المأخوذين فى اليوم التالى فى الجلسة هاشا باشا ، يقول : « ان مزاج الملوك كالجو المتقلب : حسن أحيانا ، وسيء أحيانا ، ومع أن المرء يحمل المظلة لايسلم من البلل .. وانى لأبجل فى الامبراطور سليل أجداده وملكى وآسف لمسلكه . وليس يجوز أن نطيق الكاماريللا (*) . فأرى أن نتعاون »

وفى نفس الوقت يستقيل من منصب وزير التجارة ويدع أحد المقربين الى الامبراطور يعين فيه ، ويكلف بوتيشر بوضع مشروع المراسيم المطلوبة ، ويبلغ أنه سيقتصر على مكانه القديم فى وزارة الخارجية وعلى منصب مستشار الريخ على الاكثر ، ويكون فى يوم ميلاد الامبراطور : وئام وتأكيد

لكنه فى فبراير ، شهر التوتر والدسائس ، تتغير نفسية الشيخ ، فسرعان مايتحرك من جديد ، ويسعى الى حمل زملائه على معارضة المراسيم الاجتماعية وحين يحتج بوتيشر بحجة رجل البلاط فيقول ان قرارا بالرفض خليق بأن يستاء منه الامبراطور ، يهب فى الجلسة فى وجهه قائلا : « اننى مضطر أن أعد شروعا فى الخيانة أن يرى وزراء مسئولون الملك فى طريق خطرة على الدولة ثم لا ينبهوا الى ذلك صراحة .. فهل تريدون أن تنفذوا مشيئة الامبراطور فحسب ، اذن لكان ثمانية من المرءوسين فى محلكم كافين لان يقوموا مقام الوزارة الحاضرة » على أن المراسيم تصدر فى النهاية ، لكنه حين يريد بسمارك جس النبض وهو فى حضرة الامبراطور فيقول : « أخشى أن أكون فى طريق جلالتكم » لا يعود الامبراطور يعترض على مثل هذا القول بل يلزم الصمت . لكنه حتى وهذه الدلالة قائمة لايستقيل بسمارك بعد ! وعبثا يحاول أن ينتزع من زملائه احتجاجا ، فحين يخطرهم بأنه سيتخلى عن جانب من مناصبه يصمت أيضا هؤلاء ، ويقول هو بعد ذلك لابنه : « انهم جميعا يتنفسون الصعداء اذ يفكرون فى التخلص منى ! »

التبعة

واذ يتبين الشماتة فى أعين زملائه يعاند كما يصرح بذلك ، ويعدل عن الفصل بين مناصبه ، ويغضب الامبراطور بهذا كل الغضب ، وقد كان يحدوه الرجاء فى تخليه ، وينشأ سباق بين الخصمين مهمته : من يبطيء أكثر من الآخر ؟ وان كليهما ليشعران بأن الامور لن تجرى على هذا المنوال لكن كليهما يريد أن يحمل الآخر التبعة : فالامبراطور لا يجرؤ على طرد الشيخ ، وهذا يريد أن يطرده

---

* مفاسد البلاط

الامبراطور ولايريد أن يوليه معروف التخلى والاستقالة باختياره ، فهو يؤثر البقاء . وهكذا يتعلم الاثنان أن يبغض أحدهما الآخر بين البقاء والذهاب ، شأنهما فى ذلك شأن المتزوجين الكارهين يريد أحد الطرفين الانفصال ويخشاه الآخر ، ولا يجرؤ عليه أحد

ولاينشد بسمارك فى هذا تلطفا من نحو الامبراطور أو عظمة من وراء هذا الموقف انما يطلب على أسلوبه فى العناد صراعا . واذ كان هذه المرة لا يستطيع انتصارا فهو يسعى على الاقل الى هزيمة خصمه الادبية . وهو فى نفس الوقت يسهر كل السهر على حقوقه ، مادق منها وماجل ، تحدوه البغضاء وتداخله الغيرة، يثور لان وكيل الوزراة قد أمضي الدعوة الى مجلس الدولة بدل أن يدع له ذلك ، ويتحرى كل مسرب يتسلل منه أعداؤه ، ويرى الدسائس حيث لا دسائس ، ويعتد فيكتوريا الموعزة الى هنتسبيتر « المسدس الذى تحشوه فيكتوريا التى ترجحه عقلا والذى ينطلق بعد ذلك عند الامبراطور » على انه يذل نفسه فى نفس الوقت كما لم يذل نفسه فى حياته قط ، فهو يزور فيكتوريا نفسها ويشكو اليها من انه لم يعد يصلح لهذا العصر ، وينتظر أن تعارضه فى قوله . وحين تسأله ماذا تستطيع أن تفعله له ، يجيبها بقوله : « انى أرجو فقط شيئا من الميل » ! فلو لم يعرف من هذه الأيام سوى هذه الكلمة لتحتم على المرء أن يتبين منها خوف رجل هرم يخطف من فمه خبز الحياة

وفى نفس الوقت يعود الواقعى الشيخ فيسهر على كل شىء له ، فهو يكلف فى أيام فبراير نفسها من يثبت له حقوقه فى المعاش . وكل مفوض يجيئه فى الوقت المناسب ليعود من عنده بحقائق مخيفة يكتب بها الى بلاده ويبلغها لنفس البلاط والامبراطور الذى لاينى يفكر فى استرجاعوده . ويقول بسمارك لوزير سكسونيا المفوض : « أخيرا يسأل الامبراطور أى ضابط من ضباط الهوسار رأيه فى حل المشكلة الاجتماعية ويريد أن يفرض رأى هذا الضابط على .. انه يتلهف على اعجاب الناس بشخصه ونفسه ، لكنه بغيض الى الملاك ، قد ضيع حبهم بالانحياز الى العمال ، واظن ان الوقت الذى يصبح فيه وليس له من الجيش أيضا سند ، ليس ببعيد ، وعندئذ يتقرر مصير ألمانيا » هكذا يخلط فى هذه الاسابيع المضطربة بين الجليل والحقير

الاصــــوات الحمراء

ويأتى يوم الانتخاب بالقول الفصل ، فبينا ينذر سيد الحرب الحاميـــة فتنسحب فى ضوضاء هائلة الى ميدان تمبلهوف تزحف جحافل العمال صامتة الى صناديق الانتخاب . ففى هذا اليوم تثأر لنفسها السنوات العشر التى تخللها العنف ، فيتحقق ما تنبأ به ليبكنخت من أمد وجيز ، « ماذا بلغتم بعد احدى عشرة سنة ؟ .. لقد تبين الناس جميعا فى مؤتمر باريس أن الاشتراكية الديمقراطية الالمانية هى أقوى حزب فى العالم وأحكمه نظاما ، لقد أردتم خنقنا فقويتمونا .. ماهى ألمانيا من دون عمالها !؟.. لقد جاءت الى العالم فكرة جديدة ، ثورة جديدة ... فناهضوا روح العصر تقع الكارثة ! »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد بات للحزب ثلاثة أمثاله فكان للحمر مليون ونصف مليون صوت ، من ٧ ملايين ، فهناك ٤ ملايين ونصف مليون صوت فى المجموع تناهض بسمارك وانه ليؤكد أن مراسيم الامبراطور العائمة قد كانت من بين ماجر هذه النتيجة أما أن تقع هذه النتيجة كما وقعت قبل ثلاث سنوات من دون هذه المراسيم فما يزعم بسمارك بطلانه . ومع ذلك تتقوى آماله ، ويشم نضالا جديدا ونزاعا جديدا فيزايله الضعف ويستجمع قواه ، ويرى الدولة مهددة والسلطة القديمة مسلحة : واسلحته هو قانون أصرم لمكافحة الاشتراكية وميزانيــــة كبيرة للجيش ، ويقول للامبراطور : « سنحتاج الى حل المجلس مرة الى اثنتــين ، وسندعو أمراء الاتحاد فى أسوأ الحالات الى برلين ، ونعدل قانون الانتخابات ، وعندئذ لاتقابل الجماهير هذه الحالة بهدوء بل قد يدفعها هياجها من الاضراب والانتخاب الى تجاوز الحدود ، وهذه هى المحظة التى نستطيع فيها أن نصفى حسابنا مع الاشتراكية الديمقراطية .. لايزال من الممكن القيام بذلك الآن ، ومازلت أملك شخصيا الطاقة والسمعة لأداء ذلك . أما بعد الآن فلن يكون هذا فى الامكان . فلا تسليم ! »

هكذا يتكلم المجاهد القديم ، فهو يريد ثانية أن يبطش بروح العصر كمافعل قبل ثلاثين سنة . لكن الاصغر الذى ليس كذلك صديقا للشعب ، لكنه ليس أيضا مجاهدا مثله ، يجيبه : — هذه نصيحة محال تقديمها الى عاهل شاب !

« لكنه لابد من وقوع النضال ، وكلما كان عاجلا كان خيرا ، اننا لن نقتــل الاشتراكية الديمقراطية بالاصلاح ، لكننا سنضطر يوما الى قتلها بالرصاص » هكذا يذهب بالامور الى أبعد مدى ، وهكذا يشعر بالامن من جديد فى هــذه الساعة ، حتى ليطلب أن يستقيل اذا لم يؤخذ برأيه فيسهل الموقف عــلى الامبراطور . بيد أن الامبراطور يحلم بثمانين ألف جندى وعده الشيخ بأن يحمل الريخستاج على الموافقة عليها ، فهو يقبض على يده ويختم المقابلة بهذا التكرار المسرحى : — لا تسليم !

تصيد الأغلبية

ويدخل بسمارك الجلسة يحدوه التحمس مضـــاعفا : « ان الامبراطور مستعد للنضال ، واذن أستطيع أن أظل بجانبــــه ! » فيصمت الجميع مكروبين. ما عداه فانه وقد قوىظهره يحكم قبضتيه على الأعنة مصمما على أن يمنع زملاءه من الاتصال بالامبراطور : فيذكرهم بأمر وزارى قديم يحظر على وزراء الوزارة الاتصال المباشر بالملك . لكن هذا يقع بعد فوات الوقت : فقد تآمر الجميع من أمد ، وجعل الوزراء والبلاط والعسكريون وزعمـــاء المحافظين ، جعلوا كلهم يهمسون فى أذن الامبراطور أن بسمارك هو المسئول. ويعدل الامبراطور فى الحال وعلى غير انتظار عن النضال ، ويهدد فى وليمة فى خطبة علنية بقوله : « لكن أولئـــك الذين يناهضوننى فى عملى ، فانى أحطمهم . » نص ما هدد به الامير فى رسالة الصبا الى بسمارك . وفى نفس

الوقت يلمع نجم بوتيشر ، فحين يلومه بسمارك أمام الامبراطور ، يتلقى منه في نفس المساء وسام النسر الاسود الذى تلقاه بسمارك مكافأة له على شلزفيج هولشتين . والآن حين يبلغ بسمارك النبأ يستشهد فحسب بهذه الكلمة : « لقد نلتها يا أكتافيو ! »

ان بسمارك لا يهمه الا الحصول على أغلبية جديدة . فهو يتطلع الى سند جديد فى الوقت الذى يحس فيه تقلقل صخرة سلطة الملك القديمة من تحته وتحركها فى بطء . « هكذا يتشبث الملاح فى النهاية بالصخرة التى قدر له أن يرتطم بها »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الرابع

ان الحصول على أغلبية ومقابلة غضب الملك بسلطة الريخستاج الصورية وهو الذى لبثطويلا يحتقره هو المخلص الأخير فيما يلوح له. فبهذه الاغلبية يحصل الامبراطور على ٨٠ ألف جندى . وهو يعتقد بحق أنه ما يزال فى استطاعته الحصول على ذلك . أفلم يرد أبناء عمومتـه المخاصمون له أن يخدعوه مع الوسط ؟ ألم يدسوا له قبل الانتخابات بأشهر مع فندهورست ليسقطوه ؟ فكيف اذا قام نفسه بدور السابق فأحبط عملهم ، وخرج عليهم من العالم السفلى عدوا ومؤامرا ! ان اليهود والجزويت عصبة واحدة فهو يتحدث الى بليشرودر ، ويلمح لفندهورست ، ويلوح نفسه مأخوذا : ثم يجلس الجميع سويا ويعقدون الصفقات كسابق العهد

فندهورست كرة أخرى

فهاهوذا الصغير حضرة صاحب السـعادة جالس يطلب من جديد لأول مرة بعد عشر سنوات : وقد كان شراؤه سهلا من قبل ، لكن الثمن الآن يبدو للمستشار غاليا . ومن المحقق عند الضرورة القصوى أنه سيقبله : سيقبل حذف أسوء الفقرات من قانون الجزويت وادخال التعليم الدينى فى المدارس الاولية . ويطول الكلام ويطول البحث ويتظاهر بسمارك بالتعب للمرة المتممة للمائة . ويعلم فندهورست خيرا من الآخر هذه المرة أن ما أسيىء تأويله ثلاثين سنة قد يبيت اليوم هو الحقيقة . ومع ذلك فان الكاثوليكى ليشهد هالعا تدفق الحمر ، فيشعر ويعتقد أن الساحر القديم هو وحـده الذى يستطيع صد هذا الطوفان ، وهكذا يتطور الامر الى حد التهكم : فيناشد فندهورست بسمارك البقاء ! فبعد أن ظل كلاهما عشرات السنين يتمنى للآخر الموت أو الاحالة على الاقل الى المعاش أصبح أحدهما ، وهذا المعاش ينتظر ، يناشد الآخر أن لا يتزعزع . وتظل الصفقة نفسها معلقة ، لـكن فندهورست يقول فى المساء لأصدقائه : « انى آت من سرير الموت السياسى لرجل عظيم »

ومع ذلك يريد هذا أن يعيش . فهو يبعث فى طلب زعيم المحـافظين ليسمع طلباته ، لكن أبناء العم ، مزارعين وبارونات ، هاهم أولاء مجتمعون ، فبعد اجتماعهم بضع ساعات يعلمون بخطة بسمارك الاخيرة فيقررون الآن ضم الصفوف من جديد تجاه سليل طبقتهم اللعين ، ويرفضون أن يعقدوا

معه وتحته المحالفة التى فكروا فى عقدها بدونه وضده . فهم يرفضون بساطة التوجه الى المستشار ، ويعلنون فى اليوم التالى الى فندهورست رفضهم علانية ، لكى يعلم الامبراطور أيضا رسميا أى شريط وحيد يسند دعائم عرشه . ويذهب فى نفس الوقت الكونت ليمبورغ ـ شتيروم الى بوتيشر ، ويضع نفسه تحت تصرفه للاتصال بين الحزب والحكومة ، ويزيد على ذلك قوله : « اننا لا نستطيع بعد الآن أن نفاوض البرنس بسمارك »

العاصفة تهب من كل النواحى

هذا وجه الجورجون* يطالع المجاهد الشيخ فى هذا اليوم : اليوم ينتقم منه احتقاره لمخلوقاته فترفع هذه المخلوقات رؤوسها حياله . واذن فقد حق عليه فى الختام أن يجرب طبقته وهى تقضى عليه القضاء الادبى بدل أن تحوطه بحمايتها فى هذه الركبة المميتة : ان آل هذا الديكتاتور يتخطونه فى دار منصبه فى صورة مهينة . لقد كانت طعنة مسددة الى قلبه يا اكتافيو ولم تكن من البطولة فى شيء ! وبينا كل انسان يهجر بسمارك الراحل يقف الى جانبه الوسط وحده ، عدوه القديم . ان ألمانيا تنتقم لديكتاتوريته ، تنتقم لنفسها من عظمته

هكذا تطيح قبضات عزامة غصون هذه البلوطة القديمة الماردة فى نفس الوقت ، وليس هذه المرة من يطير بطلقاته أعاليها الجافة ليخدع حارس الغاب الصارم

وهذا يزاول الآن عملا هينا . فقد ظل أياما يشحذ شجاعته بمقالات الصحف جميعا ويقوى عزيمته بمنظر الوزراء والحاشية جميعا وهم اما ساخطون واما منزعجون . ثم تجرع من الاقدام جرعة أخرى بأن خال نفسه غاضبا على حزب الوسط وعلى زعيمه بخاصة . والآن يجرؤ فيعلن الى المستشار أنه سيزوره فى داره لمباحثته . ويبقى الاخطار بمحض الصدفة من دون أن يفض مساء فيأتى الامبراطور ويوقظ بسمارك قبل التاسعة صباحا ويتقدم هذا الى مولاه خشنا مأخوذا . ويستشعر هذا فرصته الكبرى فلا يجلس أثناء الحديث بأكمله متعمدا ليضطر بسمارك المتعب دائما فى الصباح الى الوقوف . وينطلق الامبراطور بعد بضع كلمات ويسأله ألم يصرف فندهورست . وفى الحق لقد كانت دار المستشارية محاطة بالبوليس بناء على أمره كأنها دار لتزييف النقود ، وكان كل من يغشاها يسجل اسمه . فالآن يطلب الامبراطور الى مستشاره أن يستأذنه فى الاستقبالات الهامة

أول أمر

وتنفجر الضغينة من القلب الهرم : فيوضح لمولاه عامدا واخزا ، واجبات

---

* فى أساطير اليونان القديمة ثلاث أخوات يعشن فى الطرف الغربى من الارض ، لهن شعور كالحيات ، وتحيل نظراتهن المرعبة كل من ينظر اليهن الى حجر (المترجم)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوزير وحدود الملك وعيب الرقابة التى لا يسعه أن يسمح له بها

ـ حتى ولو أمر مولاك بها ؟

« حتى عندئذ يا صاحب الجلالة »

فبسمارك الذى شهد ثلاثة ملوك عراة لم يسمع قط من شفتى أحدهم كلمة « أمر » اللهم الا أن يتضمنها مرسوم رسمى جريا على العادة من قديم . حتى ذلك الوزير المفوض الشاب القادم من شينهوزن قد قال له ملكه الاول انه لا يأمره بالتوجه الى فينا بل يرجوه فيه . ورسائل بسمارك التى تحوى أشد ثورات غضبه تسجل اللهجة التى كان غليوم الاول يخاطب بها وزيره ٢٦ سنة . وقد كان هذا هو الشرط الكبير غير المدون الذى أحبت هذه الشخصية أن تخدم عليه وهى المولودة لتحكم . فاذا كان ثمة من يغلظ له القول فعفاء على اخلاصه له . فما كانت سيرة بسمارك لتصير ممكنة لو أنه فيما يبدى من عبارات الولاء لم يكن هنالك تبجيل بتبجيل واحترام لقاء احترام . فالآن وقد وجه الامبراطور اليه هذا السؤال بلهجة ألمانية جديدة عليه ينهار الصرح وينهد ، ويقف نبيل تجاه نبيل

ولا بد أن ما خبره غليوم فى هذه اللحظة من أمر مخيف قد بدد ما أعد من شجاعته وأخرج بسمارك دقائق عن طوره ، ذلك أنه بينا الامبراطور يقول معتذرا ان الامر بطبيعة الحال لا يخرج عن رغبات لا أوامر وانه لا يمكن أن يكون غرض المستشار احداث هذه البلبلة فى الشعب ، يصيح بسمارك غاضبا : « هذا بالذات ما أريده ! فانه لابد أن تسود البلاد بلبلة من أن أحدا لا يعلم ماذا يبغى الامبراطور بسياسته ! »

ساحل صخرى

ويفزع السيد الشاب وهو الذى لم يعتد أن يناضل وجها لوجه ، ويكون عقب ذلك أهدأ من مستشاره الهرم ، ويتكلم عن تخفيض ميزانية الجيش ليستطيع الاتفاق مع الريخستاج الجديد ، ويفهم بهذا التراجع أمام الشعب، ذلك المجاهد القديم ، كرة أخرى أن يسخط وأن يستقيل . لكن هذا يهدأ ثانية وقد حزر اللعبة ، ويلحظ الفخ فيعلن من جديد أنه يستقيل اذا رغب الامبراطور فى استقالته : فما يزال أحدهما يلقى التبعة على الآخر ، ويمتد تيار النضال فى سبيل السلطة وينحسر فى الاعماق موجات عظيمة تحت سطح الحوار الثائر ، يكاد لا يسمع له صوت . ويبدأ الامبراطور من الطرف الآخر فيقول :

ـ اننى لم أعد أتلقى تقارير شفوية من وزرائى . ويقال انك حظرت عليهم أن يوافونى بموافقتهم وانك تستند فى ذلك الى أوامر تقادم عليها العهد واصفرت من الزمن ولم يعد أحد يعرفها . فيزداد بسمارك هدوءا ويوضح له الامر الوزارى الصادر فى سنة ١٨٥٢ ، وحق الملك بعد العرض المشترك

أن يخالف الرئيس ويوافق وزير الوزارة المختص ، ثم يقول انه لا يستطيع أن يلغى هذا الامر فانه لا غنى عنه

اذن فكل طريق الى السلطة مسدود ؟ ويحاول الامبراطور من الجهة الثالثة : فهو يرجو الشيخ الآن بلهجة ولى العهد ان يشركه فى شئون الدولة أكثر من ذى قبل وأن يطلعه على القرارات المهمة ، ويسمعه قبل أن يتخذها. أقليل العلم هو الى هذا الحد بهذا الرجل الواقف أمامه ؟ فهو يرفض بتاتا ويحيل الامبراطور على الدستور لان هذه الاحالة توافقه ، ويذكر تعامله مع الامبراطور الهرم ويصرح فوق ذلك بقوله : « اننى حين آتى الى جلالتكم تكون قراراتى قد اتخذت »

ساحل صخرى من دون مرفأ ! انه يتشبث بالسلطة فى يدين قويتين ولا ينزل عن شيء ! ستبقى ملكا صوريا ما دام يحكم

سهم بسمارك

لكن الشيخ لا يكفيه أن يصد مولاه العاصى ، فهو يريد الآن أن يغضبه : أن ينتقم للاهانات التى لحقته فى الايام الاخيرة ويصمى قلب الامبراطور بسهم ! فهناك حافظة أوراق ما على من يريد الا أن يفتحها تصبح صندوقة البندورا (*) . ومن دون مناسبة يتناول الشيخ موضوع الزيارة المنوية للقيصر ويأخذ ورقة من الحافظة ويطل واقفا على الامبراطور ويقول :

« أكاد لا أنصح بهذه الزيارة فقد ورد هذه الايام تقرير من لندن يثبت فيه السفير تصريحات للقيصر غير مناسبة بحال يقال انه نطق بها فى مجلس خاص وتناول بها جلالتكم » . ويتناول الورقة فى يده فى هيئة الممثل الضليع واتئاده ، فيعض الامبراطور على شفته : فهل يتهيب ؟ـ أرجوك أن تقرأها !

هنا يمثل ابليس دور الفزع ويقول : « محال ! ان هذه التصريحات غير مناسبة للعرض » . ويزن الورقة بين يديه مغريا . فيرتعش الامبراطور: الآن لا تضعف ! ـ ناولنى الورقة ! ويأخذ الورقة من يد المستشار ويقرأها ويحمر لونه ويمتقع ، ثم يقطع المقابلة وينصرف من دون كلمة . وقد قرأ فى هذه الصفحة بين ماقرأ من أحكام القيصر عليه : « انه مجنون . انه غلام قليل الادب ! » فالآن يحس وقع السوط . ويشعر من ناحية بسمارك أكثر مما يشعر من ناحية القيصر انه عومل كما لو كان تلميذا صغيرا ثم أهين . فهل ممكن بعد هذه الاهانة أن يمد اليه يده ؟ ويفعل ذلك عند انصرافه فى صورة سطحية جدا بعد أن يتناول خوذته فى يمناه . ويهبط السلم سريعا ، ويغادر البيت سريعا ، ويمتطى مركبته ، ويذهب الى أصدقائه ! ويتبعه

---

* فى أساطير اليونان امرأة جهزتها الآلهة بهبات مغرية وزودها كبيرهم بصندوقة بها صنوف الشر . فمن غضبت عليه الآلهة سلطتها عليه فتطايرت من صندوقها الشرور بين الناس (المترجم)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقع خطوات الشيخ الثقيلة ــ ذلك الوقع الوئيد ، وينحنى له الشيخ عند باب الدار

ان ما فعله بسمارك فى هذه اللحظات منقطع النظير . فهذا العاصى الذى ظل خمسين عاما ينفث الشر على النبلاء والامراء ويسلقهم بألسنة حداد يعود ثانية الى الظهور . فهو اليوم يؤدب الملك ، وهو يمكر فى تدبيره الى حد أن يتوسل بثالث لابلاغ الامبراطور وأن يحتجز رأى هذا الثالث، وهو القيصر، حتى ينتزعه الامبراطور . فهل يملك أن يمنع الامبراطور ورقة بعد أن مد هذا اليها يده ؟ ولماذا مد الامبراطور اليها يده بعد أن أنذره مستشاره ؟ « أهكذا يمكن أن يكون للمرء شعر أشقر وعينان زرقاوان ، ثم يكون مع ذلك غادرا كالقط ؟ »

الفصل الخامس

في يوم تال يقف شيخان في مكان خابي الضوء يرتبان أوراقا ، أحدهما يخرج مظاريف من حقائب وحوافظ ، والآخر يقرأ العناوين ويضع المظاريف بعضها فوق بعض أقساما وطبقات . هذان الشيخان هما بسمارك وبوش وقد استدعاه ليقول له : « اني أريد الآن أن أكتب مذكراتي وأريد منك مساعدتي . ذلك أني أعتزم الاستقالة فأنت تراني أحزم حقائبي . ولا بد من ابعاد أوراقي في الحال فانها ان بقيت هنا أطول من ذلك صودرت في النهاية .. والأمر أمر ثلاثة أيام قد تطول الى ثلاثة أسابيع لكني مستقيل لا محالة ، فلست بمستطيع التحمل بعد الآن .. والذى لا أجزم فيه برأى هو كيف أبعد أوراقي وأنا آمن . قد يمكن نقلها اليك وعندك ولكن كيف ؟ »

– يمكن أن أنقلها حزما ياصاحب السمو وأن أحملها الى هين

« ومن هو هين ؟ »

– رجل يعتمد عليه كل الاعتماد

« يمكنني أيضا أن أحملها الى شينهوزن حيث يمكنك أن تستردها .ولكن أنسخ أهمها واحتفظ بالصور لحين صدور تعليمات أخرى .. هنا رسائلي الى الامبراطور غليوم . وهذه رسالة التوصية التي بعث بها فريدريك غليوم من أجلي الى فينا .. كم عمرك ؟

– ٦٩

« سأنعم بالثمانين أيضا في الخارج في الريف ».

ويأتيه بوش بعد يومين ومعه الصور المنسوخة . « خذها معك ثانية ، ولكن لا . فالاحسن أن تبقى . فلو رآك أحد تأتي وتذهب بمظروف كبير ؟ خير هكذا – تعال » . ويودعان الاوراق في حقيبة بين خرائط حتى لا تلحظ

كأنه متآمر

هكذا يغادر بسمارك البيت الذى حكم البلاد منه ثمانية وعشرين عاما ، وفكر فيه في انشاء امبراطورية ، يغادره وكأنه متآمر يشعر بأن العيون منبثة حوله فيحاول تهريب كنوزه وأوراقه التي يريد أن يطلق منها قذائفه على أعدائه في المنفى . وهو لايجد في المستشارية بأسرها واحدا يطمئن اليه ! واحدا يمكن أن يعهد اليه بحماية مايملك ! فليختبىء من الجواسيس في شينهوزن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأن فريدريكسروه نفسها تبدو له غير أمينة . وهكذا يبرز اسم الوطن لأول مرة بعد عشرات السنين . وصاحبه الذى يعاونه الآن صحفى من خارج المستشارية ، انتزع منه أشياء خاصة لانه كان يمكنه أن يؤذيه : فهما كرفيقين مجربين يقدم كلاهما الى الآخر هذه المظاريف الثمينة ، ويفكر أحد الرجلين الأشيبين فى المذكرات السرية التى كتبها للآخر ، أما الآخر فلعله يفكر فى أرنيم الذى بعث به الى الأشغال الشاقة لأنه رفض أن يعيد اليه أوراقا

ويدخل أثناء هذه المناولات التى تجرى فى الخفاء جنرال وسيم تبدو ملامحه هادئة جلية هو رئيس الديوان العسكرى فيسأل بأمر صاحب الجلالة متى يلغى الأمر الوزارى الذى وقعه المغفور له الملك فريدريك غليوم الرابع والصادر فى سنة ١٨٥٢ . فيرد بسمارك ردا موجزا يقول فيه ان الأمر باق لايلغى !. فهو يريد أن يرغم الامبراطور على طرده

شوفالوف يدخل

وفى صباح اليوم التالى يدخل عليه شوفالوف وقد وصل من بطرسبورغ ، وحمل فى جيبه تفويضا من القيصر بتجديد المعاهدة لمدة ست سنوات لاثلاث فقط . وهذا ماأقام بسمارك عليه سياسته منذ سنة : فى يونيه ينتهى أجل المعاهدة القديمة ، وأمن الريخ مرهون بالتأمين المجدد فى الشرق ، وقد ضمن موافقة الامبراطور الشاب على ذلك ، وقد كتب القيصر على هامش احدى الأوراق الرسمية مايدل على بصيرة نافذة اذ يقول : « ان محالفتنا تؤلف نوعا من الضمان لبسمارك بأنه ليس بيننا وبين فرنسا اتفاق مكتوب ، وهذا مهم جدا لألمانيا » . لكنه لابد أن بسمارك الآن يهز كتفيه ، فهو يؤكد للروسي المنزعج الاشاعات ويرجوه الاتفاق مع خلفه المجهول ويقع فى هذه اللحظة أول عاقبة لسقوط بسمارك وأوخم عاقبة فى نفس الوقت : تراسل مع بطرسبورغ ، واسترابة بسياسة ألمانيا التى استغنى عن الممثل الأول فيها ، ثم رفض القيصر

انتقام غليوم

فانه لم يكد الروسى يغادر دار المستشارية فى هذا الصباح حتى دخل الجنرال هانكه على بسمارك للمرة الثانية ليطلب الغاء الأمر الوزارى بأمر صاحب الجلالة والا ، وهنا يحاول الجنرال أن يحافظ على رباطة جأشه ، « فان صاحب الجلالة ينتظر أن تقدموا فى الحال استقالتكم كما ينتظر سموكم فى القصر فى الساعة الثانية ليتلقى استقالتكم »

لقد صاح الكاردينال فى الفاتيكان بعد معركة كونججريتس : Il mondo casca (*) لكن بسمارك لايفكر أبدا فى هذه الكلمة . أما مايفكر فيه فسيقصه فيما بعد . والآن يرد فى هدوء : « ان صحتى لاتسمح لى بالخروج . وسأكتب » . ويرى هانكه ثوريا أمامه فى طى سحابة حمراء فيختفى . ويتلقى بسمارك على الأثر

---

* العالم يتحطم

ورقة مفتوحة عن طريق الديوان وفيها بخط الامبراطور هذه الكلمة : « ان التقارير الواردة (من قنصل ألمانى فى الروسيا) تدل أوضح دلالة على أن الروس على أتم استعداد خططى للدخول فى حرب ـ ويؤسفنى جدا أن تكون معلوماتى عما يرد فى التقارير بهذه القلة . وقد كان فى مكنتكم من أمد طويل أن تنبهونى الى هذا الخطر العظيم التهديد ! فهذا وقت تنبيه النمسويين واتخاذ الاجراءات المضادة .. »

انتقام غليوم

وهذا الاتهام فى غير محله من الناحية الواقعية ، فلم يكن ثمة خطر ، أما من الناحية الشخصية فقد كان الامبراطور يريد الانتقام لتلك الرسالة المتضمنة تصريحات القيصر والتى أصاب الخادم مولاه بها اصابة قاتلة . ومع ذلك فان بسمارك لايجد أسنح من هذه الورقة المهينة التى لايحتويها غلاف ولا تحمل عنوانا ـ فرصة ينتهزها . فأول مايفعله أن يدفع عن نفسه كتابة هذا الاتهام بخيانة البلاد ، فيرد الامبراطور جوابه من دون تعليق . بيد أنه فى نفس الوقت يستطيع بسمارك أن يعلل الآن سقوطه بأفكار تمت الى السياسة العالمية لم يخاصمه عليها حزب الى الآن . وهكذا يعلن بعد الظهر الى وزارته نوعالخلاف ويختم ببيان عظيم :

« اننى على رغم الثقة التى وضعتها فى الحلف الثلاثى لم أقص قط من حسابى أن هذا الحلف قد يستعصى علينا مرة لأن الملكية فى ايطاليا لم تبلغ القوة الكافية ولان علاقة ايطاليا بالنمسا مهددة بحركة جماعة Irredenta (١) ومن ثم كان سعيى دائما ألا أقطع الجسر القائم بيننا وبينالروسياكل القطع .. واذ كنت أثق بنيات القيصر السلمية فلا أستطيع أن أبرر الاجراء الذى أمرنى صاحبالجلالة به .. ومسألةحماية العمال ليست فى نظرى منمسائلالوزارة ، لكنه اذا كان لابد من أن أتخلى عن ادارة الشئون الخارجية فلابد كذلك من ذهابى وأنا عالم بأن هذا يسر الامبراطور » . وينوه على أثر ذلك بصحته الجيدة ورغبته فى العمل ، ويثبت أن السبب الوحيد لذهابه هو ارادة ملك يريد أن يحكم بنفسه

الوزارة تنفض من حوله

وينتظر مرة أخرى : أفلا يلحظ أحد ماذا يعنى التخلى عن هذا الرئيس فى الشئون الخارجية أيضا ؟ ألا ينهض الجميع فى هذه الجلسة فيضغطون على الامبراطور بالتهديد بالاستقالة ؟ فيكونون قد أنذروا السيد الشاب بالنسبة المستقبل وقاموا الى ذلك بتمثيلية أمام التاريخ ؟ لكن بسمارك لايسمع سوى بضع جمل تتعثر ، فليس سوى واحد منهم هو مايباخ من ينطق كلمةالساعة : « ان الاستقالة ستكون مصابا قوميا لألمانيا وأوربا فيجب أن نحول دونها ،

(١) حزب كان يهدف اذ ذاك فى ايطاليا الى ضم الايطاليين الخاضعين للحكم الاجنبى الى الوطن الايطالى (المترجم)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يجب أن نذهب جميعا ، وسأفعل أنا ذلك على كل حال » . ويرنق الوداد على المناقشة لحظة ، وتنفض الجلسة بين الاحتجاج ، لكن الزملاء يجتمعون فى المساء « ويعدلون عن الاستقالة الاجماعية التى لاتتفق وتقاليد بروسيا »

رسول ثان من غليوم

ويأمر بسمارك بعد الجلسة باعداد جواده ويخرج به على خلاف عادته فى هذا العصر وهذا الفصل ، وذلك ليبرهن للامبراطور على أنه فى صحة ، وربما ليجرب أهل برلين ، ولكن أحدا من الأهالى لم يهتف له . وحين يعود ، يكون جوبيتير قد بعث رسولا آخر : لوكانوس رئيس الديوان المدنى الذى يدخل عليه فى المساء خائفا يسأله بأمر صاحب الجلالة لماذا لم يقدم بعد طلب استقالته . فهل يضرب الشيخ المائدة بقبضته الآن ؟ كلا بل يقول بأدب : « للامبراطور أن يقيلنى فى كل لحظة .. وأنا مستعد لأن أوقع فى الحال اقالتى البسيطة الى جانب توقيع الامبراطور . وعلى عكس ذلك لاأفكر فى أن أحمل عن الامبراطور تبعة استقالتى ، بل أنا أدنى الى أن أبين للجمهور نوع الخلاف . وانى بعد ثمانية وعشرين عاما فى خدمة لم تكن بلا تأثير على بروسيا والريخ لأحتاج الى وقت لأسوغ أعمالى فى طلب استقالة وأمام التاريخ أيضا » . وتتلو ذلك محادثة وجيزة يكون فيها على وشك أن يفقد رباطة جأشه . ثم يملى طلب استقالته ، ويعيد النظر فيه فى صباح اليوم التالى ، ويبعث به الى القصر ، وقد بسط فيه نقط الخلاف وختمه بهذه الجمل البارعة :

طلب الاقالة

« ان من المؤلم لى جدا فى تعلقى بخدمة البيت المالك وخدمة جلالتكم وفى عيشى الطويل فيما ألم من أحوال كنت أعتقد الى الآن أنها دائمة ، أن أقطع علاقاتى المألوفة بجلالتكم وبسياسة الريخ وبروسيا جميعها ، لكننى بعد النظر المخلص فى نيات جلالتكم التى كان لامناص من أن أكون مستعدا للعمل على مقتضاها اذا بقيت فى الخدمة ، لاأستطيع سوى أن أرجو جلالتكم بكل خضوع أن تتكرموا باقالتى من منصب مستشار الريخ ورئيس الوزراء ووزير بروسيا للشئون الخارجية راضين عنى ، مولين اياى معاشى القانونى . . وليسمح لى فى احترام أن أفترض أنى أجيب بطلب الاقالة رغبات جلالتكم وأنه يجوز لى أن أتوقع على التحقيق تكرم جلالتكم بالموافقة . ولكنت خليقا أن أرجو جلالتكم اقالتى من مناصبى من أمد طويل لو أنى لم يدخل فى روعى أن جلالتكم ترغبون فى الانتفاع بخبرة خادم أمين لأسلافكم وكفاياته . فبعد أن بت متأكدا أن جلالتكم لستم بحاجة الى هذا هل استأذنكم فى الانسحاب من الحياة السياسية دون أن أخشى أن يحكم الرأى العام على قرارى هذا بأنه فى غير أوانه . فون بسمارك »

ويرفع الامبراطور المستشار الى مرتبة دوق فون لاونبورغ رغم معارضته وهو مامنع من قبل فريدريك الثالث أن يفعله . وكل مايستطيعه أن يدفع عن نفسه هبة مدبرة بالمعارضة الشديدة فيها ومقارنتها بالمكافأة التى يتلقاها

المجدون من موظفى البريد عند الاستغناء عنهم . وينشر الامبراطور مراسيم الشكر دون استقالة بسمارك ليذيع فى الناس أكذوبة الصحة المضعضعة كسبب للاستقالة ، وهكذا ينتصر فى عين الأمة فى مبدأ الأمر بمجرد سلطة الأمر والنهى.
ويحاول الامبراطور فى نفس الوقت استبقاء هربرت ، بل انه ليبعث الى والده يطلب اليه التأثير عليه بذلك ، لكن الأب يستشهد للمرة الثانية بقول فالنشتاين : « ان ولدى رشيد » . أما بصفة خاصة وبين الخلصاء فيعلل رفضه هذا التعليل المخيف : « حين يحس المرء ويعرف أن السفينة غارقة لامحالة ، لايعهد اليها بابنه »

لماذا ؟

ويبرز مركز هربرت المحزن فى هذه الأيام بروزا مضاعفا : فلو عاش بعد أبيه فى المنصب وحاز بعده الرضى ، فلربما أصبح مع ذلك سائسا مستقلا ، لكنه الآن لامناص من الخروج معه ، وهو يريد أيضا هذا الخروج ، فقد ورث عن أبيه الشعور بالشرف . وفى مساء اليوم يبلغ الامبراطور رد الروسيا فيسمع منه املاء الشيخ : « بعد أن علم الكونت شوفالوف مساء أمس أن جلالتكم لن تترددوا فى اقالة البرنس بسمارك يستغنى القيصر اسكندر عن مد أجل المعاهدة السرية اذ كان من غير الممكن المفاوضة فى مسألة سرية كهذه مع مستشار الريخ الجديد » . ويعلق الامبراطور فى رأس الصحيفة : « لامانع عندى من تجديد المعاهدة » وفى ختامها يكتب كلمة واحدة هى : « لماذا ؟ » فيضع هربرت للامبراطور بيانا أوضح يعلق عليه الامبراطور بورقة أخرى وفيها نفس الكلمة مرة أخرى

ولا يجد المرء أوضح من هذا التساؤل فى تبين سوء فهم الامبراطور لما لاسم بسمارك فى أوربا من تأثير . بيد أن الامبراطور يفزع مع ذلك فيبعث بمن يوقظ شوفالوف من نومه فى الساعة الواحدة صباحا لينبه عليه بمقابلة الامبراطور فى الثامنة ، ويؤكد له حين يراه أنه راغب فى عقد المعاهدة فينشط الروسى للحصول على تفويض من القيصر حتى لمثل هذه الحالة المتحولة عملا برغبة بسمارك الأخيرة

ويجد الامبراطور كلما فتح جريدة فى هذه الآونة استحسانا من كل الأحزاب ومن كل الطبقات : « فالأمة هادئة ، والشعب الألمانى يتحرك لرؤية هذا الرجل الهائل يخرج عن سلطانه لكنه لايحدوه خوف ، وقد كان فى هذا السلطان عقبة لاتذلل فى طريق التطور الداخلى منذ سنوات .. ولن تلبث الأمة الألمانية أن تعد يوم ١٨ مارس ١٨٩٠ من الأيام التى يستشعر المرء لذكراها غبطة »
ويبلغ مجلس النواب البروسى الخبر رسميا فيلزم الصمت ، ويغتبط البلاط ورجال العسكرية حتى لقد روى هوهنلوهه عن جنرال ، « أنه كان يستشعر غبطة الأطفال من أنه يستطيع الآن أن يتكلم عما يريد صراحة .. وشعور الارتياح هذا طاغ فى كل مكان . فبينا كان الأفراد تحت نفوذ الأمير السائد مكبوحين مضغوطين تراهم الآن جميعا وقد انتفشوا كالاسفنج الذى يوضع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فى الماء » . ومثل هذا الارتياح لم تحسه الأمة منذ مائة عام وقد أحسته آخر مرة لما مات فريدريك الأكبر

هولشتين يتدخل

وليس فى ألمانيا من يعرف ماذا قدر ثلاثة رجال وماذا قدر فى الحقيقة رجل واحد لألمانيا فى هذه الأيام . ذلك أنه لما استطاع شوفالوف أن يفوز بتفويض جديد من القيصر وجد بعد اقالة بسمارك بخمسة أيام — وجد فجاءة أمامه حالة نفسية متحولة . وقد نصح بسمارك بوساطة ابنه أن تعقد المعاهدة فى بطرسبورغ كى ينقذها من دسائس برلين ؟ لكنه لما أراد هربرت أن يخرج المعاهدة من السجلات السرية لم يجدها : اذ سبقه اليها هولشتين . فاحتد وكيل الوزارة أولا على مدير السجلات ثم على البارون قائلا : « كان فى وسعكما أن تمنعا هذا الخرق ! لعلكما عددتمانى قبل الأوان فى عداد الأموات » . وكان هولشتين يعتد المعاهدة خطرة والا فلماذا يحرض الآن على الروسيا فى حمية ؟ « ان شيئا ملموسا لاينتظر (من المعاهدة) فاذا ذاعت تعرضنا للملامة كأناس منافقين .. فاذا تم الاتفاق توقفت سمعتنا الحسنة ومركزنا الاجتماعى على كتمان الروسيا . ومصلحة الروسيا هى فى عدم الكتمان ، ذلك أنه بمجرد أن يشعر الناس بهذه المسألة يتفرق الجميع .. وعندئذ تملى الروسيا علينا شروطها للتعامل بعد ذلك وسيكون أول هذه الشروط : انى أريد أن أتعامل مع ب. الذى كان الى الآن عميلى ولا أتعامل مع غيره . أفتفهم الآن الموقف ؟ »

والجوهرى فى هذه البواعث خطأ ، ذلك أنه لما أطلع بسمارك الكونت شوفالوف على معاهدته الدفاعية الأولى الموجهة ضد الروسيا ، كان بسمارك مستعدا فى كل وقت لأن يرى النمسويين المعاهدة الثانية . بل انه حين لم يفعل ذلك كان يعمل برغبة القيصر . لكن طبيعة هولشتين التى تعمل فى الخفاء وحيل أمثاله التى تتهيب النور لاتفهم كيف يمكن ان تجتمع الشجاعة والمكر ، فأدمغة هؤلاء المستشارين السريين تتبخر فيها أخلاقية زائفة ، والاخلاص المصطنع هو وحده الذى ينفس عن حواسهم المحدودة . لكنه تحت كل هذا تستعر نار البغضاء الخفية التى أثارها جرح كبرياء هولشتين فيما مضى من الزمان : وكان خليقا أن يختلق كل دليل ليمنع عودة هذا الذى أسقط نهائيا والذى اشترك مع فالدرسى ودائرته فى الدس له منذ سنين . « فعودة شركة بسمارك » أمر وجب أن يصبح محالا

عجز •

بيد أن خلفاء بسمارك قد أثبتوا عجزهم الصريح عن القيام بشئون المناصب التى تولوها . ويقول مارشال : « ان رجلا عظيما كبسمارك يستطيع أيضا أن يعمل بمثل هذه الأدوات المعقدة ، لكنى أنا الرجل البسيط لاأستطيع » . أما كابريفى فيتجنب سلفه أثناء خروجه من السراى ، ثم يأتى تلبية للدعوة الى تناول الطعام مرة واحدة لأنه لايجوز له أن يسمع مرة أخرى « أمثال هذه الأشياء تقال عن مولاه » ، وحين يسأله الشيخ المهموم أخيرا عن المعاهدة الروسية

وهو يتنزه فى حديقة المستشارية ، يجيبه الجنرال : « ان رجلا مثلك يستطيع أن يلعب بخمس كرات مرة واحدة ، بينا غيرك يحسنون صنعا اذا اجتزأوا بكرة أو اثنتين » . ثم يجلس المستشارون معا ويثبتون فى مذكرتهم التى مهد لها هولشتين أن المزايا فى هذه المعاهدة انما تعود على الروسيا وحدها اذ تشجعها على فتح باب الأزمة الشرقية فتتاح لفرنسا فرصة الهجوم علينا

كلمات

وبهذه الحجج التى أملاها الضعف وقصر النظر وهذه البواعث التى خلقها الحقد والدسائس يشجب جدار أساسى من بناء بسمارك فيتداعى البناء بأكمله . كذلك يؤثر هولشتين فى بعض الرجال الذين يشتركون فى الفصل ، وحين يعرض كابريفى بايعاز من هولشتين ، وتحت تأثير الرغبة الطبيعية فى أنه خير له أن يأتى بشىء جديد ، وأن يصرف مولاه الشاب عن هذا القيصر الذى يبغضه — حين يعرض كابريفى على الامبراطور اعتراضات الاخصائيين على المعاهدة ، يسر الامبراطور أن يكون له بدلا من ذلك الثعلب الخطر مستشار يسير « سيرة هادئة ، جلية ، صريحة ، من دون مخاطرات ديبلوماسية » ، فهو يحدوه فى ذلك شعور البروسى الصميم ، بأنه مستقيم ، بسيط ، ويقول بعد العرض ، على رواية هولشتين : « اذن لايمكن ، وان كان هذا يؤسفنى »

كلمات ينطق بها دون تفكير ، وفى حجرة صغيرة من حجر القصر ، سيد شاب ، أتى به القدر الى هذا العالم فى هذا القصر قبل ثلاثين عاما . كلمات ولدها ضباب من الرغبة والبغض والغيرة ، ومن الطموح والحمى والخوف ، ومن نفاد الصبر والهوى ، وأخرجتها شبكة معقدة من مثيرات لم يدر بها أحد وكان صاحب هذه النفس أقل دراية بها . كلمات لم يسع أحدا تقدير عواقبها كما قدرها الرجل الذى لم يعد يسأل . لقد زعزعت هذه الكلمات أمن الريخ الألمانى : لقد أفضت الى المحالفة الفرنسية الروسية

وتزداد فى هذه الأيام البرلينية نفسية بسمارك صلابة ، فهو لايخرس ضغينته ، لكن فكاهة خبيثة تبقى عينيه الثرتين فى العادة جافتين ، فهو يعلق أهمية على ان يكون رجل دنيا فحسب . فهو لايظهر شيئا لزملائه المعادين له : لكنه يقول لبوتيشر الذى يقبل يده عند توديعه : « انك أيضا لست بريئا من تبعة هذا الانفصال » . وفى مأدبة وداع موحشة أقامها لزملائه الوزراء فى غرف تكاد تكون خالية لايمد اليه يده : فيقتله وهو رب البيت المعروف بكرم الضيافة وآدابها . ثم يرفض على المائدة مأدبة أراد زملاؤه أن يقيموها له ، بصوت مسموع : « انى لأرى بين موظفى الريخ سوى أوجه متهللة ، وأنتم الى ذلك مسئولون عن أننى لم أعد مستشارا » . ففى مثل هذه اللحظات تتصاعد من هذا القلب الوثنى الهرم مشاعر التهكم القديمة التى تند عن البغض وحب الانتقام ، وهنا يصبح شبيها بهاجن ترونيجه (*) . فليس هذا منه صغارا ، بل ضغينة الاسد الجريح وشجاعته وذوده عن نفسه

---

* أعظم اقطاعى جرمانى فى حاشية جونتر ملك بورغنيا ، قتل سيجفريد بطل الجرمان ثم غلب على أمره فى بلاط أتيلا فقتل بسيف سيجفريد نفسه (المترجم)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حقائق

فمن يزره يتلق الحقائق على أم ناصيته . فهو ينفى لسفير النمسا الذى يحمل اليه من عاهله كتابا منمقا ـ ماأورد هذا الكتاب من أن استقالته ترجع الى أسباب صحية ، فيكذب بذلك امبراطوره رسميا ، ويفخر لأول مرة أثناء حكمه بصحة جيدة فى « لهجة هادئة وان دلت على استياء عميق وألم نفسانى أليم ، وانحطت أحيانا الى مرارة بعينها » . وقد أبلغ السلطان على يد سفيره أنه طرد طردا ، وقال لوزير بفاريا المفوض ان الامبراطور رجل لاقلب له ونعته صراحة بأنه « مدمر الريخ الأكيد » . وهو يشطب لقب مستشار الريخ بالرصاص من البطاقات التى تترك له لدى السفراء ويقول عن رتبته الجديدة « فليتركوا لى اسم بسمارك متفضلين . أما لقب الدوق فسأتخذه على الأكثر حين أريد السفر متنكرا » . وهو يتهم غراندوق بادن فى وجهه بالدس الى أن ينصرف هذا عنه مغضبا

وفى مقابلته للامبراطور بمناسبة اقالته يجابهه بالحقيقة عن مسئوليته ويقاطعه حين يتظاهر بالعطف على صحته بقوله : « انها جيدة ياصاحب الجلالة » ، لكنه يعجز عن حمل الامبراطور على نشر اقالته ولو شفويا . وحين يعود من هذه الزيارة يقول انها قد أثارت عنده مسائل نفسية . ويرى نفسه فى عين الوقت مضطرا الى شحن ٣٠٠ صندوق و ١٣٠٠٠ زجاجة من النبيذ فى عجلة تسبب كسر أشياء ثمينة ، وذلك لأن خلفه يحكم على مقربة منه ، وأنه هو ، كما يقول ، قد أقيل بعد انذار يوم واحد . وقد توفيت أوغسطا ، لكن فكتوريا تفعل كل شىء لتغمره فى نصرها العظيم بتعطفاتها

الأخير

وفى اليوم السابق لليوم الأخير يركب الى ضريح مولاه القديم ويضع على قبره ثلاث وردات هدية من شاعر ، ثم يقيم فى بيته صلاة عشاء ، لكنه حين يعظ القسيس : أحب أعداءك ، تهب يوحنا التى رتبت هذه الصلاة ، وتطلب الى القسيس الفزع أن يكف . ثم يستعرض بسمارك ، وهو مستلق على أريكة ، عشرين عاما مرت بهذا البيت : « لقد نعمت بخير عميم ولم أدفن فى الخامسة والسبعين زوجة ولا ولدا ، وهذا فضل من الله عظيم . لقد كنت دائما أفكر فى أنى سأموت وأنا فى الخدمة . لكن هأنذا لم أعد أجد ماأعمله . لقد جاز عملى ثمانى وعشرين سنة فى الصحة والمرض وكنت أؤدى فيه واجباتى يوما بيوم ، أتلقى بريدى فيه وأنجزه . فالآن ينقطع هذا ، وأبيت ولا أعلم ماذا أصنع ، وأشعر مع ذلك بصحة لم تكن لى منذ سنين »

هنا النقطة المحزنة : فقد حرموا الشيخ عمله اليومى . فبسمارك فى هذا المساء الأخير لايتكلم عن خطط ولا عن الريخ الذى خلقه والذى يشعر اليوم بأنه مهدد . انما يتكلم بسمارك عن بريده اليومى . ولذا لم يكن آخر من مد اليه يده وكيل وزارة أو سفيرا أو أميرا . بل كان شخصا لم يضع يده فى يده

قط من قبل ، وكان يستقبل مادته من يده كل يوم مدى عشرين عاما . أنه غلام مطبخ هذا الطاهى العظيم : انه ليفرشتروم المكنى بالراكب الأسود ، رسول بريد بسمارك . فقد تشجع اليوم وطلب مقابلة الأمير قبل رحيله بثلاث ساعات ، وسيدخل عليه حالا . وهذه هى المقابلة الوحيدة التى فقد فيها الشيخ السيطرة على نفسه فى الختام

فحين يدخل الرجل يتمثل الشيخ أول يوم من أيام الريخ . وكان فى فرساى حين لقيه أول مرة واستخدمه ، والآن يسأله هل مايزال مرتاحا فى عمله : « انى مازلت أتمثل بالضبط تلك الحجرة التى حملت الى فيها أول بلاغ مصلحى وأنت صول » . ويشكره على خدماته وأمانته ، وهو مالم يتح له الفرصة لأداء مثله من قبل أحد فى الريخ بأسره ، ثم يصنع ما لم يصنعه قط : فيهدى . انه يمد يده الى أقرب قدح اليه من أقداحه العديدة ، ويتناول كأسا فضية ذهبية ويناولها الرجل « أمارة شكرى ولكى لاتنسانى »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السادس

فى مدرسة القرية

فى مدرسة القرية بفارتسن يقف بسمارك الى السبورة ويشير بعصاه الضخمة الى الخريطة ، انه يوضح اليوم للأطفال كيف تتألف ألمانيا وكيف كان مظهرها قبلا . ويسأل غلاما ويغضب حين يجده لايعلم شيئا . ويقف معلم المدرسة يرتعد بعض الشيء فهو أيضا يخشى أن يسأل

ذلك أن المنفى ، بعد أربعين سنة من خدمة الدولة ، يحاول فى الأشهر الأولى أن يعود نبيلا من نبلاء الريف كما كان . فهو يستدعى المفتشين وأصحاب المصانع وحراس الغاب ، ويستدعى الغنام أيضا ، ويأخذ فى الكلام معهم عن هذا وذاك : كذلك يذهب أيضا الى المدرسة مرتين فى الأسبوع ليعلم أطفال قريته البوميرانية مالم يعد يريد أطفال برلين أن يتعلموه عنه . وكان من برهة قد كتب الى أحد معارفه المتقاعدين ، يحدوه حسد المشرد الأبدى الذى لاوطن له ، يقول : « لقد كان مثلى الأعلى أيام صباى أن أصبح شيخا يدور فى حديقته خالى البال وبيده المئبرة » . ألم تكن هذه أمنية قلبه منذ عشرين سنة أو يزيد ؟ انه يعرف ذلك من أمد طويل ، لكنه الآن يحس أن « المرحلة الراهنة أتعب من كل المراحل السابقة » لطبيعته القلقة

تبرم

ذلك أنه مع الايام لا يصبح الامر أمر تطعيم للشجر ولا تعليم لأطفال المدرسة أو تعامل مع حراس الغابة ومصنع الورق ، لا الوقت ولا التخلص من أفكار المنصب وهو ما تاق اليه من هذا الأمد الطويل ، هو ما يؤدى به الآن الى ادارة ضياعه الواسعة وثروته الطائلة . حتى ما يقرأه لا يستهويه الا حيثما تكون فيه مقارنة بمصيره ، فهو يتراءى لنفسه فى مذكرات نابليون ، ولا يهمه من زولا سوى La Débâcle ، أما يوليوس قيصر فيلفيه « ملائما لعصرنا بصورة غريبة ومعه بروتس وطنى حر »

ثم كم أصبحت يوحنا ساكنة ! فكثيرا ما ينتابها ضيق التنفس وتصيبها

---

* الانهيار

الآلام . لم تعد تحب ارتياد الحمامات ولا تقوى على الابتعاد عن رفيق حياتها. وحسبها أن يتناول الكلام اقالة زوجها ، وهذا ما يحدث فى الغالب الأغلب فانها تثور ويند عنها أقذع السباب . وماذا يكون مصير الابن ؟ فهاهوذا يقيم مع الشيخين فى بداية الاربعين لم يتزوج ، قد انتزع من مهنته ، لا يميل الى الزراعة ولا يصلح لها ، قد انطوى على ضغينة مزدوجة ، وحطم حياته للمرة الثانية كيان أبيه ، واذا ما رغب له هذا فى منصب سفير فان كليهما لا يلبثان أن يتبينا أن مثل هذه الخطوة ، وهى فى سلم حيـــاته درجة الى أسفل ، لن تتاح له . وهذا الأب القوى الشعور بالعصـــبية لا يملك وهو يناهز الثمانين وريثا من عصب الذكور ولا يؤمل سلالة . وحين يتحدث عن بنات « بل » يقول على أسلوبه : « هذه .. ليتنى أعرف من الآن من هذا الوغد الذى ستتزوجه وتؤول اليه بمالى ! »

كذلك صحته ليست على ما يرام . حقا ان أذنيه وأسنانه ومعـــدته سليمة وأن عينه لا تحتاج الا الى عدسة نصف ، لكنه حين يريد امتطاء جواد يحتاج الى بضع درجات ، ولا بد من أن يعينه الخادم على تطويح ســاقه اليسرى . غير أنه ما يزال الى اليوم لا يطيق متفوقا عليه . وكما كان وهو طالب يسعى الى مشاجرة كل من يبدو لامعا الى جانبه ، كذلك ما يزال الشيخ يقول لبارون فارع يقصر عنه معطف الفرو المســـتعار الذى يرتديه : « الحق اننى لا أحب أن يكون ضيوفى أطول منى »

فراغ

وتزداد أعصابه فى عشر السنوات الاخيرة اضطرابا على اضطرابها ، فهو يقول لرسام يسأله أهو حقا المستشار الحديدى : « انى كلى أعصـــاب ، وضبط النفس قد كان المهمة الوحيدة التى اضطلعت بها فى حياتى » . وقد تبين شاعر هذه التبعية الجسمانية للحالات النفسية عند الشيخ أجمـــل تبين، اذ يراه فيلبرانت عند زيارته أول ما يراه من الباب وهو جالس وحده على الاريكة ، « مستغرقا فى أفكاره ، شاحب لون الوجه المائل الى الحمرة ، هرم الملامح ذابلها . هكذا كان يلوح رابضا فوق أنقاضه ، يفكر فى هذا العام المنصرم الذى شهد سقوطه ، وفى جحود الحياة ... ومع ذلك فقد نهض يتمطى فى خمول ، تحف به مهابة الراحة ، وانتصبت أمامى قامته الفارعة المليئة .. وقد أجدت لحظات فى تصبيته ، ونظر الى نظرته الهادئة المترقبة المنبعثة من عينيه النافذتين ، معلقة وسطا بين نظرته القريبة الثاقبة ونظرة المفكر البعيدة »

والنظرة البعيدة هى التى تعاوده كثيرا فى هذه الاوقات ، ذلك أن الاشياء انحسرت عن نظرته القريبة . وكما أن قبضة هذا المجاهد القديمة قد بقيت بلا سلاح تقريبا ، ودماغه لم يعد يرسل الاشعاعات الخاطفة التى لا يشعها سوى الارادة العاملة كذلك لم يعد لعينـــه تلك الزخرة الموجودة فى آلاف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجمل المكتوبة التى كان يسعه أن ينقب فيها ويختار منها . لقد خرس مطلب يومه ومقتضاه وبات الرجل الذى كان يرغب فى الفراغ الفينة بعد الفينة ، ليعود فيتنفس مرة بعد سنى الشباب جو الغابة فى سكون ـ بات يحمل الآن على كاهله عبء العصر المروم ولكن فى ألم

وحده

ذلك أن الوحدة تقوم من حول المنفى وكأنه فيها فى صحراء . فهذا العظيم عدو الانسان يكاد يكون فى عزلته وحده ، يشكو وهو الذى لبث ثلاثين عاما يتأوه كلما فتح باب مكتبه ـ ذلك الباب الذى لم يتعب أبدا ـ يشكو من أن هذا الباب يظل أحيانا أسبوعا دون أن يفتحه عليه أحد . « عندى صحف لكنى لا أرى مخلوقا حيا . عندى ملايين يعدون على أصدقاء ، ولا صديق تقريبا » . ويروى فرنسى عقب سقوط بسمارك مباشرة أنه أحيانا ما يهب فجاءة ويقول وكأنه يستيقظ من حلم : « انى أنسى أنى لم يعد عندى ما أؤديه » . واذا جاء مرة من الحرس القديم واحد وصف الامير بأنه « معوز الى مستمع » . وحين يبادر الصديق الاخير كيزرلنج الذى لم يدعه صاحب السلطان مرة خلال عشر سنوات ـ حين يبادر الآن الى من جرد من السلطان تكتب اليه يوحنا اذ تريد الانصراف بعد عشرة أيام : « انك تسدى الينا نحن المساكين أجمل يد نحن الذين فقدنا ايماننا بالناس جميعا تقريبا ، وبتنا نستشعر من حبك الحبيب عزاء سماويا قلبيا ، ونقيم أصلابنا بالحب الطاغي الذى نتعلقك به .. الا ما أبرقت معتذرا فأوليت الغبطة الطاغية صديقتك القديمة » . دائما هذا الاسلوب المسرف ـ أسلوب الاتقياء، ودائما خداع النفس ، كأنما محضوا البشر حبهم عبثا ، ولكن بين هذا وذاك حقيقة قاسية هى أنهم وحيدون

لقد كانت المقاطعة الى حد أنه لم يغش دارهم فى بادىء الامر سوى الغرباء ضيوفا أو آتين للاستغلال ، وحين يأتى عين من أعيان السكك الحديدية الاجانب ، وهو رجل أمريكى ، لم يره بسمارك من قبل ، فيسمع وهو يزيل عن نفسه غبار السفر فى الغرفة النازل بها ويغتسل ، يسمع وقع خطوات مضيفه الثقيلة فوق الدرج آتيا اليه فيفزع ، ثم يراه داخلا عليه وهو الغريب الذى يصلح من شأنه يقول : « انك الضيف الوحيد فى أسبوع. انى أعيش فى مقاطعة رسمية ، لا يريد أحد معاملتى خشية أن يغضب المولى الشاب الجالس على العرش وخوفا من أن يظهر اسمه فى الصحف بوصفه ضيفى . وفى كل يوم يمر بفريدريكسروه أناس ركوب لم يكونوا يجرؤون من شهر مضى أن يمروا بى كما يرون فى شوارع برلين ، دون أن يحيونى . ان الكلاب تتبع من يطعمها » . ويروى رجال كثيرون ، لا الشبان وحدهم الذين يتعلقهم المسنون ، انه قبلهم عند الوداع . غير أن شعب بوميرانيا يشعر خيرا مما تشعر أدمغة برلين ، بما يقع هنا ، فان قرويا من فارتسن قال مرة لمدير مزارعه : « دعه يأت الى هنا ، فانه ليسعه الاعتماد علينا ! »

أصدقاء البيت

وعما قريب يموت كيزرلنج وبوخر أيضا فيحزن عليهما بسمارك الصديق، ذلك أن كليهما كان مخلصا منكرا للذات ، وأحيانا ما تأتى الى فريدريكسروه السيدة العاقلة فون سبتسمبرج أو جارة جميلة من أصحاب المزارع المجاورة. أما لينباخ وسفيننجر فكان يرغب فيهما من أجل النوادر التى تنتظر منهما أكثر مما يرغب عنهما . وقد صد العلم بذلك مكس ليبرمان الرجل الوحيد الذى كان خليقا أن يرسم بسمارك ــ صده عن تلبيـــة نداء التوجه الى فريدريكسروه . وليس سوى الزوجة والأخت والولد ما له فى هذا العالم قيمة فى نظر بسمارك الآن . حتى أخلص المخلصين اليه ينقرضون من حوله من دون أن يعوضوا : فقد مات تيراس الثانى بالشيخوخة ، وشعر سيده البالغ الثمانين من العمر انه ما يزال لديه من القوة ما يفكر معه فى ألا يتخذ كلبا بعد الآن لأنه لا يحب أن يدفن كلبا بعد اليوم

وهكذا يهجر بسمارك الكلاب فى الختام بعد أن هجره الناس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع

ومع ذلك فانه يستمد حيوية جديدة من بغضائه . وليس من نزوة عند المنفى تثور كهذه النزوة . واذا كان العالم قد ثأر لنفسه من خلق رجل أخضعه بهذا الخلق ، فقد ثأرت ألمانيا لنفسها بعد سقوط بسمارك : فان تيار هذه البغضاء يرتد الى الساحل فى موجات كبيرة ، بعد أن كان يصدر عن هذا الساحل . وقد صد عنه طبقته وآل مرتبته على أخزى صورة ، وهجره كبار الموظفين والنبلاء والأمراء

وكان اذا أرسلت اليه برقية بمناسبة عيد أو اجتماع الى فريدريكسروه منع مدير الناحية وصولها بحجة أن ذلك قد يكلفه منصبه . وليس من زملاء بسمارك من أوتى الشجاعة فذهب لزيارته ، وفالدرسى حين أراد رؤيته استفسر أولا فى برلين هل يجوز له زيارته فى هامبورغ . أما كابريفى فلم يقرأ بسمارك اسمه الا مذيلا به كتاب اليه تطالبه فيه حكومة الريخ بعد أربعين سنة من الخدمة ، برد ماتناوله من المرتب بين ٢٠ و ٣١ مارس ، لانه كان اذذاك على المعاش على قولها، وفى نفس الوقت يكلف كابريفى ممثليه بتبليغ الحكوما تالاجنبية رسميا « أنه لا تعلق أهمية فى ذلك الوقت على آراء البرنس بسمارك »

ويقول زعيم من زعماء الوسط بصورة علنية : « انه ينبغى على البرنس بسمارك أن ينفض يده من فخر القوة الالمانية والمجد الالمانى !.. فمن الخزى والعار أن يكون فى وطننا أناس من هذا القبيل ! » وتسحب من سيبل الوثائق اللازمة لمواصلة مؤلفه بزعم أنه يمجد بسمارك فى كتابه أكثر من غليوم . ويتجنب نبلاء البلاط فى برلين المستشار المقال بناء على اتفاق فيما بينهم ، يستثنى منه كاردورف وبضعة غيره ، حتى ليتبين بسمارك أنه يفر منه أكثر مما يفر من حادث بالكوليرا فى هامبورغ . « واللؤم صنعة مربحة .. فماذا أقول حين يدور كلب حقير كأوغست دونهوف دورة كبيرة فى الشارع ليتجنب ملاقاة هربرت ! »

ويعنف الغراندوق عمدته على بادن بادن لان هذه المدينة أرادت أن تجعل البرنس بسمارك مواطنا فخريا .. وتقول الامبراطورة أرملة الامبراطور فريدريك لهوهنلوهه أن بسمارك مدين بكل نجاحه لمولاه القديم وحده . ويجد فرانتس يوسف « من المحزن أن يبلغ مثل هذا الرجل مثل هذا الهوان » . ويأمر الامبراطور بخفارة فريدريكسروه ومراقبتها فلا يفوت أعين الرقباء

سوى الزوار الخجلين الذين ينزلون فى محطة بيشن ليصلوا الى فريدريكسروه بقطار محلى غير ملحوظ . ويدع الرسائل والبرقيات الموجهة الى البرنس تفض ، ولا يدعوه بوصفه من فرسان النسر الاسود الى حفلة حملة هـذا الوسام . ويقول لأحد الفرنسيين أنه لاينوى « أن ينتزع بالقوة على يد محكمة الريخ مالايريد الدوق تقديمه لى حبا وكرامة » وغليوم الذى أنعم على بسمارك بلقب الدوق قد بقى وحده من يذكره . وليس سوى سيد واحد من يحزن على بسمارك . هو أعقل الملوك وصاحب السلطة التى كان بسمارك يناصبها يوما أشد العداء ، هو البابا ليو الثالث عشر الذى يقول : « انى لا افتقد بسمارك »

الصدى

كذلك بين موظفيه ليس سوى خصمه الذى عاداه فى ذات يوم من يتعلقه كأخلص ما يكون : شلوتسر ، الوحيد الذى تركهم يعزلونه لانه يناصر رئيسه صراحة . انها ثلاثون سنة فحسب منذ ناضل كلاهما الآخر فى بطرسبورغ ذودا عن حوضه ودفاعا عن كرامته . وحين ينتزعه البرلينيون الجدد من منصب الثقة الهام الذى يشغله لدى الفاتيكان يأتى – أى شلوتسر – الى فريدريكسروه ليودع البرنس ويجوطه ، وهو نفسه يناهز السبعين ، بحفاوة الابن . فيقدم اليه المقعد الذى يريحه أكثر ، ويعنى بغليونه ، ويريه مـرة أخرى معنى أن يقيس المرء نفسه بآخر وأن يصالحه

لكنه كما يكون النداء فى غابة سكسونيا يكون الصدى ، فان بسمارك لم يدع أحدا ممن انفضوا من حوله لم يدمغه ، ولم يسخر منه ، وهو ينعت أخطـاء خلفه بالكابريفيولات (١) وينسفه حين يعترف بأنه « جنرال بارع » . أو يقول عن ميكل : « انه خير خطيب ألمانى ، فان المقدرة على الالفاظ هى عنوان هذا العصر » . وحين يسـقط أعداؤه فالدرسى وكابريفى وبوتيشر يرتاح ، وحتى وهو يسأل عن حال المجتمع البرلينى الذى لفظه ، فانه يجب أن يرى على رأس مائدة فى وليمة وهو يتناول نظارته القديمة الطراز ذات الحـوافى الذهبية ويتأمل ضيوفه ويسأل بصوت خافت: «ترى ماسم هذا الديبلوماسى البادنى الجالس تحت هناك ؟ » ويروى المسئول أن بسمارك كان حين سأل هذا كالاسد الذى يتأمل ذبابة

وهو لايبخس الامبراطور احترامه فى الظاهر ، فهو يعلق صورته بالحجم الطبيعى فى حجرة طعامه ، وفى يوم ميلاده ينهض ويقول :

« اشرب نخب صاحب الجلالة الامبراطور والملك » فتتخلل برودة هـذه الكلمات المكان ويكون لها تأثير ماحق ، فما يمكن أن يؤدى جفاء مابينهما أقوى منها . ومع ذلك من يريد من الاجانب والصحفيين سماع الحقائق عن الامبراطور وعن سقوطه هو يسمعون بسمارك يقول: « ان كاتو كان رجلا رفيعا وموته فى نظرى قد حدث على أشرف وجه ، ولو كنت مكانه ماطلبت العفو من قيصر أيضا .

---

(١) نسبة الى الجنرال كابريفى الذى خلفه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهؤلاء الناس قد كانوا يحترمون أنفسهم أكثر مما تتطلبه السيرة الحديثة اليوم » . بهذا يتكلم حين يعتدل مزاجه

أشكال فى الرمل

لكنه أكثر من هذا ضغنا حين يتكلم مع فريد يونج فيقول انه وجد حديثا وهو يقرأ « اللصوص » ليلا ذلك الموضع الذى يقول فيه فرانتس مور للهرم : أتريد أن تعيش أبدا ؟ « وهنا تمثل لى مصيرى » . ويروى السامع : « لقد نطق بهذه الكلمات فى حركة صوتية خافتة ولكن دون تبديل فى وجهه العميق الغضون ، وقد سكت البرنس على الاثر فترة أطول ، وجعل يرسم بعصاه أشكالا فى الارض الرطبة وهو مستغرق فى الفكر . وأخيرا تنبه من تفكيره ونقض مارسم بسرعة : « يجب ألا تظن أنى أشعر بأثر فى لتجارب السنوات الاخيرة . انى اذا شئت أعظم ترفعا من أن تهزنى تجاريبى بعد كل الذى أوجدته »

على أن المرء لا يسمع سورة غضب المهان بحذافيرها الامن اعترافاته لصديقته سبتسمبرج ، فقد مضت سنة كاملة على الزوبعة وماتزال ترعد : « لقد ألقى بنا فى الشارع كما لو كنا من لصوص المنازل .. لقد طردنى الامبراطور كما يطرد خادما . وقد كنت طيلة حياتى أستشعر أنى نبيل لايهينه أحد وهو آمن . لكننى لا أستطيع أن أطلب الترضية من الامبراطور . كل هؤلاء الناس أشعر نحوهم بما شعر به جوتس فون برليشنجن عند النافذة ، ولا أستثنى حتى الامبراطور .. والشىء الخطر جدا فى خلقه هو أنه غير قابل للتأثير الدائم ، وقابل لتأثير الساعة التى هو فيها .. غير أنى لن أموت فأوليه المعروف الذى يريده ، وهم كلما هددونى وجدوا مع أى رجل يتعاملون .. وحتى لو أمكننى أن أختم حياتى ختاما تراجيديا ..! »

هكذا يطلق ويقذف اللهب ، هكذا تضطرم فيه ارادة الانتقام وترسل الشرر طبيعته المتفوقة فى كل مسامه طالبة ماينبغى لها ، لكن مشاعر الدم الموروثة تلطف من حدته ، والعادة التى درج عليها نصف قرن تجعل حتى المتمرد يستثنى ملكه من النضال ويخرجه

تقرب الامبراطور

لكن هذا ، كلما مالت عنه الامة الى خصمه ، يسعى الى التقرب منه ، ويجد بعد ثلاث سنوات من العداوة وسيلة لذلك الاتصال الذى كان الشيخ يعمل على تجنبه ، فهو يعرض عليه قصرا للترويح عن نفسه ، ولكنه يتلقى منه بالبرق رفضا فى الحال ، فيبعث اليه بنبيذ معتق فيحتسيه بسمارك من حقده مع هاردن أقوى أعداء الامبراطور ، ويقول لبعض الاصدقاء : « ان صاحب الجلالة يستهين بى ويستقل شأنى . انه ينصح لى بأن أتناول يوميا كأسا من المشروب الروحى ، لكنى أحتاج للبرء من الاسقام الى ست زجاجات » على أن بسمارك بعد اتصالين من هذا القبيل لا يسعه الا أن يعلن شكره الشفوى . ولو قصر فى هذا لكان المخطىء فى نظر أمة طيعة من الرعايا الذين

لا يمكن الا أن يشعروا بالالم من القطيعة بين الامبراطور والمستشار ، والا أن يؤثروا الستر على نبش أسبابها وتلافيها . وكذلك يبدو أن الشيخ يريد أن يفزع أعداءه فى برلين . وعلى كل فانه يبعث قبل الزيارة فى طلب ضابط ليستشيره فى مسألة البذلة الرسمية التى يلبسها ، ويسأله خلال ذلك هذا السؤال اللذيذ : « كيف يقبض المرء على السيف طبقا لنظام العهد الجديد ؟ »

وغير خاف أن كل شىء فى برلين بذلة وسيف . ويريد الامبراطور أن يقنع نفسه ويقنع الغير بأنه يستقبل ضابطا برتبة فريق ، فهو قد رتب كل شىء من كوكبة الشرف التى تحيط بمركبة الدولة الى كتيبة الشرف الواقفة بميدان القطر ، كما لو كان الزائر هو مولتكه الشيخ . والان يجب ان يحتمل الهتاف الذى يستقبل عدوه الكبير كالرعد . فهو يخبر مرة أن هتاف الشارع ليس له بل لغيره

المهزلة

أما بسمارك فلا ينعم بهذا ، فهو جالس فى مركبته ــ كما يروى الفنانون الذين رأوه ــ أبيض الاهاب أبيض السترة ، ينظر نظرات الاشباح : تائهة ، واسعة ، بعيدة . يتدفق قلبه بين التهكم والاحتقار . واذا كان يفكر فى التاريخ فسيخطر له أن واحدة من ركباته المجدية الى هذا القصر لم يصحبها مثل الهتاف الذى يصحب اليوم هذه المهزلة غير المجدية . واذا كان لابد أن يعيد خلال أربعين سنة ما يوحى به الملك المرسل من عند الله ليحنى ظهره ، فلابد أن يستشعر فى هذه الركبة سخف هذا الايحاء ، اذ كان يحتقر الرجل الذى سينحنى الآن أمامه بكل جوارحه ! ولابد ان يقول لنفسه ان الامبراطور هو الذى سيكرمه لكى تبقى له كبرياؤه الهائلة فى هذه الساعة

انه لم يكد يبلغ درج القصر الذى يعرفه كل المعرفة ، ولم يكد يرى الاوجه القديمة ثانية بعد أربع سنوات حتى انفجر تهكمه الزارى من جديد .. وقد أغضب هذه الوجوه فعلا حين اصطحب معه هربرت على عكس ما اتفق عليه ، وحين يقدم أميرالاى نفسه اليه الآن يقول له فحسب : « كيسل ؟ يخيل الى أنك بت أصغر مما كنت اذذاك ! » وقد سمعها الجميع فى الردهة الخارجية وكان الجميع معنيين بهذا القول فسكتوا عليه جميعا . وفى الداخل حين دخل على الامبراطور وحده أحس بمن يرفعه من انحنائه ، وبشفتين يكرههما تقبلانه . وتنقضى بضع دقائق ثم يأتى الامراء فتحل لهجة الاطفال فيهم التوتر ويقدم طعام الغداء لاربعة ، ويوصى بسمارك بالاهتمام بنفسه بعد وعثاء الطريق

وليمة اشباح

وفى المساء فى مأدبة العشاء مع الحاشية يعلن قدوم بيل ، غير مدعو كهربرت ، وهكذا يكون ولداه بجسميهما عن يمينه وعن شماله ، فيحس بسمارك الاكبر بأنه آمن مما كان ، ويشعر كوالد بتفوقه على الهوهنتسلرى الشاب . ومع ذلك فان وجود الابنين يزيد من بغضاء هذه الساعة فيبسط التوتر رواقه على كل شىء ، حتى والشيخ يقص القصص لايشعر أحد على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه المأدبة بأنه آمن . فهل تلعب الخمر برأس أحدهم كما تروى أساطير الجرمان ، فتبدر منه كلمة حادة ، فيجرد الآخر سيفه ، ويقاتل ابنا بسمارك فرسان الامبراطور ؟ هنا يعرف الاب سريعا كيف يقبض على سيف العهد القديم ! بيد أن هذا يدور فى المخيلة ، فليس من يفكر فيه الى نهايته ، وأبعد الجميع من التفكير فيه هو الامبراطور الشاب الذى لايفعل سوى أن يعد أرباع الساعات ليعلم متى يغادر هذا الضيف الشرير القصر ويبارح العاصمة ، ذلك أن الجميع كانوا يخشونه على هذه المائدة ويخافونه ولكن لا يبجلونه ، هذا هو شعور ذوى السلطان حيال من جرد من السلطان

وأخيرا يزيل توتر وليمة الاشباح خادم يعلن أن المركبة معدة . ويرافق الامبراطور عدوه الى الخارج فى الليل لكى يعود ثانية الى منفاه فى منتصف الليل

ويطلع الامبراطور « فريقه » وهو يرد له الزيارة فى فريدريكسروه على جهاز الجندى الجديد ، ويرجو أول سائس فى القرن التاسع عشر رأيه فى الخرج الذى يحمله الجندى . وفى اليوم التالى وألمانيا بأسرها تترقب ما يذكره البلاغ عن الحديث الذى دار ، يقرأ الناس فى صحيفة بسمارك ، نتيجة املاء فيما يبدو ، خباثة بلاطية جاء فيها : « تعطف الامبراطور فأطلع البرنس بسمارك على مسألة هامة هى تخفيف ما يحمل جندى المشاة من أمتعة فى الميدان بأن عرض عليه اثنين من هؤلاء الجنود .. وهذا النظام فى التخفيف يستتبع تغيير البنيقة التى باتت بحيث يمكن قلبها » . بهذه التقارير التى لاغبار عليها يهزىء الشيخ الشاب فى أعين نصف الالمان

وهو الى ذلك يدع كتابه يكتبون ضد الامبراطور وحكومته مايشاء ، ذلك « ان ولائى لايذهب الى حد الامتناع عن ابداء رأيى بحرية ، كما ينتظر فى برلين أناس بعينهم .. فهؤلاء يقولون أن التاريخ خليق أن يميزنى وأن أبدو فيه ظاهرة أرفع مما أنا اذا أنا لزمت الصمت »

تقلبات

وان تقلبات السنوات الاربع الاخيرة لتدل على بقاء الجفوة بينهما على ما كانت عليه . ففى عيد ميلاد بسمارك وبلوغه الثمانين يأتى الامبراطور فى ضوضاء وحاشية كبيرة . لكن سيف الشرف الذى يقدمه الى بسمارك بهذه المناسبة وبخطبة باهرة يبقى بلا رد ، ثم تفتتح قناة نورد أوست سى ، وهى من عمل بسمارك شخصيا ، فلا يذكر فيها اسمه . وفى سنة ١٨٩٦ حين يحتفل بعيد الريخ الفضى يعلن البرق شكر أبديا لمؤسسه ، بينا فى الاحتفال بمرور مائة سنة على مولد الامبراطور غليوم الاول ، وذلك سنة ١٨٩٧ ، لاينوه الا بمعاونى غليوم على التعميم

وترسل اليه مرة نماذج سفينة ، ويلغى مرة اخرى أحد الكونتات دعوة لهربرت ، لان الامبراطور ان يحضر حفلة زفاف يدعى اليها

هكذا يتتبع مسجل الرضا والسخط الامبراطورى الهزات التى تصيب الحكومة من تأثيرات بسمارك العامة ويرصدها بالضبط

الفصل الثامن

ان بسمارك لم يكن يميل الى التزام الصمت بحال من الاحوال ، فهو ينتقد الحاضر فى الصحف ، أما مشورته للمستقبل وصورته عن الماضى فيعيهما كتاب . واذا كان فى السنوات العشر الاخيرة قد تحدث عن هذا العمل وأنه يدخره لوقت فراغه ، فلم يكن مايدفعه الى ذلك ارادة صواغه ، فقد ظل كل شىء مجرد نظريات ، ولم يكن يرغب عن شىء رغبته عن هذا الفراغ . وكذلك الآن لا تدفعه الى جانب ما عرضه عليه كوتا من عرض هو عمل من أعمال النشر الالمانية وسط هذه المقاطعة ، لاتدفعه حكمة التأمل للماضى ، ولاالرغبة فى أن يعلم غيره مايعلم ، بل يدفعه المكر والتعطش الى الانتقام . وقد كان منذ عشرات السنين يدون أعماله بأقلام الاصدقاء وفى الحكايات التى يقصهابنفسه، ويصلح مايحوى تاريخه من صدوع وثقوب فى سرعة كما يفعل المشتغل بالزخرفة . فالآن يصفى الحساب نهائيا

أسلوب الرسالة

وهنا بدا كيف أن ذهن بسمارك لم يكن أفلاطونيا وكيف أن مهمته هى التأثير فى الحاضر ، فهذا الفنان المتضلع من لغته الذى ابتدع فى خطبه ومكاتباته الكثيرة ، و فى مجموعة رسائله وأحاديثه قبل كل شىء ، أسلوبا المانيا لم يبتدعه أحد منذ جوته ، هذا الاسلوبى الاستاذ الذى يخلد بمجموعة مؤلفاته وحدها دون اى عمل من اعماله ، لا يقدم لنا فى مذكراته عملا فنيا ولكنه يتحفنا فحسب بقطعة بديعة هى بدن غير كامل . وليس ذلك لانه قد طعن فى السن وضاق ذرعا ، فهو فيما يتصل بالحاضر مايزال الى يومه هذا يملى المقالات المنورة والمجادلات الماحقة ، وتكاد رسائله القليلة الاخيرة تدل على نفس المزيج من الفكاهة والكآبة ـ فكاهة الرجال والكآبة التى لا يبغى بها تأثيرا ـ كما كان من قبل . بيد أن هذه الرسائل جميعا تتوخى أغراضا أو تصور نفسيات ، وحتى وهو يقص القصص عن ازمات فاتت كما يفعل اب الاسرة ، تكون عين السامع ، والنظرة الى كأس النبيذ ، وقرب كلبه منه ، واللحظة التى هو فيها ، يكون ذلك كله هو ما يحمله على الكلام ويكسب قصته الايقاع

لكنه الآن جالس مكتوب عليه ان يستحضر فى ذهنه سيرته كلها ، أمام من ؟ ولمن ؟ ثم ماهى الامة ؟ أممكن أن يلمسها المرء ؟ وهل لها وجه ؟ لقد كان فى وسعه أن يكتب للملك وان يخطب الريخستاج قطعا من تاريخه فى صور رائعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليؤثر فى كليهما . أما أن يقدم لجمهرة لايعرفها صورة من روائع أعماله ، ونموذجا من عمارته بعد كمالها ، فأمر كان يعوزه فيه الصبر والانسجام والتنازل، ومن هنا أبى عليه شعوره الاسلوبى أن يكتب مذكرات ، فقد سمى مذكراته أولا « تذكرة وفكر » وتوفر فى هذه الصورة الواهنة أسهل مما يتوفر فى العادة ، وتخلى فى موضوعية أسلوبه النزيهة عن كل انتقال . فالكتاب المجيد الذى خلفه للالمان لايشبه على ذلك تاجا حتى لرأسه هو ، بل هو أدنى الى أن يشبه مجموعة من الاحجار الكريمة لايكاد يوجد مايربطها ويمسكها ، لكنها حسنة الصقل

أسلوب الكتاب

فى هذا الكتاب يبلغ بأسلوبه الذروة : فهذه الجمل الجامعة التى يجمع بسمارك فى كل منها ماغيره خليق أن يبسطه فى الكثير ، وهذا الاغفال لكل تنميق ، والابرة الباردة التى يخطط بها ، تجعل من بيانه تاريخا مركزا . واخفاؤه فى ذلك كل مشاعره حتى البغضاء من وراء مايتناول ، وأنه يقرع أعداءه بلا هوادة بذلك على الأخص ، وابعاده كل نقد عن نفسه فى نفس الوقت باختياره مادة كتابته اختيارا ينطوى على الغرض ، لكنه لايمدح فيه نفسه : هذه الفنون ــ فنون السياسى ، وهذا اللعب البديع بين الماضى والمستقبل ، مما يضاعف متعة العارف بكيان بسمارك . أما الجماهير فمقدر لها أن تقرأ هذا الكتاب لالمانية فيه ليست كلاسية ، ولا حديثة ، ولكن كامله

وهو كمصدر تاريخى أساسى صالح ماشابه مذكرات نابليون ، وأقل صلاحية ماشابه مذكرات يوليوس قيصر . وقد أثبت الباحثون فيه طائفة من الأغلاط هى فيما عدا واحدة ، بعيدة عن التلفيق ، ذلك أن المؤلف لايزعم لنفسه الكمال . واذا كان قد سكت فى نضاله الحضارى عن أهم شىء ، وأغفل فى موضوع قوانين مكافحة الاشتراكية وسياسته الاقتصادية كل شىء ، فمعنى هذا أنه قيل فى الكتاب الكثير عن بسمارك ولم يقل شىء عن مشاكل العصر . وحين يدع فى عداوته الشديدة للماركسية الفصل لتأثير الشخصية وحده ، فانه يشوب هذا الفهم الجرىء منه شىء واحد فحسب هو أنه لم يجعل فيما خلا أوغسطا شخصية ثانية الى جانب شخصيته ، لها فيما كتبه تأثير حاسم

الانتقام

ذلك أن الشياطين الثلاثة الذين وقفوا بمهد بسمارك وهم الكبرياء والشجاعة والبغضاء هى أيضا التى كانت ماتزال تقرر هذه النظرات من ذهنه الى الماضى ، وتجعل من اعترافاته هذه أيضا صورة من نفس معضله . ففى هذه الصفحات الثمانمائة لم ينوه بأحد تقريبا : فلا مربى ولا رئيس ، ولا أمير ولا نائب ، ولا زميل ولا موظف ، لأحد من هؤلاء أثنى عليه فى هذه الصحائف من دون قيد ، حتى رون أخلص المخلصين وأوفى الأوفياء قد انتقص منه ، وليس سوى الشخصيات الثانوية من أمثال شتيفان وهولنشتين وشفيننجر من

أمكن أن يمر بلا نقد ، لكنه حيثما يملى الحقد والتهكم يصبح له كل شيء طيعا . ومع أن الغرض الطبيعى من تصويره هو ابراز مولاه الهرم حيال مولاه الشاب فانه فى التلوين لم يكبت الضغينة كل الكبت . وليس أدل على مايصيب الغير كبارا أكانوا فى الاعداء أم صغارا ، ولا أجلى من تلك الصفحة التى ينسف فيها طبيبا ألمانيا مجهولا كل الجهل ، كان قد عالجه فى بطرسبورغ خطأ فأضر بصحته ضررا بليغا : فهنا لايهلك انتقامه الطبيب وحده بعد ثلاثين سنة بل يقتل معه الغراندوقة التى ذكرها وهو سيء النية ، والتى كانت أوصت بهذا الطبيب غير الكفء لديه ولدى بلاط بطرسبورغ

وقد أملى بوخر الى أن مات فى سنة ١٨٩٢ فصول الأجزاء الثلاثة فى جوهرها على دفع ، متدفقة ، ذات رنين طويل تارة ، وتارة متقطعة فى اقتضاب ، ثم غير الكثير بعد بوخر وأدخل الكثير . ولم يبد قط فى هذا العمل حمية فكثيرا ماوجد شفيننجر عند دخوله هذه الصورة : « بوخر أبكم ، منقبض ، عبوس ، فى يده ورقة بيضاء لم يكتب فيها شيئا ، مرهف الاذن ، على المائدة أمامه قلم مدبب ، والبرنس مستلق فوق المقعد المديد ، مستغرق فى قراءة الصحف ، لاينبس ببنت شفه ، وبوخر أقل كلاما منه ، وأمامه الصفحات فارغة » . ثم يعين الطبيب على الخروج من هذه الحالة ،أو يكون أيضا مقال فى صحيفة أو سؤال لأحد الزوار سببا فى تنشيط بسمارك فيملى قطعة

ويشكو بوخر الذى هو أقل حمية من بسمارك بكثير ، لكنه أقوى منه ذاكرة ، يشكو من أن الشيخ « يقص الكثير عدة مرات ولكن فى كل مرة غيره فى المرة السابقة دائما .. وهو يكف عند أهم المواضع ، ويعيد أشياء قالها ، ويناقض نفسه فيما قال .. وهو لايحب أن يكون له دخل فى أى شيء أخفق . لايكاد يدع الى جانبه أحدا له قيمة أو شأن . وقد أنكر الرسالة التى بعث بها الى بريم (فى سنة ١٨٧٠) حتى ذكرته بأنى أنا الذى حملتها الى الجنرال فى مدريد . وقد يفكر أثناء هذا العمل فى التاريخ وفى وصية يخلفها للمستقبل .. لكنه يفكر فى الحاضر ويريد أن يؤثر فيه »

نقد العواهل

وهكذا من دون أضابير ، وفى رغبته فى أن ينتقم من الكثيرين وينسل هو ، يبيت قلقا كل القلق من سلطة الملك من جراء التناقض بين آرائه الخاصة والعامة فيقول : « لقد كنت من سنة ١٨٤٧ فصاعدا أمثل المبدأ الملكى دائما وأرفعه كعلم ، وهاقد شهدت ثلاثة ملوك عراة فكان هؤلاء السادة الرفيعو المقام كثيرا ما لايسلكون بالذات المسلك اللائق تماما بالملوك . وقول هذا للعالم .. يناقض هذا المبدأ . لكن السكوت عليه فى جبن أو قول النقيض ، ـ كان أمرا لايجوز لى كذلك » . وهكذا ينتقم من هذا الممثل العظيم عالمه المزدوج فى النهاية ، هذا الذى كان حتى اليوم لايذكر الحقائق الا من وراء ستار يقدر له الآن أن يقول الحقيقة على ضوء المسرح لأول مرة . بيد أن سخيمته هذه المرة أيضا أقوى من الاعتبارات السياسية ، فهذا الملكى يكتب عن غليوم الثانى فصله المشهور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فلا يهلكه به فحسب بل يكون فى نفس الوقت معاينة مخيفة يقوم بهـا فى رواق الأجداد من آل هوهنتسلرن . ولا يكتب للدعاية ضد الملكية شىء كهذا الذى كتبه

وقد قدر بسمارك تأثير ذلك وأدركه كل الادراك فقرر أن يكون نشر كتابه بأكمله عند وفاته . وظن ورثته من تلميحات شفوية فيما يقال أن عليهم ان يحموا الامبراطور بدلا من حماية أبيهم الذى أراد فى النهاية أن يدافع عن نفسه وهو فى قبره ، فلم يحتجزوا الجزء الثالث فى سنة ١٨٩٨ فحسب ، بل وقفوا فى سنة ١٩١٨ أيضا يذودون عن الامبراطور بعد هربه ، « فاعترضوا على النشر العاجل » وناصروا قضية الامبراطور ضد الناشر بدلا من أن يضعوا هذه الوصية الأخلاقية التى خلفها سلفهم أخيرا فى ضـــوء الأمة بكل الوسائل

الفصل التاسع

واجب الكلام

« ان واجب الكلام بسدد الى وجدانى مثل الغدارة . فاذا اعتقدت أن الوطن يقف بسياسته أمام ورطة من الخير أن نتجنبها ، وكنت أنا أدرك هذه الورطة وغيرى فى حيرة من أمرها ، كان من الخيانة تقريبا أن ألزم الصمت .. ان أصدقائى الأعزاء يطلبون منى أن أعيش ميتا بين الأحياء ، متواريا ، صامتا ، عديم الحركة .. لكنى أستطيع أن أمضى فى عزلتى فى خدمة وطنى .. ففى أكثر من مناسبة أملك الآن حرية العمل وتبيت يدى أطلق مماكانت ، وفى الخارج أستطيع أن أشجع على الدعاية للسلام من دون أن تحد الوظيفة من نشاطى ، فالدعاية للسلام هدفى الذى أسعى اليه منذ عشرين سنة »

هكذا يفيض همه بعمله مع عداوته لخلفائه وتحرقه الى الانتقام ممن أهانوه فى وقت واحد .. ويحرز المنفى فى عشر السنوات الأخيرة سلطة على الرأى العام لم تكن له فى السنوات العشر قبل الأخيرة . وكل وسيلة لهذه الغاية تعد شريفة فى نظره . فحين يبعث الى الصحف برسائل هامة للامبراطور الهرم على يد خلصائه ، فانه يحمى نفسه من الاتهام بمثل « حالة أرنيم » بالتلميح بأن يقال عند الضرورة أن الرسالة اديرت على ضيوفه فى فريدريكسروه فنسخها أحدهم . كذلك رسائله الخاصة الى الملك يعدها ملكا فكريا له ، « وكون مسوداتها موجودة فى الأضابير مما لايكسبها صفة رسمية » . ويسلم لهاردن افشاءات أخرى اذ يستدعيه اليه بعد قراءة فصوله ، ويظل حائزا لثقته عدة سنين

النشر

ولم يكن بسمارك غنيا كما كان يعتقد ، فكان فى المبدأ فقيرا جدا فى ورق الصحف الأبيض وفى حاجة الى من ينشر له ، ذلك أن معظم الصحف الألمانية كانت تخشى أن يضرها الاتصال به . وهكذا كان فى الاشهر الاولى يستقبل الصحفيين الاجانب وحدهم . وليس سوى « هامبورغرناخرختن » من وضعت أعمدتها تحت تصرفه فأصبحت من ثم أهم صحيفة ألمانية لعدة سنين . وكثيرا ما أملى عليها أشياء وأوحى اليها بالكثير حتى اعتاد الناس سريعا أن يروا فى هذه الصحيفة نذير فريدريكسروه الذى هاجم « ريشانتسايجر » فى الازمتين أو الثلاث الكبرى التى نشأت فى هذه السنين على قدم المساواة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك أنه بعد سنتين من اقصاء بسمارك كان ينتظره حادث آخر جلل

فقد أعادت اليه الاقالة جانبا من الأمة التى كانت تصدف عنه من أمد طويل ، اذ أثارت صورة هذه الاقالة ، وسرعان ماأذاعها ، تذمرا وعطفا فى بعض الدوائر ، فبلغ فى الأيام الأولى مابعث من برقيات فى تأييده ٦٠٠٠ برقية واستقبلت هامبورغ الحرة جارها الجديد استقبالا رائعا ، وحين جرى بحار انجليزى الى جانب المركبة التى أقلت بسمارك فى الشوارع المزدانة وهويصيح : « أريد أن أصافحك » كانت هذه أول مرة يصافح بسمارك فى حياته يد الشعب . كذلك لم يكن الى ذلك اليوم استضاف قرويا على مائدته ، فالآن يدعو اثنين جاءا من شينهوزن متحمسين ، الى تناول الغداء معه ، وحين يتأثر من تبجيلهم اياه ، يجد هربرت هذه الكلمة الجميلة : « أنت حصنهم بحق » بيد أن هذا لم يكن اجماعا ، فانه بعد سنتين فى أواخر مايو ١٨٩٢ جاز المنفى أن يقول : « ان ماانخدعت فيه هو الشعب الألمانى .. فانه لايستطيع أن يتبين أن مايحملنى على الانتقاد ليس استياءا ولا شهوة انتقام ولا حتى محاولة العود الى السلطان ، وانما قلقى الشديد على مستقبل الريخ والهم الذىيسلبنى الراحة بالليل »

اغتياب

وما كان بعد هذا بأسبوعين ليقول مثل هذا الكلام . فقد حمل الابن الذى يستشعر الوحدة على الزواج ، وعقد خطبته لوريثة أجنبية غنية ، والتمس مقابلة الامبراطور فرانتس يوسف وهو على وشك التوجه الى فينا لحضور حفلة الزفاف ، فجاءه الرد على الرحب والسعة . لكن غليوم وبطانته داخلتهم الخشية من أن تكون لبسمارك نيات سيئة ، وانكمشت أقزام ولهلمشتراسه بعضها الى بعض وتشممت العاصفة ورفعت أصابعها محذرة ، فكتب أحد الامبراطورين الى الآخر : « سيكون بسمارك فى فينا فى آخر الشهر .. ليتلقى من المعجبين به مادبر له من هتاف .. وأنت تعرف أن من أهم مافعل ، تلك المعاهدة السرية ذات الوجهين التى عقدها مع الروسـيا من ورائك وفسختها أنا . ومنذ اعتزاله الخدمة وهو يحاربنى على أشنعصورة ويحارب كابريفى ووزرائى حربا غادرة .. فهو يحاول بكل وسائل المكر والخداع أن يقلب الموقف بحيث يجعلنى فى نظر العالم بمثابة من يسعى اليه . وأهم نقطة فى منهاجه فى هذه المسألة هو أن يحظى بالمثول لديك ، فأرجوك من ثم ألا تحرج مركزى فى بلادى باستقبال هذا المتمرد من رعيتى قبـل أن يتقرب منى ويقول : انى أخطأت »

وفى نفس الوقت الذى أرسل فيه هذا الكتاب المخزى الى فينا أرسل كتابا آخر اليها وضعه هولشتين ووقعه كابريفى الى السفير الألمانى واسمه البرنس

رويس ، وقد جاء فيه : « أرجوك اذا اتصل بسموكم البرنس أو أسرته أن تقتصروا على الرسميات العرفيه ، وأن تروغوا من الدعوة الى حفلة الزفاف . وهذه التعليمات تتناول أيضا موظفى السفارة . وأزيد على ذلك أن جلالة الامبراطور لن يشمل هذا الزفاف بالتفاته .. وسموكم مكلفون بأن تبلغوا عنه (الوزير) الكونت كالنوكى بالصورة التى تجدونها مناسبة » وهكذا صور بسمارك رسميا فى صورة الرجل الذى لايستقبل ، والذى يحذر منه وزير الخارجية

بالغدارات

وقد كان أول ماخطر لبسمارك حين علم سرا بهذا أن يتحدى كابريفى : « لقد كنت اخترت شاهدى بالفعل ، ومازالت لى يد لاترتعش ، وفى مكنتى أيضا أن أتمرن على اطلاق النار . لكنى لم ألبث أن فكرت فى أنى ضابط وأن المسألة ستعرض على محكمة شرف من قدماء الجنرالات .. ولذا لم أكن لاظفر به أمام مسدسى » . وهكذا يتقدم مرة أخرى وهو فى سن ٧٧ ذلك المارد فى شجاعة الأسود ، يريد أن يذود بسلاحه عن اسمه ورتبته وشرفه حتى الموت ، وكما فعل آخر مرة قبل نيف وأربعين سنة لايبعث بابنه بل يريد أن يطلق الرصاص بنفسه تحدوه دائما رغبة درامية فى ختام حياته المهانة ختاما تراجيديا

لكنه يفعل ماهو أحكم فيصف هذه الرسالة التى تشبه « رسالة أوريا * » فى مجالسه الخاصة بأنها عمل مخز ويكلف صحيفته بأن تنشر : « ان الوسائل التى استخدمت لتبغيض امبراطور النمسا فى استقبال البرنس وهو ما كان فى الأصل ينتويه ، تلقى فى الروع أن المراد الاستهانة بمركز البرنس الاجتماعى والاضرار به ، وهو مايراد الاساءة به شخصيا اليه .. ولسنا نجد فى حياة البرنس الماضية مايستحق انزال البرنس هذه المنزلة » . وقد أحدث انفجار هذه الطلقة ضجة وتطايرت شظاياها الى ماوراء حدود ألمانيا

فان ملكا لم يوفق قط ، وبروسيا فى عالم الوجود ، الى اثارة شعبه عليه كما أثير فى هذا الظرف ، ذلك أنه حتى فى سنة ١٨٤٨ لم تكن الثورة فى الواقع ضد الملك الضعيف . أما الآن فتهب نصف ألمانيا . حتى فى برلين التى مر بها آل بسمارك قد هرعت الجماهير الى محطة السكة الحديدية وطلبت الى الشيخ أن يخطبها ، لكن العاقل لم يفه بكلمة ، فقد كان دبر خطة انتقامه باحكام . وفى فينا أبدى النبلاء وجوها أليمة وأشاحوا بها ، وزعم السفير أنه مريض فلزم فراشه بينما جاهدت زوجه ، وهى أميرة من أميرات فايمر ، فى سبيل المهان . وفى هذه الظروف المضعضعة للشيخ يحتفل هربرت بزواجه من

---

* تطلق هذه العبارة على كل رسالة تجلب الدمار لحاملها . وأوريا قائد من قواد بنى اسرائيل أحب ملكهم زوجته فأراد أن يتخلص منه ليخلو له الجو ، فحمله رسالة الى كبير قواده يأمره فيها بارسال أوريا الى أخطر موضع فى ميدان القتال فكان أن بعث به اليه وقتل هناك . (المترجم)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكونتس هويوس بعد عشر سنوات من عدم السماح له بالزواج من اليصابات هاتسفلد من جراء ظروف مضعضعة كهذه

قطعت كل الجسور

بيد أن بسمارك قد لاح فى هذا المطر المنهمر عليه كالرصاص من أعين معادية وكأنه يصغر فى السن ، فهو يفكر كما فكر ذات مرة : « للقرصان الواحد قرصان ونصف »
ويستدعى صاحب « النويه فرايه بريسه » ويملى عليه حديثا يهاجم فيه الحكومة لأول مرة منذ ٤٤ سنة هجوما صريحا . فقد اتهم الملك يومئذ بالجبن أمام الشعب والآن يتهم الحكومة بالغباوة فيقول : « من الطبيعى أن تستغل النمسا ضعف مفاوضينا وقلة حيلتهم فى المعاهدة التجارية . وترجع هذه النتيجة الى أنه قد خطا عندنا الى المقدمة رجال أبقيتهم أنا من قبل فى الظلام ، وكان ظهورهم لأن كل شىء تغير وتحول .. وعلى كل حال لم يعد مايربطنى شخصيا بالشخصيات الحالية وبمن خلفنى . فقد قطعت كل الجسور .. ونزع السلك الذى ربطنا بالروسيا . وليس فى برلين من له سلطة ولا فيها ثقة »

الخصمان

وتأخذ برلين ترتعد ، فاذا كان النيل من الثرثار الهرم لم ينجح فى محيط الخاصة فليشهر به على الملأ ، ويبدأ الخصمان نزالهما على مرأى من ألمانيا المضطربة ومشهد من أوربا الضاحكة ، فكل ضربة توجهها الحكومة تطيش ، وكل ضربة مقابلة تصيب ، فكابريفى يوعز بأن يكتب :

« اننا لانذكر فى تاريخ الامبراطوريات ، دع عنك الامبراطورية الألمانية ، مسلكا كهذا المسلك من سائس معتزل . ويظهر أن الأمير يريد أن يعرض مركبة الريخ للأخطار فيما نعانيه فى تسييرها من عسر ، وأن يثير سوء الظن بها فى عنف وبكل قواه . فهل هذا من الوطنية ؟ ان ذكرياته قد أخذ يلم بها الاضطراب .. وليس من يستطيع أن يقدر مبلغ الضرر الذى يريد البرنس أن يلحقه بوطنه »

لكن بسمارك يثبت فى اليوم التالى أنه صحفى ذكى اذ يزعم أن هذا المقال قد كتبه محرر الصحيفة فيسعه فى تهكم أن يدق ظهر الحكومة المتوارية بهذا القول : « مثل هؤلاء الرجال المجربين المهذبين الذين يديرون دفة الدولة الآن لايمكن أن يتواروا خلف المقال الغبى الجرىء ، ومن الاهانة لهم أن نعزوه اليهم . ويجد البرنس انه مما يترك فى النفس اثرا مضحكا أن يعتلى المجرر بنتر المنبر ويعظه من فوقه .. انه ليرحب اذا أريد مقاضاته ، ولا يمانع أن تختم حياته السياسية ختاما دراميا »

بعد هذا الرد يأخذ سخط ألمانيا فى الزوال ويتحول الى ابتسام مريح ، لكن سادة برلين يفقدون بقية صوابهم ، فهم لاينازلون بسمارك وحده ، بل

ينازلون معه نصف الأمة ، فينشرون فى ريشأنتسايجر تلك التعليمات المنطوية على الجبن ، واذا كان كل ألمانى يستطيع أن يقرأ فى صحيفته كيف يهين المستشار الجديد المستشار القديم ، فقد صعد الدم الى رؤوس الجميع وغلا فى قلوبهم . فقد كان مئات الألوف فى أول الأمر يعدون اقالة بسمارك عملا جريئا لكنه منقذ ، وأن الامبراطور برهن فيه على عبقرية ولباقة ، فالآن يرى مئات الألوف هؤلاء أنه كان ينقص الامبراطور فى هذا العمل اللباقة أيضا وهكذا يحدث أن صيحات العداوة التى كانت ترن أخيرا فى البلاد يغمرها هدير لم يلقه فى ألمانيا من قبل قط رجل لاتاج له ولا بذلة عسكرية

هبة الشعب

لقد وجب أن يبلغ بسمارك الثمانين قبل أن يغزو قلب الشعب الألمانى . فلقد عاش ستين عاما مع السياسيين أو النبلاء وحدهم ، معاديا للشعب كنائب ، مكافحا له كوزير بروسى ، عدوا للريخستاج كمستشار ، لايحيط به فى بيته أو فى ضياعه سوى أبناء طبقته ، لايتصل بأية حال بالمواطنين ولا بالمفكرين منهم ، غريبا عن المعلمين والأساتذة أجمعين ، غريبا عن كافة الحرف والفنون ، لايكاد يحس من شئون هذا الشعب خلال الحربين أو سيدا فى ضيعته سوى نسمة عابرة ، مع أنه لبث جيلا كاملا يعمل لرفاهيته كأمة

فاليوم يتدفق الناس فى كل مكان يمر به الشيخ فى سفره من فينا الى كيسنجن ، ترجو المدن أن يوليها مسرة استقباله ، فتكون هذه الشعوب التى آذاها أو كربها وهم أهالى سكسونيا وألمان الجنوب هى بالذات التى تكرمه الآن . وتسخر أوربا حين تقرأ نهى الحكومة البروسية لمدينتى هاله ومجديبورغ عن الاشتراك فى الحفاوة به ، وحين تنسحب جوقة الجيش الموسيقية فى كوابرج ، وهى من جاءت لتطبل وتزمر ، حتى لاتحتفل بعدو البلاد . لكن ألمانيا تهلل حين تقرأ وصف يوم يينا

يوم يينا

فهناك يهرع أهل المدينة وطلبة المدرسة العليا ومواطنو الضواحى والقرويون والمعلمون والأطفال والنساء الى السوق القديمة ، ويستقبل مدير الجامعة البرنس فى بيت لوتر ، وحين يخرجان الى الميدان الذى كانت تضىء فيه نار المخفر الفرنسى قبل تسعين عاما يجدان المدينة الألمانية الصغيرة مجتمعة الى الموائد بين النبيذ والجعة ، والاغانى والموسيقى ، يرنق عليها ابداعها وحب استطلاعها وتستغرق فى أحلامها ، فيخطو بينهم ، وهو دائما أطولهم ، ويتنقل فى سترة سوداء على حجارة الرصيف الخشنة ، ويلقى تسع خطب ليس فيها كلمة جوفاء . ويشير الى تمثال جوتس فون برليشنجن ويستشهد من جوته بكلماته حين يريد البطش بمن أهانه : « او لم تحمل صورة الامبراطور التى أكرمها ، ولو مرغت فى الوحل ، لالقمتك حجرا تغص به ! » وحين ينطق بالنصف الأول من كلمة جوتس الخشنة ، التى كانت على لسانه طيلة حياته ، ليختمه بعد ذلك بقوله : « يمكن أن يكون المرء نصيرا وفيا لأسرته المالكة ولملكه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وامبراطوره من دون ان يقتنع بحكمة مايتخذ وزراؤه . لست ممن يؤمنون بحكمة هؤلاء الوزراء ، ولن أمتنع كذلك فى المستقبل عن الجهر برأيى ! » — حين ينطق بذلك تهب حياله عاصفة « هوجاء » من الاستحسان

فهذه هى النغمة التى تطرب الألمان حين يجلسون فى أمسيات الصيف يحتسون النبيذ فى الميدان ولا يحملون تبعة أو مسئوليات . وهنا وفى المركبة التى لاتستطيع التقدم ينشد المئات يده ليهزوها وقد ظلوا جيلا يرتجفون من وطأتها ، فيمدها الى الجميع . ويظل ساعات أو أسابيع لايداخله تشككه المطبوع فيه ، ويتساءل أليس هؤلاء الناس أخلص طوية وأعمق وفاء من طبقته التى حسدته فى سلطانه ثم خانته بعد ذلك ، وأسقطته فى النهاية . وهو فى كل الاستقبالات وحفلات الطلبة ومواكب المشاعل التى جعلت من سياحته فى جنوب ألمانيا طريق النصر ، يدفعه تأثير هذا العطف وهذه المشاعر الدافئة الى التساؤل فى كل مرة أليس من الممكن أن يجعل هذا الشعب أقوى مما هو وأعظم سلطانا . لقد تبين بسمارك متأخرا ، وتحت ضغط ماارتكب فى حقه من ظلم ، هذا الفوات الكبير ، فالشيخ يكرر انذاراته المتأخرة فى أول خطب شعبية ألقاها فى حياته ، وخطبها فى البلديات وأقبية الجعة ، وفوق الشرفات وفى الميادين العامة ، من درسدن الى ميونيخ ، فيقول :

تحول كبير

« ان جوهر الملكية الدستورية التى نعيش فى ظلها هو تعاون الارادة الملكية مع اقتناع الشعب المحكوم . ولعلى قد ساهمت من دون وعى فى خفض نفوذ البرلمان الى مستواه الحالى . ولست أرغب فى أن يبقى على الدوام فى هـذا المستوى . بل انى لأود أن يصل البرلمان ثانية الى أغلبية ثابتة : فمن دون هذه الأغلبية لايبلغ السلطة التى يحتاج اليها .. فلايزال واجب نواب الشعب ان ينتقدوا الحكومة ويراقبوها ويحذروها ويقودوها فى ظروف بعينها .. فاذا لم يوجد مثل هذا الريخستاج كان هذا مدعاة لقلقى على دوام تطورنا القومى وطادته .. ومن قبل كان كل سعيى موجها الى تقوية الشعور الملـكى فى الشعب فكانت البلاطات والأوساط الرسمية تحتفل بى وتشكر لى ذلك ، لكن الشعب كان يبغى رجمى . واليوم يهتف لى الشعب بينا تتجنبنى الدوائر الأخرى ويحدوها الخوف منى . وأعتقد أن هذا معناه تهكم الأقدار »

بهذه الرشاقة يستطيع هذا الاسلوبى العظيم ان يحدث أصعب تحول فى سيرته متى كان الغرض التأثير فى الألوف . لكن هذا فى الحقيقة تهكم محزن . وهو يعلم ذلك ، ومن هذه الردة ، التى جاءت متأخرة ، بالذات نجمت الهموم التى أقضت مضجعه وأرقت لياليه . وقد ظل هذا التفكير فى الدولة حياة كاملة يعتمد على نفسه ، ويتأمل نفسه ، ويعود الى نفسه . ولم يكن باعث بسمارك الصميم على عداوة الشعب رغبته فى التألق — فهذا القدر من احتقاره البشر يحميه من الغرور — ، ولا أنه كان من الضرورى أن يمسك بالسلطة ويسندها من فوق ، كلا ، بل كان الدافع الأقوى هو اعتداد رجل بنفسه يشعر أنه من

ناحيةذهنه عبقرىعريق لكنهيحسدائما أنه بدمهسليل أرفعطبقة ، وأنهيريد أن يحكم بها وحدها لانها طبقته ، وأن لم تكن فى عينه النافذة خير الطبقات بحال من الأحوال . كان الملك والنبيل أساس الدولة ، فاذا منح الشعب قانونا انتخابيا مماثلا كان هذا تسليما اجباريا لروح عصر يقترب فى الظلام ، واضعاف البرلمان واخضاعه دائما لسلطة الملك قد كان الفكرة الأساسية عند مؤسس الدولة هذا ثم كان شغله خلال عشرات السنين

تبين متأخر

على أن الملكية القوية التى كان لاينفك يتحدث بها أمام اللاندتاج والريخستاج ويضرب على نغمتها لم تكن فى الحقيقة سوى سلطة صورية كتلك السلطة الانجليزية التى كافح مثالها ، ولم يكن سوى الشخص ماتفيأت ظله هذه السلطة ، وقد كانه المستشار لا الشعب . فقد كان على علم بتلك الخدعة الكبيرة التى خدع بها الشعب ، ولم يدع الخارج يفطن الىتلك اللعبةالديكتاتورية التى كانت قائمة بين الامبراطور والمستشار . وقد كان الريخ ريخه فهو وحده الآمر فيه والناهى : وعلى هذا النحو وحده أمكن اعتداده بنفسه هذا الاعتداد الذى لم يسمع به أن يجد راحته فى العمل . حتى وقع المستحيل : فالملكية التى ابث ثلاثين عاما يعلن عن قوتها فى نضاله مع ممثلى الشعب قد لبست اليوم جلدا آخر دفعة واحدة ، فظهرت بقوتها فجاءةوأسقطت وزيرهاومعلمها. فوقف هو برهة وحيدا الى جانب الشعب بلا أمراء يسندونه

واذ ينهض هذا الشعب أخيرا ليناصره على هؤلاء الأمراء يتبين بسمارك الشيخ خطأ حسابه ، ويتحول الى الشعب بنفس الحمية المطبوعة فيه مدفوعا ببواعثها التى رهنته من قبل بالملكية . وقد كان أشد ماينال من كبريائه التى لم تعرف قط الاعتذار أن ينتزع أمام مواطنيه وأمام أوربا من نفسه هذا الاعتراف : « لعلى قد ساهمت من دون وعى فى خفض نفوذ البرلمان الى مستواه الحالى »

تورية

ولما استقبله فى هذه الأسابيع فنانو ميونيخ فى حفلة ما ، كان على لينباخ أن يرفع قدحا ضخما من أقداح الرابطة مملوءا بجعة ميونيخ ، فلما رفعه ألفاه ثقيلا على يده فوضعه ثانية خشية أن يسقط منها . وهنا أسعفته البديهة فرن صوته فى القاعة يسرى فى نفوس الجميع قائلا : « من يعجز عن الامساك به فليضعه ! »

فى هذا الخاطر لخص الرسام النزاع . لكن بسمارك قال : « حين أسمع هتاف الجماهير المنتظرة وغناءها على مقربة من المحطة التى يدخلها القطار فى تؤده ورفق ، تطغى الغبطة على قلبى من أنى فى ألمانيا لست منسيا »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل العاشر

خط يده

ان طالع بسمارك كخط يده يؤكد الكثير عن كيانه . فالنمط المولود فى برج الأسد يمثل السلطة فاذا وقفت الشمس فى نفس الوقت فى برج الحمل دل ذلك على الشجاعة فاذا سيطر عليها المريخ كانت الشجاعة مضاعفة . وهى الى ذلك تقف فى مثلثها الى أورانوس السيار الدال على الدعوة الى تأدية رسالة . فبسمارك يشغل فى طالعه كل العلامات النارية الثلاث

وخط يده يبدى من الفهم أكثر مما يبدى من الخيال ، يبدى ارادة وطاقة واعتدادا بالنفس لكنه يبدى كذلك ضبطا للنفس وتمالكا ، وشعورا بالتناسق . وخط يده فيه فخر وعناد ومخالفة للعرف برغم نظامه ، ملىء بمباغتات انسان خاضع لأعصابه . والكتابة كبيرة من دون اصطناع للحجم على الأقل . وهى فى وسط العمر أكثر ماكانت انتظاما ينقصها الرغبة فى التأثير والتدفق كل النقص ، وهى فى الشيخوخة أكثر انقيادا وأرحب، عظيمة الأهمية لبقائها فى أساسها خلال خمسين عاما على ماهى عليه . فكتابته صنو خلقه وشخصيته

المجاهد القديم

وقد بقى الشيخ مجاهدا قبل كل شىء ، فحين طلب اليه كيرزلنج أن يصبح الآن شخصية منسجمة أجابه فى تحد بديع : « ولماذا أكون منسجما ؟ » ثم حين أنتظر زمر القاصدين اليه لتهنئته ببلوغه الثمانين أن يجدوا أنفسهم حيال شيخ متقاعد ، سمعوه فى شرفة قصره يلقى هذه الكلمات النارية : « ان حياة الخليقة قوامها النضال . فمن النبات فالحشرات الى الطيور ، ومن الطيور الجارحة الى الانسان فما فوقه حياة كلها نضال ! » فى هذه الحالة النفسية كان انتخابه لمجلس الريخستاج ، وكان تفكيره جديا فى أن « أرى الوجوه التى سيتخذها الجالسون على مائدة الوزراء حين أكون جالسا تحتهم .. اننى قطرة كيميائية تفكك كل شىء اذا ماصبت فى نقاش » . وحين يمتدح الرضى فيقول : « ماذا يمكن أن يكون أشقى من ريخ يعمر ألف سنة فى رضى عام يقتل الطموح ، ويشل التقدم ، ويؤدى الى ركود أدبى »

وقد ظلت مسيحيته طويلا مجرد شكل ، فالآن عليها العفاء . فالتشكك فى

النهاية كما كان فى البداية مستول عليه يتحرر منه أحيانا الى نوع من الصوفية الوثنية . والوحيد الذى جاز له أن يسأله ويستجوبه وهو صديق الصبا يفسر ذلك تفسيرا رفيقا ، اذ يكتب كايزرلنج عقب زيارته الأخيرة له يقول : « يظهر أن تدينه قد مر به .. مد وجزر .. وقد غفت بالشيخوخة الدوافع الغرامية وربما أيضا التطلع الى أن يكون الها يشعر بشعور الانسان . وهذا من شأنه أن يوضح العلاقة العميقة بين الحب والدين » . ويروى كيرزلنج مابعده آخر اعتراف لبسمارك اذ يقول : « يؤسفنى انى ابتعدت من الله فى غضون نضالى فى عشرات السنين الأخيرة . والآن بالذات ، فى هذا الوقت العصيب أحس بهذا البعد احساسا أليما »

ظل الله على الأرض

واذا ماشرع فى تأملاته الدينية يرجم بهذا أو ذاك يتولى أمرأته التقية العجوز الخوف . وكان مرة يقرأ صحيفة فألقاها بغتة من يده وتحدث على مسمع من أحد ضيوفه : « انى أود أن أعرف هل الثنائية التى تتخلل كياننا بأسره تمتد أيضا الى أسمى موجود . ان كل شىء عندنا اثنان وجزءان ، فالانسان يتألف من الروح والجسم ، والدولة من الحكومة والنيابة الشعبية ، والكيان البشرى كله يقوم على الصلة المتبادلة بين الرجل والمرأة . أجل ان هذه الثنائية تمتد الى شعوب بأسرها .. فأريد من دون تجديف فى حق الله ، أن أعرف أليس لربنا كائن الى جانبه يكمله كما تكملنا المرأة » . فتذكره يوحنا بالثالوث فى تهيب ، فيقول لها معارضا أنه مستعص على الفهم ، ويستطرد فى لهجته الأولى متسائلا فى صوت مرتفع : « هلا توجد بيننا وبين الله درجات ، وهل ليس عند الله كائن تحت تصرفه ، يستند اليه فى ادارة هذا الكون الذى لايحد ؟ اننى على سبيل المثال اذا لبثت أقرأ هنا فى الصحف كيف يشقى الناس عندنا وكيف يوزع الهناء والشقاء توزيعا غير عادل ، فاننى لابد مفكر دائما فى أننا قد اهتدينا الى رئيس أعلى يهيمن على أرضنا الصغيرة ولا ينفذ دائما مشيئة الهنا مصدر الخير جميعا ! »

فى مثل هذه النزعة الطبيعية تتطاير الشرارات اليقينية الأخيرة لكى تنطفىء. فهو لايستطيع أن يرى العالم الا دولة ، وحين لايجد مناصا من أن يعد الديان الأعظم كاملا فى كل شىء برغم الأخطاء الواقعة كلها يخلق لنفسه رئيسا أعلى يفسر كما قال فى مرة أخرى ، القوانين تفسيرا خاطئا ويطبقها كذلك تطبيقا خاطئا . انه يعود فى الشيخوخة الى التصورات الجرمانية التى لم تزايله فيما بينه وبين نفسه . ولان خشية الله هى خشية وخوف تراه يناهضها فى ساعات العناد والتحدى . وهو يرى فى طاقة الشمس التى تجلب الضرر فى المناطق الحارة السبب فى عبادة الشمس ، بينا الجرمانى يعبد البرق والرعد لنفس السبب . ثم يضيف الى ذلك قوله مزدريا : « كذلك هنا تبدو طبيعة الكلاب عند البشر : فهى تحب وتعبد من تخشاه »

ويقول لقنصل يروى له قصة نجاته من الزنوج : « اننا جميعا بيد الله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكن لعله خير مايعزى المرء فى مثل هذا الموقف ان يصطحب معه مسدسا جيدا كيلا يسافر وحده على الأقل »

صوفية

على أن الصوفية ليست غريبة عنه والخرافة تستفحل عنده فهو يقول : « انى أحب الانتباه الى علامات الطبيعة الخرساء فهى فى الغالب أمهر منا » . كذلك كثيرا مايتحدث عن الرقم القبلى* الذى حسب أن يموت فيه ، فيتنبأ حقا بأنه مادام لم يمت فى سنة ١٨٨٣ فسوف يموت فى سنة ١٨٩٨ : « ليس ثم من شيء واضح فى قرارته ، الضوء والشجرة وحياتنا نفسها ، فلماذا لاتكون ثمة أشياء ينكرها العقل المنطقى . لقد أوصى مونتينى بأن يكتب على قبره كلمة : ربما . وأود أنا أن يكتب على قبري : سنرى »

أيؤمن الشيخ بدوام عمله ؟ ان نداء بلاده لايغريه ، والشهرة لم تعمه قط . وماذا عساه أن يدور بخلده حين يجيئه أحد ولاة الصين ويستشيره كيف يحبط دسائس بلاط بكين ، أو حين يكتب اليه العرب يقولون ان اسمه معروف لديهم وارد فى لغتهم . لكن الألمان ؟ « كلهم صغار ضيقو الذهن . لايعمل واحدهم لمجموعهم ولا يحشو الا وسادته .. لقد كنا دائما ضيقى العطن فيما بيننا وبين أنفسنا ، كثيرى التساهل حيال الغرباء .. انه ليؤرقنى أن يدور بخلدى أنهم سيهدمون البناء الذى بنيته وزخرفته . عندئذ تنتهبنى الأفكار بالليل » . هكذا كان ينظر الى المستقبل تساوره الهموم التى تزايدت بعد سنة ١٨٨٠ ، وتعذبه استرابته القديمة بشقاق الأمة واسترابته الجديدة بمولاها

نظرات

وفى عيد ميلاده يقف فى الشرفة وقد أسكره تكريم الشعوب الألمانية له ، ولم يهمله سوى عدوه القديم ، مجلس الريخستاج ، الذى أبى أن يهنئه ، يقف فى الشرفة ينصح الشباب : « لاتنسابقوا مع الحاجة الى النقد أكثر مما يجب . اقبلوا مامنحنا الله اياه ، وما جهدنا فى انقاذه من تهديد الأوربيين الآخرين . فلم يكن ماأدينا بالشيء الهين » . بهذه الرقة يستطيع فى ساعة الاحتفال أن يخفى قلقه ، فهو يملك دائما ما لليد الرشيقة من أسلوب مغر ـ تلك اليد التى تهون العسير ، ويتطلع الطلاب الى الساحر الهرم ، يرقص على سمته ضوء المشاعل فى مظهر غريب ، ولا يفقهون تماما مايقول .

فالى هذا الحد تغيم نظرته الى المستقبل ، أما الى الماضى فنظرته لاتخيفه . وحين تظهر مذكرات أو تنشر رسائل يهتم لذلك ، وحين يشترى أحد المصارف رسائله الى مانتويفل يقول انه « ليست عندى أية فكرة عما تحتويه هذه الرسائل ، لكنى أظن أنى لم أكتب رسالة أخشى نشرها » . وهذا صحيح فحسب فى أنه لايخفى عن أحد مايغير من رأيه وحزبه ، وفى أنه لايحب أن

---

* نسبة الى طائفة خاصة من اليهود فى تعاليمها شيء من الصوفية (المترجم)

يعظ نفسه بمبادىء . وكونه يستطيع الآن أن يقرأ رسائل رون مطبوعةويراها تتداول فى التاريخ تحصى عليه حركاته وسكناته أمر يوليه سرورا . كذلك يجمع مارسم له من صور هزلية ، ويقرأ مرتاحا على ضيوفه ماذكر عن فم بسمارك القاسى وعينيه الحانقتين وحاجبيه الاشعثين . لكنه حين يؤتى له بنموذج لتمثاله وهو طاب يطيل التفرس فى ملامحه ، ويثبت أن الجمع بين الأصيل والديبلوماسى ، خطأ : وأن شفته السفلى كانت أقوى مما هى فى التمثال ، وانها تعبر عن المثابرة ، ولا تعبر الشفة العليا التى هى أضيق منها الا عن حب التسلط

وفاة يوحنا

لكنه حين تعوزه الدواعى الواقعية لخلاف أو سخر أو حين يجلس وحده ويسمع من بعيد خشخشة كالضجة التى تحدثها سكته الحديدية فانه لايباهى أبدا عندئذ بقدرته على تعرف الغيب ، بل يفزع من تذكر ماجرؤ عليه ويقول : « ان حياتى كلها كانت مقامرة عظيمة بمال الغير ، فلم يكن يسعنى قط أن أتنبأ على التحقيق هل تنجح خططى . وقد أثقل هذا التصرف بمال الغير على شعورى بالمسئولية وأرهقه ارهاقا هائلا .. ومازلت الى اليوم أبيت مؤرقا حين يجول بخاطرى أن الأمور كان يمكن أن تكون غير ذلك »

ويعجل مرض يوحنا الأخير بمضاعفة كآبته . فقد كانت أمنيته أن يقضى معها فى وقت واحد ، « انى لاأود أن أموت قبل امرأتى أو .. لكنها اذا دعاها الله الى جواره ، لاأحب أن أتخلف عنها » . وقد رغبت فى الانتقال الى فارتسن فنقلها اليها وهو شبه كسير ، وهناك تقيم ساكنة ، يعذبها ضيق التنفس . أما هو الذى بات لايملى الا القليل النادر من الرسائل ولا يكتب بنفسه أبدا فيبعث بعد وفاة أخيه الى أخته هذه السطور المؤثرة بخط يده : « اننى لايجوز لى أن أزيد فى اكتئاب يوحنا بكدرى ، فقدرتها على الحياة قليلة من غير ذلك ورهن بتأثراتها النفسية ، وقد تلقينا اليوم من بيل المسكين نبأ مكدرا عن نوبة نقرس جديدة .. وقد كنت من قبل أطرب اذا ما أمكننى المجىء الى فارتسن ، أما اليوم فلولا يوحنا مافكرت فى الذهاب اليها . انى أرغب فى مسكن لاأغادره الا فى النعش ، وأطلب الوحدة .. أخوك الوحيد التعب من الحياة قليلا ، والمؤمن بالله : ف.ب »

مرثية

وفى الخريف تودع الزوجة الحياة فى السبعين من عمرها . وقد كان يحدثها فى المساء على المائدة ، فلما أصبح الصباح كانت حين دخل عليها المخدع ، بلا حراك . وهنا يجلس الرجل الهائل فى رداء النوم ، عارى القدمين ، ويبكى كالطفل فقد حرم من لاتعوض . وانه لمما يلائم حياته المزدوجة جدا أن يقابل فى نفس المساء بين نهاية سلطانه ونهاية الوفاء له : « وان هذا الختام لاعظم من ختام عام ١٨٩٠ وهو أعمق أثرا فى تكييف حياتى .. ولو كنت الآن فى وظيفتى لاكببت على العمل . ان العزاء على عزيز . » وفى اليوم التالى يتناول من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اكليل وردة بيضاء ، ويتوجه الى كتبه ، ويخرج من بينها مجلدا عن تاريخ ألمانيا ويقول : « أريد أن أفكر فى شىء آخر »

بيد أن المكان يظل خاليا ، فلن يعوضه أحد من النظرة الهادئة المؤمنة التى كان فى استطاعته على الدوام أن يتأملها لينسى النضال والمتاعب دقائق . والآن يشكو الى أخته من بقائها بعيدة عنه : « ان هذا مايقع بالمثل من ولدى اللذين .. سعيا الى الاستقلال بعيدا عن ظل البيت الأبوى . ومارى عندى ابنة حبيبة ، لكنها كأنها أيضا مستعارة .. وما بقى لى قد كان يوحنا ، والاختلاط بها ، وسؤالى اليومى عن راحتها ، والاعراب عن شكرى الذى أتذكر به ثمانى وأربعين سنة . واليوم كل شىء حولى مقفر خاو . وشعورى ظالم ، لكنى لاأستطيع الا أن يكون هذا شعورى . اننى لأعد نفسى جاحدا لكل هذا الحب والتقدير اللذين باتا لى فى الشعب أكثر مما استحق . وقد لبثت أربع سنوات أغتبط بذلك ، لأنها كانت تغتبط به أيضا . أما اليوم فقد خبت حتى هذه الجذوة وأرجو ألا يدوم ذلك اذا قدر لى أن أعيش فوق ماعشت . سامحينى أيتها الأخت العزيزة ، اننى أشكو فلن تطول شكواى »

وتتمثل له فى وحدته أيامه الأولى فيقص بغتة مالم يقص من قبل : « لقد علمت بموت نابليون وأنا فى السادسة من العمر . وقد حمل الينا الخبر منوم مغناطيسى كان يعالج أمى فتمثل بشعر ايطالى مطلعه Egli fù — لقد كان ! »

لقد مضت ٦٦ سنة

هكذا تظهر البداية فى نهاية القرن فيسمع المرء من فمه أشياء فاتت تبعث من جديد ، وكأنما يعنى نفسه بشعر مانزونى : لقد كان . وتلفظ شفتاه العريقتان اسم كنيبهوف فى خفوت ويكتب الى صهره :

« عزيزى أوسكار . لقد بلغنا نحن الاثنين من العمر ما لن نعيش معه طويلا . أفلا نستطيع ان يرى أحدنا الآخر مرة أخرى ويكلمه قبل أن ننتقل الى دار البقاء . لقد مضت ٦٦ أو ٦٧ سنة منذ احتسينا فى الجمنازيوم أول قطرة من الجعة من الزجاجة . كان ذلك فوق السلم بجانب السنة الثالثة العليا . أفلا نشرب القطرة الأخيرة قبل فوات الوقت ؟.. انى أتوق الى سماع صوتك مرة أخرى قبل أن .. انك تسافر بالسكة الحديدية حين تغادر برلين ، فلم لاتستقل قطار هامبورغ بدل قطار شتيتين ؟ » وتبقى هذه الأسطر ملقاة لبقعة مداد ألمت بها ثم لاترسل الا فيما بعد . فانظر كيف يناشد المهجور رجلا لم يلتفت اليه فى حياته مرة ، وكيف يتعلق بآخر صوت لصديق اذ الكل قد ماتوا واذ ولداه يعيشان بعيدين عنه ! بيد أنه الآن كذلك مايزال عمليا ، يحسب السنة ، ويعين الموضع فى المدرسة . لكن المرء يشعر أنه لم يعد يضحك لتذكر هذه الأشياء

هل يغفو ذهنه فى هذا الضجر الكثير ؟ أنسى الامبراطورية ؟

لكنه لم ينس أعداءه مرة ، أعداءه الحاكمين . فانه يوم أدرك فى خريف عام ١٨٩٦ عواقب تحطيم المعاهدة الروسية وسمع بالقيصر فى باريس وبفرنسا تزخر بالروس ، وحين قرأ فى الصحف الالمانية أن الذنب فى قطع السلك واقع عليه ، هدر من جديد ، فهو لايريد أن يسمى وهو على قيد الحياة مخربا ، وهو يعرف من خربوا حيطته . فهو يجرد سيفه مرة أخرى ليضرب ضربة قاضية ، ويبسط للشعب الألمانى على من تقع تبعة العزلة الألمانية ويوعز الى صحيفته بالآتى :

« كانت الامبراطوريتان فى عام ١٨٩٠ متفاهمتين كل التفاهم على أنه اذا هوجمت احداهما وقفت الأخرى على الحياد المشرب بالعطف . هذا التفاهم لم يجدد بعد خروج البرنس بسمارك ، واذا كان مانعلمه عن الحوادث صحيحا فان الكونت كابريفى هو الذى رفض هذا التأمين المتبادل لا الروسيا فى حنقها على تغيير المستشار . ذلك أن الروسيا كانت مستعدة لتجديد هذا التأمين .. هكذا نشأت كرونستات وأنشد المارسيليز . فأول تقرب بين القيصرية المطلقة والجمهورية الفرنسية قد تم مما نعرفه بخطل السياسة الكابريفية »

افشاءات

وتصغى أوربا ، ويتذمر الألمان ، ولا يصيب المجاهد القديم الامبراطور بأشد من هذا . وترد رايشأنتسباجر متلعثمة :

« ان الحوادث الديبلوماسية التى من النوع المذكور هى من أخفى اسرار الدولة . وكتمان هذه الحوادث بذمة انما هو واجب دولى يضر خرقه والاستهانة به بمصالح هامة للدولة » . ويكتب آخرون : هذه خيانة للبلاد يعاقب عليها بالحبس فى زنزانة وبالأشغال الشاقة . لكن غليوم يبرق متشفيا الى فرانتس يوسف يقول : « سيقوى يقينك ويقين العالم من الآن لماذا أقلت البرنس »

ومع ذلك يبعث نفس هذا الامبراطور بتربتس فى الصيف التالى الى البرنس ليجتذب منه كلمة طيبة عن الأسطول . فيلزم هذا الصمت ويبقى مغلقا ، ويتحدث عوضا عن ذلك عن الامبراطور « بلا تحفظ » حتى يضطر السامع الى الاشارة الى بذلته الرسمية . ويختم بسمارك حديثه بقوله : « قل للامبراطور انى لأرغب الا فى أن يدعنى وشأنى ويتركنى أموت فى سلام » . بيد أن الشاب لايتركه ولا يدعه وشأنه على رغم كل مااتصل به عنه من اهانات له ، فهو يحس دائما مايجذبه الى الشيخ المسحور ، وقبل أن يموت بستة أشهر يقصد اليه مرة أخرى فى بيته من دون دعوة وفى حاشية كبيرة

الانذار الأخير

فهنا يجلس الشيخ أمام بابه على كرسيه النقال يستعرض الجميع وهم يمرون به ، لكنه حين أراد لوكانوس أن يمد يده التى ناوله بها خطاب الاقالة ظل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البرنس « كالتمثال لايحرك جارحة ونظر الى الفضاء وكأنه يتأمله من ثقب ، ولوكانوس واقف أمامه يختلج وجهه الى أن فهم فابتعد » . ويفكر رب البيت مع ذلك بعدئذ وضيوفه على المائدة كيف يمكنه أن ينذر ضيفه وخصمه مرة أخرى وهو من لاينتظر أن يراه ثانية : وهنا يخفى كبرياءه العريقة ويشرع يتكلم مع الامبراطور عن السياسة العالمية لأول مرة بعد سبع سنوات . فيرد الامبراطور بنكتة . فيعود بسمارك الى الحديث ، فيجيبه بنكتة ثانية فيرتعد حتى جنرالات البلاط ، ويهمس مولتكه الصغير : « هذا مخيف ! »

وهنا ينقلب بسمارك عرافا : فهو يحس الساعة تنقضي ومعها الأجل ، وهو لن يرى الشاب مرة أخرى ــ ذلك الذى فتت الريخ الذى أنشأه ، والعمل الذى أنفق فيه حياته . يرى أنه سيفقد يوما بلاده وتاجه ان عاجلا وان آجلا . فليقلها له ، فلعله يهزه صوت رجل فان . وبغتة يقول بسمارك « متظاهرا بعدم الاكتراث » ولكن بصوت يسمعه من على المائدة : « ياصاحب الجلالة ! مادام لك هذه الهيئة من الضباط ففى وسعك بلاشك أن تصنع كل شيء . فاذا لم تصبح لك . تغيرت الحال غير الحال » . ويصم الامبراطور أذنه فلا يسمع شيئا ، ويتحدث ،وينصرف

الجمهورية

لكن الشيخ يكرر انذاراته وتنبؤاته فى محفل من خلصائه فيتحقق كل انذار وكل تنبؤ :

« اذا عدل الحكم أمكن تجنب الحرب القادمة ، واذا ساء فسوف تستمر سبع سنوات . وستقرر المدفعية الحروب المقبلة وتفصل فيها . ويمكن تعويض الجنود عند الضرورة ، والمدافع لابد أن تصب فى زمن السلم .. ولعل الجمهورية أدنى الى الروسيا مما نظن .. وقد أحرز العمل فى كفاحه مع رأس المال معظم الانتصار ، وستكون هذه هى الحال فى كل مكان يكون فيه للعامل صوت فى الانتخاب . فاذا تم النصر النهائى فسيكون النصر فى جانب العمال »

وبهذه الجرأة انذاراته الأخرى لألمانيا ، ذلك أن صفاء ذهنه يعظم حتى يبيت فى النهاية اتهاما لنفسه : « لعل مسلكى المتمشى مع الواجب هو السبب فى النقص المؤسف فى العمود الفقرى فى ألمانيا وفى استفحال أنماط طلاب الوظائف والمتملقين على حساب احترام النفس .. كل شيء يتوقف على تقوية الريخستاج، ولايقع هذا الا بأن ينتخب له رجال مستقلون كل الاستقلال .. انه على وشك الانزلاق . ان مايجرى هو التسابق على الدهان والملق .. فاذا استمرت الحال على هذا المنوال فان المستقبل سيكون مظلما .. وفى اعتقادى أنه كلما تأخر وقوع الأزمات ازداد الخطر الذى تنطوى عليه . وقد كان دائما أفضل عندى أن لاأخضع لأحد من أن آمر الغير : واذن ، اذا شئتم ، لقد كنت جمهوريا فى رأيى . وقد يكون الله مدخرا لألمانيا عصر انحلال ثان يتلوه عصر مجد جديد : يقوم عندئذ على قاعدة الجمهورية بلاريب »

الفصل الحادى عشر

ان الغابة التى نشأ فيها بسمارك قد باتت مقامه الأخير . وقد قضت الزوجة وذهب الأصدقاء ، وماتت الكلاب والخيول التى أحبها ولم يبق منها أحد . وليس يتجه ذهنه الآن الى ولد أو حفيد . وقد تلاشت السلطة وزال الغيظ من قلة الحول والطول ، وتمشى الألم فى الأعضاءواستعرت نارالشيخوخة فيها ، وهو ، من اذا قص فى الثمانين سحر سامعيه وسكت الآخرون ـ هو من هذه حاله ينتهى فى النهــاية الى الصمت ، ويكاد لايتناول شرابا ، يجلس فوق كرسيه النقال على رأس المائدة يسمع حديث من هم أصغر منه سنا ، فلا يكون على المائدة سوى طيفه

الغــابة

لكن الغابة فى آخر سنة من حياة صاحبها باسقة مع ذلك تشوب خضرتهــا دكنة فهو ، بسمارك فى الثالثة والثمانين ، مايزال يخرج اليها صامتا : « فمايزال لى ملجأ ألجأ اليه هو الغابة » . أما الحقول فلم يعد يأبه لها ، بل ان مايستهويه هو صنوبرات دوجلاس التى غرسها قبل عشرات السنين ، فقلبه يهوى اليها ، وبعدها الى الحظائر الصغيرة فالأشجار الكبيرة التى هى أسنها جميعا ، والتى يسمع من بينها حفيف ذوات المائة . وحين يجتمع الزرازير خلف البيت يقول : « انها تعقد اليوم جلستها لاقتراب الربيع فيما أظن » . وحين تأتى فى المساء وتحط على الدكة يعرف فيها كل زرزور : « انها خمسة فقط ، وعددها سبعة، وقائدها يأتى آخرها . انها تذهب الى النوم وتنهض من النوم لاتعرف ألما » . ثم يركب الى البركة ، ويفكر كيف يمكن ابعاد الأوز والبط والجرذان فى عراكها الأبدى بعضها عن بعض . وحين أراد ضيف يلبس القبعة العالية الخروج والانصراف بمركبته أعطاه بسمارك قبعته المتراخية قائلا : « تكرم بأن تراك أشجارى فى هذه القبعة »

ذلك أن بسمارك يحب أشجاره أكثر من الضيف ، بل يحب أشجاره أكثر من ألمانيا ، فهى أجداد كما قال مرة . وهو يتخذها الآن مكانا للتقاعد . وقد انتقى من بين الأشجار صنوبرتين هائلتين أراهما لضيوف خلصاء وهو يقول : « هناك بين هاتين الشجرتين فى الأعالى أود لو اتخذت مكانى فى الهواء الطلق ووجدت راحتى حيث يدركنى نور الشمس وتهب على نسائم الريح المنعشة . أما التفكير فى هذه الصندوقة الضيقة فى أسفل فبغيض الى » . ثم أنه حين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتحدث الآن عن الجرمان القدامي وعن الهنود الحمر الذين كانوا يعلقون موتاهم فى أعالى الشجر ، لايجهل حقا أن قبره سيكون على التحقيق ضريحا يليق بمقامه كأمير وأن ماينقش على قبره قد نقش ، لكن قلبه الهرم يهفو الى مردة الغابة . ولو ترك وشعوره مااحتاج الى نقش أو قبر ، انما يريد الهواء ، ويريد الشمس

خيبة الأمل

بذا ينتهى بسمارك كما بدأ : مؤمنا بألوهية الكون ووثنيا ، وثوريا صميما . وقد أفصح عن ذلك بهذه الكلمة التى قالها لمن هم موضع سره ، ومع ذلك فانه يختار اليوم كما أختار ذات يوم صور اله المسيحيين ونعش النبلاء الذى سيضم رنكه ، وسيذكر نفسه على لوحة القبر خادم الملك الأمين وهو الرجل الذى لم يمكن أن يخدم أحدا والذى لبث أربعين عاما يأمر وينهى . لماذا بارح غاباته التى كان فيها مع النور والله وحدهما ملكا فى أرضه ؟ لماذا أدار ظهره للقروى والغابة وبلوط الوطن الذى بلغ من العمر المائة والذى يلعب ويمرح تحتها الغلام ، ويتطلع اليها الشاب ، ويلجأ الى ظلها رجل الدولة المتعب ، والتى مايزال وهو شيخ يسمعها مع حفيف غابة سكسونيا فى مهب الريح ؟ ماذا كسب قلبه من هذا الرحيل ؟

الارتياح ، لا . فالشيخ المارد يقف خائب الأمل فى تجرده المغتصب يفتش عبثا ، فى تفكيره ، عن ساعات الشعور بالهناء المجنح أيام أن كانت تستغرقه الأعمال . لاكمال ولا شهرة ولا لمعان قد أسكره ، لانصر ، وحتى شهوة الانتقام لم تنشه . انه يرى عمله ، وقد عرضه الخطر حماقة خلفائه وتخللته خفتهم ، يترنح فى القرن الجديد ، ويرى مابناه موهنا ، وما دبره مطعونا فيه ، ويرى بين هذا كله ، تفكيره السياسى مزعزعا . لم يعد الملك فى نظره السلطة العليا ، ولم يعد الشعب محتقرا . هنا يقف منزوعا عن طريقه ، مقتلعا ، فى ظلام مناطقه ، لايجد الجواب بعد عن مسائل شبابه النيهيلى فى الطريق الذى وطئه غلاماوسلكه شيخا ، صامتا يطويه الغاب

ألمـــانيا

لـكنه بعد ثلاثين عاما يقف الألمان عند قبره وينكسون الأعلام . فبهذه البساطة وهذه القوة كان عمله حتى أنه عاش رغم نبوءة المعلم . أما الأمراء الالمان الذين أقام الريخ على أكتافهم فتواروا فى الظلام ولم يجرد أحد منهم سيفا كان أمير فريدريكسروه خليقا أن يجرده وهو فى الثمانين . ومع ذلك بقى الريخ متماسكا بين مغريات أوربا . هذه الأمم التى لم يؤبه بسؤالها ، هذا الشعب الألمانى الذى كاد ألا يسمح له بقول نعم ، والذى ظل قبل ذلك ألف عام منشقا ، قد ظل كالبنيان المرصوص يشد بعضه فى الزلزال بعضا . عاش بعد الأشكال الدائله ولم يفقد مع الملوك حريته

ان ألمانيا تعيش . قد هجرها الأمراء فى ساعة الضيق ، لكن الشعب الذى عرفه بسمارك متأخرا قد صمد وأنقذ عمل بسمارك

انتهى